تفسير ابن عطية

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

المجلد الرابع

تحقيق وتعليق

الرحالة الفاروق   عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
السيد عبد العال السيد إبراهيم   محمد الشافعي الصادق العناني

مطبوعات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الشؤون الإسلامية - دولة قطر

رفع
المسَاهِم
غفر الله له ولوالديه

الطبعة الثانية
الدوحة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

طبعة جديدة
بصف وإخراج جديد

التنفيذ الطباعي
في مطابع دار الخير



للمراسلة: دمشق - سوريا - حلبوني - جادة الشيخ تاج
هاتف المكتب: ٠١١/٢٢٤٥٨٢٢ - تلفاكس: ٠١١/٢٢٢٢٦٩٤
هاتف المكتبة: ٠١١/٢٢٢٨٠٧٤ ص.ب: ١٣٤٩٢
E-mail: abualkhair@mail.sy
Website: www.Daralkhair.com

بيروت - لبنان - فردان - جنوب سيار الدرك - بناء الشامي
هاتف: ٠١/٨١٠٥٧١ - تلفاكس: ٠١/٨٦٥٦٩٧
ص.ب: ١١٣/٥٦٣٠ - الرمز البريدي: ١١٠٣/٢٠٦٠



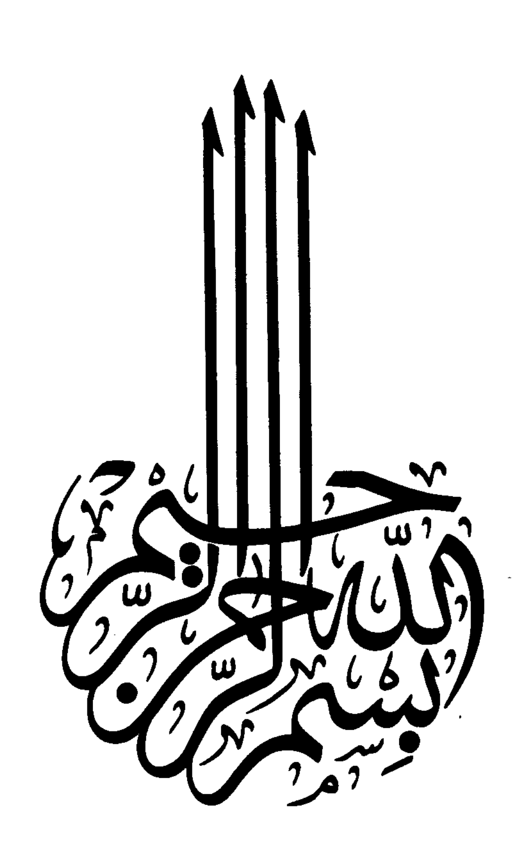
تفسير ابن عطية

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز




بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

هذه الآية خبر من الله عزَّ وجلَّ أنه ما بعث نبيًا في مدينة ـ وهي القرية ـ إلا أخذ أَهلها المكذبين له بالبأساءِ وهي المصائب في الآمال والهموم وعوارض الزمن، والضراءِ وهي المصائب في البدن كالأمراض ونحوها، هذا قول ابن مسعود رضي الله عنه وكثير من أهل اللغة، وحكي عن السدي ما يقتضي أَن اللفظتين تتداخلان[1] فتقال كل واحدة على المعنيين، و﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ ترجٍّ بحسب اعتقاد البشر وظنونهم، و﴿ يَضَّرَّعُونَ ﴾ أي ينقادون إلى الإيمان. وهكذا قولهم: «الحمَّى أَضرعتني لك»[2].

ثم قال تعالى إنه بعد إنفاذ الحكم في الأَولين بدَّل للخلق مكان السيئة ـ وهي البأْساءُ والضراءُ ـ الحسنَةَ ـ وهي السراءُ والنعمة ـ وهذا بحسب ما عند الناس، وإلا فقد يجيءُ الأَمر كما قال الشاعر[3]:

قَدْ يُنْعِمُ اللهُ بالبَلْوَى وإنْ عَظُمَتْ ... ويَبْتَلِي اللهُ بعضَ القَوْمِ بالنِّعَمِ

(١) في الأصول: تتداخل ـ وهو قطعاً من خطأ النساخ.

(٢) قال أبو عبيد: يضرب هذا في الذل عند الحاجة تنزل، قال المفضل: أول من قاله رجل من كليب يقال له: مُرَيْر، وكان له أخوان أكبر منه، وقد اختطفتهما الجن في غيابه، فلما عاد خرج في البحث عنهما، فمكث أياماً ثم رأى ظليماً فرماه فأصابه، ثم عندما وجبت الشمس أبصر بشخص قائم على صخرة ينادي:

يا أيُّها الرامي الظليم الأسودِ ... تَبَّتْ مَراميكَ التي لمْ تَرْشُد

فأجابه مرير:

يا أيَّها الهاتف فوق الصَّخرَةِ ... كَمْ عَبْرةٍ هَيَّجْتَها وعَبْرَة

فتوارى الجني عنه ـ ثم أصابته الحمى فغلبته عيناه، فأتاه الجني واحتمله وقال له: ما أنامك وقد كنت حذراً؟ فقال: «الحمى أضرعتني للنوم» فذهبت مثلاً. (عن مجمع الأمثال للميداني).

(٣) هو أبو تمام.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا إنما يصح مع النظر إلى الدار الآخرة والجزاء فيها، والنعمة المطلقة هي التي لا عقوبة فيها، والبلوى المطلقة هي التي لا ثواب عليها.

و﴿ حَتَّىٰ عَفَوا ﴾ معناه: حتى كثروا، يقال: عفا النباتُ والريشُ يعفو ـ إذا كثر نباته، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

ولكنَّـا نُعِـضُّ السَّيْـفَ مِنْهـا   بـأَسْوُقِ عـافِيَـاتِ الشَّحْـم كُـوم[١]

وعليه قوله ﷺ: «احفوا الشوارب وأعفوا اللِّحى»[٢]، وعفَا أيضاً في اللغة بمعنى دَرَسَ وبَلِي، فقال بعض الناس: هي من الألفاظ التي تستعمل للضدين، وأما قول زهير:

. . . .   علَـى آثـارِ مَـنْ ذَهَـبَ العفـاءُ[٣]

فيحتمل ثلاثة معان: الدعاءُ بالدرْس، والإخبار به، والدعاءُ بالنمو للنبات، كما يقال: جادته الدِّيَمُ وسقته العِهَادُ[٤]، ولما بدَّل الله حالهم بالخير لطفاً بهم فنموا رأى الخلق بعد ذلك ـ للكفر الذي هم فيه ـ أن إصابة الضراءِ والسراءِ إنما هي بالاتفاق، وليست بقصد كما يخبر النبي، واعتقدوا أن ما أصابهم من ذلك إنما هو كالاتفاق الذي كان لآبائهم فجعلوه مثالاً، أي: قد أَصاب هذا آباءَنا فلا ينبغي لنا أن ننكره، فأخبر الله تعالى أنه أخذ هذه الطوائف التي هذا معتقدها.

---

(١) الشاعر هو لبيد، والبيت من قصيدة له يفتخر بمآثره ويذكر سخاءَه وسخاء قومه. ونُعضُّ السيف: نجعله يَعَض كناية عن الضرب العنيف، وأسْوُق: جمع ساق والباءُ زائدة، والعافيات: الكثيرة اللحم وهي موضع الشاهد هنا، وكُوم: جمع كَوْماء، وهي الناقة العظيمة السنام، وهذه هي رواية الديوان.

(٢) رواه مسلم، والترمذي، والنسائي ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما، ورواه ابن عديّ في «الكامل» عن أبي هريرة. ورواه الطحاوي عن أنس مع زيادة (ولا تشبَّهوا باليهود)، ورواه ابن عدي أيضاً في «الكامل» والبيهقي في شعب الإيمان مع زيادة (وانتفواالشعر الذي في الآناف)، والرواية الأخيرة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه (راجع الجامع الصغير).

(٣) هذا عجز بيت لزهير، وقد استشهد به صاحب اللسان على أن (عَفَا) تأتي بمعنى (هَلَكَ)، وهو المعنى الذي أشار إليه ابن عطية في أول المعاني الثلاثة المحتملة لكلمة العفاءِ في البيت. والبيت في وصف دار، وهو بتمامه:

تَحَمَّـلَ أهْلُهـا مِنْهَـا فَبَـانُـوا   عَلَـى آثَـار مَـنْ ذَهَـبَ الْعَفَـاءُ

(٤) العِهَادُ ـ بكسر العين ـ أول المطر وهو الوسْمي أيضاً، وهو جمع مفرده: عَهْدَة والدِّيَم: جمع ديمةٍ وهي المطر يطول زمانه في سكون. (المعجم الوسيط).

وقوله: ﴿بَغۡتَةٗ﴾ أي فجأة وأخذة أسف وبطشاً للشقاءِ السابق لهم في قديم علمه. والسرَّاءُ: السرور والحَبَرَة. ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ معناه: وهم مكذبون لا يتحسسون لشيءٍ منه ولا يستشعرونه باستدلال ولا غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ الآية. المعنى في هذه الآية أنهم لو كانوا ممَّن سبق في علم الله أن يكتسبوا الإيمان والطاعات ويتَّصفوا بالتقىٰ لتَبع ذلك من فضل الله ورحمته وإنعامه ما ذكر من بركات المطر والنبات، ولكنهم لما كانوا ممن سبق كفرهم وتكذيبهم تبع ذلك أخذ الله لهم بسوءِ ما اجترموه. وكلٌّ مقدور، والثواب والعقاب متعلق بكسب البشر، وبسببه أُسندت الأفعال إليهم في قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ وفي ﴿كَذَّبُواْ﴾.

وقرأ السِّتَّة من القراءِ السبعة: ﴿لَفَتَحۡنَا﴾ بتخفيف التاءِ، وهي قراءَة الناس، وقرأ ابن عامر وحده، وعيسى الثقفي، وأبو عبد الرحمن: [لَفَتَّحۡنَا] بتشديد التاءِ. وفتح البركات: إنزالها على الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾[1]، ومنه قالت الصوفية: الفتوح والبركات: النُّمُوُّ والزيادات. و(مِنَ ٱلسَّمَاءِ) لجِهَة المطر والريح والشمس، (وَٱلۡأَرۡضِ) لجِهَة الإنبات والحفظ لما ينبت، هذا هو الذي يدركه نظر البشر، ولله خدام غير ذلك لا يُحصى عددهم، وما في علم الله أكثر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩٩ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝١٠٠﴾.

هذه الآية تتضمن وعيداً للكفار المعاصرين لمحمد ﷺ، لأنه لما أَخبر عما فعل في الأُمم الخالية قال: ومن يؤمن هؤلاء أن ينزل بهم مثل ما نزل بأُولئك؟ وهذا استفهام على جهة التوقيف.

---

(١) فاطر: ٢.



والبأْس: العذاب، و﴿بَيَاتاً﴾ نصب على الظرف، أي وقت مبيتهم بالليل، ويحتمل أَن يكون هذا في موضع الحال.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: [أَوْ أَمِنَ] بسكون الواو وإظهار الهمزتين، وقرأَ ورش عن نافع: [أَوَامِنَ] بفتح الواو وإلقاءِ حركة الهمزة الثانية عليها، وهذه القراءَة في معنى الأُولى ولكنها سهلت. وقرأَ عاصم، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿أَوَ أَمِنَ﴾ بفتح الواو وإظهار الهمزتين، ومعنى هذه القراءَة أنه دخل أَلف الاستفهام على حرف العطف، ومعنى القراءَة الأُولَى أنه عطف بـ (أَوْ) والتي هي لأَحد الشيئين، والمعنى: أَفأَمنوا هذا أَو هذا؟ كما تقول: «أَجاءَ زيد أَو عمرو»؟ وليست هذه (أَو) التي هي للإضراب عن الأَول، كما تقول: «أَنا أَقوم أَو أَجلس» وأَنت تقصد الإضراب عن القيام والإثبات للجلوس وتقريرَه، وقولنا: التي هي لأَحد الشيئين يعمُّ الإِباحة والتخيير، كقولك: جالس الحسن أَو ابن سيرين، أَو قولك: جالس الحسن أَو جالس ابن سيرين، وقوله: ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يريد: في غاية الغفلة والإعراض.

و﴿وَمَكْرَ ٱللَّهِ﴾ هي إضافة مخلوق إلى خالق، كما تقول: ناقة الله، وبيت الله، والمراد فعل يعاقب به مَرَدَة الكفار، وأُضيف إلى الله لما كان عقوبةَ الذنب، فإن العرب تسمِّي العقوبة ـ على أَي وجه كانت ـ باسم الذنب الذي وقعت عليه العقوبة، وهذا نصٌّ في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾[١] وهذا الموضع أيضاً[٢]، كأَنَّ كُفْرَهم بعد الرسالة وظهور دعوة الله مكرٌ[٣] وخديعة واستخفاف. وقيل: عومل ـ في مثل هذا وغيره ـ اللفظ دون المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[٤] و«إن الله لا يَمَل حتى تملُّوا»[٥] وغير ذلك.

---

(١) آل عمران: ٥٤.

(٢) يريد أن تسمية العقوبة باسم الذنب نص في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ وفي هذا الموضع أيضاً.

(٣) (مكرٌ) هذه خبر (كأن) واسم (كأن) هو (كفرهم) ـ والكلام باختصار: كأن كفْرَهم مكرٌ.

(٤) البقرة: ١٥.

(٥) الحديث متفق عليه ـ وهو عن عائشة رضي الله عنها، فقد (دخل عليها النبي ﷺ وعندها امرأة فقال: من هذه؟ قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها، قال: مَهِ، عليكم بما تطيقون، فو الله لا يَمَلُّ الله حتى تملُّوا، وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه).

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾ الآية. هذه ألف تقرير دخلت على واو العطف، و[يَهْدِي] معناه: يبين ويوضح، والهدى: الصباح، وأنشدوا على ذلك:

حَتَّى اسْتَبَنْتُ الهُدَى والْبِيدُ هاجِمَة ... يَسْبَخْنَ في الآل غُلْفاً أَوْ يُصَلِّينَا(١)

ويحتمل أن يكون المبيّن الله تعالى، ويحتمل أن يكون المبين قوله: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ﴾ أي علمهم بذلك. وقال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد: [يَهْدِي] معناه: يتبيَّن، وهذه أيضاً آية وعيد، أي: ألم يظهر لوارثي الأرض بعد أولئك الذين تقدم ذكرهم وما حل بهم أنا نقدر لو شئنا أن نصيبهم إصابة إهلاك بسبب معاصيهم كما فعل بمن تقدم، وكنا نطبع أي نختم عليها بالشقاوة، وفي هذه العبارة ذكر القوم الذين قصد ذكرهم، وتعديد النعمة عليهم فيما ورثوا، والوعظ بحال من سلف من المهلَكين. و﴿وَنَطْبَعُ﴾ عطف على ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ إذ المراد به الاستقبال، ويحتمل أن يكون [ونَطْبَعُ] منقطعاً إخباراً عن وقوع الطبع لا أنه متوعد به، ويبقى التوعد بالإهلاك الذي هو بعذاب كالصيحة والغرق ونحوه، وقرأ أبو عمرو: [ونَطْبَع علَى] بإدغام العيْن في العين وإشمام الضم، ذكره أبو حاتم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿تِلْكَ﴾ ابتداءٌ، و﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ قال قوم: هو نعت والخبر ﴿نَقُصُّ﴾، ويؤيد هذا أن القصد إنما هو الإخبار بالقصص.

---

(١) البيت لتميم بن أُبيّ بن مقبل ـ أبو كعب ـ شاعر جاهلي أسلم وعاش نيفاً ومائة سنة، وعُدَّ من المخضرمين، كان له عشرة أبناء كلهم شعراء. خلف أباه على زوجه الدهماء وفرَّق الإسلام بينهما. والهدى: الصباح كما قال ابن عطية هنا، وقال في اللسان: «الهُدَى: النهار كما قال ابن مقبل، وساق البيت». وفيه (يَخْشَعْن) بدلا من (يسْبَخن). وهاجمة: ساكنة من قولهم: هجم الشيءُ: سكن وأطرق، والبيدُ: جمع بيداء وهي الصحراء. والآل: السراب. ويُصَلِّينا: يَسْجُدْن ـ وغُلْفاً: جمع أغلف وهو ما عليه غلاف من الشيء. والشاعر يصور الصحراء في سكونها وهدوئها في ضباب أواخر الليل، ويشبه ما فيها من آكام وتلال بالراكعين الساجدين ـ إلى أن تبين له الصباح خلف هذه الصورة.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر عندي أن ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ هي خبر الابتداءِ، وفي ذلك معنى التعظيم لها ولمهلكها، وهذا كما قيل في ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾(١): إنه ابتداءٌ وخبر وكما قال ﷺ: «أولئك الملأُ»(٢) وكقول أمية بن أبي الصلت:

تِلْــــكَ المكَــــارِمُ.......... .... (٣)

وهذا كثير، وكأن في اللفظ معنى التحسُّر على القرى المذكورة، والمعنى: نقصُّ عليك من أنباءِ الماضين لتتبيَّن العِبر وتعلم المَثُلات التي أوقعها الله بالماضين.

ثم ابتدأ الخبر عن جميعهم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الكلام يحتمل أربعة وجوه من التأويل: أحدها أن يريد أن الرسول جاءَ لكل فريق منهم فكذبوه لأول أمره، ثم استبانت حجته، وظهرت الآيات الدالة على صدقه مع استمرار دعوته، فَلَجُوا هم في كفرهم، ولم يؤمنوا بما تبيَّن به تكذيبهم من قبل. وكأنه وصفهم ـ على هذا التأويل ـ باللجاج في الكفر والصرامة عليه، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويحتمل ـ في هذا الوجه ـ أن يكون المعنى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ أي: ما كانوا ليوفقهم الله إلى الإيمان بسبب أنهم كذبوا من قبل فكان تكذيبهم سبباً لأن يمنعوا الإيمان بعد.

والثاني من الوجه أن يريد: فما كان آخرهم في الزمن والعصر ليهتدي ويؤمن بما كذب به أولهم في الزمن والعصر، بل كفر كلُّهم، ومشى بعضهم على سنَن بعض في الكفر.

---

(١) البقرة: ٢.

(٢) هذا جزء من حديث رواه سلمة بن سلامة بن وقش، وسبق الحديث عنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٦٠].

(٣) هذا جزء من بيت سبق الحديث عنه في المجلد الثالث عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ والبيت بتمامه:

تِلْـكَ المكـارمُ لا قَعْبـانِ مِـنْ لَبَـنٍ شيبَـا بمـاءٍ فَعَـادا بَعْـدَ أَبْـوَالا



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

أَشار إلى هذا القول النقاش، فكأَن الضمير في قوله: ﴿كانوا﴾ يختص بالآخرين، والضمير في قوله: [كذَّبوا] يختص بالقدماءِ منهم.

والثالث من الوجوه يحتمل أن يريد: فما كان هؤلاء المذكورون بأَجمعهم ـ لو رُدُّوا إلى الدنيا ومُكِّنوا من العودة ـ ليؤمنوا بما كذبوا في حال حياتهم ودعاءِ الرسول لهم، قاله مجاهد وقرنه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾[1]، وهذه أَيضاً صفة بليغة في اللجاج والثبوت على الكفر، بل هي غاية في ذلك.

والرابع من الوجوه أَنه يحتمل أن يريد وصفهم بأَنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما قد سبق في علم الله تبارك وتعالى أَنهم مكذبون به، فجعل سابق القدر عليهم بمثابة تكذيبهم بأَنفسهم لا سيما وقد خرج تكذيبهم إلى الوجود في وقت مجيءِ الرسل. وذكر هذا التأْويل المفسرون وقرنوه بأَن الله عزَّ وجلَّ حتم عليهم التكذيب وقت أَخذ الميثاق، وهو قول أُبيّ بن كعب رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ الآية. أخبر تعالى أنه لم يجد لأَكثرهم ثبوتاً على العهد الذي أَخذه على ذرية آدم وقت استخراجهم من ظهره. قاله أَبو العالية عن أُبيّ بن كعب. ويحتمل أن يكون الكلام عبارة عن أَنهم لم يصرفوا عقولهم في الآيات المنصوبة، ولا شكروا نعم الله، ولا قادتهم معجزات الأنبياء، لأَن هذه الأُمور عهد في رقاب العقلاءِ كالعهود ينبغي أن يوفَّى بها، وأَيضاً فمن لدن آدم عليه السلام تقرر العهد الذي هو بمعنى الوصية، وبه فسر الحسن هذه الآية، فيجيءُ المعنى: وما وجدنا لأكثرهم التزام عهد وقبول وصاة. ذكره المهدوي. و﴿مِنْ﴾ في هذه الآية زائدة، إلا أَنها تعطي استغراق جنس العهد، ولا تجيءُ هذه إلا بعد النفي، و﴿إِنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة من عند سيبويه، واللام في قوله: ﴿لَفَاسِقِينَ﴾ للفرق بين (إن) المخففة وغيرها، و[إنْ] عند الفراءِ هي بمعنى (ما)، واللام بمعنى (إلا)، والتقدير عنده: وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين.

---

(١) الأنعام: ٢٨.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

الضمير في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾ عائد على الأنبياءِ المتقدم ذكرهم وعلى أُمَمِهم، والآيات في هذه الآية ـ عامٌّ في التِّسْع وغيرها[1]، وقوله تعالى: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ المعنى: فظلموا أنفسهم فيها وبسببها وظلموا أيضاً مُظهِرها ومتَّبعي مظهرها. وقيل: لما نُزِّلت [ظَلَمُوا] منزلة (كفروا) و(جحدوا) عديت بالباءِ، كما قال[2]:

قَدْ قَتَلَ اللهُ زياداً عَنِّي

فأنزل (قَتَل) منزلة (صَرَف)، ثم حذر الله تعالى من عاقبة المفسدين الظالمين، وجعلهم مثالاً يتوعَّد به كفرة عصر النبي ﷺ.

وفرعون: اسم كل ملك لمصر في ذلك الزمان، فخاطبه موسى عليه السلام بأعظم أَسمائه وأَحبها إليه إذ كان من الفراعنة كالنماردة في اليونان وقيصر في الروم وكسرى في فارس والنجاشي في الحبشة. وروي أنه موسى بن عمران بن فاهت بن لاوي بن يعقوب ابن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن، وروي أن اسم فرعون موسى عليه السلام الوليد ابن مصعب، وقيل: هو فرعون يوسف، وأنه عمّر نيّفاً وأربعمائة سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن قال إن يوسف المبعوث الذي أَشار إليه موسى في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[3] هو غير يوسف الصديق فليس يحتاج إلى نظر، ومن قال إنه

---

(١) يريد الآيات التسع التي ذكرها الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

(٢) أي الفرزدق، وقبله يقول:

كيف تراني قالِباً مِجَنِّي ... أقلِبُ أمري ظهرَه للبَطنِ

(٣) غافر: ٣٤.

يوسف الصديق فيعارضه ما يظهر من قصة يوسف، وذلك أنه ملك مصر بعد عزيزها، فكيف يستقيم أن يعيش عزيزها إلى مدة موسى؟ فينفصل أن العزيز ليس بفرعون الملك، إنما كان حاجباً له.

وقرأ نافع وحده [عَلَيَّ] بإضافة (عَلَى) إليه، وقرأ الباقون [عَلَى] بسكون الياء، قال الفارسي: معنى هذه القراءَة أن (على) وضعت موضع (الباء)، كأنه قال: «حقيق بألا أقول على الله إلا الحق» كما وضعت (الباءُ) موضع (عَلَى) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾[1] فيتوصل إلى المعنى بهذه وبهذه، وكما تجيءُ (عَلَى) أيضاً بمعنى (عن)، ومنه قول الشاعر في صفة قوسه:

أَرْمِي عَلَيْها وَهْيَ فَرْعٌ أَجْمَعُ ... وَهْيَ ثَلاثُ أَذْرُعٍ وإِصْبَعُ[2]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

و﴿حَقِيقٌ﴾ ـ على هذا ـ معناه: جدير وخليق، وقال الطبري: قال قوم: ﴿حَقِيقٌ﴾ معناه: حريص فلذلك وصلت بِعَلَى، وفي هذا القول بُعْد، وقال قوم: ﴿حَقِيقٌ﴾ صفة لـ ﴿رَسُولٌ﴾، تمَّ عندها الكلام، و﴿عَلَيَّ﴾ خبرٌ مقدم، و﴿أَن لَّآ أَقُولَ﴾ ابتداءٌ تقدم خبره، وإعراب ﴿أَنْ﴾ على قراءَة من سكَّن الياءَ خفض، وعلى قراءَة من فتحها مشدَّدةً رفعٌ، وقال الكسائي: في قراءَة عبد الله: [حَقيقٌ بألَا أَقولَ][3]، وقال أبو عمرو: في قراءَة عبد الله: [حَقيق أن أَقولَ][4] وبه قرأ الأعمش. وهذه المخاطبة ـ إذا تأملت ـ غاية في التلطف في القول اللِّين الذي أُمر عليه السلام به[5].

وقوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية. البَيِّنَة هنا إشارة إلى جميع آياته، وهي على المعجزة هنا أَدلُّ، وهذا من موسى عرض نبوته، ومن فرعون استدعاءُ خرق العادة الدال على الصدق.

---

(١) الأعراف: ٨٦.

(٢) البيت في (اللسان) غير منسوب. قال: «يقال: قوسٌ فرْع أي غير مشقوق، وقوسٌ فِلْقٌ أي مشقوق» ثم ذكر البيت.

(٣) جاء في «البحر» أن هذه هي قراءة أُبيّ.

(٤) أي من غير (عَلَى).

(٥) إشارة إلى ما في قوله تعالى ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وظاهر الآية وغيرها أَن موسى عليه السلام لم تَنْبَن شريعته إلا على بني إسرائيل فقط، ولم يدع فرعون وقومه إلا إلى إرسال بني إسرائيل، وذكَّره لعله يخشى أَو يزكى ويوحد كما يذكر كل كافر، إذ كل نبي داع إلى التوحيد وإن لم يكن آخذاً به ومقاتلاً عليه، وأمَّا أَنه دعاه إلى أَن يؤمن ويلتزم جميع الشرع فلم يرد هذا نصاً، والأَمر محتمل، وبالجملة فيظهر فرق ما بيْن بني إسرائيل وبين فرعون والقبط، ألا ترى أن بقية القبط وهم الأكثر لم يرجع إليهم موسى عليه السلام أَبداً ولا عارضهم، وكان القبط مثل عبدة البقر وغيرهم؟ وإنما احتاج إلى محاورة فرعون لتملكه على بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ الآية. رُوي أَن موسى عليه السلام قلق به وبمحاورته، فقال فرعون لأعوانه: خذوه، فأَلقى موسى العصا فصارت ثعباناً وهمت بفرعون فهرب منها، وقال السدي: إنه أَحدث وقال: يا موسى كُفَّه عني فكفَّه، وقال نحوه سعيد بن جبير.

و[إذا] ظرف مكان في هذا الموضع عند المبرد من حيث كانت خبراً عن جُثَّة، والصحيح الذي عليه الناس أَنها ظرف زمان في كل موضع، ويقال: إن الثعبان وضع أسفل لَحْييه في الأرض وأَعلاهما في شرفات القصر. والثعبان: الحية الذكر، وهو أَهول وأَجرأ، قاله الضحاك، وقال قتادة: صارت حيَّة شعراءَ ذكراً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: غرزت ذنبها في الأرض ورفعت صدرها إلى فرعون. وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ معناه: لا تخييل فيه، بل هو بين أنه حقيقة، وهو من أَبان بمعنى بان، أَو من بان بمعنى سُلب عن أَجزائه.

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ معناه: من جيبه أَو كُمه حسب الخلاف في ذلك، وقوله: ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ﴾ قال مجاهد: كاللبن أَو أشد بياضاً، ورُوي أنها كانت تظهر منيرة شفافة كالشمس تتألق، وكان موسى عليه السلام ذا دم أَحمر إلى السواد، ثم كان يردُّ يده فترجع إلى لون بدنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهاتان الآيتان عرضهما موسى عليه السلام للمعارضة، ودعا إلى الله تعالى بهما،



وخرق العادة بهما، وتحدى الناس إلى الدين بهما، فإذا جعلنا التحدي الدعاءَ إلى الدين مطلقاً فبهما تحدى، وإذا جعلنا التحدي الدعاءَ بعد العجز عن معارضة المعجزة وظهور ذلك فتنفرد حينئذ العصا بذلك، لأن المعارضة والعجز فيها وقعا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويقال: التحدي هو الدعاءُ إلى الإتيان بمثل المعجزة، فهذا نحو ثالث، وعليه يكون تحدي موسى بالآيتين جميعاً، لأن الظاهر من أمره أنه عرضهما للنظر معاً وإن كان لم ينص على الدعاء إلى الإتيان بمثلهما، ورُوي عن فرقد السبخي أن فم الحية كان ينفتح أَربعين ذراعاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾﴾.

الساحر كان عندهم في ذلك الزمن أعلى المراتب وأَعظم الرجال، ولكن وصفهم موسى بذلك مع مدافعتهم له عن النبوة ذمٌّ عظيم وحط، وذلك قصدوا إن لم يمكنهم أكثر، وقولهم: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ﴾ يعنون بأَنه يحكم فيكم بنقل رعيتكم في بني إسرائيل فيفضي ذلك إلى خراب دياركم إذا ذهب الخدمة والعمرة، وأَيضاً فلا محالة أنهم خافوا أن يقاتلهم، وجالت ظنونهم في كل مجال، وقال النقاش: كانوا يأْخذون من بني إسرائيل خرجاً كالجزية فرأَوا أن ملكهم يذهب بزوال ذلك. وقوله: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ الظاهر أنه من كلام الملأ بعضهم إلى بعض. وقيل: هو من كلام فرعون لهم، وروى كردم عن نافع [تأْمُرونِ] بكسر النون، وكذلك في الشعراء[1]. و[ما] استفهام، و[إذا] بمعنى (الذي)، فهما ابتداءٌ وخبر، وفي [تأْمُرون] ضمير عائد على (الذي) تقديره: تأمرون به، ويجوز أَن تجعل [ماذا] بمنزلة اسم واحد في موضع نصب

---

(١) في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥].

بـ [تأمرون] ولا يضمر فيه على هذا. قال الطبري: والسحر مأخوذ من: سَحَر المطرُ الأرض إذا جادها حتى يقلب نباتها ويقلعه من أُصوله، فهو يسحرها سحراً، والأرض مسحورة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما سحر المطر الطين إذا أفسده حتى لا يمكن فيه عمل، والسحر: الأَخْذة التي تأخذ العين حتى ترى الأمر غير ما هو، وربما سحر الذهن، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

وسَاحِرَةُ السَّراب مِن الْمَوَامي تُرَقِّصُ في نَوَاشِزِهَا الأُرُومُ[1]

أراد أنه يخيل نفسه ماءً للعيون.

ثم أشار الملأُ على فرعون بأن يؤخر موسى وهارون ويدع النظر في أمرهما ويجمع السحرة من كل مكان حتى تكون غلبة موسى بحجة واضحة معلومة بينة.

وقرأ ابن كثير: [أَرْجِئْهُو] بواو بعد الهاء المضمومة وبالهمز قبل الهاءِ، وقرأ أبو عمرو: [أَرْجِئْهُ] بالهمز دون واو بعدها، وقرأ نافع وحده في رواية قالون: [أَرْجِهِ] بكسر الهاءِ، ويحتمل أن يكون المعنى أخِّره فسهل الهمزة، ويحتمل أن يكون من الرجا بمعنى: أَطْمِعْه ورَجِّه، قاله المبرد، وقرأ ورش عن نافع: [أَرْجِهي] بياءٍ بعد كسرة الهاءِ، وقرأ ابن عامر: [أَرْجِئْهِ] بكسر الهاءِ وبهمزة قبلها. قال الفارسي: وهذا غلط[2]. وقرأ عاصم والكسائي: [أَرْجِهْ] بضم الهاءِ دون همز، وروى أبان عن

(١) البيت في (اللسان) وفي تفسير الطبري. والرواية فيهما: «وساحرة العيون» بدلا من «وساحرة السراب» ورواية الديوان: «وساجرة» بالجيم يريد أنها ممتلئة بالسراب ـ والموامي: جمع موماء (ومومـاة) وهي المفازة الواسعة، والنواشز: جمع ناشز وهو هنا المكان المرتفع من الأرض، إذ يريد الأماكن العالية المتناثرة في الموامي، والأرُوم: جمع إرَم على وزن (ضِلَع وضُلُوع) الأعلام، وهي حجارة تجمع وتنصب في المفازة يهتدى بها، وقيل: هي قبور عاد ـ وعمَّ به أبو عبيد في تفسير بيت ذي الرمة هذا كما قال في (اللسان) فهي عنده كل الأعلام التي تنصب في الصحراء للاهتداء بها، وكلمة (ترقص) إما أن تكون مبنية للفاعل، فالأروم فاعل، أو مبنية للمفعول، فالأروم زائدة فاعل، ويمكن أن يكون الفاعل ضميراً يعود على السراب والأروم مفعول، والشاعر يصور ما في سراب الصحارى الواسعة من سحر، فهو يبدو كأنه ماء للعيون ينعكس أثره على النواشز والأروم حتى لتبدو راقصة.

(٢) قال أبو حيان في «البحر»: ونسبة ابن عطية هذه القراءة لابن عامر ليس بجيد، لأن الذي روى ذلك هو ابن ذكوان لا هشام، فكان ينبغي أن يُقَيِّد فيقول: وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان» ـ ثم علَّق على قول الفارسي بأن هذا غلط فقال: «وما ذهب إليه الفارسي قول فاسد لأنها قراءة ثابتة متواترة روتها=



عاصم: ﴿أَرْجِهْ﴾ بسكون الهاءِ، وهي لغة تقف على هاءِ الكناية إذا تحرك ما قبلها، ومنه قول الشاعر:

أَنْحَى عَلَيَّ الدَّهْرُ رِجلا ويَداً ... يُقْسِمُ لا يُصْلِحُ إلاَّ أَفْسَدَا
فَيُصْلِحُ الْيَوْمَ ويُفْسِدهُ غَداً[(١)]

وقال الآخر:

لمَّا رأَى أَنْ لا دَعَهْ وَلاَ شِبَعْ ... مَالَ إلى أَرْطاةِ حِقْفٍ فَاضطَجَعْ[(٢)]

وحكى النقاش أَنه لم يكن يجالس فرعون وَلَدُ غَيَّة[(٣)] وإنما كانوا أَشْرَافاً، ولذلك أَشاروا بالإِرجاءِ ولم يشيروا بالقتل وقالوا: إن قتلته دخلَت على الناس شبهةٌ، ولكن أَغْلِبْه بالحجة. و﴿الْمَدَائِنِ﴾ جمع مدينة، وزنها فعيلة من مَدَن، أَو مَفعلة من دان يدين، وعلى هذا يهمز مدائن أَو لا يهمز، و﴿حَاشِرِينَ﴾ معناه: جامعين، قال المفسرون: وهم الشُرَط، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ﴾، وقرأَ حمزة والكسائي: [بِكُلِّ سَحَّار على بناءِ المبالغة، وكذلك في سورة يونس[(٤)]، وأَجمعوا على [سَحَّار] في سورة الشعراءِ[(٥)]، وقال قتادة: معنى

= الأكابر عن الأئمة، وتلقتها الأمة بالقبول، ولها توجيه في العربية، وليست الهمزة كغيرها من الحروف الصحيحة لأنها قابلة للتغيير». والحقيقة أنه يجب ألا نخضع القرآن لآراء علماء النحو أو اللغة ـ فما دامت القراءة ثابتة فهي فوق كلام النحويين واللغويين. وهي مصدر يؤخذ عنه ولا يُحْكَم عليه.

(١) الأبيات الثلاثة لدريد بن زيد بن نهد ـ وهو أحد المعمرين ـ راجع «الشعر والشعراء» لابن قتيبة، وأمالي السيد المرتضى ١ ـ ١٧٢ ـ والرواية في «الشعر والشعراء» هي:

أَلقى عليَّ الدَّهر رجْلا ويداً
والدهر ما أَصْلَح يوماً أفسدا
يُصْلِحه اليومَ ويُفسده غَداً.

(٢) الرواية المشهورة في البيت: «فاطَّجع» أراد: فاضطجع فأبدل الضاد لاماً، وهو إبدال شاذ. وقد روي: فاطَّجع بإبدال الضاد طاء ثم بإدغامها ـ وروي: فاضَّجع بإبدال الطاء ضاداً ثم إدغامها، قال المازني: إنَّ بعض العرب يكره الجمع بين حرفين مطبقين فيقول: الْطَجَع ويبدل مكان الضاد أقرب الحروف إليها وهو اللام، وهو نادر والبيت في اللسان ـ وقد نسبه للراجز ـ ولم يحدده ـ وابن عطية يستشهد بقوله: «لادَعَهْ» على إجراء الوصل مجرى الوقف فيقلب تاء التأنيث هاءً مع إسكانها، وأصله: «لا دَعَة».

(٣) يقال: «هو وَلَدُ غِيَّة» بفتح الغين وبكسرها أي: هو ولَدُ زنْية، بمعنى أنه كان نتيجة لإغواءٍ وإغراء، وهو نقيض قولهم «ولد رَشْدَه» عن «المعجم الوسيط».

(٤) في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩].

(٥) في قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧].



الإرجاءِ الذي أشاروا إليه: السجن والحبس.

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ الآية. هنا محذوفات يقتضيها ظاهر الكلام، وهي أنه بعث إلى السحرة وأمرهم بالمجيءِ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه بعث غلماناً فعلّموا بالفرَمَا[(١)].

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم في رواية حفص: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ على جهة الخبر، وقرؤوا في الشعراءِ[(٢)]: [آنَّ لَنَا] ممدودة مفتوحة الألف غير عاصم، فإنه لا يمدها، قال أبو علي: ويجوز أن تكون على جهة الاستفهام وحذف ألفها، وقد قيل ذلك في قوله: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[(٣)]، ومنه قول الشاعر:

أَفْـــرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الْكِـــرَامَ..... . . . . [(٤)]

وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي هنا وفي الشعراء: [آئِنّ] بألف الاستفهام قبل [إنّ]، وقرأت فرقة: [أئِنَّ] بدون مدّ، وقرأ أبو عمرو هنا وفي الشعراء: [أَيِنَّ][(٥)].

---

(١) الفَرَمَا ـ بالفاء والألف المقصورة ـ: مدينة بمصر ـ وفي معجم ياقوت أن الإسكندر والفرماء أخوان بنى كل منهما مدينة بأرض مصر وسماها باسمه.

(٢) تكررت الإشارة هنا إلى سورة الشعراء، ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١].

(٣) الشعراء: ٢٢.

(٤) هذا بيت لشاعر يسمَّى حضرميُّ بن عامر ـ وكان له تسعة إخوة فماتوا وورثهم، وكان له ابن عمٍّ اسمه جَزْءٌ وكان ينافسه، فزعم أن حضرمياً هذا سُرَّ بموت إخوته لأنه ورثهم، فقال حضرميٌّ:

أَفْـــرَحُ أَن أُرزَأَ الكـــرامَ وأن ... أُورَثَ ذَوْداً شَصَـــائصــاً نَبَـــلا؟

إن كنْـــتَ أَزْنَنْتَنـــي بهـــا كَـــذِبـــاً ... جَـــزْءٌ فـــلاقَيْـــتَ مثلَهَـــا عَجَـــلا

والذَّوْدُ: القطيع من الإبل بين الثلاث إلى العشرة (مؤنث) ـ وفي المثل: «الذَّوْدُ إلى الذَّوْد إبل» أي: القليل إلى القليل من الإبل كثير ـ والشصائص: جمع شَصُوص القليلة اللبن، والنَّبَل بفتح النون والباء هي الصغار من الإبل.

يريد: أأفرح لموت الكرام من إخوتي لأرث هذه الشصائص القليلة العدد القليلة اللبن؟ وهو يقول على سبيل الاستنكار. وروي أن جَزْءاً هذا فقد إخوته بعد هذا الشعر بقليل، فلما سمع حضرميٌّ الخبر قال: إنا لله، كلمةٌ وافقت قَدَرا، يريد قوله: «فلاقيت مثلها عَجَلا».

(٥) أي بتسهيل همزة (إن) بعد همزة الاستفهام. قاله ابن خالويه في كتاب «الحجة في القراءات السبع».



والأَجر هنا: الأُجرة، فاقترحوها إن غَلبوا، فأَنعم فرعون لهم بها وزادهم المنزلة والجاه، ومعناه: المقربين منِّي. ورُوي أَن السحرة الذين جاؤُوا إلى فرعون كانوا خمسة عشرة أَلفاً، قاله ابن إسحق، وقال ابن جريج: كانوا تسعمائة، وذكر النقاش أَنهم كانوا اثنين وسبعين رجلاً، وقال عكرمة: كانوا سبعين أَلفاً، وقال محمد بن المنذر: كانوا ثمانين أَلفاً، وقال السدي: مائتي ألف ونيفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الأَقوال ليس لها سند يتوقف عنده، وقال كعب الأَحبار: كانوا اثني عشر أَلفاً، وقال السدي: كانوا بضعة وثلاثين أَلف رجل مع كل رجل حبل وعصا، وقال أَبو ثمامة: كانوا سبعة عشر أَلفاً.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾ الآية. [أَنْ] في قوله: [إِمَّا أَنْ] في موضع نصب، أَي: إما أَن تفعل الإلقاءَ، ويحتمل أَن تكون في موضع رفع، أَي: إما هو الإلقاءُ. وخيَّر السحرة موسى في أَن يتقدم في الإلقاءِ أَو يتأَخر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا فعل المُدِلّ الواثق بنفسه، والظاهر أن التقدم في التخيلات والمخارق والحجج، لأَن بديلتها تمضي بالنفس، فَليُظْهِرَ اللهُ أَمر نبوة موسى قوّى نفسه ويقينه، ووثق بالحق فأَعطاهم التقدم، فنشطوا وسروا حتى أَظهر الله الحق وأَبطل سعيهم.

وقوله تعالى: ﴿ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ نص في أَن لهم فعلا ما زائداً على ما يحدثونه من التزييف والآثار في العصا وسائر الأَجسام التي يصرفون فيها صناعتهم. ﴿ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ بمعنى: أَرهبوهم، أَي: أَفزعوهم، فكأَن فعلهم اقتضى واستدعى الرهبة من الناس، ووصف الله تبارك وتعالى سحرهم بالعظم، ومعنى ذلك: من كثرته، ورُوي أنهم جلبوا ثلاثمائة وستين بعيراً موقرة بالحبال والعصي فلما أَلقوها تحركت وملأَت الوادي يركب بعضها بعضاً، فاستهول الناس ذلك واسترهبوا، قال الزجاج: قيل: إنهم جعلوا فيها الزئبق فكانت لا تستقر.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟
مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

﴿أَنْ﴾ في موضع نصب بـ ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ ﴾ أي بأن أَلْقِ، ويحتمل أن تكون مفسرة بمعنى (أي)، فلا يكون لها موضع من الإعراب.

وروي أَن موسى عليه السلام لما كان يوم الجمع، خرج متكئاً على عصاه ويدُه في يد أَخيه، وقد صُفَّ له السحرة في عدد عظيم حسبما ذكر، فلما أَلقوا واسترهبوا أَوحى الله تعالى إليه، فأَلقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، فعظم حتى كان كالجبل، وقيل: إنَّه طال حتى جاز النيل، وقيل: كان الجمع بالإسكندرية وطال حتى جاز مدينة البحيرة، وقيل: كان الجمع بمصر وأنه طال حتى جاز بذنبه بحر القلزم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول بعيد من الصواب مفرط الإغراق لا ينبغي أن يلتفت إليه، وروي أَن السحرة لما أَلقوا وأَلقى موسى عصاه جعلوا يرقون، وجعلت حبالهم وعصيهم تعظم، وجعلت عصا موسى تعظم حتى سدَّت الأُفق وابتلعت الكل ورجعت بعد ذلك عصاً فعندها آمن السحرة. وروي أَن عصا موسى كانت عصا آدم عليهما السلام، وكانت من الجنة، وقيل: كانت من العين الذي في وسط ورق الريحان[1]، وقيل: كانت غصناً من الخبيز. وقيل: كانت لها شعبتان، وقيل: كانت عصا الأَنبياءِ مختزنة عند شعيب عليه السلام، فلما استرعى موسى، قال له: اذهب فخذ عصا فذهب إلى البيت فطارت هذه إلى يده، فأَمره شعيب بردها وأَخذ غيرها ففعل فطارت هي إلى يده، فأَخبر بذلك

(١) هكذا في جميع الأصول «من العَيْن»، ولا نعرف المعنى الذي يريده، ولعلها من «العود» وأخطأ النساخ، أو لعلَّه أراد: من خيار ما في وسط الريحان، فإن لكلمة (العيْن) معاني كثيرة، ومن هذه المعاني: خيار الشيء، يقال: عين المتاع والمال: خياره وأفضله، ويقال: خرج في عينَةِ ثيابه، أي في أحسنها، بل يقال للشيء إذا كان حسناً في مَرْآة العَيْن: هذا عِينَةٌ، ولكن كل هذه محاولات لا تصل بنا إلى الحقيقة.



شعيباً فتركها له، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن ملكاً من الملائكة دفع العصا إلى موسى في طريق مدين.

و﴿ تَلْقَفُ ﴾ معناه: تبتلع وتزدرد، و﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ معناه: ما صوروا فيه إفكهم وكذبهم، وقرأ جمهور الناس: [تَلَقَّفُ][1]، وقرأ عاصم في رواية حفص: [تَلْقَف] بسكون اللام وفتح القاف، وقرأ ابن كثير في بعض ما روي عنه: [تَّلَقف] بتشديد التاء على إدغام التاءَيْن من (تتلقف)، وهذه القراءَة لا تترتب إلا في الوصل، وأما في الابتداءِ في الفعل فلا يمكن، وقرأ سعيد بن جبير: [تَلْقَم] بالميم، أي تبتلع كاللقمة.

ورُوي أَن الثعبان استوفى تلك الحبال والعصي أكْلا وأَعدمها الله عزَّ وجلَّ، ومد موسى يده إلى فمه فعاد عصاً كما كان، فعلم السحرة حينئذ أَن ذلك ليس من عند البشر فخروا سجداً مؤمنين بالله ورسوله.

وقوله تعالى: ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ ﴾ الآية. [وَقَع] معناه: نَزَل وجدّ، و﴿ الْحَق ﴾ يريد به سطوع البرهان وظهور الإعجاز واستمرار التحدي إلى الدين[2] على جميع العالم. و﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ لفظ يعم سحر السحرة وسعي فرعون وشيعته. والضمير في قوله: ﴿ فَغُلِبُوا ﴾ عائد على جميعهم من سحرة ومن سعي فرعون وشيعته، وفي قوله ﴿ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ إن قدّرنا انقلاب الجمع قبل إيمان السحرة فهم في الضمير، وإن قدرناه بعد إيمانهم، فليسوا في الضمير، ولا لحقهم صَغَارٌ يصفهم الله تبارك وتعالى به؛ لأَنهم آمنوا واستشهدوا رضي الله عنهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ الآيات ـ لما رأَى السحرةُ من عظيم القدرة ما تيقنوا به نبوَّة موسى عليه السلام آمنوا بقلوبهم، وانضاف إلى ذلك الاستهوال والاستعظام والفزع من قدرة الله تبارك وتعالى، فخرُّوا سجَّداً لله تعالى متطارحين، وآمنوا نطقاً بألسنتهم، وتَبَيَّنهم الربَّ بذكر موسى وهارون زوالٌ عن ربوبية فرعون وما كان يتوهم فيه من الجهال من أَنه رب الناس، وهارون أَخو موسى أَسَنُّ منه بثلاث سنين.

---

(١) أي بفتح اللام وتشديد القاف.

(٢) لعلَّ هنا نقصاً في الكلام نتج عن سقوط كلمات من النساخ، ولعل الأصل أن يكون ـ «واستمرار التحدي في الدعوة إلى الدين»، أو «واستمرار التحدي إلى يوم الدين».



وقول فرعون: ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ دليل على وهَن أمره، لأنه إنما جعل ذنبهم مفارقة الإذن ولم يجعله نفس الإيمان إلا بشرط. وقرأ عاصم في رواية حفص عنه في كل القرآن: ﴿آمَنتُمْ﴾ على الخبر، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: [آمَنْتُمْ] بهمزة ومدة على الاستفهام، وكذلك في طه والشعراءِ[1]، وقرأ حمزة والكسائي في الثلاثة مواضع: [أآمَنْتُمْ] بهمزتين الثانية ممدودة، ورواها الأعمش عن أبي بكر عن عاصم، وقرأ ابن كثير في رواية أبي الإخريط عنه: [وَامَنْتُمْ] وهي على ألف الاستفهام إلا أنه سهَّلها واواً فأجرى المنفصل مجرى المتصل في قولهم (تُوَده) في (تؤده). وقرأ قنبل عن القواس: [وآمَنْتُمْ] وهي على القراءَة بالهمزتين (أآمنتم) إلا أنه سهل ألف الاستفهام واواً، وترك ألف أفعلتم على ما هي عليه.

والضمير في [بِهِ] يحتمل أن يعود على اسم الله تبارك وتعالى، ويحتمل أن يعود على اسم موسى عليه السلام. وعنفهم فرعون على الإيمان قبل إذنه ثم ألزمهم أن هذا كان على اتفاق منهم، ورُوي في ذلك عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم أن موسى عليه السلام اجتمع مع رئيس السحرة واسمه شمعون، فقال له موسى: أرأيت إن غلبتكم أتؤمنون بي؟ فقال له: نعم، فعلم بذلك فرعون، فلذلك قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ ثم قال للسحرة: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾ الآية، فرجع فرعون في مقالته هذه إلى الخذلان والغشم وعادة ملوك السوءِ إذا غولبوا.

وقرأ حميد المكي، وابن محيصن، ومجاهد: [لأَقْطَعن] بفتح الهمزة والطاءِ وإسكان القاف، [وَلأَصْلُبَنَّ] بفتح الهمزة وإسكان الصاد وضم اللام، ورُوي بكسرها. و[مِنْ خِلَافٍ] معناه: يُمنى ويُسرى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر من هذه الآيات أن فرعون توعد، وليس في القرآن نصٌّ على أنه أنفذ ذلك وأوقعه، ولكنه رُوي أنه صلب بعضهم وقطع. قال ابن عباس رضي الله عنهما: فرعون أول من صلب وقطع من خلاف، وقال ابن عباس وغيره فيهم: أصبحوا سحرة وأمسَوْا شهداءَ، وأما التوعد فلجميعهم.

---

(١) أما في (طه) ففي الآية (٧١) ـ وأما في (الشعراء) ففي الآية (٤٩).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

هذا تسليم من مؤمني السحرة واتكال على الله وثقة بما عنده.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَنقِمُ﴾ بكسر القاف، وقرأ أبو حيوة، وأبو البرهسم، وابن أبي عبلة، والحسن بن أبي الحسن: [تَنْقَم] بفتحها، وهما لغتان. قال أبو حاتم: الوجه في القراءةَ كسر القاف، وكلُّ العلماءِ أنشد بيت ابن الرُّقَيَّاتِ:

مــا نَقَمُــوا مِــنْ بنــي أُمَيَّــةَ.... . . . .(١)

بفتح القاف. ومعناه: وما تعد علينا ذنباً وتُؤاخذنا به.

وقولهم: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ معناه: عُمَّنَا كما يَعُمُّ الماءُ من أُفرغ عليه، وهي هنا استعارة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما آمنت السحرة اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل، وحكى النقاش عن مقاتل أنه قال: مكث موسى بمصر بعد إيمان السحرة عاماً أو نحوه يريهم الآيات.

وقول ملأ فرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ مقالة تتضمن إغراءَ فرعون بموسى وقومه، وتحريضَه على قتلهم أو تغيير ما بهم حتى لا يكون لهم خروج عن دين فرعون. ومعنى ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾: ؟ أتترك؟ وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيَذَرَكَ﴾، ونصبه على معنيين: أحدهما أن يقدر: «وأن يذَرك» فهي واو الصرف(٢)، فكأنهم قالوا: أتذره وأن يذرك؟ أي: أتتركه وتركك؟ والمعنى الآخر أن يعطف على قوله: [لِيُفْسِدُوا]. وقرأ نعيم بن

---

(١) البيت من قصيدة لعُبَيْد الله بن قيس الرُّقيَّات مطلعها:

عــادَ لــهُ مِــن كَثيــرة الطَّــرَبُ فَعَيْنُــهُ بــالــدُّمــوع تَنْسَكِــبُ

والبيت بتمامه:

مــا نقَمــوا مــن بنــي أُمَيَّــةَ إلا أنهُــم يحلمــونَ إن غَضِبُــوا

(٢) واو الصرف هي واو تقابل واو العطف، فقد جعلها الكوفيون قسماً مقابلاً للعاطفة وسموها كذلك لأنها صرفت المضارع عن الرفع إلى النصب. والبحث طويل يمكن الرجوع إليه في مباحث العطف في كتب النحو.



ميسرة، والحسن بخلاف عنه: [ويَذَرُكَ] بالرفع عطفاً على قولهم: [أتذرُ]، وقرأ أنس ابن مالك: [وَنَذَرُكَ] بالنون ورفع الفعل على معنى توعد منهم، أو على معنى إخبار أن الأمر يؤول إلى هذا، وقرأ أُبيّ بن كعب، وعبد الله: «في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك»، قال أبو حاتم: وقرأ الأعمش: [وقد تركَكَ وَآلهَتَكَ]، وقرأ السبعة وجمهور من العلماء: ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ على الجمع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا على ما رُوي أن فرعون كان في زمنه للناس آلهةٌ من بقر وأصنام وغير ذلك، وكان فرعون قد شرع ذلك وجعل نفسه الإله الأعلى، فقوله ـ على هذا ـ ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[1] إنما هو بمناسبة بينه وبين سواه من المعبودات. وقيل: إن فرعون كان يعبد حجراً كان يعلقه في صدره كياقوتة أو نحوها، قال الحسن: كان لفرعون حنَّانة[2] معلقة في نحره يعبدها ويسجد لها. وقال سليمان التَّيْمي: بلغني أنه كان يعبد البقر، ذكره أبو حاتم.

وقرأ ابن عباس، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، وأنس بن مالك رضي الله عنهم أجمعين، وجماعة غيرهم: [وَإِلاَهَتَكَ]، أي: وعبادتك والتذلل لك، وزعمت هذه الفرقة أن فرعون لم يُبح عبادة شيء سواه، وأنه في قوله [الأَعْلَى] إنما أراد: «الأعظم والأكبر» دون مناسبة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان فرعون يُعْبَد ولا يَعْبُد.

وقرأ ابن كثير: [سَنَقْتُل] بالتخفيف، [ويُقَتِّلون] بالتشديد، وخففهما جميعاً نافع. وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [يُقتّلون] ـ و[سَنُقَتِّل] بالتشديد على المبالغة، والمعنى: سنستمر على ما كنا عليه من تعذيبهم وقطعهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ يريد: في المنزلة والتمكن من الدنيا، و﴿قَٰهِرُونَ﴾ يقتضي تحقير أمرهم، أي: هم أقل من أن يهتم بهم.

---

(١) النازعات: ٢٤.

(٢) حنَّانة (بتشديد النون): القوسُ المُصَوِّتَةُ، وهي (صفة غالبة). عن «المعجم الوسيط».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

لما قال فرعون سنقتل أبناءَهم وتوعدهم، قال موسى عليه السلام لبني إسرائيل يثبتهم ويعدهم ما عند الله: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾، وظاهر هذا الكلام كله وعد بغيب فكأَن قوته تقتضي أنه من عند الله، وليس في اللفظ شيءٌ من ذلك، و﴿الأَرْضَ﴾ أَرض الدنيا وهو الأَظهر، وقيل: المراد هنا أرض الجنة، وأَما في الثانية فأَرض الدنيا لا غير(١).

وقرأَت فرقة: [يورَثها] بفتح الراءِ، وقرأَ السبعة: ﴿يورِثها﴾ ساكنة الواو خفيفة الراء مكسورة، وروى حفص عن عاصم وهي قراءة الحسن ـ [يورِّثها] بتشديد الراءِ على المبالغة. والصبر في هذه الآية يعُمّ الانتظار الذي هو عبادة والصبر في المناجزات.

وقولهم: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ يعنون به الذبح الذي كان في المدة التي كان فرعون يتخوف فيها أَن يولد المولود الذي يخرب ملكه، والذي من بعد مجيئه يعنون به وعيد فرعون وسائر ما كان خلال تلك المدة من الإخافة لهم. وقال السدي، وابن عباس رضي الله عنهما: إنما قالت بنو إسرائيل هذه المقالة حين اتبعهم فرعون واضطرهم إلى البحر فضاقت صدورهم ورأَوْا بحراً أَمامهم وعدواً كثيفاً وراءَهم فقالوا هذه المقالة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبالجملة هو كلام يجري مع المعهود من بني إسرائيل من اضطرابهم على أَنبيائهم وقلة يقينهم وصبرهم على الدين، واستعطافُ موسى لهم بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾، ووعدُه لهم بالاستخلاف في الأَرض يدل على أَنه يستدعي نفوساً نافرة، ويقوّي هذا الظن في بني إسرائيل سلوكُهم هذه السبيل في غير قصة. وحكى

(١) يريد بالثانية كلمة (الأرض) في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فهي أرض الدنيا بدون خلاف.

النقاش أَنهم قالوا ذلك بمصر حين كلفهم فرعون من العمل ما لا يطيقون. ورُوي أنه كان يكلفهم عمل الطوب ويمنعهم التبْن ليشق عليهم عمله.

وقوله تعالى: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ تنبيه وحضٌّ على الاستقامة، وإن قُدّر هذا الوعد أَنَّهُ من عند الله فيتخرج عليه قول الحسن بن أبي الحسن: (عسى) من الله واجبة، وقد استخلفوا في مصر في زمن داود وسليمان، وقد فتحوا بيت المقدس مع يوشع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ الآية. أخبر أنه أَخذ آل فرعون في تلك المدة التي كان موسى يدعوهم فيها بالسنين وهو: الجدوب والقحوط، وهذه سيرة الله في الأُمم، وكذلك فعل بقريش. والسَّنَة في كلام العرب: القحط ومنه قول ليلى: «والناسُ مُسْنِتُونَ»، وسَنَة وعِضَة وما جرى مجراهما من الأَسماءِ المنقوصة تجمع بالواو والنون ليس على جهة السلامة لكن على جهة العِوَض، مما نقص وكذلك (أرض) توهموا فيها نقص هاءِ التأْنيث؛ لأنه كان حقها أن تكون (أَرضة)، وأَمَّا (حرَّة وإِحَرُّون)[1] فلأَن التضعيف أَبداً يعتل فتوهموه مثل النقص، وكسر السين من (سِنون وسِنين) وزيادة الأَلف في (إحرين) دليل على أَنه ليس بجمع سلامة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ رُوي أَن النخلة كانت لا تحمل إلا ثمرة واحدة، وقال نحوَه رجاءُ بن حيوة، وأَراد الله عزَّ وجلَّ أن ينيبوا ويزدجروا عما هم عليه من الكفر، إذْ أحوال الشدة ترق القلوب وتُرغب فيما عند الله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

---

(١) الحرَّة: الأرض ذات الحجارة السوداء النخرات كأنها أحرقت بالنار، والجمع حرَّات وحرار، قال سيبويه: «وزعم يونس أنهم يقولون: حرَّة وحرُّون جمعوه بالواو والنون يشبهونه بقولهم: أرض وأرضون لأنها مؤنثة مثلها»، قال: «وزعم يونس أيضاً أنهم يقولون: حرَّة وإحرُّون يعني الحرار، كأنه جمع إحرّة ولكن لا يتكلم بها»، (عن اللسان ـ حرر).



كان القصد من إصابتهم بالقحط والنقص في الثمرات أَن يُنيبوا ويرجعوا فإذا بهم قد ضلوا وجعلوها تشاؤُماً بموسى ، فكانوا إذا اتفق لهم اتفاق حسن في غلات ونحوها قالوا: هذا لنا وبسببنا وعلَى الحقيقة لنا ، وإذا نالهم ضر قالوا: هذا بسبب موسى وشؤمه ، قاله مجاهد وغيره. وقرأَ جمهور الناس بالياءِ وشدّ الطاءِ والياءِ الأَخيرة ﴿يَطَّيَّرُوا﴾ ، وقرأَ عيسى بن عمر ، وطلحة بن مصرف بالتاءِ وتخفيف الطاءِ: [تَطيَّرُوا] ، وقرأَ مجاهد: [تَشَاءَمُوا بموسَى] بالتاءِ من فوق وبلفظ الشؤم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ﴾ معناه: حظهم ونصيبهم ، قاله ابن عباس ، وهو مأْخوذ من زجر الطير ، فسمّي ما عند الله من القدر للإنسان طائراً لما كان الإنسان يعتقد أَن كل ما يصيبه إنما هو بحسب ما يراه في الطائر ، فهي لفظة مستعارة ، وقرأَ جمهور الناس: [طَائِرهُمْ] ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [طَيْرُهم]. وقال تعالى [أَكْثَرهم] وجميعهم لا يعلم إما لأَن القليل عَلِمَ كالرجل المؤمن وآسية امرأَة فرعون[1] ، وإما أَن يراد الجميع وتُجوّز في العبارة لأَجل الإمكان ، ويحتمل أَن يكون الضمير في قوله: [طَائِرُهُمْ] لجميع العالم ويجيءُ تخصيص الأَكثر على ظاهره ، ويحتمل أَن يريد: ولكن أَكثرهم ليس قريباً أَن يعلم لانغمارهم في الجهل ، وعلى هذا فيهم قليل مُعَدّ لأَن يَعْلَم لو وفَّقه الله.

و(مَهْمَا) أَصلها عند الخليل (ماما) فبدلت الأَلف الأُولى هاءً ، وقال سيبويه: هي (مه ما) خلطتا ، وهي حرف واحد ، وقال غيره: معناها: (مَهْ ومَا) جزاء ، ذكره الزجاج ، وهذه الآية تتضمن طغيانهم وعتوهم وقطعهم على أَنفسهم بالكفر البحت.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ الآية. قال الأَخفش: الطوفان: جمع طوفانة ، وهذه عقوبات وأَنواع من العذاب بعثها الله عليهم ليزدجروا ويُنيبوا. والطوفان: مصدر من قولك: طاف يطوف فهو عامٌّ في كل شيءٍ يطوف ، إلاَّ أَن استعمال العرب له كثر في الماءِ والمطر الشديد ، ومنه قول الشاعر:

---

(١) الرجل المؤمن هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]. وآسية امرأة فرعون نص القرآن الكريم على إيمانها ، حيث يقول عزَّ من قائل: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾[التحريم: ١١].



غَيَّـرَ الجِـدَّةَ مِـنْ آيَـاتِهَـا   خُرُقُ ٱلرِّيحِ وطوفانُ المَطَر[١]

ومنه قول أَبي النجم:

قَـدْ مَـدَّ طـوفَـانٌ فَبَـثَّ مَـدَداً   شَهْـراً شَـآبِيـبَ وشَهْـراً بَـرَداً[٢]

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك: إن الطوفان في هذه الآية المطر الشديد أَصابهم وتوالى عليهم حتى هدم بيوتهم وضيق عليهم. وقيل: طَمَّ فيض النيل عليهم ، وروي في كيفيته قصص كثير. وقالت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «إن الطوفان المراد في هذه الآية هو الموت»[٣] ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في بعض ما روي عنه: هو مصدر معمى ، عُني به شيءٌ أَطافه الله تبارك وتعالى بهم.

والجراد معروف ، قال الأخفش: هو جمع جرادة للمذكر والمؤنث ، فإن أَردت الفصل قلت: رأَيت جرادة ذكراً ، وروي أَن الله عزَّ وجلَّ لما والى عليهم المطر غرقت أَرضهم ومنعوا الزراعة ، فقالوا: يا موسى ادْع في كشف هذا عنا ونحن نؤمن ، فدعا ، فدفعه الله عنهم فأَنبتت الأَرض إنباتاً حسناً ، فطغوا وقالوا: ما نود أَنَّا لم نمطر ، وما هذا إلا إحسان من الله إلينا ، فبعث الله حينئذ الجراد ، فأَكل جميع ما أَنبتت الأَرض ، وروى ابن وهب عن مالك أَنه رَوى أَنه أَكل أَبوابهم وأَكل الحديد والمسامير ، وضيَّق عليهم غاية التضييق ، وترك الله من نباتهم ما يقوم به الرمق ، فقالوا لموسى: ادع في كشف الجراد ونحن نؤمن ، فدعا فكشف فرجعوا إلى كفرهم ، ورأَوا أَن ما أَقام رمقهم قد كفاهم ، فبعث الله عليهم القُمَّل وهي الدَّبَى صغار الجراد الذي يثب ولا يطير[٤] ،

---

(١) البيت في (اللسان ـ طوف) غير منسوب ، والجِدَّة: وجه الأرض ، وآياتها: ما فيها من علامات ، وخُرُق الريح: اشتداد هبوبها ، يقال: خَرُقت الريح (من باب ظرف وفرح) فهي خرقاءُ ، وطوفان المطر: المطر الغالب الذي يُغرق من كثرته ، يقول: غيَّر معالم هذه الأرض شيئان: شدة هبوب الريح ، ودوام هطول الأمطار الغزيرة.

(٢) الطوفان: المطر الغزير المغرق ، والشآبيب: جمع شُؤْبوب وهو الدفقة من المطر ، والبَرَد (بفتح الباء والراء): ما جمُد من المطر ، ويسمَّى حبّ الغمام.

(٣) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه. عن عائشة رضي الله عنها. (الدر المنثور).

(٤) الدَّبى: بفتح الدال المشددة والباء الخفيفة والألف المقصورة: الجراد قبل أن يطير ، والواحدة دباة ، وأرضٌ مدبِّية إذا أكل الدبَّى نباتها.



قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة. وقيل : هو الحَمْنان وهو صغار القردان[١] . وقيل : هو البراغيث ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: القُمَّل: السُّوس الذي يخرج من الحنطة. وقيل : القُمَّل: حيوان صغير جداً أسود ، وأنه بأَرض مصر حتى الآن ، قال حبيب بن أَبي ثابت: القُمَّل: الجِعلان[٢] ، وقرأ الحسن: [الْقَمْل] بفتح القاف وسكون الميم ، فهي ـ على هذا ـ بيِّنة ، إذ هو القمل المعروف. ورُوي أن موسى مشى بعصاه إلى كثيب أُهيل ، فضربه فانتشر كله قملاً في مصر ، ثم إنهم قالوا: ادع في كشف هذا فدعا ، ورجعوا إلى طغيانهم وكفرهم.

وبعث الله تبارك وتعالى عليهم الضفادع ، فكانت تدخل في فرشهم وبين ثيابهم ، وإذا همَّ الرجل أن يتكلم وثب الضفدع في فمه. قال ابن جبير: كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت الضفادع برية ، فلما أُرسلت على آل فرعون سمعت وأَطاعت ، فجعلت تقذف أَنفسها في القدور وهي تغلي فأَثابها الله بحسن طاعتها برْدَ الماءِ ، فقالوا: ادع في كشف هذا ، فدعا فكشف فرجعوا إلى كفرهم وعتوهم ، فبعث الله عليهم الدم فرجع ماؤُهم الذي يستسقونه ويحصل عندهم دماً ، فروي أَن الرجل منهم كان يستقي من البئر فإذا ارتفع إليه الدلو عاد دماً ، وروي أَنه كان يستقي القبطي والإسرائيلي بإناءٍ واحد فإذا خرج الماءُ كان الذي يلي القبطي دماً والذي يلي الإسرائيلي ماءً ، إلى نحو هذا وشبهه من العذاب بالدم المنقلب عن الماءِ ، هذا قول جماعة المتأَولين. وقال زيد بن أَسلم: إنما سلط الله عليهم الرعاف فهذا معنى قوله تعالى: [والدَّمَ].

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ التفصيل أَصله في الأَجرام إزالة الاتصال ، فهو تفريق شيئين ، فإذا استعمل في المعاني فيراد أنه فرق بينها وأُزيل اشتراكها وأَشكالها ، فيجيءُ من ذلك بيانها ، وقالت فرقة من المفسرين: [مُفَصَّلاَت] يراد به مفرقات بالزمن ، والمعنى أَنه كان العذاب يرتفع ثم يبقون مدة ـ قيل: شهراً ، وقيل: ثمانية أيام ـ ثم يرد الآخر ، فالمراد أَن هذه الأَنواع من العذاب لم تجيء جملة ولا متَّصلة ،

(١) الحَمْنَان: ضرب من القردان ، والواحدة: حَمْنَانة ، والقِرْدان بكسر القاف جمع قُراد بضمها ، والواحدة قُرادة ، وهي دويبة معروفة تتعلق بالحيوانات كالقمل في تعلقه بالإنسان.
(٢) الجِعلان (بكسر الجيم): جمع جُعَل (كَصُرَدَ) ، وهو دابَّة سوداءُ من دواب الأرض.



ثم وصفهم الله عزَّ وجلَّ بالاستكبار عن الآيات والإيمان، وبأَنهم كان لهم اجترام على الله تبارك وتعالى وعلى عباده.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

﴿ٱلرِّجْزُ﴾: العذاب، والظاهر من الآية أَن المراد بالرجز العذاب المتقدم الذكر من الطوفان والجراد وغيره، وقال قوم من المفسرين: الإشارة هنا بالرجز إنما هي إلى طاعون أَنزله فيهم، فمات منهم في ليلة واحدة سبعون أَلف قبطي، وروي في ذلك أَن موسى عليه السلام أَمر بني إسرائيل بأَن يذبحوا كبشاً ويُضَمِّخُوا أَبوابهم بالدم ليكون ذلك فرقاً بينهم وبين القبط في نزول العذاب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وهذه الأَخبار وما شاكلها إنما تؤخذ من كتب بني إسرائيل فلذلك ضعفت، وقولهم: [بِمَا عَهِدَ] يريدون: بذمامك وماتَتِّكِ إليه، فهي تعم جميع الوسائل بين الله تبارك وتعالى وبين موسى من طاعة موسى ونعم من الله تبارك وتعالى. ويحتمل أَن يكون ذلك منهم على جهة القسم على موسى، ويحتمل أَن يكون المعنى: ادع لنا ربَّك ماتاً إليه بما عهد إليه، ويحتمل ـ إن كان شعر أن بين الله تعالى وبين موسى في أَمرهم عهْد ما ـ أَن تكون الإشارة إليه. والأَول أَعم وأَلزم، والآخر يحتاج إلى رواية.

وقولهم: ﴿لَئِن كَشَفْتَ﴾ أي بدعائك ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾ ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ﴾ قسمٌ وجوابه، وهذا عهد من فرعون وملئه الذين إليهم الحل والعقد، ولهم ضمير الجمع في قوله: [لَنُؤْمِنَنَّ].

وأَلفاظ هذه الآية تعطي الفرق بين القبط وبين بني إسرائيل في رسالة موسى، لأَنه لو كان إيمانهم به على حدّ إيمان بني إسرائيل لما أَرسلوا بني إسرائيل ولا فارقوا



دينهم، بل كانوا يشاركون فيه بني إسرائيل. ورُوي أنه لما انكشف العذاب قال فرعون لموسى: اذهب ببني إسرائيل حيث شئت فخالفه بعض ملته فرجع فنكث. وأَخبر الله عزَّ وجلَّ أنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا عهدهم الذي أَعطوه موسى، و[إِذَا] ها هنا للمفاجأَة، و[إلى] متعلقة بـ[كَشَفْنَا]، والأَجل يراد به غاية كل واحد منهم بما يخصه من الهلاك والموت، هذا اللازم من اللفظ كما تقول: أَخذت كذا إلى وقت، وأَنت لا تريد وقتاً بعينه. وقال يحيى بن سلاَّم[1]: الأَجل هنا: الغرق.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإنما قال هذا القول لأَنه رأَى جمهور هذه الطائفة قد اتفق أن هلكت غرقاً فاعتقد أَن الإشارة هنا بالأَجل إنما هي إلى الغرق، وهذا ليس بلازم لأَنه لابد أَنه مات منهم قبل الغَرَق عالَمٌ وهم ممَّن أُخِّر وكشف عنهم العذاب إلى أَجل بلغه ودخل في هذه الآية، فأَين الغرق من هؤلاءِ؟ وأَين هو ممَّن بقي بمصر ولم يغرق؟

وذكر بعض الناس أَن معنى الكلام: فلما كشفنا عنهم الرجز المؤجل إلى أَجل هم بالغوه إذا هم ينكثون، ومحصول هذا التأْويل أَن العذاب كان مؤجلاً، والمعنى الأَول أَفصح لأَنه تضمن توعداً مَّا.

وقرأَ أَبو البرهسم، وأَبو حيوة: [يَنْكِثُون] بكسر الكاف، والنَّكث: نقْض ما أُبرم، ويستعمل في الأَجسام وفي المعاني، وقرأَ ابن محيصن، ومجاهد، وابن جبير: [الرُّجز] بضم الراءِ في جميع القرآن، قال أَبو حاتم: إلا أَن ابن محيصن كسر حرفين: ﴿رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[2]، ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[3].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

رآهما بمعنى آخر بمثابة الرِّجز والنَّتَن الذي يجب التطهر منه.

---

(١) هو يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، مفسر، فقيه، عالم بالحديث واللغة، أدرك نحو عشرين من التابعين وروى عنهم، ولد بالكوفة، ونشأ بالبصرة، ورحل إلى مصر وأفريقية فاستوطن، وتوفي بمصر بعد عودته من الحج. من كتبه: «تفسير القرآن» (ط)، قال ابن الجزري: «ليس لأحد من المتقدمين مثله» وله أيضاً «الجامع». وقال ابن الجزري: «وكان ثقة ثبتاً ذا علم بالكتاب والسُّنَّة»، وقال العسقلاني: «ضعفه الدارقطني في الحديث»، وذكره ابن حبان في الثقات. (الأعلام).

(٢) ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [الأنفال: ١١].

(٣) المدثر: ٥.



و[ٱلْيَمّ]: البحر، ومنه قول ذي الرّمّة:

دَوِّيَّـةٌ ودُجَـى لَيْـلٍ كَـأَنَّهمـا يَمٌّ تراطَنُ في حافاتِهِ الرُّومُ(١)

والباءُ في قوله: [بِأَنَّهُم] باءُ التسبيب، ووصف الكفار بالغفلة ـ وهم قد كذبوا وردوا في صدر الآيات ـ من حيث غفلوا عما تضمَّنه الآيات من الهدى والنجاة، فعن ذلك غفلوا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ كناية عن بني إسرائيل لاستعباد فرعون لهم، وغلبته عليهم. وقوله تعالى: ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ قال الحسن، وقتادة، وغيرهما: يريد أَرض الشام، وقال أَبو جعفر النحاس: «وقيل: يراد أَرض مصر وهو قول الحسن في كتاب النقاش». وقالت فرقة: يريد الأَرض كلها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا يتجه إمَّا على المجاز لأَنه مَلَّكهم بلاداً كثيرة، وإما على الحقيقة في أَنه ملَّك ذريتهم، وهو(٢) سليمان بن داود عليهما السلام، ولكن الذي يليق بمعنى الآية وروي فيها هو أَنه ملَّك أَبناءَ المستضعفين بأَعيانهم مشارق الأَرض ومغاربها لا سيما بوصفه

---

(١) هذا البيت من قصيدته المعروفة التي مطلعها: «أَأَن تَوَسَّمْتَ من خَرْقَاءَ مَنْزِلَةً» والدَّوِّيَّة (ويروى: داوِيَّة) الفلاة. واليَمُّ: البحر، والدُّجى: الظلام، والرَّطانة: كلام العجم وما ليس بعربي من اللغات، وحافاته: جوانبه، يُشَبِّه الفلاة وما تراكم عليها من ظلام الليل والبحر وأمواجه، وهو يريد البحر الذي يسكن على جوانبه الرومان وغير العرب كأنه يعني «البحر المتوسط».

(٢) هكذا في الأصول التي بين أيدينا، ولعله ذكر الضمير وأفرده تبعاً للخبر عنه (سليمان) ولعلَّ أصلها: «ومنهم سليمان».

الأَرض بأَنها التي بارك فيها، ولا يتصف بهذه الصفة وينفرد بها أَكثر من غيرها إلا أرض الشام لما بها من الماءِ والشجر والنعم والفوائد.

وحكى الطبري عن قائل لم يسمّه ـ وذكر الزهراوي أنه الفراءُ ـ أَن ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ نصب على الظرف، أَي: يستضعفون في مشارق الأَرض ومغاربها، وأَن قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ معمول لـ[أَوْرَثْنا] وضعفه الطبري[1]، وكذلك هو قول غير متجه. و[الَّتي] في موضع خفض نعت للأَرض، ويجوز أَن يكون في موضع نصب نعت لـ[مَشَارِقَ] و[مَغَارِبَ].

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أَي ما سبق لهم في عِلْمِهِ وكلامه في الأَزل من النجاة من عدوهم والظهور عليه، قاله مجاهد، وقال المهدوي: وهي قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[2]، وقيل: هي قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ﴾[3] الآية. وروي عن أَبي عمرو: [كلِمات].

و﴿يَعۡرِشُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: معناه: يَبْنون، وعرش البيت: سَقَفه، والعرشُ: البناءُ والتنضيد، وقال الحسن: هي في الكروم وما أَشبهها، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: بكسر الراءِ، وقرأَ الباقون «ابن عامر، وعاصم فيما رُوي عنه، والحسن، وأَبو رجاءٍ، ومجاهد»: بضمها، وكذلك في سورة النحل[4]. وهما لغتان. وقرأَ ابن أَبي عبلة: [يُعَرِّشُونَ] و[يُعَكِّفُون] بضم الياءِ فيهما وفتح العين وتشديد الراءِ والكاف مكسورتين.

---

(١) قال في تعليله للضعف: «ذلك قول لا معنى له، لأن بني إسرائيل لم يكن يستضعفهم أيام فرعون غير فرعون وقومه، ولم يكن له سلطان إلا بمصر، فغير جائز ـ والأمر كذلك ـ أن يقال: الذين يُستضعفون في مشارق الأرض ومغاربها». فإن قال قائل: فإن معناه: في مشارق أرض مصر ومغاربها، فإن ذلك بعيد من المفهوم في الخطاب مع خروجه عن أقوال أهل التأويل والعلماء بالتفسير.

(٢) القصص: ٥.

(٣) سبقت في الأعراف: ١٢٩.

(٤) في قوله تعالى ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورأيت الحسن البصري أنه احتج بقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية على أنه لا ينبغي أن يُخرج على ملوك السوءِ ، وإنما ينبغي أن يُصبر عليهم فإن الله تعالى يدمرهم ، ورأيت لغيره أنه قال: إذا قابل الناس البلاءَ بمثله وكلهم الله إليه ، وإذا قابلوه بالصبر وانتظار الفرج ، أتى الله بالفرج. وروي هذا القول أيضاً عن الحسن.

وقرأ جمهور الناس: [وَجَاوَزْنَا]، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [وَجَوَّزْنَا][١]، ذكره أبو حاتم والمهدوي، والمعنى: قطعناه بهم وجزعناه[٢] ، وهذه الآية ابتداءُ خبر عنهم ، قال النَّقَّاش: جاوزوا البحر يوم عاشوراءَ ، وأُعطي موسى التوراة يوم النحر القابل ، فبين الأمرين أحد عشر شهراً ، وروي أن قطعهم كان من ضفَّة البحر إلى الضفَّة المُنَاوِحة[٣] للأُولى ، ورُوي أنه قطع من الضفة إلى موضع آخر منها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فإما أن يكون ذلك بوحي من الله وأمر لينْفُذ أمرُه في فرعون وقومه ، وهذا هو الظاهر ، وإما بحسب اجتهاد موسى في التخلص بأن يكون بين موضعين أوعار وحايلات ، ووقع في كتاب النقاش أنه نيل مصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا خطأٌ لا تساعده رواية ، ولا يحتمله لفظ إلا على تحامل ، وإنما هو بحر القلزم. والقوم المشار إليهم في الآية العرب ، وقيل: هم الكنعانيون ، وقال قتادة وأبو عمرو الجوني: هم قوم من لخم وجذام. والقوم في الكلام: الرجال خاصة ، ومنه قول زهير:

---

(١) قال أبو حيان في «البحر»: «هذا مما جاء فيه فعَّل بمعنى فَعَل المجرد نحو قدَّر وقدَر ، وليس التضعيف للتعدية».

(٢) من قولهم: جزَعَ الوادي جزْعاً بمعنى قطعه عرضاً. (المعجم الوسيط).

(٣) المُنَاوحة: المقابلة. يقال: داره تُنَاوِحُ داري ، بمعنى تقابلها (المعجم الوسيط).

وَلاَ أَدْرِي وَسَـوْفَ إِخَـالُ أَدْرِي ... أَقَـوْمٌ آل حِصْـنٍ أَمْ نِسَـاءُ(١)

ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾، ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾(٢).

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: [يَعْكُفُونَ] بضم الكاف. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو في رواية عبد الوارث عنه: [يَعْكِفُون] بكسرها، وهما لغتان. والعكوفُ: الملازمة بالشخص لأمر مَّا، والإكباب عليه، ومنه الاعتكاف في المساجد، ومنه قول الراجز:

. . . . عَكْفَ النَّبيطِ يَلْعَبُون الفَنْزَجَا(٣)

والأصنام في هذه الآية قيل: كانت بقراً على الحقيقة، وقال ابن جريج: كانت تماثيل بقرٍ من حجارة وعيدان ونحوه، وذلك كان أول فتنة العِجْل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر من مقالة بني إسرائيل لموسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ أنهم استحسنوا ما رأوه من آلهة أُولئِكِ القوم، فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى وفي جملة ما يُتقرب به إلى الله، وإلا فبعيدٌ أن يقولوا لموسى: اجعل لنا صنماً نفرده بالعبادة ونكفر بربِّك. فعرفهم موسى عليه السلام أن هذا جهل منهم إذ سألوا أمراً حراماً فيه

---

(١) الرواية في (اللسان): «وما أدري» ـ وقد استشهد بالآية الكريمة ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ على أن كلمة (قوم) للرجال خاصة دون النساء، قال: «فلو كانت النساء من القوم لم يقل: ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾، ثم قال: «وكذلك قول زهير» وساق البيت.

(٢) الحجرات: ١١.

(٣) البيت للعجاج يصف ثوراً، وهو بتمامه:

فَهُـنَّ يَعْكُفْـنَ بِـهِ إذْ حَجَـا ... عكْـفَ النَّبيـط يلعبـونَ الفَنْـزَجَـا

بمعنى: يقبلن عليه. ومعنى حَجَا: وقف، من قولهم: حَجَا بالمكان: أقام وثبت. والنَّبيط والنَّبط كالحبيش والحبش في التقدير: جيل ينزلون سواد العراق، وهم الأنباط، والمعنى المراد الآن: الأخلاط من الناس من غير العرب، والفَنْزج والفنزجة: النزوان، أو هو اللعب الذي يقال له: الدَّسْتَبَند ويعني به رقص المجوس. وفي الصحاح: هو رقص للعجم يأخذ بعضهم بيد بعض. قاله في «تاج العروس» واستشهد عليه ببيت العجَّاج هذا. وقد سبق أن استشهد ابن عطية بهذا البيت..



الإشراك في العبادة، ومنه يتطرق إلى إفراد الأصنام بالعبادة والكفر بالله عزَّ وجلَّ. وعلى هذا الذي قلت يقع التشابه الذي قصه النبي ﷺ في قول أَبي واقد الليثي له في غزوة حنين إذ مرُّوا على دوح سدرة خضراءَ عظيمة: اجعل لنا يا رسول الله ذات أنواط كما لهم ذات أَنواط، وكانت ذات أَنواط سرْحة لبعض المشركين يعلقون بها أسلحتهم، ولها يوم يجتمعون إليها فيه، فأَراد أَبو واقد وغيره أَن يشرع ذلك رسول الله ﷺ في الإسلام، فرأَى رسول الله ﷺ أَنها ذريعة إلى عبادة تلك السرْحة فأَنكره وقال: (الله أكبر، قلتم والله كما قالت بنو إسرائيل: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ لتتبعن سَنَنَ مَنْ قَبْلكُمْ)(١).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولم يقصد أَبو واقد بمقالته فساداً. وقال بعض الناس: كان ذلك من بني إسرائيل كفراً، ولفظة (الإله) تقتضي ذلك، وهذا محتمل، وما ذكرته أَولا أصح عندي، والله تعالى أعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

أَعلمهم موسى عن الله عزَّ وجلَّ بفساد حال أُولئك القوم ليزول ما استحسنوه من حالهم فقال: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى أُولئك القوم، ﴿مُتَبَّرٌ﴾ أَي مهلك مدمرٌ رديءُ العاقبة، قاله السدي، وابن زيد. والتبار: الهلاك وسوءُ العقبى، وإناءُ متبَّر أَي مكسور وكسارته تِبر، ومنه تِبر الذهب لأَنه كِسارة، وقوله: ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ لفظ يعُمُّ جميع حالهم، ﴿وَبَـٰطِلٌ﴾ معناه: فاسد ذاهب مضمحل.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ الآية. أَمر الله تعالى موسى عليه السلام أَن يوقفهم ويقررهم على هذه المقالة، ويحتمل أَن يكون القول من تلقائه عليه السلام،

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وغيرهم. (فتح القدير).

و﴿أَبْغِيكُمْ﴾ معناه: أَطلب لكم، من بَغَيْتُ الشيءَ إذا طلبته، و[غَيْرَ] منصوبة بفعل مضمر، هذا هو الظاهر، ويحتمل أن ينتصب على الحال، كأَن تقدير الكلام: قال أَبغيكم إلهاً غير الله؟ فهي في مكان الصفة، فلما قدمت نصبت على الحال. و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لفظ عام يراد به تخصيص عالم زمانهم، لأَن أُمة محمد ﷺ أفضل منهم بإجماع، ولقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1]، اللهم إلا أن يراد بالفضل كثرة الأَنبياءِ منهم فإنهم فضلوا في ذلك على العالمين بالإطلاق.

ثم عدد عليهم في هذه الآية النِّعَمَ التي يجب من أَجلها أَلا يكفروا به ولا يرغبوا عبادة غيره. وقرأَت فرقة: [نَجَّيْنَاكُمْ]، وقرأَ جمهور الناس: ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾ وقد تقدم، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: [وَإِذْ أَنْجَاكُمْ] أَي: أَنجاكم الله، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام، ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ معناه: يحملونكم ويكلفونكم، تقول: سامه خطة خسف، ونحو هذا، ومساومة البيع ينظر إلى هذا وأَن كل واحد من المتساومين يكلف صاحبه إرادته، ثم فسَّر سوءَ العذاب بقوله: ﴿يُقَتِّلُونَ وَيَسْتَحْيُونَ﴾. و﴿بَلَآءٌ﴾ ـ في هذا الموضع ـ معناه: اختبار وامتحان، وقوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ إشارة إلى سوءِ العذاب، ويحتمل أن يشير إلى التنجية، فكأَنه قال: وفي تَنْجِيَتِكُمْ امتحان لكم واختبار، هل يكون منكم وفاءٌ بحسب النعمة؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتأويل الأَول أَظهر.

وقالت فرقة: هذه الآيات خاطب بها موسى من حضره من بني إسرائيل. وقال الطبري: بل خوطب بهذه الآية من كان على عهد محمد ﷺ تقريعاً لهم بما فعل بأَوائلهم وبما جازوا به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والأَول أَظهر وأَبين.

---

(١) آل عمران: ١١٠.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ ﴾.

قرأ أبو عمرو، وأُبي بن كعب، وأبو رجاء، وأبو جعفر، وشيبة: [وَوَعَدْنَا]، وقد تقدم في البقرة، وأخبر الله تعالى موسى عليه السلام بأن يتهيأ لمناجاته ثلاثين ليلة، ثم زاده في الأجل بعد ذلك عشر ليال، فذكر أن موسى عليه السلام أعلم بني إسرائيل بمغيبه ثلاثين ليلة، فلما زاده العَشْر في حال مغيبه دون أن تعلم بنو إسرائيل ذلك وجَسَت نفوسهم[(١)] للزيادة على ما أخبرهم به، فقال لهم السامري: إنَّ موسى قد هلَك وليس براجع وأضلهم بالعجل فاتَّبعوه، قاله كله ابن جريج. وقيل: بل أخبرهم بمغيبه أربعين، وكذلك أعلمه الله تبارك وتعالى، وهو المراد بهذه الآية، قاله الحسن. وهو مثل قوله تعالى: ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ﴾[(٢)]، وأنهم عدوا الأيام والليالي، فلما تم أربعون من الدّهر قالوا: قد أخلف موسى فضلوا، قال مجاهد: إن الثلاثين هي شهر ذي القعدة، وإن العشر هي عشر ذي الحجة، وقاله ابن عباس، ومسروق، وروي أن الثلاثين إنما وعد بأن يصومها ويتهيأ فيها للمناجاة ويستعد، وأن مدة المناجاة هي العشر، وقيل: بل مدة المناجاة الأربعون، وإقبال موسى على الأمر والتزامه يُحَسِّن لفظ المواعدة، وحيث ورد أن المواعدة أربعون ليلة فذلك إخبارٌ بجملة الأمر، وهو في هذه الآية إخبار بتفصيله كيف وقع. و[أربَعينَ] في هذه الآية وما بعدها في موضع الحال، ويصح أن تكون [أربعين] ظرفاً من حيث هي عدد أزمنة. وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب [وتَمَّمْنَاهَا] بغير ألف وبتشديد الميم، وذكر الزجاج عن بعضهم قال: لما صام ثلاثين يوماً أنكر خلوف[(٣)] فمه فاستاك بعود خروب، فقالت الملائكة: إنا كنا نستنشق من

---

(١) يقال: وجَسَ ـ من باب وَعَد ـ يَجِس وجْساً ووجسَانا بمعنى فزع مما وقع في قلبه أو سمعه من صوت.

(٢) البقرة: ١٩٦.

(٣) خلَف الشيءُ خلوفاً: تغير وفسد، يقال: خَلَف الطعام وخَلَف فم الصائم، وفي الحديث (لَخَلُوفُ فم=

فيك رائحة المسك، فأفسدته بالسواك فزيدت عليه عشر ليال، و﴿ثَلاثِينَ﴾ نصب على تقدير: أجلناه ثلاثين، أو مناجاة ثلاثين، وليست منتصبة على الظرف؛ لأن المواعدة لم تقع في الثلاثين، ثم ردد الأمر بقوله سبحانه: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ قيل: ليبيِّن أن العشر لم تكن ساعات، وبالجملة تأكيد وإيضاح[١].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ﴾ الآية. المعنى: وقال موسى حين أراد المضي للمناجاة والمغيب فيها، و﴿اخْلُفْنِي﴾ معناه: كن خليفتي، وهذا استخلاف في حياة كالوكالة التي تنقضي بعزل الموكل أو موته ولا يقتضي أنه متماد بعد وفاة، فينحلُّ ـ على هذا ـ ما تعلق به الإمامية في قولهم: إن النبي ﷺ استخلف علياً بقوله: (أنت مني كهارون من موسى)[٢]، وقال موسى: اخلفني فيترتب على هذا أن علياً خليفة رسول الله ﷺ. وما ذكرناه يحل هذا القياس.

وأمره في هذه الآية بالإصلاح، ثم من الطريق الآخر في ألا يتبع سبيل مفسد. قال ابن جريج: كان من الإصلاح أن يزجر السامري ويغيّر عليه.

ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاءَ إلى الموضع الذي حُدِّدَ لَه، وفي الوقت الذي عُيِّنَ له، وكلَّمه ربه قال تَمَنياً منه: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿أَرِنِىٓ﴾ بكسر الراءِ، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: [أَرْني] بسكون الراء.

والمعنى في قوله تعالى: ﴿كلَّمَهُ﴾ أي: خلق له إدراكاً سمع به الكلام القائم بالذات القديم الذي هو صفة ذات. وقال ابن عباس، وابن جبير: أدنى الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام حتى سمع صريف الأقلام في اللوح، وكلام الله عزَّ وجلَّ لا يشبه

= الصائم عند الله أطيب من ريح المسك).

(١) يبين المؤلف السبب في هذه الجملة ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وقد عُلم أن ثلاثين وعشرة أربعين فقال: ليُبيِّن أن العشر أيضاً من جنس الليالي، وفي الجملة كذلك تأكيد للعدد وإيضاح للمراد، وقيل: فائدتها إزالة توهم أن العشر من الثلاثين.

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي، والترمذي في المناقب، وابن ماجه في المقدمة، والإمام أحمد في مواطن كثيرة، وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص، ونصه: «سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي حين خلفه في بعض مغازيه: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

شيئاً من الكلام الذي للمخلوقين ولا في جهة من الجهات، وكما هو موجود لا كالموجودات، ومعلوم لا كالمعلومات، كذلك كلامه لا يشبه الكلام الذي فيه علامات الحدوث، والواو عاطفة [كَلَّمَه] على [جاءَ]، ويحتمل أن تكون واو الحال، والأول أبين. وقال وهب بن منبه: كلم الله موسى في ألف مقام، كان يُرى نور على وجهه ثلاثة أيام إثر كل مقام، وما قرب موسى النساءَ منذ كلمه الله تعالى. وجواب [لَمَّا] في قوله تعالى: [قَالَ]، والمعنى أنه لما كلمه وخصه بهذه المرتبة طمحت همته إلى رتبة الرؤْية وتشوّق إلى ذلك، فسأَل ربه أَن يريه نفسه، قاله السدي، وأَبو بكر الهذلي، وقال الربيع: قربناه نجياً حتى سمع صريف الأَقلام.

ورؤية الله عزَّ وجلَّ عند الأشعرية وأَهل السنة جائزة عقلاً، لأَنه من حيث هو موجود تصح رؤيته، قالوا: لأَن الرؤية للشيءِ لا تتعلق بصفة من صفاته أكثر من الوجود، إلا أَن الشريعة قررت رؤية الله تبارك وتعالى في الآخرة نصاً، ومنعت من ذلك في الدنيا بظواهر من الشرع، فموسى عليه السلام لم يسأَل ربّه محالاً وإنما سأَل جائزاً.

وقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ الآية. ليس بجواب من سأَل محالاً، وقد قال تبارك وتعالى لنوح: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[(١)]، فلو سأَل موسى محالاً لكان في الكلام زجرٌ ما وتبيين. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ نص من الله تعالى على منعه الرؤْية في الدنيا، و[لَنْ] تنفي الفعل المستقبل، ولو بقينا مع هذا النفي بمجرده لقضينا أنه لا يراه موسى أَبداً ولا في الآخرة، لكن ورد من جهة أُخرى بالحديث المتواتر أَن أَهل الإيمان يرون الله تعالى يوم القيامة، فموسى عليه السلام أَحرى برؤْيته[(٢)]. وقال مجاهد وغيره: إنَّ الله عزَّ وجلَّ

(١) هود: ٤٦.

(٢) من الأحاديث المتواترة في هذا المقام ما جاء في الصحيحين أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟ قالوا: لا، قال: «إنكم ترون ربكم كذلك» وفي الصحيحين عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا». والأحاديث الثابتة في ذلك كثيرة، ولا مجال للمناقشة معها في أن المؤمنين سيرون ربهم يوم القيامة. وإذا ثبت الحديث، فلا حجة أمامه.



قال لموسى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ ولكن سأتجلى للجبل الذي هو أقوى منك وأشد فإن استقر وأطاق الصبر لِهَيْبَتي فسيمكنك أنت رؤيتي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا إنما جعل الله الجبل مثالاً[1] وقالت فرقة: إنما المعنى: سأتبدى لك على الجبل فإن استقر لعظمتي فسوف تراني، وروي في كيفية وقوف موسى وانتظاره الرؤية قصص طويل اختصرته لبعده ولكثرة مواضع الاعتراض فيه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

قال المتأولون كالقاضي الباقلاني[2] وغيره: «إن الله عزَّ وجلَّ خلق للجبل حياة وحساً وإدراكاً يرى به ثم تجلى له، أي ظهر وبدا سلطانه، فاندك الجبل لشدة المطلع، فلما رأى موسى ما بالجبل صعق»، وهذا المعنى هو المروي عن ابن عباس. وأسند الطبري عن حماد بن زيد عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: فوضع الإبهام قريباً من خنصره، قال: فساخ الجبل،

(١) معنى هذا الكلام أن الرؤية علقت هنا باستقرار الجبل، وهذا دليل على الجواز ضرورة أن المعلّق بالممكن ممكن ـ ولو كانت الرؤية مستحيلة لعلقها بمستحيل. قال الإمام ابن كثير: «وقد أشكل حرف (لن) ها هنا على كثير من العلماء؛ لأنها موضوعة لنفي التأبيد فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة، وهذا أضعف الأقوال لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة».

(٢) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ـ أبو بكر، قاض، من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة، ولد في البصرة، وسكن بغداد وبها مات. كان جيد الاستنباط، سريع الجواب، أوفده عضد الدولة إلى ملك الروم فناظر علماء النصرانية بين يدي ملكها، من كتبه: «إعجاز القرآن ـ ط» «الإنصاف ـ ط» و«دقائق الكلام» و«الملل والنحل» و«كشف أسرار الباطنية» «وتمهيد الدلائل ـ خ» وغيرها. عن (وفيات الأعيان ودائرة المعارف الإسلامية) وعن (الأعلام).



فقال حميد لثابت: تقول هذا؟ فرفع ثابت يده فضرب صدره وقال: يقول رسول الله ﷺ ويقوله أَنس وأَكتمه أنا؟[1].

وقالت فرقة: المعنى: فلما تجلى الله للجبل بقدرته وسلطانه اندك الجبل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل يتمسك به المعتزلة تمسكاً شديداً لقولهم: إن رؤْية الله عزَّ وجلَّ غير جائزة، وقائله من أَهل السُّنَّة إنما يقوله مع اعتقاده جواز الرؤْية، ولكنه يقول: إنه أَليق بأَلفاظ الآية من أن تحمل الآية أن الجبل خلق له إدراك وحياة، وقال الزجاج: من قال: إن التقدير: «فلما تجلى أَمرُ ربّه» فقد أَخطأَ، ولا يعرف أَهل اللغة ذلك. وردّ أَبو علي في «الأَغفال» عليه.

والدَّكُّ: الانسحاق والتَّفَتُّت. وقرأَ النبي ﷺ، وابن مسعود، وأَنس بن مالك، والحسن، وأَبو جعفر، وشيبة، ومجاهد، وابن كثير، وأَبو عمرو، ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿دَكًّا﴾ وقرأَ حمزة، والكسائي، وابن عباس، والربيع بن خثيم، وغيرهم: [دَكَّاءَ] على وزن حمراءَ، والدكَّاءُ: الناقة التي لا سنام لها، فالمعنى: جعله أَرضاً دكاءَ تشبيهاً بالناقة. فروي أَنه ذهب الجبل برمته، وقيل: ذهب أَعلاه وبقي أكثره، وروي أن الجبل تفتت وانسحق حتى صار غباراً تذروه الرياح، وقال سفيان: روي أَنه ساخ في الأَرض وأَفضى إلى البحر الذي تحت الأَرضين. قال ابن الكلبي: فهو يهوي فيه إلى يوم القيامة، وروي أَنه انكسر ستّ فرق، فوقعت منها ثلاث بمكة: ثبير، وغار ثور، وحراء، وثلاث بالمدينة: أُحد، ووَرقان، ورضوى، قاله النقاش. وقال أَبو بكر الهذلي: ساخ في الأَرض فلا يظهر إلى يوم القيامة.

و﴿صَعِقًا﴾ معناه: مغشياً عليه كحال من تصيبه الصعقة وهي الصيحة المفرطة، قال الخليل: وهي الوقع الشديد من صوت الرعد، قاله ابن زيد وجماعة من المفسرين. وقال قتادة: كان موتاً، قال الزجاج: وهو ضعيف، ولفظة ﴿أَفَاقَ﴾ تقتضي

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، وابن جرير الطبري، والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، ورواه الحاكم وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ورواه ابن مردويه من طريقين. راجع تفسير ابن كثير.



غير هذا، وقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك، كذا فسره النبي ﷺ، وقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ معناه: من أن أسألك الرؤية في الدنيا وأنت لا تبيحها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل عندي أنه لفظ قاله عليه السلام لشدة هول ما اطلع، ولم يعن به التوبة من شيءٍ معين، ولكنه لفظ يصلح لذلك المقام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يتحرز منه أهل السُّنَّة أن تكون توبة من سؤال المحال كما زعمت المعتزلة.

وقرأ نافع: ﴿وَأَنَاْ﴾ بإثبات الألف في الإدراج، قاله الزهراوي، والأولى حذفها في الإدراج، وإثباتها لغة شاذة خارجة عن القياس. وقوله: ﴿أَوَّلُ﴾ إما أن يريد: من قومه بني إسرائيل، وهو قول ابن عباس ومجاهد، أو من أهل زمانه إن كان الكفر قد طبق الآفاق، وإما أن يريد أول المؤمنين بأنك لا تُرى في الدنيا، قاله أبو العالية.

ثم إن الله تعالى قرّر موسى على آلائه عنده على جهة الإخبار وقنَّعه بها وأمره بالشكر عليها، وكأنه قال: ولا تتعداها إلى غيرها.

واصطفى أصله: اصتفى، وهو افتعل من صفا يصفو انقلبت التَّاءُ طاءً لمكان الصاد، ومعناه: تخيَّرتك وخصصتك، ولا تستعمل إلا في الخير والمنن، لا يقال: اصطفاه لِشَرٍّ، وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ عام والمراد الخصوص فيمن شارك موسى في الإرسال، فإن الأنبياءَ المرسلين كلهم مشاركون له بما هم رسل، والظاهر من الشريعة أن موسى مخصص بالكلام وإن كان قد روي في تكليم الله غيره أشياء بما يشاءُ، من أعظمها أن رسول الله ﷺ سئل عن آدم فقال: «هو نبي مكلم»[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

إلا أن ذلك قد تؤول بأنه كان في الجنة فيتحفظ ـ على هذا ـ تخصيص موسى. ويصح أن يكون قوله: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ عموماً مطلقاً في مجموع الدرجتين: الرسالة

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه الإمام أحمد في مسنده (٥ ـ ١٧٨) عن أبي ذرٍّ، وفيه: (قلت يا رسول الله أيُّ الأنبياءِ كان أول؟ قال: آدم، قلت: يا رسول الله أو نبي كان؟ قال: نعم، نبيٌّ مكلم).



والكلام. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿ بِرِسَٰلَٰتِي﴾ على الجمع، إذ الذي أُرسل به ضروب. وقرأ ابن كثير، ونافع، [بِرِسَالَتي] على الإفراد الذي يراد به الجمع، وتحل الرسالة ها هنا محل المصدر الذي هو الإرسال. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾، وقرأ أبو رجاءٍ: [بِرِسَالَتي وبِكَلِمي]، وقرأ الأعمش: [بِرسَالاتي وبكَلِمي][١]، وحكى عنه المهدوي: [وَتَكْليمي] على وزن تفعيلي. وقوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ تأديب وتقنيع وحمْلٌ على جادَّة السلامة، ومثال لكل أَحد في حالِهِ، فإن جميع النعم من عنده بمقدار، وكل الأُمور بمرأًى من الله ومسمع.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾ الآية. الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ عائد على موسى عليه السلام، والألف واللام في ﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾ عِوض من الضمير الذي يقدر وصلة بين [ٱلألْواحِ] و(موسى) عليه السلام، تقديره: في ألواحه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[٢] أَي: مأواه. وقيل: كانت الأَلواح اثنين، وقيل: سبعة، وقال مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما: كانت الأَلواح من زمرد، وقال ابن جبير: من ياقوت أحمر، وقال أَبو العالية أَيضاً: من بَرَد[٣]، وقال الحسن: من خشب، وقوله: ﴿ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ لفظة عموم، والمراد به كل شيءٍ ينفع في معنى الشرع ويُحتاج إليه في المصلحة، وقوله: [لِكُلِّ شَيءٍ] مثله، قال ابن جبير: ما أُمروا به ونهوا عنه، وقاله مجاهد، وقال السدي: الحلال والحرام. وقوله: [بِقُوَّةٍ] معناه: بجِدّ وصبر عليها واحتمال لمؤنتها، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والسدي، وقال الربيع بن أنس: [بِقُوَّةٍ] هنا: بطاعة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أُمر موسى عليه السلام أَن يأْخذ بأَشد مما أُمر به قومه، وخُذْ أَصله: أُؤْخذ، حذفت الهمزة التي هي فاءُ الفعل على غير قياس، فاستغني عن الأول، وقوله: [بِأَحْسَنِهَا] يحتمل معنيين: أحدهما التفضيل،

---

(١) عبارة «البحر» هنا هي: «وقرأ الأعمش برسالاتي وتكلُّمي».

(٢) النازعات: ٤١.

(٣) الذي في القرطبي أن أبا العالية يقول: إنها من زبرجد ـ والذي في البحر نسبة القول بأنها من زبرجد إلى ابن عباس وأبي العالية ـ ثم قال: وعن أبي العالية أيضاً أنها من بَرَد ـ وهذا يفسر هنا كلمة (أيضاً) بعد قوله: «وقال أبو العالية» ـ ولا ندري كيف تكون من بَرَد مع أن البَرَد هو ماءٌ متجمد ينزل من السماء قطعاً صغاراً، ويسمى: حبَّ الغمام وحبَّ المزن، ولهذا قال الألوسي: لا يخفى أن أمثال هذا يحتاج إلى النقل الصحيح.



كأَنه قال : إذا اعترض فيها مباحان ، فيأخذون الأَحسن منهما كالعفو والقصاص ، والصبر والانتصار .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

هذا على القول أَن أَفعل التفضيل لا يقال إلا لما لهما اشتراكٌ في المفضَّل فيه . وأَما على القول الآخر فقد يراد بالأَحسن المأمور به بالإضافة للمنهي عنه لأَنه أَحسن منه ، وذلك كالناسخ بالنسبة للمنسوخ ونحو هذا . وذهب إلى هذا المعنى الطبري .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويؤيد هذا التأْويل أنه تدخل فيه الفرائض وهي لا تدخل في التأْويل الأَول ، وقد يُمكن أَن يتصور اشتراك في حُسْن من المأْمور به والمنهي عنه ولو بحسب الملاذ وشهوات النفس الأَمارة . والمعنى الآخر الذي يحتمله قوله تعالى : ﴿ بِأَحْسَنِهَاۚ ﴾ أَن يريد بـ [أَحْسَن] وصف الشريعة بجملتها ، فكأَنه قال : قد جعلنا لكم شريعة هي أحسن ، كما تقول : «الله أكبر» دون مقايسة ، ثم قال : فمرهم يأخذوا بأَحسنها الذي شرعناه لهم ، وفي هذا التأْويل اعتراضات(١) .

وقرأَ جمهور الناس : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ﴾ ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن : [أُوريكُمْ](٢) ، قال أَبو الفتح : ظاهر هذه القراءَة مردود وهو أَبو سعيد المأْثور فصاحته . فوجهها أَن المراد (أُريكم) ثم أُشبعت ضمة الهمزة ومُطِلَت حتى نشأَت عنها واو ، ويحسن احتمال الواو في هذا الموضع أَنه موضع وعيد وإغلاظ فمكن الصوت فيه(٣) . وقرأَ قسامة بن زهير : [سَأُوَرِّثكُمْ] ، قاله أبو حاتم ، ونسبها المهدوي إلى ابن عباس رضي الله عنهما .

---

(١) معنى هذا أن (أحسن) ليست أفعل تفضيل ، وذلك كقول الشاعر : «بيتاً دعائمه أعزُّ وأطْول» أي : عزيزة طويلة ، فعلى هذا أمروا بأن يأخذوا بحُسْنها وهو ما يترتب عليه الثواب دون المناهي التي يترتب على فعلها العقاب ـ قاله قطرب وابن الأنباري .

(٢) الواو في القراءة الأولى تكتب ولا تنطق وفي القراءة الثانية تكتب وتنطق .

(٣) قال أبو حيان في «البحر» : «وهذا التوجيه ضعيف لأن الإشباع بابه ضرورة الشعر» . ثم ذكر توجيهاً آخر نقله عن الزمخشري هو أنها لغة فاشية بالحجاز ، يقال : أورني كذا وأوريته ، فوجههُ أن يكون من أوريت الزند ، كأن المعنى : بيِّنه لي وأنره لأستبينَه . ثم قال أبو حيان : «وهي أيضاً في لغة أهل الأندلس كأنهم تلقفوها من لغة الحجاز وبقيت في لسانهم إلى الآن ، وينبغي أن ينظر في تحقق هذه اللغة ، أهي في لغة الحجاز أم لا؟» .



وثبتت الواو في خط المصحف[١] فلذلك أَشكل هذا الاختلاف مع أَنَّا لا نتأَول إلا أَنها مرويات. فأَما من قرأَها: [سَأُورِيكُمْ][٢] فالمعنى عنده: سأَعرض عليكم وأَجعلكم تحسُّون[٣] لتعتبروا حال دار الفاسقين. والرؤية هنا رؤية العيْن إلا أَن المعنى يتضمن الوعد للمؤمنين والوعيد للفاسقين. ويدل على أَنها رؤية العين تعدي فعلها، وقد عُدي بالهمزة إلى مفعولين، ولو كان من رؤْية القلب لتعدى بالهمزة إلى ثلاثة مفاعيل، ولو قال قائل: المفعول الثالث يتضمنه المعنى فهو مقدر، أَي: مُدَمَّرَة أَو خَرِبَة أَو مُسْعَرَة ـ على قول من قال: هي جهنم ـ قيل له: ولا يُجَوِّز حذف هذا المفعول والاقتصار دونه أنها داخلة على المبتدأ والخبر، ولو جُوِّز لكان على قبح في اللسان لا يليق بكتاب الله عزَّ وجلَّ[٤].

وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، ومقاتل، وقتادة في كتاب النقاش: دار الفاسقين مصر، والمراد آل فرعون وقال قتادة أيضاً: دار الفاسقين الشام، والمراد العمالقة الذين أُمر موسى عليه السلام بقتالهم، وقال مجاهد والحسن: دار الفاسقين جهنم، والمراد الكفرة بموسى عامة، وقال النقاش عن الكلبي: دار الفاسقين دور ثمود وعاد والأُمم الخالية، أَي: سنقصها عليكم فترونها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

---

(١) يقصد بذلك القراءة الأولى التي قال إنها قراءة الجمهور.

(٢) أي برسم الواو دون نطقها ـ وهي قراءة جمهور الناس.

(٣) في بعض النسخ: تخشون من الخشية.

(٤) نقل أبو حيان هذا الكلام عن ابن عطية ـ ثم علق عليه بملحوظتين:
الأولى: أن حذف المفعول الثالث في باب (أعلم) لدلالة المعنى عليه جائز.
الثانية: أن تعليله بأنها داخلة على الابتداء والخبر لا يدل على المنع لأن خبر المبتدأ يجوز حذفه اختصاراً، والثاني والثالث في باب (أعلم) يجوز حذف كل واحد منهما اختصاراً ـ ثم إن قوله: «سأريكم داخلة على المبتدأ أو الخبر» فيه تجوز. فهو يعني أنها كانت داخلة على المبتدأ والخبر قبل النقل بالهمزة. (البحر المحيط ٤ ـ ٣٨٩).



المعنى: سأَمنع وأَصد، وقال سفيان بن عُيَيْنَة: الآيات هنا كل كتاب منزّل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالمعنى: عن فهْمها وتصديقها. وقال ابن جُرَيج: الآيات: العلامات المنصوبة الدالة على الوحدانية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالمعنى: عن النظر فيها والتفكير والاستدلال بها. واللفظ يعم الوجهين.

والمتكبرون بغير حق في الأَرض هم الكفرة، والمعنى في هذه الآية: سأَجعل الصرف عن الآيات عقوبة للمتكبرين على تكبُّرهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ حتم من الله عزَّ وجلَّ على الطائفة التي قدّر ألا يؤمنوا. وقراءَة الجمهور: ﴿يَرَوۡاْ﴾ بفتح الياءِ، قرأَها ابن كثير، وعاصم، ونافع، وأَبو جعفر، وشيبة، وشبل، وابن وثاب، وطلحة بن مصرف، وسائر السبعة، وقرأَها مضمومة الياء مالك بن دينار(١).

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿ٱلرُّشۡدِ﴾، وقرأَ ابن عامر ـ في بعض ما روي عنه ـ وأَبو البرهسم: [الرُّشُد] بضم الراءِ والشين، وقرأَ حمزة، والكسائي على أَن [الرُّشْد] بضم الراء وسكون الشين، و[الرَّشَدَ] بفتحهما بمعنى واحد، وقال أَبو عمرو بن العلاءِ: الرُّشْد بضم الراءِ: الصلاح في النظر، والرَّشَد بفتحهما: الدِّين، وأَما قراءَة ابن عامر بضمهما فأَتبعت الضمة الضمة.

وقرأَ ابن أَبي عبلة: [لا يَتَّخِذُوها] و[يَتَّخِذُوهَا] على تأْنيث السَّبيل. والسَّبيل تؤنث وتذكَّر، وقوله تعالى: [ذَلِكَ] إشارة إلى الصَّرف، أَي صَرْفنا إياهم وعقوبتنا لهم هي بكفرهم وتكذيبهم وغفلتهم عن النظر في الآيات والوقوف عند الحجج، ويحتمل أن يكون [ذلِكَ] خبر ابتداءِ تقديره: الأَمر ذلك، ويحتمل أن يكون في موضع نصب بفعل تقديره: فعلنا ذلك(٢).

---

(١) هو مالك بن دينار البصري، أبو يحيى، من رواة الحديث، كان ورعاً يأكل من كسبه، ويكتب المصاحف بالأجرة، توفي بالبصرة ١٣١هـ (وفيات الأعيان ـ وتهذيب التهذيب، وحلية الأولياء ـ وقد اختلفوا في تاريخ وفاته).

(٢) قال أبو حيان: «والظاهر أن (ذلك) مبتدأ وخبره (بأنهم) أي ذلك الصَّرف كائن بأنهم كذبوا».



وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الآية. هذه الآية مؤكدة للتي قبلها، وسوقها في جملة المكذب به. ولقاءُ الآخرة لفظ يتضمن تهديداً. أي: هنالك يفتضح لهم حالهم. و[حَبِطَتْ] معناه: سقطت وفسدت، وأصل الحبط فيما تقدم صلاحه، ولكنه قد يستعمل في الذي كان من أول أمره فاسداً، إذ مآل العاملين واحد.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ استفهامٌ بمعنى التقرير، أي: يستوجبون بسوءِ فعلهم العقوبة[(١)]، وساغ أن يستعمل ﴿حَبِطَتْ﴾ هنا إذ كانت أعمالهم في معتقداتهم جارية في طريق صلاح، فكأن الحبط فيها إنما هو بحسب معتقداتهم، وأما بحسب ما هي عليه في أنفسها ففاسدة منذ أول أمرها، ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ: «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم»[(٢)] أي فساداً لكثرة الأكل بعد الصلاح الذي كان أولاً، وقرأ ابن عباس، وأبو السمال: [حَبَطَتْ] بفتح الباء.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

اتَّخَذَ أَصله: إيتَخَذ، ووزنه افتعل، من تَخِذ. هذا قول أبي علي الفارسي. والضمير في ﴿بَعْدِهِۦ﴾ عائد على موسى، أي بعد مُضيِّه إلى المناجاة، وأضاف الحليّ إلى بني إسرائيل وإن كان مستعاراً من القبط ـ إذ كانوا قد تملكوه ـ إمَّا بأن نفلوه كما روي[(٣)]، وحكى يحيى بن سلام عن الحسن أنه قال: استعار بنو إسرائيل حليّ القبط ليوم الزينة،

---

(١) قال أبو حيان في «البحر»: «والظاهر أنه استفهام بمعنى النفي ولذلك دخلت (إلا)، والاستفهام الذي هو بمعنى التقرير هو موجب من حيث المعنى فيبعد دخول (إلا) ولعلَّه لا يجوز».

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد في مسنده، وابن ماجه ـ وقد رواه البخاري في الجهاد وفي الرقاق ـ عن أبي سعيد، ومنه: (إنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَة، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبَطاً أو يُلمُّ إلا آكلة الخضرة أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترَّت وثَلطَتْ وبالت، ثم عادت فأكلت، وإن هذا المال حُلْوَة، من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع) صدق رسول الله ﷺ.

(٣) النفل هنا: الهبة، والجمع: أنفال.



فلما أَمر موسى أَن يسري بهم ليلاً تعذر عليهم رد العواري ، وأيضاً فخشوا أَن يفتضح سرُّهم ، ثم إن الله نفلهم إياه ، ويحتمل أن يضاف الحليّ إلى بني إسرائيل من حيث تصرفت أَيديهم فيه بعد غزو آل فرعون.

ويروى أن السامري ـ واسمه موسى بن ظفر وينسب إلى قرية تسمى سامرة ـ قال لهارون حين ذهب موسى إلى المناجاة: يا هارون إن بني إسرائيل قد بدَّدوا الحليّ الذي استعير من القبط وتصرفوا فيه وأنفقوا منه ، فلو جمعته حتى يرى موسى فيه رأيه ، قال: فجمعه هارون ، فلما اجتمع قال للسامري: أنت أَولى الناس بأَن يختزن عندك ، فأَخذه السامريُّ ـ وكان صائغاً ـ فصاغ منه صورة عجل ، وهو ولد البقرة. ﴿جَسَدًا﴾ أَي جثة وجماداً ، وقيل: كان جسداً بلا رأَس. وهذا تعلق بأَن الجسد في اللغة ما عدا الرأس ، وقيل: إن الله جعل له لحماً ودماً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف لأن الآثار في أَن موسى بَرَدَهُ بالمبارد تكذب ذلك. والخوار: صوت البقر ، ويروى أَن هذا العجل إنما خار مرة واحدة ، وذلك بحيلة صناعية من السامري أو بسحر تركب له من قبضه القبضة من أَثر الرسول ، أَو بأَن الله أَخار العجل لفَتْن بني إسرائيل. وقرأَت فرقة: [لَهُ جُوار] بالجيم وهو الصياح ، قال أبو حاتم: وشدة الصوت. وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وأَبو عمرو ، والحسن ، وأَبو جعفر ، وشيبة: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ بضم الحاءِ وكسر اللام ، وهو جمع حَلْي ـ على مثال ثَدْي وثُدِيّ ، وأَصله: حُلُوي ، قلبت الواو ياءً وأُدغمت فجاءَ (حُلُيّ) فكسرت اللام لتناسب الياءَ ، وقرأَ حمزة والكسائي: [مِنْ حِلِيِّهم] بكسر الحاءِ على ما قدمنا من التعليل ، قال أبو حاتم: إلا أَنهم كسروا الحاءَ إتباعاً لكسرة اللام ، قال أَبو علي: وقوي التغيير الذي دخل على الجمع على هذا التغيير الأَخير ، قال: ومما يؤكد كسر الفاءِ في هذا النحو من الجمع قولهم: قِسيّ. قال أَبو حاتم: وقرأَ هكذا يحيى بن وثاب ، وطلحة ، والأَعمش ، وأَصحاب عبد الله. وقرأَ يعقوب الحضرمي: [مِنْ حَلْيِهِمْ] *بفتح الحاءِ وسكون اللام ، فإما أَن يكون مفرداً يراد به الجمع ، وإما أَن يكون* جمع حِلْيَة كتَمْرة وتَمْر. ومعنى الحليّ: ما يُتَجَمَّل به من حجارة وذهب وفضة.

ثم بين الله تعالى سوءَ فطرتهم وقرر فساد اعتقادهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾



الآية. وذلك أن الصامت الجماد لا يتصف بالألوهية، والذي لا يرشد إلى خير ولا يكشف غماً كذلك. والضمير في ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ عائد على العجل. وقوله: ﴿وَكَانُوا﴾ إخبارٌ لنا عن جميع أحوالهم ماضياً وحالاً ومستقبلاً، ويحتمل أن تكون الواو واو حال، وقد مرَّ في سورة البقرة سبب اتخاذ العجل وبسط تلك الحال بما أغنى عن إعادته هنا.

وقرأ جمهور الناس بكسر القاف وضم السين: ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾، وقرأت فرقة: [سَقط] بفتح السين والقاف، حكاه الزجاج، وقرأ ابن أبي عبلة: [أُسْقط] وهي لغة حكاها الطبري بالهمزة المضمومة وسين ساكنة، والعرب تقول لمن كان ساعياً لوجه أو طالباً غاية ما فعرض[1] له ما غلبه وصدّه عن وجهته وأوقفه موقف العجز عن بغيته، وتيقن أنه قد عجز: سُقِط في يد فلان، وقال أبو عبيدة: يقال لمن أقدم على أمر وعجز عنه: سُقِط في يده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والندم عندي عرض يعرض لصاحب هذه الحال، وقد لا يعرض له، فليس الندم بأصل في هذا، أما إن أكثر أصحاب هذه الحال يصحبهم الندم، وكذلك صحب بني إسرائيل المذكورين في الآية، والوجه الذي يصل بين هذه الألفاظ وبين المعنى الذي ذكرناه هو أن السَّعي أو الصرف أو الدفاع سقط في يد المشار إليه فصار في يده لا يجاوزها ولا يكون له خارجها تأثير. وقال الزجاج: المعنى أن الندم سقط في أياديهم، ويحتمل أن الخسران والخيبة سقط في أيديهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا كله يلزم أن يكون ﴿سُقِطَ﴾ يتعدى، فإن [سُقِطَ] يتضمن مفعولاً وهو هنا المصدر الذي هو الإسقاط، كما يقال: ذُهب بزيد، وفي هذا عندي نظر[2].

---

(١) الذي في الأصول: «فعرضه ما غلبه» ولما كان هذا مخالفاً لقواعد اللغة أكدنا أن الخطأ من النساخ بدليل أن أبا حيان في «البحر المحيط» نقل العبارة كما أثبتناها هنا قائلاً في نقله عن ابن عطية: «فعرض له ما غلبه وصده».

(٢) النظر الذي يُشير إليه وضحه صاحب البحر حيث قال: «وصوابه: وهو هنا ضمير المصدر الذي هو السقوط، لأن سُقط ليس مصدره الإسقاط، وليس نفس المصدر هو المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله بل هو ضميره».

وأَما قراءَة من قرأَ: [سَقَطَ] على بناءِ الفعل للفاعل، أَو [أُسْقِط] على التعدية بالهمزة فبين في الاستغناءِ عن التعدي، ويحتمل أَن يقال: «سقط في يديه» على معنى التشبيه بالأَسير الذي تكتف يداه، فكأَن صاحب هذه الحال يستأْسر، ويقع ظهور الغلبة عليه في يده، أو كأَن المراد سقط بالغلب والقهر في يده، وحُدِّثت عن أَبي مروان بن سراج(١) أَنه كان يقول: قول العرب «سقط في يده» مما أَعياني معناه، وقال الجرجاني: هذا مما دَثَر استعماله مثل ما دَثَر استعمال قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾(٢).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا الكلام ضعف، والسِّقاط في كلام العرب كثرة الخطأ والندم عليه، ومنه قول سويد بن أبي كاهل:

كيْـفَ يَـرجـونَ سِقـاطـي بَعْـدَمَـا ... لَفَّـعَ الـرَّأسَ مَشِيـبٌ وصَلَـع؟(٣)

وقول بني إسرائيل: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ إنما كان بعد رجوع موسى وتغيره عليهم، ورؤيتهم أنهم قد خرجوا على الدين ووقعوا في الكفر. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، والحسن، والأَعرج، وأَبو جعفر، وشيبة بن نصاح، ومجاهد وغيرهم: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بالياءِ في ﴿يَرْحَمْنَا﴾ وإسناد الفعل إلى الرب تعالى، [ويَغْفِر] بالياءِ، وقرأَ حمزة، والكسائي، والشعبي، وابن وثاب، والجحدري، وطلحة بن مصرف، والأَعمش، وأَيوب: [تَرْحَمْنَا رَبَّنَا] بالتاءِ في [تَرْحَمْنا] ونصب لفظة [رَبَّنَا] على جهة النداءِ [وتغفر] بالتاءِ من فوق. وفي مصحف أُبي [قالوا لئن لم ترحمنا وتغفر لنا لنكونن من الخاسرين].

---

(١) هو أحد أئمة اللغة بالأندلس ـ قال ذلك أبو حيان في «البحر المحيط».

(٢) الكهف: ١١.

(٣) سويد شاعر جاهلي أدرك الإسلام وعمّر طويلاً، متقدم في قول الشعر، شعره وجداني عذب، والبيت من قصيدة له تسمى في الجاهلية «اليتيمة»، وهي في المفضليات (دار المعارف ص ١٩٠ ـ ٢٠٢) ومنها:

هَـلْ سُـوَيْـدٌ غيـرُ ليْـثٍ خَـادرٍ ... ثَـئِـدَتْ أَرْضٌ عَلَيْـهِ فَـانْتَجَـع

والرواية في (اللسان): «جَلَّل الرأس» بدلاً من: لَفَّع الرأسَ. وقد استشهد به على أن السِّقاط مثل السقطة، وأن معناه: العثرةُ والزَّلَّة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾.

يريد: رجع من المناجاة، ويروى أنه لما قرب من محلة بني إسرائيل سمع أَصواتهم فقال: هذه أَصوات قوم لاهين، فلما تحقق عكوفهم على عبادة العجل داخله الغضب والأَسف وأَلقى الأَلواح، قاله ابن إسحق، وقال الطبري: أَخبره الله تعالى قبل رجوعه أنهم قد فتنوا بالعجل فلذلك رجع وهو غاضب، والأَسف قد يكون بمعنى الغضب الشديد، وأَكثر ما يكون بمعنى الحزن، والمعنيان مترتبان ها هنا، و(ما) المتصلة بـ(بئس) مصدرية، هذا قول الكسائي، وفيها اختلاف قد تقدم في سورة البقرة، أي: بئس خلافتكم لي من بعدي ويقال: خَلَفه بخير أَو بشر إذا فعله بمن ترك من بعده، ويقال: عَجِل فلان الأَمر إذا سبق فيه، فقوله ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾ معناه: أَسابقتم قضاءَ ربكم واستعجلتم إتياني قبل الوقت الذي قدر به.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ الآية. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان سبب إلقائه الأَلواح غضبه على قومه في عبادتهم العجل وغضبه على أَخيه في إهمال أَمرهم. وقال قتادة ـ إن صح عنه ـ: بل كان ذلك لما رأَى فيها من فضيلة أُمة محمد ﷺ فرغب أَن يكون ذلك لأُمته، فلما علم أنه لغيرها غضب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ رديءٌ لا ينبغي أَن يوصف موسى عليه السلام به، والأَول هو الصحيح. وبالجملة فكان في خُلُق موسى ضيق وذلك مستقر في غير موضع، وروي أَنها كانت لوحان وجمع إذ التثنية جَمْعٌ، وروي أَنها كانت وِقْر سبعين بعيراً يُقرأ منها الجزءُ في سنة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف مُفْرط، قاله الربيع بن أَنس. وقال ابن عباس: إن موسى لما أَلقاها تكسرت فرفع أَكثرها الذي فيه تفصيل كل شيءٍ، وبقي الذي في نسخته الهدى



والرحمة ، وهو الذي أخذ بعد ذلك ، وقد تقدم القول من أي شيءٍ كانت الألواح ، وأَخذُه برأس أَخيه ولحيته من الخُلُق المذكور[١] ، هذا هو ظاهر اللفظ ، وروي أَن ذلك إنما كان ليُسارّه فخشي هارون أَن يتوهم الناظر إليهما أَنه لغضب فلذلك نهاه ورغب إليه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف ، والأَول هو الصحيح لقوله: ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾[٢]. وقوله: ﴿ ٱبْنَ أُمَّ ﴾ استلطاف برحم الأُم إذ هو أَلصق القرابات. وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو ، وحفص عن عاصم: ﴿ابن أُمَّ﴾ بفتح الميم ، فقال الكوفيون: أَصله: ابن أُمَّاهُ ـ فحذفت تخفيفاً ، وقال سيبويه: هما اسمان بنيا على الفتح كاسم واحد لخَمسة عشرَ ونحوها. وقرأَ ابن عامر ، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ وحمزة ، والكسائي: [ابنَ أُمِّ] بكسر الميم ، فكأَن الأَصل: ابنَ أُمِّي فحذفت الياءُ ، إما على حدّ حذفهم من: لاَ أُبالِ ، ولا أَدرِ تخفيفاً ، وإما كأَنهم جعلوا الأَول والآخر اسماً واحداً ثم أَضافوا ، كقولك: يا أَحد عشرَ أَقبلوا. قاله سيبويه ، وهذا أَقيس من الحذف تخفيفاً ، ثم أَضافوا إلى ياءِ المتكلم ، ثم حذفت الياءُ من (أُمِّي) على لغة من يقول: يا غلامِ فيحذفها من المنادى ، ولو لم يُقَدَّر جعل الأَول والآخر اسماً واحداً لما صح حذفها ، لأَن الأُم ليست بمناداة.

و﴿ ٱسْتَضْعَفُونِي ﴾ معناه: اعتقدوا أَني ضعيف. وقوله: ﴿ وَكَادُواْ ﴾ قاربوا ولم يفعلوا.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾ بضم التاءِ وكسر الميم ونصب ﴿ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾. وقرأَ مجاهد ـ فيما حكاه أَبو حاتم ـ: [فلا تَشمت بي] بفتح التاءِ من فوق والميم ورفع [الأَعداء]. حكاها أبو حاتم ، وقرأَ مجاهد أَيضاً ـ فيما حكاه أَبو الفتح ـ: [فَلاَ تَشْمَت بيَ الأَعْداءَ] بفتح التاءِ من فوق والميم ونصب [الأَعداء] هذا على أَن يعدَّى شمت يشمت ، وقد روي ذلك. قال أَبو الفتح: فلا تشمت بي أَنت يا رب ، وجاز هذا

---

(١) يريد بالخلق المذكور ما عرف عن موسى من سرعة الغضب.

(٢) طه: ٩٤.



كما قال تعالى: ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[1] ونحو ذلك. ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلا نصب به [الأَعْدَاءَ]، كأنه قال: لا تُشمت بي الأعداءَ كقراءَة الجماعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي كلام أبي الفتح هذا تكلف، وحكى المهدوي عن ابن محيصن [تَشْمِت] بفتح التاءِ وكسر الميم و[الأعداءَ] بالنصب. والشماتة: فرحة العدو بمصاب عدوّه. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يريد عَبَدَة العجْل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾.

استغفر موسى من فعلة أخيه، ومن عَجَلته في إلْقاءِ الألْواح، واستغفر لأخيه من فعله في الصبر لبني إسرائيل، ويمكن أن الاستغفار كان لغير هذا مما لا نعلمه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ الآية، مخاطبة من الله تعالى لموسى عليه السلام لقوله تعالى: ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾، ووقع ذلك النَّيْل في عهد موسى عليه السلام، والغضب والذلة هو أمرهم بقتل أنفسهم، هذا هو الظاهر. وقال بعض المفسرين: الذلَّة: الجزية، ووَجْهُ هذا القول أن الغضب والذلة بقيت في عقب هؤلاءِ المقصودين بها أولاً، وكأن المراد: سينال أعقابهم. وقال ابن جريج: الإشارة في قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ إلى من مات من عبدة العجل قبل التوبة بقتل النفس، وإلى من فرَّ فلم يكن حاضراً وقت القتل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والغضب ـ على هذا ـ والذلة هو عذاب الآخرة، والغضب من الله عزَّ وجلَّ إنْ أُخذ بمعنى الإرادة فهو صفة ذات، وإن أُخذ بمعنى العقوبة وإحلال النقمة فهو صفة فعل،

(١) من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].



وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ المراد أَولاً أُولئك الذين افتروا على الله في عبادة العجل، وتكون قوة اللفظ تعم كل مفتر إلى يوم القيامة، وقد قال سفيان بن عُيَيْنة وأَبو قلابة وغيرهما: كل صاحب بدعة أَو فرية ذليل، واستدلوا بالآية.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية. تضمنت هذه الآية الوعد بأَن الله عزَّ وجلَّ يغفر للتائبين، والإشارة إلى من تاب من بني إسرائيل، وفي الآية ترتيب الإيمان بعد التوبة، والمعنى في ذلك أنه أَراد بقوله ﴿وَءَامَنُوٓا۟﴾ أَن التوبة نافعة لهم منجية فتمسكوا بها، فهذا إيمانٌ خاص بعد الإيمان على الإطلاق، ويحتمل أَن يريد بقوله: ﴿وآمَنُوا﴾ أَي وعملوا عمل المؤمنين حتى وافوا على ذلك، ويحتمل أن يريد التأْكيد فذكر التوبة والإيمان إذ هما متلازمان، إلا أن التوبة ـ على هذا ـ تكون من كُفْر ولابد فيجيءُ ﴿تَابُوا۟ـ وَءَامَنُوٓا۟﴾ بمعنى واحد، وهذا لا يترتب في توبة المعاصي، فإن الإيمان متقدم لتلك ولا بُدّ، وهو وتوبة الكفر متلازمان. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ إيجاب ووعد مرجّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل قوله: [تَابُوا ـ وَآمَنوا] أن يكون لم تقصد رتبة الفعلين على عرف الواو في أَنها لا توجب رتبة، ويكون [وآمنوا] بمعنى: وهم مؤمنون قبل وبعد. كأَنه قال: ومن صفتهم أَن آمنوا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾.

معنى هذه الآية أن موسى عليه السلام لما سكن غضبه أَخذ الأَلواح التي كان أَلقى، وقد تقدم ما روي أنه رفع أكثرها أَو ذهب في التكسر، وقوله: ﴿سَكَتَ﴾ لفظة مستعارة، شبّه خمود الغضب بانقطاع كلام المتكلم وهو سكوته، قال يونس بن حبيب: تقول العرب: «سالَ الوادي يومين ثم سكت»، وقال الزجاج وغيره: مصدر

قولك: «سَكَتَ الْغَضب»: سَكتٌ ، ومصدر قولك: «سكت الرجل»: سُكوتٌ ، وهذا يقتضي أنه فعل على حدة وليس من سكوت الناس ، وقيل: إن في المعنى قلباً والمراد: ولما سكت موسى عن الغضب ، فهو من باب: أَدخلت فمي في الحَجَر ، وأَدخلت القلنسوة في رأسي ، وفي هذا أَيضاً استعارة ، إذ الغضب ليس بتكلم فيوصف بالسكوت ، وقرأ معاوية بن قرّة: [وَلمَّا سَكنَ] ، وفي مصحف حفصة: [وَلمَّا سَكَتَ] ، وفي مصحف ابن مسعود: [ولما صبر عن موسى الغضبُ] قال النقاش: وفي مصحف أُبي: [ولما اشتق عن موسى الغضب].

وقوله تعالى: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ معناه: وفيما ينسخ منها ويقرأُ ، واللام في قوله: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ يحتمل وجوهاً ـ مذهب المبرد أَنها تتعلق بمصدر كأَنه قال: الذين رهبتهم لربهم ، ويحتمل أَنه لما تقدم المفعول ضعف الفعل فقوي على التعدي باللام ، ويحتمل أن يكون المعنى: هم لأَجل طاعة ربهم وخوف ربهم يرهبون العقاب والوعيد ونحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ الآية. معنى هذه الآية أَن موسى عليه السلام اختار من قومه هذه العِدة ليذهب بهم إلى موضع عبادة وابتهال ودعاءٍ ليكون منه ومنهم اعتذارٌ إلى الله عزَّ وجلَّ من خطأ بني إسرائيل في عبادة العجل وطلبٌ لكمال العفو عمن بقي منهم. ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أَن اختيارهم كان بسبب قول بني إسرائيل: إن موسى قتل هارون حين ذهب معه ولم يرجع ، فاختار هؤلاء ليذهبوا فيكلمهم هارون بأَنه مات بأَجله ، وقوله تعالى: ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ يؤيد القول الأَول وينافر هذا القول ، لأَنها تقتضي أَن ذلك كان عن توقيت من الله عزَّ وجلَّ وعدة في الوقت والموضع ، وتقدير الكلام: «واختار موسى من قومه» ، فلما انحذف الخافض تعدى الفعل فنصب ، وهذا كثير في كلام العرب(١).

---

(١) ومنه ما أنشده سيبويه من قول الفرزدق:

مِنّـا الـذي اختيـرَ الـرِّجَـالَ سَمَـاحَـة ... وبِـراً إذا هـبَّ الـريَـاحُ الـزَّعـازعُ

وقول الراعي يمدح رجلاً:

اخْتَـرْتُـكَ النَّـاسَ إذْ رَثَّـتْ خـلائقُهُـم ... واخْتَـلَّ مَـنْ كـانَ يُـرْجَـى عنده السُّـولُ

والتقدير في البيت الأول: اختير من الرجال ـ وفي البيت الثاني: اخترتك من الناس. ومعنى (اختلّ) فيه: افتقر. والسُّولُ: هي السُّؤْل.

واختلف العلماءُ في سبب الرجفة التي حلَّت بهم ـ فقيل: كانت عقوبة لهم على سكوتهم وإغضائهم على عبادة العجل. وقيل: كانت على عبادتهم العجل بأَنفسهم وخفي ذلك عن موسى في وقت الاختيار حتى أَعلمه الله، قاله السدي. وقيل: كانت عقوبة لهم لأنهم لما دنوا وعلموا أَن موسى يسمع كلام الله قالوا له: «أَرنا ربَّك» فأَخذتهم الرجفة. وقيل: كانت عقوبة لتشططهم في الدعاءِ بأن قالوا: اللَّهم أَعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ولا تعطيه أحداً بعدنا، فأَخذتهم الرجفة، وقيل: إنما أَخذتهم لما سمعوا كلام هارون وهو ميت، وذلك أَن موسى وهارون ذهبا إلى التعبد أَو نحوه فمات هارون فدفنه موسى وجاءَ، فقالت بنو إسرائيل: أين هارون؟ فقال: مات. فقالوا: بل أَنت قتلته لأَنك حسدتنا على حسن خلقه وعشرته، فاختار السبعين ليمضوا معه حتى يروا برهان ما قال لهم، فلما وصلوا قال له موسى: يا هارون أَقُتِلْت أم مت؟ فناداه من القبر: بل متُّ ـ فأَخذت القوم الرجفة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وروي أنهم ماتوا في رجفتهم هذه، ويحتمل أن كانت كالإغماءِ ونحوه. والرجفة: الاهتزاز والتقلقل للهول العظيم، فلما رأَى موسى ذلك أَسف عليهم، وعلم أن أَمر بني إسرائيل سيتشعب عليه إذا لم يأْت بالقوم، فجعل يستعطف ربه، أَي ربِّ لو أَهلكتهم قبل هذه الحال وإيايَ لكان أحق علي. وهذا وقتٌ هلاكُهم فيه مُفْسد عليّ مؤذٍ لي.

ثم استفهم على جهة الرغبة والتضرع والتذلل. ويحتمل قوله: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ أَن يريد وقت إغضائهم على عبادة العجل، أَي وقت عبادتهم ـ على القول بذلك ـ، وفي نفسه هو وقت قتله القبطي. أي: فأنت قد سترت وعفوت حينئذ، فكيف الآن إذ رجوعي دونهم فسادٌ لبني إسرائيل، فمنحي الكلام ـ على هذا ـ محض استعطاف، وعلى التأويل الأَول منحاه الإدلاءُ بالحجة في صيغة استعطاف، وإذا قلنا: إن سبب الرجفة كان عبادة العجل كان الضمير في قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ له وللسبعين، و﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ إشارةٌ إلى العبدة من بني إسرائيل، وكذلك إذا كان سببها قول بني إسرائيل له: قتلتَ هارون. وإذا كان سببَ الرجفة طلبُهم الرؤْية وتشطُّطهم في الدعاءِ أَو عبادتُهم بأَنفسهم العجلَ فالضمير في قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ يريد به نفسه وبني

إسرائيل، أي: بالتفرق والكفر والعصيان يكون هلاكهم، ويكون قوله: ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ إشارة إلى السبعين، ورُوي أن السبعين لم يكن فيهم من زاد على الأربعين ولا من قصر عن العشرين، ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنهم أُحيوا وجُعلوا أنبياءَ كلهم.

وقالت فرقة: إن موسى عليه السلام لما أَعلمه الله عزَّ وجلَّ أن السبعين عبدوا العجل تعجَّب وقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ أي: الأمور بيدك تفعل ما تريد، وقيل: إن الله تعالى لما أَعلم موسى بعبادة بني إسرائيل العجل وبصفته قال موسى: أي ربِّ ومن أخاره؟ قال: أَنا، قال موسى: فأَنت أَضللتهم، إن هي إلا فتنتك، ويحتمل أن يشير بـ [هِيَ] إلى قولهم: [أَرِنَا الله] إذ كانت فتنة من الله أوجبت الرجفة، وفي هذه الآية ردٌّ على المعتزلة[1]، واغفر معناه: استر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

﴿وَٱكْتُبْ﴾ معناه: أَثبت واقض، والكتب مستعمل فيما يخلد. و﴿حَسَنَةً﴾ لفظ عام في كل ما يحسن في الدنيا من عافية وغنى وطاعة الله تبارك وتعالى وغير ذلك، وحسنة الآخرة الجنة لا حسنة دونها ولا مرمى وراءها، و﴿هُدْنَآ﴾ بضم الهاءِ معناه: تُبْنَا، وقرأَ أَبو وَجْزَة[2] [هِدْنَا] بكسر الهاءِ، ومعناه: حركنا أَنفسنا وجذبناها لطاعتك، وهو مأْخوذ من هاد يهيد إذا حرَّك.

---

(١) في أنهم ينفون الإضلال عن الله تعالى، وقد ذهب الزمخشري إلى أن الله امتحنهم وابتلاهم فافْتَتَنُوا وضلوا هم، وقد جُعل ذلك إضلالاً من الله وهدى منه لأن محنته كانت سبباً في ضلالهم وهدايتهم، فكأنه أضله وهداهم بها على الاتساع في الكلام. لكن الآية واضحة في نسبة الإضلال لله كنسبة الهداية إليه سبحانه.

(٢) هو يزيد بن عبيد السعدي، أبو وَجْزَة، شاعر محدّث مقرىء، من التابعين، أصله من بني سليم، نشأ في بني سعد بن بكر فنسب إليهم، وسكن المدينة وانقطع إلى آل الزبير، ومات بالمدينة سنة ١٣٠هـ (غاية النهاية والقاموس).



وقوله تعالى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُ﴾ الآية. قال الله عزَّ وجلَّ: إن الرجفة التي أُنزلت بالقوم هي عذابي أُصيب به من شئت، ثم أَخبر عن رحمته، ويحتمل ـ وهو الأَظهر ـ أَن الكلام قُصد به[1] الخبر عن عذابه وعن رحمته من أَول ما ابتدأَ، ويندرج أمر أَصحاب الرجفة في عموم قوله: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُ﴾. وقرأَ الحسن، وطاوس، وعمرو بن فائد: [مَنْ أَسَاءَ] من الإساءَة، أي من عمل غير صالح. وللمعتزلة بهذه القراءَة تعلق من وجهين: أحدهما إنفاذ الوعيد، والآخر خلْق المرءِ أَفعاله، وإن [أَساءَ] لا فعل لله فيه، وهذان التعلقان فيهما احتمال ينفصل عنه كما ينفصل عن سائر الظواهر، إلا أَن القرأَة أَطنبوا في التحفظ من هذه القراءَة، وقال أَبو عمرو الداني: لا تصح هذه القراءَة عن الحسن وطاوس، وعمرُو بن فائد رجلُ سوءٍ، وذكر أبو حاتم أَن سفيان بن عُيَيْنة قرأَها مرة واستحسنها فقام إليه عبد الرحمن المقري وصاح به وأَسمعه، فقال سفيان: لم أَدر ولم أفطن لما يقول أَهل البدع، وهذا إفراط من المقربين، وحملهم على ذلك شحهم على الدين وظنهم أَن الانفصال عن تعلق المعتزلة متعذر.

ثم وصف الله تبارك وتعالى رحمته بأَنها وسعت كل شيءٍ، فقال بعض العلماءِ: هو عموم في الرحمة وخصوص في قوله: ﴿كُلَّ شَيۡءٖ﴾، والمراد من قد سبق في علم الله أَن يرحمه دون من سواهم. وقال بعضهم: هو عموم في رحمة الدنيا لأَن الكافر والمؤمن والحيوان كله متقلب في رحمة الله الدنياوية. وقالت فرقة: قوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي﴾ يراد به التوبة، وهي خاصة ـ على هذا ـ في الرحمة وفي الأَشياءِ لأَن المراد مَنْ قد تقع منه التوبة. وقال نوف البِكَالي[2]: إنَّ إبليس لما سمع قول الله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ طمع في رحمة الله، فلما سمع ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يئس إبليس وبقيت اليهود والنصارى، فلما تمادت الصفة تبيَّن أَن المراد أُمة محمد ﷺ ويئس اليهود والنصارى من الآية، وقال نحوه قتادة.

---

(١) سقطت لفظة (به) في بعض النسخ.

(٢) هو نوف بن فضالة الحميري البكالي، إمام أهل دمشق في عصره، من رجال الحديث، وورد ذكره في الصحيحين، وكان راوياً للقصص، وهو ابن زوجة كعب الأحبار، ذكره البخاري في فصل من مات ما بين التسعين إلى المائة. (تهذيب التهذيب ـ الأعلام).



وقوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أَي أُقدرها وأَقضيها، وقال نوف البِكَالي: إن موسى عليه السلام قال: يا رب جعلت وفادتي لأُمة محمد ﷺ، وقال نوف البِكَالي: فاحمدوا الله الذي جعل وفادة بني إسرائيل لكم، وقوله: ﴿يَتَّقُونَ﴾ في هذه الآية ـ قالت فرقة معناه: يتقون الشِّرك، وقالت فرقة: يتقون المعاصي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن قال: «الشِّرك لا غير» خرج إلى قول المرجئة، يَرِدُ عليه من الآية شرط الأَعمال بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾، ومن قال: «المعاصي ولابُدّ» خرج إلى قول المعتزلة، والصواب أَن تكون اللفظة عامة ولكن ليس بأَن نقول: «ولابُدّ من اتقاءِ المعاصي»، بل أَن نقول: «مع أَن مواقع المعاصي في مشيئة الله تعالى»، ومعنى [يَتَّقُونَ]: يجعلون بينهم وبين المتَّقَى وقاية وحجاباً، فذكر الله تعالى الرتبة العالية ليتسابق السامعون إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ الظاهر من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ أنها الزكاة المختصة بالمال، وخصها هنا بالذكر تشريفاً لها، وجعلها مثالاً لجميع الطاعات، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما روي عنه: وَيُؤْتون الأعمال التي يزكُّون بها أَنفسهم.

قَوله عزَّ وجلَّ:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

هذه الألفاظ أَخرجت اليهود والنصارى من الاشتراك الذي يظهر في قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، وخلَّصت هذه العِدَة لأُمة محمد ﷺ. قاله ابن عباس، وابن جبير، وغيرهما.

و﴿يَتَّبِعُونَ﴾ معناه: في شرعه ودينه، و﴿الرَّسُولَ﴾ و﴿النَّبِيَّ﴾ اسمان لمعنيَين، فإنَّ الرسول أَخص من النبي، هذا في الآدميين لاشتراك الملَك في لفظة الرسول.

والنبي مأخوذ من النبأ، وقيل: لما كان طريقاً إلى رحمة الله تبارك وتعالى وسبباً شبّه بالنبي الذي هو الطريق، وأنشدوا:

لأَصْبَحَ رَتْماً دُقَاقَ الْحَصى مَكَانَ النَّبيِّ مِنَ الكَاثِبِ[١]

وأَصله الهمز ولكن خفف، كذا قاله سيبويه، وذلك كتخفيفهم خابية وهي من خبأ، واستعمل تخفيفه حتى قد روي أَن رسول الله ﷺ قال: «لا تنبروا اسمي»[٢]. وقدم الرسول اهتماماً بمعنى الرسالة عند المخاطبين بالقرآن، وإلا فمعنى النبوة هو المتقدم، وكذلك ردَّ رسول الله ﷺ على البراءِ بن عازب حين قال: «آمنت بكتابك الذي أَنزلت، وبرسولك الذي أَرسلت»، فقال له رسول الله ﷺ: «وبنَبيِّك الذي أَرسلت»[٣] ليرتب الكلام كما ترتب الأَمر في نفسه، لأَنه نُبِّىءَ ثم أُرسل، وأَيضاً ففي العبارة المردودة تكرار الرسالة وهو معنى واحد.

و[الأُمِّيّ] بضم الهمزة. قيل: نُسب إلى أُم القرى وهي مكة.

---

(١) البيت لأوس بن حَجَر يرثي فُضالة بن كلْدَةَ الأسديّ، وقبله يقول:

علـى السَّيِّـد الصَّعْـبِ لَـوْ أَنَّـهُ يَقُـومُ علـى ذِرْوَةِ الصَّـاقِـبِ

وأوس من فحول الجاهلية، ومن الذين يأخذون شعرهم بالإصلاح، وقد انقطع إلى فضالة هذا يمدحه. ورَتْماً يعني مرتُوماً، من رتَم الشيءَ كَسَرَهُ. ودُقاق بضم الدال: فتات كل شيءٍ، والنَّبيُّ: المكان المرتفع، والكاثب: الرمل المجتمع، وقيل: النبي: ما نَبا من الحجارة إذا نجلتها الحوافر، ويقال: الكاثب: جَبَل وحوله رواب يقال لها: النبيّ، يقول أوس: لو قام فُضالة على الصَّاقب (وهو جبل) لذلّله ولتَسَهّل له حتى يصير كالرمل الذي في الكاثب. قال ابن بري: الصحيح في النبي ها هنا أنه اسم رمل معروف، والكاثب اسم قُنّة في الصاقب. (عن اللسان).

(٢) الرواية في (النهاية) وكذلك في (اللسان) أن رجلاً قال له: يا نبيء الله، فقال: (لا تنبر باسمي، إنما أنا نبي الله) وقد سبق لابن عطية رحمه الله أن نقل عن أبي علي تضعيف سند هذا الحديث، واستدل على ذلك بأن المادح ـ وهو العباس بن مرداس ـ قد مدحه بقوله:

يـا خـاتِـمَ النُّبَـاءِ إنَّـكَ مُـرْسَـلٌ بـالحـقِّ، كـلُّ هُـدَى الإلـهِ هُـدَاكـا

ولم يؤثر في ذلك إنكار، وأن الجمع كالواحد ـ (راجع ج ١ ص ٣٢١ ـ ٣٢٢).

(٣) هذا الحديث رواه البخاري في (الوضوء) و(الدعوات)، ورواه مسلم، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي، والإمام أحمد، وهو حديث طويل يعلّم النبي ﷺ فيه البراءَ دعواتٍ يقولها إذا أتى مضجعه ـ وفي آخر الحديث: «فَرَدَدْتُها على النبي، فلما بلغت: اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت قلت: ورسولك، قال: لا، ونبيك الذي أرسلت» (البخاري ١ ـ ٦٧ ط دار الفكر).



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واللفظة ـ على هذا ـ مختصة بالنبي ﷺ وغير مضمنة معنى عدم الكتابة. وقيل: هو منسوب ـ لعدم الكتابة والحساب ـ إلى الأم، أَي: هو على حال الصدور عن الأُم في عدم الكتابة. وقالت فرقة: هو منسوب إلى الأمة، وهذا أَيضاً مضمن عدم الكتابة لأَن الأُمة بجُملتها غير كاتبة حتى تحدث فيها الكتابة كسائر الصنائع. وقرأَ بعض القراءِ فيما ذكر أَبو حاتم: [الأَمّيّ] بفتح الهمزة، وهو منسوب إلى الأَمِّ وهو القصد، أَي لأَن هذا النبي مقصد للناس وموضع أَمٍّ يؤُمّونه بأَفعالهم وتشرعهم، قال ابن جني: وتحتمل هذه القراءَة أَن يريد الأُمّيّ فغيّر تغيير النسب[1].

والضمير في قوله: ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ لبني إسرائيل، والهاءُ منه لمحمد ﷺ، والمراد صفته ونعته. ورُوي أَن الله عزَّ وجلَّ قال لموسى: قل لبني إسرائيل: أَجعل لكم الأَرض مسجداً وطهوراً، وأَجعل السكينة معكم في بيوتكم، وأَجعلكم تقرؤُون التوراة عن ظهر قلوبكم. فأَخبر موسى بني إسرائيل فقالوا: إنما نريد أَن نصلي في الكنائس، وأَن تكون السكينة كما كانت في التابوت، وأَن لا نقرأَ التوراة إلا نظراً، فقيل لهم: فنكتبها للذين يتقون يعني أُمة محمد ﷺ. وروي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في البخاري وغيره أَن في التوراة من صفة محمد ﷺ: «يا أيها النَّبي، إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأَسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن أَقبضه حتى أُقيم به الملة العوجاءَ بأَن يقولوا لا إله إلا الله، فنقيم به قلوباً غُلفا، وآذاناً صما، وأَعيناً عميا». وفي البخاري: «فنفتح به عيوناً عميا، وآذاناً صما، وقلوباً غلفا»[2].

ونص كعب الأَحبار نحو هذه الألفاظ إلا أَنه قال: «قلوباً غلفا، وآذاناً صموما» قال الطبري: وهي لغة حميرية، وقد رويت «غلوفيا وصمومياً».

(١) وذلك ما قيل في النسب إلى أُميَّة: أَمويٌّ بالفتح. فهذا يسمونه تَغيير النَّسَب.

(٢) أخرجه ابن سعد، والبخاري، وابن جرير، والبيهقي في الدلائل ـ عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ، قال: أَجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ـ يا أَيُّها النبي... إلخ الحديث (الدر المنثور).



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَظن هذا وهماً وعجمة.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ يحتمل أَن يريد ابتداءَ وصف الله تبارك وتعالى النبي ﷺ، ويحتمل أَن نجعله متعلقاً بـ ﴿يَجِدُونَهُ﴾ في موضع الحال على تجوّز، أَي: يجدونه في التوراة آمراً بشرط وجوده، فالمعنى الأَول لا يقتضي أَنهم علموا من التوراة أَنه يأْمرهم وينهاهم ويُحل ويُحرم، والمعنى الثاني يقتضي ذلك، فالمعنى الثاني ـ على هذا ـ ذمٌّ لهم، ونحا إِلى هذا أَبو إِسحق الزجاج. وقال أَبو علي الفارسي في «الأغفال»: ﴿يَأْمُرُهُم﴾ عندي تفسير لما كتب من ذكره، كما أَن قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ تفسير للمثل(١). ولا يجوز أَن يكون حالاً من الضمير في ﴿يَجِدُونَهُ﴾ لأَن الضمير للذكر والاسم، والذكر والاسم لا يأْمران.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وما قدمته من التجوّز وشرط الوجود يقرب مما منع منه أَبو علي، وانظر. و﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ ما عرف بالشرع، وكل معروف من جهة المروءَة فهو معروف بالشرع، فقد قال ﷺ: «بعثت لأُتمِّمَ محاسن الأَخلاق»(٢)، و[الْمُنْكَر] مقابله.

و[الطَّيِّبَات] قال فيها بعض المفسرين: إِنها إِشارة إِلى البحيرة ونحوها، ومذهب مالك رحمه الله أَنها المحلَّلات، فكأَنه وصفها بالطيب إِذ هي لفظة تقتضي مدحاً وتشريفاً، وبحسب هذا يقول في [الْخَبَائِث] إِنها المحرَّمات. وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: الخبائث: هي لحم الخنزير والربا وغيره، وعلى هذا حلَّل مالك المتقذرات كالحيَّات والخنافس والعقارب ونحوها، ومذهب الشافعي رحمه الله أَن الطيبات هي من جهة الطعم إِلا أَن اللفظة عنده ليست على عمومها لأَن عمومها بهذا

---

(١) وهذا في الآية ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فقوله سبحانه: ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ تفسير للمثل في رأي أبي عليّ.

(٢) رواه الإمام مالك في الموطأ، ولفظه: (بُعثت لأتَمِّم حُسْنَ الأخلاق) ـ وقد قال في شرح الزرقاني إن الحديث مروي برجال الصحيح عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رواه أحمد وقاسم بن أصبغ، والحاكم وغيرهم. والرواية المشهورة: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

الوجه من الطعم يقتضي تحليل الخمر والخنزير، بل يراها مختصة فيما حلَّله الشرع، ويرى الخبائث لفظاً عاماً في المحرمات بالشرع وفي المتقذرات فيحرم العقارب والخنافس والوزغ وما جرى هذا المجرى، والناس على هذين القولين إلا أن في تعيين الخبائث اختلافاً ليس هذا موضع تقصيه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ الآية. [يَضَع] كان قياسه أَن يكون (يَضِع) بكسر الضاد لكن ردّه حرف الحلق إلى فتح الضاد، قال أَبو حاتم: وأَدغم أَبو عمرو [يَضَع عَنهُمْ] العين في العين. وأَشمها الرفع وأَشبعها أَبو جعفر وشيبة ونافع، وقرأ طلحة: [ويُذْهِبُ عَنهُمْ إِصْرَهُمْ]. والإِصْر: الثقل، وبه فسّر ـ هنا ـ قتادة، وابن جبير، ومجاهد. والإِصْر أَيضاً: العهد، وبه فسّر ابن عباس، والضحاك، والحسن، وغيرهم. وقد جمعت هذه الآية المعنيين، فإن بني إسرائيل قد كان أُخذ عليهم عهد أَن يقوموا بأَعمال ثقال فوضع عنهم بمحمد ﷺ ذلك العهد وثِقَل تلك الأَعمال. وحكى أَبو حاتم عن ابن جبير قال: الإصر: شدة العبادة. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، والناس: ﴿إِصْرَهُمْ﴾، وقرأ ابن عامر وحده، وأَيوب السختياني، ويعلى بن حكيم، وأبو سراج الهذلي، وأَبو جعفر: [آصارَهم] بالجمع، لما كانت الأَعمال كثيرة كانت أَثقالها متغايرة، ومن وحّد الإِصْر فهو مفرد اسم جنس يرادُ به الجمع، قال أَبو حاتم: في كتاب بعض العلماءِ: «أصرهم» واحد مفتوح الهمزة عن نافع، وعيسى، والزيات، وذلك غلط. وذكرها مكيٌّ عن أَبي بكر عن عاصم وقال: هي لغة.

﴿وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ عبارة مستعارة أَيضاً لتلك الأَثقال، كقطع الجلد من أَثر البول، وأَن لا ديَة، ولابُدَّ من قتل القاتل، وترك الأَشغال يوم السبت، فإنه رُوي أَن موسى عليه السلام رأَى يوم السبت رجلاً يحمل قصباً فضرب عنقه، هذا قول جمهور المفسِّرين، وهذا مثل قولك: «طُوِّق فلانٌ كذا» إذا أُلزمه، ومنه قوله الشاعر:

اذهَبْ بها اذهَبْ بِها طُوِّقْتَها طَوْقَ الْحَمَامَهْ[1]

أَي: لزمك عارها.

---

(١) قاله أبو أحمد بن جحش لأبي سفيان. قال ذلك القرطبي في تفسيره.

ومن هذا المعنى قول الهذلي:

فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يا أُمَّ مَالِكٍ ... ولكِنْ أَحَاطَتْ بالرِّقَابِ السَّلاسِلُ
وَعَادَ الفَتى كالكَهْلِ لَيْسَ بِقَائِلٍ ... سِوى الحَقِّ شيئاً فاستَراح العَوَاذِلُ[(١)]

يريد أوامر الإسلام ولوازم الإيمان الذي قيّد الفتك كما قال ﷺ[(٢)]. وقال ابن زيد: إنما المراد هنا بالأغلال قول الله عزَّ وجلَّ في اليهود ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾[(٣)]، فمن آمن بمحمد ﷺ زالت عنه الدعوة وتغليلها.

ثم أخبر تعالى عن حال المؤمنين فقال: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾، وقرأ الجحدري، وسليمان التيمي، وقتادة، وعيسى: [عَزَرُوه] بالتخفيف، وجمهور الناس على التشديد في الزاي، ومعناه في القراءَتين، وقَّروه. والتعزيز والنصر مشاهدة خاصة للصحابة، واتباع النور يشترك فيه معهم المؤمنون إلى يوم القيامة. والنور كناية عن جملة الشرع. وقوله: [مَعَهُ] فيه حذف مضاف والتقدير: مع بعثه أو نبوته أو نحو هذا، وشبّه الشرع والهدى بالنور إذ القلوب تستضيءُ به كما يستضيءُ البصر بالنور. و[الْمُفْلِحُونَ] معناه: الفائزون ببغيتهم، وهذا يعم معاني الفلاح فإن من بقي فقد فاز ببغيته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾.

---

(١) شبّه الشاعر حدود الإسلام وموانعه عن التخطي إلى المحظورات بالسلاسل التي أحاطت بالأعناق، وهو يقول لصاحبته: لم يعد الأمر كعهدنا في الماضي، لقد أحاطت بنا القيود والموانع وصرنا جميعاً مطالبين بالعدل والحق، ويروى البيت الثاني: «سوى العدل» بدلاً من «سوى الحق».

(٢) نص الحديث كما رواه في الجامع الصغير: «الإيمان قيْد الفَتْك، لا يفتك مؤمن»، وقال: أخرجه البخاري في التاريخ، وأبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه ـ عن أبي هريرة ـ والفَتْك: ركوب ما تدعو إليه النفس دون مبالاة ـ كالغدر والاغتيال ـ والقتل مجاهرة ـ والمبالغة في الخبث ـ والسلوك الماجن ـ وكل هذه المعاني محرمة بالإيمان. فالإيمان قيد المؤمن يمنعه منها.

(٣) المائدة: ٦٤.



هذا أمر من الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه بإشهار الدعوة والحضّ على الدخول في الشرع، وذلك أنه لما رَجَّى الأُمة المتبعة للنبي الأُمي التي كتب لها رحمته عقَّب ذلك بدعاءِ الناس إلى الاتباع الذي تحصل معه تلك المنازل. وهذه الآية خاصة بمحمد ﷺ بيْن الرسل، فإن محمداً ﷺ بُعث إلى الناس كافة وإلى الجن، قاله الحسن، وتقتضيه الأَحاديث، وكل نبي إنما بعث إلى فرقة دون العموم، ثم إنه لما أَعلن بالرسالة من عند الله تبارك وتعالى أَردف بصفة الله التي تقتضي الإذعان له وهي أَنه مالك السموات والأرض بالخلق والإبداع والإِحياءِ والإماتة، لا إِله إلا هو ولا معبود سواه.

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية. هو للحضِّ على اتباع محمد ﷺ، وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤۡمِنُ﴾ يريد: الذي يصدق ﴿بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾، والكلمات هنا الآيات المنزلة من عنده كالتوراة والإنجيل.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿كَلِمَاتِهِ﴾ بالجمع، وقرأَ عيسى بن عمر: [كَلِمَتِهِ] بالإفراد الذي يراد به الجمع، وقرأَ الأَعمش: [الذي يؤمن بالله وآياته] بدل [كَلِمَاتِهِ]، وقال مجاهد، والسدي: المراد بـ [كلماته] أَو [كَلمته] عيسى بن مريم.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ أي على طمعكم وبحسب ما ترونه، وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ لفظ عام يدخل تحته جميع إلزامات الشريعة، جعلنا الله من متَّبعيه على ما يلزم بمنِّه ورحمته.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ﴾ الآية. ﴿يَهۡدُونَ﴾ معناه: يرشدون أنفسهم، وهذا الكلام يحتمل أَن يريد به وصف المؤمنين المتقين من بني إسرائيل على عهد موسى وما والاه من الزمن، فأَخبر أَنه كان في بني إسرائيل على عُتُوّهم وخلافهم من اهتدى واتقى وعدل، ويحتمل أن يريد الجماعة التي آمنت بمحمد ﷺ من بني إسرائيل على جهة الاستجلاب لإيمان جميعهم، ويحتمل ما رُوي من أَن بني إسرائيل لما تقطعوا مرّت أُمة منهم واعتزلت ودخلت تحت الأَرض فمشت في سرب تحت الأَرض سنة ونصف سنة حتى خرجوا وراءَ الصين، فهم هنالك خلف واد من شهد يقيمون الشرع ويهدون بالحق، قاله السدي وابن جريج، ورُوي بعضه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا حديث بعيد، وقرأ بعض من الناس: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ بشد الطاءِ، وقرأ أَبو حيوة، وابن أَبي عبلة: [وَقَطَعْنَاهُمُ] بتخفيف الطاءِ، ورواها أَبان عن عاصم، ومعناه: فرّقناهم، من القطع، وقرأ جمهور الناس ﴿عَشْرَةَ﴾ بسكون الشين، وهي لغة الحجاز، وقرأ يحيى بن وثاب، والأَعمش، وطلحة بن سليمان بخلاف: [عَشَرة] بفتح الشين، وقرأَت هذه الجماعة أَيضاً، وطلحة بن مصرف، وأَبو حيوة: [عَشِرَة] بكسر الشين، وهي لغة تميم. وقال أَبو حاتم: والعجب أن تميماً يخففون ما كان من هذا الوزن، وأَن أَهل الحجاز يشبعون، وتناقضوا في هذا الحرف. وقوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل من ﴿ٱثْنَتَيْ﴾، والتمييز الذي بيّن العدد محذوف مقدر: اثنتي عشرة فرقة أَو قطعة أسباطاً، وإمَّا أن يزول عن التمييز ويقدر: وقطعناهم فراقا اثنتي عشرة، ثم أَبدل [أَسْبَاطاً]، والأَول أَحسن وأَبين. ولا يجوز أن يكون [أَسْباطاً] تمييزاً لأَن التمييز لا يكون إلا مفرداً نكرة، وأَيضاً فالسِّبْط مذكر وهو قد عُدَّ مُؤَنَّثاً، على أَن هذه العلة لو انفردت لمنعت إذ السبط بمعنى الأُمة، قال الطبري: وقال بعض الكوفيين: لما كان السِّبط بمعنى الأمة غلب التأْنيث، وهو مثل قول الشاعر:

فَإِنَّ كِلاباً هَذِهِ عَشْرُ أَبْطُنٍ ... وَأَنْتَ بَرِيءٌ من قَبَائِلِهَا العَشْرِ(١)

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَغفل هذا الكوفي جمع الأَسباط وأَن ما ذهب إِليه إنما كان يجوز لو كان الكلام: «اثنتي عشرة سبطا»، والسبط في ولد إسحق كالقبيلة في ولد إسماعيل، وقد قال الزجاج وغيره: إن السِّبط من السَّبَط وهو شجر.

---

(١) قال العيني في شرح شواهد شروح الألفية: «قائله رجل من بني كلاب يسمي النواح، والشاهد في قوله: «عشر أبطن»، وكان القياس: «عشرة أبطن» لأن البطن مذكّر، لكنه كنّى عن الأبطن بالقبائل بدليل قوله: «من قبائلها العشر». وقال في (اللسان): «البطن دون القبيلة، وقيل: دون الفخذ وفوق العمارة، مذكّر، والجمع: أبطن وبطون، فأما قوله: وإن كلابا... إلخ فإنه أنث على معنى القبيلة، وأبان ذلك بقوله: من قبائلها العشر». وفي خاتمة المصباح: «البطن مذكر ولا يؤنث». وأشار في نهاية الأرب (٢ ـ ٣٣٨) إلى البيت، وهم (يعني العشرة أبطن): جعفر، وأبو بكر واسمه عبيد، ومعاوية وهو الضباب بن كلاب، وعامر، وربيعة، والأضبط، وعمرو، وعبد الله، ورُؤاس، وقيل (رواس)، وكعب.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما الأظهر فيه أنه عبراني عرّب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

قد تقدم في سورة البقرة أمر الْحَجَرِ والاستسقاءِ، وأين كان، وأمر التظليل وإنزال المنّ والسلوى، وذكرنا ذلك بما يغني عن إعادته هنا.

و﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ معناه: انفجرت إلا أن الانبجَاس أخف من الانفجار، وقرأ الأعمش، وعيسى الهمداني: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ بتوحيد الضمير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

والمعنى: واذكر إذ قيل لهم، والمراد مَن سلف من بني إسرائيل، وذلك أنهم لما خرجوا من التّيه قيل لهم: اسكنوا هذه القرية، والقرية في كلام العرب: المدينة مجتمع المنازل والإشارة هنا إلى بيت المقدس.

قاله الطبري، وقيل: إلى أريحا. و﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي: هي ونعمها لكم مباحة.

وقرأ السبعة، والحسن، وأبو رجاءٍ، ومجاهد، وغيرهم: ﴿حِطَّةٌ﴾ بالرفع، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [حِطَّةً] بالنصب. الرفع على خبر ابتداءٍ تقديره: طلبُنا

حطةٌ ، والنصب على المصدر ، أي حط ذنوبنا حطةً ، وهذا على أن يكلفوا قول لفظة معناها: حطة. وقد قال قوم: كلفوا قولاً حسناً مضمنه الإيمان وشكر الله ليكون حطة لذنوبهم ، فالكلام ـ على هذا ـ كقولك: قل خيراً. وتوفية هذا مذكورة في سورة البقرة.

وقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي: ﴿نَّغْفِرْ﴾ بالنون ﴿لَكُمْ خَطِيٓـَٔتِكُمْۚ﴾ بالتاءِ مهموزاً على الجمع. وقرأ أبو عمرو: [نَغْفِر] بالنون [لكم خطاياكم] ونحو «قضاياكم» ، وهي قراءَة الحسن والأعمش. وقرأ نافع: [تُغْفَر] بتاءٍ مضمومة ﴿لَكُمْ خَطيئاتكُم﴾ بالهمز وضم التاءِ على الجمع ، ورواها محبوب عن أبي عمرو.

وقرأ ابن عامر: [تُغْفَر] بتاءٍ مضمومة ﴿لكم خطيئتكم﴾ واحدة مهموزة مرفوعة ، قال أبو حاتم: وقرأها الأعرج وفرقة [تَغْفِر] بالتاءِ وفتحها على معنى أن الحطة تَغفر إذ هي سبب الغفران.

وَ[بَدَّلَ] معناه: غيّر اللفظ دون أن يذهب بجميعه ، وأبدل: إذا ذهب به وجاءَ بلفظ آخر[1] ، والإشارة بالقول إلى قول بني إسرائيل: «حبة في شعرة أو حنطة في شعيرة». والرجز الذي أُرسل عليهم: طاعون ، يقال: مات منه في يوم سبعون ألفاً. وتقدم أيضاً استيعاب تفسير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ الآية. قال بعض المتأولين: إن اليهود المعارضين لمحمد ﷺ قالوا: إن بني إسرائيل لم يكن فيهم عصيان ولا معاندة لما أُمروا به ، فنزلت هذه الآية موبخة لهم ومُقَرِّرة ما كان من فعل أهل هذه القرية ، فسؤالهم إنما كان على جهة التوبيخ ، والقرية هنا: مَدْيَن ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقيل: أَيلة ، قاله ابن عباس ، وعبد الله بن كثير ، وعكرمة ، والسدي ، والثوري. وقال قتادة: هي «مقْنا» بالقاف ساكنة ، وقال ابن زيد: هي مقْناة

(١) قال في «البحر المحيط»: وهذه التفرقة ليست بشيءٍ ، وقد جاء في القراءات بدَّل وأبْدل بمعنى واحد ، قُرىء: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ ، و﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ ، و﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ بالتخفيف والتشديد، والمعنى واحد وهو إذهاب الشيء والإتيان بغيره بدلاً منه ، والتشديد قد جاء حيث يذهب الشيءُ كله نحو ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾.



ساحل مدين، ويقال فيها مَغْنَّى. «بالغين مفتوحة ونون مشددة»، وقيل: هي طبرية، قاله الزهري، و[حاضِرَةَ] يحتمل أن يريد معنى الحضور، أي: البحر فيها حاضر، ويحتمل أن يريد معنى الحضارة على جهة التعظيم لها، أي: هي الحاضرة في مدن البحر.

و﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ معناه: يخالفون الشرع، من عدا يعدو. وقرأ شهر بن حوشب، وأبو نهيك: [يَعَدُّون]، قال أبو الفتح: أراد (يعتدون) فأسكن التاءَ ليدغمها في الدال، ونقل فتحتها إلى العين فصار [يَعَدُّون] بفتح العيْن وشد الدال المضمومة. والاعتداءُ منهم في السبت هو نفس العمل والاشتغال كان صيداً أو غيره إلا أنه كان في هذه النازلة بالصيد، وكان الله عزَّ وجلَّ ابتلاهم في أمر الحوت بأن يغيب عنهم سائر الجمعة فإذا كان يوم السبت جاءَهم في الماءِ شارعاً، أي مُقبلا إليهم مصطفاً، كما تقول: أُشرعت الرماح إذا مُدت مصطفة، وهذا يمكن أن يقع من الحوت بإرسال من الله كإرسال السحاب، أو بوحي وإلهام كالوحي إلى النحل، أو بإشعار في ذلك اليوم على نحو ما يشعر الله الدواب يوم الجمعة بأمر الساعة حسبما يقتضيه قول النبي ﷺ: «ما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة حتى تطلع الشمس فرقاً من الساعة»[1]، ويحتمل أن يكون ذلك من الحوت شعوراً بالسلامة في ذلك اليوم على نحو شعور حمام الحرم بالسلامة.
قال رواة هذا القصص: فيقرب الحوت ويكثر حتى يمكن أخذه باليد، فإذا كان ليلة الأحد غاب بجملته، وقيل: غابت كثرته ولم يبق منه إلا القليل الذي يتعب صيده، قال قتادة: ففتنهم ذلك وأضرَّ بهم فتطرقوا إلى المعصية بأن حفروا حُفَراً يخرج إليها ماءُ البحر على أُخدود، فإذا جاءَ الحوت يوم السبت وحصل في الحفرة ألقوا في الأُخدود حجراً فمنعوه الخروج إلى البحر، فإذا كان الأَحد أخذوه، فكان هذا أول التطرق، وروى أشهب عن مالك قال: زعم ابن رومان أنهم كانوا يأْخذ الرجل خيطاً ويصنع فيه وهقة[2] ويلقيها في ذنب الحوت، وفي الطرف الآخر من الخيط وتد مضروب، ويتركه كذلك إلى الأحد، ثم تطَرَّق الناس حين رأَوا من صنع هذا لا يُبْتَلَى حتى كثر

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ، ورواه أيضاً النسائي. (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث).
(٢) الوَهَقْ ـ بتحريك الهاء مفتوحة وبإسكانها: الحبل في طرفه أنشوطة يطرح في عنق الدابة أو الإنسان حتى يمسك ويؤخذ ـ والأنشوطة عقدة سهلة الحلّ إذا جذبت من طرف معيَّن من طرفيها انفتحت بسهولة.

صيد الحوت ومشي به في الأسواق، وأعلن الفسقة بصيده وقالوا: ذهبت حرمة السبت، فنهضت فرقة من بني إسرائيل ونهت وجاهرت بالنهي واعتزلت، والعامل في قوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ قوله: ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ وهو ظرف مقدم.

وقرأ عمر بن عبد العزيز: [حِيتانهم يوم إسباتهم]، وقرأ نافع، وأبو عمر، والحسن، وأبو جعفر، والناس: ﴿يَسْبِتُونَ﴾ بكسر الباءِ، وقرأ عيسى بن عمر، وعاصم بخلاف: [يَسْبُتُون] بضمها، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وعاصم بخلاف: [يُسْبِتُون] من (أَسبت) إذا دخل في السبت.

ومعنى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى أمر الحوت وفتنتهم به، هذا على من وقف على ﴿تَأْتِيهِمْ﴾، ومن وقف على ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فالإشارة إلى كثرة الحيتان شُرَّعاً، أي: فما أتى منها فهو قليل، و﴿نَبْلُوهُم﴾ أي نمتحنهم لفسقهم وعصيانهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي قصص هذه الآية رواية وتطويل اختصرته واقتصرت منه على ما لا تفهم ألفاظ الآية إلا به.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

قال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق، فرقة عصت وصادت، وفرقة نهت وجاهرت وتكلمت واعتزلت، وفرقة اعتزلت ولم تعص ولم تنه. وإن هذه الفرقة لما رأت مجاهرة الناهية وطغيان العاصية وعتوها قالت للناهية: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ يريدون العاصية ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ على غلبة الظن وما عهد من فعل الله حينئذ بالأمم العاصية، فقالت الناهية: موعظتنا معذرة إلى الله، ثم اختُلِفَ بعد هذا فقالت فرقة: إن الطائفة التي لم تعص ولم تنه هلكت مع العاصية عقوبة على ترك النهي، قاله ابن عباس، وقال أيضاً: ما أدري ما فعل بهم. وقالت فرقة: بل نجت مع الناهية لأنها لم تعص ولا رضيت. قاله عكرمة والحسن وغيرهما. وقال ابن الكلبي

فيما أسند عن الطبري: إن بني إسرائيل لم تفترق إلا على فرقتين، فرقة عصت وجاهرت، وفرقة نهت وغيرت واعتزلت، وقالت للعاصية: إن الله يهلككم ويعذبهم، فقالت أمة من العاصين للناهين ـ على جهة الاستهزاء ـ: لمَ تعظون قوماً قد علمتم أن الله مهلكهم ومعذبهم؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقول الأول أصوب، وتؤيده الضمائر في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ﴾ فهذه المخاطبة تقتضي مخاطِباً ومخاطَباً ومكنياً عنه، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [مَعذرةٌ] بالرفع، أي: موعظتنا معذرةٌ أي إقامة عذر، وقرأ عاصم ـ في بعض ما روي عنه ـ وعيسى بن عمر، وطلحة بن مصرف: ﴿معْذرةً﴾ بالنصب، أي: وعظْنا معذرةً، قال أبو علي: حجتها أن سيبويه قال: لو قال رجل لرجل: معذرةً إلى الله وإليك من كذا لنصب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

الرجل القائل في هذا المثال معتذر عن نفسه وليس كذلك الناهون من بني إسرائيل، فتأمل. ومعنى ﴿مُهْلِكُهُمْ﴾ في الدنيا ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقتضي الترجي المحض لأنه من قول آدميين.

والضمير في قوله تعالى: ﴿نَسُوا﴾ للمنهيين، وهو تركٌ سمّي نسياناً إذ أقوى منازل الترك أن ينسى المتروك. و(ما) في قوله ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ﴾ بمعنى الذي، ويحتمل أن يراد به الذكر نفسه، ويحتمل أن يراد به ما كان فيه الذكر، والسوءُ لفظ عام في جميع المعاصي إلا أن الذي يختص هنا بحسب قصص الآية صيد الحوت. و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم العاصون، وقوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ﴾ معناه: مؤلم موجع شديد.

وقرأ نافع وأهل المدينة ـ أبو جعفر، وشيبة وغيرهما: [بِيسٍ] بكسر الباءِ وسكون الياءِ وكسر السّين وتنوينها، وهذا على أنه فعل سُمّي به، كقوله ﷺ: «أنهاكم عن قيل وقال»[1]، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [بِئسَ] كما تقول: بِئسَ الرجلُ، وضعّفها

(١) رواه البخاري في الرقاق والزكاة والاعتصام والأدب، ورواه مسلم في الأقضية، ورواه الدارمي في الرقاق، ومالك في «الموطأ» في الكلام، والإمام أحمد في مواطن كثيرة من مسنده ـ وفي البخاري أن=



أَبو حاتم[١] ، قال أَبو عمرو: ورُوي عن الحسن [بِئْس] بهمزة بين الباءِ والسِّين. وقرأَ نافع ـ فيما يروي عنه خارجة ـ [بَيْسٍ] بفتح الباءِ وسكون الياءِ وكسر السِّين منونة. وروى مالك بن دينار عن نصر بن عاصم [بيَسٍ] على مثل جَمَلٍ وجَبَلٍ ، وقرأَ أَبو عبد الرحمن المقرىء: [بِئْسٍ] بفتح الباءِ وهمزة مكسورة وسين منونة على وزن فَعِلٍ ، ومنه قول عبيد الله بن قيس الرقيات:

لَيْتَنِـــي أَلْقَـــى رُقَيَّـــةَ فِـــي ... خَلْـــوَةٍ مِـــنْ غَيْـــرِ مَـــا بَئِـــس[٢]

قال أَبو عمرو الداني: هي قراءَة نصر بن عاصم ، وطلحة بن مصرف. ورُوي عن نصر [بَيِس] بياءٍ مكسورة من غير همز ، قال الزهراوي: ورُوي عن الأَعمش [بَئِّسٍ] الباءُ مفتوحة والهمزة مكسورة مشددة والسين مكسورة منونة. وقرأَت فرقة: [بَئِّسَ] التي قبلُ إلاَّ فتح السِّين ، ذكرها أَبو عمرو الداني عما حكى يعقوب ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، ونافع ـ في رواية أَبي قُرَّة عنه ـ وعاصم ـ في رواية حفص عنه ـ [بَئِيسٍ] بياءٍ بعد الهمزة المكسورة والسِّين المنونة ـ على وزن فَعِيلٍ. وهذا وصف بالمصدر كقولهم: «عذير الحيّ» ـ والنذير والنكير ونحو ذلك. وهي قراءَة الأَعرج ، ومجاهد ، وأَهل الحجاز وأَبي عبد الرحمن ، ونصر بن عاصم ، والأَعمش ، وهي التي رجَّح أَبو حاتم ، ومنه قول ذي الإِصبع العَدْوَانيّ:

حَنِقَـــا عَلَـــيَّ ولاَ أَرى ... لِـــيَ مِنْهُمَـــا شَـــراً بئيســـا[٣]

= معاوية كتب إلى المغيرة يطلب إليه أن يكتب له ما سمعه من رسول الله ﷺ ، فكتب إليه. وفي آخر الحديث «وكتب إليه أنه كان ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، وكان ينهى عن عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات».

(١) قال أبو حاتم: لأنه لا يقال: مررت برجل بئس ، حتى يقال: بئس الرجل أو بئس رجلا ، قال النحاس: وهذا مردود من كلام أبي حاتم ، حكى النحويون: إن فعلت كذا وكذا فبها ونِعْمَتْ ، يريدون: ونعمت الخصلة ، والتقدير على قراءة الحسن: بعذاب بئس العذاب. (راجع تفسير القرطبي).

(٢) هو البيت الثاني من أربعة أبيات وردت في ديوانه ، أولها قوله:

يَـــا لَقَـــوْمٍ ، عَـــادَنـــي نُكُســـي ... مِـــنْ عِـــدَاتِ البُـــدَّن الشُّمُـــسِ

وقد علَّق المحقق (طبْعة دار صادر بيروت) على بيتنا هذا بأنه زيادة من العيني ـ ومن الخزانة للبغدادي: ٣ ـ ٥٨٧ والكلمة موضع الشاهد هنا مضبوطة في الديوان (يَئِسٍ) بدلا من (بَئِسٍ) التي ذكرت هنا وهي لغة في اليأس.

(٣) ذو الإصبع العَدْواني اسمه: حِرْثان بن الحَرْث ، أو حويرث ، أو الحَرْث ، وقيل: السموأل ـ والاختلاف في اسمه كبير ، لكنه عرف بهذا اللقب لأن حيَّة نهشت إبهام قدمه فقطعها ـ وهو شاعر =

وقرأ أهل مكة [بِئيسٍ] كالأول إلا كسر الباءِ، على وزن فعيلٍ، قال أبو حاتم: هما لغتان، وقرأ عاصم ـ في رواية أبي بكر عنه ـ: [بَيْئَسٍ] بفتح الباءِ وسكون الياءِ وفتح الهمزة، على وزن فَيْعَل، ومعناه: شديد، ومنه قول امرىء القيس بن عابس الكندي:

كِـلاهُمَـا كـانَ رَئيسـاً بَيْئَسـا يَضْرِبُ في يَوْمِ الْهِيَاجِ الْقَوْنَسَا[١]

فهي صفة كضَيْغَم وحَيْدَر، وهي قراءَة الأعمش، وقرأ عيسى بن عمر، والأعمش ـ بخلاف عنه ـ [بَيْئِسٍ] كالتي قبلُ إلا كسر الهمزة على وزن فَيْعِلٍ، وهذا شاذٌ لأنه لا يوجد فَيْعِلٍ في الصحيح، وإنما يوجد في المعتل مثل سيّد وميّت. وقال الزهراوي: روى نصر بن عاصم: [بَيِّس] على مثال [مَيِّت]، وهذا على أنه من البؤس، ولا أصل له في الهمز، قال أبو حاتم: زعم عاصم أن الحسن والأعمش قرأا: [بِئْيَس] الباءُ مكسورة والهمزة ساكنة والياءُ مفتوحة على مثال حِذْيَم، وضعفها أبو حاتم، وقرأ ابن عامر من السبعة: [بِئْسٍ] بكسر الباءِ وسكون الهمزة وتنوين السين المكسورة، وقرأت فرقة: [بَأْس] بفتح الباءِ وسكون الألف، وقرأ أبو رجاءٍ [بَائِس] على وزن فاعِل، وقرأت فرقة: [بَيَسَ] بفتح الباءِ والياءِ والسِّين على وزن فَعَلَ، وقرأ مالك بن دينار: [بَأْسَ] بفتح الباءِ والسِّين وسكون الهمزة على وزن فعْلَ غير مصروف، وقرأت فرقة: [بَأْسٍ] مصروفاً، وحكى أبو حاتم [بَيَسٍ] قال أبو الفتح: هي قراءَة نصر بن عاصم، وحكى الزهراوي عن ابن كثير وأهل مكة [بئس] ويهمز همزاً خفيفا[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولم يبيّن هل الهمزة مكسورة أو ساكنة.

= جاهليٌّ قديم، يبدو من شعره أنه رجل منازعة ومفاخرة وخصام، وشعره لا يتجاوز المقطعات. والبيت فيه استهانة باثنين حقدا عليه وهو لا يخاف شرهما، والحنق: الغيظ.

(١) البَيْئَس كفَيْعل: الشديد، والأسدُ لِشدَّته. والقَوْنَس: مقدَّم الرأس. وأعلى بيضة الحديد، وعظم ناتىءٌ بين أذني الفرس، وكل معنى من هذه المعاني وارد وممكن هنا. يقال: فلان يضرب القوانس، قال طرفة:

أَضْـرِبُ عنْـكَ الْهُمُـومَ طـارِقَهَـا ضَـرْبَـكَ بـالسَّوْط قَـوْنَـسَ الْفَـرَسِ

أراد: أَضْرِبَنَّ، يصفهما بالرياسة والشجاعة وضرب الهام في يوم الهياج.

(٢) ذكر ابن عطية اثنين وعشرين قراءة، وأيضاً ذكر أبو حيان في البحر اثنين وعشرين ونصَّ على ذلك في آخرها، أما القرطبي فذكر إحدى عشرة قراءة فقط. فتأمل.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي لأَجل ذلك وعقوبة عليه.

والعُتُوّ: الاستعصاءُ وقلة الطواعية.

وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ يحتمل أَن يكون قولاً بلفظ من مَلَك أَسمعهم ذلك فكان أَذهب في الإِغراب والهوان والإِصغار، ويحتمل أَن يكون عبارة عن المقدرة المكوّنة لهم قردة، و﴿خَاسِئِينَ﴾ مبعدين، كما قال رسول الله ﷺ لابن صياد: (اخْسَأْ)[1]، وكما يقال للكلب: اخسأ، فـ﴿خَاسِئِينَ﴾ خبر بعد خبر، هذا اختيار أَبي الفتح، وضعّف الصفة، وكذلك هو لأَن القصد ليس التشبيه بقردة مبعدات.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويجوز أَن يكون ﴿خَاسِئِينَ﴾ حالاً من الضمير في ﴿كُونُوا﴾، والصفة أَيضاً متوجهة مع ضعفها، ورُوي أَن الشباب منهم مُسخوا قردة والرجال الكبار مسخوا خنازير، وروي أَن مسخهم كان بعد المعصية في صيد الحوت بعامين، وقال ابن الكلبي: إن إهلاكهم كان في زمن داود. ورُوي أَن الناهين قسموا المدينة بينهم وبين العاصين بجدار، فلما أَصبحوا ليلة أُهلك العاصون، لم يفتح باب مدينة العاصين حتى ارتفع النهار، فاستراب الناهون لذلك، فطلع أَحد الناس على السور فرآهم ممسوخين قردة تتواثب فصاح، فدخلوا عليهم يعرف الرجل قرابته ويعرف القرد أَيضاً كذلك قرابته. وينضمون إلى قرابتهم فيتحسرون، قال الزجَّاج: وقال قوم: يجوز أَن تكون هذه القردة من نسلهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتعلَّق هؤلاء بقول النبي ﷺ: «إن أُمة من الأُمم فقدت، وما أُراها إلاَّ الفأْرة إذا قرب لها لبن لم تشرب»[2]، وبقوله ﷺ في الضب.

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود، والدارمي، والإمام أحمد ونصه كما ذكره أحمد عن عبد الله قال: «كنا نمشي مع النبي ﷺ، فمرّ بابن صيّاد فقال: إني قد خبّأت لك خبأ، قال ابن صياد: دخ، قال فقال رسول الله ﷺ: اخسأ فلن تعدو قدرك، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله دعني أضرب عنقه، قال: لا، إن يكن الذي نخاف فلن تستطيع قتله».

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد (٢ ـ ٢٨٩) عن أبي هريرة، ونصه: (فقد سبط من بني إسرائيل وذكر الفأرة فقال: ألا ترى أنك لو أدنيت منها لبن الإبل لم تقربه، وإن قربت إليها لبن الغنم شربته؟ فقال=

وقصص هذا الأمر أكثر من هذا لكن اختصرتُه واقتصرت على عيونه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

بِنْيَةُ ﴿ تَأَذَّنَ ﴾ هي التي تقتضي التكسُّب، من أَذُنَ أي عَلِمَ[1]، وآذَنَ أي أَعْلَم، مثل كَرُمَ وأَكْرَمَ وتكَرَّمَ، إلاَّ أن تعلَّم (وما جرى مجرى هذا الفعل) إذا كان مسنداً إلى اسم الله عزَّ وجلَّ لم يلحقه معنى التكسُّب الذي يلحق المُحْدَثين، فإنما يترتب بمعنى عَلِم صفة لا بِتَكَسُّب، بل هي قائمة بالذات، وإلى هذا المعنى ينحو الشاعر بقوله:

تَعَلَّمْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ[2]

لأنه لم يأمره بالتَّعَلُّم الذي يقتضي جهالة، وإنما أراد أن يوقفه على قوَّة علمه، ومنه قول زهير:

تَعَلَّمْ أَنَّ شَرَّ النَّاسِ حَيٌّ ... يُنادَى في شِعارِهِمُ يَسَارُ[3]

فمعنى هذه الآية: وإذ علِمَ الله ليبعثن عليهم، وتقتضي قوة الكلام أن ذلك العلم منه مقترن بإنفاذ وإمضاءٍ، كما تقول في أمر قد عزمتَ عليه غاية العزم: «علم الله لأفعلن كذا»، نحا إليه أبو علي الفارسي، وقال الطبري وغيره: [تأذَّن] معناه: أَعْلَم، وهو قلق من جهة التصريف إذ نسبة (تَأَذَّن) إلى الفاعل غير نسبة (أَعْلَم)، وتبين ذلك

= أكذا سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: أفأقرأ التوراة؟).

(١) في بعض النسخ زيادة لفظة «ومكَّن»، ومعناها غير واضح مع السياق. وقول المؤلف بعد ذلك: «إلا أنَّ تعَلَّم» ينطبق أيضاً على (تأذَّن) لقوله عقب ذلك: «وما جرى مجرى هذا الفعل».

(٢) يريد أن (تعلَّم) تكون بمعنى (اعْلَم) ولكن ليس المراد علما بعد جهل، بل المراد: اعلم رأيي في ذلك، ومنه قول عمرو بن معد يكرب، أو معد يكرب بن الحارث:

تَعَلَّمْ أنَّ خَيْرَ النَّاسِ طُرّاً ... قَتِيلٌ بين أحْجَارِ الكُلاب

ولا نعرف البيت الذي يقصده بهذه الإشارة الصغيرة، فالأبيات التي تحملها أو تحمل مثلها كثيرة.

(٣) تعلم بمعنى: اعلم، والشِّعار: عبارة يتعارف بها القوم في الحرب أو السفر ـ ويسار: واحد من رعاة الإبل أخذه الحارث بن ورقاءَ، وزهير يذمُّ قوم الحارث بأن (يساراً) هذا صار عيباً لهم ورمزاً يعرفون به كما يعرف القوم بشعارهم.

من التعدي وغيره، وقال مجاهد: ﴿تَأَذَّنَ﴾ معناه: قال، ورُوي عنه أن معناه: أمر، وقالت فرقة: معنى ﴿تَأَذَّنَ﴾: تَأَلَّى (١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقادهم إلى هذا القول دخول اللام في الجواب، وأما اللفظة فبعيدة عن هذا.

والضمير في ﴿عَلَيْهِم﴾ لمن بقي من بني إسرائيل لا للضمير في [لَهُمْ](٢). وقوله تعالى: ﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾ قال سعيد بن جبير: هي إشارة إلى العذاب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي إشارة إلى محمد ﷺ وأُمته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والصحيح أنها عامة في كل مَنْ حالُ اليهود معه هذه الحال، و﴿يَسُومُهُمْ﴾ معناه: يكلفهم ويحملهم، و﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ الظاهر منه الجزية والإذلال، وقد حتم الله عليهم هذا وحطَّ ملكهم، فليس في الأرض راية ليهودي، وقال ابن المسيّب: فيستحب أن تتعب اليهود في الجزية، ولقد حدث أن طائفة من الروم أَمْلكت في صُقْعها، فباعت اليهود المجاورة لهم الساكنة معهم وتملكوهم.

ثم حسُنَ في آخر هذه الآية ـ لتضمنها الإيقاع بهم والوعيد ـ أَنْ ينبه على سرعة عقاب الله ويخوف بذلك تخويفاً عاماً لجميع الناس، ثم رجَّى ذلك لُطفاً منه تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾ معناه: فرقناهم في الأرض، قال الطبري عن جماعة من المفسرين: ما في الأرض بقعة إلا وفيها معشر من اليهود، والظاهر في المشار إليهم في هذه الآية أنهم الذين بعد سليمان وقت زوال ملكهم، والظاهر أنه قبل مدة عيسى عليه السلام؛ لأنه لم يكن فيهم صالح بعد كفرهم بعيسى ﷺ. وفي التواريخ في هذا الفصل روايات مضطربة، و﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ ـ و﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ألفاظ محتملة أن يراد بها صلاح الإيمان، فـ ﴿دُونَ﴾ بمعنى غير يراد بها الكفرة، وإن أُريد بالصلاح العبادة والخير وتوابع الإيمان فـ [دُونَ ذَٰلِكَ] يحتمل أن يكون في مؤمنين.

---

(١) تألى: حَلَف.

(٢) المراد [لَهُم] في قوله تعالى قبل ذلك: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾ معناه: امتحنَّاهم، والحسنات: الصحة والرخاءُ ونحو هذا مما هو بحسب رأي ابن آدم ونظره، والسيئات: مقابلات هذه. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي بحسب رأيكم لو شاهدتم ذلك، والمعنى: لعلهم يرجعون إلى الطاعة ويتوبون من المعصية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠﴾.

(خَلَفَ) معناه: حدث خلْفهم وبعدهم ﴿خَلۡفٞ﴾ بإسكان اللام، ويستعمل في الأشْهَر في الذم، ومنه قول لبيد:

ذَهَبَ الَّذينَ يُعَاشُ في أَكْنَافِهِمْ وبَقِيتُ في خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ[1]

وقد يستعمل في المدح، ومنه قول حسّان:

لنَا الْقَدَمُ الأُولى إلَيْكَ وخَلْفُنَا لأوَّلِنَا في طَاعَةِ اللهِ تَابِعُ[2]

والخلَف ـ بفتح اللام ـ يستعمل ـ في الأشهر ـ في المدح، قال أبو عبيدة، والزجّاج: وقد يستعمل في الذمّ أيضاً، ومنه قول الشاعر:

(١) قال لبيد بيته هذا ضمن قصيدة له يصف فيها تغير الأيام والناس، ويتحدث عن أخيه أربد ومآثره، ومطلع القصيدة في رواية الطوسي:

قَضِّ اللُّبَانَةَ لا أبا لك واذْهَبِ والْحَقْ بأسْرَتِكَ الكرامِ الغُيَّبِ

أما الأصفهاني في الأغاني فيرويها على أن مطلعها:

طَربَ الفؤَاد ولَيْتَه لَمْ يطْرَبِ وعَنَاه ذكْرَى خُلَّةٍ لَمْ تَصْقَبِ

وفي أكنافهم معناه: في ظل خيرهم، والخَلْفُ: البقيَّةُ. وجلد الأجرب: جلْد الجمل الأجرَب وهو مما لا ينتفع به.

(٢) استشهاد صاحب اللسان بهذا البيت على أن الخلْف هو الباقي بعد الهالكِ والتابعُ له، سمّي به المتخلف لا على جهة البدل، قال: ويكون محموداً ومذموماً، وشاهد المحمود قول حسّان (وذكر البيت)، ثم قال: فالخلف ها هنا هو التابع لمن مضى وليس من معنى الخلف الذي هو البدل. وواضح أن التبعيَّة هنا في طاعة الله.



أَلا ذلِكَ الخَلَفُ الأَعْورُ(١)

وقال مجاهد: المراد بالخلْف ها هنا النصارى، وضعّفه الطبري. وقرأ الحسن البصري: [وُرِّثُوا الكتاب] بضم الواو وشد الراءِ، وقوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ إشارة إلى الرشا والمكاسب الخبيثة، والعَرَض: ما يعرض ويَعِنُّ ولا يثبت، و﴿الأَدْنَى﴾ إشارة إلى عيش الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ذمٌّ لهم باغترارهم، وقولهم: «سيغفر» مع علمهم بما في كتاب الله من الوعيد على المعاصي وإصرارهم عليها وأنهم إذا أمكنتهم ثانية ارتكبوها فهؤلاءِ عجزة، كما قال ﷺ: «والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»(٢)، وهم مُصِرُّون، وإنما يقول سيغفر لنا من أقلع وندم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم﴾ الآية. تشديد في لزوم قول الحق على الله في الشرع والأحكام بين الناس، وأن لا تميل الرشا بالحكام إلى الباطل. و﴿الكِتَاب﴾ يريد به التوراة، وميثاقُها: الشدائد التي فيها في هذا المعنى، وقوله: ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ يمكن أن يريد بذلك قولَهم الباطل في حكومة مما يقع بين أيديهم، ويمكن أن يريد قولَهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وهم قد عَلِمُوا الحق في نهي الله تبارك وتعالى عن ذلك. وقرأ جمهور الناس: ﴿يَقُولُوا۟﴾ بياءٍ من تحت، وقرأ الجحدري: [تَقُولُوا] بتاءٍ من فوق.

وقوله تعالى: ﴿وَدَرَسُوا۟﴾ معطوف على قوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾ الآية بمعنى المضي، ويقدر: أَليس قد أُخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه؟ وبهذين الفعلين تقوم الحجة عليهم في قولهم الباطل، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: [وادَّارسوا ما فيه]، وقال الطبري وغيره: قوله: ﴿وَدَرَسُوا۟﴾ معطوف على قوله: ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

---

(١) البيت بتمامه:

تبدلـــــتِ داودَ مختـــــارةً ... ألا ذلـــك الخلـــف الأعـــور

وهو للأحوص الأنصاري. ومن الواضح أنَّ (خَلَفَ) بفتح اللام وأنها في الذمّ، ولم يذكر هذا الشاهد من المفسرين غير ابن عطية إلا صاحب «البحر المحيط»، أما الشاهدان الآخران فقد ذكرهما كل من الطبري والقرطبي، وزاد القرطبي وصاحب «البحر المحيط» شاهداً آخر ذكره أيضاً صاحب (اللسان).

(٢) الحديث بتمامه كما ذكره في «الجامع الصغير»: «الكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعْدَ الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني» وقد رواه الإمام أحمد في مسنده، والترمذي، وابن كثير ـ وهو عن شداد بن أوس ورمز له السيوطي بالصحة.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر لبعد المعطوف عليه، لأن قوله: ﴿وَدَرَسُواْ﴾ يزول منه معنى إقامة الحجة بالتقدير الذي في قوله: ﴿أَلَمْ﴾ ثم وعظ وذكَّر تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاءِ من فوق، وقرأ أَبو عمرو وأَهل مكة: [يَعْقِلُونَ] بالياءِ من أَسفل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ عطف على قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾. وقرأ ابن كثير، ونافع، وحمزة، والكسائي، وعاصم ـ في رواية حفص ـ وأَبو عمرو، والناس: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ بفتح الميم وشد السين، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأَبو العالية، وعاصم وحده ـ في رواية أَبي بكر ـ: [يُمْسِكُونَ] بسكون الميم وتخفيف السّين، وكلهم خفف ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾(١)، إلاَّ أَبا عمرو فإنه قرأ: [وَلاَ تَمَسَّكُوا] بفتح الميم وشد السّين، وقرأ الأَعمش: ﴿والذين استمسكوا﴾ وفي حرف أُبَيّ: ﴿والذين مسكوا﴾، وهما لغتان بمعنى واحد، قال كعب بن زهير:

فَمَا تَمَسَّكُ بالعَهْدِ الَّذي زَعَمَتْ ... إِلاَّ كَمَا تُمْسِكُ المَاءَ الْغَرَابِيلُ(٢)

أَما إن شدَّ السين يجري مع التَّعدي بالباءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾.

﴿نَتَقْنَا﴾ معناه: اقتلعنا ورفعنا، فكأَن النتق اقتلاع الشيءِ، تقول العرب: «نتقت الزبدة من فم القربة»، ومنه قول الشاعر:

وَنَتَقُوا أَحْلاَمَنا الأَثَاقِلاَ(٣)

---

(١) الممتحنة: ١٠.

(٢) هذا البيت من قصيدة كعب المشهورة التي قالها في مدح الرسول، ومطلعها:

بَانَتْ سُعَادُ فقلبي اليومَ مَتْبولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبولُ

(٣) هذا واحد من ثلاث أبيات ذكرها صاحب (اللسان) في مادة (نتق) ـ وهي من مشطور الرجز، ولم=

والناتق: الرحم التي تقلع الولد من الرجل. ومنه قول النابغة:

لَمْ يُحْرَمُوا حُسْنَ الْغِذاءِ وأُمُّهُمْ   دَحَقَتْ عَلَيْكَ بِنَاتِقٍ مِذْكَارِ[١]

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بتزوج الأبكار فإنهن أنتق أرحاماً وأطيب أفواهاً» الحديث[٢]، وقد جاءَ في القرآن بدل هذه اللفظة في هذه القصة بعينها [رفعنا][٣]، لكن [نَتَقْنَا] و[فَوْقَهُم] أعطت الرفع بزيادة قرينة هي أن الجبل اقتلعته الملائكة وأمر الله إيَّاه.

ورُوي أن موسى عليه السلام لما جاءَهم بالتوراة فقال عن الله تعالى: هذا كتاب الله، أتقبلونه بما فيه؟ فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرّم عليكم وما أمركم وما نهاكم، قالوا: انشر علينا ما فيها[٤]، فإن كانت فرائضها يسيرة وحدودها خفيفة قبلناها، قال: اقبلوها بما فيها. قالوا: لا، فراجعهم موسى فراجعوا ثلاثاً فأوحى الله عزَّ وجلَّ إلى

= ينسبها، بل قال: «النّتق»: الزعزعة والهزُّ والجذب والنفض، ونَتَق الشيءَ ينتقه وينتقُه نتقاً: جذبه واقتلعه.. وقال الشاعر:

قَدْ جَرَّبُوا أَخْلاقَنَا الْجَلائِلا   ونَتَقُوا أَحْلامَنَا الأَثَاقِلا

فَلَمْ يَرَ النَّاسُ لَنَا مُعَادِلا

ثم قال صاحب اللسان: «وقال الفراءُ في ذلك: رفع الجبل على عسكرهم فرسخاً في فرسخ، ونَتَقْنَا: رفعنا».

(١) البيت في (اللسان ـ نتق) ـ والرواية فيه وفي الديوان: «طفحت» بدلا من «دحقت»، ولكن اللسان ذكرها مرة أُخرى بلفظ «دحقت» كرواية ابن عطية هنا. والضمير في «يحرموا» راجع إلى أقوام ذكرهم قبل ذلك في أبيات القصيدة، وهم بنو جذيمة والغاضريون. ودحقت المرأة بأولادها: ولدت بعضهم في إثر بعض، والدحوق من النساء: ضد المقاليت وهنَّ المُتْئمات. والناتق: التي أخرجت ما عندها من الولد، ومذكار: التي تلد الذكور. يقول: إنهم غذوا غذاءً حسناً فنموا وكثروا، وإن أمهم ولدتهم لك تباعاً وكانوا جميعاً من الذكور.

(٢) نص الحديث كما رواه في «الجامع الصغير»: «عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواهاً وأنتق أرحاماً وأرضى باليسير»، ثم قال: رواه ابن ماجه، والبيهقي في شعب الإيمان ـ عن عويمر بن ساعدة، ورمز له بعد ذلك بأنه حسن.

(٣) وذلك في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. قال القرطبي عند تفسيرها: «هذه الآية تفسر معنى قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾».

(٤) أَنَّثَ الضمير هنا لأنه يعود على التوراة، وهي المقصودة في قول موسى عليه السلام قبل ذلك: «هذا كتاب الله».



الجبل فانقلع وارتفع فوق رؤوسهم ، فقال لهم موسى ﷺ: ألا ترون ما يقول ربي؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل ، قال الحسن البصري: فلما رأوا إلى الجبل(١) خرَّ كل واحد منهم ساجداً على حاجبه الأيسر ، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرَقاً أن يسقط عليه ، فلذلك ليس في الدنيا يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر ، يقولون: هذه السجدة التي رفعت بها عنا العقوبة.

و﴿ٱلظُّلَّةِ﴾: ما أظَلَّ ، ومنه ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾(٢) ، ومنه ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾(٣)، ومنه قول أُسَيْد بن حضير للنبي ﷺ: قرأت البارحة فغشي الدار مثل الظُّلَّة فيها أَمثال المصابيح ، فقال النبي ﷺ: «تلك السكينة نزلت للقرآن»(٤). فإن قيل: إذا كان الجبل ظُلَّة فما معنى ﴿كَأَنَّهُۥ﴾؟ فالجواب أَن البشر إنما اعتادوا هذه الأَجرام الأَرضية ظُلَلاً إذا كانت على عُمُد ، فلما كان الجبل على غير عُمُد قيل: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ ، أَي: كأَنه على عُمُد.

﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ قال المفسرون: معناه: أَيقنوا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس الأَمر عندي كذلك ، بل هو موضع غلبة الظن مع بقاءِ الرجاءِ ، وكيف يوقنون بوقوعه وموسى عليه السلام يقول: إن الرّمي به إنما هو بشرط أَن لا يقبلوا التوراة ، والظن إنما يقع ويستعمل في اليقين متى كان ذلك المتيقن لم يخرج إلى

---

(١) عُدّيت (رأى) هنا بحرف الجر (إلى) لأنها تتضمن معنى النظر المؤدي إلى الاعتبار. قاله الراغب ، وذكره في التاج.

(٢) البقرة: ٢١٠.

(٣) الشعراء: ١٨٩.

(٤) رواه البخاري في فضائل القرآن ، ومسلم في المسافرين ، ورواه الإمام أحمد ، ولفظه كما رواه البخاري عن أسيد بن حضير قال: «بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس ، فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت وسكنت الفرس ، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف وكان ابنه يحيى قريباً منه فأشفق أن تصيبه ، فلما اجْترَّه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال له اقرأ يا بن حضير ، اقرأ يا بن حضير ، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسي فانصرفت إليه ، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظُّلَّة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها ، قال: وتدري ما ذاك؟ قال: لا ، قال: تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصْبَحتْ ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم».

الحواس، وقد تبين هذا فيما سلف من هذا الكتاب. ثم قيل لهم في وقت ارتفاع الجبل: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ فأخذوها والتزموا جميع ما تضمنته من شدة ورخاءٍ فما وفوا. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَٱذۡكُرُواْ﴾، وقرأ الأعمش ـ فيما حكى أبو الفتح عنه ـ: [وَاذَّكَّرُوا]. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ على ترجِّيهم، وهذا تشدُّدٌ في حفظها والتَّهمُّم بها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ الآية. التقدير: واذكر إذ أخذ ربك، وقوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ قال النحاة: هو بدل اشتمال من قوله: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، وألفاظ هذه الآية تقتضي أن الأخذ كان من بني آدم من ظهورهم، وليس لآدم في الآية ذكر بحسب اللفظة، وتواترت الأحاديث في تفسير هذه الآية عن النبي ﷺ من طريق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وغيرهما أن الله عزَّ وجلَّ لما خلق آدم (وفي بعض الروايات: لما أهبط آدم إلى الأرض في دهناءَ من أرض السند، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وفي بعضها أن ذلك بنعمان وهي عرفة وما يليها، قاله أيضاً ابن عباس رضي الله عنهما وغيره) مسح على ظهره (وفي بعض الروايات بيمينه، وفي بعض الروايات ضرب منكبه) فاستخرج منها ـ أي من المسحة أو الضربة ـ نسم بنيه، ففي بعض الروايات كالذرّ، وفي بعضها كالخردل[1]. وقال محمد

(١) الأحاديث التي أشار إليها المؤلف هنا رويت من طرق كثيرة، وهذا هو المراد بقوله: «تواترت»، وليس المراد التواتر الاصطلاحي فإن بعضها من أحاديث الآحاد. أما حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد أخرجه مالك في الموطأ، والإمام أحمد في مسنده، وعبد بن حميد، والبخاري في تاريخه، وأبو داود، والترمذي وحسَّنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والآجري في الشريعة، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، واللالكائي، والبيهقي في الأسماء والصفات ـ عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ الآية فقال: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال: «إنَّ الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنَّة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون، فقال الرجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ فقال: إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الله الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار».
وأما ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما فقد أخرج أحمد، والنسائي، وابن جرير، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في الأسماء والصفات ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الله اخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صُلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه =



ابن كعب: إنها الأرواح جعلت لها مثالات، وروى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «أُخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس، وجعل الله لهم عقولاً كنملة سليمان عليه السلام، وأَخذ عليهم العهد بأَنه ربهم وأنه لا إله غيره، فأَقروا بذلك والتزموه، وأَعلمهم أَنه سيبعث الرسل إِليهم مذكرة وداعية، فشهد بعضهم على بعض»[1]، وقال أُبيّ بن كعب: أَشهد عليهم السموات السبع، فليس من أَحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عليه العهد في ذلك اليوم والمقام، وقال السدي: أَعطى الكفار يومئذ العهد كارهين على وجه التقية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذه نخيلة مجموع الروايات المطولة، وكأَن أَلفاظ هذه الأَحاديث لا تلتئم مع أَلفاظ الآية، وقد أكثر الناس في روم الجمع بينهما، فقال قوم: إن الآية مشيرة إلى هذا التناسل الذي في الدنيا، و﴿أَخَذَ﴾ بمعنى: أَوجد على المعهود، وأَن (الإشهاد) هو عند بلوغ المكلف وهو قد أُعطي الفهم، ونصبت له هذه الصنعة الدالة على الصانع، ونحا إلى هذا المعنى الزجاج، وهو معنى تحتمله الألفاظ، لكن يرد عليه تفسير عمر ابن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهما الآية بالحديث المذكور[2]، وروايتهما ذلك عن النبي ﷺ.

وطوّل الجرجاني[3] في هذه المسأَلة، ومدار كلامه على أَن المسح وإخراج الذرية من ظهر آدم حسب الحديث، وقيل في الآية: أَخَذَ من ظهورهم، إذ الإخراج من ظهر آدم الذي هو الأَصل إخراج من ظهور بنيه الذين هم الفروع، إذ الفرع والأَصل شيءٌ واحد، إلى كلام كثير لا يثبت للنقد.

= كالذرّ، ثم كلمهم قُبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ إلى قوله: ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ عن (الدر المنثور في التفسير بالمأثور ـ للإمام السيوطي)، وللإمام الشوكاني تعليق يرد به على الزمخشري في هذا الموضوع.

(١) أخرجه ابن جرير، وابن منده في كتاب الردّ على الجهمية عن عبد الله بن عمرو. (الدر المنثور).

(٢) يفهم من كلامه أنه حديث واحد، ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه روى حديثاً، وروى ابن عباس رضي الله عنهما حديثاً آخر، ولكن الموضوع واحد.

(٣) هو علي بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني، أبو الحسن. قاض، من العلماء بالأدب، ولد بجرجان، وتوفي بنيسابور فحمل تابوته إلى جرجان، من كتبه: «تفسير القرآن» و«تهذيب التاريخ» و«الوساطة بين المتنبي وخصومه» وكان خطُّهُ يشبه خط ابن مقلة توفي سنة ٣٩٢هـ.



وقال غيره: إن جميع ما في الحديث من مسح بيمينه وضرب منكبه ونحو هذا إنما هو عبارة عن إيجاد ذلك النسم منه، واليمين عبارة عن القدرة، أَو يكون الماسح ملَكاً بأَمر الله عز وجلَّ فتضمن الحديث صدر القصة وإيجاد النسم من آدم، وهذه زيادة على ما في الآية، ثم تضمنت الآية ما جرى بعد هذا من أَخذ العهد والنسم حضور موجودون. وهي تحتمل معنيين: أَحدهما أَن يكون ﴿أَخَذَ﴾ عاملاً في «عهد» أَو «ميثاق» تقدره بعد قوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، ويكون قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ لبيان جنس البنوة، إذ المراد من الجميع التناسل، ويشركه في لفظه ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بنوه لصُلْبه وبنوه بالشفقة والحنان، ويكون قوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بدلاً من ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾. والمعنى الآخر أَنه لما كانت كل نسمة هنالك لها نسبة إلى التي هي من ظهرها كان تعيين تلك النسبة أَخْذاً من الظهر إذ ستخرج منه، فهي المستأْنف، فالمعنى: وإذ عينوا بهذه النسبة وعرفوا بها، فذلك أَخْذٌ ما، و﴿أَخَذَ﴾ ـ على هذا ـ عامل في ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وليس بمعنى مَسح وأَوجد، بل قد تقدم إيجادهم كما تقدم في الحديث المذكور، فالحديث يزيد معنى على الآية وهو ذكر آدم وأَول إيجاد النسم كيف كان.

وقال الطُّرْطُوشي[1]: إن هذا العهد يلزم البشر وإن كانوا لا يذكرونه في هذه الحياة كما يَلْزَمُ الطلاقُ من شُهِد عليه به وهو قد نسيه ـ إلى غير هذا مما ليس بتفسير ولا من طريقه.

وقرأَ نافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: [ذُرِّيَّاتهم] جمع جمع، وقرأَ ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي، [ذُرِّيَّتهم]، والإفراد هنا جمع، وقد تقدم القول على لفظ الذُّرية في سورة آل عمران.

وروي في قصص هذه الآية أَن الأَنبياءَ عليهم السلام كانوا بين تلك النَّسم، وأَن آدم عليه السلام رأَى داود فأَعجبه، فقال: من هذا؟ فقيل: نبي من ذريتك، فقال: كم

---

(١) هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهدي الأندلسي، أبو بكر الطرطوشي، من أهل طرطوشة بشرق الأندلس، تفقه ببلاده ثم رحل إلى المشرق واستقر في الإسكندرية إلى أن توفي سنة ٥٢٠هـ، كان زاهداً، من كتبه: «سراج الملوك» و«مختصر تفسير الثعلبي»، و«التعليقة» في الخلافيات من خمسة أجزاء، وله كتاب كبير عارض به «إحياء علوم الدين» للغزالي، عن (وفيات الأعيان) و«الديباج» و«نفح الطيب».

عمره؟ فقيل: ستون سنة، فقال: زيدوه من عمري أربعين سنة فزيدت، قال: وكان عمر آدم ألفاً، فلما أكمل تسعمائة وستين جاءَ ملك الموت فقال له آدم: بقي لي أربعون سنة، فرجع ملك الموت إلى ربِّه فأخبره، فقال له: قل له: إنك أعطيتها لابنك داود، فتوفي عليه السلام بعد أن خاصم في الأربعين(١). قال الضحاك بن مزاحم: من مات صغيراً فهو على العهد الأول، ومن بلغ فقد أخذه العهد الثاني، يعني الذي في هذه الحياة المعقولة الآن. وحكى الزجاج عن قوم أنهم قالوا: إن هذه الآية عبارة عن أن كل نسمة إذا ولدت وبلغت فنظرها في الأدلة المنصوبة عهد عليها في أن تؤمن وتعرف الله. وقد تقدم ذكر هذا القول، وهو قول ضعيف منكّب عن الأحاديث المأثورة مُطّرح لها.

وقوله تعالى: ﴿شَهِدْنَآ﴾ يحتمل أن يكون من قول بعض النسم لبعض، أي: شهدنا عليكم لئلاَ تقولوا يوم القيامة: غفلنا عن معرفة الله والإيمان به، فتكون مقالة من هؤلاء لهؤلاءِ، ذكره الطبري، وعلى هذا لا يَحْسُنُ الوقف على قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾. ويحتمل أن يكون قوله سبحانه: ﴿شَهِدْنَآ﴾ من قول الملائكة، فيحسن الوقف على قوله: ﴿بَلَىٰ﴾. قال السدي: المعنى: قال الله وملائكته: شهدنا، ورواهُ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ.

وقرأ السبعة غير أبي عمرو: ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ على مخاطبة حاضرين، وقرأ أبو عمرو وحده: [أَنْ يَقُولُوا] على الحكاية عن غائبين، وهي قراءَة ابن عباس رضي الله عنهما، وابن جبير، وابن محيصن، والقراءَتان تفسران بحسب المعنيين المذكورين. و﴿أَن﴾ في موضع نصب على تقدير: مخافة أَنْ.

---

(١) أخرج هذا الخبر عبد بن حميد، وأبو الشيخ، وابن مردويه، ورواه الترمذي وصححه عن أبي هريرة، ولفظه كما رواه السيوطي في «الدر المنثور» قال: قال رسول الله ﷺ: لما خَلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي ربِّ، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذُرِّيتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال: أي ربِّ، من هذا؟ فقال: رجل من آخر الأمم من ذُرِّيتك يقال له داود، قال: أي ربّ، وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي ربّ، زده من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عُمر آدم، جاءَ ملك الموت فقال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد فجحدت ذريته، ونسي فنسيت ذريته.



قوله عزّ وجلّ:

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

المعنى في هذه الآيات أن الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءَهم رسول مُذكر بما تَضَمَّنه العهد من توحيد الله وعبادته لكانت لهم حُجَّتان ـ إحداهما: كنا غافلين، والأُخرى: كنا تَبَعاً لأسلافنا فكيف نهلك والذنب إنما هو لمن طرَّق[1] لنا وأَضلنا، فوقعت شهادة بعضهم على بعض أَو شهادة الملائكة عليهم؛ لتنقطع لهم هذه الحجج، والاختلاف في ﴿تَقُولُوٓاْ﴾ أَو [يَقُولُوا] بحسب الأَول.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ تقديره: وكما فعلنا هذه الأُمور وأَنفذنا هذه المقادير فكذلك نفصل الآيات ونُبَيِّنها لمن عاصرك وبُعِثْت إليه. ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾ على ترجِّيهم وترجِّيكم وبحسب نظر البشر ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إلى طاعة الله، ويدخلون في توحيده وعبادته. وقرأَت فرقة: [يُفَصِّلُ] بالياءِ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. ﴿وَٱتْلُ﴾ معناه: قُصّ واسرُد، والضمير في [عَلَيْهِم] عائد على حاضري محمد ﷺ من الكفار وغيرهم، واختلف المتأَولون في الذي أُوتي الآيات ـ فقال عبد الله بن مسعود وغيره: هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى عليه السلام إلى ملك مدْين داعياً إلى الله تعالى وإلى الشريعة، وعَلَّمه من آيات الله ما يمكن أن يدعو به وإليه، فلما وصل رشاه الملك وأَعطاه على أَن يترك دين موسى ويتابع الملك على دينه ففعل، وفتَن الملكُ به الناس وأَضلَّهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو رجل من الكنعانيين الجبارين اسمه بلعم، وقيل: بلعام بن عابر، وقيل: ابن آبر، وقيل غير هذا مما ذِكْرُه تطويل، وكان في جملة الجبارين الذين غزاهم موسى عليه السلام، فلما قرب منهم موسى لجؤوا إلى بلعام وكان صالحاً مستجاب

---

(١) طرَّق الطريق: جعله سهلا حتى طرقه المارّة، وطرَّق له: جَعَل له طريقاً. (المعجم الوسيط).

الدعوة، وقيل: كان عنده علم من صحف إبراهيم ونحوها، وقال مجاهد: كان رشح للنبوة وأُعطيها فرشاه قومه على أن يسكت ففعل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول مردود لا يصح عن مجاهد، ومن أُعطي النبوة فقد أُعطي العصمة ولابُدّ، ثبت هذا بالشرع، وقد نصّ معنى ما قلته أَبو المعالي في كتاب الشامل، وقيل: كان يعلم اسم الله الأَعظم، قاله ابن عباس أَيضاً، وهذا الخلاف في المراد بقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾، فقال له قومه: ادع الله تعالى على موسى وعسكره، فقال لهم: وكيف أَدعو على نبي مرسل؟ فما زالوا به حتى فتنوه، فخرج حتى أشرف على جبل يرى منه عسكر موسى، وكان قد قال لقومه: لا أَفعل حتى أَستأمر ربِّي، ففعل فسُكت عنه فأَخبرهم، فقالوا له: إن الله لم يدع نهيك إلا وقد أَراد ذلك، فخرج، فلما أَشرف على العسكر جعل يدعو على موسى، فتحول لسانه بالدعاءِ لموسى والدعاءِ على قومه، فقالوا له: ما تقول؟ فقال: إني لا أملك إلا هذا وعلم أَنه قد أَخطأَ، فروي أَنه قد خرج لسانه على صدره، فقال لقومه: إني قد هلكت ولكن لم يبق لكم إلا الحيلة، فأَخرجوا النساءَ إلى عسكر موسى على جهة التجرد وغيره ومُروهن ألا تمتنع امرأة من رجل فإنهم إذا زنوا هلكوا، ففعلوا، فخرج النساءُ فزنى بهن رجال بني إسرائيل، وجاءَ فنحاص بن العيزار بن هارون فانتظم برمحه امرأَة ورجلاً من بني إسرائيل ورفعهما على أَعلى الرمح، فوقع في بني إسرائيل الطاعون فمات منهم في ساعة واحدة سبعون أَلفاً، ثم ذكر المُعْتمِر[1] عن أَبيه أن موسى عليه السلام قتل بعد ذلك الرجل المنسلخ من آيات الله، قال المهدوي: رُوي أَنه دعا على موسى ألاَّ يدخل مدينة الجبارين فأُجيب، ودعا عليه موسى ﷺ أَن ينسى اسم الله الأَعظم فأُجيب، قال الزجاج: وقيل: إن الإشارة إلى منافقي أَهل الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وصواب هذا أَن يقال: إلى كفار أَهل الكتاب لأنه لم يكن منهم منافق، إنما كانوا

---

(١) المعتمر: هو ابن سليمان بن طرخان.



مجاهرين، وفي هذه القصة روايات كثيرة اختصرتها لتعذر صحتها، واقتصرت منها على ما يخص ألفاظ الآية[1].

وقالت فرقة: المشار إليه في الآية رجل كان قد أُعطي ثلاث دعوات مستجابات فترك أن يدعو بها في مصالح العباد، فدعا بواحدة أن ترجع امرأته أجمل النساءِ فكان ذلك، فلما رأت نفسها كذلك أبغضته واحتقرته، فدعا عليها ثانية فمسخت كلبة، فشفع لها بنوها عنده فدعا لها الثالثة فعادت كما كانت، ثم انصرفت إلى حالها، فذهبت الدعوات.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: المشار إليه في الآية أُمية بن أَبي الصلت، وكان قد أُوتي علماً، وروي أَنه جاءَ يريد الإسلام فوصل إلى بدر بعد الوقعة بيوم أَو نحوه فقال: من قتل هؤلاءِ؟ فقيل: محمد ﷺ، فقال: لا حاجة لي بدين من قتل هؤلاءِ، فارتد ورجع وقال: الآن حلت لي الخمر ـ وكان قد حرمها على نفسه ـ فمرّ حتى لحق بقوم من ملوك حمير فنادمهم حتى مات[2].

و﴿انسلخ﴾ عبارة عن البراءَة منها والانفصال والبعد، كالسلخ من الثياب والجلد، و﴿أَتْبَعَهُ﴾: صيَّره تابعاً، كذا قال الطبري إِما لضلالة رسمها له، وإما لنفسه[3]، وقرأَ الجمهور: ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ بقطع الألف وسكون التاءِ، وهي راجحة لأَنها تتضمن أَنه لحقه وصار معه، وكذلك ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾[4]، ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾[5]، وقرأَ الحسن فيما روى عنه هارون [فَاتَّبَعَه] بصلة الألف وشدّ التاءِ، وكذلك طلحة بن مصرف بخلاف، وكذلك الخلاف عن الحسن ـ على معنى لازَمَه واتَّبعه بالإغواءِ حتَّى أَغواه، و[مِنَ ٱلْغَاوِينَ] أَي: من الضالين.

---

(١) ليته تركها لتَعذُّر صحتها كما قال، وإلا فالاختصار لا يكفي عند عدم الصحة.

(٢) قال بهذا القول أيضاً زيدُ بن أسلم. كما نقله القرطبي. ثم قال القرطبي بعد نقل الخبر عن أُمية: «وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «آمن شعره وكفر قلبه». وهذا حديث ضعيف.

(٣) قال القرطبي: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: لحق به، يقال: أَتبعتُ القومَ أي لحقتُهم.

(٤) تكررت في الآيتين: ١٨ من سورة الحجر في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ و١٠ من سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

(٥) تكررت أيضاً في آيتين الأولى رقم ٩٠ من سورة يونس في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾، والثانية رقم ٧٨ من سورة طه في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ فقالت فرقة: معناه: لأخذناه، كما تقول: «رفع الظالم» إذا هلك، والضمير في ﴿بِهَا﴾ عائد على المعصية في الانسلاخ، وابتدأ وصف حاله بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فهي عبارة عن إمهاله وإملاء الله له. وقال ابن أبي نُجيح: ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ معناه: لتوفيناه قبل أن يقع في المعصية ورفعناه عنها، والضمير ـ على هذا ـ عائد على الآيات، ثم ابتدأ وصف حاله. وقال ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة معه: ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ أي: لشرّفنا ذِكْره ورفعنا منزلته لدينا بهذه الآيات التي آتيناه، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فالكلام متصل ذُكِرَ فيه السبب الذي من أَجله لم يرفع ولم يشرف كما فعل بغيره مِمَّن أُوتي هُدىً.

و ﴿أَخْلَدَ﴾ معناه: لازم وتقاعَسَ وثَبَت، والمخْلِد: الذي يثبت شبابه فلا يغشاه الشيب، ومنه الخُلْد، ومنه قول زهير:

لِمَـنِ الـدِّيـارُ غَشيتَهَـا بـالفَـدْفَـدِ ... كالوَحْيِ في حَجَر المَسيل المخْلِدِ[1]

وقوله تعالى: ﴿إلى الأَرضِ﴾ يحتمل أَن يريد: إِلى شهواتها ولذاتها وما فيها من الملاذ، قاله السدي وغيره، ويحتمل أَن يريد بها العبارة عن الأَسفل والأَخسّ، كما

---

(١) البيت مطلع قصيدة لزهير يمدح بها سنان بن أبي حارثة المُرّي، والفَدْفد: المرتفع من الأرض فيه صلابة وحجارة، والرواية في (اللسان والقرطبي) (الغَرقد) بالغين والراء والقاف بدلاً من (الفدفد) ـ والمراد به بقيع الغرقد، مقابر بالمدينة، ورواية ابن عطية هي رواية الديوان. والوحي: المكتوب وإنما جعله في حَجَر المسيل لأنه أصلب، هكذا قال في شرح الديوان. قال في (اللسان): «والمُخْلد من الرجال: الذي أسنَّ ولم يشب كأنه مخلّد لذلك». وقال في (التهذيب): «يقال للرجل إذا بقي سواد رأسه ولحيته على الكبر: إنَّه لمخلد» وعليه قول مالك بن نويرة من قصيدة له (الأصمعيات):

بـأَنْبـاءِ حَـيٍّ مِـنْ قَبـائـل مـالـكٍ ... وعَمْرو بن يَـرْبُـوعٍ أقاموا فَـأَخْلَـدوا



يقال: فلان في الحضيض، ويتأَيد ذلك من جهة المعنى المعقول، وذلك أَن الأَرض وما ارتكز فيها هي الدنيا، وكل ما عليها فانٍ، من أَخلد إِليها، فقد حُرم حظ الآخرة الباقية.

وقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ قال السدي وغيره: إن هذا الرجل عوقب في الدنيا بأَنه كان يلهث كما يلهث الكلب فَشُبِّه به صورة وهيئة، وقال الجمهور: إنما شُبّه به في أَنه كان ضالاً قبل أَن يؤتَى الآيات، ثم أُوتيها فكان أَيضاً ضالاً لم تنفعه الآيات، فهو كالكلب في أَنه لا يفارق اللَّهْثَ في حال حمل المشقة عليه وتركه دون حمل عليه، وتحرير المعنى: فالشيءُ الذي تتصوره النفوس من حاله هو كالذي تتصور من حال الكلب، وبهذا التقدير يحسن دخول (الكاف) على (مَثَل)، واللَّهْثُ: تنفُّسٌ بسرعة وتحرك أَعضاءِ الفم معه وامتداد اللسان، وأَكثر ما يعتري ذلك مع الحر والتعب، وهو في الفرس: ضَبْح، وخِلْقة الكلب أَنه يلهث على كل حال، وذكر الطبري أَن معنى: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾[1] أَي تطرده، وحكاه عن مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك داخل في جملة المشقة التي ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: هذا المثَل يا محمد مثَل هؤلاء القوم الذين كانوا ضالين قبل أَن تأْتيهم بالهدى والرسالة، ثم جئتهم بذلك فبقوا على ضلالتهم ولم ينتفعوا بذلك، فمثلهم كمثل الكلب. وقوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ أي: اسرد عليهم ما يعلمون أَنه من الغيوب التي لا يعلمها إلا أَهل الكتب الماضية ولست منهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك فيؤمنون.

وقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾، قال الزجاج: التقدير: ساءَ مثلا مثل القوم، لأَن الذي بعد بئس ونعْم إنما يتفسر من نوعه، كما تقول: بئس رجلاً زيد، ولما انحذف (مثل) أُقيم ﴿ٱلْقَوْمُ﴾ مقامه، والرفع في ذلك بالابتداءِ، والخبر فيما تقدم. وقرأَ الجحدري: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ ورفع [مَثَلُ] على هذه القراءَة بـ [سَاءَ]، ولا تجري (ساءَ) مجرى

(١) جملة: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ جملة شرطية في موقع الحال والتقدير: فمثله كمثل الكلب لاهثا.

(بئس) إلا إذا كان ما بعدها منصوباً، قال أبو عمرو الداني: قرأ الجحدري [مِثْلُ] بكسر الميم ورفع اللام، وقرأ الأعمش: [مَثَلُ] بفتح الميم والثاءِ ورفع اللام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا خلاف ما ذكر أبو حاتم، فإنه قال: قرأ الجحدري، والأعمش: [ساءَ مَثَلُ] بالرفع.

وخُتمت هذه الآيات ـ التي تضمنت ضلال أقوام والقول فيه ـ بأن ذلك كله من عند الله، الهداية منه وبخلقه واختراعه، وكذلك الإضلال، وفي الآية تعجب من حال المذكورين، ومن أَضلَّ فقد حكم عليه بالخسران، والثوابُ والعقابُ متعلق[1] بِكَسب ابن آدم[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ خبر من الله تعالى أنَّه خَلق لِسُكْنى جهنم والاحتراق فيها كثيراً، وفي ضمنه وعيد للكفار. و(ذَرَأَ) معناه: خلَق وأَوْجدَ مع بثٍّ ونشر. وقالت فرقة: اللام في قوله تعالى: [لِجَهَنَّم] هي لام العاقبة، أَي: ليكون أمرهم ومآلهم لجهنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ليس بصحيح، ولام العاقبة إنما يتصور إذا كان فعل الفاعل لم يقصد به ما يصير الأَمر إليه، وهذه اللام مثل التي في قول الشاعر:

يـا أُمَّ فَـرْوٍ كفـي اللَّـوم واعْتَـرفـي ... فَكُـلُّ والِـدةٍ لِلْمُنْتَـأَى تلِـدُ[3]

---

(١) هكذا في الأصول، ولعلَّه أراد: «أمرهما متعلق» ـ أو: «كل منهما متعلق» أو نحو هذا.

(٢) هذه الآية ترد على القدرية، وعلى من أنكر أن الله يضل من يشاء، وللطائفتين فيها تأويلات كلها متكلفة بعيدة، وعلينا أن نأخذ بالظاهر الصريح الواضح وهو أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وله الأمر كله سبحانه. وقد قال العلماءُ: إن قوله تعالى: ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ حمل على لفظ (مَنْ) في قوله: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حمل على معنى (مَنْ) في قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ وحسَّنَ هذا كونُه فاصلة ورأس آية.

(٣) لام العاقبة تسمى أيضاً لام الصيرورة، ولام المآل، وقد حدَّد ابن عطية رحمه الله معناها تحديداً سليماً، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، وقول سابق بن عبد الله البربري:

فَلِلْمـوْتِ تغـذُو الـوالـداتُ سِخـالهـا ... كمـا لِخَـرَاب الـدُّور تُبنـى المسـاكـنُ =



وأما هنا فالفعل قصد به ما يصير الأمر إليه من سُكْناهم جهنم ، وحكى الطبري عن سعيد بن جبير أنه قال: «أَولادُ الزنى مما ذرأ الله لجِهَنَّم» ، ثم أسند فيه حديثاً من طريق عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ(١). وقوله تعالى: [كثيراً] وإن كان ليس بنص في أن الكفار أكثر من المؤمنين فهو ناظر إلى ذلك في قول النبي ﷺ: «قال الله لآدم: أخرج بعث النار ، فأخرج من كلِّ ألف تسعةً وتسعين وتسعمائة»(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

وُصِفت هذه الصِّنْفَة(٣) الكافرة المعرضة عن النظر في آيات الله بأن قلوبهم لا تفقه ،

= وقول عبد الله بن الزبعرى ، أو شُتيم بن خويلد ، أو نهيكة بن الحارث ـ على اختلاف في نسبة البيت:

فـإن يكُـنِ المـوتُ أفنَـاهُـم فَلِلْمـوتِ مـا تَلِـد الـوالـدهْ

والبيت الذي استشهد به ابن عطية لم يستشهد به غيره ولم نقف على قائله ، فالوالدة لا تلد للمنتأى ولكن المآل إلى ذلك ، وقد سميت لام العاقبة فراراً من أن تكون لام تعليل ، لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ، فإثبات كونها للعلة يتنافى مع قوله سبحانه (إلا ليعبدون).

(١) نص الحديث كما رواه ابن جرير ـ عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: قال: «إن الله لما ذرأ لجهنم ما ذرأ كان ولد الزنى ممَّن ذرأ لجهنم» (عن تفسير الطبري).
قال بعض العلماء: يعني إذا عمل بعمل أبويه ، وذلك حتى لا يتعارض الحديث مع النصوص القرآنية التي تنفي عن الإنسان مسؤولية ما عمله غيره.

(٢) هذا الحديث رواه البخاري في كتاب الأنبياء ، وفي تفسير سورة الحج ، وفي كتاب الرقاق وكتاب التوحيد ، ورواه مسلم في الإيمان ، والفتن ، ورواه الترمذي في تفسير سورة الحج ، ورواه الإمام أحمد في مواطن كثيرة ـ ولفظه كما رواه البخاري. قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة: يا آدم ، فيقول: لبيك ربنا وسعديك ، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار ، قال: يا رب ، وما بعثُ النار؟ قال: من كل ألف أُراه قال: تسعمائة وتسعة وتسعين ، فحينئذ تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، فشق ذلك على الناس ، حتى تغيرت وجوههم ، فقال النبي ﷺ: من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد ، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، فكبرنا ، ثم قال: ثلث أهل الجنة فكبرنا ، ثم قال: شطر أهل الجنة ، فكبرنا».

(٣) جاء في اللسان عن شَمِر: «والصِّنْفةُ طائفة من القبيلة» (اللسان ـ صنف).



وأَعينهم لا تبصر، وآذانهم لا تسمع، وليس الغرض من ذلك نفي هذه الإدراكات عن حواسهم جملة، وإنما الغرض نفيها في جهة ما كما تقول: فلان أَصم عن الخَنَا(١)، ومنه قول مسكين الدارمي:

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ   حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي السِّتْرُ
وأَصَمُّ عَمًّا كَانَ بَيْنَهُمَا   عَمْداً وما بالسَّمْعِ مِنْ وَقْرِ(٢)

ومنه قول الآخر:

وعَوْرَاءِ الكَلامِ صَمَمْتُ عَنْهَا   وَلَوْ أَنِّي أَشَاءُ بها سَمِيعُ
وبَادِرَةٍ وَزَعْتُ النَّفْسَ عَنْهَا   وقد بَقِيَتْ مِنَ الْغَضَبِ الضُّلُوعُ(٣)

ومنه قول الآخر في وصاة من يدخل إلى دار مَلِك:

وادْخُلْ إذا ما دخلْتَ أَعْمَى   واخْرُج إِذا مَا خَرَجْتَ أَخْرَسْ(٤)

فكأَن هؤلاءِ القوم لما لم ينفعهم النظر بالقلب ولا بالعين ولا ما سمعوه من الآيات والمواعظ، استوجبوا الوصف بأَنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون، وفسّر مجاهد هذا بأَن قال: لهم قلوب لا يفقهون بها شيئاً من أَمر الآخرة، وأَعين لا يبصرون بها الهدى، وآذان لا يسمعون بها الحق. و[أُولَٰئِكَ] إشارة إلى من تقدم ذكره من

---

(١) الخَنَا: الفُحْش من الكلام. (المعجم الوسيط).

(٢) اختلفت الروايات في كلمة (عمداً) ـ ففي بعض النسخ جاءت (عُمْراً) ـ ورواية الطبري (سَمْعي) وهي التي تلتقي مع قوله بعدها: (وما بالسَّمْع من وقْر) ـ ورواية البحر المحيط» مثل رواة ابن عطية هنا ـ لكنه اختلف عن الجميع في الجملة الأخيرة فرواها (وما بالسَّمع لي وقْر) ـ وهي التي تناسب البيت السابق إذ حرف الروي فيه مرفوع. هذا والعمى: ذهاب البصر، والصمم: ذهاب السمع ـ والشاعر يصف نفسه بأنه يكف عينيه وأُذنيه عن جاراته فلا ينظر إليهن، ولا يسمع ما يجري بينهن من حديث كأنه أعمى أصم، وليس به في الحقيقة عمى ولا صمم وإنما هو الترفع عن القبيح ورعاية حقوق الجار.

(٣) العوراءُ: الكلمة القبيحة، كأنها تَعور العين فتمنعها من حدة النظر، ثم حوّلوها إلى الكلمة على المثل ـ هكذا جاء في اللسان، قال: وإنما يريدون في الحقيقة صاحب الكلمة. والبادرة: الكلمة أو الفعلة القبيحة، أوالغضبة السريعة، ووزعتُ النّفس عنها: كففتها ومنعتها ـ ورواية الألوسي: «وإني لو أشاء»، ورواية الطبري: «ولو بينت من العصب الضلوع»، وفي بعض النسخ في أصول ابن عطية: «وقد نقيت» من النقاء بالنون. ولم نقف على قائل البيتين فيما بين أيدينا من المراجع.

(٤) ينصحه بأن يدخل وقد كفَّ بصره عن أن يرى شيئاً، فإذا ما خرج فعليه أن يكف لسانه فلا يتحدث عن شيء مما رآه، وهو لا يريد طبعاً العمى الحقيقي ولا الامتناع عن الكلام لعجز خلقي. ولم نقف على قائل هذا البيت، كما لم نجد أحداً من المفسرين استشهد به غير ابن عطية رحمه الله.



الكفرة، وشبَّههم بالأنعام في أن الأنعام لا تفقه قلوبها الأشياءَ، ولا تعقل المقاييس، وكذلك ما تبصره لا يتحصل لها كما يجب، فكذلك هؤلاءِ ما يبصرونه ويسمعونه لا يتحصل لهم منه علم على ما هو به حين أُبصر وسُمع. ثم حكم عليهم بأنهم أَضل، لأَن الأَنعام تلك هي بِنيَتُهَا وخِلْقَتُها، لا تقصّر في شيءٍ، ولا لها سبيل إلى غير ذلك، وهؤلاءِ مُعَدُّون للفهم، وقد خُلقت لهم قوى يُصَرِّفونها، وأُعطوا طرقاً في النظر، فهم ـ بغفلتهم وإعراضهم ـ يلحقون أنفسهم بالأنعام، فهم أَضَلُّ على هذا. ثم بيَّن بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الطريق الذي به صاروا أَضَلَّ من الأنعام وهو الغفلة والتقصير.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الآية. السبب في هذه الآية على ما رُوي أَن أَبا جهل سمع بعض أَصحاب النبي ﷺ يقرأ فيذكر الله في قراءَته، ومرة يقرأُ فيذكر الرحمٰن. ونحو هذا، فقال: محمد يزعم أَن الإلٰه واحد وهو إِنما يعبد آلهة كثيرة، فنزلت هذه.

و﴿ٱلْأَسْمَآءُ﴾ هنا بمعنى: التسميات إجماعاً من المتأولين لا يمكن غيره[(١)] و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مصدر وصف به، ويجوز أَن تقدر ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فُعْلَى مؤنثة (أَحْسن) فأفرد وصف جميع ما لا يعقل، كما قال: ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾[(٢)]، وكما قال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾[(٣)]، وهذا كثير وحُسْن الأَسماءِ إِنما يتوجه بتحسين الشرع لإطلاقها، والنص

(١) ناقشه أبو حيان في «البحر المحيط» فقال: «ولا تحرير فيما قال لأن التسمية مصدر والمراد هنا الألفاظ التي تطلق على الله تبارك وتعالى، وهي الأوصاف الدالة على تغاير الصفات لا تغاير الموصوف، كما تقول: جاءَ زيد الفقيه الشجاع الكريم» ـ ويرى الرازي في «لوامع البيّنات» أن تفسير الأسماء بالتسميات غير معقول، لأن مفهوم التسمية وضع الاسم للمسمَّى، فلو فُرض أن الاسم هو نفس المُسمَّى لكان وضع الأسماء لمسميَّاتها عبارة عن وضع الشيء لنفسه وهو أمر غير معقول» وقال القاضي أبو بكر في كتاب «التمهيد»: «وتأويل قول النبي ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» أي أن له تسعة وتسعين تسمية بلا خلاف، وهي عبارات عن كون الله تبارك وتعالى على أوصاف شتى، منها ما يستحقه لنفسه، ومنها ما يستحقه لصفة تتعلق به، وأسماؤه العائدة لنفسه هي هو، وما تعلق بصفة له فهي أسماءٌ له، ومنها صفات لذاته، ومنها صفات أفعال، وهذا هو تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: «التسميات الحسنى». اهـ.

(٢) طه: ١٨.

(٣) سبأ: ١٠.



عليها ، وانضاف إلى ذلك أيضاً أنها إنما تضمنت معاني حساناً شريفة.

واختَلَف الناس في الاسم الذي يقتضي مدحاً خالصاً ولا يتعلق بِه شُبهة ولا اشتراك إلاّ أنه لم يُرَ مُنْصوصاً ـ هل يطلق ويسمى الله به؟ ـ فنص ابن الباقلاني على جواز ذلك ، ونص أبو الحسن الأشعري على منع ذلك ، والفقهاءُ والجمهور على المنع ، وهو الصواب ألاَّ يُسمى الله تعالى إلا باسم قد أطلقته الشريعة ووقفت عليه أيضاً ، فإن هذه الشريطة التي في جواز إطلاقه من أن يكون مدحاً خالصاً لا شبهة فيه ولا اشتراك أمرٌ لا يحسنه إلاَّ الأقل من أهل العلوم ، فإذا أُبيح ذلك تسَوَّر عليه من يظن بنفسه الإحسان وهو لا يحسن ، فأدخل في أسماءِ الله ما لا يجوز إجماعاً.

واختُلِف أيضاً في الأفعال التي في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[1] ، و﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾[2] ، ونحو ذلك ـ هل يطلق منها اسم الفاعل؟ ـ فقالت فرقة: لا يُطلق ذلك بوجه ، وجوَّزت فرقة أن يقال ذلك مُقَيّداً بسببه ، فيقال: «الله مستهزىء بالكافرين» «وماكرٌ بالذين يمكرون بالدين» ، وأما إطلاق ذلك دون تقييد فممنوع إجماعاً. والقول الأول أقوى ، ولا ضرورة تدفع إلى القول الثاني لأن صيغة الفعل الواردة في كتاب الله تغني ، ومن أسماءِ الله تعالى ما ورد في القرآن ، ومنها ما ورد في الحديث وتواتر ، وهذا هو الذي ينبغي أن يُعتمد عليه. وقد ورد في الترمذي حديث عن أبي هريرة ونصَّ فيه تسعة وتسعين اسماً ، وفي بعضها شذوذ[3] ، وذلك الحديث

---

(١) البقرة: ١٥.

(٢) آل عمران: ٥٤.

(٣) هذا الحديث أخرجه أيضاً مع الترمذي ابنُ المنذر ، وابن حبان ، وابن منده ، والطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعةً وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، إنه وتر يحب الوتر ، هو الله الذي لا إله إلا هو ، الرحمٰن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدىء ، المعيد ، المحيي. ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، =

ليس بالمتواتر[١]، وإنما المتواتر منه قول النبي ﷺ: «إن للهِ تسعةً وتسعين اسماً، مائة إلاَّ واحداً، من أَحصاها دخل الجنة»[٢]، ومعنى أَحصاها: عدَّها وحفظها، وتضمن ذلك الإيمان بها والتعظيم لها والرغبة فيها والعبرة في معانيها، وهذا حديث البخاري، والمتحصل منه أَن الله تبارك وتعالى هذه الأَسماءَ مباحاً إطلاقها. وورد في بعض دعاءِ النبي ﷺ: «يا حنَّان يا منَّان»، ولم يقع هذان الاسمان في تسمية الترمذي.

وقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ إباحة بإطلاقها، وقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ﴾ قال ابن زيد: معناه: اتركوهم ولا تحاجوهم ولا تعرضوا لهم، فَالآية ـ على هذا ـ منسوخة بالقتال، وقيل: معناه الوعيد كقوله تبارك وتعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[٣]، وقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾[٤]. ويقال: أَلْحَدَ وَلحدَ بمعنى جارَ ومالَ وانحرف، وأَلْحَدَ: أَشْهَر، ومنه قول الشاعر:

. . . . لَيْسَ الإمامُ بالشَّحيحِ المُلْحِدِ[٥]

قال أَبو عليّ: ولا يكاد يسمع لأحد، وفي القرآن ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾[٦]، ومنه لحد القبر المائل إلى أَحد شقَّيه.

= المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، الوالي، المتعال، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور. (عن الدر المنثور).

(١) يريد بالمتواتر هنا الصحيح عن الرسول ﷺ حتى ولو كان حديث آحاد ولا يريد التواتر الإصطلاحي.

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وأبو عوانة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والطبراني، وأبو عبد الله ابن منده في التوحيد، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات عن أبي هريرة ـ وفي آخره زيادة عما هنا (إنه وتر يحب الوتر) ـ (الدر المنثور).

(٣) المدثر: ١١.

(٤) الحجر: ٣. ومثل هذه الآية والتي في المزمل في الوعيد قوله تبارك وتعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١].

(٥) هذا عجز بيت قاله حميد بن ثور، والبيت بتمامه:

قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الخُبَيْبَيْنِ قَدِي ... ليس الإمامُ بالشَّحيحِ المُلْحِدِ

وذكر في (اللسان) أن ابن بري قال: «البيت المذكور لحميد بن ثور هو لحميد الأرقط، وليس هو لحميد بن ثور الهلالي كما زعم الجوهري، قال: وأراد بالإمام هنا عبد الله بن الزبير».

(٦) الحج: ٢٥.



وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ بضم الياءِ وكسر الحاءِ، وكذلك في النحل والسجدة. وقرأ حمزة الأحرف الثلاثة[1]: [يَلْحَدونَ] بفتح الياءِ والحاءِ، وكذلك ابن وثاب، وطلحة، وعيسى، والأعمش.

ومعنى الإلحاد في أسماءِ الله عزَّ وجلَّ أن يُسمُّوا اللات نظيراً إلى اسم الله تعالى، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والعُزَّى نظيراً إلى العزيز، قاله مجاهد، ويسمُّون الله رباً ويسمون أُوثانهم أرباباً، ونحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وعيد محض بعذاب الآخرة، وذهب الكسائي إلى الفرق بيْن أَلْحَدَ ولَحَدَ، وزعم أن أَلْحدَ بمعنى مال وانحرف، ولَحَدَ بمعنى ركن وانضوى، قال الطبري: وكان الكسائي يقرأُ جميع ما في القرآن بضم الياءِ وكسر الحاءِ إلاَّ التي في النحل، فإنه كان يقرؤُها بفتح الياءِ والحاءِ ويزعم أنها بمعنى الركون، وكذلك ذكر عنه أبو علي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

هذه آية تتضمن الخبر عن قوم مخالفين لمن تقدم ذكرهم في أنهم أهل إيمان واستقامة وهداية. وظاهر لفظ هذه الآية يقتضي كلَّ مؤمن كان من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة. قال النحاس: فلا تخلو الدنيا في وقت من الأوقات من داع يدعو إلى الحق.

---

(١) يريد بالأحرف الثلاثة هذه الآية من سورة الأعراف: ﴿ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ وقوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ وقوله تعالى في سورة فصلت الآية (٤٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ ونلحظ أنه أطلق على سورة فصلت اسم (السجدة)، وتسمى كذلك، ويفرق بينها وبين سورة السجدة (بين لقمان والأحزاب) بأن هذه تسمى (حم السجدة).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

سواءٌ بَعُد صوته أو كان خاملا .

ورُوي عن كثير من المفسرين أنها في أُمة محمد ﷺ ، ورُوي في ذلك حديث رسول الله ﷺ قال : «هذه الآية لكم ، وقد تقدم مثلها لقوم موسى»[(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ الآية وعيد . والإشارة إلى الكفار ، و﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ معناه : سنسوقهم شيئاً بعد شيءٍ ودرجة بعد درجة بالنِّعم عليهم والإمهال لهم حتى يغترُّوا ويظنوا أنهم لا ينالهم عقاب . وقوله تعالى : ﴿ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ معناه : من حيث لا يعلمون أنه استدراج لهم ، وهذه عقوبة من الله على التكذيب بالآيات ، لمَّا حَتَمَ[(٢)] عليهم بالعذاب أَملى لهم ليزدادوا إثماً . وقرأَ ابن وثاب ، والنَّخعي : [سَيَسْتَدْرِجُهُم] بالياءِ[(٣)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُمْلِي ﴾ معناه : أُؤَخر مُلاءَةَ من الدهر ، أَي مُدَّة . وفيها ثلاث لغات : فتح الميم وضمها وكسرها . وقرأَ عبد الحميد عن ابن عامر : [أَنَّ كَيْدي] على معنى : لأَجل أَنَّ كيدي ، وقرأَ جمهور الناس وسائر السبعة : ﴿ إِنَّ كَيْدِي ﴾ على القطع والاستئناف .

---

(١) أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ـ عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قرأها : «هذه لكم ، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها» ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (الدر المنثور ٣ ـ ١٤٩) .

(٢) المتداول في كتب اللغة والمعاجم أن (حَتَم) تتعدى بنفسها كما في القاموس ، واللسان ، وأَساس البلاغة ، قال في (اللسان) : «حتَم الله الأمر يحتمه : قضاه» وجاء في (أساس البلاغة) : «حَتَم الله الأمر : أوجبه» ، وقد تتعدى بعلى ، قال في اللسان : «حَتَمْتُ عليه الشيءَ : أوجبْتُ» ، ولكن ورد في المعاجم أنها تتعدى بالباء أيضاً ، قال في (أساس البلاغة) : حَتَم الحاتم بكذا أي حكم الحاكم» ، وجاء في (المعجم الوسيط) : «حَتَم بكذا حتما : قضى وحكم» . وعلى هذا يكون تعبير ابن عطية صحيحاً .

(٣) الاستدراج هو الأخذ بالتدريج ، منزلة بعد منزلة ، والدَّرْج : لفُّ الشيءِ ، يقال : أدرجته ودرجته ، وقيل : هو من الدرجة ، فالاستدراج أن يحط درجة بعد درجة إلى المقصود . قال الضحاك : «كلما جددوا لنا معصية جدَّدنا لهم نعمة» ، وقيل لذي النون : ما أَقصى ما يُخْدع به العبد؟ قال : بالألطاف والكرامات ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، أي : نُسبغ عليهم النعم ونُنسيهم الشكر ، وأنشدوا :

أَحسَنْتَ ظنَّكَ بالأيَّام إذ حَسُنَت ... ولم تخف سوءَ ما يأتي به القَدَرُ

وسَالَمَتْكَ اللَّيالي فاغْتَرَرْتَ بِهَا ... وعند صفْو اللَّيالي يحْدُثُ الكَدَرُ



و [مَتِينٌ] معناه: قوي ، قال الشاعر:

لآلِ عَلَيْنَا واجِبٌ لا نُضِيعُهُ ... مَتِينٌ قُوَاهُ غَيْرُ مُنْتَكِثِ الْحَبْلِ[1]

وروى ابن إسحق في هذا البيت «أَمين قواه». وهو من المَتْن الذي يُحمل عليه لقوته ، ومنه قول الشاعر وهو امرؤ القيس:

لَهَا مَتْنَتَانِ خَظَاتَا كَمَا ... أَكَبَّ على سَاعِدَيْهِ النَّمِرْ[2]

وهما جنبتا الظهر ، ومنه قول الآخر:

عَدَلْنَ عُدولَ اليأس وافتج يبْتَلي ... أفانين من ألهوب شدّ مماتن[3]

ومنه قول امرىء القيس:

ويَخْدي على صُمٍّ صِلابٍ مُلاطِسٍ ... شديدات عَقْد لَيِّنات مِتَان[4]

---

(١) الآل: الأهْلُ ، والحبل المنتكث: المنقوض ، يقال: حبل نكثٌ ونكيثٌ وأنكاثٌ: منكوث ، ومن المجاز نكث العهد بمعنى نقضه. والمعنى أنهم يعرفون واجب الأهل عليهم فلا يضيعونه ، ولا ينقضون التزاماً فرضه عليهم حق القرابة. وهذا ولم نقف على قائل البيت.

(٢) يصف الشاعر في البيت امرأة اسمها (هِرّ) ، وهو بيت من قصيدة ذات معان سياسية استطرد منها إلى وصف هذه المرأة ، وَمَتْنَتَان مثنّى مَتْنَة: لَحْمتان معصوبتان بينها صُلْب الظهر معلوَّتان بعَقَب ، وقيل: متنا الظهر مكتنفا الصُّلب عن يمين وشمال من عصب ولحم ، يذكّر ويؤنث. وخظاتا: اكتنزتا ، وأكَبَّ على الشيء: انحنى عليه. وقد استشهد بالبيت في (اللسان) على لغة من قال (مَتنة) وقال: إنه في وصف الفرس.

(٣) البيت للطِّرمَّاح بن حكيم، وورد بلفظ: «أهلوب» بدل: «ألهوب» وهما بمعنى واحد. ووجدناه في تفسير الطبري هكذا:

عَدَلْنَ عُدولَ الناسِ واقْبح يُبْتَلى ... أفاسٌ مِنْ الهُرَّابِ شدَّ مَماتِنُ

وقال المحقق: «لم أعثر على هذا البيت ، ولا على قائله ، وأثبته كما رأيته في الأصل ، وهو محرف غامض» ، وليس من مهمتنا أن نحاول إصلاح وزن البيت أو تغيير ألفاظه حتى يستقيم المعنى ، إذ قد نفعل ذلك ونكون بعيدين عن الرواية الصحيحة له.

(٤) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها:

لِمَنْ طَلَلٌ أبْصَرْتُهُ فَشَجَانِي ... كَخَطِّ زبور في عَسِيبِ يَمَانِ

وقد رواه في اللسان بلفظ (وَتَرَدى) بدلا من (ويخدي) ـ ويَخْدي الفرس: يسرع ويزُجُّ بقوائمه ، وهو من (خَدَى يخدي) على وزن (جرى يجري) ، وصمّ: وصف لحوافر الفرس ، يصفها بأنها صماءُ أي صلبة مصمتة ، وملاطس: جمع مِلْطاس وهو المعول الغليظ لكسر الحجارة ، أو حجر ضخم يدقُّ به النوى ، وقال أبو خيرة: المِلْطَسُ: مانقرت به الأرْحاءُ ، وشديداتُ عَقْد يعني بها عقد الأرساغ فهي شديدة مع لين المفاصل ورطوبتها. ومتَان: صلابٌ ـ وهي موضع الشاهد هنا.

ومنه الحديث في غزوة بني المُصْطَلَق: «فَمَتَن رسول الله ﷺ بالناس» أي: سار بهم سيراً شديداً لينقطع الحديث بقول ابن أُبيّ بن سلول: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ الآية[1].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم﴾ الآية. تقرير يقارنه توبيخ للكفار، والوقف على قوله ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾، ثم ابتدأ القول بنفي ما ذكروه: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي بمحمد ﷺ، ويحتمل أن يكون المعنى: أو لم يتفكروا أنه ما بصاحبهم من جنة؟

وسبب نزول هذه الآية فيما روي أن رسول الله ﷺ صعد ليلا على الصَّفا، فجعل يدعو قبائل قريش: يا بني فلان، يا بني فلان، يحذرهم ويدعوهم إلى الله، فقال بعض الكفار حين أَصبحوا: هذا مجنون بات يصوت حتى الصباح[2] فنفى الله عزَّ وجلَّ ما قالوه من ذلك في هذا الموطن المذكور وفي غيره، فإن الجنون بعض ما رَمَوْه به حتى أَظهر الله نوره، ثم أَخبر أنه نذير أَي مُحَذِّرٌ من العذاب، ولفظ النذارة إذا جاءَ مطلقاً، فإنما هو في الشرّ، وقد يستعمل في الخير مقيّداً به، ويظهر من رصف الآية أَنها باعثة لهم على الفكرة في أَمر محمد ﷺ، وأَنه ليس به جِنَّة، وكما أَحالهم بعد هذه الآية على النظر، ثم بيّن المنظور فيه كذلك أَحال هنا على الفكرة ثم بيَّن المتفكر فيه.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ الآية. هذا أَيضاً توبيخ للكفار وتقرير، والنظر هنا بالقلب عبرة وفكراً. و﴿مَلَكُوتِ﴾ بناءُ عظمة ومبالغة، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ لفظ يعم جميع ما ينظر فيه ويُستدل به، من الصنعة الدّالَّة على الصانع، ومن نفس الإنس وحواسّه ومواضع رزقه. والشيءُ واقع على الموجودات. وقوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ﴾ عطف على قوله: ﴿فِي مَلَكُوتِ﴾. و﴿وَأَنْ﴾ الثانية في موضع رفع بـ﴿عَسَىٰٓ﴾، والمعنى توقيفهم على أَنَّه لم يقع لهم نظر في شيءٍ من هذا، ولا في أَنه قربت آجالهم، فماتوا ففات أَوان الاستدارك ووجب عليهم المحذور.

---

(١) المنافقون: ٨.

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة. وفيه (بات يهوّت حتى الصباح). (الدر المنثور ٣ ـ ١٤٩) ومعنى يهوّت: يصوّت.

ثم وقفهم بأي حديث أو أمر يقع إيمانهم وتصديقهم إذا لم يقع بأمر فيه نجاتهم ودخولهم الجنة؟ ونحو هذا قول الشاعر:

وعن أيِّ نَفْسٍ بعْدَ نَفْسي أُقاتِلُ؟

والضمير في قوله سبحانه: [بعْدَهُ] يراد به القرآن، وقيل: المراد به محمد ﷺ وقصّته وأمْره أجمع، وقيل: هو عائد على الأجل، إذ لا عمل بعد الموت.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

هذا شرط وجواب مضمنه اليأسُ منهم والمقت لهم، لأن المراد أن هذا قد نزل بهم وأنهم مثال لهذا.

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، والحسن، وأبو جعفر، والأعرج، وشيبة، وأبو عبد الرحمن، وقتادة [وَنَذَرُهُم] بالنون ورفع الراءِ، وكذلك عاصم في رواية أبي بكر، وروى عنه حفص ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالياءِ والرفع، وقرأها أهل مكة، وهذا على إضمار مبتدأ: [ونحن نذرهم]، أو على قطع الفعل واستئناف القول[1]. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو ـ فيما ذكر أبو حاتم ـ بالياءِ والجزم، وقرأها كذلك طلحة بن مصرف، والأعمش [ويَذَرْهم] بالياءِ وبالجزمِ عطفاً على موضع الفاءِ وما بعدها من قوله تعالى: ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ لأنه موضع جزم، ومثله قول أبي داود:

فـأبْلُـونِـي بَلِيَّتَكُـمْ لَعَلِّـي ... أُصَـالِحُكُـمْ وَأَسْتَـدْرِجْ نَـوِيَّـا[2]

(١) قال ابن خالويه: «الحجة لمن قرأ بالنون والرفع أنه استأنف الكلام، لأنه ليس قبله ما يردُّه بالواو عليه». وكذلك الأمر مع القراءة بالياء والرفع فهي على الاستئناف كما قال ابن عطية رحمه الله، أما قراءة الياءِ والجزم فهي عند ابن خالويه كما قال ابن عطية بالعطف على موضع الفاء في الجواب من قوله تعالى: ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾.

(٢) الشاعر يطلب الإنعام والعطاءَ بقوله «فابْلُونيَ»، ذلك لأن البلاء قد يكون بمعنى الإنعام، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ وفي الحديث: «من أبلي فذكر فقدْ شكرَ» بمعنى: من أُنعم عليه وأُحسن إليه، ويكون بمعنى الإعطاءِ وبلوغ العذر كما في الحديث (أبْلِ الله تعالى عُذْراً في برِّهما) أي=



ومنه قول الآخر:

أَنَّى سَلَكْتَ فَإِنَّنِي لَكَ كَاشِحٌ وعَلَى انْتِقَاصِكَ في الْحَيَاةِ وَأَزْدَد[١]

قال أبو علي: ومثله في الحمل على الموضع قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٢]، لأنك لو لم تلحق الفاءَ لقلت (أَصَّدَّقْ)[٣]، وروى خارجة عن نافع: [وَنَذَرْهم] بالنون والجزم. والطغيانُ: الإفراط في الشيءِ، وكأنه مستعمل في غير الصلاح، والعَمَه: الحيرة[٤].

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية. قال قتادة بن دِعَامَة[٥]: المراد: يسألك كفار قريش، وذلك أن قريشاً قالت: يا محمد، إنا قرابتك فأخبرنا بوقت الساعة. قال

= الوالدين. والبَلِيَّة: الناقة يموت صاحبها فيحفر لديها حفرة وتُشد رأسها إلى خلفها وتُبلى أي تترك هناك لا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعاً وعطشاً. والنَّوِيُّ: الرفيق، وقيل: الرفيق في السفر خاصة، أو هو صاحبك الذي نيَّتُهُ نيَّتُكَ، وفي نوادر الأعراب: فلان نَوِيُّ القوم أي صاحب أمرهم ورأيهم ـ ورُويت (سوياً) بالسين ـ وسَوِيُّ الرجل هو من يساويه. والشاهد في قوله: وأَستدرج بالسكون، ومثله قوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرْ﴾ في قراءة الجزم.

(١) السلوك في المكان: مصدر سلك، يقال: سلك المكان وبه وفيه سلكا وسُلُوكاً: دخل ونفذ. والكاشِحُ: العدوُّ المُبغض كأنه يطويها في كشحه، أو كأنه يُوَلِّيك كشحَه ويُعرض عنك بوجهه، وانتقص الرجل: نسب إليه النُّقصان، وفلان يتنقص فلاناً أي: يقع فيه ويثلبهُ. وأَزددَ أصلها: أَزْدادُ مضارع: ازْدَادَ وقد حذفت منها الألف لالتقاءِ الساكنين.

(٢) المنافقون: ١٠.

(٣) يرى ابن عطية في الآية أنَّ (وأكُنْ) معطوفة على الموضع، لأن التقدير: «إِنْ تُؤَخِّرْني أَصَّدَّقْ وأكُنْ»، ولهذا قال هنا: «إنَّك لو لمْ تُلحق الفاءَ لقلت (أصدَّق)»، وهذا هو مذهب أبي علي الفارسي، ومذهب سيبويه أنه لا موضع ها هنا، وأنَّ جزْم (وَأَكُنْ) جاءَ على توهم الشرط الذي يدل عليه بالتمنِّي، ولا موضع هنا لأن الشرط ليس بظاهر، فإن ظهر الشرط جاز العطف على الموضع كقوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرْهُمْ﴾ في قراءة الجزم.

(٤) حكى أهلُ اللغة: عَمِه الرجل يعْمَه عُمُوها وعَمَها فهو عَمِهٌ وعامِهٌ إذا حارَ، والجمع: عُمَّهٌ. والعمى في العين، والعمه في القلب.

(٥) هو قتادة بن دِعَامة بن قتادة بن عُزير، أبو الخطاب السدوسي البصري: مفسِّر حافظ ضرير أكْمَه، قال الإمام أحمد بن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة. وكان مع علمه بالحديث رأساً في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنَّسب، وكان يرى القدر، وقد يدلِّس في الحديث، مات بواسط في الطاعون ١١٨هـ. (عن تذكرة الحفاظ ١ ـ ١١٥، وابن خلكان ١ ـ ٤٢٧، وطبقات المدلِّسين ١٦ ـ والأعلام ٦ ـ ٢٧).



ابن عباس رضي الله عنهما: المراد بالآية اليهود، وذلك أن جبل بن أبي قشير، وسمويل بن زيد قالا له: إنْ كنت نبياً، فأخبرنا بوقت الساعة فإنا نعرفها، فإن صدقت آمنا بك.

و﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: القيامة، موت كل شيءٍ كان حينئذ حيّاً وبعث الجميع هو كلُّه يقع عليه اسم الساعة واسم القيامة. و[أيّان] معناها: متى. وهو سؤال عن زمان، ولتضمنها الوقت بُنِيت، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَيَّانَ﴾ بفتح الهمزة، وقرأ السُّلَميُّ: [إِيَّانَ] بكسر الهمزة، ويشبه أن يكون أصلها «أيّ آن» وهي مبنية على الفتح. وقال الشاعر:

أَيَّـانَ تَقْضـي حَـاجَتـي أَيَّـانـا … أَمـا تَـرى لِفعْلهـا إِبَّـانَـا؟[1]

قال أبو الفتح: وزن ﴿أَيَّانَ﴾ بفتح الهمزة: فَعْلان، وبكسرها: فِعْلان، والنون فيهما زائدة. و﴿مُرْسَىٰهَا﴾ رفع بالابتداءِ، والخبر ﴿أَيَّانَ﴾، ومذهب المبرد أن ﴿مُرْسَىٰهَا﴾ مرتفع بإضمار فعل، ومعناه: مثبتها ومنتهاها، مأخوذة من أَرْسى يُرْسي. ثم أمر الله عزَّ وجلَّ بالردِّ إليه والتسليم لعلمه. و﴿يُجَلِّيهَا﴾ معناه: يظهرها. والجلاءُ: البيِّنَة والشهود، وهو مراد زهير بقوله:

. . . . … يميـنٌ أَوْ نِفَـارٌ أَوْ جِـلاءُ[2]

---

(١) قال في اللسان: أيّان: معناه: أيُّ حين، وهو سؤال عن زمان مثل متَى، قال ابن سيدة: ينبغي أن تكون شرطاً، ولم يذكرها أصحابنا في الظروف المشروط بها مثل متى وأين»، وحكى الزجاج فيه إيّان بكسر الهمزة ـ وهي قراءة أبي عبد الرحمن السُّلمي كما قال ابن عطية ـ وذكر ذلك الفراءُ أيضاً. وقد أنشد صاحب اللسان البيت في (أبَنَ) وقال: إبَّانُ كل شيءٍ بالكسر والتشديد: وقتُه وحينه الذي يكون فيه، يقال: جئته على إبّان ذلك، أي على زمنه، وأخذ الشيء بإبّانه، أي بزمانه، هذا ورواية الطبري: «أما ترى لنُجْحها إيّانا» بدلا من «لِفِعْلها إبّانا».

(٢) هذا عجز بيت من قصيدة مشهورة هجا فيها آل حصن بقوله: أقومٌ آلُ حِصْن أمْ نِساءُ؟ ومطلعها:

عَفَـا مِـن آل فـاطمـةَ الجِـوَاءُ … فيُمْـنٌ، فـالقَـوادمُ، فـالحِسـاءُ

والبيت بتمامه:

وإنَّ الْحَـقَّ مَقْطَعُـهُ ثَـلاثٌ … يميـنٌ، أو نِفـارٌ، أوْ جـلاءُ

أي: للحق ثلاث خصال، اليمين وهو الحلف، والنِّفار بمعنى التنافر وهو الاحتكام إلى رجل يتبين الحجج ويحكم، والجِلاءُ وهو انكشاف الأمر وانجلاؤه، حتى تعلم حقيقته. وقيل: إن زهيراً سُمّي بهذا البيت قاضي الشعراءِ.



وقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال السدي، ومعمر عن بعض أهل التأويل: معناه: ثَقُلَ أَن تُعلم ويوقف على حقيقة وقتها. قال الحسن بن أبي الحسن: معناه: ثقلت هيئتها والفزع منها على أَهل السموات والأَرض، كما تقول: خيف العدو في بلد كذا وكذا، وقال قتادة، وابن جريج: معناه: ثقلت على السموات والأَرض أَنفُسها لِتَفطُّرِ السموات وتَبَدُّلِ الأَرض ونسْفِ الجبال، ثم أَخبر تعالى خبراً يدخل فيه الكل: إنها لا تأتي إلا بغتة، أي فجأة دون أَن يتقدم منها علم بوقتها عند أحد من الناس، و﴿بَغْتَةً﴾ مصدر في موضع الحال.

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ الآية، قال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: المعنى: يسألونك عنها كأَنك حفيٌّ، أَي: متحف ومهتبل، وهذا ينحو إلى ما قالت قريش: إنَّا قرابتك فأَخبرنا. وقال مجاهد أَيضاً، والضحاك، وابن زيد: معناه: كأَنك حفيٌّ في المسأَلة عنها والاشتغال بها حتى حصلت على علمها. وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما ذكر أَبو حاتم ـ: [كأنك حفي بها]، لأَن [حَفِيّ] معناه: مهتبل مجتهد في السؤال مبالغ في الإقبال على ما يسأَل عنه، وقد يجيءُ (حفيّ) وصفاً للسؤال، ومنه قول الشاعر:

فَلَمَّـا الْتَقَيْنَـا بيّـن السَّيْـفُ بَيْنَنَـا ... لِسَـائِلَـةٍ عَنَّـا حَفِـيٌّ سُـؤَالُهَـا(١)

ومن المعنى الأَول الذي يجيءُ فيه (حَفِيٌّ) وصفاً للسائل قول الآخر:

سُـؤَالُ حَفِـيٍّ عـنْ أَخِيـهِ كَـأَنَّـه ... بِـذُكْـرَتِـهِ وسْنَـانُ أَوْ مُتـواسِـنُ(٢)

---

(١) هذا البيت لأُنَيْف بن زُبَّان النَّبهانيّ، شاعر مقلّ، فارس، والبيت من قصيدة يصف فيها معركةً، ومطلعها:

جَمَعْنـا لكُـمْ مِـن حَـيٍّ عَـوْفٍ ومَـالِـكٍ ... كَتَـائِـبَ يُـرْدي المُقْـرِفيـنَ نَكَـالُهـا

ومعنى بيَّن السَّيفُ: وضَح. وحفيٌّ: مُلحٌّ في السؤال مُهْتَمٌّ.

(٢) قال في (اللسان ـ حفي): وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قال الزجاج: يسألونك عن أمر القيامة كأنك فرحٌ بسؤالهم، وقيل: معناه: كأنك أكثرتَ المسألة عنها» ـ ثم قال بعد ذلك: «ويقال: تحفَّى فلان بفلان معناه أنه أظهر العناية في سؤاله إياه، يقال: فلان بي حفيٌّ إذا كان معنياً، وأنشد للأعشى:

فـإنْ تَسْـألـي عَنـي فيـا رُبَّ سَـائِـلٍ ... حفيٌّ عـن الأعشى بـه حَيْـثُ أَصْعَـدَا

وقال الجوهري: الحفيُّ: العالم الذي يتعلم الشيءَ باستقصاءٍ، والحفي: المستقصي في السؤال. أما الذُّكْرةُ بضم الذال وبالتاءِ في آخره فهي والتذكر والذكرى بكسر الذال وبالياءِ ـ ضد النسيان. وأما وسنان=

ثم أَمره ثانية بأَن يُسَلم لعلمه تأْكيداً للأَمر وتهمُّماً به إذ هو من الغيوب الخمسة التي في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾(١) الآية، وقيل: العلم الأَول علم قيامها والثاني علمُ كُنهها وحالها.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قال الطبري: معناه: لا يعلمون أَن هذا الأمر لا يعلمه إلا الله، بل يظن أكثرهم أنه مما يعلم البشر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾.

هذا أَمر في أَن يبالغ في الاستسلام ويتجرد من المشاركة في قدرة الله وغيبه، وأَن يصف نفسه لهؤلاءِ السائلين بصفةٍ من كان بها فهو حريٌّ ألا يعلم غيباً ولا يدعيه، فأَخبر أَنه لا يملك من منافع نفسه ومضارها إلا ما سَنَّى(٢) الله له وشاءَ ويَسَّر(٣)، وهذا الاستثناءُ منقطع(٤)، وأَخبر أنه لو كان يعلم الغيب لعمل بحسب ما يأْتي ولاستعد لكل شيءٍ استعدادَ من يعلم قدر ما يستعد له، وهذا لفظ عام في كل شيءٍ، وقد خصص الناس هذا فقال ابن جريج، ومجاهد: لو كنت أَعلم أَجلي لاستكثرت من العمل

= أو متواسن فهو من قولهم: وسِنَ الرجلُ يَوْسَنُ وسَناً وسِنَةً: أَخذ في النعاسِ فهو وسِنٌ ووَسْنان. (التاج ـ واللسان ـ والصحاح).

(١) لقمان: ٣٤.

(٢) سَنَّى الشيءَ: سَهَّله ويَسَّرَهُ. وكذلك سَنَّى بالتشديد.

(٣) روي أنه لما رجع ﷺ من غزوة بني المصطلق جاءَت ريح في الطريق فأخبر بموت رفاعة وكان في ذلك غيظ المنافقين، ثم قال: انظروا أين ناقتي، فقال عبد الله بن أُبي بن سلول: ألا تعجبون من هذا الرجل يخبر عن موت رجل بالمدينة ولا يعرف أين ناقته؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إن ناساً من المنافقين قالوا كيت وكيت، وناقتي في الشِّعب وقدتعلق زمامها بشجرة». فوجدوها على ما وصف، فنزلت الآية، وهذا منه ﷺ إظهارٌ للعبودية، وانتفاءٌ عما يختص بالربوبية من القدرة وعلم الغيب، ومبالغة في الاستسلام، فهو يقول: لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضر فكيف أملك علم الغيب؟

(٤) قال في «البحر المحيط»: «لا حاجة لدعوى الانقطاع مع إمكان الاتصال» (البحر المحيط ٤ ـ ٤٣٦).

الصالح، وقالت فرقة: أَوقات النصر لتوخَّيتها، وحكى مكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن معنى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ﴾ السنة المجدبة لأَعددت لها من المخْصبة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وألفاظ الآية تعم هذا وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ﴾ يحتمل وجهين وبكليهما قيل. أَحدهما: أَن ﴿مَا﴾ معطوفة على قوله: ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ﴾ أَي: ولَمَا مَسَّنيَ السوءُ. والثاني أن يكون الكلام مقطوعاً تمَّ في قوله: ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ وابتدأ يخبر بنفي السوءِ عنه وهو الجنون الذي رموه به. قال المؤرِّج السَّدوسي[1]: السُّوءُ: الجنون بلغة هذيل. ثم أَخبر بجُمْلة ما هو عليه من النذارة والبشارة. و﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يحتمل معنيين: أَحدهما: أَن يريد أَنه نذير وبشير لقوم يُطْلب منهم الإيمان ويُدْعون إليه وهؤلاءِ النَّاسُ أَجمع، والثاني: أَن يخبر أنه نذير ويتم الكلام، ثم يبتدىءُ يخبر أَنه بشير للمؤمنين به، ففي هذا وعدٌ لِمَن حصل إيمانه.

وقوله تعالى: ﴿۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ الآية.

قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام، وبقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواءُ. وقوله: ﴿مِنْهَا﴾ يريد: ما تقدم ذكره من أَن آدم نام فاستخرجت قصرى أَضلاعه وخلقت منها حواءُ. وقوله تعالى: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أَي: لِيَأْنَس ويطمئن، وكان هذا كله في الجنة.

ثم ابتدأَ بحالة أُخرى هي في الدنيا بعد هبوطهما فقال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أَي: غشيها، وهي كناية عن الجماع، والحمل الخفيف هو المني الذي تحمله المرأَة في فرجها. وقرأَ جمهور الناس: ﴿حَمْلًا﴾ بفتح الحاءِ، وقرأَ حماد بن سلمة عن ابن كثير: [حِمْلاً] بكسر الحاءِ[2]. وقوله تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أَي: استمرت به، قال

---

(١) هو عمرو بن الحارث السدوسي النحوي البصري، واحد من أئمة اللغة والأدب، والمؤرِّج بالهمزة والرَّاءِ المشددة المكسورة. (تاج العروس).

(٢) قال علماءُ اللغة: كلُّ ما كان في بطن أو على رأس شجرة فهو حَمْل بالفتح، وإذا كان على ظهر أَوْ على رأس فهو حِمْل بالكسر، وقال أبو سعيد السيرافي: يقال في حمل المرأة: حَمْل وحِمْل، يُشبَّه مرة لاستبطانه بحَمْل المرأة، ومرة لظهوره وبروزه بحِمْل الدابة.



أيوب: سألت الحسن عن قوله تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ فقال: لو كنت امرأ عربياً لعرفت ما هي، إنما المعنى: فاستمرت به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقدّره قوم على القلب كأن المراد: فاستمر بها، كما تقول: أدخلت القلنسوة في رأسي، وقرأ يحيى بن يَعْمر، وابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما ذكر النقاش ـ: [فَمَرَت بِهِ] بتخفيف الراءِ، ومعناه: فشكَّت فيما أصابها هل هو حَمْل أو مرض[1] ونحو هذا. وقرأ ابن عباس: [فاستمرت به]، وقرأ ابن مسعود: [فَاسْتَمَرَّتْ بِحَمْلها]، وقرأ عبد الله بن عمرو بن العاص: [فَمَارَتْ بِهِ] ومعناه: أي جاءَت به وذهبت وتصرفت كما تقول: مارت الريح موراً. و﴿أَثْقَلَتْ﴾ دخلت في الثقل، كما تقول: أصبح وأمسى، أي: صارت ذات ثقل، كما تقول: أتمر الرجل وألبن إذا صار ذا تمر ولبن. والضمير في ﴿دَعَوَا﴾ يعود على آدم وحواءَ.

ورُوي في قصص هذه الآية أن حواءَ لما حملت أول حَمْل لها لم تدر ما هو، وهذا يقوي قراءَة من قرأ [فَمَرَتْ بِهِ] بتخفيف الراءِ فجزعت لذلك فوجد إبليس إليها السبيل، فقال لها: ما يدريك ما في جوفك؟ ولعله خنزير أو حية أو بهيمة في الجملة. وما يدريك من أين يخرج؟ أَيَنْشَقُّ له بطنك فتموتين أو من فمك أو من أنفك؟ ولكن إن أطعتني وسميته عبد الحارث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

«والحارث اسم إبليس» فسأُخلِّصه لك وأجعله بشراً مثلك، وإن أنت لم تفعلي قتلتُه لك، قال: فأخبرت حواءُ آدم، فقال لها: ذلك صاحبنا الذي أغوانا في الجنة، لا نطيعه، فلما ولدت سمياه عبد الله، فمات الغلام، ويروى أن الله سلَّط إبليس على قتله، فحملت بآخر ففعل بها مثل ذلك، فحملت بالثالث، فلما ولدته أطاعا إبليس فسمياه عبد الحارث حرصاً على حياته، فهذا هو الشرك الذي جعلا لله، أي في التسمية فقط.

---

(١) قال في «أساس البلاغة»: «مَرَى في الأمر وامترى وتمارى، وما فيه مُرْيَةٌ ومَرْيَةٌ: شك»، وفي القرآن الكريم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ والمستعمل كثيراً في الشكّ هو الامتراء.



و﴿صَٰلِحًا﴾ قال الحسن: معناه: غلاماً. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ وهو الأظهر ـ: بشراً سوياً سليماً. ونصبه على المفعول الثاني، وفي «المشكل» لمكي أنه نعت لمصدر أي: أتيا صالحاً. وقال قوم: إن المعنى في هذه الآية التَّبْيينُ عن حال الكافرين، فعدَّد النعم التي تعم الكافرين وغيرهم من الناس، ثم قرن ذلك بفعل المشركين السَّيِّىء فقامت عليهم الحجة ووجب العقاب، وذلك أنه قال مخاطباً لجميع الناس: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يريد آدم وحواءَ، أَي: واستمرت حالكم واحداً كذلك، فهذه نعمة تخص كل أحد بجزءٍ منها، ثم جاءَ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ إلى آخر الآية وصفاً لحال الناس واحداً واحداً، أَي هكذا يفعلون، فإذا آتاهم الله الولد صالحاً سليماً كما أراده صرفاه عن الفطرة إلى الشرك، فهذا فعل المشركين الذي قامت الحجة فيه باقترانه مع النعمة العامة. وقال الحسن بن أَبي الحسن ـ فيما حكى عنه الطبري ـ: معنى الآية: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إشارة إلى الرُّوح الذي ينفخ في كل أَحد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

أَي: خلقكم من جنس واحد وجعل الإناث منه، ثم جاءَ قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ إلى آخر الآية وصفاً لحال الناس واحداً واحداً على ما تقدم من الترتيب في القول الذي قبله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾.

يقال: إن الآية المتقدمة هي في آدم وحواءَ، وإن الضمير في قوله: ﴿ءَاتَىٰهُمَآ﴾ عائد عليهما، ويقال: إن الشرك الذي جعلاه هو في الطاعة، أَي أَطاعا إبليس في التسمية بعبد الحارث، لكنهما كانا في غير ذلك مطيعين لله، وأَسند الطبري في ذلك حديثاً من طريق سمرة بن جندب[1]. ويحتمل أَن يكون الشرك في أَن جعلا عبوديته

(١) نصُّه: عن سَمُرَة بن جُنْدب، عن النبي ﷺ قال: «كانت حواءُ لا يعيش لها ولد، فنذرت لَئِن عاشَ لها=



بالاسم لغيره. وقال الطبري والسدي في قوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾: إنه كلام منفصل ليس من الأول، وإن خبر آدم وحواءَ تمَّ في قوله: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآۚ﴾، وإن هذا كلام يراد به مشركو العرب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تحكم لا يساعده اللفظ، ويتَّجه أَنْ يقال: تعالى الله عن ذلك اليسير المتوهم من الشرك في عبودية الاسم، ويبقى الكلامُ في جهة أَبوينا آدم وحواءَ عليهما السلام. وجاءَ الضمير في [يُشْرِكُونَ] ضمير جمع لأَن إبليس مُدَبّر معهما تسمية الولد عبد الحارث. ومن قال: «إن الآية المتقدمة إنما الغرض منها تعديد النعمة في الأَزواج وفي تسهيل النسل والولادة، ثم ذكر سوءَ فعل المشركين بعقب ذلك» قال في الآية الأخيرة: إنها على ذلك الأُسلوب، وإن قوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ المراد بالضمير فيه: المشركون، والمعنى في هذه الآية: فلما آتى الله هذين الإنسانين صالحاً أَي سليماً ذهبا به إلى الكفر، وجعلا لله فيه شركاءَ، وأَخرجاه عن الفطرة. ولفظة الشرك تقتضي نصيبين، فالمعنى: وجعلا لله فيه ذا شرك، لأن إبليس أو أصنام المشركين هي المجعولة، والأصل أن الكل لله تعالى. وبهذا حل الزجاج اعتراض من قال: ينبغي أن يكون الكلام: «جعلا لغيره شركا».

وقرأ نافع، وعاصم في رواية أبي بكر: [شركا] بكسر الشين و سكون الراء على المصدر، وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنهما، وأبي جعفر، وشيبة، وعكرمة، ومجاهد، وعاصم، وأبان بن ثعلب. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم [شركاء] على الجمع، وهي بَيِّنَةٌ على هذا التأويل الأَخير، وقلقة على قول من يقول: «إن الآية الأُولى في آدم وحواءَ»، وفي مصحف أُبيّ بن كعب: [فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً أَشْرَكَا فيه]، وذكر الطبري في قصص آدم وحواءَ وإبليس في التسمية بعبد الحارث، وفي صورة مخاطبتهم أَشياءَ طويلة لا يقتضي الاختصار ذكرها[1].

= ولد لتُسَمِّيَنَّهُ عَبْد الحَرْث، فعاش لها ولد فَسَمَّتْه عبد الحَرْث، وإنما كان ذلك من وحي الشيطان». (تفسير الطبري ـ ٩ ـ ١٤٦).

(١) التعبير الأوضح في الدلالة على مراده أن يقول: «يقتضي الاختصار عدم ذكرها».



وقرأ نافع، والحسن، وأبو جعفر، وأبو عمرو، وعاصم: [عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ] بالياءِ من تحت فيهما. وقرأ أبو عبد الرحمن: [عما تشركون] بالتاءِ من فوق، ﴿أتشرِكُونَ مَا لاَ يَخلُقُ﴾ الآية، وروى بعض من قال: «إن الآيات في آدم وحواءَ» أن إبليس جاءَ إلى آدم وقد مات له ولد اسمه عبد الله فقال: إن شئت أن يعيش لك الولد فسَمّه عبد شمس، فولد له ولدٌ فسَمّاه كذلك، وإياه عني بقوله: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ـ على هذا ـ عائد على آدم وحواءَ والابن المسمى عبد شمس. ومن قال بالقول الآخر قال: إن هذه في مشركي الكفار الذين يشركون الأصنام في العبادة، وإياها أراد بقوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾، وعبّر عنها بـ[هُمْ] كأنها تعقل على اعتقاد الكفار فيها وبحسب أسمائها. و[يُخلَقُونَ] معناه: يُنحتون ويُصنعون. ويحتمل ـ على قراءَة ﴿أَيُشْركون﴾ بالياءِ من تحت ـ أن يكون المعنى: وهؤلاء المشركون يُخْلقون. أي: كان يجب أن يعتبروا بأنهم مخلوقون فيجعلون إلههم خالقهم لا من لا يخلق شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الآية. هذه تُخَرَّج على تأويل من قال: «إن المراد آدم وحواءُ والشمس» على ما تقدم، ولكن بقلق وتعسّف من المتأَوِّل في المعنى. وإنما تتّسق هذه الآيات ويروق نظمها ويتناصر معناها على التأويل الآخر، والمعنى: ولا ينصرون أنفسهم من أمر الله وإرادته، ومن لا يدفع عن نفسه فأحرى ألا يدفع عن غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ﴾ الآية. من قال: «إن الآيات في آدم عليه السلام» قال: إن هذه مخاطبة للنبي ﷺ وأُمتهِ مستأنفةٌ في أمر الكفار المعاصرين للنبي ﷺ، ولهم الهاءُ والميم من ﴿تَدْعُوهُمْ﴾، ومن قال بالقول الآخر قال: إن هذه مخاطبة للمؤمنين والكفار على قراءَة من قرأ [يُشرِكُونَ] بالياءِ من تحت، وللكفار فقط على قراءة من قرأ بالتاءِ من فوق على جهة التوقيف، أي: إن هذه حال الأصنام معكم إن دعوتموهم لم يجيبوكم، إذ ليس لهم حواسٌّ ولا إدراكات.

وقرأ نافع وحده: [لا يَتْبَعُوكم] بسكون التاءِ وفتح الباءِ، وقرأ الباقون: [لا يَتَّبِعوكم] بشد التّاءِ المفتوحة وكسر الباءِ، والمعنى واحد(١).

---

(١) قال بعض اللغويين: «أتبعه» مخففاً: إذامضى خلفه ولم يدركه، و«اتَّبعه مشدَّداً: إذا مضى خلفه وأدركه.



وفي قوله تعالى: ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ﴾ عطف الاسم على الفعل(١)، إذ التقدير: أَمْ صَمَتُّمْ. ومثل هذا قول الشاعر:

سَواءٌ عَلَيْكَ النَّفْرُ أَمْ بِتَّ لَيْلَةً   بِأَهْلِ الْقِبَابِ مِنْ نُمَيْر بن عامِرِ(٢)

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾.

قرأ جمهور الناس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ بتثقيل ﴿إِنَّ﴾ ورفع [عِباد]، وهي مخاطبة للكفار في تحقير شأن أصنامهم عندهم، أي: إنَّ هذه الأصنام مخلوقة محدثة إذ هي أجسام وأجرام فهي متعبدة أي متملكة. وقال مقاتل: إن المراد بهذه الآية طائفة من العرب من خزاعة كانت تعبد الملائكة فأعلمهم الله أنهم عبادٌ أمثالهم لا آلهة. وقرأ سعيد بن جبير: [إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادًا] بتخفيف النون

---

(١) قال أبو حيان بعد أن نقل رأي ابن عطية: «وليس من عطف الاسم على الفعل، إنما هو من عطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية»، ونعتقد أن هذا لم يغب عن ابن عطية وإنما هو تسامح في التعبير، وكانت الجملة الثانية اسمية لمراعاة رؤوس الآيات «يَنصُرون ـ صامتين ـ صادقين»، ولأن الفعل يشعر بالحدوث واسم الفاعل يشعر بالثبوت والاستمرار، فكانوا إذا دهمهم أمرٌ معضل فزعوا إلى أصنامهم وإذا لم يحدث بقوا صامتين ساكتين، فقيل: لا فرق بين أن تحدثوا لهم دعاءً وبين أن تستمروا على صمتكم فتبقوا على ما أنتم عليه من عادة صمتكم وهي الحالة المستمرة.

(٢) هذا البيت من شواهد الكسائي، وقد نقله الفراءُ في كتابه (معاني القرآن). وقد اختلفت الروايات في كلمة (النفر) فهي في الطبري (القَفْز) بالقاف ثم الفاءِ، وهي في بعض الأصول الخطية لتفسير ابن عطية (الفقر) ولا يناسب معناها البيت. وقد قال صاحب «البحر المحيط»: إن البيت ليس من عطف الاسم على الفعل كما قال ابن عطية، بل من عطف الجملة الفعلية على الاسم المقدر بالجملة الفعلية، إذ أصل التركيب: «سواءٌ عليك أنفرت أم بتّ ليلةً، فأوقع (النفر) موقع (أنفرْت). وقال الفراءُ في تعليقه على الآية واستشهاده بالبيت: وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ ولم يقل «أم صمتُّمْ»، وعلى هذا أكثر العرب، فهم يقولون: «سواءٌ علي أقمت أم قَعَدْت»، ويجوز: «سواءٌ عليَّ أقمتَ أمْ أنت قاعدٌ» قال الشاعر: «سواءٌ عليك القفز..» وأنشد بعضهم: «أو أنت بائت». هذا ولم ينسب أحد البيت إلى قائل معيَّن.



من [إن] على أَن تكون بمعنى (ما) وبنصب قوله: [عِبَاداً] و[أَمْثَالَكُمْ] ، والمعنى بهذه القراءَة تحقير شأن الأَصنام ونفي مماثلتهم للبشر ، بل هم أَقل وأَحقر إذ هم جمادات لا تفهم ولا تعقل ، وسيبويه يرى أَنَّ [إِنْ] إذا كانت بمعنى (ما) فإنها تضعف عن رتبة (ما) فيبقى الخبر مرفوعاً وتكون هي داخلة على الابتداءِ والخبر لا تنصبه ، فكأن الوجه عنده في هذه القراءَة: إنِ الَّذين تَدْعونَ مِنْ دونِ اللهِ عبادٌ أَمثالُكم. وأَبو العباس المبرد يجيز أن تعمل عمل (ما) في نصب الخبر. وزعم الكسائي أَنَّ (إِنْ) بمعنى (ما) لا تجيءُ إلاَّ وبعدها (إلاَّ) كقوله تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴾[1]. ثم بيّن تعالى الحجة بقوله: ﴿ فَٱدْعُوهُمْ ﴾ أَي: فاختبروا فإن لم يستجيبوا فهم كما وصفْنَا.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ ﴾ الآية. الغرض من هذه الآية: أَلَهُم حواسُّ الحيِّ وأَوصافُهُ؟ فإذا قالوا: «لا» ، حكموا بأَنها جمادات ، فجاءَت هذه التفصيلات لذلك المجمل الذي أُريد التقرير عليه ، فإذا وقع الإقرار بتفصيلات القضية لزم الإقرار بعمومها وكان بيانها أَقوى ولم تقم بها استرابة. قال الزهراوي: المعنى: أَنتم أَفضل منهم بهذه الجوارح النافعة فكيف تعبدونهم؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتَتقوَّى بهذا التأْويل قراءَة سعيد بن جبير ، إذ تقتضي أَنَّ الأَوثان ليست عباداً كالبشر[2].

وقوله في الآية [أَمْ] إضراب لكل واحدة عن الجملة المتقدمة لها ، وليست (أَمْ) المعادِلة للأَلف في قولك: «أعندك زيد أم عمرو؟» لأَن المعادِلة إنما هي في السؤال عن شيئين أَحدهما حاصل ، فإذا وقع التقدير على شيئين كلاهما منفي فـ (أم) إضراب عن الجملة الأُولى.

---

(١) الملك: ٢٠.

(٢) في شرح التسهيل تخريج آخر لقراءَة سعيد بن جبير وهو أن (إنْ) هي المخففة من الثقيلة وأنها عملت عمل المشددة ، وهذا ثابت في غير المضمر بالقراءَة المتواترة ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا ﴾ وينقل سيبويه عن العرب ، لكن الخبر في هذه القراءَة نُصب كما نصب في قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

إذَا اسْـوَدَّ جُنْـحُ اللَّيْـلِ فَلْتَـأْتِ وَلْتَكُـنْ ... خُطَـاكَ خِفَـافـاً إنْ حُـرَّاسَنَـا أُسْـدا

أو يمكن تأويل الخبر المنصوب على إضمار فعل ، كما قالوا في قوله: «يا ليت أيامَ الصِّبَا رَوَاجعا» إنَّ تقديره: «أقبلت رواجعا» ، والتأويل في الآية أن يقال: «إن الذين تدعون من دونِ اللهِ تدعونَ عباداً أمثالكم».



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي فرق معنوي، وأَما من جهة اللفظ والصناعة النحوية فهي هي.

وقرأَ نافع، والحسن، والأعرج [يَبْطِشُونَ] بكسر الطاءِ، وقرأَ نافع أَيضاً، وأَبو جعفر، وشيبة: [يَبْطُشُون] بضمها.

ثم أَمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يعجزهم بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي استنجدوهم واستنفدوهم إلى إضراري وكيدي ولا تؤخروني، والمعنى: فإن كانوا آلهة فيسظهر فعلهم، وسمّاهم شركاءَهم من حيث لهم نسبة إليهم بتسميتهم إياهم آلهة وشركاء لله، وقرأَ أَبو عمرو، ونافع: ﴿فَكِيدُونِي﴾ بإثبات الياءِ في الوصل، وقرأَ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، وحمزة والكسائي: [كِيدونِ] بحذف الياءِ في الوصل والوقف. قال أَبو علي: إذا أَشبه الكلام المنفصل أَو كان منفصلا أَشبه القافية، وهم يحذفون الياءَ في القافية كثيراً، وقد التزموا ذلك، كما قال الأعشى:

فَهَــلْ يَمْنَعَنِّــي ارْتِيَــادِي الْبِــلا دَ مــن حَــذَرِ الْمَــوْتِ أَنْ يَــأْتِيــنْ[١]

وقد حذفوا الياءَ التي هي لام الأَمر كما قال الأعشى:

يَلْمَــسُ الأَحْــلاسَ فــي مَنْــزِلِــهِ بِيَــدَيْــهِ كــالْيَهُــودِي الْمُصَــلْ[٢]

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أَي لا تؤخرون، ومنه قوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[٣].

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها الأعشى يمدح فيها قيسَ بن معد يكرب الكندي، ومطلعها:

لعمْــرُكَ مــا طــولُ هــذا الــزَّمــن علــى الْمــرْءِ إلا عنــاءٌ مُعــنّ

(٢) قائل هذا البيت هو لبيد، وهو موجود في ديوانه ضمن قصيدته التي قالها متحدثاً عن مآثره وعن أساه لفقد أخيه أربد، والتي مطلعها:

إنَّ تقْــوَى اللهِ خَيْــرُ نَفَــلْ وبِــإذْنِ اللهِ رَيْثــي وعَجَــلْ

وهو منسوب إليه أيضاً في «لسان العرب» «وتاج العروس». ومعنى يلمس: يطلب، والأحلاس: جمع حِلْس وهو كساءٌ رقيق يوضع على ظهر البعير. ومنزله: مكان نزوله. والمُصَلّ: المُصَلّي، يصور رفيقاً له في رحيله قد أجهده السير وأراد أن ينام ولكنه كان يمنعه من النوم ـ «وقد عبَّر عن ذلك في أبيات سابقة»، ثم يقول في هذا البيت: إنه لا يكاد يعقل من غلبة النوم عليه فهو يطلب الأحلاس بيديه مائلا جانبه كأنه يهودي على شق وجهه، ثم تأمل قول ابن عطية قبل هذا البيت: «وقد حذفوا الياءَ التي هي لام الأمر» فإنها ليست لام أمره.

(٣) البقرة: ٢٨٠.



وقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ﴾ الآية. لمّا أحالهم على الاستنجاد بآلهتهم في ضرّه وأراهم أن الله هو القادر على كل شيءٍ لا تلك ـ عقَّب ذلك بالاستناد إلى الله والتوكل عليه والإعلام بأنه وليُّه وناصره، وقرأ جمهور الناس والقرأة: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ﴾ بياءٍ مكسورة مشددة وأُخرى مفتوحة، وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ﴾ بياءٍ واحدة مشددة ورفع ﴿ٱللَّهُ﴾. قال أبو علي: لا تخلو هذه القراءَة من أن تدغم الياءُ التي هي لام الفعل في ياءِ الإضافة، أو تحذف الياءُ التي هي لام الفعل وتدغَم ياءُ فعيل في ياءِ الإضافة، ولا يجوز أن تدغم الياءُ التي هي لام الفعل في ياءِ الإضافة لأنه إذا فعل ذلك انفكَّ الإدغام الأول، فليس إلاَّ أنه حذف لام الفعل وأدغم ياءَ فعيل في ياء الإضافة(١).

وقرأ ابن مسعود [الَّذي نَزَّلَ الكتاب بالْحَقِّ وَهُوَ يَتَوَلَى الصَّالحينَ]، وقرأ الجحدري ـ فيما ذكر أبو عمرو الداني ـ: [إن ولي اللهِ] على الإضافة. وفسّر ذلك بأن المراد جبريل ﷺ، وذكر القراءَة غير منسوبة أبو حاتم وضعَّفها، وإن كانت ألفاظ هذه الآية تلائم هذا المعنى وتصلح له فإن ما قبلها وما بعدها يدفع ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ عائد على اسم الله تعالى، وهذا الضمير مصرح بما ذكرناه من ضعف قراءَة من قرأ: [إن ولِيَّ اللهِ] على أنه جبريل ﷺ، وهذه الآية أيضاً بيان لحال تلك الأصنام وفسادها وعجزها عن نصرة أنفسها فضلاً عن غيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ الآية. قالت فرقة: المخاطبة للنبي ﷺ وأُمته،

---

(١) معنى هذا أن قراءة الجمهور بثلاث ياءات، الأولى: ياءُ فعيل وهي زائدة، والثانية لام الفعل وهي أصلية، والثالثة ياءُ الإضافة، فأدغمت الزائدة في الأصلية، واتصلت بها ياءُ الإضافة ففتحت لالتقاء الساكنين ـ وأما قراءة أبي عمرو فقد حُذفت فيها الياءُ الوسطى وهي لام الفعل وأدغمت ياءُ فعيل الزائدة في ياء الإضافة، ولا يجوز أن تدغم الياء الأصلية التي هي لام الفعل في ياء الإضافة حتى لا يفك الإدغام الأول. فالإدغام هنا مثله في إليَّ وعليَّ ولديَّ بفتح الياء.



والهاءُ والميم في قوله: ﴿تَدْعُوهُمْ﴾ للكفار، ووصفهم بأنهم لا يسمعون ولا يبصرون إذ لم يتحصل لهم عن النظر والاستماع فائدة ولا حصلوا منه بطائل، قاله السدي ومجاهد. وقال الطبري: المراد بالضمير المذكور الأصنام وَوَصْفُهم بالنظر كناية عن المحاذاة والمقابلة وما فيها من تخييل النظر كما تقول: دار فلان تنظر إلى دار فلان، ومعنى الآية على هذا تَبْيينُ جمودية الأصنام وصغر شأنها. وذهب بعض المعتزلة إلى الاحتجاج بهذه الآية على أن العباد ينظرون إلى ربهم ولا يرونه، ولا حجة لهم في الآية لأن النظر في الأصنام مجاز محضٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما تكرر القول في هذا وترددت الآيات فيه لأن أمر الأصنام وتعظيمها كان متمكناً في نفوس العرب في ذلك الزمن ومستولياً على عقولها فأوعب[١] القول في ذلك لطفاً من الله تعالى بهم.

وقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ الآية. وصيَّة من الله عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ تعم جميع أُمته، وأَمْرٌ بجميع مكارم الأخلاق. وقال الجمهور في قوله سبحانه ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾: إن معناه: اقبل من الناس في أخلاقهم وأقوالهم ومعاشرتهم ما أَتى عفواً دون تكلف، فالعفوُ هنا: الفضل والصفو الذي تهيَّأ دون تحرج، قاله عبد الله بن الزبير في مصنف البخاري، وقاله مجاهد وعروة، ومنه قول حاتم الطائي:

خُذِي الْعَفْوَ مِنّي تَسْتَديمي مَوَدَّتي ولا تَنْطقي في سَوْرَتي حين أَغْضَبُ[٢]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك، والسدي: هذه الآية في الأموال،

---

(١) وعبَ الشيءَ وأوْعَبه: أخذه جميعه ولم يدع منه شيئاً، والشائع: استوعَب القولَ بمعنى: استوفاه.

(٢) المراد بالعفو هنا: ضد الجهد، أي ما لا يشق على المعطي، وسورة الغضب: شدَّته وحدَّته، وسورة الرجل: سطوته وقوته. والمعنى في البيت أن تأخذ منه كل ما يعطيه مما لا يشق عليه حتى لا ينفر، وقد أمر بذلك رسول الله ﷺ في قوله، (يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا)، ومنه قول الشاعر:

إذا ما بُلْغَةٌ جاءَتْك عَفْواً فَخُذْها فالغِنى مرعىً وشُرْبُ
إذا اتَّفَق القليل وفيه سِلْم فَلا تَرِدِ الكَثيرَ وفيه حَرْبُ

هذا والبيت المنسوب لحاتم الطائي غير موجود في ديوانه، ولم ينسبه «اللسان» لأحد، واستشهد به الزمخشري في الكشاف أيضاً دون أن ينسبه.

وقيل: هي قبل فرض الزكاة[1]، أُمر بها رسول الله ﷺ أن يأخذ ما سهل من أموال الناس، و(عَفَا): أي: فَضَل وزاد، من قولهم: «عفا النبات والشعر» أي كثر، ثم نزلت الزكاة وحدودها فنسخت هذه الآية، وذكر مكي عن مجاهد أَنَّ ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ معناه: خذ الزكاة المفروضة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا شاذ.

وقوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ معناه: بكل ما عرفته النفوس مما لا تردُّه الشريعة، وروي أَن النبي ﷺ قال لجبريل: «ما هذا العرف الذي أُمر به؟ قال: لا أدري حتى أَسأَل العالم، فرجع إلى ربه فسأَله، ثم جاءَه فقال له: يا محمد، هو أَن تُعْطيَ مَنْ حَرَمَكَ، وتَصِلَ مَن قَطَعَكَ، وتعفو عَمَّن ظلمك»[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا نصب غايات: والمراد: فما دون هذا من فعل الخير. وقرأَ عيسى الثقفي ـ فيما ذكر أَبو حاتم ـ ﴿بالعُرُفِ﴾ بضم الراءِ، والعُرْفُ والعُرُفُ بمعنى: المعروف.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ حكُمٌ مترتب محكم مستمر في الناس ما بقوا، هذا قول الجمهور من العلماءِ، وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ إلى ﴿ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾: إنما أُمر النبي ﷺ بذلك مداراة لكفار قريش، ثم نسخ ذلك بآية السيف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وحديث الحُرّ بن قيس حين أَدخل عمَّه عُيَيْنَة بن حِصْن على عمر رضي الله عنه دليل على أَنها محكمة مستمرة، لأَن الحرّ احتَجّ بها على عمر رضي الله عنه فقررها ووقف عندها[3].

---

(١) جاءت هذه العبارة في بعض النسخ هكذا: «وقيل: هي فرض الزكاة»، لكننا اخترنا النص الذي يتفق مع ما نقله صاحب «البحر المحيط» عن ابن عطية، وهو ما يتفق مع ما جاء بعد ذلك في كلامه حيث قال: «ثم نزلت الزكاة».

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن الشعبي. (الدر المنثور ٣ ـ ١٥٣).

(٣) أخرج البخاري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن=



وقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ وصية من الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ تعم أُمته رجلا رجلا. والنزغ: حركة فيها فسادٌ، وقلَّما تستعمل إلا في فِعل الشيطان لأَن حركته مسرعة مفسدة[1]، ومنه قول النبي ﷺ: «لا يشر أَحدكم على أَخيه بالسلاح، لا ينزغ الشيطان في يده»[2].

= عباس رضي الله عنهما قال: قدم عُيَيْنَة بن حصن بن بدر فنزل على ابن أخيه الحرِّ بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضي الله عنه، وكان القراءُ أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباباً، فقال عُيَيْنَة لابن أخيه: يابن أخي هل لك وجه عند هذا الأمير؟ فاستأذنْ لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فاستأذن الحر لِعُيَيْنة فأذن له عمر رضي الله عنه، فلما دخل قال: هي يابن الخطاب، فو الله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر رضي الله عنه حتى همَّ أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله عزَّ وجلَّ قال لنبيِّه ﷺ: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقَّافاًعند كتاب الله عزَّ وجلَّ (الدر المنثور ٣ ـ ١٥٣ وابن كثير ٣ ـ ٢٦٨) فوقوف عمر رضي الله عنه عند الآية دليل على أنها غير منسوخة، بل هي محكمة مستمرة كما قال ابن عطية.

وقد روى البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير في قوله تعالى ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ قال: «ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس».

هذا وفي الآية كثير من الخصال الحميدة جمعها رسول الله ﷺ لجابر بن سليم.

(قال جابر بن سليم أبو جُرَيّ: ركبت بعيري ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله ﷺ، فأنخت قعودي بباب المسجد، فدلوني على رسول الله ﷺ، فإذا هو جالس عليه بُرْدٌ من صوف فيه طرائق حُمْر، فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فقال: «وعليك السلام»، فقلت: إنا معشر أهل البادية قومٌ فينا الجفاءُ، فعلمني كلمات ينفعني الله بها، قال: «ادْنُ» ثلاثاً، فدنوت فقال: «أَعِد عليّ» فأعدتُ عليه فقال ﷺ: «اتَّقِ الله ولا تحقرن من المعروف شيئاً، وأن تلقى أخاك بوجه منبسط، وأن تُفْرِغ من دلْوِكَ في إناءِ المستسقي وإن امرؤٌ سبَّك بما لا يعلم منك فلا تسُبَّه بما تعلم فيه، فإن الله جاعلٌ لك أجراً وعليه وزْراً، ولا تَسُبَّن شيئاً مما خوَّلك الله تعالى»، قال أبو جُرَيّ: فو الذي نفسي بيده ما سببت بعده شاةً ولا بعيراً). أخرجه أبو بكر البزَّار في مسنده بمعناه.

وروى أبو سعيد المَقْبُرِيُّ عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم لا تسعُون الناس بأموالكم، ولكن يَسَعُهم منكم بسط الوجه وحُسْن الخُلُق»، وقال ابن الزبير: «ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس».

(١) أصل النزغ: الفساد، يقال: نزغ بيننا أي أفسد، ومنه قوله تعالى: ﴿ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ أي أفسد، وقيل: النزغ: الإغواءُ والإغراءُ، ونزغُ الشيطان: وسوسته. والمعنى متقارب.

(٢) روى البخاري في كتاب الفتن ـ عن همَّام: «سمعت أبا هريرة عن النبي ﷺ قال: لا يُشير أحدكم على أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعلَّ الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار». وهذه الرواية بالعين المهملة. وكذلك رواه مسلم في البرّ، ورواه الإمام أحمد (٢/٣١٧) بلفظ (لا يَمْشِيَنَّ أَحَدُكمْ) و(ينزع)=



فالمعنى في هذه الآية: فَإِمَّا تُلِمَّن بِكَ لَمَّةٌ من الشيطان فاستعذ بالله. ونزغ الشيطان عام في الغضب وتحسين المعاصي واكتساب الغوائل وغير ذلك، وفي مصنف الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لِلْمَلَكِ لَمَّة، وللشيطان لَمَّة»[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهاتان اللَّمَّتان هما الخواطر من الخير والشر، و﴿سميعٌ﴾ في هذه الآية يصلح مع الاستعاذة، ويصلح أيضاً مع ما يقول الكفار فيه من الأقاويل فيُغضِبه الشيطان لذلك، و[عَلِيمٌ] كذلك، وبهذه الآية تعلق ابن القاسم في قوله: «إن الاستعاذة عند القراءة: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم»[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾.

﴿ ٱتَّقَوْاْ ﴾ هنا عامةٌ في اتقاءِ الشرك واتقاءِ المعاصي بدليل أن اللفظة إنما جاءَت في مدح لهم، فلا وجه لقصرها على اتقاءِ الشرك وحده، وأيضاً فالمتقي العائذ قد يمسّه طائف من الشيطان إذ ليست العصمة إلا للأنبياءِ عليهم السلام.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿ طَٰٓئِفٌ ﴾. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: [طَيْفٌ]. وقرأ سعيد بن جبير [طيِّفٌ][3]، واللفظة إمَّا من طاف

= بالعين المهملة أيضاً. وفي القسطلاني (ينزَغُ) بفتح الزاي والغين المعجمة.

(١) رواه الطبراني في الكبير، والترمذي في سننه. واللَّمَّة بفتح اللام المشددة: الشِّدّة والطائف من الجنّ، يقال: أصابته من الجنّ لمَّة، أي مَسٌّ أوْ شيءٌ قليل منه، ويقال: للشيطان لَمَّةٌ أي هَمَّةٌ وخطرة في القلب أو دُنوٌّ (المعجم الوسيط).

(٢) قال أبو حيان في «البحر المحيط» بعد أن نقل رأي ابن القاسم هذا عن ابن عطية: «واستنباط ذلك من الآية ضعيف، لأن قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ جرى مجرى التعليل لطلب الاستجارة بالله، أي: لا تستعذ بغيره فإنه هو السميع لما تقول، أو السميع لما يقوله الكفار فيك حين يرومون إغضابك، العليم بقصدك في الاستعاذة، أو العليم بما انطوت عليه ضمائرهم من الكيد لك، فهو ينصرك عليهم ويجيرك منهم» (البحر ٤ ـ ٤٤٩).

(٣) بتشديد الياء المكسورة. وأما قراءة ابن كثير ومن معه فهي بتسكين الياء.



يطوف، وإما من طاف يَطيف بفتح الياءِ، وهي ثابتة عن العرب، وأَنشد أبو عبيدة في ذلك:

أنَّـى أَلـمَّ بِـكَ الخَيَـالُ يَطيـفُ ومَطـافُـه لـكَ ذُكْـرَةٌ وشُعُـوفُ[1]

فـ ﴿طَيِفٌ﴾ اسم فاعل كقائل من قال يقول، وبائع من باع يبيع. [وطيِّفٌ] اسم فاعل أَيضاً كميّت من مات، أَو كبيّع وليّن من باع يبيع ولان يلين. وطيْفٌ يكون مخففاً من طيّف كميْت من ميّت، وإذا قدرنا اللفظة من طاف يطيف فطيف مصدر، وإلى هذا مال أَبو علي الفارسي، وجعل الطائف كالخاطر والطيب كالخطرة، وقال الكسائي: الطَّيف اللَّمَم، والطائف ما طاف حول الإنسان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكيف هذا وقد قال الأَعشى:

وتُضْبِـحُ مِـنْ غِـبِّ السُّرَى وكـأَنَّمـا أَلَمَّ بها مِنْ طَائِفِ الجِنِّ أَوْلَقِ[2]

ومعنى الآية: إذا مسّهم غضب وزيّن الشيطان معه مالا ينبغي. وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ إشارة إلى الاستعاذة المأمور بها قبل، وإلى ما لله عزَّ وجلَّ من الأَوامر والنواهي في النازلة التي يقع تعرض الشيطان فيها. وقرأ ابن الزبير: [مِنَ الشَّيطان تأمّلوا فإذا هم]، وفي مصحف أُبيّ بن كعب: [إذا طافَ مِنَ الشَّيطَانِ طائفٌ تَأَمّلوا][3]، وقال

---

(١) قال في (اللسان ـ طيف): «وطاف الخيال يطيف طيْفاً ومطافاً: أَلَمَّ في النوم، قال كعب بن زهير: أنّي». وذكر البيت. ثم قال: «يقال: طافَ يَطيف ويَطوف طيفاً وطوفاً فهو طائف، ثم سمِّي بالمصدر». وذُكْرة بضم الذال: ضد النسيان. وشُعُوف بالضم مصدر شعفه الحُبّ: إذا اشتد عليه. وقد روى البيت (شغوف) بالغين المعجمة، ويحتمل أن يكون جمع شَغِف، ويحتمل أن يكون مصدراً وهو الظاهر، يقال: شَغِفَ به ويحبه: أحبه وأولع به.

(٢) البيت من قصيدته في مدح المحلّق بن خنتم بن شداد بن ربيعة، ومطلعها:

أرقْـتُ ومـا هـذا السُّهَـادُ المـؤَرِّقُ وما بـيَ مـن سُقْـمٍ ومـا بـيَ معشَـقُ

وهو في وصف الناقة التي يصورها في صورة من طاف بها طائف أَوْلَق من الجن. ولعلّ ابن عطية رحمه الله ينكر على الكسائي أنه خصص الطائف بأنه حول الإنسان، وتعقبه في البحر بأنه لا داعي للإنكار على الكسائي أو التعجب من تفسيره لأن ما قاله الأعشى تشبيه، حيث قال: «كأنّما»، والأولق: الجنون. فهي تسرع في الجري كأن بها جنون.

(٣) قال في «البحر المحيط»: وينبغي أن يحمل هذا وقراءة ابن الزبير على أن ذلك من باب التفسير لا على أنه قرآن لمخالفته سواد ما أجمع عليه المسلمون من ألفاظ القرآن».



النبي ﷺ: «إن الغضب جند من جند الجن، أَما ترون حُمرة العين وانتفاخ العروق؟ فإذا كان ذلك فالأَرض الأَرض»[1]، وقوله: ﴿مُّبْصِرُونَ﴾ من البصيرة، أَي: فإذا هم قد تبيَّنوا الحق ومالوا إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ﴾ الآية. في هذه الضمائر احتمالات، قال الزجاج: هذه الآيات متصلة في المعنى بقوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر[2].

وقال الجمهور: إن الآية مقررة في موضعها إلا أَن الضمير في قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ عائد على الشياطين، والضمير في قوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ عائد على الكفار وهم المرادُ بالإخوان، والشيطان في الآية قَبْلَ هذه للجنس فلذلك عاد عليهم ها هنا ضمير جمع، فالتقدير على هذا التأْويل: وإخوان للشياطين يمدونهم الشياطين في الغيّ، وقال قتادة: إن الضميرين في الهاءِ والميم للكفار.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فتجيءُ الآية على هذا معادلةً للتي قبلها، أَي: إن المتقين حالُهم كذا وكذا، وهؤلاءِ الكفار يمدهم إخوانهم من الشياطين ثم لا يُقْصِرون.

وقوله: ﴿فِي ٱلْغَيِّ﴾ يحتمل أَن يتعلق بقوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾، وعليه يترتب التأْويل الذي ذكرنا أَولا عن الجمهور، ويحتمل أَن يتعلق بالإخوان، فعلى هذا يحتمل أَن يعود الضميران على الكفار كما ذكرناه عن قتادة، ويحتمل أَن يعودا جميعاً على الشياطين، ويكون المعنى: وإخوان الشياطين في الغي بخلاف الإخوة في الله يمدون الشياطين، أَي بطاعتهم لهم وقبولهم منهم، ولا يترتب هذا التأْويل على أَن يتعلق ﴿فِي

(١) الحديث المشهور في هذا هو قوله ﷺ: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماءِ فإذا غضب أحدكم فليتوضأ». رواه الإمام أحمد، والدارمي ـ عن عطية العوفي.

(٢) وافق أبو حيان ابن عطية في الاعتراض على الزجاج، وقال: إنه أبعد في دعواه، ولا حاجة إلى ذلك، والكلام متناسق.



﴿ٱلْغَىِّ﴾ بالإمداد، لأن الإنس لا يغوون الشياطين، والمراد بهذه الآية وصف حالة الكفار مع الشياطين كما وصف حالة المتقين معهم من قبل.

وقرأ جميع السبعة غير نافع: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ من مَدَدْتُ. وقرأ نافع وحده: [يُمِدُّونَهُمْ] بضم الياءِ من أَمْدَدتُ، فقال أبو عبيدة وغيره: مدَّ الشيءَ إذا كانت الزيادة من جنسه، وأمَدَّه إذا كانت من شيءٍ آخر[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير مطرد. وقال الجمهور: هما بمعنى واحد إلا أن المستعمل في المحبوب (أَمَدَّ)، فمنه قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾[٣] وقوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾[٤]، والمستعمل في المكروه (مَدَّ)، فمنه قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾[٥]، ومَدُّ الشيطان للكفرة في الغيّ هو التزيين لهم والإغواءُ المتتابع. فمن قرأ في هذه الآية ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ بضم الميم فهو على المنهاج المستعمل، ومن قرأ [يُمِدُّونَهُمْ] فهو مقيد بقوله: ﴿فِى ٱلْغَىِّ﴾، كما يجوز أن تقيد البشارة فتقول: «بشَّرْتُه بشَرّ». وقرأ الجحدري [يُمَادُّونهم].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ عائد على الجميع، أي: هؤلاءِ لا يقصرون في الطاعة للشياطين والكفر بالله عزَّ وجلَّ. وقرأ جمهور الناس ﴿يُقْصِرُونَ﴾ من أقصر، وقرأ ابن أبي عبلة، وعيسى بن عمر: [يَقْصُرُونَ] من قَصَر[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾. سببها فيما روي أن الوحي كان يتأخر على

---

(١) ومثال هذا الأخير قوله تعالى: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ فالمدد من الملائكة وهم ليسوا من البشر، ومثال الأول قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ فالزيادة من جنس البحر.

(٢) المؤمنون: ٥٥.

(٣) الطور: ٢٢.

(٤) النمل: ٣٦.

(٥) البقرة: ١٥.

(٦) معنى: «لا يُقْصرونَ» لا ينقصون من الإمداد والغَيّ، والإقصار: الانتهاءُ عن الشيء، وقصر وأقصر لغتان، قال امرؤ القيس:

سَمَا لكَ شَوْقٌ بَعْدَ ما كانَ أقْصَرا ... وحَلَّتْ سُلَيْمَى بَطْنَ قَوٍّ فَعَرْعَرا

النبي ﷺ أحياناً، فكان الكفار يقولون: «هَلاَّ اجْتَبَيْتَهَا»، ومعنى اللفظة في كلام العرب: تخيرتها واصطفيتها. وقال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد، وغيرهم: المراد بهذه اللفظة: «هلا اخترتها واختلقتها من قِبَلِكَ ومن عند نفسك»، والمعنى: إذ كلامك كله كذلك على ما كانت قريش تزعمه. وقال ابن عباس أيضاً والضحاك: المراد: «هلا تلقيتها من الله وتخيرتها عليه، إذ تزعم أنك نبي وأن منزلتك عنده منزلة الرسالة»، فأمره الله عزَّ وجلَّ أن يجيب بالتسليم لله تعالى، وأن الأمر في الوحي إليه ينزله متى شاءَ لا معقب لحكمه في ذلك فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾، ثم أشار بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ إلى القرآن، ثم وصفه بأنه ﴿بَصَآئِرُ﴾ أي علامات هدى وأنوار تضيءُ القلوب. وقالت فرقة: المعنى: هذا ذو بصائر. ويصح الكلام دون أن يُقدَّر حذف مضاف لأن المشار إليه بـ ﴿هَٰذَا﴾ إنما هو سُوَر وآيات وحكم، وجازت الإشارة إليه بـ ﴿هَٰذَا﴾ من حيث اسمه مذكر، وجاز وصفه بـ ﴿بَصَآئِرُ﴾ من حيث هو سُوَر وآيات[(١)].

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لهؤلاءِ خاصة. قال الطبري: وأما من لا يؤمن فهو عليه عمىً عقوبةً من الله تعالى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

ذكر الطبري وغيره أن سبب هذه الآية هو أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا بمكة يتكلمون في المكتوبة بحوائجهم، ويصيحون عند آيات الرحمة والعذاب، ويقول أحدهم إذا أتاهم: صليتم؟ وكم بقي؟ فيُخبرونه، ونحو هذا، فنزلت الآية أمراً لهم بالاستماع والإنصات في الصلاة وأما قول من قال: «إنها في الخطبة» فضعيف لأن الآية مكية والخطبة لم تكن إلا بعد هجرة النبي ﷺ من مكة، وكذلك ما ذكره الزهراوي من

---

(١) يريد ابن عطية أنه جاز الإخبار عن المفرد بالجمع في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾ لأنه سور وآيات فهو في المعنى جمع.



أنها نزلت بسبب فتىً من الأنصار كان يقرأُ في الصلاة والنبي ﷺ يقرأ. فأَما الاستماع والإنصات عن الكلام في الصلاة فإجماع ، وأَما الإمساك والإنصات عن القراءَة فقالت فرقة: يمسك المأموم عن القراءَة جملة قرأَ الإمام جهراً أَو سراً ، وقالت فرقة: يقرأُ المأموم إذا أَسرَّ الإمام ويُمسك إذا جهر. وقالت فرقة: يمسك المأموم في جهر الإمام عن قراءَة السورة ويقرأُ فاتحة الكتاب.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومع هذا القول أَحاديث صحاح عن النبي ﷺ ، فهذه الآية واجبة الحكم في الصلاة أَن ينصت عن الحديث وما عدا القراءَة. وواجبة الحكم أَيضاً في الخطبة من السُّنَّة لا من هذه الآية ، ويجب من الآية الإنصات إذا قرأَ الخطيب القرآن أَثناءَ الخطبة ، وحكم هذه الآية في غير الصلاة على الندب ، أَعني في نفس الإنصات والاستماع إذا سمع الإنسان قراءَة كتاب الله عزَّ وجلَّ ، وأَما ما تتضمنه الأَلفاظ وتعطيه من توقير القرآن وتعظيمه فواجب في كل حالة. والإنصات: السكوت ، و﴿لَعَلَّكُمْ﴾ على ترجي البشر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولم نستوعب اختلاف العلماءِ في القراءَة خلف الإمام إذ أَلفاظ الآية لا تعرض لذلك ، لكن لما عنَّ ذلك في ذكر السبب ذكرنا منه نبذة.

وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أَنه قال في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ قال: الإنصات يوم الأَضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام من الصلاة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول جمع فيه ما أَوجبته هذه الآية وغيرها من السُّنَّة في الإنصات ، قال الزجاج: ويجوز أَن يكون ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾: اعملوا بما فيه ولا تجاوزوه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ الآية. مخاطبة للنبي ﷺ تعمُّ جميع أُمته. وهو أَمر من الله عزَّ وجلَّ بتسبيحه وذكْرِه وتقديسه والثناءِ عليه بمحامده. والجمهورُ على أَن الذكر لا يكون في النفس ولا يراعى إلا بحركة اللسان ، ويدل على ذلك من هذه الآية قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ فهذه مرتبة السِّرِّ والمخافتة باللفظ.



و﴿تَضَرُّعًا﴾ معناه: تذلُّلا وخُضوعاً. و﴿وَخِيفَةً﴾ أصلها: خوْفة، بدلت الواو ياءً لأجل الكسرة التي تقدمتها. وقوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ معناه: دأباً وفي كل يوم وفي أَطراف النهار، وقالت فرقة: هذه الآية كانت في صلاة المسلمين قبل فرض الصلوات الخمس، وقال قتادة: «الغُدُوّ: صلاة الصبح، والآصال: صلاة العصر». والآصال: جمع أُصُل، والأُصُل: جمع أَصيل وهو العَشي. وقيل: الآصال: جمع أَصيل دون توسط كأَيمان جمع يمين، وآصال أَيضاً جمع أَصايل فهو جمع الجمع. وقرأ أبو مجلز: [والإيصَال] مصدراً كالإصباح والإمساءِ، ومعناه: إذا دخلت في الأصيل، وفي الطبري: قال أَبو وائل لغلامه: هل آصلنا بعد؟ ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ تنبيه.

ولمَّا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ جعل بعد ذلك مثالاً من اجتهاد الملائكة ليبعث على الجدّ في طاعة الله عزَّ وجلَّ. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يريد الملائكة، وقوله: ﴿عِندَ﴾ إنما يريد في المنزلة والتشريف والقرب في المكانة لا في المكان، فهم بذلك عنده. ثم وصف تعالى حالهم من تواضعهم وإدمانهم للعبادة والتسبيح والسجود. وفي الحديث: (أَطَّت السماءُ وحقَّ لها أَن تَئِطَّ، ما فيها موضع شبر إلاَّ وفيه ملَك قائم أَو راكع أَو ساجد)[1]، وهذا موضع سجدة، قال النَّخَعي في كتاب النقاش: إنْ شِئت ركعت وإن شئت سجدت[2].

كملت سورة الأعراف بتوفيق من الله والحمد لله ربّ العالمين

* * *

(١) رواه ابن مردويه عن أنس ـ ورمز له في «الجامع الصغير» بأنه ضعيف.

(٢) اختلف العلماءُ في عدد سجود القرآن، فأقصى ما قيل خمس عشرة، أولها خاتمة الأعراف، وآخرها خاتمة العلق، وذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ وهذا أقل ما قيل ـ أنها أربع سجدات. سجدة ألم تنزيل ـ وحم تنزيل ـ والنجم ـ والعلق ـ وفي سنن ابن ماجه عن أبي الدرداءِ قال: سجدتُ مع النبي ﷺ إحدى عشرة سجدة ليس فيها من المفصل شيءٌ: (الأعراف، والرعد، والنحل، وبني إسرائيل (الإسراء)، ومريم، والحج (سجدة)، والفرقان، وسليمان سورة النمل، والسجدة، وص، وسجدة الحواميم). وقوله بعد الحج (سجدة) معناه أنه أسقط آخرة سورة الحجّ وأثبت واحدة فيها فقط. والله أعلم.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الأنفال[(١)]

هي مدنية كلها ، كذا قال أكثر الناس ، وقال مقاتل: هي مدنية غير آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية كلها ، وهذه الآية نزلت في قصة وقعت بمكة ، ويمكن أن تنزل الآية في ذلك بالمدينة ، ولا خلاف في هذه السورة أنها نزلت في يوم بدر وأمر غنائمه[(٢)].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١﴾.

النَّفْل والنَّفَلُ والنافلة في كلام العرب: الزيادة على الواجب ، وسُمِّيت الغنيمة نفلاً لأنها زيادة على القيام بالجهاد وحماية الدين والدعاء إلى الله عزَّ وجلَّ ، ومنه قول لبيد:

إنَّ تقْــوى ربِّنَـــا خيْـــرُ نَفَـــلْ . . . .[(٣)]

أي خير غنيمة ، وقول عنترة:

إنَّـا إذا احْمَـرَّ الـوَغَـى نَـرْمـي القَنَـا   ونعِـفُّ عِنْـدَ مَقَـاسِـم الأنْفَـال[(٤)]

---

(١) عدد آياتها خمس وسبعون آية ، وعدد كلماتها (١٦٣١) إحدى وثلاثون وستمائة وألف كلمة ، وعدد حروفها (٥٢٩٤) أربع وتسعون ومائتان وخمسة آلاف حرف.

(٢) وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي مدنية إلا سبع آيات ، من قوله سبحانه: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلى آخر السبع آيات. وهذه الآية هي رقم (٣٠) من السورة.

(٣) البيت مطلع قصيدة يتحدث فيها عن مآثره ومواقفه ويأسى لفقد أخيه أربد ، وهو بتمامه:

إنَّ تَقْــوَى رَبِّنَـــا خَيْـــرُ نَفَـــلْ   وبِـــإذْنِ اللهِ رَيْثِـــي والْعَجَـــلْ

والريث: الإبطاءُ والتأني.

(٤) البيت من قصيدة قالها عنترة في إغارته على بني ضَبة ، وروايته في الديوان:

إنَّـــا إذا حَمِـسَ الْـوَغَـى نُـرْوي القَنَـا   ونعِـــفُّ عنـــد تقَـاسُـــمِ الأنفـالِ

ومعنى حَمِس: اشتد. والأنفال: الغنائم.



والسؤال في كلام العرب يجيءُ لاقتضاءِ معنى في نفس المسؤول، وقد يجيءُ لاقتضاءِ مال أَو نحوه، والأَكثر في هذه الآية أن السؤال إنما هو عن حكم الأنفال فهو من الضرب الأَول، وقالت فرقة: إنما سأَلوه الأنفال نفسها أن يعطيهم إياها، واحتجوا في ذلك بقراءَة سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، وعلي بن الحسين، وأبي جعفر محمد بن علي، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد، وطلحة بن مصرف، وعكرمة، والضحاك، وعطاء: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾، وقالوا في قراءَة من قرأَ ﴿عَنِ﴾ إنها بمعنى (من)، فهذا الضرب الثاني من السؤال.

واختلف الناس في المراد بالأَنفال في هذه الآية. فقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعطاء، وابن زيد: هي الغنائم مجملة. قالوا: وذلك أن سبب الآية ما جرى يوم بدر، وهو أَن أصحاب رسول الله ﷺ افترقوا يوم بدر ثلاث فرق: فرقة أَقامت مع رسول الله ﷺ في العريش الذي صُنع له وحمَتْه وآنسته، وفرقة أَطاحت بعسكر العدو وأَسلابهم لما انكشفوا، وفرقة اتبعوا العدو فقتَلَوا وأَسروا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الطبري: وكان رسول الله ﷺ قد حرض الناس قبل ذلك فقال: «من قتل قتيلاً أو أسر أسيراً فله كذا وله كذا»، فسارع الشبان وبقي الشيوخ عند الرايات، فلما انجلت الحرب واجتمع الناس رأَت كل فرقة الفضل لنفسها، وقالت: نحن أَولى بالمغنم، وساءَت أَخلاقهم في ذلك، فنزلت الآية بأَن الغنائم لله وللرسول فكفُّوا، فقسمه حينئذ رسول الله ﷺ على السواءِ[1].

وأَسند الطبري وغيره عن أَبي أُمامة الباهلي[2] قال: سأَلت عبادة بن الصامت[3] عن

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وأحمد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقي، وابن مردويه ـ عن عبادة بن الصامت. وفيه زيادات على ما هنا. (الدر المنثور ٣ ـ ١٥٩).

(٢) هو صُدَيّ بن عجلان بن وهب الباهلي، أبو أمامة، صحابي، كان مع علي في صفين، وهو آخر من مات من الصحابة بالشام، له في الصحيحين ٢٥٠ حديثاً. (الإصابة ـ تهذيب التهذيب ـ صفوة الصفوة).

(٣) عبادة بن الصامت الأنصاري، صحابي من الموصوفين بالورع، شهد العقبة وكان من النقباء، وسائر المشاهد، وهو أول من ولي القضاء بفلسطين، ومات ببيت المقدس أو الرملة. وكان من سادات الصحابة. (الإصابة ـ تهذيب التهذيب ـ الأعلام).



الأنفال، فقال: فينا أَهل بدر نزلت حين اختلفنا وساءَت أَخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسول الله ﷺ، وقسّمه عليه الصلاة والسلام عن بواءٍ[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يريد: عن سواءٍ، فكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله ﷺ وصلاح ذات البين.

ومما جرى أَيضاً يوم بدر فقيل إنه سببٌ ما أَسنده الطبري عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر قُتل أخي عمير، وقتلتُ سعيد بن العاصي وأَخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكثيفة، فجئت به إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هذا السيف قد شفى الله به من المشركين فأَعطنيه، فقال: «ليس هذا لي ولا لك فاطرحه في القَبَض» فطرحته، فرجعت وبي مالا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي، قال: فما جاوزت إلا قليلا حتى نزلت عليه سورة الأَنفال، فقال: «اذهب فخذ سيفك فإنك سأَلتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي فهو لك».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي بعض طرق هذا الحديث: قال سعد: فقلت لما قال لي: «فضعه في القَبَض»: إني أَخاف أن تُعطِيه من لم يبل بلائي، قال: فإذا رسول الله ﷺ خلفي، قال: فقلت: أخاف أن يكون نزل في شيءٌ، فقال: (إن السيف قد صار لي) فأَعطانيه، ونزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾[2]. وأَسند الطبري أَيضاً عن أبي أُسيد مالك بن ربيعة[3] قال:

---

(١) أخرجه أحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم، والبيهقي في سننه عن أبي أمامة (الدر المنثور).
والبواءُ: السواءُ، يقال: فلان بَوَاءُ فلان: كُفْؤُه ونظيره في القصاص ـ للمفرد وغيره.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن جرير، وابن مردويه ـ عن سعد بن أبي وقاص. وأخرج الطيالسي، والبخاري في الأدب المفرد، ومسلم، والنحاس في ناسخه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب ـ عن سعد بن أبي وقاص رواية أُخرى قال في أولها: «نزلت فيّ أربع آيات من كتاب الله» ذكرها، وكانت آيتنا هذه واحدة منها (الدر المنثور ـ وكذلك تفسير ابن كثير) ـ والكثيف: السيف ـ قال ابن سيدة: ولا أدري ما حقيقته، والأقرب أن تكون تاءً (اللسان)، والقَبَض بالتحريك هو المقبوض وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تُقسم.

(٣) هو مالك بن ربيعة بن عمرو بن عوف الخزرجي الساعدي، أبو أُسَيد، صحابي، كانت معه راية بني ساعدة يوم الفتح، وروى أحاديث، وكفّ بصره، قيل: إنه آخر البدريّين موتاً. (الإصابة، الأعلام).=



أَصبت سيف ابن عائذ يوم بدر، وكان يسمى المرزُبان، فلما أَمر رسول الله ﷺ أَن يردوا ما في أَيديهم من النفل أَقبلت به فأَلقيته في النفل، وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئاً يُسأَله، فرآه الأَرقم المخزومي فسأَله رسول الله ﷺ فأَعطاه إياه[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فيجيءُ من مجموع هذه الآثار أن نفوس أَهل بدرٍ تنافرت، ووقع فيها ما يقع في نفوس البشر من إرادة الأثرة، لا سيَّما من أَبلى، فأَنزل الله عزَّ وجلَّ الآية فرضي المسلمون وسلموا، فأَصلح الله ذات بينهم وردَّ عليهم غنائمهم. وقال بعض أَهل هذا التأْويل «عكرمة ومجاهد»: كان هذا الحكم من الله لرفع الشغب، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾[٢] الآية. وقال ابن زيد: لم يقع في الآية نسخ، وإنما أَخبر أَن الغنائم لله من حيث هي مِلكُه ورزقه، وللرسول من حيث هو مُبَيِّن بها أَحكام الله والصادع بها ليقع التسليم فيها من الناس، وحكم القسمة نازل خلال ذلك، ولا شك في أَن الغنائم وغيرها والدنيا بأَسرها هي لله وللرسول.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقال ابن عباس أَيضاً: الأَنفال في الآية: ما يعطيه الإمام لمن رآه من سيف أَو فرس أَو نحوه، وهذا أَيضاً يحسن مع الآية ومع ما ذكرناه من آثار يوم بدر، وقال علي بن صالح ابن حيّ[٣]، والحسن فيما حكى المهدوي: الأَنفال في الآية: ما تجيءُ به السرايا خاصة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا القول بعيد عن الآية غير ملتئم مع الأَسباب المذكورة، بل يجيءُ خارجاً عن يوم بدر، وقال مجاهد: الأَنفال في الآية: الخُمس، قال المهاجرون: لم يخرج منا هذا الخُمس فقال الله تعالى: هو لله وللرسول، وهذا أَيضاً قول قليل التناسب مع الآية.

---

(١) الحديث في تفسير الطبري ـ عن أبي أسيد ـ وعن عثمان بن الأرقم عن عمه عن جده، وفي الرواية الأولى: «فرآه الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي».

(٢) الأنفال: ٤١.

(٣) في الأصل «وابن جني» وهو تصحيف، والصواب ما أثبته. وانظر ترجمته في الضعفاء الكبير للعقيلي ٣/ ٢٣٣.



وقال ابن عباس، وعطاء أَيضاً: الأنفال في الآية: ما شذَّ من أَموال المشركين إلى المسلمين كالفرس العائِر والعبد الآبق[١] وهو للنبي ﷺ يصنع فيه ما يشاءُ، وقال ابن عباس أَيضاً: الأَنفال في الآية: ما أُصيب من أَموال المشركين بعد قسمة الغنيمة وهو لله ورسوله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان لا تخرج بهما الآية عن الأَسباب التي رُويت في يوم بدر، ولا تختص الآية بيوم بدر على هذا. وكأن هاتين المقالتين إنما هما فيما ناله الجيش دون قتال وبعد تمام الحرب وارتفاع الخوف، وأَولى هذه الأقوال وأَوضحها القول الأَول الذي تظاهرت الروايات بأَسبابه، وناسبه الوقت الذي نزلت الآية فيه. وحكى النقاش عن الشعبي أنه قال: الأَنفال: الأسارى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا إنما هو على جهة المثال فيعني كل ما يُغنم.

ويحسن في تفسير هذه الآية أن نذكر شيئاً من اختلاف العلماء في تنفيل الإمام لمن رآه من أَهل النجدة والغَناءِ[٢]، وما يجوز من ذلك وما يمتنع، وما لهم في السَّلَب[٣] من الاختلاف. فقالت فرقة: لا نفل بعد النبي ﷺ، وقال الجمهور: النفل باق إلى يوم القيامة، ينفل إمام الجيش ما رآه لِمَن رآه لكن بحسب الاجتهاد والمصلحة للمسلمين ليحض الناس على النجدة، وينشِّطهم إلى مكافحة العدو والاجتهاد في الحرب، ثم اختلفوا، فقال ابن القاسم عن مالك في «المدونة»: إنما ينفل الإمام من الخُمس لا من جملة الغنيمة، وينفل في أَول المغنم وفي آخره بحسب اجتهاده، وقالت فرقة: إنما ينفل الإمام قبل القتال، وأَما إذا جمعت الغنائم فلا نفل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا إنما يكون ـ على هذا القول ـ بأَن يقول الإمام: من قتل قتيلاً فله كذا أو كذا،

---

(١) في (اللسان): «عار الفرسُ: إذا ذهب على وجهه وتباعد عن صاحبه». والعبد الآبِق: الهارب، يقال: أبَقَ بالفتح وأبِق بالكسر فهو آبِقٌ وأبوق.

(٢) الغناء ـ بفتح الغين: الكفاية والنفع.

(٣) السَّلَبُ: ما مع القتيل من ثياب وسلاح ودابة. أي كلُّ ما يسلب ويؤخذ قهراً وقوة.



أَو يقول لِسَرِيَّة: إن وصلتم إلى موضع كذا فلكم كذا. وقال الشافعي وابن حنبل: لا نفل إلا بعد الغنيمة قبل التخميس. وقال إبراهيم النَّخَعي: ينفل الإمام متى شاءَ قبل التخميس. وقال أَنس بن مالك، ورجاءُ بن حَيْوة، ومكحول، والقاسم، وجماعة منهم الأَوزاعي، وأَحمد، وإسحق، وعدي بن عدي: لا نفل إلا بعد إخراج الخمس، ثم ينفل الإمام من أَربعة الأخماس، ثم يقسم الباقي بين الناس. وقال ابن المسيّب: إنما ينفل الإمام من خمس الخمس. وقال مالك رحمه الله: لا يجوز أَن يقول الأَمير: من هدم كذا من الحصن فله كذا، ومن بلغ إلى كذا فله كذا، ولا أُحب لأَحد أَن يسفك دماً على مثل هذا. قال سُحْنون: فإن نزل ذلك لزمه فإنه مبايعة. وقال مالك رحمه الله: لا يجوز أن يقول الإمام لسريَّة: ما أَخذتم فلكم ثلثه، قال سُحْنون: يريد ابتداءً، فإن نزل مضى ولهم أنصباؤهم في الباقي. وقال سُحْنون: إذا قال الإمام لِسَرِيَّة: ما أَخذتم فلا خمس عليكم فيه، فهذا لا يجوز، فإن نزل رددته لأَن هذا حكم شاذ لا يجوز ولا يمضي، ويستحب ـ على مذهب مالك ـ إن نفل الإمام ـ أَن ينفل ما يظهر كالعمامة والفرس والسيف. وقد منع بعض العلماء أَن ينفل ذهباً أَو فضة أَو لؤلؤاً أَو نحو هذا. وقال بعضهم: النفل جائز من كل شيء.

وأَما السَّلَب فقال مالك رحمه الله: الأَسلاب من المغنم تقسم على جميع الجيش إلا أَن يشرط الإمام، وقاله غيره. وقال الليث، والأَوزاعي، والشافعي، وأَحمد، وأَبو ثور، وأَبو عبيد، وابن المنذر: السَّلَب حق للقاتل بحكم النبي ﷺ، قال الشافعي، وَأحمد، وأَبو عبيد، وابن المنذر: قاله الإمام أَو لم يقله. وقال مالك: إذا قال الإمام: «من قتل قتيلاً فله سلبه» فذلك لازم، ولكنه على قدر اجتهاد الإمام وبسبب الأَحوال والضيقات واستصراخ الأنجاد، وقال الشافعي، وابن حنبل: تخرج الأَسلاب من الغنيمة ثم تخمس بعد ذلك وتعطى الأَسلاب للقتلة. وقال إسحق بن راهويه: إن كان السَّلَب يسيراً فهو للقاتل، وإن كان كثيراً خُمّس، وفعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع البراءِ بن مالك[1] حين بارز المرزُبان فقتله فكانت قيمة منطقته وسِوَاريه ثلاثين

(١) هو البراءُ بن مالك بن النضر الأنصاري. كان يرجز لرسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وخبره أنّه في يوم يُسمى يوم تُسْتَر من بلاد فارس انكشف الناس فحمل البراءُ وحمل الناس معه فقتل مرزُبان الزّارة من عظماءِ الفرس وأخذ سلبه، فانهزم الفرس.



ألفاً، فخمّس ذلك، وروي في ذلك حديث عن النبي ﷺ هو حديث عوف بن مالك في مصنف أَبي داود. وقال مكحول: السَّلَب مغنم وفيه الخُمُس. ورُوي نحوه عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يريد: يُخَمّس على القاتل وحده.

وقال جمهور الفقهاءِ: لا يعطى القاتل السَّلَب إلا أَن يقيم البيِّنة على قتله، قال أكثرهم: ويجزي شاهدٌ واحد بحكم حديث أَبي قتادة، وقال الأَوزاعي: يعطاه بمجرد دعواه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقال الشافعي: لا يعطى القاتل إلا إذا كان قتيله مقبلاً مبارزاً مضحياً، وأما من قتل منهزماً فلا، وقال أَبو ثور، وابن المنذر صاحب «الأشراف»: للقاتل السَّلَب منهزماً كان القتيل أَو غير منهزم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا أَصحُّ لحديث سلمة بن الأكوع[1] في اتِّباعه ربيئة[2] الكفار في غزوة حنين وأَخذه بخطام بعيره وقتله إياه وهو هارب، فأَعطاه رسول الله ﷺ سَلَبه[3]. وقال أَحمد ابن حنبل: لا يكون السَّلَب للقاتل إلا في المبارزة فقط.

واختلفوا في السَّلَب. فأَما السلاح وكل ما يُحتاج للقتال فلا أَحفظ فيه خلافاً أَنه من

---

(١) هو سلمة بن عمرو بن سنان الأكوع الأسلمي، من الذين بايعوا تحت الشجرة، غزا مع النبي سبع غزوات، وغزا في أفريقية في أيام عثمان، وكان شجاعاً بطلاً رامياً عداءً، له ٧٧ حديثاً وتوفي بالمدينة. (الأعلام).

(٢) الربيئة: الطليعة الذي يرقب العدوّ من مكان عال لئلا يدهم قومه. وجمعها: ربايا.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤ ـ ٤٩)، ونصّه: عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: «نزل رسول الله ﷺ منزلا فجاءَ عين المشركين ورسول الله ﷺ وأصحابه يتصبحون فدعوه إلى طعامه، فلما فرغ الرجل ركب على راحلته فذهب مسرعاً لينذر أصحابه، قال سلمة: فأدركته فأنخت راحلته وضربت عنقه فغنّمني رسول الله ﷺ سلبه».



السَّلَب، وفرسُه إن قاتل عليه وصُرع عنه. وقال أحمد ابن حنبل في الفرس: ليس من السَّلَب. وكذلك إن كان في هِميانِهِ[١] أو مَنْطَقَتِهِ دنانير أو جوهر أو نحو هذا مما يعدّه فلا أحفظ خلافاً أنه ليس من السَّلَب. واختلف فيما يُتَزَيّن به للحرب ويُهَوّل به فيها كالتاج والسوارين والأقراط والمناطق المثقلة بالذهب والأحجار، فقال الأوزاعي: ذلك كله من السَّلَب، وقالت فرقة: ليس من السَّلَب، وهذا مروي عن سُحْنون رحمه الله إلا المنطقة فإنها عنده من السَّلب. قال ابن حبيب في «الواضحة»: والسواران من السَّلَب، وتردّد الشافعي ـ هل هذه كلها من السَّلَب أم لا؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإذا قال الإمام: «من قتل قتيلاً فله سَلَبه» فقتل ذِمّيٌ قتيلاً فالمشهور ألاَّ شيءَ له، وعلَى قول أشهب: «يُرضخ[٢] لأهل الذمة من الغنيمة» يلزم أن يُعطى السَّلَب. وإن قتل الإمام بيده بعد هذه المقالة قتيلاً فلَه سَلَبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأما الصفيّ[٣] فكان خالصاً للنبي ﷺ.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ معناها في الكلام: اجعل بينك وبين المحذور وقاية، وقوله: ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ تصريح بأنه شجر بينهم اختلاف، ومالت النفوس إلى التَّشاحّ، و﴿ذَاتَ﴾ ـ في هذا الموضع ـ يراد بها نفس الشيءِ وحقيقته. والذي يفهم من ﴿بَيۡنِكُمۡۖ﴾ هو معنى يعم جميع الوُصَل[٤] والالتحامات والمودّات، وذات ذلك هي المأمور بإصلاحها، أي: نفسه وعينُه، فحضَّ الله عزَّ وجلَّ على إصلاح تلك الأجزاءِ، فإذا صلحت تلك حصل إصلاح ما يعمها وهو البَيْن الذي لهم، وقد تستعمل لفظة (الذات) على أنها لزيمة ما تضاف إليه وإن لم تكن عينَه أو نفسَه،

---

(١) الهميان: شدادُ السراويل (أي التكَّة): والمنْطَقةُ، وكيس للنفقة يُشدّ في الوسط والجمع همايِن وهَمايِينُ، والمنْطقة: ما يُشَدّ به الوسط. (المعجم الوسيط) و(اللسان).

(٢) يقال: رضخ له من ماله: أعطاه قليلا. وكذلك أرضخ له من ماله: أعطاه قليلا من كثير.

(٣) الصَّفيّ: ما يأخذه رئيس الجيش ويختاره لنفسه من الغنيمة قبل القسمة، ويقال له: الصفية، والجمع: صفايا. وصفيّة رسول الله ﷺ من الصفيّ كما قالته عائشة رضي الله عنها (النهاية لابن الأثير).

(٤) وُصَلٌ بضم الواو وفتح الصاد: جمع وُصلة بمعنى الاتصال وجمع شيءٍ بشيءٍ آخر وضمه إليه، والصِّلَةُ بين الناس تكون بالبرّ وبالقربى وبالمودة وغيرها مما يحكم الاتصال والارتباط بينهم.



وذلك في قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[١] ، و﴿ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾[٢] فإنها ها هنا مؤنثة قولهم: «الذئبُ مغبوطٌ بذي بَطْنِهِ»[٣] ، وقول أَبي بكر رضي الله عنه: «إنما هو ذو بطن بنت خارجة». ويحتمل «ذات البَيْن» أَن تكون هذه ، وقد تقال (الذات) أَيضاً بمعنى آخر وإن كان يقرب من هذا وهو قولهم: «فَعلْتُ كذا ذات يوم» ، ومنه قول الشاعر:

لا ينبح الكلب فيها غير واحدة ذات العشاء ولا تسري أَفاعيها[٤]

وذكر الطبري عن بعضهم أَنه قال: ﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾. الحال التي لِبيْنِكُم ، كما «ذات العشاءِ»: الساعة التي فيها العشاءُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ورجحه الطبري ، وهو قولٌ بيّن الانتقاض. وقال الزجاج: البيْن ها هنا: الوَصْلُ ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾[٥].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا كله نظر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لفظ عام ، وسببه الأَمر بالوقوف عندما ينفذه

---

(١) تكررت في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، ونذكر منها الآيات: (١١٩ ، ١٥٤ آل عمران) (٧ المائدة) (٤٣ الأنفال) (٥ هود) (٢٣ لقمان) (٣٨ فاطر) (٧ الزمر) (٢٤ الشورى). وغير ذلك.

(٢) الأنفال: ٧.

(٣) ويروى: «الذئب يُغْبَطُ بغير بِطْنَةٍ» ، قال أبو عبيد: وذلك أنه ليس يُظن به أبداً الجوع ، إنما يُظن به البِطْنة لأنه يعدو على الناس والماشية ، قال الشاعر:

ومَنْ يسْكُنِ الْبَحْرينِ يَعْظُم طُحَالُه ويُغْبط ما في بَطْنِهِ وهو جائع

وقال غير أبي عبيدة: إنما قيل فيه ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع ، قال الشاعر:

لكالذِّئبِ مغْبوطُ الحشا وهْوَ جائعُ

(٤) لم نقف على قائله. . . و(ذات) هنا من ظروف الزمان التي لا تتمكن ، تقول: لقيته ذات يوم وذات ليلة وذات العشاءِ وذات مرة ـ وإنما سمع في هذه الأوقات ولم يقولوا: ذات شهر ولا ذات سَنة. (قاله في اللسان) والأفاعي: جمع أفعى وهي من الحيات التي لا تبرح ، إنما هي مترحية ، أي مستديرة على نفسها متُحوِيّة ، والافعُوان بالضم: ذكر الأفاعي. (عن اللسان أيضاً).

(٥) الأنعام: ٩٤.



رسول الله ﷺ في الغنائم ، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي كاملي الإيمان ، كما تقول لرجل: «إن كنت رجلاً فافعل كذا» أي: إن كنت كامل الرجولة ، وجواب الشرط في قوله المتقدم ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ ، ومذهب أبي العباس أن الجواب محذوف متأخر يدل عليه المتقدم تقديره: إن كنتم مؤمنين أطيعوا ، ومذهبه في هذا ألاَّ يتقدم الجوابُ الشرط[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ لفظ لا تفارقه المبالغة والتأكيد حيث وقع ، ويصلح مع ذلك للحَصْر ، فإذا دخل في قصة وساعد معناها على الانحصار صح ذلك وترتب كقوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[2] وغير ذلك من الأمثلة ، وإذا كانت القصة لا تتأتى للانحصار بقيت (إنما) للمبالغة والتأكيد فقط ، كقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الربا في النسيئة»[3] ، وكقولهم: إنما الشجاع عنترة ، وأما من قال: «إنما هي لبيان الموصوف» فهي عبارة فاترة ، إذ بيان الموصوف يكون في مجرد الإخبار دون (إنما). وقوله سبحانه ها هنا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ظاهرها أنها للمبالغة والتأكيد فقط ، أي: الكاملون.

و﴿وَجِلَتْ﴾ معناه: فزعت ورقَّت وخافت ، وبهذه المعاني فسرت العلماءُ. وقرأ

---

(١) ذكر أبو حيان في «البحر المحيط» هذا الكلام نقلا عن ابن عطية ، ثم عقَّب عليه بقوله: «والذي نقله مخالف لكلام النحاة ، فإنهم يقولون: إن مذهب سيبويه أن الجواب محذوف ، وأن مذهب أبي العباس وأبي زيد الأنصاري والكوفيين جواز تقديم جواب الشرط عليه. وهذا النقل هو الصحيح».

(٢) الكهف: ١١٠ ، وتكررت في الأنبياء: ١٠٨ وفي فصلت: ٦.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، ومسلم ، والنسائي ، وابن ماجه ـ عن أُسامة بن زيد ، ورمز له الإمام جلال الدين السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه صحيح. وقال الإمام ابن الأثير في النهاية: النسيئة: هي البيع إلى أجل معلوم ، يريد أن بيع الرِّبويَّات بالتأخير من غير تقابض هو الربا ، وإن كان بغير زيادة ، وهذا مذهب ابن عباس رضي الله عنهما ، كان يرى بيع الرّبويّات متفاضلة مع التقابض جائزاً ، وأن الربا مخصوص بالنسيئة. (النهاية في غريب الحديث والأثر ٥ ـ ٤٥).

ابن مسعود: [فَرِقَتْ]، وقرأ أُبيّ بن كعب: [فَزِعَتْ][1]. يقال: وجل يَوْجَل وياجَل ويَيْجَل ـ وهي شاذة ـ ويِيجَل بكسر الياءِ الأُولى، ووجه هذه أَنهم لما أَبدلوا الواو ياءً لم يكن لذلك وجه قياس فكسروا الياءَ الأُولى ليجيءَ بدل الواو ياءُ العلة ـ حكى هذه اللغات الأَربع سيبويه رحمه الله.

و﴿ تُلِيَتْ ﴾ معناه: سُرِدت وقُرئت. والآيات هنا: القرآن المتْلُو. وزيادة الإيمان على وجوه كلها خارج عن نفس التصديق، منها أَن المؤمن إذا كان لم يسمع حكماً من أحكام الله في القرآن فنزل على النبي ﷺ فسمعه فآمن به زاد إِيماناً إِلى سائر ما قد آمن به، إِذ لكل حكم تصديق خاص به، وهذا يترتب فيمن بلغه ما لم يكن عنده من الشرع إِلى يوم القيامة، وتترتب زيادة الإِيمان بزيادة الدلائل، ولهذا قال مالك: الإِيمان يزيد ولا ينقص، وتترتب بزيادة الأَعمال البَرَّة على قول من يرى لفظة الإِيمان واقعة على التصديق والطاعات، وهؤلاءِ يقولون: يزيد وينقص.

وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ عبارة جامعة لمصالح الدنيا والآخرة إذا اعتبرت وعمل بحسبها في أَن يمتثل الإنسان ما أُمر به ويبلغ في ذلك أَقصى جهده دون عجز، وينتظر بعدُ ما تُكفِل له به من نصر أَو رزق أَو غيره.

وهذه أَوصاف جميلة وصف الله بها فضلاءَ المؤمنين، فجعلها غاية للأُمة ليستبق إليها الأَفاضل، ثم أَتبع ذلك عَدَّهم[2] ووسمهم بإِقامة الصلاة، ومدحهم بها حضّاً على ذلك.

وقوله: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ قال جماعة من المفسرين هي الزكاة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وإنما حملهم على ذلك اقتران الكلام بإقامة الصلاة وإلا فهو لفظ عام في الزكاة ونوافل الخير وصِلات المستحقين، ولفظ ابن عباس رضي الله عنهما في هذا المعنى محتمل.

---

(١) قال العلماءُ: ينبغي أن تحمل هاتان القراءتان على التفسير.

(٢) هكذا بالأصول، وفي إحدى النسخ: «ثم أتبع بعد ذلك عدَّهم...» ويجوز أن يكون الصواب: «عِدتَهُم» أو أن تكون الكلمة زائدة، وأن المراد: «ثم أتبع ذلك بأن وسمهم بإقامة الصلاة»، والله أعلم.



وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ يريد: كلُّ المؤمنين[1]، و﴿حَقّٗاۚ﴾ مصدر مؤكد، كذا نصَّ عليه سيبويه، وهو المصدر غير المنتقل. والعامل فيه أَحُقّ ذلك حقاً[2]، وقوله: ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ ظاهِرُهُ ـ وهو قول الجمهور ـ أن المراد مراتب الجنَّة ومنازلها، ودرجاتها على قدر أعمالهم. وحكى الطبري عن مجاهد أنها درجات أعمال الدنيا. وقوله: ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ يريد به مآكل الجنة ومشاربها، و﴿كَرِيمٞ﴾ صفة تقتضي رفع المذام كقولك: ثوب كريم وحسب كريم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧﴾.

اختلف الناس في الشيءِ الذي تتعلق به الكاف من قوله: ﴿كَمَآ﴾ حسبما نبين من الأَقوال التي أَنا ذاكرها بعْدُ بحول الله، والذي يلتئم به المعنى ويحسن سرد الأَلفاظ قولان، وأَنا أَبدأُ بهما:

قال الفراءُ: التقدير: «امْضِ لأَمرك في الغنائم ونفل من شئتَ وإن كرهوا، كما أَخرجك ربك»، هذا نص قوله في «هداية مكي»، والعبارة بقوله: «امْضِ لأَمرك ونفل من شئت» غيْرُ مُحرَّرة، وتحرير هذا المعنى عندي أَن يقال: إن هذه الكاف شبّهت هذه القصة التي هي إخراجه من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأَنفال، كأَنهم سأَلوا عن النفل وتشاجروا فأَخرج الله ذلك عنهم فكانت في ذلك الخيرة، فتشاجرهم في النفل بمثابة كراهيتهم هنا للخروج، وحُكْم الله في النفل بأَنه لله ولِلرَّسول دونهم هو بمثابة إخراجه نبيه ﷺ من بيته، ثم كانت الخيرة في القصتين فيما صنع الله، وعلى هذا التأْويل يمكن أَن يكون قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ كلاماً مستأْنفاً يراد به الكفار، أَي:

---

(١) «كلُّ» بالرفع ـ والمعنى أَنهم الكاملون في إيمانهم.

(٢) قال الزمخشري: ﴿حَقّٗاۚ﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: «أُولئك هم المؤمنون إيماناً حقاً»، أو هو مصدر مؤكد للجملة التي هي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ والتقدير: حقَّ ذلك حَقّاً، كقولك: «هو عبد الله حقاً» إذ التقدير فيها: حق ذلك حقاً.

يجادلونك في شريعة الإسلام من بعد ما تبين الحق فيها كأَنما يساقون إلى الموت في الدعاءِ إلى الإيمان.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الذي ذكرتُ من أَن ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ في الكفار ـ منْصُوصٌ[1].

والقول الثاني، قال مجاهد والكسائي وغيرهما: المعنى في هذه الآية: كما أَخرجك ربك من بيتك على كراهية من فريق منهم كذلك يجادلونك في قتال كفار مكة ويودُّون غير ذات الشوكة من بعد ما تبين لهم أَنك إنما تفعل ما أُمرت به لا ما يريدون هم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتقدير ـ على هذا التأويل ـ: يجادلونك في الحق مجادلة ككراهتهم إخراج ربك إياك من بيتك، فالمجادلة ـ على هذا التأْويل ـ بمثابة الكراهية، وكذلك وقع التشبيه في المعنى، وقائل هذه المقالة يقول: إن المجادلين هم المؤمنون. وقائل المقالة الأُولى يقول: إن المجادلين هم المشركون، فهذان قولان مطردان يتم بهما المعنى ويحسن رصف اللفظ.

وقال الأَخفش: الكاف نعتٌ لِـ [حَقاً] والتقدير: «هم المؤمنون حقاً كما أخرجك».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمعنى على هذا التأْويل كما تراه لا يتناسق.

وقيل: الكاف في موضع رفع. والتقدير: «كما أَخرجك ربك فاتقوا الله»، كأَنه ابتداءٌ وخبر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا المعنى وضعه هذا المفسّر وليس من أَلفاظ الآية في ورد ولا صدر.

وقال أَبو عبيدة: هو قَسَم، أَي: «لهم درجات ومغفرة ورزق كريم كما أَخرجك». بتقدير: والذي أَخْرَجَك، فالكاف في معنى الواو و[ما] بمعنى الذي.

---

(١) كلمة «مَنْصوص» خبر «هذا»، أي: هذا الرأيُ منصوص.



وقال الزجاج: الكاف في موضع نصب، والتقدير: «الأنفال ثابتة لك ثباتاً كما أَخرجك ربك».

وقيل: الكاف في موضع رفع. والتقدير: «لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم هذا وعد حق كما أَخرجك».

وقيل: المعنى: «وأَصلحوا ذات بينكم ذلك خير لكم كما أَخرجك»، والكاف نعت لِخَبَر ابتداءٍ محذوف.

وقيل: التقدير: «قل الأَنفال لله والرسول كما أَخرجك»، وهذا نحو أَول قول ذكرتُه.

وقال عكرمة: التقدير: «وأَطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين كما أَخرجك ربك»، أَي: الطاعة خير لكم كما كان إخراجك خيراً لكم[1].

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾ يريد: من المدينة يثرب، قاله جمهور المفسرين. وقال ابن بكير: المعنى: كما أَخرجك من مكة وقت الهجرة، وقرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿في ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا بُيِّنَ﴾ بضم الباءِ من غير تاءٍ. والضمير في قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ قيل: هُوَ للمؤمنين، وقيل: للمشركين، فمن قال: «للمؤمنين» جعل الحقَّ قتال مشركي قريش، ومن قال «للمشركين» جعل الحقَّ شريعة الإسلام. وقوله: ﴿إِلَى ٱلۡمَوۡتِ﴾ أَي: في سوقهم إلى القتال على أَن المجادلين المؤمنون، وفي دعائهم إلى الشرع على أَنهم المشركون. وقوله: ﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ حال تزيد في فزع السَّوْق وتقتضي شدة حاله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ الآية. في هذه الآية قصص حسن أَنا أَختصره إذ هو مستوعب في كتاب سيرة رسول الله ﷺ لابن هشام، واختصاره أَن رسول الله ﷺ لمَّا بلغه ـ وقيل: أُوحي إليه ـ أَن أَبا سفيان بن حرب قد أَقبل من الشام بالعير التي فيها تجارة قريش وأَموالها قال لأَصحابه: إن عير قريش قد عنت لكم، فاخرجوا إليها لعل اللهَ أَن ينفلكموها، قال: فابتعث مِمَّنْ معه مَن خَفَّ، وثَقُل قومٌ

---

(١) ذكر ابن عطية عشرة أقوال في تحديد ما تتعلق به الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾، ونقد كل قول من الأقوال أو حلَّله ووضحه، وقال: إن الأول والثاني منهما يمكن أن يلتئم بهما المعنى.



وكرهوا الخروج ، وأَسرع رسول الله ﷺ لا يلوي على من تعذر ، ولا ينتظر من غاب ظهرُهُ[١] ، فسار في ثلاثمائة وثلاثة عشر من أَصحابه بين مهاجري وأَنصاري ، وقد ظن الناس بأَجمعهم أَن رسول الله ﷺ لا يلقى حرباً فلم يكثر استعدادهم ، وكان أَبو سفيان في خلال ذلك يستقصي ويحذر ، فلما بلغه خروج رسول الله ﷺ بعث ضَمْضَم بن عمرو الغفاري إلى مكة يستنفر أَهلها ، ففعل ضمضم ، فخرج أَهل مكة في أَلف رجل أَو نحو ذلك ، فلما بلغ رسول الله ﷺ خروجهم أَوحى الله تعالى إليه وحْياً غير متلو يَعِدُهُ إحدى الطائفتين ، فعرّف رسول الله ﷺ أَصحابه بذلك فَسُرُّوا ووَدّوا أَن تكون لهم العير التي لا قتال معها ، فلما علم أَبو سفيان بقرب رسول الله ﷺ أَخذ طريق الساحل وأَبْعَد وفات ، ولم يبق إلا لقاءُ أَهل مكة ، وأَشار بعض الكفار على بعض بالانصراف وقالوا: عيرُنا قد نجت فلننصرف ، فحرَّش[٢] أَبو جهل ولجَّ حتى كان أَمر الوقعة ، وقال بعض المؤمنين: نحن لم نخرج لقتال ولم نستعد له ، فجمع رسول الله ﷺ أَصحابه وهو بواد يُسَمَّى ذفران وقال: أَشيروا عليَّ أَيها الناس ، فقام أَبو بكر رضي الله عنه وتكلم فأَحسن وحرَّض على لقاءِ العدو ، فأَعاد رسول الله ﷺ الاستشارة ، فقام عمر رضي الله عنه بمثل ذلك ، فأَعاد رسول الله ﷺ الاستشارة ، فتكلم المقداد الكندي فقال: لا نقول لك يا رسول الله ﷺ اذهب أَنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن نقول: إنا معكما مقاتلون ، والله لو أَردت بنا برك الغماد ـ (قال القاضي أَبو محمد رحمه الله: وهي مدينة بالحبشة) ـ لقاتلنا معك من دونها ، فسُرَّ رسول الله ﷺ بكلامه ودعا له بخير ، ثم قال: أَشيروا علي أيها الناس ، فكلَّمه سعد بن معاذ ـ وقيل: سعد ابن عبادة ـ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

«ويمكن أَنهما جميعاً تكلَّما في ذلك اليوم» ، فقال: يا رسول الله ، كأَنك تريدنا معشر الأَنصار؟ فقال النبي ﷺ: أَجل ، فقال: إنا آمنا بك واتبعناك فامض لأَمر الله ، فو الله لو خضت بنا هذا البحر لخُضناهُ معك ، فقال النبي ﷺ: «امضـوا على بركة الله ، فكأَني أَنظر إلى مصـارع القوم» ، فالتقوا وكانت وقعة بدر.

---

(١) المراد بالظهر هنا ما يركبه المقاتل من فرس ونحوه.

(٢) حرَّش الإنسانَ والحيوان: أغراه بفعل شيءٍ ، وحرَّش بين القوم: أفسد. (المعجم الوسيط).



وقرأ مسلمة بن محارب[١]: [وإِذْ يَعِدْكُمْ] بجزم الدال، قال أبو الفتح: ذلك لتوالي الحركات، وقرأ ابن محيصن: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ احدى الطَّآئِفَتَيْنِ﴾ بوصل الألف من [إِحْدَى] وصِلَة الهاءِ بالحاءِ.

و﴿الشَّوْكَةِ﴾ عبارة عن السلاح والحدّة، ومنه قول الأعور: «إن العَرْفَجَ قَدْ أَدبَى»[٢]. وقرأ أبو عمرو ـ فيما حكى أبو حاتم ـ [الشَّوكَةتَّكونُ] بإدغام التاءِ في التاءِ. ومعنى الآية: وتودُّون العير وتأبَوْن قتال الكفار.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ﴾ الآية، المعنى: ويريد الله أن يظهر الإسلام ويُعلي دعوة الشرع. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع ـ بخلاف عنهم ـ [بِكَلِمَتِهِ] على الإفراد الذي يراد به الجمع، والمعنى في قوله: ﴿بِكَلِمَتِهِ﴾ إما أن يريد: بأوامره للملائكة والنُّصْرة لجميع ما يظهر الإسلام، وإما أن يريد: بكلماته التي سبقت في الأزل، والمعنى قريب.

والدابر: الذي يدبر القوم، أي: يأتي في آخرهم، فإذا قطع فقد أُتي على آخرهم بشرط أن يبدأ الإهلاك من أولهم، وهي عبارة في كل من أتى الهلاك عليه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾.

---

(١) هو مسلمة بن عبد الله بن محارب أبو عبد الله الفهري البصري النحوي، له اختيار في القراءات، وقال ابن الجزري: لا أعلم على مَنْ قرأ، وكان من العلماء بالعربية. (المحتسب لابن جني).

(٢) العَرْفَج: نبت طيب الرائحة أغبر مائل إلى الخضرة له زهرة صفراءُ وليس له شوك ـ أدبى: يريد أنه استوى وصلح أن يؤكل، وإذا استوى هذا النبت صلح الوقت للغزو ـ هذا وللعرفج أسماء تبعاً لمراحل نموه، قال أبو نصر: إدباءُ العرفج أن يتّسق نبتُه ويتآزر. وقد قال هذا الكلام رجل من بني العنبر كان أسيراً في بكر بن وائل فسألهم أن يرسل رسولاً إلى قومه، فلما شرطوا أن يعرفوا الرسالة لجأ إلى الرموز والتورية، وكان من رسالته لهم: «إن العَرْفَج قد أدبى، وشكّت النساءُ.. وأمرَهم أن يُعْرُوا ناقتي الحمراءَ فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جبلي الأصهب» يريد أن وقت الغزو قد حان، وعليهم أن يرحلوا من أماكنهم إلى جهة أخرى يعرفونها ـ راجع في ذلك كتاب «الأمالي لأبي علي القالي» في: «مطلب الكلام على مادة لحَنَ».



﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ ﴾ أي: لِيُظْهر ما يجب إظهاره وهو الإسلام، ﴿ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ أي الكفر ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ﴾ أي: وكراهيتهم واقعة، فهي جملة في موضع الحال.

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ الآية. ﴿ إِذْ ﴾ متعلقة بفعل تقديره: واذكر إذ، وهو الفعل الأول الذي عمل في قوله: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ﴾، وقال الطبري: هي متعلقة بـ ﴿ لِيُحِقَّ ﴾ و﴿ وَيُبْطِلَ ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويصح أن يعمل فيها ﴿ يَعِدُكُمُ ﴾ فإن الوعد كان في وقت الاستغاثة، وقرأ أبو عمرو بإدغام الذال في التاءِ، واستحسنها أبو حاتم. و﴿ تَسْتَغِيثُونَ ﴾ معناه: تطلبون، وليس يبين من ألفاظ هذه الآية أن المؤمنين علموا قبل القتال بكون الملائكة معهم، فإن [اسْتَجَاب] يمكن أن يقع في غيبه تعالى، وقد روي أنهم علموا بذلك قبل القتال، ومعنى التأنيس وتقوية القلوب يقتضي ذلك، وقرأ جمهور الناس [أَنِّي] بفتح الألف، وقرأ أبو عمرو ـ في بعض ما روي عنه ـ وعيسى بن عمر ـ بخلاف عنه ـ [إِنِّي] بكسر الألف، أي: قال إني، و﴿ مُمِدُّكُم ﴾ أي مكثركم ومقويكم، من أمددت، وقرأ جمهور الناس ﴿ بِأَلْفٍ ﴾، وقرأ عاصم الجحدري [بِآلُفٍ](1)، على مثل فَلْس وأَفْلُس فهي جمع (أَلْف)، والإشارة بها إلى الآلاف المذكورة في آل عمران(2)، وقرأ عاصم الجحدري أيضاً [بِآلاَف].

و﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ معناه: متبعين، ويحتمل أن يراد بالمردَفين، المؤمنين، أي أُردفوا بالملائكة، فـ[مُرْدَفِينَ] ـ على هذا ـ حالٌ من الضمير في قوله: ﴿ مُمِدُّكُم ﴾. ويحتمل أن يراد به: الملائكة، أي أَردف بعضهم ببعض. وهذه القراءَة بفتح الدال، وهي قراءَة نافع وجماعة من أهل المدينة وغيرهم. وقرأ سائر السبعة غير نافع بكسر الدال، وهي قراءَة الحسن، ومجاهد، والمعنى فيها: تابع بعضهم بعضاً(3)، وروي عن ابن عباس

---

(١) أصلها على هذا (أألف) بهمزتين قلبت الثانية منهما ألفا لأنها ساكنة وما قبلها مفتوح فصارت (آلف).

(٢) في قوله تعالى في الآية (١٢٥): ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾.

(٣) قال الإمام ابن خالويه: «الحجة لمن كسر الدال أنه جعل الفعل للملائكة فأتى باسم الفاعل من (أردف)، والحجة لمن فتح الدال أنه جعل الفعل لله عزَّ وجلَّ فأتى باسم المفعول من (أردف)، =

رضي الله عنهما: «خلف كل ملَك ملك» ، وهذا معنى التتابع ، يقال: ردف وأردف إذا اتبع وجاءَ بعد الشيءِ. ويحتمل أن يراد: مُرْدِفين المؤمنين. ويحتمل أن يراد: مردفين بعضهم بعضاً ، ومن قال: «مُرْدِفِين بمعنى أن كل ملَك أردف ملَكاً وراءَه» فقول ضعيف لم يأت بمقتضاه رواية. وقرأ رجل من أهل مكة ـ رواه عنه الخليل ـ «مُرَدِّفين» بفتح الراءِ وكسر الدال وشدها ، وروي عن الخليل أيضاً أنها بضم الراءِ وكالتي قبلها في غير ذلك. وقرأ بعض الناس بكسر الراءِ ومثلهما في غير ذلك ، حكى ذلك أبو عمرو عن سيبويه ، وحكاه أبو حاتم قال: كأنه أراد: «مرتدفين» فأدغم وأتبع الحركة ، ويحسن مع هذه القراءَة كسر الميم ولا أحفظه قراءَة.

وأنشد الطبري شاهداً على أن (أردف) بمعنى: «جاءَ تابعاً» قول الشاعر:

إذا الْجَوْزَاءُ أَرْدَفَتِ الثُّرَيَّا ظَنَنْتُ بآل فاطِمَةَ الظُّنُونا[1]

والثريا تطلع قبل الجوزاءِ.

وروي في الأشهر أن الملائكة قاتلت يوم بدر ، واختلف ـ في غيره ـ من شاهد رسول الله ﷺ ، وقيل: لم تقاتل يوم بدر وإنما وقفت وحضرت ، وهذا ضعيف. وحكى الطبري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: نزل جبريل في ألف ملك على ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر رضي الله عنه ، ونزل ميكائيل في ألف ملَك في الميسرة وأنا فيها ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانا في خمسمائة خمسمائة ، وقال الزجاج: قال بعضهم: إن الملائكة خمسة آلاف ، وقال بعضهم: تسعة آلاف ، وفي هذا المعنى أحاديث هي مستوعبة في كتاب السير.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ ﴾ الآية. الضمير في ﴿ جَعَلَهُ ﴾ عائد على الوعد.

= والعرب تقول: أردفتُ الرجل: أركبته على قطاة دابتي خلفي ، وردفته: إذا ركبت خلفه» راجع كتاب «الحجة في القراءات السبع» ـ هذا وقطاةُ الدابة: العجز وما بين الوركين ، أو مقعد الرديف من الدابة. «القاموس المحيط ـ مادة: قطا».

(١) البيت لخزيمة بن مالك بن نَهْد ـ جاء ذلك في (اللسان) مادة: ردف ، قال: وأردفه: لغة في ردفه مثل تبعه وأتبعه بمعنى ، قال خزيمة: إذا الجوزاء. . . » وهو يريد فاطمة بنت يذكر بن عنزة أحد القارظين ، ومعنى البيت على ما حكاه اللسان عن أبي بكر بن السراج: إن الجوزاء تردف الثريا في شدة الحرّ ، فتتكبد السماءَ في آخر الليل ، وعند ذلك تنقطع المياه وتجف فتتفرق الناس في طلب المياه ، فتغيب عنه محبوبته ، فلا يدري أين مضت ، ولا أين نزلت. (راجع اللسان والتاج).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي أمكن الأقوال من جهة المعنى. وقال الزجاج: «الضمير عائد على المُمْدَد» ، ويحتمل أن يعود على الإمداد ، وهذا يحسن مع قول من يقول: إن الملائكة لم تقاتل ، وإنما آنست بحضورها مع المسلمين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي ضعيف تردُّه الأحاديث الواردة بقتال الملائكة ، وما رأى من ذلك أصحاب النبي ﷺ كابن مسعود رضي الله عنه وغيره.

ويحتمل أن يعود على «الإرداف» وهو قول الطبري ، وهذا أيضاً يجري مجرى القول الذي قبله ، ويحتمل أن يعود على «الألف» ، وهذا أيضاً كذلك لأن البشرى بالشيءِ إنَّما هي ما لم يقع بعد. والبشرى: مصدر من بشرت ، والطمأنينة: السكون والاستقرار.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ توقيف على أن الأمر كله لله ، وأن تكسّب المرءِ لا يغني إذا لم يساعده القدر وإن كان مُطالَباً بالجد ، كما ظاهر رسول الله ﷺ بيْن دِرْعَيْن.

وهذه القصة كلها ـ من قصة الكفار وغلبة المؤمنين لهم ـ تليق بها من صفات الله عزَّ وجلَّ العزَّة والحكمةُ إذا تُؤُمّل ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾﴾.

العامل في ﴿إِذۡ﴾ هوالعامل الذي عمل في قوله: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ﴾ بتقدير تكراره ، لأن الاشتراك في العامل الأول نفسه لا يكون إلا بحرف عطف ، وإنما القصد أن يُعَدِّدَ نِعمَهُ[1] تبارك وتعالى على المؤمنين في يوم بدر فقال: «واذكروا إذ فعلنا بكم كذا».

---

(١) النص الذي وجدناه في النسخ التي بين أيدينا هو: «وإنما القصد أن تعدد نعمة الله تعالى»إلخ ، ولكننا=



وقال الطبري: «العامل في [إِذْ] قوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مع احتماله فيه ضعف، ولو جعل العامل في [إِذْ] شيئاً قريباً مما قبلها لكان الأَولى في ذلك أَن يعمل في ﴿إِذْ﴾ ﴿حَكِيمٌ﴾، لأَن إلقاءَ النعاس عليهم وجعله أَمنةً حِكْمَةٌ من الله عزَّ وجلَّ[(١)].

وقرأَ نافع: [يُغْشيكم] بضم الياءِ وسكون الغين. وهي قراءَة الأَعرج، وأَبي حفص، وابن نصاح. وقرأَ عاصم، وحمزة، وابن عامر، والكسائي: [يُغَشِّيكُم] بفتح الغين وشد الشين المكسورة، وهي قراءَة عروة بن الزبير، وأَبي رجاءٍ، والحسن، وعكرمة، وغيرهم. وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو: [يَغْشَاكم] بفتح الياءِ وأَلف بعد الشين، وهي قراءَة مجاهد، وابن محيصن، وأَهل مكة [النُّعاسُ] بالرفع. وحجة من قرأَ [يَغْشَاكُمْ] إجماعهم في آية (أُحُد) على ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾، وحجة من قرأَ [يُغشِّيكُم] أَن يجيءَ الكلامُ متَّسقاً مع [يُنَزِّلُ][(٢)]. ومعنى [يُغَشِّيكُم]: يغطيكم به ويفرغه عليكم، وهذه استعارة.

والنعاس: أَخف النوم، وهو الذي قد يصيب الإنسان وهو واقف أَو ماش، ويُنصّ على ذلك قصص هذه الآية أَنهم إِنما كان بهم خَفْق في الرؤُوس، وقول النبي ﷺ: «إذا نعس أَحدكم في صلاته»[(٣)]، وينصُّ على ذلك قول الشاعر:

وَسْنانُ أَقْصَدَهُ النُّعاسُ فرَنَّقَتْ ... فـي عَيْنِهِ سِنَةٌ ولَيْسَ بنائِم[(٤)]

= آثرنا هذا الذي أثبتناه معتمدين على كتاب «البحر المحيط» لأنه نقل العبارة عن ابن عطية هكذا، ثم علَّق عليها، وهي التي يتسق بها الكلام.

(١) قريب من هذا ما قاله أبو البقاء، وهو: «يجوز أن يكون ظرفاً لما دلَّ عليه ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾».

(٢) وأيضاً فإن الفعل فيها مضاف إلى الله عزَّ وجلَّ الذي تقدم ذكره في قوله سبحانه: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ هذا وآية (أُحُد) هي الآية ١٥٤ من سورة آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ إلى آخر الآية.

(٣) الحديث مروي في البخاري ومسلم وغيرهما ـ عن عائشة رضي الله عنها، ونصه: «إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه». ورواه أيضاً مالك، ورمز له في «الجامع الصغير» بالصحة.

(٤) نَسَبَه في (اللسان) إلى ابن الرِّقاع وقال: امرأَةٌ وَسْنى ووسنانة: فاترة الطرف، شُبهت بالمراة الوسنى من=



وقوله: ﴿أَمَنَةً﴾ مصدر من أَمِن الرجل يأمن أَمْناً وأَمَنة وأَماناً، والهاءُ فيها لتأْنيث المصدر كما هي في المساءَة والمشقة[١]، وقرأ ابن محيصن: [أَمْنَةً] بسكون الميم، وروي عن عبد الله بن مسعود[٢] أَنه قال: «النعاس عند حضور القتال علامة أَمن من العدو، وهو من الله، وهو في الصلاة من الشيطان».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا طريقه الوحي فهو لا محالة إِنما يسنده.

وقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً﴾ تعديدٌ أَيضاً لهذه النعمة في المطر، فقال بعض المفسرين ـ وحكاه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وقاله الزجاج ـ: إن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماءِ بدر فنزلوا عليه، وبقي المؤمنون لا ماءَ لهم، فوجست نفوسهم وعطشوا وأَجنبوا وصَلُّوا كذلك، فقال بعضهم في نفوسهم ـ بإِلقاءِ الشيطان إليهم ـ: نزعم أَنَّا أَولياءُ الله وفينا رسول الله ﷺ وحالنا هذه والمشركون على الماءِ، فأَنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان حتى سالت الأَودية، فشرب الناس وتطهروا وسقوا الظَّهْر[٣]، وتدَمَّثت السَّبْخة[٤] التي كانت بينهم وبين المشركين حتى ثبتت فيها أَقدام المسلمين وقت القتال، وكانت قبل المطر تسوخُ فيها الأَرجل، فلما نزل الطَّشُّ تلبَّدَت[٥]، قالوا: فهذا معنى قوله: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي

= النوم، وقال أيضاً: «إن ابن الرقاع فرَّق بين السِّنَةِ والنوم»، وعلى هذا فالوسن: النوم الخفيف، يقال: وسَن كَفَرِح يَوْسَن وسناً وسِنَةً، وأقصده: أصابه فلم يخطئه، ورَنَّق النوم في عينه: خالطها، أو تهيّأت العين للنوم، وقبل هذا البيت يقول ابن الرقاع، (وهو عديّ بن الرقاع العامليّ، كان شاعراً مقدما عند بني أُميّة مدَّاحاً لهم):

لـولا الحَيَـاءُ وأنَّ رأسِـي قَـدْ عَسَـا ... فيـه المَشيـبُ لـزُرْتُ أُمَّ القَـاسِـم
وكَـأنَّهَـا بيْـنَ النِّسَـاءِ أَعَـارَهَـا ... عَيْنَيْـهِ أحْـوَرُ مِـنْ جَـآذرِ جَـاسِـم

(١) معنى أن [أَمَنَةً] مصدر أنه منصوب على المصدر، والتقدير: فأمنتم أَمَنَةً، ويرى الزمخشري وأبو حيان أنه منصوب على أنه مفعول له (في قراءة [يُغَشِّيكُم] لاتحاد الفاعل، لأن المغشيَّ والمؤمّن هو الله تعالى.

(٢) نسب هذا الكلام في «الكشاف» إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) الظهر: الإبل التي يُحْمل على ظهرها والجمع ظهران بالضم.

(٤) السَّبْخة ـ بسكون الباءِ وكسرها ـ: أرض ذات نزّ وملح وجمعها: سبخات ـ والأرض الدمثاءُ: السهلة اللَّيِّنة.

(٥) الطّشّ: المطر الخفيف، وهو فوق الرذاذ ـ وتلبدت الأرض: تماسكت وصلحت للمشي عليها.

من الجنابة ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي عذابه لكم بوساوسه المتقدمة الذكر. والرِّجْز: العذاب، وقرأ أَبو العالية: [رِجْسَ] بالسين، أَي وساوسه التي تمقت وتتقذر، وقرأ ابن محيصن: [رُجْز] بضم الراءِ، وقرأ عيسى بن عمر: [ويُذْهبْ] بجزم الباءِ. ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أَي بتنشيطها وإزالة الكسل عنها وتشجيعها على العدو، ومنه قولهم: «رابط الجأْش»، أَي ثابت النفس عند جأْشها في الحرب[(١)]، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ أَي في الرمْلة الدَّهِسَة[(٢)] التي كان المشي فيها صعباً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والصحيح من القول ـ وهو الذي في السيرة لابن إسحق وغيرها ـ أَن المؤمنين سبقوا إلى الماءِ ببدر، وفي هذا وقع كلام حباب بن المنذر الأَنصاري[(٣)] حين نزل رسول الله ﷺ على أَول ماءٍ، فقال له حباب: «أَبِوَحْي يا رسول الله هو المنزل فليس لنا أَن نتقدمه ولا نتأَخر عنه أَم هو عندك الرأْي والمكيدة؟» الحديث المستوعب في السيرة[(٤)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولكن نزول المطر كان قبل وصولهم إلى الماءِ، وذلك أَن القوم من المؤمنين لحقتهم في سفرهم الجنابات وعدموا الماءَ قريب بدر فصَلُّوا كذلك، فوقع في نفوسهم من ذلك، ووسوس الشيطان لهم في ذلك مع تخويفه لهم من كثرة العدو وقلَّتهم، وهذا قبل الترائي بالأَعين، وأَيضاً فكانت بينهم وبين ماءِ بدر مسافة طويلة من رمْل

---

(١) الجأْشُ: النفس أو القلب ـ وقول ابن عطية: «عند جأشها» يعني عند فزعها.

(٢) يقال: دهِسَ المكان بمعنى كثر فيه الدَّهاس، وهو المكان السهل اللَّيِّن ليس برمل ولا تراب ولا طين.

(٣) الاسم الصحيح: «الحُباب بن المنذر بن الجَموح» الأنصاري الخزرجي ثم السَّلَميّ. فهو بالألف واللام وضم الحاءِ، كان يكنى أبا عُمر، وهو القائل يوم السقيفة: «أنا جُذَيلها المُحكَّك، وعُذَيْقها المُرَجَّب»، قال ابن سعد: مات في خلافة عمر وقد زاد على الخمسين (الإصابة) ـ وزاد في (الاستيعاب): كان يقال له ذو الرأي لما أشار به على الرسول ﷺ يوم بدر.

(٤) الحديث طويل، وقد ذكره القرطبي وابن كثير ـ وفيه أن النبي ﷺ أجاب الحباب: (بل هو الرأي والحرب والمكيدة)، فقال: يا رسول الله، إن هذا ليس لك بمنزل، فانهض بنا إلى أدنى ماءٍ من القوم فننزله ونُغوِّر (نَدْفن) ما وراءَه من القُلُب (جمع قليب وهو البئر العادية القديمة)، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه فنشرب ولا يشربوا، فاستحسن رسول الله ﷺ ذلك وفعله، ثم التقوا فنصر الله نبيَّه والمسلمين.

دَهِسٍ ليّن تسوخ فيه الأرجل ، وكانوا يتوقعون أن يسبقهم الكفار إلى ماءِ بدر فتحرضوا هم أن يسبقوهم إليه ، فأنزل الله تلك المطرة فسالت الأودية فاغتسلوا وطهرهم الله فذهب رجس الشيطان ، ودمّثت الطريق وتلبّدت تلك الرملة فسهل المشي فيها وأمكنهم الإسراع حتى سبقوا إلى الماءِ ، ووقع في السيرة أن ما أصاب المشركين من ذلك المطر بعينه صعَّب عليهم طريقهم ، فسُرَّ المؤمنون وتَبيَّنُوا من فعل الله بهم قَصْد المعونة لهم فطابت نفوسهم ، واجتمعت وتشجعت ، فذلك الرّبْطُ على قلوبهم وتثبيت الأقدام منهم على الرملة اللينة ، فأمكنهم لحاق الماءِ قبل المشركين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هذا أحد ما يحتمله قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ ، والضمير في ﴿بِهِ﴾ على هذا الاحتمال عائد على الماءِ ، ويحتمل أن يعود الضمير في [بِهِ] على ربط القلوب ، فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب ، وبيّنٌ أن الرَّابطَ الجأش يثبت قدمه عند مكافحة الهول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ونزول الماءِ كان في الزمن قبل تغشية النعاس ولم يترتب ذلك في الآية إذ القصد فيها تعديدالنِّعَمْ فقط ، وحكى أبو الفتح أن الشعبي قرأ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ما﴾ ساكنة الألف ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ قال: وهي بمعنى: الذي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف[(١)]. وقرأ ابن المسيب: [لِيُطْهِرَكُم] بسكون الطاءِ. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الآية. العامل في ﴿إِذْ﴾ العامل الأول على ماتقدم فيما قبلها ، ولو قدرناه قريباً لكان قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ﴾ على تأويل عود الضمير على الربط ، وأما

---

(١) والسبب أن ما دخلت عليه لام التعليل لا يصحُّ أن يكون صلة ، قال في «البحر المحيط»: «ويمكن تخريج هذه القراءة على وجه آخر وهو أن [ما] ليس موصولا بمعنى (الذي) وأنه بمعنى (ماء) الممدود ، وقد حكوا أن العرب حذفت هذه الهمزة فقالوا: (مآ يا هذا) بحذف الهمزة وتنوين الميم ، فيمكن أن تخرّج على هذا إلا أنهم أجروا الوصل مجرى الوقف فحذفوا التنوين وأبقوا الألف ، وهي إما ألف الوصل التي هي بدل من الواو وهي عين الكلمة ، وإما الألف التي هي بدل التنوين في حالة النصب».



على عوده على الماء فيقلق أن تعمل ﴿وَيُثَبِّتَ﴾ في ﴿إِذْ﴾[(١)].

ووحْيُ الله إلى الملائكة إما بإلهام أو بإرسال بعض إلى بعض.

وقرأ عيسى بن عمر ـ بخلاف عنه ـ [إنِّي مَعَكُمْ] بكسر الألف على استئناف إيجاد القصة، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنِّي﴾ بفتح الألف على أنها معمولة لِـ ﴿يُوحِي﴾، ووجه الكسر أن الوحي في معنى القول.

وقوله تعالى: ﴿فَثَبِّتُوا﴾ يحتمل أن يكون بالقتال معهم على ما رُوي. ويحتمل بالحضور في حيّزهم والتّأنيس لهم بذلك، ويحتمل أن يريد: فَثَبِّتُوهم بأقوال مؤنسة مقوية للقلب، وروي في ذلك أن بعض الملائكة كان في صورة الآدميِّين، فكان أحدهم يقول للّذي يليه من المؤمنين: لقد بلغني أن الكفار قالوا: «لئن حمل المسلمون علينا لننكَشِفنَّ»، ويقول آخر: ما أرى الغلبة والظَّفر إلاَّ لنا، ويقول آخر: أقدم يا فلان، ونحو هذا من الأقوال المثبِّتة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أيضاً أن يكون التثبيت الذي أمر به ما يلقيه الملَك في قلب الإنسان بِلَمَّته[(٢)] من توهّم الظفر واحتقار الكفار، ويجري عليه من خواطر تشجيعه، ويُقوي هذا التأويل مطابقةُ قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾، وإن كان إلْقاءُ الرعب يطابق التثبيت على أي صورة كان التثبيتُ، ولكنه أشبه بهذا إذ هما من جنس واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا التأويل يجيءُ قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ مخاطبة للملائكة، ثم يجيءُ قوله سبحانه: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر عن صورة الحال، كما تقول ـ إذا وصفت حرباً ـ لمن تخاطبه: «لقينا

---

(١) سبب القلق اختلاف زمان التثبيت عنده وزمان الوحي، لأن زمان إنزال المطر وما تعلق به من تعليلات متقدم على تغشية النعاس والإيحاء، ذكر ذلك أبو حيان في «البحر»، ومن هذا الرأي أيضاً الألوسي، فقد ذكر القول بأن (إذ) معمولة لـ [يُثَبِّت] ثم قال: «ويتعين حينئذ عود الضمير المجرور في [بِهِ] إلى الربط، ولا يصح أن يعود إلى الماء لتقدم زمانه على زمان ذلك، يعني الإيحاءَ إلى الملائكة.

(٢) لَمَّةُ الشيء: ما اجتمع منه.



القوم وهزمناهم ، فاضرب بسيفك حيث شئت واقتل وخذ أَسيرك» ، أَي هذه كانت صفة الحال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون [سَأُلْقِي] إلى آخر الآية خبراً يخاطب به المؤمنين عما يفعله في الكفار في المستقبل كما فعله في الماضي ، ثم أَمر بضرب الرقاب والبنان تشجيعاً لهم وحضاً على نُصرة الدين ، وقرأ الأعرج [الرُّعُب] بضم العين ، والناس على تسكينها.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ ـ فقال الأَخفش: [فَوْق] زيادة ، وحكاه الطبري عن عطية أَن المعنى: فاضربوا الأَعناق[١] ، وقال غيره: هي بمعنى: عَلَى ، وقال عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما: هي على بابها وأَراد الرُّؤوس إذ هي فوق الأَعناق. وقال المبرد: وفي هذا إباحة ضرب الكافر في الوجه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل أَنبلها.

ويحتمل عندي أَن يريد بقوله: ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ وصف أَبلغ ضربات العُنُق وأَحْكمِها ، وهي الضربة التي تكون فوق عظم العنق ودون عظم الرأْس ، في المفصل. وينظر إلى هذا المعنى قول دُرَيْد بن الصِّمَّة[٢] الجشمي لابن الدُّغُنَّة السَّلمي حين قال له: «خذ سيفي وارْفع عن العظم واخفض عن الدماغ فهكذا كنت أَضرب أَعناق الأَبطال» ، ومثله قول الشاعر:

جَعلْتُ السَّيْف بيْن الْجِيدِ مِنْهُ ... وبيْن أَسيلِ خدَّيْهِ عِذاراً[٣]

---

(١) في القرطبي: «وقد روى المسعودي قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لم أُبعث لأعذِّب بعذاب الله ، وإنما بعثت بضرب الرقاب وشدّ الوثاق». وقال محمد بن يزيد: هذا خطأ لأن (فَوْق) تفيد معنى فلا تجوز زيادتها.

(٢) دُرَيد بن الصِّمَّة الجُشَمي البكري ، من هوازن ، شجاع ، من الأبطال الشعراء المعمرين في الجاهلية ، غزا نحو مائة غزوة لم يهزم في واحدة منها ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، بل قتل على جاهليته يوم حنين ، له أخبار كثيرة ، والصِّمَّة لقب أبيه معاوية بن الحارث. (الأغاني ط دار الكتب: ١٠: ٣ ـ ٤٠ ، وخزانة البغدادي ، والروض الأنف).

(٣) الجيدُ: العنق أو مقدّمه أو موضع القلادة منه. والخَدُّ الأسيل: السهل اللَّيْن الرقيق المستوى ، وفي صفته ﷺ: كان أسيل الخدّ ، قال ابن الأثير: الأسالة في الخد الاستطالة ، وأن لا يكون مرتفع الوجنة. =



فيجيءُ على هذا ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ متمكناً. وقال ابن قتيبة: ﴿فَوْقَ﴾ في هذه الآية بمعنى: دون. وهذا خطأ بيّن، وإنما دخل عليه اللَّبس من قوله تعالى: ﴿مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[(١)] أي: فما دونها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليست [فوْق] هنا بمعنى دون، وإنما المراد: فما فوقها في القِلَّة والصغر، فأشبه المعنى دون، والبَنانُ: قالت فرقة: هي المفاصل حيث كانت من الأعضاءِ، فالمعنى على هذا: «واضربوا منهم في كل موضع». وقالت فرقة: البنان: الأصابع، وهذا هو القول الصحيح[(٢)]، فعلى هذا التأويل ـ وإن كان الضرب في كل موضع مباحاً ـ فإنما قصد أبلغ المواضع لأن المقاتل إذا قطع بنانه استأسر[(٣)] ولم ينتفع بشيءٍ من أعضائه في مكافحة وقتال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

هذا الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنون داخلون فيه بالمعنى، والضمير في ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ عائد على الذين كفروا، و﴿شَآقُّوا۟﴾ معناه: خالفوا ونابذوا وقطعوا، وهو مأخوذ من الشَّقِّ وهو القطع والفصل بين شيئيْن، وهذه مفاعلة، فكأن الله لما شرع شرعاً وأمر بأوامر وكذَّبوا هم وصدُّوا تباعد ما بينهم وانفصل وانْشقَّ، والشِّق مأخوذ من هذا لأنه

= وعذارُ اللجام: ما وقع منه على خدَّي الدابة، وعِذارُ الرجل شعره النابت في موضع العذار وهو أعلى العارضة، ومراد الشاعر أنه يضربه بالسيف في هذا الموضع الدقيق بين الخدّ والجيد، ولم نقف على قائل البيت.

(١) من قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

(٢) البَنَانُ: جمع بَنَانَة وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين، وأنشد ابن برِّي لعباس بن مرداس:

ألا لَيْتَني قَطَّعْتُ مِنْهُ بَنَانَةً ... ولاقَيْتُهُ في البيْتِ يَقْظَانَ حاذِراً

(٣) يقال: استَأْسَرَ لَهُ: أي استسلم لأسْره. (المعجم الوسيط).



مع شِقه الآخر تباعدا وانفصلا. وعبّر المفسرون عن قوله تعالى: ﴿شَآقُّواْ﴾ أي: صاروا في شِق غير شِقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا وإن كان معناه صحيحاً فتحرير الاشتقاق إنما هو ما ذكرناه، والمثال الأَول إنما هو الشَّق بفتح الشين، وأجمعوا على الإظهار في ﴿يُشَاقِقِ﴾ اتباعاً لخطِّ المصحف. وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ جواب الشرط تضمن وعيداً وتهديداً.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ المخاطبة للكفار، أَي: ذلكم الضرب والقتل وما أَوقع الله بهم يوم بدر، فكأَنه قال: الأَمر ذلكم فذوقوه، وكذا فسَّره سيبويه. وقال بعضهم: يحتمل أَن يكون ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ في موضع نصب، كقوله: «زيداً فاضربه». وقرأَ جمهور الناس: [وَأَنَّ] بفتح الأَلف، فإِمَّا على تقدير: «وحَتْم أَنَّ»، فيقدَّر على ابتداءٍ محذوف يكون [أَنَّ] خبره[1]، وإِمَّا على تقدير، «واعلموا أَنَّ» فهي ـ على هذا ـ في موضع نصب. وروى سليمان عن الحسن بن أَبي الحسن: [وَإِنَّ] على القطع والاستئناف.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ الآية. [زحفاً] يراد به: مُتقَابلي الصُّفُوف والأَشخاص، أَي: يزحف بعضهم إلى بعض، وأَصل الزحف الاندفاع على الأَلْية[2] ثم سُمّي كل ماش إلى آخر في الحرب رويداً زاحفاً، إذ في مشيته من التماهل والتباطؤ ما في مشي الزاحف، ومن الزحف الذي هو الاندفاع قولهم لنار العرفج[3] وما جرى مجراه في سرعة الاتقاد: نار الزَّحْفتيْن[4]. ومن التباطؤ في المشي قول الشاعر:

---

(١) جاء في إحدى النسخ بعد هذا زيادة قوله: «وقال سيبويه: التقدير: الأَمر ذلكم».

(٢) الأَلْيَة: العجيزة أو ما ركبها من شحم ولحم. قال الأزهري: «وأَصل الزَّحف للصَّبيِّ وهو أن يزحف على اسْتِهِ قبل أن يقوم، وإذا فعل ذلك على بطنه قيل: قدْ حَبَا، وشُبِّه بزحف الصبيان مشْيُ الفئتين تلتقيان للقتال».

(٣) العَرْفَج: شجر أَوْ ضَرب من النبات سريع الاتقاد، واحدته بهاءٍ، وقال أبو زياد: العَرْفَج طيّب الرائحة أغبر إلى خُضرة وله زهرة صفراءُ وليس له حَبٌّ ولا شوك، وقال أبو حنيفة: أخبرني بعض الأعراب أن العرفجة أصلها واسع تنبت لها قضبان كثيرة بقدر الأصل، وليس لها ورق، إنما هي عيدان دقاق وفي أطرافها زَمَع يظهر في رؤوسها شيءٌ كالشعر أصفر، والإبل والغنم تأكله رطباً ويابساً، ولهَبُهُ شديد الحُمْرة، ويقال: كأن لحيته ضرام عرفجة. (راجع تاج العروس ـ عَرَجَ).

(٤) جاء في التَّاج: «قال الأزهري: ونار العَرْفَج يُسميها العرب نار الزحفتين، لأن الذي يوقدها يزحف=



كَأَنَّهُنَّ بِأَيْدِي الْقَوْم فـي كبَدٍ   طيْرٌ تكشَّفُ عنْ جونٍ مَزاحيفِ(١)

ومنه قول الفرزدق:

عَلَى عمائِمِنا تُلْقَى وَأَرْحُلُنَا   علَى زوَاحِفَ نُزْجيها محاسِيرِ(٢)

ومنه قول الاخر:

لِمَن الظَّعَائِنُ سَيْرُهُنَّ تَزحُّف   . . . . (٣)

ومن التزحُّف بمعنى التَّدافع قول الهُذَلِّي:

= إليها، فإذا اتَّقدت زحف عنها». ونقل في اللسان عن ابن بري: وتُسمّى ناره نار الزحفتين لأنه يسرع الالتهاب فيزحف عنه، ثم لا يلبث أن يخبو فيُزحف إليه، وأنشد أبو العَمَيْثَل:

وسَوْداء المَعَاصم لم يُغادِرْ   لها كَفَلا صِلاءُ الزَّحْفَتَين

(١) البيت لأبي زبيد، وقد ذكر حفر قبر عثمان رضي الله عنه وكانوا قد حفروا له في الحرَّة فشبَّه المساحي التي يضرب بها في الأرض بطير عائفة على إبلٍ سودٍ قد اسوَدَّت من العرق بها دبَرٌ، وشبَّه سواد الحَرَّة بالإبل السود، ورواية البيت كما قال ابن برِّيٍّ: «طَيْرٌ تَعِيفُ على» بدلا من: «طيرٌ تكشّف عن». وقد روى البيت بألفاظ أُخرى ذكرها صاحب اللسان وهي:

حَتَّى كَأنَّ مَسَاحي القَوْم فَوْقَهُم   طَيْرٌ تَحومُ علَى جُوقٍ مَزَاحِيفِ

(٢) قبل هذا البيت يقول الفرزدق:

مُسْتَقْبلين شمال الشَّام تَضْربُنَا   بحاصبٍ كَنَديفِ القُطْن مَنْثور

ورواية البيت في الديوان وفي اللسان كما ذكرها ابن عطية هنا: (على زواحفَ نُزْجيها مَحَاسير)، وقد قال شارح الديوان: «الرواية المشهورة: (تُزْجَى مُخُّهَا ريرُ)، ولحنَّه ابن معدان وقال: أسأت. الموضعُ موضعُ رَفْع، وإن رفعْتَ أقْوَيْتَ، وألَحَّ الناس على الفرزدق في ذلك فقلبها فقال: (نُزْجيها محاسير)، قال التاريخي: ثم ترك الرواة هذا ورجعوا إلى القول الأول». ومعنى رير: رقيق، يقال: أرارَ الله مُخَّه أي: جعله رقيقاً، قال الراجز: والسَّاقُ منِّي باديات الرِّير

أي: أنا ظاهر الهزال، لأنه دقَّ عظمُه ورقَّ جلْدُه فظهر مُخُّه. (راجع اللسان).

وفي كتاب التنبيهات على أغلاط الرواة أن عبد الله بن أبي إسحق النحوي قال: إن الفرزدق لحن في قوله: (تُزْجَى مُخُّهَا ريرُ) فبلغ ذلك الفرزدق فقال: أما وجد هذا لبيتي مخرجاً في العربية؟ أما إني لو أشاءُ لقلت: (عَلى زواحف نُزْجيها محاسير)، ولكنني والله لا أقوله. ولكن هكذا رواه اللغويون، وأصحاب المعاجم ورواة الديوان.

(٣) نسبه في «البحر المحيط» للأعشى، وتمامه كما ذكره:

. . . .   منْكَ السَّفينُ إذا تَقَاعَسَ تَجْرِف

والظعائن: جمع ظعينة وهي المرأة تكون في الهودج، ثم كثر ذلك حتى سمُّوا زوجة الرجل ظعينة، والظعن: سير البادية لنجدة أو طلب ماء. ورواية (التَّاج) لهذا البيت في شطره الثاني:

. . . .   عَوْمُ السَّفين إذا تَقَاعَسَ يحذف

كَـأَنَّ مـزاحِـف الحيَّـاتِ فيـهِ   قُبَيْـل الصُّبْـح آثـارُ السِّيَـاطِ[١]

وأمر الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية ألاَّ يُوَلِّي المؤمنون أَمام الكفار، وهذا الأَمر مقيد بالشريطة المنصوصة في مِثْلَي المؤمنين، فإذا لَقِيَتْ فِئَةٌ من المؤمنين فِئَةً هي ضِعْف المؤمنة من المشركين، فالفرض أَلا يفروا أَمامهم، فالفِرار هناك كبيرة موبقة بظاهر القرآن والحديث وإجماع أَكثر الأُمة، والذي يُراعى العَدَدُ حسب ما في كتاب الله عزَّ وجلَّ، وهذا قول جمهور الأُمة، وقالت فرقة منهم ابن الماجشون في «الواضحة»: يراعى أَيضاً الضعف والقوة والعُدَّة، فيجوز ـ على قولهم ـ أَن يفر مائة فارس إذا علموا أَن عند المشركين من العُدَّة والنجدة والبسالة ضعف ما عندهم، وأَمام أَقل أَو أَكثر بحسب ذلك، وأَمَّا على قول الجمهور فلا يحلُّ فِرار مائة إلاَّ أَمام ما زاد على مائتين.

والعبارة بالدُّبُر في هذه الآية متمكنة الفصاحة لأَنها بَشِعَةٌ على الفارّ ذامَّةٌ له، وقرأَ الجمهور: [دُبُره] بضم الباءِ، وقرأَ الحسن بن أبي الحسن: [دُبْره] بسكون الباءِ.

واختلف المتأَولون في المشار إليه بقوله: [يَوْمَئِذٍ] ـ فقالت فرقة: الإشارة إِلى يوم بدر وما ولِيَه، وفي ذلك اليوم وقع الوعيد بالغضب على من فرَّ، ونُسخ ـ بعد ذلك ـ حُكْمُ الآية بآية الضَّعْف[٢] وبَقِي الفِرار من الزحف ليس بكبيرة، وقد فرَّ الناس يوم أُحد، فعفا الله عنهم، وقال الله فيهم يوم حُنين: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[٣] ولم يقع على ذلك تعنيف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقال الجمهور من الأُمة: الإشارة بـ [يَوْمَئِذٍ] إِلى يوم اللقاءِ الذي يتضمنه قوله:

---

(١) قال المُتَنَخِّل الهُذَليُّ هذا البيت يصف منهلاً، وقد ذكره الجوهري بلفظ:

كـأن مـزاحـف الحيّـات فيهـا   . . . .

وخطأه في اللسان، وقال: الصواب (فيه) كما ذكرناه، وقد ذكره مع بيت قبله هكذا:

شَـربْـتُ بِجَمِّـهِ وصَـدَرْتُ عَنْـهُ   وأبْيَـضُ صـارمٌ ذكَـرٌ إبَـاطِـي

كَـأن مـزاحـفَ الحيَّـاتِ فيـهِ   قُبَيْـلَ الصُّبْـح آثَـارُ السِّيَـاطِ

والجَمُّ: الماءُ إذا تراجع وكثر في البئر بعد الأخذ منه. ومعنى قوله إباطي: تحت إبطي، وقال السيرافي: أصله: إباطيٌّ فخفَّف ياءَ النسب، وعلى هذا يكون صفه لصارم، وهو منسوب إلى الإبط.

(٢) هي قوله تعالى في الآية ٦٦ من هذه السورة ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

(٣) التوبة: ٢٥.



﴿إِذَا لَقِيتُمُ﴾، وحُكم الآية باق إلى يوم القيامة بشرط الضَّعف الذي بيَّنه الله تعالى في آية أُخرى، وليس في الآية نسخ، وأَما يوم أُحد فإِنما فرَّ الناس من أَكثر من ضعفهم، ومع ذلك عُنفوا لكون رسول الله ﷺ فيهم وفِرارهم عنه، وأَما يومُ حُنَيْن فكذلك مَن فرَّ إِنما انكشف أَمام الكثرة، ويحتمل أَن عفو الله عمَّن فرّ يوم أُحد كان عفواً عن كبيرة.

و﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ يراد به الذي يرى أنّ فعله ذلك أَنكى للعدوّ وأَعود عليه بالشر، ونصبه على الحال، وكذلك نصب ﴿مُتَحيّزاً﴾. وأَما الاستثناءُ فهو من الْمُوَلِّين الذين يتضمنهم [مَنْ]، وقال قوم: الاستثناءُ هو من أَنواع التَّوَلِّي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولو كان كذلك؛ لوجب أَن يكون: «إلاَّ تحَرُّفاً وَتحيُّزاً».

والفِئَةُ ـ ها هنا ـ: الجماعة من الناس الحاضرةُ للحرب. هذا على قول الجمهور في أن الفِرار من الزحف كبيرة، وأَما على القول الآخر فتكون (الفئة): المدينةُ والإمام وجماعة المسلمين حيث كانوا، رُوي هذا القول عن عمر رضي الله عنه، وأَنه قال: أَنا فئتكم أَيها المسلمون[١].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا منه على جهة الحيطة على المؤمنين إذ كانوا في ذلك الزمن يثبتون لأَضعافهم مراراً، وفي مُسْند ابن أَبي شيبة من طريق عبد الله بن عمر أَن النبي ﷺ قال لجماعة فرَّت في سَرِيَّةٍ من سراياه: «أَنا فِئَةُ المسلمين»[٢] حين قدموا عليه. وفي صحيح البخاري من

(١) أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم ـ عن عمر رضي الله عنه قال: «لا تَغُرَّنكم هذه الآية فإنها كانت يوم بدر، وإنا فِئةٌ لكل مسلم».

(٢) أخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري في الأدب المفرد، واللفظ له، وجماعة غيرهم ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كنا في غزوة فحاص الناس حيصة، قلنا: كيف نلقى النبي ﷺ وقد فررنا من الزحف وبُؤنا بالغضب؟ فأتينا النبي ﷺ قبل صلاة الفجر، فخرج فقال: (من القوم؟) فقلنا: نحن الفرارون، فقال: (لا، بل أنتم العكارون)، فقبلنا يده فقال: (أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين) ثم قرأ: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾. (الدر المنثور) قال ابن الأثير في «النهاية»: «حاص الناس حيصة: جالوا جولةً يطلبون الفِرَار، والمحيص: المهرب والمحيد».



حديث أَبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اتقوا «السَّبْعَ الموبقات»، وعدد فيها الفِرَارَ من الزحف[1].

و[بَاءَ] بمعنى نهض متحملاً للثقل المذكور في الكلام غضباً كان أَو نحوه، والغضب من صفات الله عزَّ وجلَّ إذا أُخذ بمعنى الإرادة فهي صفة ذات، وإذا أُخذ بمعنى إظهار أَفعال الغاضب على العبد فهي صفة فعل، وهذا المعنى أَشْبه بهذه الآية، والمأوى: الموضع الذي يأوي إليه الإنسان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

هذه مخاطبة للمؤمنين أَعْلم الله بها أَن القتلة من المؤمنين ليْسوا هم مستبدين بالقتل بالإقدار عليه، والخلقُ والاختراع في جميع حالات القاتل إنما هي لله تعالى ليس للقاتل فيها شيءٌ، وإنما يشاركه بتكَسُّبه وقصده. وهذه الأَلفاظ تردّ على من يقول بأَن أَفعال العباد خلق لهم.

وسبب هذه الآية ـ فيما روي ـ أَن أَصحاب رسول الله ﷺ لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل، فقال: قتلت كذا وفعلت كذا، فجاءَ من ذلك تفاخر ونحو ذلك فنزلت الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ يراد به ما كان رسول الله ﷺ فعله يومئذ، وذلك أَنه أَخذ قبضاتٍ من حصى وتراب فرمى بها في وجوه القوم وتِلْقاءَهم ثلاث مرات، فانهزموا عند آخر رمية. ويروى أَنه قال يوم بدر: «شاهت الوجوه». وهذه الفعلة أَيضاً كانت يوم حنين بلا خلاف، وروي أَن التراب الذي رمَى به

---

(١) الحديث رواه مسلم في الإيمان، ورواه البخاري في الوصايا وفي الحدود، ولفظه كما في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله وما هُنَّ؟ قال: الشرك بالله، والسِّحر، وقتل النفس التي حرَّم الله، إلا بالحق، وأكل الرِّبا، وأكل مال اليتيم، والتَّولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات». ومعنى الموبقات: المهلكات ـ والتَّولي يوم الزحف هو الفِرار عن القتال يوم التقاء المحاربين.



لم يبق كافر إلا دخل في عينيه منه شيءٌ ، ورُوي أنه رمى بثلاثة أَحجار ، فكانت الهزيمة مع الحجر الثالث.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فيحتمل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ ما قلناه في قوله سبحانه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ وذلك منصوص في الطبري وغيره ، وهو خارج عن كلام العرب على معنى: وما رميت الرمي الكافي إذْ رميت ، ونحو قول العباس بن مرداس:

. . . . فَلَـمْ أُعْـطَ شيئـاً ولَـمْ أُمْنَـعِ(١)

أَي: لم أُعطَ شيئاً مرضياً.

ويحتمل أَن يريد: وما رميت الرعب في قلوبهم إذ رميت حصياتك ، ولكن الله رماه ، وهذا منصوص في المهدوي وغيره.

ويحتمل أَن يريد: وما أَغنيت إذ رميت حصياتك ، ولكن الله رمى ، أَي أَعانك وأَظفرك ، والعرب تقول في الدعاءِ: رمى الله لك ، أَي ، أَعانك وصنع لك، وحكى هذا أَبو عبيدة في كتاب المجاز. وقرأَت فرقة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ بتشديد النون ، وفرقة: [وَلكِنِ اللهُ رَمَى] بتخفيفها ورفع الهاء من [اللهُ].

و﴿وَلِيُبْلِيَ﴾ أَي: ليصيبهم ببلاءٍ حسن ، فظاهر وصفه بالحُسْن يقتضي أَنه أَراد الغنيمة والظَّفر والعزة ، وقيل: أَراد الشهادة لمن استشهد يوم بدر وهم أَربعة عشر ، منهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، ومهجع مولى عمر رضي الله عنه ، ومعاذ وعمرو ابنا عفراءَ ، وغيرهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لاستغاثتكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجه الحكمة في جميع أَفعاله لا إلٰه إلا هو.

---

(١) هذا عجز البيت ، وتمامه:

وقَـدْ كُنْـتُ فـي القَـوْمِ ذا تُـدرأ فَلَـمْ أُعْـطَ شيئـاً ولَـمْ أُمْنَـعِ

قال ابن الأثير: ذو تُدْرأ أي: ذو هجوم لا يُتوقَّى ولا يَهاب ففيه قوة على دفع أعدائه ، وهو اسم موضوع للدفع ، والتَّاءُ فيه زائدة كما زيدت في تَنْفُل وتَنْضُب وترتُب ، يقال: السلطان ذو تُدْرأ بضم التاءِ ، أي ذو عُدة وقوة على دفع أعدائه عن نفسه (اللسان).

وحكى الطبري أن المراد بقوله سبحانه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ رميُ رسول الله ﷺ الحربة على أُبي بن خلف يوم أُحُد(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف لأن الآية نزلت عقب بدر، وعلى هذا تكون أجنبية مما قبلها وما بعدها وذلك بعيد. وحكى أيضاً أن المراد السهم الذي رمى به رسول الله ﷺ في حصن خيبر فسار في الهواءِ حتى أصاب ابن أبي الحُقَيْق، فقتله وهو على فراشه(٢). وهذا فاسدٌ، وخيبر فَتْحُها أبعد من أُحُد بكثير، والصحيح في قتل ابن أبي الحُقَيْق غير هذا. فهذان القولان ضعيفان لما ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما تقدم من قتل الله ورميه إياهم، وموضع ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ من الإعراب رفع. قال سيبويه: التقدير: الأَمر ذلكم، وقال بعض النحويين: يجوز أَن يكون في موضع نصب بتقدير فعل، ﴿وَأَنَّ﴾ معطوف على ﴿ذَٰلِكُمْ﴾، ويجوز أَن يكون خبر ابتداءٍ مقدر تقديره: وحَتْمٌ وسابِقٌ وثابتٌ ونحو هذا. وقرأت فرقة: [وإنّ] بكسر الهمزة على القطع والاستئناف. و﴿مُوهِنُ﴾ معناه: مُضْعِف مُبْطل، يقال: وهَن الشيءُ، مثل: وعَد يَعِد. ويقال: وهِن مثل: وَلِيَ يَلي. وقُرِىءَ ﴿فَمَا وَهِنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾(٣) بكسر الهاءِ. وقرأ حمزة، والكسائي، وابن عامر، وأَبو بكر عن عاصم: ﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾ من أَوْهن، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو:

(١) كان أُبي بن خلف قد أوعد رسول الله ﷺ بالقتل في مكة، فقال له رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلك»، فمات عدو الله من ضربة رسول الله ﷺ في مرجعه إلى مكة بموضع يقال له «سَرِف»، قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب: لما كان يوم أُحُد أقبل أُبي مُقَنَّعاً في الحديد على فرسه يقول: لا نجوت إن نجا محمد، فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله، قال موسى بن عقبة: قال سعيد بن المسيب: فاعترض له رجال من المؤمنين فأمرهم رسول الله ﷺ فخلَّوْا طريقه، فاستقبله مصعب بن عمير يقي رسول الله ﷺ، فقُتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله ﷺ تَرْقُوة أُبي بن خلف من فُرْجَة بين سابغة البَيْضَة والدِّرع، فطعنه بحربته فوقع أُبي عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، قال سعيد: فكَسَر ضلعاً من أضلاعه، قال: ففي ذلك نزل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ والقصة صحيحة، ولكن القول بأن الآية نزلت فيها هو الذي يصفه ابن عطية وغيره من المفسرين بالضعف لأن الآية نزلت عقب بَدْر.

(٢) قصة قتل ابن أبي الحُقَيْق فيها روايات كثيرة، والذي يهمنا هنا، أنها كانت في فتح خيبر بعيدة تماماً عن هذه الآية التي نزلت عقب غزوة بدر.

(٣) آل عمران: ١٤٦.



[موهِّنُ كَيْدِ] من وَهَّن. وقرأ حفص عن عاصم: ﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾ بكسر الدال والإضافة(١)، وذكر الزجاج أن فيها أربعة أوجه، فذكر هذه القراءات الثلاث، وزاد [مُوهّن كيد] بتشديد الهاءِ والإِضافة، إلا أنه لم ينص على أنها قراءة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قال بعض المتأولين: هذه الآية مخاطبة للمؤمنين الحاضرين يوم بدر، قال الله لهم: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ وهو الحكم بينكم وبين الكافرين، فقد جاءكم وقد حكم الله لكم، ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عما فعلتم من الكلام في أَمر الغنائم وما شجر بينكم فيها، وعن تفاخركم بأفعالكم من قتل وغيره ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟﴾ لهذه الأَفعال ﴿نَعُدْ﴾ لتوبيخكم. ثم أَعلمهم أَن الفئة ـ وهي الجماعة ـ لا تغني وإن كثرت، إلا بنصر الله تعالى ومعونته، ثم آنسهم بقوله وإيجابه أنه مع المؤمنين.

وقال أَكثر المتأولين: هذه الآية مخاطبة للكفار أَهل مكة، وذلك أنه روي أَن أَبا جهل كان يدعو أَبداً في محافل قريش ويقول: «اللّهم، أَقْطعُنا للرحم وآتانا بما لا نعرف، فَأهْلِكه واجعله المغلوب». يريد محمداً ﷺ وإياهم. وروي أَن قريشاً لما عزموا على الخروج إلى حماية العير، تعلقوا بأَستار الكعبة واستفتحوا، وروي أَن أَبا جهل قال صبيحة يوم بدر: «اللهم، انصر أَحب الفئتين إليك، وأَظهر خير الدينين عندك، اللهم أَقْطَعُنا للرحم، فَأَحِنْهُ الغداة(٢)، ونحو هذا»، فقال لهم الله: إن تطلبوا الفتح أَي كما ترونه عليكم لا لكم.

---

(١) الحجة لمن قرأ بتشديد الهاءِ أنه أخذه من وهَّن فهو موهِّن، والحجة لمن قرأ بتخفيف الهاء أنه أخذه من أوْهَنَ ـ ومن قرأ بالتنوين مع نصب (كيْد) أراد الحال أو الاستقبال، ومن قرأ بالإضافة أراد ما ثبت ومضى من الزمان. قال ذلك الإمام ابن خالويه في كتابه «الحجة في القراءات السبع».

(٢) الحَيْن هو: الهلاك، يقال: حان الرجل أي هَلَك ـ وأحانَه الله: أهْلَكه ـ والفعل أحِنْه أمْرٌ من ذلك بمعنى: أهْلِكْهُ.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا توبيخ. ثم قال لهم: وإن تنتهوا عن كفركم وغيّكم فهو خير لكم، ثم أَخبرهم أَنهم إن عادوا للاستفتاح عاد بمثل الوقعة يوم بدر عليهم، ثم أَعلمهم أَن فئتهم لا تغني شيئاً وإن كانت كثيرة، ثم أَعلمهم أَنه مع المؤمنين.

وقالت فرقة من المتأولين: قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ هي مخاطبة للمؤمنين، وسائر الآية مخاطبة للمشركين، كأَنه قال: وأَنتم أَيها الكفار ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

وقرأَ ابن كثير، وعاصم في رواية أَبي بكر، وأَبو عمرو، وحمزة، والكسائي: [وإنَّ الله] بكسر الهمزة على القطع، وقرأَ نافع، وابن عامر، وعاصم في رواية حفص: ﴿وأنَّ﴾ بفتح الأَلف، فإِما أَن يكون في موضع رفع على خبر ابتداءٍ محذوف، وإما في موضع نصب بإضمار فعل، وما ذكره الطبري من أَن التقدير: «لكثرتها ولأَن الله مع المؤمنين» محتمل المعنى، وفي قراءة ابن مسعود: [وَلَوْ كثُرَتْ واللهُ مَعَ الْمُؤْمِنين]، وهذا يقوي قراءَة من كسر الأَلف من [إنَّ].

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية. الخطاب للمؤمنين المصدقين، جدّد عليهم الأَمر بطاعة الله والرسول، ونهوا عن التَّولّي عنه، وهذا قول الجمهور. ويكون هذا متناصراً مع قول من يقول: «إن الخطاب بقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ هو للمؤمنين»، فيجيءُ الكلام من نمط واحد في معناه، وأَما على قول من يقول: «إن المخاطبة بـ (إنْ تنتَهوا) هي للكفار» فيرى أَن هذه الآية إِنما نزلت بسبب اختلافهم في النفل، ومجادلتهم في الحق، وكراهيتهم خروج رسول الله ﷺ، وتفاخرهم بقتل الكفار والنكاية فيهم. وقالت فرقة: الخطاب بهذه الآية إنما هو للمنافقين، والمعنى: يا أَيها الذين آمنوا بأَلسنتهم فقط.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ـ وإن كان محتملا على بُعْد ـ فهو ضعيف جداً لأَجل أَن الله وصف من خاطب في هذه الآية بالإيمان، والإيمان: التصديق. والمنافقون لا يتصفون من التصديق

بشيءٍ، وقيل: إن الخطاب لبني إسرائيل، وهذا أجنبي من الآية.

و﴿تَوَلَّوْا﴾ أصله: تتولّوا، لأن تفعّل دخلت عليه تاءُ المخاطبة بالفعل المستقبل، فحذفت الواحدة، والمحذوفة هي تاءُ تفعّل، والباقية هي تاءُ العلامة، لأن الحاجة إليها هنا أمسُّ ليبقى الفعل مستقبلا. وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ يريد: دعاءَه لكم بالقرآن والمواعظ والآيات.

وقوله: ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا﴾ يريد الكفار، فإمّا من قريش لقولهم: ﴿سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾(١)، وإما الكفار على الإطلاق الذين يقولون: سمعنا القرآن وعلمنا أنه سحر أو شعر وأساطير بحسب اختلافهم، ثم أخبر الله عنهم خبراً نفى به أنهم سمعوا أي: فهموا وَوَعَوْا، لأنه لا خلاف أنهم كانوا يسمعون التلاوة بآذانهم ولكن صدورهم مطبقة لم يشرحها الله عزَّ وجلَّ لتلقي معاني القرآن والإيمان به.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

المقصود بهذه الآية أن يُبيّن أن هذه الصنيفة العاتية من الكفار هي شرّ الناس عند الله عزَّ وجلَّ، وأنها أخسّ المنازل لديه، وعبّر بالدواب ليتأكد ذمُّهم وليفضل عليهم الكلب العقور والخنزير ونحوهما من السبع والخمس الفواسق وغيرها. والدوابّ: كل ما دبَّ فهو يَعُمُّ الحيوان بجملته. وقوله تعالى: ﴿الصُّمُّ الْبُكْمُ﴾ عبارة عما في قلوبهم وقلة انشراح صدورهم وإدراك عقولهم، فلذلك وصفهم بالصمم والبكم وسلب العقل. وروي أن هذه الآية نزلت في طائفة من بني عبد الدار(٢)، وظاهرها العموم فيهم وفي غيرهم ممن اتصف بهذه الأوصاف، ثم أخبر تعالى بأن عدم سمعهم وهداهم

---

(١) ستأتي في الآية ٣١ من هذه السورة.

(٢) في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال: هم نفر من بني عبد الدار، هذا والأصل: أشرّ، حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، وكذا خير، الأصل فيها أخير.

إنما هو بما علمه الله منهم وسبق من قضائه عليهم، فخرج ذلك في عبارة بليغة في ذمِّهم في قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾، والمراد: لأَسمعهم إسماع تفهيم وهدى. ثم ابتدأ عزَّ وجلَّ الخبر عنهم بما هم عليه من حَتْمِهِ عليهم بالكفر فقال: ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ أَي: ولو أَفهمهم ﴿ لَتَوَلَّوا ﴾ بحكم القضاءِ السابق فيهم، ولأَعرضوا عما تبيّن لهم من الهدى. وحكى الطبري عن فرقة أَنها قالت: المعنيُّ بهذه الآية المنافقون، وضعفه الطبري، وكذلك هو ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ الآية. هذا خطاب للمؤمنين المصدقين بلا خلاف، و﴿ ٱسْتَجِيبُوا ﴾ بمعنى أَجيبوا، ولكن عرف الكلام أَن يتعدى (استجاب) بلام ويتعدى (أَجاب) دون لام، وقد يجيءُ تعدي (استجاب) بغير لام، والشاهد قول الشاعر:

وَدَاعٍ دَعَا يا مَنْ يُجيبُ إلى ٱلنَّدَى ... فلَـمْ يَسْتجِبْـهُ عِنْـد ذاكَ مُجيـبُ[1]

وقوله: ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ قال مجاهد والجمهور: المعنى: للطاعة وما تضمنه القرآن من أَوامر ونواه، وهذا إِحياءٌ مستعارٌ، لأَنه من موت الكفر والجهل، وقيل: للإسلام، وهذا نحو الأَول ويضعف من جهة أَن من آمن لا يقال له: ادخل في الإِسلام. وقيل: ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ معناه: للحرب وجهاد العدو، وهو يُحْيي بالعزة والغلبة والظفر، فسُمِّي ذلك حياة، كما تقول: حَيِيَتْ حال فلان إذا ارتفعت، ويُحْيي أَيضاً كما يُحْيي الإِسلام والطاعة وغير ذلك بأَنه يؤدي إِلى الحياة الدائمة في الآخرة. وقال النقاش: المراد: إِذا دعاكم للشهادة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذه صلة حياة الدنيا بحياة الآخرة.

---

(١) البيت لكعب بن سعد الغنوي يرثي أخاهُ أبا المغوار، وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت في سورة البقرة عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾. وفي الفعل (أجاب) يمكن أن تقول: أجابه وأجاب عن سؤاله. والمصدر: الإجابة، والاسم: الجابة بمنزلة الطاقة والطاعة، وفي المثل: «أساءَ سمعاً فأساءَ جابة»، ذكر الزبير بن بكار أنه كان لسهل بن عمر بنٌ مضعوف، فقال له: أين أَمُّك؟ بفتح الهمزة وضم الميم المشددة ـ بمعنى: أين قصدك؟ فظن أنه يسأله عن أُمه فقال: ذهبت تشتري دقيقاً، فقال أبوه: «أساءَ سمعاً فأساءَ جابة». (اللسان).



وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ يحتمل وجوهاً ـ منها أنه لما أمرهم بالاستجابة في الطاعة حضَّهم على المبادرة والاستعجال، فقال: واعْلَمُوا أَنَّ الله يحُولُ بيْن الْمَرْءِ وَقلْبهِ بالموت والقبض، أَي: فبادروا بالطاعات. ويلتئم مع هذا التأْويل قوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أَي: فبادروا بالطاعات وتزودوها ليوم الحشر. ومنها أَن يقصد بقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ إعلامهم أَن قدرة الله وإحاطته وعلمه والجةٌ بين المرءِ وقلبه حاصلة هناك حائلة بينه وبين قلبه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكأَن هذا المعنى يحضُّ على المراقبة والخوف لله المطلع على الضمائر، ويشبه ـ على هذا التأْويل ـ هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾(١)، حُكي هذا التأْويل عن قتادة.

ويحتمل أَن يريد تخويفهم إن لم يمتثلوا الطاعات ويستجيبوا لله وللرسول بما حل بالكفار الذين أَرادهم بقوله: ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ لأَن حتمه عليهم بأَنهم لو سمعوا وفهموا لم ينتفعوا، يقتضي أَنه قد كان حال بينهم وبين قلوبهم، فكأَنه قال للمؤمنين في هذه الأُخرى: استجيبوا لله وللرسول ولا تأْمنوا إن لم تفعلوا أَن ينزل بكم ما نزل بالكفار من الحول بينهم وبين قلوبهم، فنبه على ما جرى على الكفار بأَبلغ عبارة وأَعلقها بالنفس.

ومنها أن يكون المعنى ترجية لهم بأَن الله يبدل الخوف الذي في قلوبهم من كثرة العدو فيجعله جرأَة وقوة، وبضد ذلك للكفار، فإِن الله هو مقلب القلوب كما كان في قسم النبي ﷺ(٢)، قال بعض الناس: ومنه: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، أَي: لا حول على معصية ولا قوة على طاعة إلا بالله.

---

(١) ق: ١٦.

(٢) روى البخاري في كتاب التوحيد عن سالم بن عبد الله، قال: كان أكثر ما كان النبي ﷺ يحلف: «لا ومقلِّب القلوب». وفي مسند الإمام أحمد أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما سمع رسو ل الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك».



وقال المفسرون في ذلك أَقوالاً هي أَجنبية من أَلفاظ الآية حكاها الطبري ـ منها أَن الله يحول بين المؤمن والكافر، وبين الكفر والإيمان، ونحو هذا(١).

وقرأ ابن أبي إسحق: [بَيْن المِرءِ] بكسر الميم، ذكره أَبو حاتم، قال أَبو الفتح: وقرأ الحسن والزبيدي(٢): [بَيْن المَرِّ] بفتح الميم وشد الراءِ المكسورة(٣).

و﴿ تُحْشَرُونَ ﴾ تبعثون يوم القيامة. وروي من طريق مالك بن أَنس والنسائي أَن رسول الله ﷺ دعا أُبي بن كعب وهو في الصلاة فلم يجب وأَسرع في بقية صلاته، فلما جاءَه قال له رسول الله ﷺ: أَما سمعت فيما أُوحي إلي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾؟ فقال أُبَيٌّ: لا جرم يا رسول الله، لا تدعوني أَبداً إلا أَجبتك. الحديث بطوله واختلاف أَلفاظه(٤). وفي البخاري ومسلم أَن ذلك وقع مع أَبي سعيد بن المُعَلَّى(٥)، وروي أَنه وقع نحوه مع حذيفة بن اليمان في غزوة الخندق.

---

(١) الذي اختاره الطبري من الأقوال هو أن الله أخبر أنه أمْلَكُ لقلوب العباد منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئته تبارك وتعالى، وقد أشار إلى ذلك كل من القرطبي وأبي حيان.

(٢) في بعض النسخ: وقرأ الحسن والزبير، والذي في أبي الفتح: الزهري. وكذلك نقله في «البحر المحيط».

(٣) معنى هذا أن الهمزة حذفت بعد نقل حركتها إلى الراءِ قبلها، ثم شددت الراءُ كما تشدد في الوقف، وأُجري الوصل مجرى الوقف، والعرب تفعل ذلك كثيراً ـ قال أبو حيان: وهذا توجيه شذوذ.

(٤) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة من طريق أحمد بن المقدام العجلي مرة، ومن طريق أبي كُريب مرة أُخرى، وذلك إضافة إلى ما ذكره ابن عطية من طريق مالك بن أنس والنسائي.

(٥) روى البخاري عن أبي سعيد بن المُعلّى قال: كنت أُصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أُجبه، ثم أتيته فقلت: يا رسول الله، إني كنت أُصلي، فقال: «ألم يقل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾؟ ثم قال: «إني لأعلمنَّك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد»، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل لأعلمنَّك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيته». قال ابن عبد البرّ وغيره: أبو سعيد بن المُعَلّى من جلّة الأنصار وسادات الأنصار، تفرد به البخاري واسمه رافع. وقال الشافعي: «هذا دليل على أن الفعل الفرض أو القول الفرض إذا أُتي به في الصلاة لا تبطل لأمر رسول الله ﷺ بالإجابة وإن كان في صلاة». وقد نقل القرطبي ذلك عن الشافعي ثم قال: وفيه حجة لقول الأوزاعي: «لو أن رجلاً يصلي فأبصر غلاماً يريد أن يسقط في بئر فصاح به وانصرف إليه وانتهره لم يكن في ذلك بأس». والله أعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

هذه الآية تحتمل تأويلات. أَسْبَقُها إلى النَّفْس أن يريد الله أن يُحذر جميع المؤمنين من فتنة إن أَصابت لم تخص الظَّلَمة فقط، بل تصيب الكل من ظالم وبريء، وهذا التأويل تأَول فيها الزبير بن العوام رضي الله عنه، فإنه قال يوم الجمل[1]: «وما علمت أَنا أُردنا بهذه الآية إلا اليوم، وما كنت أَظنها إلا فيمن خوطب بها ذلك الوقت»، وكذلك تأَول الحسن البصري، فإنه قال: «هذه الآية في علي وعمار وطلحة والزبير»، وكذلك تأَول ابن عباس، فإنه قال: «أَمر الله المؤمنين في هذه الآية ألاَّ يُقِرُّوا المنكر بين أَظهرهم فيعمهم العذاب»، وبيَّنه القتبي فيما ذكره مكي عنه بياناً شافياً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فيجيءُ قوله: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ ـ على هذا التأويل ـ صفة للفتنة، فكان الواجب ـ إذا قدَّرنا ذلك ـ أَن يكون اللفظ: (لا تُصيب)، وتلطف لدخول النون الثقيلة في الخبر عن الفتنة، فقال الزجاج: زعم بعض النحويين أَن الكلام جزاءٌ فيه طرق من النهي، قال: ومثله قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾[2]، فالمعنى: إنْ تدخلوا لا يحطمنكم، فكذلك هذا: إن تتقوا لا تصيبَنَّ[3]. وقال قوم: هو خبر بمعنى الجزاءِ فلذلك أَمكن دخول النون[4]. وقال المهدوي: وقيل: هو جواب قَسَم مقدر تقديره:

---

(١) واقعة مشهورة شاركت فيها أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكانت سنة ٣٦هـ.

(٢) النمل: ١٨.

(٣) صاحب هذا الرأي الذي يرويه الزجاج بقوله: «وزعم بعض النحويين» هو الفراءُ، وهو يرى أن الجملة جواب للأمر نحو قولك: «انزل عن الدابة لا تطرحنك»، ومنه: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ﴾ وعقب على التمثيل أبو حيان، فقال: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ ليس نظير ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ﴾ لأنه ينتظم من الأولى شرط وجزاءٌ ولا ينتظم ذلك في الثانية، ألا ترى أنه لا يصح تقدير: «إن تتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة» لأنه يترتب على الشرط غير مقتضاه من جهة المعنى. وللزمخشري رأي في الموضوع يناقشه أبو حيان في «البحر المحيط».

(٤) من رأي الزمخشري أن الجملة صلة وأنها نهي، وقال: وكذلك إذا جعلتها صفة على إرادة القول كأنه =



«واتقوا فتنة والله لا تُصيبن» ، ودخلت النون مع (لا) حملا على دخولها مع اللام فقط.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا القول تكرُّه ، لأَن جواب القسم إذا دخلته (لا) أَو كان منفياً في الجملة لم تدخل النون ، وإذا كان موجباً دخلته اللام والنون الشديدة كقولك: «والله لا يقوم زيد ، والله ليقومن زيد» هذا هو قانون الباب ، ولكن معنى هذه الآية يستقيم مع التكره الذي ذكرناه.

والتأْويل الآخر في الآية هو أَن يكون قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً﴾ خطاباً عاماً لجميع المؤمنين مستقلا بنفسه ، تم الكلام عنده ثم ابتدأَ نهي الظلمة خاصة عن التعرض للظلم فتصيبهم الفتنة خاصة ، وأُخرج النهي على جهة المخاطبة للفتنة فهو نهي محول ، والعرب تفعل مثل هذا كما قالوا: «لا أَرينَّك ها هنا» ، يريدون: لا تقم ها هنا فتقع مني رؤْيتك ، ولم يريدوا نهي الإنسان الرائي نفسه ، فكذلك المراد في الآية: لا يقع من ظلمتكم ظلم فتقع من الفتنة إصابتهم ، نحا إليه الزجاج ، وهو قول أَبي العباس المبرد ، وحكاه النقاش عن الفراءِ ، ونهي الظلمة ها هنا بلفظ مخاطبة الجمع كما تقول لقوم: «لا يفعل سفهاؤُكم كذا وكذا» وأَنت إِنما تريد نهي السفهاءِ فقط.

و﴿خَآصَّةٗۖ﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: إصابة خاصة ، فهي نصب على الحال لما انحذف المصدر ، وهي من الضمير في ﴿تُصِيبَنَّ﴾ ، وهذا الفعل هو العامل. ويحتمل أَن تكون ﴿خَآصَّةٗۖ﴾ حالاً من الضمير في ﴿ظَلَمُواْ﴾ ولا يحتاج إلى تقدير مصدر محذوف. والأَول أَمكن في المعنى.

وقرأَ علي بن أَبي طالب ، وزيد بن ثابت ، وأَبو جعفر محمد بن علي ، والربيع بن أَنس ، وأَبو العالية ، وابن جماز: [لَتُصيبَنَّ] باللام على جواب قسم. والمعنى على هذا وعيد الظلمة فقط. قال أَبو الفتح: يحتمل أَن يراد بهذه القراءَة: [لا تصيبنَّ] فحذف الأَلف من (لا) تخفيفاً واكتفاءً بالحركة ، كما قالوا: «أَم والله»[1] ، ويحتمل أَن يراد

= قيل: «واتَّقوا فِتْنَةً مقولا فيها: لا تُصيبَنَّ» ، ونظيره قول الشاعر:

حتَّى إذَا جَنَّ الظَّلامُ واختَلَطْ   جاءُوا بِمِذَقٍ هَلْ رَأيتَ الذِّئبَ قَطّ؟

أي بمَذْقٍ مقولٍ فيه هذا القول.

(١) قال المهدوي موضحاً ذلك: كماحذفت من (ما) وهي أُخت (لا) في قولهم: «أَمَ والله لأفعلن» ـ قال أبو=

بقراءة الجماعة ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾: «لَتَصيبنّ» فمطلت حركة اللام فحدثت عنها ألف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تنطع في التحميل[1]، وحكى النقاش هذه القراءَة عن الزبير بن العوام، وهذا خلاف لما حكى الطبري وغيره من تأويل الزبير رضي الله عنه في الآية. وحكى النقاش عن ابن مسعود أنه قرأ: [واتَّقُوا فِتْنَةً أَنْ تُصِيبَ].

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وعيد يلتئم مع تأويل الزبير والحسن التآماً حسناً، ويلتئم مع سائر التأويلات بوجوه مختلفة.

ورُوي عن علي بن سليمان الأخفش أن قوله تعالى: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ هي[2] على معنى الدعاءِ، ذكره الزهراوي.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ الآية، هذه آية تتضمن تعديد نعم الله على المؤمنين، و﴿إِذْ﴾ ظرف لمعمول ﴿وَاذْكُرُوٓا﴾ تقديره: «واذكروا حالكم الكائنة أو الثابتة إذ أَنتم قليل»، ولا يجوز أن تكون [إذْ] ظرفاً للذِّكر، وإنما يعمل الذِّكر في [إذْ] لو قدرناها مفعولة[3].

واختلف الناس في الحال المشار إليه بهذه الآية ـ فقالت فرقة وهي الأكثر: هي حال مكة في وقت بدأة[4] الإسلام، والناس الذين يُخاف تخطفهم: كفارُ مكة، والمأوى ـ على هذا التأويل ـ: المدينة والأنصار، والتأييد بالنصر: وقعة بدر وما انْجرَّ معها في وقتها، والطيباتُ: الغنائمُ وسائر ما فتح الله عليهم به. وقالت فرقة: الحال المشار

= حيان: (ما) ليست للنفي، وهذا فرق بينها وبين (لا) فالتنظير في رأيه غير دقيق.

(١) من رأي أبي حيان أن الإشباع ـ وهو ما سمّي هنا مطلا للحركة ـ خاصٌّ بالشعر، وقال الألوسي ما معناه: إنه لا يعول على القول بحذف الألف تخفيفاً، ولا على القول بتمطيط الحركة إشباعاً ـ وابن عطية من رأيهما، بل إنه سمّى مطل الحركة وإشباعها تنطعاً في التحميل، ورحم الله علماء النحو فالقرآن في غنىً عن هذه الآراء.

(٢) أراد بالضمير (هي) جملة ﴿لا تُصيبنَّ﴾.

(٣) هذا التخريج أحسن من تخريج الزمخشري فقد جعل [إذ] مفعولاً للفعل [اذكروا] وهي ظرف، والتقدير: واذكروا وقت كونكم أذلة»، ويؤخذ عليه التصرف في (إذْ) حين نصبها مفعولة وهي من الظروف التي لا تتصرف إلا إذا أُضيف إليها زمان.

(٤) بدأة: مصدر للفعل (بدأ) بمعنى: حدث ونشأ ـ وفي بعض النسخ كتبت بداءَة.



إليها هي حال رسول الله ﷺ وأَصحابه في غزوة بدر، والناس الذين يخاف تخطفهم ـ على هذا ـ: عسكرُ مكة وسائر القبائل المجاورة، فإن رسول الله ﷺ كان يتخوف من بعضهم، والمأوى ـ على هذا ـ والتأييد بالنصر هو الإمداد بالملائكة والتغليبُ على العدّو. والطيباتُ: الغنيمةُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان يناسبان وقت نزول الآية لأنها نزلت عقب بدر. وقال وهب بن منبه، وقتادة: الحال المشار إليها هي حال العرب قاطبة، فإنها كانت أَعرى الناس أَجساماً وأَجوعهم بطوناً وأَقلهم رجالاً ونعماً، والناس الذين يخاف تخطفهم ـ على هذا التأويل ـ: فارس والروم، والمأوى ـ على هذا ـ هو النبوة والشريعة، والتأييد بالنصر هو فتح البلاد وغلبة الملوك، والطيبات هي نعم المآكل والمشارب والملابس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل يرده أَن العرب كانت في وقت نزول هذه الآية كافرة إلا القليل، ولم تترتب الأَحوال التي ذكرها هذا المتأَول، وإنما كان يمكن أَن يخاطب العرب بهذه الآية في آخر زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإن تمثَّل أَحد بهذه الآية لحالة العرب فتمثُّله صحيح، وأَما أَن تكون حالة العرب هي سبب الآية فبعيد لما ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ترَجٍّ بحسب البشر متعلق بقوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

هذا خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة، وهو يجمع أَنواع الخيانات كلها قليلها وكثيرها. قال الزهراوي: والمعنى: لا تخونوا بغلول الغنائم، وقال الزهراوي، وعبد الله بن أَبي قتادة: سبب نزولها أَمرُ أَبي لُبَابة، وذلك أنه أَشار لبني قُرَيْظَة ـ حين



سَفَر إليهم ـ إلى حلقه ، يريد بذلك إعلامهم أنه ليس عند رسول الله ﷺ إلا الذبح ، أي: فلا تنزلوا ، ثم ندم وربط نفسه بسارية من سواري المسجد حتى تاب الله عليه. الحديث المشهور(١) . وحكى الطبري أنه أقام سبعة أيام لا يذوق شيئاً حتى تيب عليه ، وحُكي أنه كان لأبي لُبابة عندهم مال وأولاد فلذلك نزلت: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ .

وقال عطاءُ بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله: سببها أن رجلاً من المنافقين كتب إلى أبي سفيان بن حرب بخبر من أخبار رسول الله ﷺ فنزلت الآية(٢) ، فقوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ معناه: أظهَروا الإيمان ، ويحتمل أن يخاطب المؤمنين حقاً ألا يفعلوا فعل ذلك المنافق.

وحكى الطبري عن المغيرة بن شعبة ، أنه قال: أُنزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يشبه أن يمثل بالآية في قتل عثمان رحمه الله ، فقد كانت خيانة لله وللرسول والأمانات. والخيانة: التَنَقُّص للشيءِ باختفاءِ ، وهي مستعملة في أن يفعل الإنسان خلاف ما ينبغي من حفظ أمرٍ مّا ، مالاً كان أو سراً أو غير ذلك ، والخيانة لله تعالى هي في تنقص أوامره في سرّ ، وخيانة الرسول تَنَقُّص ما استحفظ ، وخيانات الأمانات هي تَنَقُّصها وإسقاطها ، والأمانة حال للإنسان يؤمن بها على مااستحفظ ، فقد اؤْتُمِن على دينه وعبادته وحقوق الغير. وقيل: المعنى: وتخونوا ذوي أماناتكم ، وأظن الفارسي أبا علي حكاه. ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يريد أن ذلك لا يضر منه إلاَّ ما كان عن تعمد.

وقوله تعالى: ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ يريد: محنة واختباراً وابتلاءً ليرى كيف العمل في جميع ذلك. وقوله: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ يريد فوز الآخرة ، فلا تدعوا حظكم منه للحيطة على أموالكم وأبنائكم فإن المدخور للآخرة أعظم قدراً من مكاسب الدنيا.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن عبد الله بن قتادة ، وأخرج مثله سنيد ، وابن جرير عن الزهري ، وأخرجه أيضاً عبد بن حميد عن الكلبي. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عن جابر بن عبد الله. (الدر المنثور).



وقوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ﴾ قال الطبري: يحتمل أَن يكون داخلاً في النهي كأَنه قال: «لا تخونوا الله والرسول ولا تخونوا أماناتكم»، فمكانه على هذا جزم، ويحتمل أَن يكون المعنى: «لا تخونوا الله والرسول فذلك خيانة لأَماناتكم»، فموضعه على هذا نصب على تقدير: وأَن تخونوا أَماناتكم، قال الشاعر:

لا تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وتَـأْتـي مِثْلَـهُ ... عَـارٌ عَلَيْـكَ إذَا فَعلْـتَ عَظِيـمُ[1]

وقرأَ مجاهد، وأَبو عمرو بن العلاءِ ـ فيما روي عنه أَيضاً ـ [وتخونوا أمانتكم] على إِفراد الأَمانة.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية، وعد للمؤمنين بشرط الاتقاءِ والطاعة له، و﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ معناه: فرقاً بين حقكم وباطل من ينازعكم، أَي بالنُّصرة والتأْييد عليهم، والفرقان مصدر من فرق بين الشيئين حال بينهما أَو خالف حكمهما، ومنه قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾[2]. وعبَّر قتادة وبعض المفسرين عن الفرقان ها هنا بالنجاة، وقال السدي، ومجاهد: معناه: مخرجاً ونحو هذا مما يعمه ما ذكرناه، وقد يوجد للعرب استعمال الفرقان كما ذكر المفسرون، فمن ذلك قول مزرد بن ضِرَار:

بـادَرَ الأُفْـقَ أَن يَغيـبَ فَلَمَّـا ... أَظْلَـمَ اللَّيْـلُ لَـمْ يَجِـدْ فُـرْقَـانَـا[3]

---

(١) يروي النحويون هذا البيت شاهداً على جواز النصب عطفاً على اسم مؤول بمعنى أن تكون الواو للمعية، والتقدير: «لا تنْهَ عن خُلُق وأنت تأتي مثله». أما إعراب الآية الكريمة فيحتمل الأمرين اللَّذين ذكرهما ابن عطية وهما: أن يكون مجزوماً عطفاً على [لا تَخُونُوا] وأن يكون منصوباً على جواب النهي، وكونه مجزوماً هو الراجح، لأن النصب يقتضي النهي عن الجمع، والجزم يقتضي النهي عن كل واحد ـ وهناك شروط للنصب بعد هذه الواو تجدها في كتب النحو.
هذا وقد اختلف النحويون في نسبة هذا البيت، فقيل: قائله أبو الأسود الدؤلي، وقيل: هو الأخطل، وقيل: المتوكل الليثي أو سابق البربري، ونسب لحسَّان والطرماح، والبيت في حماسة البحتري ١٧٤، والأغاني ١٢ ـ ١٥٦، والمؤتلف ٢٧٣، والمستقصى ٢ ـ ٢٦٠، وسيبويه ١ ـ ٤٢٤، وابن عقيل ٢ ـ ١٢٦، والسيوطي ٢٦٤، والخزانة ٣ ـ ٦١٧.

(٢) الأنفال: ٤١.

(٣) واضح أن يستشهد بهذا البيت والبيتين بعده على أن كلمة (الفرقان) قد تأتي بمعنى: المخرج والنجاة. قال ابن وهب: سألتُ مالكاً عن قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ قال: مَخرجاً، ثم قرأ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾. ويادرَ مُبادرة وبداراً إلى الشيء: أسرع إليه.



وقال الآخر:

مـالَـكَ مِـنْ طُـولِ الأَسـى فُـرْقَـانُ ... بعـد قَطيـن رحَلُـوا وبَـانُـوا[١]

وقال الآخر:

وكَيْفَ أُرَجّي الْخُلْدَ والْمَوْتُ طَالِبي ... ومَـالـيَ مِـنْ كَـأْس الْمَنِيَّةِ فُرْقَـان[٢]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية. يشبه أن يكون قوله: ﴿وَإِذْ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾، وهذا تذكير بحال مكة وضيقها مع الكفرة وجميل صنع الله تعالى في جميعها. ويحتمل أن يكون ابتداءَ كلام، وهذا كله على أن الآية مدنية كسائر السورة، وهذا هو الصواب، وحكى الطبري عن عكرمة ومجاهد أن هذه الآية مكية، وحكى عن ابن زيد أنها نزلت عقب كفاية الله رسوله المستهزئين بما أَحلَّه بكل واحد منهم، الحديث المشهور[٣]، ويحتمل عندي قول عكرمة ومجاهد: «هذه مكية» أن أشارا إلى القصة لا إلى الآية.

والمكر: المخاتلة والتداهي[٤]، تقول: «فلان يمكر بفلان» إذا كان يستدرجه ويسوقه إلى هُوَّة وهو يظهر جميلاً وتَسَتُّرا بما يريد، ويقال: أَصل المكر الفتل، قاله ابن فُورك، فكأن الماكر بالإنسان يفاتله حتى يوقعه، ومن المكر الذي هو الفتل قولهم للجارية المعتدلة اللحم: ممكورة[٥]، فمكر قريش بالنبي ﷺ كان تدبيرهم ما يسوؤُه، وسعيهم في فساد حاله وإطفاءِ نوره، وتدبير قريش على رسول الله ﷺ هذه الخصال

---

(١) لم نعرف قائل هذا البيت، وقَطينُ الدار: ساكنها وأهلها الذين يقيمون فيها، وقَطينُ الله: سُكَّان حَرَمه. وبانَ: من البَيْن وهو البعد.

(٢) الخُلْد: الدوام والبقاء ـ طالبي: يبحث عني ويسعى ورائي. وفرقان: نجاة ومخرج. ولم نقف على قائل البيت.

(٣) الحديث طويل وهو بنصه في تفسير الطبري، وقد رواه غير الطبري من طرق مختلفة فارجع إليه في الصحاح من كتب السنة.

(٤) التداهي: مصدر تدَهَّى، ومعنى تدَهَّى: بصر بالأمر وجاد رأيُهُ فيه، والكلمة في الأصل واوية ويائية، يقال: دهوته ودهيته، قال في التهذيب: الدهْوُ والدهْيُ: لغتان في الدهاء.

(٥) لم نعثر في كتب اللغة التي بين أيدينا على ما يشير إليه من الارتباط بين المكر والفتل، أما قولهم للجارية: ممكورة فقد جاء في اللسان: «المكرة: الساق الغليظة الحسناء، ابْن سيدة: والمكر حُسْن خدالة الساقين، وامرأةٌ ممكورة: مستديرة الساقين، وقيل: المُدْمَجة الخَلْق الشديدةُ البَضْعة، وقال غيره: ممكورة مرتوية الساق خدلة، شبهت بالمكر من النبات» (اللسان ـ مكر).

الثلاث لم يزل قديماً من لدن ظهوره ، لكن إعلانهم لا يسمى مكرا ، وما اسْتَسَرُّوا به هو المكر ، وقد ذكر الطبري أَن أَبا طالب قال للنبي ﷺ: يا محمد ، ماذا يدبر فيك قومك؟ قال: يريدون أَن أُقتل أَو أُسجن أَو أُخرج ، قال أَبو طالب: من أَعلمك هذا؟ قال: ربي ، قال ، إن ربك لرَبُّ صدق فاستوص به خيراً ، فقال النبي ﷺ: بل هو يا عم يستوصي بي خيراً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا المكر الذي ذكَره الله في الآية هو بإجماع من المفسرين إشارة إلى اجتماع قريش في دار الندوة بمحضر إبليس في صورة شيخ نجدي على ما نص ابن إسحق في سيره. الحديث بطوله ، وهو الذي كان خروج النبي ﷺ من مكة بسببه ، ولا خلاف أَن ذلك كان بعد موت أَبي طالب ، ففي القصة أَن أَبا جهل قال: الرأْي أَن نأْخذ من كل بطن في قريش فتىً قوياً جلداً فيجتمعون ، ثم يأْخذ كل واحد منهم سيفاً ويأْتون محمداً في مضجعه ، فيضربونه ضربة رجل واحد ، فلا يقدر بنو هاشم على قتال قريش بأَسرها ، فيأْخذون العقل ونستريح منه ، فقال النجدي: صدق الفتى ، هذا الرأْي لا أَرى غيره ، فافترقوا على ذلك ، فأَخبر الله بذلك نبيه ﷺ ، وأَذن له في الخروج إلى المدينة ، فخرج رسول الله ﷺ من ليلته ، وقال لعلي بن أَبي طالب: التف في بردي الحضرمي واضطجع في مضجعي فإنه لا يضرك شيءٌ ، ففعل عليٌّ ، وجاءَ فتيان قريش فجعلوا يرصدون الشخص وينتظرون قيامه فيثورون به ، فلما قام رأَوا عليًّا فقالوا له: أَين صاحبك؟ قال: لا أَدري ، وفي السير أَن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم في طريقه فطمس الله عيونهم عنه ، وجعل على رأْس كل واحد منهم تراباً ومضى لوجهه ، فجاءَهم رجل فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً ، قال: إني رأَيته الآن جائياً من ناحيتكم وهو لا محالة وضع التراب على رؤُوسكم ، فمد كل واحد يده إلى رأْسه ، وجاؤُوا إلى مضجع النبي ﷺ فوجدوا عليًّا ، فركبوا وراءَه حينئذ كل صعبٍ وذلول[١] وهو بالغار[٢].

(١) الذَّلُولُ: هو السهل الانقياد من الإبل وغيرها من الدواب. والصعب بعكسه ـ ويقال: «ركبوا كل صعب وذلول في أمرهم»: اتخذوا كل سبيل.

(٢) الحديث أخرجه ابن إسحق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ عن (الدر المنثور ـ وتفسير ابن كثير).



ومعنى ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾: ليسجنوك فَتَثبُت، قاله السدي، وعطاءٌ، وابن أَبي كثير. وقال ابن عباس، ومجاهد: معناه: لِيُوَثِّقُوكَ. وقال الطبري: وقال آخرون: المعنى: ليسحروك.

وقرأ يحيى بن وثاب فيما ذكر أَبو عمرو الداني: ﴿ليثبِّتُوك﴾، وهذه أَيضاً تعدية بالتضعيف، وحكى النقاش عن يحيى بن وثاب أَنه قرأ: [لِيُبَيِّتوك] من البيات، وهذا أَخذ مع القتل فيضعف من هذه الجهة، وقال أَبو حاتم: معنى ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أَي بالجراحة، كما يقال: «أَثبتته الجراحة»[1] وحكاه النقاش عن أَهل اللغة ولم يُسَمِّ أَحداً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ معناه: يفعل أَفعالا منها تعذيب لهم، ومنها ما هو إبطالٌ لمكرهم وردٌّ له ودفع في صدره حتى لا ينجع، فسُمي ذلك كله باسم الذنب الذي جاءَ ذلك من أَجله، ولا يحسن في هذا المعنى إلا هذا، وأَمّا أَن ينضاف المكر إلى الله عزَّ وجلَّ على ما يفهم منه في اللغة فغير جائز أَن يقال، وقد ذكر ابن فُورك في هذا ما يقرب من هذا الذي ضعفناه، وإنما قولنا: «ويمكر الله» كما تقول في رجل شتم الأَمير فقتله الأَمير: هذا هو الشتم، فتسمى العقوبة باسم الذنب، وقوله سبحانه: ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أَي: أَقدرهم وأَعزهم جانباً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذه الجهة ـ أَعْني القدرة والعزَّة ـ يقع التفضيل، لأن مكَرَةَ الكفار لهم قُدرة مّا، فوقع التفضيل لمشاركتهم بها، وأَما من جهة الصلاح الذي فيما يعلمه الله تعالى فلا مشاركة للكفار بصلاح، فيتعذر التفضيل على مذهب سيبويه والبصريين إلا على ما قد بيَّناه في أَلفَاظ العموم مثل: خيرٌ وأَحبّ ونحو هذا، إذ لا يخلو من اشتراك ولو على معتقد من فرقة أَو أَحد.

---

(١) قال عطاء والسُّدي: ليُثْخنوك بالجرح والضرب، من قولهم: ضربوه حتى أثبتوه لا حَرَاك به ولا بَرَاح، ورمى الطائر فأَثْبَته، أي أَثْخنه، قال الشاعر:

فَقُلْتُ وَيْحَكَ ماذا في صَحِيفَتِكُمْ؟ قالَ: الْخَلِيفَةُ أَمْسَى مُثْبَتاً وَجِعاً



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد على الكفار، والآيات هنا: آيات القرآن خاصة بقرينة قوله: ﴿تُتْلَىٰ﴾، و﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ يريد: وقد سمعنا هذا المتلوَّ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مثله، وقد سمعنا نظيره، على ما رُوي أن النضر سمع أحاديث أهل الحيرة من العباد، فلو نشاءُ لقلنا مثله من القصص والأنبياءِ، فإن هذه إنما هي أساطير مَنْ قد تقدم، أي قصصهم المكتوبة المسطورة. وأساطير: جمع أُسطورة، ويحتمل أن يكون جمع أَسطارٍ، ولا يكون جمع أَسْطُر كما قال الطبري، لأنه كان يجيءُ أساطِرَ بدون ياءٍ[1]، هذا هو قانون الباب، وقد شذَّ منه شيءٌ كصيرفٍ، قالوا في جمعه: صياريف. والذي تواترت به الروايات عن ابن جُرَيْج، والسُّدّي، وابن جُبَيْر أن الذي قال هذه المقالة هو النضر بن الحارث، وذلك أنه كان كثير السفر إلى فارس والحِيرَة، فكان قد سمع من قصص الرهبان والأناجيل، وسمع من أخبار رستم واسبنديار، فلما سمع القرآن ورأى فيه من أخبار الأنبياءِ والأُمَمِ قال: لو شئت لقلت مثل هذا، وكان النضر من مَرَدة قريش النائلين من رسول الله ﷺ، ونزلت فيه آياتٌ من كتاب الله، وقتله رسول الله ﷺ صبْراً[2] بالصفراءِ مُنْصَرَفه من بدر في موضع يقال له: الأُثَيْل[3]، وكان أَسره المقداد[4]، فلما أَمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه قال المقداد: أَسيري يا رسول الله،

---

(١) الذي في لسان العرب هو أن السَّطْر والسَّطر: الصف من الكتاب والشَّجر والنخل ونحوها، والجمع من كل ذلك: أسْطُرٌ وأسْطَارٌ وأَسَاطيرُ، وعن اللحياني: وسُطُورٌ، ثم روى عن اللغويين ـ بعد ذلك آراء مختلفة.

(٢) الصَّبْرُ: نَصْبُ الإنسان لِلْقتل، فهو مصبور، وصَبْر الإنسان على القتل: نصْبُه عليه، يقال: قتله صبراً، وقد صبره عليه. (اللسان) ـ وفي «المعجم الوسيط»: قتله صبراً: حبسه حتى مات.

(٣) الأُثَيل بالتصغير: موضع قريب من المدينة فيه عين ماءٍ لآل جعفر بن أبي طالب.

(٤) هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة الحضرمي، قدم مكة من اليمن فحالف الأسود بن عبد يغوث فقيل له: المقداد بن الأسود، كان طويلاً آدم كثيف الشعر واسع العينين، تزوج ضُباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ابنة عم النبي ﷺ، هاجر الهجرتين، وشهد بدراً والمشاهد بعدها، ولم يثبت=

فقال رسول الله ﷺ: إنه كان يقول في كتاب الله ما علمتم ، ثم أَعاد المقداد مقالته حتى قال رسول الله ﷺ: اللهم أَغْنِ المقداد من فضلك ، فقال المقداد: هذا الذي أَردت ، فضرب عنق النضر.

وحكى الطبري عن سعيد بن جبير أَن رسول الله ﷺ قَتَل يوم بدر صبراً ثلاثة نفر: المُطْعَم بن عَدِيّ ، والنَّضر بن الحارث ، وعُقْبة بن أَبي مُعَيْط.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا وهم عظيم في خبر المُطْعم ، فقد كان مات قبل يوم بدر[1] ، وفيه قال النبي ﷺ: «لو كان المُطْعم حياً وكلَّمني في هؤلاءِ النَّتْنَى لتركتهم له»[2] يعني أَسرى بدر.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾ الآية. روي عن مجاهد ، وابن جُبَيْر ، وعطاءٍ ، والسدي أَن قائل هذه المقالة هو النَّضر بن الحارث الذي تقدم ذكره ، وفيه نزلت هذه الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وترتب أَن يقول النَّضر بنُ الحارث مقالةً وينسُبها القرآن إلى جميعهم لأَن النَّضر كان فيهم موسوماً بالنُّبْل والفهم مسكوناً إلى قوله ، فكان إذا قال قولا قالهُ منهم كثير واتبعوه عليه حسبما يفعله الناس أَبداً بعلمائهم وفُقهائهم. والمشارُ إليه بـ ﴿ هَٰذَا ﴾ هو القرآن

= أنه كان على فرس يوم بدر غيرُه ، أخرج الترمذي وابن ماجة عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى أمرني بحب أربعة ، وأخبرني أنه يُحبهم: عليٌّ ، والمقداد ، وأبو ذرّ ، وسلمان» وروى المقداد أحاديث عن النبي ﷺ. واتفقوا على أنه مات سنة ثلاث وثلاثين في خلافة عثمان رضي الله عنه ، قيل: وهو ابن سبعين سنة. (الإصابة).

(١) الحقيقة التي لا شكَّ فيها أن المُطعم بن عدي لم يكن حياً يوم بدر ، وقد ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره لهذه الآية ـ قال عن هذا الخبر: «وكذا رواه هشيم عن أبي بشر جعفر ابن أبي رحية عن سعيد بن جبير أنه قال (المطعم بن عدي) بدل (طعيمة بن عدي) ، وهو غلط لأن المطعم بن عدي لم يكن حيّاً يوم بدر. وسرّ الغلط هو التشابه بين الاسمين ، ويؤيد هذا أن السيوطي حين نقل الحديث في (الدر المنثور) لم يذكر فيه المطعم بن عدي ، بل ذكر اثنين فقط هما عُقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث.

(٢) رواه البخاري في كتاب المغازي ، ورواه الدارمي في الجهاد ، ورواه الإمام أحمد في مسنده (٤ ـ ٨٠) ، ولكن فيه لفظ «النَّتنين» بدلا من «النَّتنى».



وشرع محمد ﷺ ، والذي حملهم على هذه المقالة هو الحسد ، وذلك أنهم استبعدوا أن يكرم الله عليهم محمداً ﷺ هذه الكرامة ، وعميت بصائرهم عن الهدى ، وصمموا على أن هذا ليس بحق فقالوا هذه المقالة ، كما يقول الإنسان لأمر قد تحقق يزعمه أنه لم يكن: «إن كان كذا وكذا فَفَعَلَ الله بي وصَنَع»[1]. وحكى ابن فُورك أن هذه المقالة خرجت مخرج العناد مع علمهم بأنه حق ، وكذلك ألزم أهل اليمن معاوية بن أبي سفيان القصة المشهورة في باب الأجوبة. وحكاه الطبري عن محمد بن قيس ، ويزيد ابن رومان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد من التأويل ، ولا يقول هذا على جهة العناد عاقل. ويجوز في العربية رفع ﴿ٱلْحَقَّ﴾ على أنه خبر ﴿هُوَ﴾ ، والجملة خبر كان ، قال الزَّجَّاج: ولا أعلم أحداً قرأ بهذا الجائز[2] ، وقراءَة الناس إنما هي بنصب [الْحَقّ] على أن يكون خبر كان ، ويكون [هُوَ] فصلا ، فهو حينئذ اسمٌ وفيه معنى الإعلام بأن الذي بعده خبر وليس بصفة ، ﴿فَأَمْطِرْ﴾ إنما يستعمل في المكروه ، و(مَطَر) في الرحمة. كذا قال أبو عبيدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويعارض هذا قوله سبحانه: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾[3] لأنهم ظنوها سحابة رحمة. وقولهم: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مبالغة وإغراق.

وهذان النوعان اللذان اقترحوهما هما السالفان في الأُمم ، عافانا الله وعفا عنا ولا أضلَّنا بمنِّه وَيُمْنِهِ.

---

(١) في هذه العبارة بعض الاضطراب ، وقد جاءت في إحدى النسخ: «كما يقول الإنسان لأمر قد تحقق يزعمه أنه لم يكن إلا كذا وكذا... إلخ».

(٢) ذكر الألوسي في تفسيره أن زيد بن علي ، والأعمش قرأ [الحقُّ] بالرفع ، وعبارة الزجاج تنفي علمه هو ولا تنفي القراءة.

(٣) الأحقاف: ٢٤. وفي (اللسان): «ومَطَرَتْهم السماءُ وأَمطرَتهم: أصابتهم بالمطر ، وناس يقولون: مطَرت السماءُ وأَمطَرت بمعنى ، وأمطرَهم الله مَطراً أوْ عذاباً ، ابن سيدة: أَمطَرهم الله في العذاب خاصة ، كقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ ، وقوله عز وجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

قالت فرقة: نزلت هذه الآية كلها بمكة، وقالت فرقة: نزلت كلها بعد وقعة بدر حكاية عما مضى، وقال ابن أَبْزي[١]: نزل قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ ﴾ بمكة إِثر قولهم: ﴿ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، ونزل قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ عند خروج النبي ﷺ عن مكة في طريقه إلى المدينة وقد بقي بمكة مؤمنون يستغفرون، ونزل قوله: ﴿ وَمَا لَهُمْ ﴾ إلى آخر الآية بعد بدر عند ظهور العذاب عليهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَجمع المتأَولون على أَن معنى قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ ﴾ أَن الله عزَّ وجلَّ لم يُعَذِّب قط أُمَّة ونَبِيُّها بين أَظهرها، فما كان ليعذب هذه وأَنت فيهم، بل كرامتك لديه أَعظم، قال ـ أُراه عن أَبي زيد[٢] ـ: سمعت من العرب من يقول: «ما كان الله لَيعذبهم» بفتح اللام، وهي لغة غير معروفة ولا مستعملة في القرآن.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وابن أَبْزي، وأَبو مالك، والضحاك ما مقتضاه: إن الضمير في قوله: [مُعَذِّبَهُم] يعود على كفار مكة، والضمير في قوله: [وهُمْ] عائد على المؤمنين الذين بقوا بعد رسول الله ﷺ بمكة، أَي: وما كان الله ليعذب الكفارَ والمؤمنون بينهم يستغفرون.

---

(١) هو عبد الرحمن بن أَبزي الخزاعي ـ الجمهور على أن له صحبة، قال أبو حاتم: أدرك النبي ﷺ، وصلَّى خلفه، وهو قارىء لكتاب الله، عالم بالفرائض، وروى عن النبي ﷺ، وروى عنه ابناه عبد الله وسعيد، وقال البخاري: هو كوفي، وقال ابن السكن: استعمله النبي ﷺ على خراسان.

(٢) أُراه بضم الهمزة بمعنى أظنه، والمظنون هو الخبر الآتي: «سمعت... إلخ» ـ فابن عطية يقول: أظن أني سمعت كذا عن أبي زيد. وقد نقل أبو حيان الرواية صريحة عن ابن عطية فقال ما نصه: «قال ابن عطية عن أبي زيد سمعت... إلخ» «البحر المحيط ٤ ـ ٤٨٩».



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويدفع في صدر هذا القول أن المؤمنين الذين ردّ الضمير عليهم لم يجر لهم ذكر. وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ما مقتضاه أن يقال: الضميران عائدان على الكفار، ذلك أنهم كانوا يقولون في دعائهم: غفرانك، ويقولون: لبيك لا شريك لك، ونحو هذا مما هو دعاءٌ واستغفار، فجعله الله أمنة من عذاب الدنيا، وعلى هذا تركب قول أبي موسى الأشعري، وابن عباس: إن الله جعل من عذاب الدنيا أَمَنَتَيْن، كون النبي ﷺ مع الناس، والاستغفار، فارتفعت الواحدة وبقي الاستغفار إلى يوم القيامة[1]، وقال قتادة: الضمير للكفار.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ جملة في موضع الحال إن لو كانت، فالمعنى: وما كان الله معذبهم وهم بحال توبة واستغفار من كفرهم لو وقع ذلك منهم، واختاره الطبري، ثم حسّن الزجْر والتوقيف ـ بعد هذا ـ بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾.

وقال الزجاج ما معناه: إن الضمير في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ عائد على الكفار، والمراد به من سبق له في علْم الله أن يُسْلم ويستغفر، فالمعنى: وماكان الله ليعذب الكفار وفيهم من يستغفر ويؤمن في ثاني حال، وحكاه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال مجاهد في كتاب الزهراوي: المراد بقوله: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ذرية المشركين يومئذ الذين سبق لهم في علم الله أن يكونوا مؤمنين، فالمعنى: وما كان الله ليعذبهم وذريتهم يستغفرون ويؤمنون، فنسب الاستغفار إليهم إذ ذريتهم منهم، وذكره مكي ولم ينسبه.

وفي الطبري عن فرقة أن معنى ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾: يُصَلّون، وعن أُخرى: يُسْلمون، ونحو هذا من الأقوال التي تتقارب مع قول قتادة.

---

(١) قال أبو حيان تعليقاً على قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ...﴾ إلخ: «انظر إلى حُسْن مساق هاتين الجملتين. لما كانت كينونته فيهم سبباً لانتفاء تعذيبهم أكد خبر (كان) باللام ـ على رأي الكوفيين ـ، أو جعل خبر (كان) الإرادة المنفية ـ على رأي البصريين، وانتفاءُ الإرادة للعذاب أبلغ من انتفاء العذاب، ولما كان استغفارهم دون تلك الكينونة الشريفة لم يؤكد باللام، بل جاء خبر [كان] قوله: [مُعَذِّبَهُم]، فشتان ما بين استغفارهم وكينونته ﷺ فيهم». «البحر المحيط ٤ ـ ٤٩٠».



وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ توعد بعذاب الدنيا، فتقديره: وما يُعْلِمهم أَو يُدْريهم ونحو هذا من الأَفعال التي توجب أن تكون [أَنْ] في موضع نصب(١)، وقال الطبري: تقديره: وما يمنعهم من أَن يُعذبوا، والظاهر في قوله: [ومَا] أَنها استفهام على جهة التقرير والتوبيخ والسؤال، وهذا أَفصح في القول وأَقطع لهم في الحجة. ويصح أَن تكون [مَا] نافية، ويكون القول إِخباراً، أَي: وليس لهم ألا يعذبوا وهم يصدون.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ على التأويلين جملة في موضع الحال، و﴿يَصُدُّونَ﴾ في هذا الموضع معناه: يمنعون غيرهم، فهو متعد كما قال:

صَــدَدْتِ الكَــأْسَ عَنَّــا أَمَّ عمْــرٍو . . . .(٢)

وقد يجيءُ (صدَّ) غير متعد، كما أَنشد أَبو علي:

صَــدَّتْ خُلَيْــدَةُ عنَّــا مَــا تُكَلِّمُنَــا . . . .(٣)

والضمير في قوله سبحانه: ﴿أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ عائد على الله عزَّ وجلَّ من قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾، أَو على المسجد الحرام، كل ذلك جيّد، رُوي الأَخير عن الحسن، والضمير الآخر تابع للأَول.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معناه: لا يعلمون أَنهم ليسوا

---

(١) قال الأخفش: إنَّ [أنْ] زائدة، قال النحاس: لو كان كما قال لرُفع ﴿يُعَذِّبُهُمْ﴾ فيكون الفعل في موضع الحال، كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ ويجوز أن تكون [أنْ] في موضع جرٍّ على تقدير (في) وتتعلق بما تعلق به [لَهُم] والمعنى: أيُّ شيءٍ كائن أو مستقر لهم في ألا يعذبهم الله؟ أي: لا حظَّ لهم في انتفاء العذاب، فهم معذبون ولابُدَّ.

(٢) هذا صدر بيت من معلقة عمرو بن كلثوم المشهورة التي بدأها بقوله:

ألا هُبِّــي بصَحنْــك فَــاصْبَحينَــا ولا تُبْقِــي خُمُــورَ الأنْــدَرِينَــا

وقد روي (صَبَنْتِ) بدلا من (صَدَدْتِ) ـ والصَّبْنُ هو الصرف، ولكن الرواية المشهورة (صَدَدْتِ) والبيت بتمامه:

صَــدَدْتِ الكَــأْسَ عَنَّــا أُمَّ عَمْــرٍو وكَــان الكَــأْسُ مَجْـرَاهَــا اليَمِينَــا

والمعنى: صرفت الكأس عني يا أُمَّ عَمْرو، وكان مجرى الكأس على اليمين، فأجريتها على اليسار، أي أنك تعمَّدْت أن تمنعي عني الكأس.

(٣) الواضح أن (صدَّ) هنا بمعنى: أعرض، فخليدة قد أعرضت عنه وامتنعت عن تكليمه، ولم نقف على قائل البيت ولا على بقيته.



بأَوليائه ، بل يظنون أَنهم أَولياؤُه. وقوله: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ ونحن نجد كلهم بهذه الصفة لفظ خارج إما على أَن تقول: إنه لفظ خصوص أُريد به العموم ، وهذا كثير في كلام العرب ، ومنه حكى سيبويه قولهم: «قَلَّ مَنْ يقول ذلك» ، وهم يريدون: لا يقوله أَحد. وإِمَّا أَن تقول: إنه أَراد بقوله: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ أَن يُعلم ويُشعر أَن بينهم وفي خلالهم قوماً قد جنحوا إلى الإيمان ، ووقع لهم عِلْم وإن كان ظاهرهم الكفر فاستثناهم من الجميع بقوله: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ ، وكذلك كانت حال مكة وأَهلها ، فقد كان فيهم العباس ، وأُمّ الفضل[1] وغيرهما.

وحكى الطبري عن عكرمة: قال الحسن بن أَبي الحسن: إن قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ ناسخ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر لأَنه خبر لا يدخله نسخ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ .

قرأَ الجمهور: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾ بالرفع ﴿عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً﴾ بالنصب ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ كذلك. وروي عن عاصم أَنه قرأَ [صلاتَهم] بالنصب [إلا مكاءٌ وتصديةٌ] بالرفع ، ورويت عن سليمان الأَعمش بخلاف عنه فيما حكى أَبو حاتم ، وذكر أَبو علي عن الأَعمش أَنه قال في قراءَة عاصم: أَفإِن لَحَن عاصم تلْحَن أَنت؟ قال أَبو الفتح: وقد روي الحرف كذلك عن أَبان بن تغلب ، قال قوم: وهذه القراءَة خطأٌ لأَنه جعل الاسم نكرة والخبر معرفة ، قال أَبو حاتم: فإِن قيل: «إن (المُكاءَ والتَّصدية)

---

(١) أم الفضل هي لُبابة بنت الحارث الهلالية امرأة العباس بن عبد المطلب ، وهي لبابة الكبرى ، ولها أربع أخوات أخرج فيهن الزبير بن بكار عن النبي ﷺ: «الأخوات الأربع مؤمنات: أُم الفضل ، وميمونة ، وأسماء ، وسلمى» فأما ميمونة فهي أم المؤمنين ، وأما أسماء وسلمى فأختاهما من أبيهما. وكان يقال لوالدة أُم الفضل: أكرم الناس أصهاراً ، ميمونة زوج النبي ﷺ ، والعباس تزوج أُختها شقيقتها لبابة ، وحمزة تزوج أُختها سلمى ، وجعفر بن أبي طالب شقيقتها أسماءَ ثم تزوجها بعده أبو بكر رضي الله عنهم أجمعين ، وقد ماتت أُم الفضل في خلافة عثمان قبل زوجها العباس. (الإصابة).



اسم جنس واسم الجنس مُعَرفاً ومُنكراً واحد في التعريف» قيل: إن استعماله هكذا لا يجوز إلا في ضرورة الشعر، كما قال حسّان:

كَـأَنَّ سَبِيئَـةً مِـنْ بَيْـتِ رَأْس ... يكـونُ مِـزَاجُهـا عَسَـلٌ ومـاءُ[1]

ولا يقاس على ذلك.

فأما أَبو الفتح فوَجّه هذه القراءَة بما ذكرناه من تعريف اسم الجنس، وبعد ذلك يرجح قراءَة الناس[2].

قال أَبو علي الفارسي: وإِنما ذهب من ذهب إلى هذه القراءَة لما رأَى أَن (الصَّلاةَ) مؤنثة، ورأَى الفعل المسند إليها ليس فيه علامة تأْنيث فأَراد تعليقه بمذكر وهو (المكاءُ)، وأَخطأَ في ذلك، فإِن العرب تعلق الفعل لا علامة فيه بالمؤنث، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾[3]، وقوله سبحانه: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾[4]، و﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[5]، ونحو هذا مما أُسند فيه الفعل دون علامة إلى المؤنث.

والمكاءُ على وزن الفُعَالِ: الصَّفِير[6]، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والجمهور،

---

(١) هذا البيت من قصيدة حسان المشهورة في مدح النبي ﷺ، والتي يقول في مطلعها:

عَفَـتْ ذاتُ الأصـابـع فـالجـواء ... إلـى عَـذْراءَ مَنْـزِلُهَـا خَـلاءُ

والسَّبيئَةُ: اسم لما سال من الخمر قَبل أن تعصر، وذلك أخلصها، وقيل: بل هي الخمر، وقد روي بدلا منها (سُلافة)، وبيت رأس: مكان كانت تعصر فيه الخمر.

(٢) أي: قراءة الجمهور، وابن جني مع اعترافه بقبح تنكير اسم (كان) وتعريف خبرها إلا أنه أجازه معللا الجواز بما أشار إليه ابن عطية هنا من أن اسم الجنس معرفاً ومنكراً واحد في التعريف، فكأن المعنى كما وضحه ابن جني: وما كان صلاتهم إلا هذا الجنس، وأيضاً فإنه يجوز مع النفي ما لا يجوز في الإثبات. وأبو حيَّان يؤيد ذلك في تفسيره «البحر المحيط» ويقول: «وهو نظير قول من جعل [نَسْلَخ] صفة لـ [اللَّيل] في قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾، وجعل (يَسُبّني) صفة لـ (اللئيم) في قول الشاعر:

ولقَـدْ أمـرُّ علـى اللَّئيـم يَسُبُّنـي ... فَمَضَيْـت ثمـتَ قُلْـتُ لا يَعْنِينِـي

(٣) هود: ٦٧.

(٤) النمل: ٥١.

(٥) تكررت في آيتين ـ في قوله تعالى في الآية ٨٦ من سورة الأعراف: ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وفي قوله تعالى في الآية ١٠٣ من سورة الأعراف أيضاً: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

(٦) قال السُّدي: المُكَاءُ: الصفير، على نحو طائر أبيض بالحجاز يقال له: المُكَّاء. قال الشاعر: =



فقد يكون بالفم، وقد يكون بالأصابع والكف في الفم، قال مجاهد، وأَبو سَلَمَة بنُ عبد الرحمن: وقد يشارك الأنف، يقال: مَكَا يَمْكُو إذا صَفَر، ومنه قول عنترة:

وحَليـلِ غَـانِيَـةٍ تَـرَكْـتُ مُجَـدَّلا　　　تَمْكُـو فَـريصَتُـهُ كشِـدْقِ الأَعْلَـم[١]

ومنه قول الشاعر:

فَكَـأَنَّمَـا يمْكُـو بِـأَعْصَـمَ عَـاقِـلِ　　　. . . . .[٢]

يصف رجلا فرَّ له حيوان، ومنه قول الطِّرمَّاح:

فَنَحَـا لأُولاَهَـا بِطَعْنَـةِ مُحْفَـظٍ　　　تَمْكُـو جَـوانِبُهَـا مِـنَ الإِنْهَـارِ[٣]

ومكت اسْتُ الدَّابة إذا صَفَرت، يقال: ولا تمكُو إلا اسْتٌ مكشوفة، ومن هذا قيل لِلاسْت: مَكْوَة[٤]، قال أَبو علي: فالهمزة فيه منقلبة عن واوٍ.

= إذَا غَـرَّدَ المُكَّـاءُ فـي غيْـرِ رَوْضَـةٍ　　　فَـوَيْـلٌ لأهْـلِ الشَّـاءِ والحُمُـرات

(١) البيت من المعلقة، ورقمه فيها السادس والأربعون، ورواه اللسان في (مكا) ـ والحليل بالحاء المهملة: الزوج، والحليلة: الزوجة، وهما من الحلول تسميا بذلك لأنهما يحلان في مكان واحد وفراش واحد، فهو فعيل بمعنى مفاعل، مثل أكيل ونديم بمعنى مؤاكل ومنادم. وقيل هما من الحلّ لأن كلا منهما يحل لصاحبه فهو فعيل بمعنى مُفْعَل، مثل حكيم بمعنى محكم. وقد روي البيت: وخليل بالخاء المعجمة، والغانية: البارعة الجمال المستغنية بجمالها عن الزينة، أو الشابة الحسناءُ التي تعجب الرجال ويعجبها الرجال، ومُجَدَّلا: مصروعاً على الجَدَالة وهي الأرض، يقال جدلته فتجدل. والمُكاءُ: الصفير. والفريصة: لحمة رقيقة تحت الإبط بحذاء القلب ترتجف عند الخوف، والإصابة فيها قاتلة. والأعلَم: مشقوق الشفة العليا. يقول: إن فريصة الفارس الذي صرعته تصفر وهو ملقى على الأرض كصفير شدق البعير إذا كان مشقوق الشفة، وذلك بسبب اتساع الطعنة وشدة خروج الدم منها.

(٢) لم نقف على نسبة هذا الشعر ولا على بقيته. والمعنى واضح بتفسير ابن عطية له، فهو يصفر بفمه بحثاً عن الحيوان الذي فرَّ منه.

(٣) البيت للطِّرماح بن حكيم يصف الثور وهو يطعن الكلاب في معركة بينه وبينها. ونحا: انحرف وقصد، وأُولاها: يريد أول الكلاب. والمُحْفَظ: المغضب (اسم مفعول)، تمكُو: تصْفر. والضمير في جوانبها يعود على الطعنة أو أثرها في الكلب، والإنهار: هو توسيع الطعنة، ومنه قول قيس بن الخطيم: «فأنهرت فتقها» أي وسَّعت الفتق الذي أحدثته. يقول في وصف الثور الهائج مع كلاب الصيد: إنه قصد أول الكلاب بطعنة مُغضب مغيظ من تكاثرها عليه، وسال الدم من هذه الطعنى فأحدث عند سيلانه صفيراً صدر عن جوانب الطعنة الواسعة.

(٤) مَكْوَة: على وزن زَهْرة وتَمْرة.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومن هذا قيل للطائر: المُكَّاءُ، لأنه يَمْكُو أي يَصْفر في تغريده، ووزنه فُعَّال بشَدّ العَيْن كخُطَّاف، والأصوات في الأكثر تجيءُ على فُعَال بتخفيف العين كالبُكَاءِ والصُّرَاخ والدُّعَاءِ والجُؤَار والنُّبَاح ونحوه. ورُوي عن قتادة أن المُكَاءَ صوت الأيدي، وذلك ضعيف. ورُوي عن أبي عَمرو أنه قرأ [إلا مُكَا] بالقصر.

والتَّصْدِيَةُ عبّر عنها أكثر الناس بأنها التصفيق. وقتادة بأنها الضجيج والصياح، وسعيد بن جُبَير بأنها الصَّدُّ والمنع. ومن قال «إنها التصفيق» قال: «إنما كان للمنع عن ذكر الله ومعارضة لقراءة رسول الله ﷺ للقرآن». والتَّصْدِية يمكن أن تكون من صَدَّى يُصَدِّي إذا صوَّت، والصدى: الصوت، ومنه قول الطِّرِمَّاح يصف الأُرْوِيَّةَ[١]:

لَهــا كُلَّمــا رِيعَــتْ صَــداةٌ وَرَكْــدَةٌ ... بِمِصْرَانَ أَعْلَى ابْنَيْ شَمامِ الْبَوائِنِ[٢]

فيلتئم ـ على هذا الاشتقاق ـ قول من قال: هو التصفيق، وقول من قال: الضجيج، ولا يلتئم عليه قول من قال: هو الصَّدُّ والمنع إلا أن يُجعل التصويت إنما يقصد به المنع، ففسَّر اللفظ بالمقصود لا بما يخصه من معناه.

ويمكن أن تكون التصدية من صدَّ يصُدّ، استعمل الفعل مضعفاً للمبالغة والتكثير لا ليُعدَّى فقيل: صدّد، وذلك أن الفعل الذي يتعدى إذا ضُعّف فإنما يُضعّف للتكثير، إذ التعدّي حاصل قبل التضعيف وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾[٣]، والذي يُضَعّف ليُعَدى هو كقولهم علَّم وغرَّم، فإذا قلنا في صَدَّ: صدَّدَ، ففعَّل في الصحيح

---

(١) الأرويَّةُ: الأنثى من الوعول، والجمع: أرَاوي. وعن اللحياني الضبط بالكسر فهي: الإرويَّةُ، قاله في اللسان، وعلى هذا فالطِّرِمَّاح يصف أُنثى الوعول في هذا البيت والضمير في (لها) يعود عليها.

(٢) ريعت: فزعت وخافت، والصَّداة: فعل المتصدّي، وهو الذي يرفع رأسه وصدره يتصدى للشيء ينظر إليه، والرّكْدة: السكوت والثبات والهدوء، والمصران: أعالي الجبال وهي تحجز بين شيئين أو ناحيتين وتكون حرزاً لمن يلجأ إليها، والواحد: مصار. وشمام: جبل في بلاد بني قشير، وابنا شمام: يريد بهما هضبتين في هذا الجبل، والبوائن: جمع بائن وهو البعيد المفارق والطِّرماح يصف هذه الأُرْويَّة بأنها كلما فزعت من شيءٍ في هذا الجبل البعيد ترددت بين الصفير والثبات أو السكون، وقد روى اللسان البيت: «لها كلّما صاحت» وقال: إنه في وصف هامة، فإذا ما صاحت تصدت مرة وركدت أُخرى، ورواية «كلما ريعت» جاءت في «التكملة»، وهي أقرب وأوضح.

(٣) يوسف: ٢٣.



يجيءُ مصدره في الأكثر على تفعيل، وفي الأقل على تَفْعِلَة، مثل كمَّل تكميلاً وتكْمِلَة وغير ذلك، بخلاف المعتل فإنه يجيءُ في الأكثر على تَفْعِلَة، مثل عَزَّى تَعْزية، وفي الشاذ على تَفْعِيل مثل قول الشاعر:

بَـــاتَ يُنَـــزِّي دَلْـــوَهُ تَنْـــزِيَّـــا . . . .[1]

وإذا كان فَعَّل في الصحيح يتسق فيه المِثْلان رُفض فيه تفعلة مثل قولنا: تَصْدية، وصُيِّر إلى تفعيل لتحول الياءُ بين المثلين كتخفيف وتشديد، فلما سلكوا في مصدر صدَّدَ المسْلَك المرفوض أُصلح ذلك بأَن أُبدل أَحد المِثْلَيْن ياءً كبدلهم في: تَظَنَّيْت ونحوه[2]، فجاءَ: تصْدِية، فعلى هذا الاشتقاق يلتئم قول من قال: التَّصْدية: الصَّدُّ عن البيت والمنع.

ويمكن أَن تكون التَّصدية من: صدَّ يصِدُّ ـ بكسر الصاد في المستقبل ـ إذا ضجَّ، ويُبدل أَيضاً على هذا أَحد المِثْلَيْن، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[3] بكسر الصاد، ذكره النحاس.

وذهب أكثر المفسرين إلى أَن المكاءَ والتَّصدية إنما أَحدثها الكفار عند مبعث رسول الله ﷺ لتقطع عليه وعلى المؤمنين قراءَتهم وصلاتهم، ويخلط عليهم، فكان

---

(١) استشهد صاحب اللسان بهذا البيت على أن مصدر أَنْزَاه ونزَّاه هو تَنْزيه وتنزيًا. والرواية فيه مع بقية البيت:

بـــاتَـــتْ تُنَــزِّي دَلْـــوَهـــا تَنْـــزِيًـــا   كَمَـــا تُنَـــزِّي شَهْلَـــةٌ صَبِيـــا

والشهلة هي العجوز، وقيل: المرأةُ النَّصف العاقلة. أما التَّنَزِّي فهو التَّوَثُّبُ والتَّسَرُّع، قال نُصَيب ـ وقيل: بل هو بَشّار:

أَقُـــولُ ولَيْلَتِـــي تَـــزْدَادُ طُـــولا   أَمَـــا لِلَّيْـــلِ بَعْـــدَهُـــمُ نَهَـــارُ؟
جَفَـــتْ عَيْنِـــي عـــن التَّغْمِيـــضِ حَتَّـــى   كَـــأَنَّ جُفُـــونَهَـــا عَنْهَـــا قِصَـــارُ
كَـــأَنَّ فُـــؤَادَهُ كُـــرَةٌ تَنَـــزَّى   حِـــذَارَ البَيْـــنِ لَـــوْ نَفَـــعَ الحِـــذَارُ

(٢) وعليه جاء قول العجاج يمدح عمر بن عُبَيْد الله بن يعمر ويشبهه بطائر ضخم يضم جناحيه إلى نفسه وينقض على الصيد:

إذا الكِـــرامُ ابْتَـــدروا البـــاعَ ابْتَـــدرْ   دانَـــى جَنَـــاحَيْـــه مـــن الطُّـــورِ فَمَـــرْ
تَقَضِّي البازي إذا البازي كَسَرْ

يريد: تقَضُّضَ البازي.

(٣) من قوله تعالى في الآية (٥٧) من سورة الزخرف: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾.



المصلي إذا قام يقرأ من المؤمنين اكتنفه من الكفار عن يمينه وشماله من يمكو ويُصدّي حتى تختلط عليه قراءَته[١]، فلما نفى الله ولايتهم للبيت أَمكن أَن يعترض معترض بأَن يقول: وكيف لا نكون أَولياءَه ونحن نسكنه ونصلي عنده؟ فقطع الله هذا الاعتراض بأَن قال: ﴿وما كان صلاتهم إلا المكاء والتصْدية﴾، وهذا كما يقول الرجل: أَنا أَفعل الخير، فيقال له: ما فعلك الخير إلا أَن تشرب الخمر وتقتل، أَي: هذه عادتك وغايتك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي مرّ بي من أَمر العرب في غير ما يدوَّن أَن المُكَاءَ والتَّصدية كان[٢] من فعل العرب قديماً قبل الإِسلام على جهة التقرب به والتَّشَرُّع، ورأَيت عن بعض أَقوياءِ العرب أَنه كان يمكُو على الصفا فيسمع من جبل حراءَ وبينهما أَربعة أَميال. وعلى هذا يستقيم تعييرهم وتَنَقُّصهم بأَن شرعهم وصلاتهم وعبادتهم لم تكن رهبة ولا رغبة، إنما كانت مُكَاءً وتَصْدية من نوع اللعب، ولكنهم كانوا يتزايدون فيها وقت النبي ﷺ ليشغلوه وأُمَّته عن القراءَة والصلاة.

وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ إشارة إلى عذابهم ببدر بالسيف، قاله ابن جُرَيج، والحسن، والضحاك، فيلزم من هذا أَن هذه الآية الأَخيرة نزلت بعد بدر ولابُدّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَشبه أَن الكل نزل بعد بدر حكاية عما مضى. والله ولي التوفيق برحمته.

---

(١) أخرج الطستيّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾، قال: المُكَاءُ: صوت القنبرة، والتَّصدية: صوت العصافير وهو التصفيق، وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة وهو بمكة كان يصلي قائماً بين الحجر والركن اليماني، فيجيءُ رجلان من بني سهم يقوم أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، ويصيح أحدهما كما يصيح المُكَاء، والآخر يصفق بيديه تصدية العصافير ليفسدا عليه صلاته، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعت حسّان بن ثابت رضي الله عنه يقول:

نقـــومُ إلـــى الصَّـــلاة إذا دُعينـــا ... وهِمَّتُـــكَ التَّصَـــدِّي والمُكـــاءُ

(٢) هكذا في جميع الأصول.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

قال بعض الرواة، منهم ابن أَبْزي، وابن جبير، والسدي، ومجاهد: سبب نزول هذه الآية أَن أَبا سفيان أَنفق في غزوة أُحد على الأَحابيش وغيرهم أَربعين أُوقية من الذهب أَو نحو هذا، وأَن الآية نزلت في ذلك. وقال ابن شهاب، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ: إنه لما قُتل من قُتل ببدر اجتمع أَبناؤُهم وقرابتهم وقالوا لمن خلص ماله في العير: إن محمداً قد نال منا ما ترون، ولكن أَعينوننا بهذا المال الذي كان سبب الوقعة، فلعلنا أَن ننال منه ثأراً، ففعلوا فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى القولين فإِنما أُنفق المال في غزوة أُحد، فأَخبر الله تعالى في هذه الآية خبراً لفظه عام في الكفار، والإِشارة به إلى مخصوصين أَنهم ينفقون أَموالهم يقصدون بذلك الصَّدَّ عن سبيل الله والدفع في صدر الإِسلام، ثم أَخبر خبراً يخص المشار إليهم أَنهم ينفقونها ثم تكون عليهم حسرة، إذ لا تتم لهم إرادة ويذهب المال باطلا، والحسرة: التلهف على الفائت، ويحتمل أَن تكون الحسرة في يوم القيامة، والأَول أَظهر وإِن كانت حسرة القيامة راتبة عليهم، وهذا من إِخبار القرآن بالغيوب لأنه أخبر بما يكون قبل أَن يكون، فكان كما أخبر، قال ابن سلام: بيّن الله عزَّ وجلَّ أَنهم يُغلبون قبل أَن يقاتلوا بِسَنَة، حكاه الزهراوي.

ثم أَخبر تعالى عن الكافرين أَنهم يُجمعون إلى جهنم، والحشر: جَمْع الناس والبهائم إلى غير ذلك مما يُجْمع ويُحْضر، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا ﴾[1]، ومنه في التفسير أَنَّ السَّلْوى طائر كانت الجنوب تحشره على بني إسرائيل، والقوم الذين جَلَبَهُم أَبو سفيان وأَنفق المال عليهم هم الأَحابيش من كنانة، ولهم يقول كعب بن مالك:

(١) الأنعام: ١١١.



وَجِئْنَا إلى مَوْجٍ مِن البَحْر وَسْطَهُ أحابيشُ مِنْهُم حاسِرٌ ومُقَنَّعُ
ثلاثَةُ آلافٍ ونَحْنُ نصيَّةٌ ثلاثُ مِئِينَ إنْ كَثُرْنَ فأَرْبَعُ[١]

وقال الضحاك وغيره: إن هذه الآية نزلت في نفقة المشركين الخارجين إلى بدر الذين كانوا يذبحون يوماً عشراً ويوماً تسعاً من الإبل، وحكى نحو هذا النقاش.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: [لِيَمِيزَ] بفتح الياء وكسر الميم، وهي قراءة الأعرج، وأبي جعفر، وشيبة بن نصاح، وشبل، وأبي عبد الرحمن، والحسن، وعكرمة، ومالك بن دينار. تقول: مِزْتُ الشيءَ، والعرب تقول: مِزْتُه فلم يَتَميَّز لي، حكاه يعقوب، وفي شاذ القراءة: [وَانْمَازُوا الْيَوْم][٢]، وأنشد أبو زيد:

لمَّا ثَنَى اللهُ عَنِّي شَرَّ دعْوَتِهِ وانْمزْتُ لا مُنْشِئاً ذعْراً ولا وجلا[٣]

وهو مطاوع: ماز.

وقرأ حمزة، والكسائي: [لِيُمَيِّزَ] بضم الياءِ وفتح الميم وشد الياءِ، وهي قراءة

(١) الحاسرُ: الذي لا درع عليه ولا مِغْفر. والمُقنّع: الذي لبس المِغْفَر على رأسه. والنَّصيَّة: خيار القوم وأشرافهم، وهكذا رواه في اللسان، ولكنه فسّر النصية بأنها البقية، ونسب ذلك إلى ابن السكيت، وقد روي البيت بروايات أخرى لعلها من أخطاء النساخ، فقد قيل: (بقية)، و(قصية). وعند الألوسي: (ونحن عصابة).

(٢) هي قراءة شاذة في قوله تعالى في سورة يس: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

(٣) ينسب البيت لمالك بن الريب ضمن قصيدة له، وورد البيت في الأغاني هكذا:

لما ثنى الله عني شر عدوته رقدت لا مثبتاً ذعراً ولا بعلاَ

واختلافات الرواة في هذا البيت كثيرة، فقد روي: «شرَّ عُذْرَتِه» و«شرَّ عَدْوته» بدلا من «شَرَّ دَعْوتِهِ»، وروي «مُنْسئاً» و«مثبتا» بدلا من «مُنْشئاً»، وروي «رَجُلا» و«بعلاَ» بدلا من «وجلا».

قتادة، وطلحة بن مصرف، والأعمش، والحسن أيضاً، وعيسى البصري، تقول: مَيَّزْتُ أُميِّز إذا فرقت بين شيئَين فصاعدا، وفي القرآن ﴿تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[1] فهو مطاوع مَيَّز ومعناه: تنفصل. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، والسدي: المعنيّ بالخبيث الكفار، وبالطيب المؤمنون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واللام ـ على هذا التأْويل ـ من قوله: ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلقة بـ ﴿يُحْشَرُونَ﴾، والمعنى أَن الله يحشر الكافرين إلى جهنم ليميز الكافرين من المؤمنين بأَن يجمع الكافرين جميعاً فيلقيهم في جهنم.

ثم أَخبر عنهم أَنهم هم الخاسرون، أَي الذين خابت سعايتهم وتَبَّت أَيديهم وصاروا إلى النار، وقال ابن سلام، والزجاج: المعنيّ بالخبيث المال الذي أَنفقه المشركون في الصَّدِّ عن سبيل الله، والطيب هو ما أَنفقه المؤمنون في سبيل الله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واللام ـ على هذا التأْويل ـ من قوله: ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلقة بـ ﴿يُغْلَبُونَ﴾، والمعنى أَن الكفار ينفقون أَموالهم فتكون عليهم حسرة ثم يغلبون مع نفقتها، وذلك ليميز الله الفرق بين الخبيث والطيّب فيخذل أَهل الخبيث وينصر أَهل الطيب، وقوله تعالى: ـ على هذا التأْويل ـ: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ مترتب على ما روي عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يخرج من الأَموال ما كان صدقة أَو قُرْبة يوم القيامة، ثم يأْمر بسائر ذلك فيلقى في النار». وحكى الزهراوي عن الحسن أَن الكفار يُعذَّبون بذلك المال، فهي كقوله تعالى: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾[2]، وقاله الزجاج، وعلى التأْويلين فقوله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ إنما هو عبارة عن جَمْع ذلك وضمِّه وتأْليف أَشْتَاتِه وتكاثفه بالاجتماع.

---

(١) الملك: ٨.

(٢) التوبة: ٣٥.



و(يَرْكُمَهُ) في كلام العرب: يكثّفه ، ومنه: ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾[(١)] وركام ، ومنه قول ذي الرُّمة:

. . . . زُعْ بالزِّمَام وَجَوْزُ اللَّيْل مَرْكومُ[(٢)]

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ﴾ بمعنى يُلْقي ، قاله أبو عليّ. و﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ـ على هذا التأويل ـ يُرادُ به المنافقون من الكفار ، ولفظة الخسارة تليق بهم من جهة المال وبغير ذلك من الجهات.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الآية. أَمر من الله عزَّ وجلَّ لِنبيّه ﷺ أَن يقول للكفار هذا المعنى الذي تضمنته أَلفاظ قوله ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ ، وسواءٌ قاله النبي ﷺ في هذه العبارة أَو غيرها ، ولو كان الكلام كما ذكر الكسائي أَنه في مصحف ابن مسعود: ﴿قُلْ للَّذين كفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرَ لَكُمْ﴾ لما تَأَدت الرسالة إلا بتلك الأَلفاظ بعينها ، هذا بحسب ما تقتضيه الأَلفاظ. وقوله: ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ يريد به: عن الكفر ولابُدّ ، والحامل على ذلك جواب الشرط بـ ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ ، ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لِمُنْتَهٍ عن الكفر. وقوله: ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ يريد به: إلى القتال ، لأَن لفظة (عاد يعود) إذا جاءَت مطلقة فإنها تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان الإنسان عليها ، ثم تنقل عنها ، ولسنا نجد في هذه الآية لهؤلاءِ الكفار حالة تشبه ما ذكرنا ، إلا القتال ، ولا يصح أَن يُتَأَول: «وإن يعودوا إلى الكفر» لأَنهم لم ينفصلوا عنه ، وإنما قلنا في (عاد): «إذا كانت مطلقة» لأَنها قد تجيءُ في كلام العرب داخلة على الابتداءِ والخبر بمنزلة (صار) ، وذلك كما تقول: «عاد زيد ملكاً» تريد: صار ، ومنه قول أَبي الصلت:

---

(١) من قوله تعالى الآية (٤٤) في سورة الطور: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾.

(٢) هذا عجز البيت ، وهو بتمامه كما جاء في الديوان:

وخَافِقِ الرَّأْسِ فَوْقَ الرَّحْلِ قُلْتُ لَهُ ... زُعْ بِالزِّمَام وجَوْزُ اللَّيلِ مَرْكُومُ

وقد روي في اللسان: «مثل السيف» بدلاً من «فوق الرحل». ورواية الصحاح مثل رواية الديوان. وزُع راحلتك أي استحثها ، يقال: زاع الناقة بالزِّمام يزوعها زوعاً إذا هيَّجها وحركها بزمامها إلى قُدَّام لتزداد في سيرها. قال في اللسان: «ومن رواه: زَع بالفتح فقد غلط لأنه يأمره بأن يكفَّ بعيره ، قال الليث: الزَّوع: جذبك الناقة بالزّمام لتنقاد» وجَوْزُ الليل: وسطه ، وفي حديث علي رضي الله عنه «أنه قام من جَوْز الليل يصلي». (اللسان والتاج والمعجم الوسيط).



تِلْكَ المكارمُ لا قَعْبانِ مِنْ لَبَنٍ شِيبا بماءٍ فعادا بَعْدُ أَبْوالا[١]

وهذه لا تتضمن الرجوع لحالة قد كان العائد عليها قَبْلُ، لكنها مُقَيَّدة بخبرها لا يجوز الاقتصار دونه، فحُكْمها حُكْم (صار).

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تجمع الوعيد والتهديد والتمثيل بمن هلك من الأُمم في سالف الدهر بعذاب الله حين صد في وجه نَبِيِّه، وبِمَنْ هلك في يوم بدرٍ بسيف الإِسلام والشَّرْع، والمعنى: فقد رأيتم ببدرٍ وسمعتم عن الأُمم ما حلَّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والتخويف عليهم بيوم بدرٍ أَشَدُّ، إذ هي القريبة منهم والمُعَايَنَةُ عندهم، وعليها نصَّ ابن إسحق، والسُّدِّيّ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الآية. أَمر من الله عزَّ وجلَّ فَرَضَ به على المؤمنين أَن يقاتلوا الكفار، والفتنة: قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: معناها: الشِّرك، وقال ابن إسحق: معناها: حتى لا يُفْتن أَحد عن دينه كما كانت قريش تفعل بمكة بِمن أَسلم كبلال وغيره، وهو مقتضى قول عروة بن الزبير في جوابه لعبد الملك بن مروان حين سأله عن خروج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أَي: لا يُشْرك معه صنم ولا وَثَن، ولا

---

(١) سبق الاستشهاد بهذا البيت في سورة الأعراف عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ راجع ص (٦١٣) من المجلد الثالث.

(٢) روى ابن جرير الطبري عن هشام بن عروة عن أبيه أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياءَ، فكتب إليه عروة: «سلام عليك، فإني أحمد الله إليك، الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنك كتبت إليَّ تسألني عن مَخْرج رسول الله ﷺ من مكة، وسأخبرك به، ولا حول ولا قوة إلا بالله» ثم حدَّثه كيف بدأ النبي ﷺ دعوته، وكيف قابله قومه بالتعذيب له ولأصحابه، بالسعي لفتنة المسلمين، وكيف أمرهم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بالهجرة إلى الحبشة، فلما فشا الإسلام ودخل فيه من دخل وبلغ ذلك من كان بأرض الحبشة، وعلموا أن المسلمين صاروا بمأمن فهم لا يفتنون رجعوا إلى مكة فلما انتشر الإسلام بالمدينة عادت قريش إلى التآمر على فتنة المسلمين. قال عروة في آخر رسالته: «وكانت فتنة الآخرة» إلى أن قال: «فاشتدت عليهم قريش، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة، وهي الفتنة الآخرة التي أَخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه وخرج هو، وهي التي أنزل الله فيها ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ اهـ. وكتاب عروة هذا في تفسير الطبري.



يُعبد غيره. وقال قتادة: حتى تستوسقِ[١] كلمةُ الإِخلاص «لا إلٰه إلاَّ الله».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه المعاني تتلازم كلها، وقال الحسن: حتى لا يكون بلاءٌ، وهذا يلزم عليه القتال ـ في فتن المسلمين ـ الفئة الباغية، وعلى سائر ما ذكرناه من الأقوال يكون المعتزل في فسحة، وعلى هذا جاءَ قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أَما نحن فقد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وأَما أَنت وأَصحابك فتريدون أَن نقاتل حتى تكون فتنة».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فمذهب ابن عمر أَن الفتنة: الشِّرك في هذه الآية، وهو الظاهر، وفسَّر هذه الآية قولُ النبي ﷺ: «أُمرت أَن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إلٰه إلا الله، فإِذا قالوها عصموا منِّي دماءَهم وأَموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»[٢]. ومن قال: المعنى حتى لا يكون شرك فالآية عنده يراد بها الخصوص فيمن لا تُقبل منه جزية، قال ابن سلام: وهي في مشركي العرب.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ أَي عن الكفر فإن الله بصير بعملهم مُجاز عليه، عنده ثوابه وجميل المقارضة عليه[٣]، وقرأَ يعقوب بن إسحق، وسلام بن سليمان: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بالتاءِ، أَي في قتالكم وجِدِّكم وجلادكم عن دينه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ الآية، معادل لقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾، والمعنى: فإن انتهوا عن الكفر فالله مجازيهم ـ أَو مجازيكم على قراءَة [تَعْلمُونَ] ـ، وإن تولوا فاعلموا أَن الله ينصركم عليهم، وهذا وعد محضٌ بالنصر والظفر، أَي: فَجِدُّوا.

والمولى ها هنا: المُوالي والمُعين. والمولى في اللغة على معانٍ هذا هو الذي يليق بهذا الموضع منها، والمولى الذي هو السيّد المقترن بالعبد يعمّ المؤمنين والمشركين.

---

(١) بمعنى: تجتمع، يقال: استَوسَقَ الشيءُ: اجتمع وانضم، واستوسق الأمرُ: انتظم، واستوسق له الأمرُ: أمْكَنَهُ أن يجمع السلطة والكلمة في يده.

(٢) الحديث متواتر، رواه عن أبي هريرة البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ورمز له السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه صحيح.

(٣) جاء في بعض النسخ «المعاوضة» بدلا من «المقارضة».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾.

موضع ﴿أَنَّ﴾ الثانية رفع، والتقدير: «فحكمه أنَّ»، فهي في موضع رفع خبر الابتداءِ، والغنيمة في اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسعْي، من ذلك قول الشاعر:

وَقَدْ طَوَّفْتُ فِي الآفَاقِ حتى ... رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالإِيابِ[1]

وقال آخر:

ومُطْعَمِ الغُنْمِ يومَ الغُنْمِ مُطْعَمُه ... أَنَّى توجَّه والمحْرُومُ مَحْرُومُ[2]

ومنه قول النبي ﷺ في الرهن: «له غُنْمه وعليه مخرجه»[3].

وقوله: «الصيام في الشتاءِ هو الغنيمة الباردة»[4]. فالشيءُ الذي يناله المسلمون من عدوهم بالسعي وإيجاف[5] الخيل والركاب: غنيمة، ولزم هذا الاسم هذا المعنى حتى صار عرفاً له.

والفيءُ مأخوذ من «فَاءَ يفيءُ» إذا رجع، وهو كلُّ ما دخل على المسلمين من غير

(١) قائل هذا البيت هو امرؤ القيس، وقد صار الشطر الثاني مثلاً يضرب عند القناعة بالسلامة. وطوَّف مبالغة في طاف بمعنى دار حول الشيء. والإياب: مصدر آب بمعنى: رجع.

(٢) المُطعم: المرزوق، يقال: فلان مُطْعَمٌ للصَّيد ومُطْعَم الصَّيْد إذا كان مرزوقاً منه، قال ذو الرمة:
* ومُطْعَمُ الصَّيْدِ هَبَّال لِبُغْيَتِهِ *
والمعنى: المرزوق بالخير مرزوق به حيث كان وأنَّى توَجَّه، والمحروم محروم مهما فعل.

(٣) هذا جزء في آخر حديث رواه في المُوطَّأ، وأوله: «لا يُغلق الرهن...»، وعند الزرقاني شارح الموطأ أن الحديث مرسل، وأن بعض الرواة زاد في آخره: «له غُنْمُه وعليه غُرْمه» واختلف في رفع هذه الزيادة، أو أنها من كلام ابن المسيَّب.

(٤) نصُّ الحديث كما رواه الترمذي عن عامر بن مسعود: «الغنيمةُ الباردة الصوم في الشتاء» ـ هذا ما أثبته السيوطي في «الجامع الصغير»، وجاء في لسان العرب: «وفي الحديث: الصوم في الشتاء الغنيمة الباردة» سماه غنيمة لما فيه من الأجر والثواب.

(٥) المراد: استعمال الخيل وحثُّها للحصول على الغنيمة، يقال: أوْجف دابته إذا حثَّها، والوجيف: ضرب سريع من السَّيْر.



حرب ولا إيجاف كَخَراج الأَرض ، وجزية الجماجم ، وخُمس الغنيمة ، ونحو هذا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والزكوات أَيضاً مالٌ على حِدَته ، أَحكامه منفردة دون أَحكام هذين ، قال سفيان الثوري ، وعطاءُ بن السائب : «الغنيمة : ما أُخذ عنْوة ، والفيءُ : ما أُخذ صُلْحاً» . وهذا قريب مما بيَّنَّاه . وقال قتادة : «الفيءُ والغنيمة شيءٌ واحِد فيهما الخمس ، وهذه الآية التي في الأَنفال ناسخة لقوله في سورة الحشر : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ﴾[1] وذلك أن تلك كانت الحُكْم أَولا ، ثم أعطى الله أَهلها الخمس فقط ، وجعل الأَربعة الأَخماس في المقاتلين» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قولٌ ضعيف نصَّ العلماءُ على ضعفه ، وأَن لا وجه له من جهات : منها أَن هذه السورة نزلت قبل سورة الحشر ، هذه ببدْرٍ ، وتلك في بني النَّضير وقرى عرينة . ولأَن الآيتين متَّفقتان وحكم الخمس وحكم تلك الآية واحد لأَنها نزلت في بني النَّضير حين جلوا وهربوا ، وأَهل فدك حين دعوا إلى صلح ونال المسلمون ما لهم دون إيجاف . وحكى ابن المنذر عن الشافعي أَن في الفيءِ الخمس ، وأَنه كان في قرى عرينة زمن النبي ﷺ ، وأَن أَربعة أَخماسها كان للرسول ﷺ خاصة دون المسلمين يضعها حيث يشاءُ ، وقال أَبو عُبَيدة : «هذه الآية ناسخة لقوله تعالى في أَول السورة : ﴿ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ ﴾ الآية ، ولم يخمس رسول الله ﷺ غنائم بدر فنسخ حُكمه في ترك التخميس بهذه الآية» .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويظهر من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه في البخاري : «كانت لي شارف من نصيبي من المغنم ببدر ، وشارف أَعطانيها رسول الله ﷺ من الخمس حينئذ»[2] أَن

---

(١) الحشر : ٧ .

(٢) الحديث مروي في البخاري ، وقد استشهد به ابن عطية في أكثر من مناسبة ، والنص في البخاري يؤكد أن ما أخذه عليّ من المغنم كان يوم بدر ، إذ جاء فيه أن حُسَين بن علي أخبره أن علياً قال : «كانت لي شارف من نصيبي من المَغْنم يوم بدر ، وكان النبي ﷺ أعطاني مما أفاءَ الله من الخمس يومئذ» إلى آخر الحديث وهو في غزوة بدر . ولفظ الحديث يؤكد أن النبي ﷺ خمّس الغنائم يومئذ ، وأن الشارف التي=



غنيمة بدر خمست ، فإن كان ذلك فسد قول أَبي عُبَيْدَة ، ويحتمل أن يكون الخمس الذي ذكره علي بن أَبي طالب من إحدى الغزوات التي كانت بين بدر وأُحد ، فقد كانت غزوة بني سليم ، وغزوة السويق ، وغزوة ذي أَمَر ، وغزوة بُحْران ، ولم يحفظ فيها قتال ولكن يمكن أن غنمت غنائم. والله أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ ظاهره عام ومعناه الخصوص ، فأَما النَّاضُّ[1] والمتاع والأَطفال والنساءُ وما لا يؤكل لحمه من الحيوان ويصح تملُّكُه فليس للإمام في جميع ذلك ما كثر منه وما قلَّ كالخيط والمخيط إلا أَن يأْخذ الخمس ويقسم الباقي في أَهل الجيش ، وأَما الأَرض فقال فيها مالك: يُقَسِّمها الإمام إن رأَى ذلك صواباً كما فعل النبي ﷺ بِخَيْبر ، ولا يُقَسِّمها إن أَدّاه اجتهاده إلى ذلك كما فعل عمر رضي الله عنه بأَرض مصر وسواد الكوفة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لأَن فعل عمر رضي الله عنه ليس بمخالف لفعل النبي ﷺ ، إذ ليست النازلة واحدة بحسب قرائن الوقْتَيْن وحاجة الصحابة وقلَّتهم ، وهذا كله انعكس في زمان عمر رضي الله عنه ، وأَما الرجال ومن شارف البلوغ من الصبيان فالإمامُ ـ عند مالك وجمهور العلماء ـ مُخَيَّر فيهم على خمسة أوجه ، منها: القتل ، وهو مُستحسن في أَهل الشجاعة والنكاية ، ومنها: الفداءُ ، وهو مُستحسن في ذي المنصب الذي ليس بشجاع ولا يُخاف منه رأْي ولا مكيدة لانتفاع المسلمين بالمال الذي يؤخذ منه ، ومنها: المَنُّ ، وهو مُستحسن فيمن يرجى أَن يحنو على أَسرى المسلمين ونحو ذلك من القرائن ، ومنها الاسترقاق ، ومنها: ضرب الجزية والترك في الذِّمَّة. وأَما الطعام والغنم ونحوهما مما يؤكل فهو مباح في بلد العدو يأْكله الناس فما بقي كان في المغنم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَما أَربعة أَخماس ما غُنم فيقسمه الإمام على الجيش ، ولا يختص بهذه الآية ذكر

= أخذها عليّ كانت من المغنم يوم بدر. ولذلك فإن الاحتمال الثاني وهو أن الخمس الذي ذكره علي كان من إحدى الغزوات بين بدر وأُحد غير وارد. والله أعلم.

(١) النَّاضُّ: الماء الذي يخرج من الحجر قليلاً قليلاً ، أو يرشح من رمل تحته أرض صلبة كلما نضَّ منه شيءٌ أي رشح واجتمع أُخذ للانتفاع به.



القسمة فأَنا أَختصره هنا ، وأَما الخمس فاختلف العلماءُ فيه.

قال مالك رحمه الله: الرأْي فيه للإمام يلحقه ببيْت الفيءِ ، ويعطي من ذلك البيت لقرابة رسول الله ﷺ ما رآه ، كما يعطي منه اليتامى والمساكين وغيرهم ، وإنما ذكر من ذكر على وجه التنبيه عليهم لأنهم من أَهم من يدفع إليه. قال الزجاج محتجاً لمالك: قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ ﴾(١) ، وللإمام بإجماع أَن ينفق في غير هذه الأَصناف إِذا رأَى ذلك.

وقالت فرقة: كان الخمس يُقَسّم على ستة أَقسام: قسم لله وهو مردود على فقراءِ المسلمين أَو على بيت الله ، وقسم للنبي ﷺ ، وقسم لقرابته ، وقسم لسائر من سمي ، حكى القول منذرُ بنُ سعيد ، ورُدّ عليه ، قال أَبو العالية الرياحي: كان النبي ﷺ يقبض من خمس الغنيمة قُبْضَة(٢) فيجعلها للكعبة ، فذلك لله ، ثم يقسم الباقي على خمسة ، قسم له ، وقسم لسائر من سمي.

وقال الحسن بن محمد ، وابن عباس ، وإبراهيم النَّخَعي ، وقتادة ، والشافعي: قوله تعالى: ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾ استفتاح كلام كما يقول الرجل لعبده: «قد أَعتقك الله وأعتقتك» على جهة التبرُّك وتفخيم الأمر ، والدنيا كلها لله ، وقسْم الله وقسْم الرسول واحد ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقسم الخمس على خمسة أَقسام كما تقدم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً فيما روى عنه الطبري: الخمس مقسوم على أَربعة أَقسام ، وسهم الرسول ﷺ لقرابته وليس لله ولا للرسول شيءٌ.

وقالت فرقة: قسم الرسول ﷺ بعد موته مردود على أَهل الخمس ، القرابة وغيرها. وقالت فرقة: هو مردودٌ على الجيش أَصحاب الأَربعة الأَخماس ، وقال علي ابن أَبي طالب رضي الله عنه: يلي الإمام منهم سهم الله ورسوله. وقالت فرقة: هو

---

(١) البقرة: ٢١٥.

(٢) القُبْضَة بضم القاف: ما قبضت عليه باليد من شيءٍ ، وهو المراد ها هنا ، وأمّا بالفتح فالمرادُ المَرَّة من القَبْض ، وقد يكون المعنى مع الفتح هو نفس المعنى مع الضم ، وفهم بعض اللغويين هذا من قوله تعالى: ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ ، وقد قرئت الآية بالضم وبالفتح ، وكذلك قرىء بالضم والفتح قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ قال ابن الأثير في النهاية: «في حديث حنين: فأخذ قُبْضَة من التراب ، وهو بمعنى المقبوض كالغُرْفة بمعنى المغروف».



موقوف لشراءِ العُدَد والكُرَاع[١] في سبيل الله.

وقال إبراهيم النَّخَعي: وهذا الذي اختاره أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فيه.

وقال أَصحاب الرأي: الخمس بعد النبي ﷺ مقسوم ثلاثة أَقسام، قسم لليتامى، وقسم للمساكين، وقسم لابن السبيل، ورسول الله ﷺ لم يورث فسقط سهمه وسهم ذوي القُرْبى، وحجتهم فيه منع أَبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم لذوي القربى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولم يثبت المنع، بل عورض بنو هاشم بأَن قريشاً قُرْبى، وقيل: لم يكن في مدة أَبي بكر رضي الله عنه مغْنم.

وقال الشافعي: يعطى أَهل الخمس منه ولابُدّ، ويُفَضِّل الإِمام أَهل الحاجة ولكن لا يحرم صنفاً منهم حرماناً تاماً، وقول مالك رحمه الله: إن للإِمام أَن يعطي الأَحوج وإِن حرم الغير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وكان رسول الله ﷺ مخصوصاً من الغنيمة بثلاثة أَشياءَ، كان له خمس الخمس، وكان له سهم رجل في سائر الأَربعة الأَخماس، وكان له صفيٌّ يأْخذه قبل القسمة[٢]، دابة أَو سيف أَو جارية، ولا صفيَّ لأَحدٍ بعده بإجماعٍ إلا ما قال أَبو ثور من أَن الصَّفيّ باق للإمام، وهو قول معدود في شواذ الأَقوال.

وذو القربى: قرابة رسول الله ﷺ، فقال علي بن الحسين، وعبد الله بن الحسن، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم: «هم بنو هاشم فقط»، قال مجاهد: كان آل محمد ﷺ لا تحل لهم الصدقة فجُعل لهم خمس الخمس، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولكن أَبَى ذلك علينا قَوْمُنا وقالوا: «قريش كلها قربى». وقال الشافعي رحمه الله: «هم بنو هاشم وبنو المطلب فقط». وقال رسول الله ﷺ لعثمان بن عفان، وجبير بن مطعم في وقت قسْمه سهم ذوي القربى من خيبر على بني هاشم وبني

(١) الكُرَاعُ: اسم يجمع الخيل والسلاح. «المعجم الوسيط».

(٢) الصَّفيُّ: ما يأخذه رئيس الجيش ويختاره لنفسه من الغنيمة قبل القسمة، وقد سبقت الإشارة إلى معناها عند تفسير أول آية من هذه السورة (الأنفال).



المطلب: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيءٌ واحد، ما فارقونا في جاهلية ولا في إسلام»(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كانوا مع بني هاشم في الشِّعب.

وقالت فرقة: قريش كلها قربى، وروي عن علي بن الحسين، وعبد الله بن محمد ابن علي رضي الله عنهم أنهما قالا: «الآية كلها في قريش»، والمراد يتامى قريش ومساكينها.

وقالت فرقة: سهم القرابة بعد النبي ﷺ موقوف على قرابته، وقد بعثه إليهم عُمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه، إلى بني هاشم وبني المطلب فقط. وقالت فرقة: هو لقرابة الإمام القائم بالأمر، وقال قتادة: كان سهم ذوي القربى طُعْمة لرسول الله ﷺ ما كان حياً، فلما توفي جُعل لوَلي الأمر بعده، وقاله الحسن بن أَبي الحسن البصري. وحكى الطبري أَيضاً عن الحسن أَنه قال: اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة النبي ﷺ، فقال قوم: سهم النبي ﷺ للخليفة، وقال قوم: سهم النبي ﷺ لقرابة النبي ﷺ، وقال قوم: سهم القرابة لقرابة الخليفة، فاجتمع رأْيهم على أَن يجعلوا هذيْن السهمين في الخيل والعُدّة، فكان على ذلك مدة أَبي بكر رضي الله عنه. قال غير الحسن: وعمر.

واليتامى: الذين فقدوا آباءَهم من الصبيان، واليُتْمُ في بني آدم من قِبَل الآباءِ، وفي البهائم مِن قبل الأُمهات. والمسكين: الذين لا شيءَ لهم، وهو مأْخوذ من السكون وقلة الحراك. وابن السبيل: الرجل المجتاز الذي قد احتاج في سفر، وسواءٌ كان غنياً في بلده أَو فقيراً فإِنه ابن السبيل، يُسَمَّى بذلك إِما لأَن السبيل تبرزه فكأَنها تلده، وإِما لملازمته السبيل كما قالوا: ابن ماءٍ وأَخو سفر، ومنه قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة ابن زنى»، وقد تقدم(٢).

---

(١) أخرجه البخاري، والنسائي، قال البخاري: قال الليث: حدثني يونس، وزاد: (ولم يقسم النبي ﷺ لبني عبد شمس ولا لبني نوفل شيئاً)، قال ابن إسحق: «وعبد شمس، وهاشم، والمطَّلب إخوة لأم، وأمهم عاتكة بنت مرة، وكان نوفل أخاهم لأبيهم»، وقال النسائي: «وأسهم النبي ﷺ لذوي القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطَّلب، بينهم الغني والفقير، وقد قيل: إنه للفقير منهم دون الغني، كاليتامى وابن السبيل، وهو أشبه القولين بالصواب. والله أعلم».

(٢) تقدم الكلام عن ابن الزنى عند تفسير الآية ١٧٩ من سورة الأعراف، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا=



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد اقتضبت فِقْه هذه الآية حسب الاختصار، والله المستعان.

و﴿مَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿ما غنمتم﴾ بمعنى الذي، وفي قوله: ﴿غَنِمْتُم﴾ ضمير يعود عليها، وحكي عن الفراء أنه جوز أن تكون [ما] شرطية بتقدير: «أنه ما»، وحذف هذا الضمير لا يجوز عند سيبويه إلاَّ في الشعر، ومنه:

إِنَّ مَـنْ يَـدْخُـلِ الكَنِيسَـةَ يَـوْمـاً . . . .[1]

وقرأ الجمهور: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ﴾[2] بفتح الهمزة، وقرأ الجعفي عن أبي بكر عن عاصم، وحسين عن أبي عمرو: [فَإِنَّ] بكسر الهمزة، وقرأ الحسن: [خُمْسه] بسكون الميم.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ الآية، قال الزجاج عن فرقة: المعنى: فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم، فـ[إنْ] متعلقة بهذا الوعد، وقال أيضاً عن فرقة: إنها متعلقة بقوله: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الصحيح لأن قوله: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ يتضمن الأمر بانقياد وتسليم لأمر الله في الغنائم، فعلق [إنْ] بقوله: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ على هذا المعنى، أي: إن كنتم مؤمنين بالله

= ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ لكن نص الحديث هناك يختلف عن نصه هنا.

(١) في خزانة الأدب، وفي المغني لابن هشام أن البيت للأخطل، وهو بتمامه:

إِنَّ مَـنْ يَـدْخُـلِ الكَنِيسَـةَ يَـوْمـاً ... يَلْـقَ فيهَـا جـآذِراً وظِبَـاءَ

وهو شاهد على أن اسم (إنَّ) ضمير شأن والجملة شرطية بعدها خبرها، ودليل ذلك أن (مَنْ) جزمت الفعلين، والشرط له الصدارة في جملته فلا يعمل فيه ما قبله. قال ابن السيد في شرح أبيات الجمل: «هذا البيت للأخطل، وكان نصرانياً فلذلك ذكر الكنيسة»، وقال ابن هشام اللَّخْميّ: «لم أجده في ديوان الأخطل» وفعلا بحثت في الديوان من رواية السكري فلم أجده، وقد نسبه السيوطي في شواهد المغنى للأخطل ثم قال: وبعده:

مَـالَـتِ النَّفْـسُ بَعْـدَهَـا إذ رَأَتْهَـا ... فَهْـيَ ريـحٌ وصـارَ جِسْمـي هَبَـاءَ

(٢) من اللطائف التي ذكرها المفسرون في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ الإشارة إلى هذا التركيب الذي أفرد كينونة الخمس لله، وفصل بين اسمه تعالى وبين المعاطيف بقوله: (خُمُسه) ليظهر استقلاله وتفرده تعالى بكينونة الخمس له، ثم أشرك المعاطيف معه على سبيل التَّبعية له، ولم يأت التركيب «فإن لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل خمسه».



فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة. وقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ عطف على قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾، والمشار إليه بـ [ما] هو النصر والظهور الذي أَنزله الله تبارك وتعالى يوم بدر على نبيّه وأَصحابه، أَي: إن كنتم مؤمنين بالله وبهذه الآيات والعظائم الباهرة التي أُنزلت يوم بدر، ويحتمل أَن تكون الإشارة إلى قرآن نزل يوم بدر أَو في قصة يوم بدر على تكرُّه في هذا التأويل الأَخير.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن يكون المعنى: واعلموا أَنما غَنِمْتم يوم الفرقان يوم التقى الجمعان فإِن خُمسه لكذا أَو كذا إن كُنْتم آمَنْتم، أَي: فانقادوا لذلك وسلموا، وهذا تأْويل حسنٌ في المعنى. ويعترض فيه الفصل بين الظرف وما تعلق به بهذه الجملة الكثيرة من الكلام.

و﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ معناه: يوم الفرق بين الحق والباطل بإِعزاز الإسلام وإذلال الشِّرك. والفُرقان: مصدر من فَرَق يفْرق. والجمعان: يريد جمع المسلمين وجمع الكفار، وهو يوم الوقعة التي قُتل فيها صناديد قريش ببدر، ولا خلاف في ذلك، وعليه نصَّ ابن عباس، ومجاهد، ومقسم، والحسن بن علي، وقتادة، وغيرهم، وكانت يوم الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة، هذا قول جمهور الناس، وقال أَبو صالح: لِتِسع عشرة، وشك في ذلك عروة بن الزبير وقال: لتسع عشرة أَو لسبع عشرة، والصحيح ما عليه الجمهور.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعضد أَن قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يراد به النصر والظفر، أَي الآيات والعظائم من غلبة القليل الكثير، وذلك بقدرة الله تعالى الذي هو على كل شيءٍ قدير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

العامل في ﴿إِذْ﴾ قوله: ﴿التقى﴾، والعدوة: شفير الوادي وحَرْفه الذي يتعذر المشيُ فيه، بمنزلة رجا البئر، لأَنها عدَت ما في الوادي من ماءٍ ونحوه أَن يتجاوز



الوادي، أَي منعته، ومنه قول الشاعر:

عَدتْني عَنْ زيارَتِكَ العَوَادي ... وحالت دُونها حربٌ زَبُون

ولأنها ما عَدَا الوادي، أَي جاوزه، وتُسمى الضِّفَّة والفضاءُ المساير للوادي عُدْوة للمجاورة، وهذه هي العُدْوة التي في الآية(١).

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [بِالْعُدْوَة] بضم العين، وقرأ ابن كثير، وأَبو عمرو: [بِالْعِدْوة] بكسر العيْن، وهما لغتان، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن، وقتادة، وعمرو: [بِالْعَدْوَة] بفتح العين، ويمكن أَن تكون تسمية بالمصدر، قال أَبو الفتح: الذي في هذا أَنها لغة ثالثة كقولهم في اللبن: رُغْوة ورِغْوة ورَغْوَة، وروى الكسائي: كلَّمته بحَضرة فلانٍ وحُضْرته وحِضرته، إلى سائر نظائر ذَكَر أَبو الفتح كثيراً منها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْقُصْوَىٰ﴾ إنما هو بالإضافة إلى المدينة، وفي حرف ابن مسعود: «إذ أَنْتم بالعُدوة العُلْيا وهمْ بالعُدوَة السفلى»، ووادي بدر آخذ بين الشرق والقبلة منحرف إلى البحر الذي هو قريب من ذلك الصِّقع، والمدينة من الوادي من موضع الوقعة منه في الشرق، وبينهما مرحلتان، حدَّثني أَبي أَنه رأَى هذه المواضع على ما وصفت. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «بدرٌ بين مكة والمدينة»، والدُّنيا من الدُّنوّ، والقُصوى من القُصو وهو البعد، وكان القياس أَن تكون القُصْيا لكنه من الشاذ، وقال الخليل في «العَيْن»: «شذَّت لفظتان هما القصوى والفتوى، وكان القياس فيهما بالياءِ كالدنيا والعليا»(٢).

---

(١) جاء في (اللسان ـ عدا): «العدى والعُدْوَة والعِدْوة والعَدْوة، كلُّه: شاطىء الوادي»، ونقل عن الفراء: «العُدْوة: شاطىء الوادي، الدُّنيا مما يلي المدينة، والقصوى مما يلي مكة» ونقل عن ابن السكّيت: «عُدْوة الوادي وعِدْوته: جانبه وحافته، والجمع عِدى وعُدى».
هذا وقد جاء بالكسر قول الراعي:
وَعَيْنَانِ حُمْرٌ مَآقِيهِمَا ... كما نَظَرَ العِدْوَةَ الْجُؤْذَرُ
وكذلك بيت أوس بن حجر:
وفارسٍ لو تَحُلُّ الخيلُ عِدْوَتَهُ ... ولَّوْا سراعاً وما هَمُّوا بإقْبَالِ

(٢) معظم علماءِ التصريف فصّلوا في (الفُعْلى) مما لامُه واوٌ فقالوا: إن كان اسماً أُبدلت الواو ياءً ثم يمثلون بما هو صفة نحو الدنيا والعليا والقصيا، وإن كان صفة أُقِرّت نحو الحلوى تأنيث الأحْلى، ولهذا=

﴿وَٱلرَّكۡبُ﴾ بإجماع من المفسرين: عِيرُ أَبي سفيان، ولا يقال «ركْبٌ» إلا لركاب الإبل، وهو من أَسماءِ الجمع، وقد يجمع «راكب» عليه كصاحب وصَحْبٍ وتاجر وتَجْر، ولا يقال «ركْبٌ» لما كَثُر جداً من الجموع. وقال القتبي: «الركْبُ: العشرة ونحوها»، وهذا غير جيّد لأَن النبي ﷺ قد قال: «والثلاثة ركْبٌ»[١]. وقوله: ﴿أَسۡفَلَ﴾ في موضع خفض تقديره: «في مكان أسفل»، كذا قال سيبويه، قال أَبو حاتم: «نصب أَسفل على الظرف»، ويجوز «الركب أسفل» على معنى: وموضع الركب أَسفل، أَو الركب مستقر أَسفل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكان الركب ومُدَبّر أَمره أبو سفيان قد نكَّب عن بدر حينَ نَذِرَ[٢] بالنبي ﷺ، وأَخَذ سِيفَ الْبحر[٣] فهو أَسفل بالإضافة إلى أَعلى الوادي من حيث يأْتي، وقال مجاهد في كتاب الطبري: أَقبل أَبوَ سفيان وأَصحابه بالشام تجاراً لم يشعروا بأَصحاب بدر، ولم يشعر أَصحاب (محمد ﷺ) بكفار قريش، ولا كفار قريش بمحمد ﷺ وأَصحابه حتى التقوا على الماءِ ببدر، من يسقي لهم كلهم، فاقتتلوا فغلبهم أصحاب محمد ﷺ فأَسروهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا تعقب، وكان من هذه الفرق شعور بين من الوقوف على القصة بكمالها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾، قال الطبري وغيره: لو تواعدتم على الاجتماع ثم علمتم كثرتهم وقِلَّتكم لخالفتم ولم تجتمعوا معهم، وقال

= قالوا: شذ القصوى بالواو وهي لغة الحجاز، والقصيا لغة تميم. وذهب بعض النحويين إلى أنه إن كان اسماً أقرت الواو نحو حزوى، وإن كان صفة أُبدلت نحو الدنيا والعليا وشذ إقرارها نحو الحلوى. راجع «البحر المحيط».

(١) الحديث كاملاً كما رواه في «الجامع الصغير»: «الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب»، أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه، وأبو داود، والترمذي عن ابن عمرو.

(٢) نذر بكسر الذال: عَلِم، يقال: نذِر بالشيءِ نَذْراً ونِذَارةً: عَلِمه فحذِرَهُ، ويقال: نَذَروا بالعدوِّ. (المعجم الوسيط).

(٣) السِّيف: ساحل البحر، وجمعه: أسياف، وفي حديث جابر: (فأتينا سِيفَ البحر) أي ساحله. (اللسان).

المهدوي: المعنى: أي لاختلفتم بالقواطع والعوارض القاطعة بالناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا أَنْبَل وأَصَح[١] وإيضاحُه أن المقصد من الآية تبْيينُ نعمة الله تبارك وتعالى وقدرته في قصة بدر وتيسيره ما يسَّر من ذلك، والمعنى: إذ هيَّأ الله لكم هذه الحال، ولو تواعدتم لاختلفتم إلا مع تيسير الله الذي تمَّم ذلك، وهذا كما تقول لصاحبك في أَمر سنَّاهُ الله[٢] دون تعب كثير: لو بَنَيْنا على هذا وسعينا فيه لم يتم هكذا.

ثم بين تعالى أَن ذلك كان بلطف الله عزَّ وجلَّ ليقضي أَمراً، أي لِيُنْفِذَ ويُظهر أَمراً قد قدَّره في الأَزَل مفعولا لكم بشرط وجودكم في وقت وجودكم، وذلك كله معلوم عنده.

وقوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، قال الطبري: المعنى: لِيُقْتَل من قُتل من كفار قريش وغيرهم ببيان من الله وإعذار بالرسالة، ويحيا أيضاً ويعيش من عاش عن بيان منه أيضاً وإعذار لا حجة لأَحد عليه، فالهلاك والحياة ـ على هذا التأْويل ـ حقيقتان.

وقال ابن إسحق وغيره: معنى ﴿لِيَهْلِكَ﴾ أي لِيَكْفُر، ﴿ويحيا﴾ أي ليُؤمن، فالهلاك والحياة ـ على هذا ـ مستعارتان، والمعنى أَن الله تعالى جعل قصة بدرٍ عبرة وآية ليؤمن من آمن عن وضوح وبيان، ويكفر أيضاً من كفر عن مثل ذلك.

وقرأَ الناس: ﴿لِيَهْلِكَ﴾ بكسر اللام الثانية، وقرأَ الأَعمش: [ليهلَك] بفتح اللام، ورواها عصمة عن أبي بكر عن عاصم.

والبيِّنة صفة، أَي قضية بيِّنة، واللام الأُولى في قوله: ﴿لِيَهْلِكَ﴾ ردٌّ على اللام في قوله تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ﴾.

---

(١) يعني أنه أنبل من قول الطبري وأشرف، وهو الصواب لما ذكره بعد ذلك، وقوله: «وإيضاحه» يعني: وتوضيح النبل والصحة... الخ.

(٢) سَنَّاه: أي سهلَّه ويَسَّره، يقال: سنَّيْتُ الشيءَ إذا فتحته ويسَّرته، وتسنَّى لي الشيءُ أي تَيَسَّر لي وتأتَّى، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وأَعْلَمُ علْماً ليس بالظَّنِّ أَنَّه ... إذا اللهُ سَنَّى عَقْدَ شَيءٍ تَيَسَّرا

وقد نقل أبو حيان في البحر عبارة ابن عطية هكذا: «في أمر شاءَه الله» من المشيئة.



وقرأ ابن كثير ـ في رواية قنبل ـ وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم ـ في رواية حفص ـ: ﴿مَنْ حَيَّ﴾ بياءٍ واحدة مشددة، وقرأ نافع، وابن كثير ـ في رواية البزيّ ـ وعاصمٌ ـ في رواية أبي بكر ـ: [منْ حَيِيَ] بإظهار الياءَين وكسر الأولى وفتح الثانية، فمن قرأ ﴿حَيَّ﴾: فلأن الياءَ قد لزمتها الحركة فصار الفعل بلزوم الحركة لها مشبهاً بالصحيح مثل عضَّ وشَمَّ ونحوه، ألا ترى أن حذف الياءِ من (جَوارٍ) في الجرّ والرفع لا يطّرِدُ في حال النصب إذ قلت: «رأيتُ جَواريَ» لمشابهتها بالحركة سائر الحروف الصحاح، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾[1]، وعلى نحو [حَيَّ] جاء قول الشاعر:

عَيُّوا بِأَمْرِهِمُ كما ... عَيَّتْ بِبَيْضَتِهَا الحَمامَهْ[2]

ومنه قول لبيد:

سَألَتْني جارَتي عنْ أَمَتي ... وإذا مَا عَيَّ ذُو اللُّبِّ سأَلْ[3]

وقول المتلَمِّس:

فهذَا أَوَانُ العِرْض حَيٌّ ذُبَابُهُ ... زَنَابيرُهُ والأَزْرقُ المُتَلَمِّس[4]

ويروى: جُنَّ ذُبابُهُ[5].

---

(١) القيامة: ٢٦.

(٢) هذا البيت للشاعر الجاهلي المعروف عَبيد بن الأبرص، وهو من قصيدة قالها بعد أن حبسه حُجْر الكندي والد امرىء القيس هو وأكثر قومه بني أسد حين امتنعوا عن دفع الجزية له في قصة طويلة عرف فيها بنو أسد بأنهم «عبيد العصا» لأن حُجْرا كان يقتلهم بالعصا.

والقصيدة تتضمن مفاخر بني أسد، ورواية البيت في الديوان تؤكد ما أشرنا إليه، فلفظه فيه:

بَرِمَتْ بَنُو أسَدٍ كَما ... بَرِمَتْ بِبَيْضَتِهَا الحَمَامَهْ

ورواية اللسان هي رواية ابن عطية هنا، وهي شاهد على أن (عَيَّ) تأتي مشددة الياءِ مثل (حَيَّ).

(٣) البيت غير موجود في ديوان لبيد، بل هو للنابغة الجعدي ضمن قصيدة مطلعها:

لمن الدار كأنضاءِ الخلل ... عهدها من حِقب العيش الأُول

(٤) المتَلَمِّس هو جرير بن عبد المسيح الضُّبَيْعي، وبيتُه هذا من قصيدة يتحدث فيها عن إبائه ويسوق فيها الكثير من الحكمة، والعِرْض: وادٍ في اليمامة، وحَيٌّ ذبابة أي عاش فيه بالخصب والحياة. و(زنابيرهُ) بدل من (ذبابُه)، والأزرقُ المتلَمِّس: نوع آخر من الذباب أخضر اللون كبير الحجم، يقول مخاطباً النعمان: هذا موسم ذلك الوادي المسمَّى بالعِرْض وقد حامت فيه أنواع مختلفة وذلك دليل على خصبه، وقد سُمّي المتَلَمِّسَ لقوله هذا.

(٥) في بعض النسخ: دقَّ ذبابُه.



قال أبو عليٍّ وغيره: هذا أنَّ كل موضع تلزمُ الحركةُ فيه ياءً مستقبلة[١] فالإدغام في ماضيه جائز، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[٢] لا يجوز الإدغام فيه لأن حركة النصب غير لازمة؟ ألا ترى أنها تزول في الرفع وتذهب في الجزم؟ ولا يُلتفت إلى ما أنشد بعضهم لأنه بيت مجهول:

وكــأنَّهــا بيْــنَ النِّســاءِ سبيكَــةٌ ... تَمْشِــي لِسُــدَّةِ بَيْتِهَــا فَتُعِــيّ[٣]

قال أبو عليّ: وأما قراءة من قرأ: [حَيِيَ] فبيَّن ولم يُدْغِم، فإن سيبويه قال: أخبرنا بهذه اللغة يونس، قال: وسمعنا بعض العرب يقول: «أَحْيِيَاء»[٤]، قال أبو حاتم: القراءة إظهار الياءَين والإدغام حسَنٌ، فاقرأ كيف تعلمت فإن اللغتين مشهورتان في كلام العرب، والخطُّ فيه ياءٌ واحدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذه اللفظة استوعب أبو عليّ القول فيما تصرف من (حيِيَ) كالحيّ الذي هو مصدر منه وغيره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

قال المهدوي: ﴿إِذْ﴾ نصب بتقدير: واذكر.

(١) هي الياءُ الثانية التي تأتي بعد الياءِ الأولى وتكون حركتها لازمة، وقد شرح ابن عطية الفرق بين الحركة اللازمة والحركة العارضة التي تزول بزوال العامل.

(٢) القيامة: ٤٠.

(٣) ينسب هذا البيت إلى الحطيئة مع أنه غير موجود في ديوانه، والسبيكة: القطعة من الذهب أو الفضة الخالصة من الخبث المصبوبة في قالب على صور معينة، والكلام هنا على التشبيه، والسدة: باب الدار، أو الظُّلَّة بباب الدار، أو السَّاحة بين يدي الباب، وقد جاء (تعيّ) بالإدغام مع أنَّ حركة الياء الثانية غير لازمة.

(٤) على وزن أغنياء.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أو بدل من [إذْ] المتقدمة، وهو أحسن.

وتظاهرت الروايات أن هذه الآية نزلت في رؤيا رآها رسول الله ﷺ، رأى فيها عدد الكفار قليلاً فأخبر بذلك أصحابه فقويت نفوسهم، وحرَصوا على اللقاءِ[1]، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿فِي مَنَامِكَ﴾، أي في نومك، قاله مجاهد وغيره.

وروى عن الحسن أن معنى قوله: ﴿فِي مَنَامِكَ﴾ أي في عينك إذ هي موضع النوم، وعلى هذا التأويل تكون الرؤية في اليقظة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا القول ضعيف، وعليه فسّر النقاش وذكره عن المازني.

والضمير على التأويلين، من قوله: ﴿يُرِيكَهُمُ﴾ عائد على الكفار من أهل مكة، ومما يضعف ما رُوي عن الحسن أن معنى هذه الآية يتكرر في التي بعدها لأن النبي ﷺ مخاطب في الثانية أيضاً، وقد تظاهرت الرواية أن النبي ﷺ انتبه وقال لأصحابه: (أَبشروا فلقد نظرت إلى مصارع القوم) ونحو هذا، وقد كان علم أنهم ما بين التسعمائة إلى الألف، فكيف يراهم ببصره بخلاف ما علم؟ والظاهر أنه رآهم في نومه قليلاً قدْرُهم وحالهم وبأسهم مهزومين مصروعين، ويحتمل أنه رآهم قليلاً عددهم فكان تأويل رؤياه انهزامهم، فالقِلَّة والكثرة على الظاهر مستعارة في غير العدد، كما قالوا: «المرءُ كثير بأخيه» إلى غير ذلك من الأمثلة، والفَشَل: الخور عن الأمر إمّا بعد التلبُّس وإمّا بعد العزم على التلبسُّ. و﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ أي: لتخالفتم، و﴿فِي ٱلْأَمْرِ﴾ يريد: في اللقاءِ والحرب. و﴿سَلَّمَ﴾ لفظ يعُمّ كل متخوف اتصل بالأمر أو عرض في وجهه فسَلَّمَ الله من ذلك كلّه، وعبَّر بعض الناس بأن قال: سلَّم لكم أمركم ونحو هذا مما يندرج فيما ذكرناه، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بإيمانكم وكفركم فيجازي بحسب ذلك.

---

(١) أكمل أبو حيان في «البحر» الخبر: (وقال النبي ﷺ لأصحابه حين انتبه: أبْشروا، لقد نظرتُ إلى مصارع القوم) ـ هذا والمراد بالقِلَّة هنا قِلَّةُ القدر والنجدة وأنهم مهزومون، ولا يُحمل على قِلَّة العدد لأن رؤياه ﷺ حق، وقد كان علم أنهم ما بين تسعمائة وألف، فلا يمكن حمل ذلك على قِلَّة العدد.



وقرأ الجمهور من الناس: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ بشدّ النون ونصب المكتوبة[1]، وقرأت فرقة: ﴿ولكنِ اللهُ﴾ برفع المكتوبة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ الآية. ﴿وَإِذْ﴾ عطف على الأُولى، وهذه الرؤْية هي في اليقظة بإجماع، وهي الرؤْية التي كانت حين التقوا ووقعت العين على العين، والمعنى أن الله تعالى لِمَا أراد مِنْ إنْفاذ قضائه في نُصرة الإسلام وإظهاره قَلَّل كل طائفة في عيون الأُخرى فوقع الخلل في التخمين والحزْر[2] الذي يستعمله الناس في هذا التجَسُّس كل طائفة على الأُخرى وتتسبب أَسباب الحرب، ورُوي في هذا عن عبد الله بن مسعود أنه قال: لقد قلت ذلك اليوم لرجل إلى جنبي: أَتظنهم سبعين؟ قال: بل هم مائة.

قال: فلما هزمناهم أَسرنا منهم رجلاً فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويَرد على هذا المعنى في التقليل ما رُوي أَن رسول الله ﷺ حين سأَل عما ينحرون كلَّ يوم فأُخبر أنهم يوماً عشراً ويوماً تسعاً قال: (هم ما بين التسعمائة إلى الألف)، فإما أَن عبد الله ومن جرى مجراه لم يعلم بمقالة رسول الله ﷺ، وإما أن نفرض التقليل الذي في الآية تقليل القدر والمهابة والمنزلة من النجدة، وتقدم القول في مثل قوله تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، والأمر المفعول المذكور في الآيتين هو القصة بأَجمعها، وذهب بعض الناس إلى أَنهما المعنَيَيْن من معاني القصة، والعموم أَولى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ تنبيه على أَن الحوْل بأَجمعه لله تبارك وتعالى، وأَن كل أَمرٍ فَلَهُ وإِليه، وقرأَ الحسن، وعيسى بن عمر، والأَعمش: [ترْجِع] بفتح التاءِ وكسر الجيم، قال أَبو حاتم: وهي قراءَة عامة النَّاس، وقرأَ الأَعرج، وابن كثير، وأَبو عمرو، ونافع وغيرهم: [تُرْجَع] بضم التاءِ وفتح الجيم.

---

(١) المكتوبة: لفظ الجلالة (الله).

(٢) حَزْرُ الشيء: تقديرهُ بالتخمين.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾.

هذا أمر فيه داعية إلى النصر وسبب العزِّ، وهي وصية من الله متوجهة بسبب التقييد الذي في آية الضَّعْف[١]، ويجري مع معنى الآية قول النبي ﷺ: (لا تتمنَّوْا لقاءَ العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا)[٢].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهكذا ينبغي أن يكون المسلم في ولاية الإمارة والقضاء لا يطلب ولا يتمنى، فإن ابتُلِي صبر على إقامة الحق.

والفئة: الجماعة، أَصلها فِئَوة وهي من فَأَوْتُ أَي جمعت.

ثم أَمر الله تعالى بِإكثار ذكره هنالك إذ هو عصمة المستنجد ووَزَرُ[٣] المستعين، قال قتادة: افترض الله ذكره عند أَشغل ما يكونون، عند الضراب بالسيوف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا ذكر خفي لأَن رفع الأَصوات في موطن القتال رديءٌ مكروه إذا كان أَلفاظاً[٤]،

---

(١) هي قوله تعالى في الآية (٦٦) من هذه السورة: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ﴾.

(٢) قال ابن كثير في تفسيره: «ثبت في الصحيحيْن عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدوَّ حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: (يا أَيُّها الناس، لا تتمنَّوا لقاءَ العدوّ، وأسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)، ثم قام النبي ﷺ وقال: «اللّهم مُنْزلَ الكتاب، ومُجْري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم».
ثم نقل عن عبد الرزاق عن عبد الله بن عُمَر مثله. (تفسير ابن كثير ٣ ـ ٣٢٩، ٣٣٠).

(٣) الوَزَرُ: الملجأُ والمعتصم (المعجم الوسيط).

(٤) اضطربت الأصول في هذه الجملة ـ ففي بعضها: «إذا كان إلغاطا»، وفي بعضها: إذا كان الغابط واحداً، والصواب ما ذكره محقق القرطبي ناقلاً عن ابن عطية: «إذا كان الذكر واحداً، فأما إن كان من الجميع... الخ».



فأَما إن كان من الجميع عند الحملة فحسن فاتٌّ في عضد العدو ، وقال قيس بن عباد ، كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون الصوت عند ثلاث: عند قراءَة القرآن ، وعند الجنازة ، والقتال ، وقال النبي ﷺ: (اطلبوا إِجابة الدعاءِ عند القتال ، وإقامة الصلاة ، ونزول الغيث)(١) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يكره التَّلَثُّم عند القتال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولهذا ـ والله أعلم ـ تيمَّنَ(٢) المرابطون بطرحه عند القتال على ضنانتهم به.

و﴿ تُفۡلِحُونَ ﴾: تنالون بُغْيَتَكُم وتبلغون آمالكم ، وهذا مثل قول لبيد:

أَفْلح بما شِئْتَ فقَدْ يُبْلَغُ بالضَّعْفِ وقَدْ يُخْدَعُ الأَريبُ(٣)

وقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ الآية ، استمرار على الوصية والأَخذ على أَيديهم في اختلافهم في أَمر بدر وتنازعهم ، و﴿ فَتَفۡشَلُواْ ﴾ نصب بالفاءِ في جواب النَّهي ، قال أبو حاتم في كتاب «إبراهيم»: «فتَفْشِلُوا» بكسر الشين ، وهذا غير معروف(٤) ، وقرأَ جمهور الناس: ﴿ وَتَذۡهَبَ ﴾ بالتاءِ من فوق ونصب الباءِ ، وقرأَ هُبَيْرَة عن حفص عن عاصم: [وتَذْهَبْ] بالتاءِ وجزم الباءِ ، وقرأَ عيسى بن عمر: [ويَذْهَبْ] بالياءِ من تحت وبجزم [يَذْهَبْ] ، وقرأَ أَبو حيوة: [ويَذْهَبَ] بالياءِ من تحت ونصب الباءِ ، ورواها أَبان ، وعصمة عن عاصم. والجمهور على أَن الريح هنا مستعارة

---

(١) أخرج الحاكم وصححه عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثنتان لا تُرَدَّان ، الدعاءُ عند النداءِ وعند البأس ، حين يلحم بعضهم بعضاً». (الدر المنثور).

(٢) وأيضاً اضطربت الأصول في هذه الجملة ، ففي بعضها: «يتَسَنَّنُ» ، وفي بعضها «اسْتَنّ» ـ والتصويب عن القرطبي الذي قال: «والتصويب عن تفسيرابن عطية» ، والمراد أن المرابطين آثروا التبرك بترك اللثام عند القتال على شدة تمسكهم به.

(٣) المعروف أن البيت لعبيد بن الأبرص ، وهو من قصيدته المشهورة ـ على الرغم مما فيها من اضطراب فني ـ والتي يقول مطلعها:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحوبُ ... فالقُطَبِيَّاتُ ، فالذَّنُوبُ

وأَفْلح بما شِئْتَ: عِشْ به ، والأريب: العاقل ، ورواية الديوان: «فقد يدرك» ، ويروى: «بالنَّوْك» بدلاً من «بالضعف» والمعنى: عشْ كما تشاءُ فلربما نال الضعيف بضعفه ما لا يناله القوي بقوته ، هذا وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الأنعام: ٢٢].

(٤) جاء في «التاج»: «فشَل يفشُل ككتب يكتُب ، وبه قُرِىء [فَتَفْشُلُوا] ، وفشَل يفشِل كضَرب يضرِب ، وبه قرأ الحسن البصري ، وهما لغتان نقلهما الصاغاني ، ولهذا عقب أبو حيان في البحر على كلام أبي حاتم فقال: «وقال غيره: هي لغة».



والمراد بها النصر والقوة ، كما تقول: «الريح لفلان» إذا كان غالباً في أَمر ، ومن هذا المعنى قول الشاعر وهو عبيد بن الأَبرص:

كَمَا حَمَيْنَاك يَوْمَ النَّعْفِ مِنْ شَطِبٍ ... والفَضْلُ لِلْقَوْمِ مِنْ ريحٍ ومِنْ عَدَدِ(١)

وقال مجاهد: الريح: النصر والقوة ، وذهبت ريح أَصحاب محمد ﷺ حين نازعوه يوم أُحد ، وقال زيد بن علي: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ معناه: الرعب من قلوب عدوكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا حسن بشرط أَن يعلم العدوّ بالتنازع ، وإذا لم يعلم فالذاهب قوة المتنازعين فينهزمون ، وقال شاعر الأَنصار:

قَدْ عَوَّدَتْهُم ظُبَاهُم أَنْ تَكُونَ لَهُم ... ريحُ القِتَالِ وأَسْلابُ الَّذين لَقوا(٢)

ومن استعارة الريح قول الآخر:

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَاغْتَنِمْهَا ... فَإِنْ لِكُلِّ عَاصِفَةٍ سكُونُ(٣)

وهذا كثير مستعمل ، وقال ابن زيد وغيره: الريح على بابها ، وروي أَن النصر لم يكن قطُّ إلا بريح تهب فتضرب في وجوه الكفار ، واستند بعضهم في هذه المقالة إلى قوله ﷺ: (نُصِرتُ بالصَّبا)(٤) ، وقال الحكم: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ يعني الصَّبا إِذْ بها نصر محمد ﷺ وأُمته.

---

(١) شَطِب: اسم جَبَل بديار بني أسد ، وفي معجم ما استعجم للبكري: «بديار بني تميم» ، والنَّعْفُ: أسفل الجَبَل ، أو المكان المرتفع في اعتراض ، والفَضْلُ للقَوم: الريح معهم والعدد لهم ، ويروى البيت: «مِن صوْتٍ ومن غَرد» ويريد بالغرد الصوت ، والمعنى ـ على هذه الرواية الثانية ـ أن لهم صوتاً وجلبة يهزمون بها العدو.

(٢) الظُّبَةُ: حد السيف وما أشبهه ، والجمع: ظُباً وظُبات وظِبُون ، وريح القتال: النَّصر والغلبة فيه ، والأسلاب: جمع سَلَب وهو ما مع القتيل من مال وسلاح ودابة ، ولقوا: قابلوهم في الحرب ، والمعنى: النصر دائماً لهم.

(٣) يروى: «لِكُلِّ خافقة» بدلاً من «لِكُلِّ عاصفة» ، والقافية مرفوعة ، واسم (إن) هنا ضمير الشأن ، والخبر قوله: «لِكُلِّ خافقة سكون» ، وهذا تصحيح لمن روى البيت: «فَإِنَّ لكُل عاصفة سكوناً» بالنصب ، فالخطأ واضح ، والدليل أن مِنْ هذه القصيدة البيت المعروف:

ولا تغفـــل عـــن الإِحســـان فيهـــا ... فمـــا تَـــدْري السَّكـــونُ متـــى يكـــونُ

(٤) (نُصِرْت بالصَّبا وأُهلكت عادٌ بالدَّبُور) ، رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وهناك حديث آخر نصّه: «نُصرت بالصَّبا وكانت عذاباً على من كان قبلي» ، رواه الشافعي عن=

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا إنما كان في غزوة الخندق خاصة ، وقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ إلى آخر الآية تَتْميم في الوصية وعِدَةٌ مُؤنسة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ الآية.

آية تتضمن الطعن على المشار إليهم وهم كفار قريش ، وخُرّج ذلك على طريق النهي عن سلوك سبيلهم ، والإشارة هي إلى كفار قريش بإِجماع ، والبَطَر: الأَشَر وغَمْط النعمة والشغل بالمرح فيها عن شكرها ، والرِّياءُ: المباهاة والتصنع بما يراه غيرك ، وهو فِعَالٌ من: رَائَى يُرَائي ، سُهِّلت همزته ، وروي أَن أبا سفيان لما أَحسَّ أنه تجاوز بِعِيره الخوفَ من النبي ﷺ وأصحابه بعث إلى قريش فقال: «إن الله قد سلم عيركم التي خرجتم إلى نصرتها فارجعوا سالمين قد بلغتم مرادكم» ، فأَتى رأْي الجماعة على ذلك ، فقال أبو جهل: «والله لا نفعل حتى نأْتي بدراً ـ وكانت بدر سوقاً من أسواق العرب لها يوم موسم ـ فننحر عليها الإِبل ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، ويسمع بنا العرب ، ويهابنا الناس».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «اللَّهم ، إن قريشاً أقبلت بفخرها وخُيلائها تحادّك وتكذِّب رسولك ، اللَّهم ، فأَحِنْها الغداةَ»[1] ، وقال محمد بن كعب القرظي: خرجت قريش بالقيان والدفوف.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي غيرَهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لأَنهم أَحرى بذلك من أَن يقتصر صدهم على أنفسهم. وقوله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

= محمد بن عمر مرسلاً ، ذكر ذلك الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» ، ورمز إلى الحديث الأول بالصحة ، ورمز إلى الثاني بالضعف ، والصبَّا: ريح مَهَبُّها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار (مؤنث) ، والدبور: ريح تهب من المغرب وتقابل القبول وهي الصبَّا.

(١) هذا جزء من حديث أخرجه ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في الآية ، وليس فيه الجملة الأخيرة ، ومعنى: (فأَحِنْها الغداة): فاجعل حَيْنها وهلاكها غداً ، وتخريج الحديث عن (الدر المنثور).



مُحِيطٌ﴾ آية تتضمن الوعيد والتهديد لمن بقي من الكفار، ونفوذَ القَدَر فيمن مضى بالقتل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

التقدير: واذكروا إذْ، والضمير في ﴿لَهُمُ﴾ عائد على الكفار، والشيطان: إبليس نفسه. وحكى المهدوي وغيره أن التزيين في هذه الآية وما بعده من الأقوال هو بالوسوسة والمحادثة في النفوس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويضعف هذا القول أن قوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ ليس مما يلقى بالوسوسة. وقال الجمهور في ذلك بما رُوي وتظاهر أن إبليس جاءَ كفار قريش، ففي السير لابن هشام أنه جاءَهم بمكة، وفي غيرها أنه جاءَهم وهُمْ في طريقهم إلى بدر وقد لحقهم خوف من بني بكر وكنانة لحروب كانت بينهم، فجاءَهم إبليس في صورة سُراقة بن مالك بن جعشم وهو سيِّد من ساداتهم، وقال لهم: «إني جارٌ لكم، ولن تخافوا من قومي وهم لكم أعوان على مقصدكم، ولن يغلبكم أحدٌ»، فسُرّوا عند ذلك ومضوا لِطيَّتِهم[1]، وقال لهم: «أَنتم تقاتلون عن دين الآباءِ ولن تعدموا نصراً»، فروي أنه لما التقى الجمعان كانت يده في يد الحارث بن هشام، فلما رأى الملائكة نكص على عقبيه، فقال له الحارث: أَتفِرُّ يا سراقة؟ فلم يَلْو عليه[2]، ويروي أنه قال له ما تضمنت الآية، وروي أن عُمَيْر بن وهب ـ أَو الحارث بن هشام ـ قال له: أَين يا سراق؟ فلم يَلْو ودفع في صدر الحارث وذهب فوقعت الهزيمة[3]، فتُحُدِّث أن سراقة فرَّ بالناس فبلغ ذلك

(١) الطِّيَّةُ: النيَّة، والحاجة.

(٢) يقال: مرَّ لا يلوي على أحد: لا يُقيم عليه ولا ينتظره.

(٣) اضطربت العبارات في الأصول في هذه الجملة، والتصويب عن كتب السيرة، والمفسرين الذين يأخذون عن ابن عطية كالقرطبي وأبي حيان.



سراقة بن مالك فأتى مكة فقال لهم: «والله ما علمت بشيءٍ من أمركم حتى بلغتني هزيمتكم، ولا رأيتكم ولا كنت معكم»، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: جاءَ إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه، رأيته في صورة رجل من بني مدلج، فقال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ الآية.

و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف والعامل فيه معنى نفي الغلبة، ويحتمل أن يكون العامل متعلق ﴿لَكُمُ﴾، وممتنع أن يعمل [غَالِبٌ] لأنه كان يلزم أن يكون: (لا غالبا)[١].

وقوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ معناه: فأنتم في ذمتي وحمايتي.

و﴿تَرَآءَتِ﴾: تفاعلت من الرؤية، أي رأى هؤلاء هؤلاءِ، وقرأ الأعمش، وعيسى بن عمر: [تَرَأَتْ] مقصورة، وحكى أبو حاتم عن الأعمش أنه أمال والراءُ مرقَّقة ثم رجع عن ذلك.

وقوله: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ معناه: رجع من حيث جاءَ، وأصل النكوص في اللغة: الرجوع القهقرى، قال زهير:

هُمْ يَضْرِبُون حبيكَ الْبَيْض إذْ لَحِقُوا ... لا ينكِصُونَ إذا ما اسْتُلْحِموا وحَمُوا[٢]

كذا أنشد الطبري، وفي رواية الأصمعي: استلأموا، وبذلك فسر الطبري هذه الآية، وفي ذلك بُعْد، وإنما رجوعه في هذه الآية مُشَبَّه بالنكوص الحقيقي، وقال اللغويون: النكوصُ: الإحجام عن الشيء، يقال: أراد أمراً ثم نكص عنه، وقال تأبَّطَ شرًّا:

ليس النُّكُوصُ على الأَدْبارِ مكرُمَةً ... إنَّ المكارمَ إقدامٌ على الأَسَلِ[٣]

---

(١) لأنه يكون اسم (لا) مطولاً، والمطوَّل يعرب ولا يبنى.

(٢) البيت في الديوان، وهو من قصيدته التي يقول في مطلعها:

قِفْ بالديار التي لَمْ يعْفُها القِدَمُ ... بلَى، وغيَّرها الأرواحُ والدِّيَمُ

والبَيْضُ: جمع بَيْضة، ما يوضع على الرأس كالخوذة، وحَبيك البيض: طرائقه، والواحدة: حبيكة، ينكصُون: يتراجعون ويُحجمون عن القتال، ونكَص على عقبيه: رجع عما كان عليه من الخبر، ولا يقال ذلك إلا في الرجوع عن الخبر خاصة، ونكَص ينكُص بضم الكاف وبكسرها في المضارع (قال ذلك في اللسان نقلاً عن أبي منصور الأزهري)، واستُلْحموا: أدْركوا ولوبسوا في أثناء المعركة، وحَمُوا: اشتد غضبهم، أما استَلأموا (على رواية الأصمعي) فمعناها: لبسوا ما عندهم من عُدَّة، أو لبس كل واحد منهم لأمَتَهُ وهي أداة الحرب كلها من الرمح والمِغْفر والبَيْضَة والسيف والدرع.

(٣) الأدبار: جمع دُبُر ـ بضم الباء وبسكونها ـ وهو الظَّهر والاسْتُ، والأَسَلُ: الرماح وكل ما رُقِّق من=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فليس هاهنا قهقرى، بل هو فِرار، وقال مؤَرج[(١)]: نكص هي رجع بلُغة سليم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ يبين أَنه إنما أراد الانهزام والرجوع في ضِد إقباله، وقوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾ هو خذلانه لهم وانفصاله عنهم، وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يريد الملائكة، وهو الخبيث إنما شرط أَن لا غالب من الناس فلما رأَى الملائكة وخرق العادة خاف وفرَّ، وفي الموطأِ وغيره أَن رسول الله ﷺ قال: «ما رُئِيَ الشيطان في يوم أَقل ولا أَحقر ولا أَصغر منه في يوم عرفة لما يرى من نزول الرحمة إلا ما رأَى يوم بدر، قيل: وما رأى يا رسول الله؟ قال: رأَى الملائكة يزَعُها جبريل»[(٢)]، وقال الحسن: رأَى إبليس جبريل عليه السلام يقود فرسه بين يدي النبي ﷺ وهو معتجر ببردة وفي يده اللجام.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ قيل: إن هذه معذرة كاذبة ولم تلحقه قط مخافة، قاله قتادة، وابن الكلبي، وقال الزجاج وغيره: بل خاف مما رأَى من الأمر وهَوْله، وأَنه يومه الذي أُنظر إليه[(٣)]، ويقوي هذا أَنَّه رأَى خرق العادة ونزول الملائكة للحرب.

وحكى الطبري بسنده أَنه لما انهزم المشركون يوم بدر حين رمى رسول الله ﷺ بقبضة من التراب وجوه الكفار أَقبل جبريل ﷺ إلى إبليس، فلما رآه إبليس وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده ثم ولى مدبراً، فقال له الرجل: أَي سراقة تزعم أَنك لنا جار؟ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية، ثم ذهب.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية. العامل في

= الحديد ـ على التشبيه بالشوك الطويل، أو بنبات ذي أغصان كثيرة شائكة الأطراف من الفصيلة الأسلية ينبت في الماء أو في الأرض الرطبة وتصنع منه الحصر والحبال ـ فالنكوص على الأدبار فِرار وهزيمة كما قال المؤلف.

(١) هو مؤرج بن عمرو السدوسي، يكنى أبا فيد، مات سنة ١٩٥ هـ.

(٢) الحديث رواه مالك في الموطأ، وقال ابن كثير بعد أن أورده كاملاً بسنده: «هذا مرسل من هذا الوجه» ومعنى يَزَعُها: يُرتِّبُها ويسوِّي صفوفها للحرب.

(٣) يعني: وظنَّ أنه يومه الذي أُنظِرَ إليه فخاف ونكص على عقبيه.

﴿إِذْ﴾ ﴿زَيَّنَ﴾ أو ﴿نَكَصَ﴾ لأن ذلك الموقف كان ظرفاً لهذه الأُمور كلها ، وقال المفسرون: إن هؤلاء الموصوفين بالنفاق ومَرْضَى القلوب إنما هم من أَهل عسكر الكفار لمَّا أشرفوا على المسلمين ورأَوا قِلَّتهم وقِلَّة عددهم قالوا مشيرين إلى المسلمين: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ ، أَي: اغْتَرُّوا فأَدخلوا أَنفسهم فيما لا طاقة لهم به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والنفاق أَخص من مرض القلب ، لأَن مرض القلب يطلق على الكافر وعلى من اعترضته شُبْهة وعلى من بينهما ، وكنى بالقلوب عن الاعتقادات إِذ القلوب محلها ، ورُوي في نحو هذا التأْويل عن الشعبي أَنْ قوماً ممن كان الإسلام داخل قلوبهم خرجوا مع المشركين إلى بدر ، منهم مَنْ أُكْرِه ، ومنهم من داجى وداهن[1] ، فلما أَشرفوا على المسلمين ورأَوا قِلَّتهم ارتابوا واعتقدوا أنهم مغلوبون فقالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ ، قال مجاهد: منهم قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأَبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زمعة بن الأَسود ، وعليّ بن أمية بن خلف ، والعاصي بن منبه بن الحجاج[2].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولم يُذكر أَحَدٌ ممن شهد بدراً بنفاق إلا ما ظهر بعد ذلك من معتب بن قشير أَخي عمرو بن عوف فإِنه القائل يوم أُحُد: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾[3] ، وقد يحتمل أن يكون منافقو المدينة لما وصلهم خروج قريش في قوة عظيمة قالوا عن المسلمين هذه المقالة ، فأَخبر الله بها نبيَّه في هذه الآية.

ثم أَخبر عزَّ وجلَّ بأَن من توكل على الله واستند إِليه فإِن عزَّة الله تبارك وتعالى وحكمته كفيلة بنصره وشدِّ أعضاده ، وخرجت العبارة عن هذا المعنى بأَوجز لفظ وأَبلغه.

---

(١) اختلفت النسخ الخطية في هذه الجملة ، فبعضها أسقط كلمة «داجى» ، وبعضها أثبتها (جاء) ، ومعنى داجى: أخفَى ما في نفسه وداراه.

(٢) أثبت هذا الاسم الأخير في بعض النسخ: «العاصي بن أُمية» ، وآثرنا التي تتفق مع ما في الطبري والبحر المحيط.

(٣) آل عمران: ١٥٤.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

هذه آية تتضمن التعجب مما حلَّ بالكفار يوم بدر، قاله مجاهد وغيره، وفي ذلك وعيد لمن بقي منهم، وحذف جواب ﴿لَوْ﴾ إبهام بليغ.

وقرأ جمهور السبعة والناس: ﴿يَتَوَفَّى﴾ بالياءِ فأُسند فعل فيه علامة التذكير إلى مؤنث في اللفظ، وساغ ذلك إذ التأنيث غير حقيقي، وارتفعت ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بـ ﴿يَتَوَفَّى﴾، وقال بعض مَنْ قرأ هذه القراءَة: إن المعنى: إذ يَتَوَفَّى الله الذي كفروا، و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ رفع بالابتداء، و يَضْرِبُونَ: خبره، والجملة في موضع الحال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويضعف هذا التأويل سقوط واو الحال، فإنها في الأَغلب تلزم مثل هذا(١)، وقرأ ابن عامر من السبعة، والأَعرج: [تتوفَّى] بالتاءِ على الإسناد إلى لفظ [الْمَلاَئِكَة]، و﴿يَضْرِبُونَ﴾في موضع الحال.

وقوله تعالى: ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ قال جمهور المفسرين: يريد أَسْتَاهَهُم، ولكن الله كريم يكني، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَراد ظهورهم وما أَدبر منهم، ومعنى هذا أَن الملائكة كانت تلحقهم في حال الإِدبار فتضرب أَدبارهم، فأمَّا في حال الإِقبال فبيّن تمكن ضرب الوجوه.

وروى الحَسَن أَن رجلاً قال: يا رسول الله، رأَيت في ظهر أبي جهل مثل الشِّراك(٢)، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك ضرب الملائكة» وعبَّر بجمع الملائكة ومَلَك الموت واحد إذْ له على ذلك أَعوانٌ من الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ قيل: كانوا يقولون للكفار حينئذ هذا اللفظ

---

(١) قال أبو حيّان في «البحر»: «لا يضعفه إذ جاء بغير واو في كتاب الله وفي كثير من كلام العرب».
(٢) الشِّراك: سير النَّعْل. (المعجم الوسيط).



فحذف (يقولون) اختصاراً، وقيل: معناه: وحالهم أن يقال لهم هذا، والحريق: فعيل من الحرق.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يحتمل أن يكون من قول الملائكة في وقت توفيتهم لهم على الصورة المذكورة، ويحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً تقريعاً من الله عزَّ وجلَّ للكافرين حيِّهم وميِّتهم، [وأنَّ] يصح أن تكون في موضع رفع على تقدير: والحكم أن، ويصح أن تكون في موضع خفض عطفاً على (ما) في قوله سبحانه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾، وقال مكِّي، والزهراوي: ويصح أن تكون في موضع نصب بإسقاط الباءِ، وتقديره: «بأنَّ» فلما حذفت الباءُ حصلت في موضع نصب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير متَّجهٍ ولا بيِّن إلا أن تنصب بإضمار فعل.

وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية، الدأب: العادة في كلام العرب، ومنه قوله امرىء القيس:

كَـدَأْبِـكَ مِـنْ أُمِّ الْحُـوَيْـرِثِ قَبْلَهَـا ... وجَـارَتِهَـا أُمِّ الـرَّبَـابِ بِمَـأْسَـلِ[(١)]

ويروى: كدينك، ومنه قول خراش بن زهير العامري:

فَمَا زالَ ذاكَ الدَّأْبُ حتى تخاذَلَت ... هــوازن وارْفَضَّـتْ سليـمٌ وعـامِـرُ

وهو مأخوذ من: «دأب على العمل» إذا لزمه، ومنه قوله ﷺ لصاحب الجمل الذي هشَّ إليه وأقبل نحوه وقد ذلَّ ودمعت عيناه: (إنه شكا إليَّ أنك تجيعه وتُدئبُهُ)[(٢)]، فكأن العادة دُؤُوب ما.

---

(١) البيت من معلقة امرىء القيس، والدأب: العادة، ومأسَل: موضع ماءٍ، وأم الحُوَيْرث، وأم الرَّباب: اسما امرأتين، والخطاب في قوله «كدأبك» لنفسه، فهو يلومها على شغفه وهيامه بالنساءِ مما يسبب له العذاب والدموع، فبعد حبّه لأم الحويرث ولأم الرباب لم يتعظ، ولم يرعو ويرجع عن الحب، بل دأب عليه معانياً ما فيه من لوعة وشقاءٍ.

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده، والدارمي في سننه، ولفظه كما في مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن جعفر، قال: (أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه، فأسرّ إلي حديثاً لا أُخبر به أحداً أبداً، وكان رسول الله ﷺ أحبَّ ما استتر به في حاجته هدف أو حائش نخل، فدخل يوماً حائطاً من حيطان الأنصار، فإذا جمل قد أتاه فجرجر وذرفت عيناه، فمسح رسول الله ﷺ سراته وذفراه فسكن، فقال: من صاحب الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: هو لي يا رسول الله، فقال: أما تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّككها الله؟ إنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه». (المسند ١ ـ ٢٠٤).



وقال جابر بن زيد، وعامر الشعبي، ومجاهد، وعطاءٌ: المعنى: كَسُنَن آل فرعون، ويحتمل أن يراد: كعادة آل فرعون وغيرهم، فتكون عادة الأمم بجملتها لا على انفراد أُمة، إذ آل فرعون لم يكفروا وأُهلكوا مراراً بل لكل أُمة مرة واحدة، ويحتمل أن يكون المراد: كعادة الله فيهم، فأضاف العادة إليهم إذ لهم نسْبة إليها كما يضاف المصدر إلى الفاعل وإلى المفعول، والكاف من قوله: ﴿كَدَأْبِ﴾ يجوز أن تتعلق بقوله: ﴿وَذُوقُوا۟﴾، وفيه بُعْد، والكاف على هذا في موضع نصب نعت لمصدر محذوف، ويجوز أن تتعلق بقوله: ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وموضعها أيضاً ـ على هذا ـ نصب كما تقدم، ويجوز أن يكون معنى الكلام: الأمر مثلُ دأب فرعون، فتكون الكاف في موضع خبر الابتداء، وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ معناه: أَهلكهم وأَتى عليهم، بقرينة قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾، ثم ابتدأ الإِخبار بقوة الله تبارك وتعالى وشدَّة عقابه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع على خبر الابتداء تقديره عند سيبويه: الأمر ذلك، ويحتمل أن يكون التقدير: وجب ذلك، والباءُ باءُ السبب[1].

وقوله: ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا﴾ جزم بـ ﴿لَمْ﴾ وجزمه بحذف النون، والأَصل: (يكونُ) فإذا دخلت (لم) جاءَ: (لم يكن)، ثم قالوا: (لم يك) كأَنهم قصدوا التخفيف فتوهموا دخول (لم) على (يكن) فحذفت النون للجزم، وحسُنَ ذلك فيها لمشابهتها حروف اللِّين التي تحذف للجزم، كما قالوا: «لم أُبال» ثم قالوا: «لم أُبل» فتوهموا دخول (لم) على (أُبال).

ومعنى هذه الآية الإِخبار بأَن الله عزَّ وجلَّ إذا أَنعم على قوم نعمة، فإِنه بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغييرها وتكديرها حتى يجيءَ ذلك منهم بأَن يغيروا حالهم التي تراد

---

(١) يريد الباء في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾.



وتحسن منهم، فإذا فعلوا ذلك وتلبسوا بالتكسب للمعاصي أو الكفر الذي يوجب عقابهم غير الله نعمته عليهم بنقمته منهم، ومثال هذا: نعمة الله على قريش بمحمد ﷺ، فكفروا وغيّروا ما كان يجب أن يكونوا عليه فغيَّر الله تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار، وأحلَّ بهم عقوبته.

وقوله تعالى: و﴿وأنَّ﴾ عطف على الأولى، و﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي لكُلِّ وبِكُلِّ ما يقع من الناس في تغيير ما بأنفسهم لا يخفى عليه من ذلك سرٌّ ولا جهر.

وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية، الكاف من ﴿كَدَأْبِ﴾ في هذه الآية متعلقة بقوله: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟﴾، وهذا التكرير هو لمعنى ليس للأول، إذ الأول دأب في أن هلكوا لمَّا كفروا، وهذا الثاني دأب في أن لم يُغَيِّر نعمتهم حتى غيَّروا ما بأنفسهم، وقد ذكرنا متعلقات الكاف في الآية الأُولى، والإشارة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوم هود، وصالح، ونوح، وشعيب، وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ إلى ﴿يَتَّقُونَ﴾، المعنى المقصود تفضيل الدواب الذميمة كالخنزير والكلب العقور على الكافرين الذين حتم عليهم بأنهم لا يؤمنون، وهذا الذي يقتضيه اللفظ، وأما الكافر الذي يؤمن فيما يستأنفه من عمره فليس بشرِّ الدواب، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ يحتمل أن يريد أن الموصوفين بـ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ هم الذين لا يؤمنون المعاهدون من الكفار، فكانوا شرّ الدواب على هذا بثلاثة أوصاف: الكفر، والموافاة عليه، والمعاهدة مع النقض. و﴿ٱلَّذِينَ﴾ ـ على هذا ـ بدل البعض من الكل، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ﴾ الذين الأُولى، فتكون بدل الشيءِ من الشيءِ وهما لعين واحدة، والمعنى ـ على هذا ـ: الذين عاهدت فرقة أو طائفة منهم، ثم ابتدأ يصف حال المعاهدين منهم بقوله: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾، والمعاهدة في هذه الآية: المسالمة وترك الحرب.

وأجمع المتأولون أن الآية نزلت في بني قريظة، وهي بعْدُ تَعُم كل من اتصف بهذه الصفة إلى يوم القيامة ـ ومن قال: «إن المراد بـ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾ الناس» فقولٌ لا يستوفي المذمة، ولا مرية في أن (الدواب) تعم الناس وسائر الحيوان، وفي تعميم اللفظة في هذه الآية استيفاءُ المذمة، وقوله: ﴿فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ يقتضي أن الغدر قد كان وقع منهم، وتكرر ذلك.



وحديث قريظة هو أَنهم عاهدوا رسول الله ﷺ على أَلا يحاربوه ولا يعينوا عليه عدُوّاً من غيرهم، فلما اجتمعت الأحزاب على النبي ﷺ بالمدينة غلب على ظن بني قريظة أن النبي ﷺ مغلوب ومستأصل، وخدع حيَيُّ بن أَخطب النضري كعبَ بن أَسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، فغدروا ووالوا قريشاً وأَمَدوهم بالسلاح والأَدراع، فلما انجلت تلك الحال عن النبي ﷺ أَمره الله بالخروج إليهم وحربهم، فاستنزلوا وضربت أعناقهم بحكم سعد بن معاذ، واستيعاب القصة في سير ابن هشام، وإنما اقتضبت منها ما يخص تفسير الآية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

دخلت النون مع ﴿فَإِمَّا﴾ تأكيداً، ولتفرق بينها وبين (إمّا) التي هي حرف انفصال في قولك: جاءَني إما زيد وإما عمرو، و﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ معناه: تأسرهم وتحصلهم في ثقافك، أو تلقاهم بحال ضعف تقدر عليهم فيها وتغلبهم، وهذا لازم من اللفظ لقوله: ﴿فِي ٱلْحَرْبِ﴾، وقيل: ثَقِفَ: أَخذ بسرعة، ومن ذلك قولهم: رجل ثقِفٌ لقِف[1].

وقال بعض الناس: معناه: تُصَادِفَنَّهم، إلى نحو هذا من الأَقوال التي لا ترتبط في المعنى، وذلك أَن المُصَادَفَ قد يُغْلَب فيمكن التشريدُ به وقد لا يُغْلَب، والثِّقاف في اللغة: ما تُشَدَّ به القناة ونحوها، ومنه قول الشاعر:

إنَّ قَنَاتِي لنَبْعٌ ما يُؤَيِّسُهَا عَضُّ الثِّقَافِ ولا دُهْنٌ ولا نارُ[2]

(١) عن اللسان: «اللَّحياني: رجلٌ ثَقْفٌ لَقْفٌ وثَقِفٌ لقِفٌ وثقيفٌ لَقيفٌ بين الثقافة واللقافة، ابن السِّكيت: رجلٌ ثَقفٌ لَقْفٌ إذا كان ضابطاً لما يحويه قائماً به»، والأصل أن يقال: ثَقْفٌ وثَقيفٌ بمعنى حاذق فَهِم، ثم أتبعوه فقالوا: ثقفٌ لقفٌ.

(٢) القَناة: الرُّمح، والنَّبْعُ: شجر ينبت في قُلَّة الجبل تُتَّخذ منه القسي والسهام، ويقال: فلان صليب النبع، والمراد أنها من نوع فائق الجودة والمتانة، يُؤَيِّسُها: يُذَلِّلها ويؤثر فيها، والثِّقافُ: أداة من حديد أو خشب تُثَقَّف بها الرماح لتَسْتَوِيَ وتَعْتَدل. يصف رمحه بأنه من شجر جيد أصيل لايؤثر فيه=

وقال آخر:

تَدْعو قُعَيْناً وَقَدْ عضَّ الحَدِيدُ بِهَا   عَضَّ الثِّقَافِ على صُمِّ الأَنابيب[(١)]

وقوله تعالى: ﴿فَشَرِّدْ﴾ معناه: طرِّدْ وخوِّفْ وأَبْعِدْهُ عن مِثْل فعلهم، والشريد: المبْعَدُ عن وطن أَو نحوه، والمعنى: بفعل تفعله بهم من قَتْل أَو نحوه يكون تخويفاً لمَنْ خلفهم، أَي لِمَنْ يأْتي بعدهم بمثل ما أَتَوْا به، وسواءٌ كان معاصراً لهم أَم لا.

وما تقدم الشيءَ فهو بين يديه، وما تأَخر عنه فهو خلفه، فمعنى الآية: فإِن أَسرت هؤلاءِ الناقضين في حربك لهم، فافعل بهم من النقمة ما يكون تشريداً لمن يأْتي خلفهم في مثل طريقتهم، والضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ عائد على الفرقة المُشَرَّدة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: نكل بهم مَنْ خلفهم، وقالت فرقة: «شرِّدْ بهم» معناه: سمِّع بهم، حكاه الزهراوي عن أَبي عبيدة، والمعنى متقارب لأن التسميع بهم في ضمن ما فسرناه أَولاً، وفي مصحف عبد الله: [فَشَرِّذْ] بالذال منقوطة، وهي قراءَة الأعمش، ولم يحفظ (شرذ) في لغة العرب، ولا وجه لها إلا أن تكون الذال المنقوطة تُبدل من الدال كما قالوا: لحم خراديل وخراذيل[(٢)]، وقرأَ أَبو حيوة ـ وحكاها المهدوي عن الأَعمش بخلاف عنه: ﴿مِنْ خَلْفِهِم﴾ بكسر الميم مِنْ قوله: [مِنْ] وخفض الفاءِ من قوله: [خَلْفِهم] والترجي في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بحسب البشَر، و﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ معناه: يتَّعظون.

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ الآية، قال أكثر المؤلفين في التفسير: إن هذه الآية هي في بني قريظة، وحكاه الطبري عن مجاهد، والذي يظهر من أَلفاظ القرآن أَنَّ أَمْر بني قُرَيْظَة قد انقضى عند قوله تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، ثم ابتدأَ تبارك وتعالى

= تثقيف بالحديد ولا دهن ولا نار.

(١) قُعَيْن على وزن زُبَيْر: بطْن من أسد وهو قُعَيْن بن الحارث بن ثعلبة بن داود بن أسد، سئل بعض العلماء: أي العرب أفصح؟ فقال: نصر قُعَيْن أو قُعَيْن نصر، وقيل: بل هما قُعَيْنان، قُعَيْن في بني أسد، وقُعَيْن في قيس عيلان. والقَعَن (بالتحريك) قصَر في الأنف فاحش، وقد اشتق منه قعين هذا اسماً لهذا الحي من العرب، والأنابيب: جمع أنبوبة، وهي كعب القصبة والرمح، والرمح الأصم أمتن من الأجوف.

(٢) خَرَاديل: جمع خُرْدُولة، وهي العضو الوافر من اللحم، والخَرْذَل: لغة في الخَرْدل. (المعجم الوسيط).

في هذه الآية بأَمره بما يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه خيانة إلى سالف الدهر[١]، وبنو قُرَيْظَة لم يكونوا في حدٍّ من تخاف خيانته فترتب فيهم هذه الآية، وإنما كانت خيانتهم ظاهرة مشتهرة، فهذه الآية هي عندي فيمن يستقبل حاله من سائر الناس غير بني قريظة، وخوف الخيانة أن تبدو جَنادِعُ الشر[٢] من قبل المعاهدين، وتتَّصل عنهم أقوالٌ، وتُحَسُّ من تلقائهم مبادىء الغدر، فتلك المبادىء معلومة، والخيانة التي هي غايتهم مَخُوفة لا مُتَيقَّنَة، وحينئذ ينبذ إليهم على سواءٍ، فإن التزموا السلم على ما يجب وإلا حوربوا. وبنو قُرَيْظَة نبذوا العهد مرتين[٣]، وقال يحيى بن سلام: «تَخَاف» في هذه الآية بمعنى: تعْلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس كذلك، وقوله تعالى: ﴿خِيَانَةً﴾ يقتضي حصول عهد، لأَن من ليس بينك وبينه عهد فليست محاربته لك خيانة، فأَمر الله تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ إِذا أَحسَّ من أَهل عهد ما ذكرنا وخاف خيانتهم أن يلقي إِليهم عهدهم، وهو النَّبْذ، ومفعول قوله: ﴿فَانۢبِذۡ﴾ محذوف تقديره: فانبذ إِليهم عهدهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتقتضي قوة هذا اللفظ الحضَّ على حربهم ومناجزتهم إن لم يستقيموا. وقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ قيل: معناه: حتى يكون الأَمر في بيانه والعلم به على سواءٍ منك ومنهم، فتكونون فيه ـ أَي في استشعار الحرب ـ سواءً، وقيل: معنى قوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ على معدلة، أَي: فذلك هو العَدْلُ والاستواءُ في الحق، وقال المهدوي: معناه: جهراً لا سرّاً.

---

(١) تأمل أنه يتحدث عن المستقبل ولا يتفق مع هذا قوله: «إلى سالف الدهر»، فإن معنى (سَلَفَ) هو تقدم وسبق، والسالف: المتقدم، قال الجوهري وحكاه اللسان: «سلَف يسْلُف سَلفاً مثال طَلَب يطْلُب طَلَباً أي: مضى».

(٢) جَنَادِعُ الشر: أوائله، والجُنْدعُ: جُنْدب أسود له قرنان طويلان، وهو أضخم الجنادب، وكل جُندب يؤكل إلا الجُندع، وجنادع الضَّب: دوابّ أصغر من القردان تكون عند جُحْره، فإذا بدت هي عُلم أن الضب خارج، فيقال حينئذ: بدت جنادِعُه، ويقال للشرير المُنْتظر هلاكه: «ظهرت جنادعُه والله جادِعُه»، ويضرب مثلاً للرجل الذي يأتي عنه الشر قبل أن يُرى. (عن اللسان).

(٣) في بعض النسخ: «نبذوا العهد مبتدئين».



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا نحو الأول، وقال الوليد بن مسلم: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ معناه: على مَهَل، كما قال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واللغة تأبى هذا القول، وذكر الفراءُ أن المعنى: انبذ إليهم على اعتدالٍ وسواءٍ من الأمر، أي: بيّن لهم على قدر ما ظهر منهم، لا تفرط ولا تفجأ بحرب، بل افعل بهم مثلما فعلوا بك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يعني موازنة ومقايسة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ يحتمل أن يكون طعناً على الخائنين من الذين عاهدهم النبي ﷺ، ويحتمل أن يريد: فانبذ إليهم على سواءٍ حتى تبعد عن الخيانة فإن الله لا يحب الخائنين، فيكون النبذ ـ على هذا التأويل ـ لأجل أن الله لا يحب الخائنين.

والسَّواءُ في كلام العرب قد يكون بمعنى العدل والمَعْدلة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[2]، ومنه قول الراجز:

فَاضْرِبْ وُجُوهَ الغُدَّرِ الأَعْداءِ ... حَتَّى يُجيبُوك إِلَى السَّواءِ[3]

وقد يكون بمعنى الوسط، ومنه قوله تعالى: ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾[4].

---

(١) التوبة: ١. وجزء من الآية (٢) من سورة التوبة.

(٢) آل عمران: ٦٤.

(٣) الغَدْرُ: نَقْضُ العَهْد، وصَفَهم بأنهم أعداءٌ لا يوفون بعهودهم، وقد رُوي: «واضرب»، والسواءُ والسَّويَّةُ: العَدْلُ والنَّصَفَة، قال زهير:

أَرُوني خُطَّةً لا عَيْبَ فيها ... يُسَوِّي بَيْنَنَا فيها السَّوَاءُ

أي: يُسَوِّي فيها العدلُ بيننا، وقال البراءُ بن عازب الضَّبيُّ:

أَتَسْأَلُني السَّويَّةَ وَسْطَ زَيْدٍ؟ ... ألا إنَّ السَّويَّةَ أن تُضَامُوا

أي: أتسألني العدلَ والإنصاف؟

(٤) الصافات: ٥٥.



ومنه قول حسَّان بن ثابت:

يـا وَيْـحَ أَنصـارِ النَّبـي ورَهْطِـه ... بَعْـدَ المُغَيَّـبِ فـي سـواءِ المُلْحَـد(١)

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾، قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، والكسائي: ﴿ولا تَحْسِبنَّ﴾ بالتاءِ مخاطبة للنبي ﷺ، وبكسر السِّين ـ غير عاصم فإنَّه فتحها ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مفعول أول، و﴿سَبَقُوٓا۟ۚ﴾ مفعول ثان، والمعنى: فاتُوا بأَنفسهم وأنجوها، ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بكسر أَلف [إنَّ] على القطع والابتداءِ، و﴿يُعْجِزُونَ﴾ معناه: يُفْلِتُونَ ويُعجزون طالبهم، فهو مُعَدَّى (عجز) بالهمزة، تقول: عجز زيد وأعجزه غيره وعجَّزَه أيضاً قال سويد:

وأَعْجـزنـا أَبـو ليْلـى طُفَيْـل ... صحيـح الجِلْـدِ مِـنْ أَثَـر السِّلاح

وروي أن الآية نزلت فيمن أَفلت من الكفار في حرب النبي ﷺ، كقريش في بدر وغيرهم، فالمعنى: لا تظنهم ناجين بل هم مدركون، وقيل: معناه: لا يُعجزون في الدنيا، وقيل: المرادُ: في الآخرة.

قال أبو حاتم: وقرأ مجاهد، وابن كثير، وشبل: [ولاَ تِحْسِبنَّ] بكسر التاءِ، وقرأ الأَعرج، وعاصم، وخالد بن إلياس: [تَحْسَبَنَّ] بفتح التاءِ من فوق وبفتح السين، وقرأ الأَعمش: [ولاَ يحْسَبُ] بفتح السين والياءِ من تحت وحذف النون، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وأَبو عبد الرحمن، وابن محيصن، وعيسى: [ولا يَحْسِبَنَّ] بياءِ من تحت وسين مكسورة ونون مشددة، وقرأ حفص عن عاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياءِ على الكناية عن الغائب وبفتح السين، فإِمَّا أَن يكون في الفعل ضمير النبي ﷺ، أو يكون التقدير: ولا يحْسَبَن أحد، ويكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مفعولاً أولاً، و﴿سَبَقُوٓا۟ۚ﴾ مفعولاً ثانياً، وإِما أَن يكون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم الفاعلون، ويكون المفعول الأَول مضمراً، و﴿سَبَقُوٓا۟ۚ﴾ مفعولاً ثانياً، وتقدير هذا الوجه: ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا، وإما أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هو الفاعل وتُضْمر (أَنْ) فيكون التقدير: ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا، وتَسُدّ «أَنْ سبقوا» مسدَّ المفعولين.

---

(١) رواه في اللسان، وفي القرطبي: «أصحاب النبي»، ومثل الآية الكريمة وبيت حسّان هذا في أن (سواء) تكون بمعنى (وسط) حديث ابن مسعود: «يُوضع الصِّراط على سواء جهنم».



قال الفارسي: ويكون هذا كما تأوله سيبويه في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾(١)، فالتقدير: «أَنْ أَعْبُد».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ونحوه قول الشاعر:

أَلاَ أَيُّهَـذَا الـزَّاجـري أَحْضُـرُ الـوَغَـى . . . . (٢)

قال أبو علي: وقد حذفت (أَنْ) وهي مع صلتها في موضع الفاعل، وأنشد أحمد بن يحيى في ذلك:

ومـا راعَنَـا إلاَّ يَسيـرُ بِشُـرْطـة ... وعهْـدِي بـه قَينـا يَسيـرُ بِكِيـرِ(٣)

وقرأ ابن عامر وحده من السبعة: ﴿أَنَّهم لَا يُعْجِزُونَ﴾ بفتح الأَلف من ﴿إِنَّهُمْ﴾، ووجهه أن يقدر بمعنى: لأَنهم لا يعجزون، أَي: لا تحسبن عليهم النجاة لأَنهم لا ينجون، وقرأَ الجمهور: ﴿يُعْجِزُونَ﴾ بسكون العيْن، وقرأَ بعض الناس فيما ذكر أبو حاتم: [يُعَجّزون] بفتح العين وشدِّ الجيم، وقرأ ابن محيصن: [يُعجزونِ] بكسر النون، ومنحاها [يُعجزونَني] بإِلحاق الضمير، قال الزجاج: الاختيار فتح النون، ويجوز كسرها على أَن المعنى: «إِنهم لا يُعجزونني»، وتحذف النون الأُولى لاجتماع النونين، كما قال الشاعر:

---

(١) الزمر: ٦٤.

(٢) الشاعر هو طرفة بن العبد، والبيت من معلقته، والرواية: «ألا أيهذا اللائمي...»، ورواية «الزّاجري» هي التي رواها الشّنتمري، والوغى: الحرب، والمعنى: يا أيها الذي تزجرني أو تلومني على الاشتراك في الحروب وشهود اللذات، هل تضمن لي الخلود إن كففت عنها؟ يريد أن أحداً لا يضمن له الخلود في الدنيا ولهذا فإن من حقه أن يتمتع بما يريد قبل الرحيل.
و(أَحْضُرَ) هنا يجوز فيها الرفع والنصب.

(٣) يروى: «وما راعني»، والشُّرْطة هو الشُّرْطي، والجمع: شُرَط، وقد نَقَل في الصحاح عن الأصمعي أنهم سُمُّوا شُرَطاً لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها، وقال أبو عبيدة: لأنهم أُعِدُّوا، والقَيْن: الحدَّادُ، وجمعه قُيُون، والكيرُ: كير الحداد وهو زقٌّ أو جِلْدٌ غليظ ذو حافاتٍ، وأما المبني من الطين فهو الكُور، وهذا البيت يذكره النحويون غير منسوب في موضع خلافهم في الفاعل ونائبه: هل يكونان جملة أم لا؟ فالمشهور المنع، وأجاز ذلك هشام وثعلب مطلقاً، وفصل الفراءُ وجماعة بين الفعل القلبي والمعلق عن العمل وغيره، ودليل هشام وثعلب على الجواز هذا البيت، راجع «مغني اللبيب» لابن هشام.



تـــراهُ كـــالثَّغـــام يُعَـــلُّ مِسْكـــاً   يسُـــوءُ الفَـــالِيـــاتِ إذَا فَلَيْنِـــي[1]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

البيت لعمرو بن معديكرب ، وقال أبو الحسن الأخفش في قول مُتَمّم بن نُوَيْرَة:

وَلَقَـــدْ عَلِمْـــتُ ولا محـــالـــة أَنَّنـــي   للحـــادِثـــات ، فَهَـــلْ تَـــرَيْنـــي أَجْـــزَعُ؟[2]

هذا يجوز على الاضطرار ، فقال قوم: حذف النونَ الأُولى وحذْفُها لا يجوز لأَنها موضع الإعراب ، وقال أبو العباس المُبَرّد: أَرى فيما كان مثل هذا حذْفَ الثانية ، وهكذا كان يقول في بيت عمرو بن معد يكرب.

وفي مصحف عبد الله: «ولاَ يَحْسب الَّذينَ كفَرُوا أَنَّهُمْ سَبَقُوا إِنَّهم لا يُعْجِزون» ، قال أبو عمرو الداني: بالياءِ من تحت وبغير نون في (يحسب).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذكرها الطَّبَريُّ بنُونٍ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾.

المخاطبة في هذه الآية لجميع المؤمنين ، والضمير في قوله تعالى [لَهُمْ] عائد على

---

(١) البيت كما قال لعمرو بن معد يكرب ، هكذا في سيبويه (٢ ـ ١٥٤) ، والخزانة ٢ ـ ٤٤٥ ، والضمير في (تراه) للشَّيب في الرأس ، والثَّغام بفتح الثاءِ المشددة: نباتٌ إذا يبس صار أبيض كالثلج ، وبه يشبه الشيب ، والعَلُّ والعَلَلُ هو الشرب ثانية ، أو الشرب تباعاً ، والمعنى هنا: يُسْقَى المسكَ مرَّةً بعد مرَّة ، والفاليات: مخرجات القمل من الرأس ، وهو مفعول به للفعل (يسوءُ) ، قال الأخفش في هذا البيت: «حذَف النون الأخيرة لأن هذه النون وقاية للفعل وليست باسم ، فأما النون الأولى فلا يجوز طرحها لأنها الاسم المضمر» هكذا في «الصحاح» عنه ، وفي «الصحاح» أيضاً: «وعلى هذا قرأ بعض القراء: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فأذهب إحدى النونين استثقالاً ، وقال أبو حية النمري:

أَبِـــالْمَـــوْتِ الـــذي لابُـــدَّ أَنّـــي   مُـــلاقٍ لا أَبـــاكِ تُخَـــوِّفينـــي؟

أراد: (تخوفينني) فحذف.

(٢) يريد: تَرَيْنَني ، والمعنى أنه لا يجزع أو يخاف من مصائب الأيام مع علمه بأنه معرض لها.

الذين ينبذ إليهم العهد ، أو على الذين لا يعجزون على تأويل من تأول ذلك في الدنيا ، ويحتمل أَن يعود على جميع الكفار المأمور بِحزبهم في ذلك الوقت ثم استمرت الآية في الأُمة عامة ، إذ الأمر قد توجَّه بحرب جميع الكفار.

وقال عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما: القوة: ذُكُور الخيل ، والرِّباط: الإناث ، وهذا قول ضعيف ، وقالت فرقة: القُوَّة: الرَّمْيُ ، واحتجت بحديث عقبة بن عامر أَن الرسول ﷺ قال: «أَلا إنَّ القوَّة الرَّميُ ، ألا إنَّ القوَّة الرَّميُ ، ألا إنَّ القوَّة الرَّميُ»[١] ، وقال السدي: القوة: السلاح ، وذهب الطبري إلى عموم اللفظة ، وذكر عن مجاهد أَنه رؤي يتجهز وعنده جُوالق[٢] فقال: هذا من القوة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الصواب ، والخيلُ والمركوبُ في الجملة والمحمولُ عليه من الحيوان والسلاح كله والملابسُ الباهية والآلات والنفقاتُ كلُّها داخلة في القوة ، وأُمر المسلمون بإعداد ما استطاعوا من ذلك ، ولما كانت الخيل هي أصل الحروب وأوزارها والتي عُقد الخير في نواصيها ، وهي أَقوى القوى وحصون الفرسان خصَّها الله بالذكر تشريفاً ، على نحو قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[٣] ، وعلى نحو قوله: ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[٤] ، وهذا كثير ، ونحوه قول رسول الله ﷺ: «جُعلت لي الأَرض مسجداً وطهوراً»[٥] ، هذا في البخاري وغيره ، وقال في صحيح مسلم: «جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً» فذكر التراب على جهة التحفي به ، إذ هو أَعظم أَجزاءِ الأَرض مع دخوله في عموم الحديث الآخر ، ولما كانت السهام من أَنجع ما يُتعاطى في الحرب وأنكاه في العدو وأَقربه تناولاً للأرواح

(١) أخرجه الإمام أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وأبو يعقوب إسحق بن إبراهيم القراب في كتاب فضل الرمي ، والبيهقي في شعب الإيمان. (الدر المنثور).

(٢) الجُوالِق بضم الجيم وبكسرها: الغرارة. (المعجم الوسيط).

(٣) البقرة: ٩٨.

(٤) الرحمن: ٦٨.

(٥) رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وأبو داود عن أبي ذر ، هكذا قال السيوطي في «الجامع الصغير» ورمز له بالضعف.

خصها رسول الله ﷺ بالذكر والتنبيه عليها، وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى يُدخل بالسهم الواحد الثلاثة من المسلمين الجنة، صانعه، والذي يحتسب في صنعته، والذي يرمي به»(١)، وقال عمرو بن عبسة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رمى بسهم في سبيل الله أَصاب العدو أو أَخطأ فهو كعتق رقبة»(٢)، وقال رسول الله ﷺ: «ارموا واركبوا، وأنْ ترموا أحب إلي من أن تركبوا»(٣).

ورباطُ الخيل جمع ربْطٍ ككَلْبٍ وكلاب، ولا يكثر ربطها إلا وهي كثيرة، ويجوز أن يكون الرِّباط مصدراً من رَبَط، كصاح صياحاً ونحوه، لأن مصادر الثلاثي غير المزيد لا تنقاس(٤)، وإن جعلناه مصدراً من رابط فكأَن ارتباط الخيل واتخاذها يفعله كل واحد لفعل آخر له فيُرابط المؤمنون بعضهم بعضاً، فإذا ربط كل واحد منهم فرساً لأَجل صاحبه فقد حصل بينهم رباط، وذلك الذي حضَّ في الآية عليه، وقد قال ﷺ: «من ارتبط فرساً في سبيل الله فهو كالباسط يده بالصدقة لا يقبضها»(٥)، والأَحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وقرأ الحسن، وعمرو بن دينار، وأَبو حيوة: [وَمِنْ رُبُط] بضم الراءِ والباءِ، وهو

---

(١) لفظه كما أثبته في «الجامع الصغير» هو: (إن الله تعالى يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنَّة، صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومنبله) وقال إنَّ الإمام أحمد رواه في مسنده، وكذلك رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، ثم رمز له السيوطي بالضعف.

(٢) رواه في «الجامع الصغير» بلفظ: (مَن رمى بسهم في سبيل الله فهو له عدل محرر) ثم رمز إلى أن رواته هم الترمذي، والنسائي، والحاكم في مستدركه ـ عن أبي نجيح، ورمز له بعد ذلك بأنه صحيح.

(٣) هذا جزء من حديث رمز له الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» بأنه حديث حسن، وقد رواه الإمام أحمد في مسنده، والترمذي، والبيهقي في شعب الإيمان ـ عن عقبة بن عامر ـ والحديث بتمامه هو: «ارموا واركبوا، وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا، كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رمي الرجل بقوسه، أو تأديبه فرسه، أو ملاعبته امرأته، فإنهن من الحق، ومن ترك الرمْي بعدما علمه فقد كفر الذي علمه».

(٤) قال أبو حيان في «البحر المحيط» تعليقاً على ذلك: «ليس بصحيح، بل لها مصادر مُنْقاسَةٌ ذكرها النحويون».

(٥) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه الدارمي في (اللِّباس)، ورواه الإمام أحمد في مسنده عن سهل بن الحنظلية، قال الراوي عن سهل وكان جليساً لأبي الدرداء: كان بدمشق رجل من أصحاب النبي ﷺ يقال له: ابن الحنظلية... إلى أن قال: ثم مرّ بنا يوماً آخر فقال له أبو الدرداء: كلمة تنفعنا ولا تضرك: قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «إن المنفق على الخيل في سبيل الله كباسط يديه بالصدقة لا يقبضها».

جمع رباطٍ ككتابٍ وكُتُب، كذا نصَّه المفسرون، وفي جمعه وهو مصدر غير مختلف نظر[١].

و﴿تُرْهِبُونَ﴾ معناه: تُفْزِعون وتُخَوِّفون، والرهبة: الخوف، قال طفيل الغنوي:

وَيْـلُ أمّ حـيٍّ دفعْتـمْ فـي نُحـورهِـمْ بَني كلابٍ غداةَ الرُّعْبِ والرَّهْبِ[٢]

ومنه راهِب النصارى، يقال: رَهِبَ إذا خاف، فـ﴿تُرْهِبُونَ﴾ معدى بالهمزة.

وقرأ الحسن، ويعقوب: [تُرَهِّبون] بفتح الراء وشدّ الهاءِ معدى بالتضعيف، ورويت عن أبي عمرو بن العلاء، قال أبو حاتم: وزعم عمرو أن الحسن قرأ: [يُرهِبون] بالياءِ من تحت وخففها، فهو على هذا تعدى بالتضعيف، وقرأ ابن عباس، وعكرمة: «تُخْزونَ بِهِ عدوَّ اللهِ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ذكرها الطبري تفسيراً لا قراءةَ، وأثبتها أبو عمرو الداني قراءَة.

وقوله تعالى: ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ذكر الصفتين وإن كانت[٣] متقاربة إذ هي متغايرة المعنى، وبذكرهما يتقوَّى الذم وتتضح وجوه بُغضنا لهم، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: [عَدُوّاً للهِ] بتنوين ﴿عَدُوَّ﴾ وبلامٍ في المكتوبة[٤]، والمراد بهاتين الصفتين منْ قَرُب وصاقَبَ[٥] من الكفار وكانت عداوته متحركة بَعْدُ، ويجوز أن يراد بهما جميع الكفار، ويبين هذا من اختلافهم في قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ الآية، قال مجاهد: الإشارة بقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ إلى قريظة، وقال السُّدي: إلى أهل فارس،

(١) عقب أبو حيان في «البحر» على ذلك بقول: «ولا يتعين كونه مصدراً، ألا ترى إلى قول أبي زيد: إنه من الخيل الخَمْسُ فما فوقها».

(٢) هذا البيت واحد من ثلاثة أبيات قالها طُفَيل الغنوي يمدح بها بني جعفر بن كلاب، وهو يصفهم بالشجاعة وبأن مَنْ عاداهم فلأمه الويل والثكل، ويُرْوَى: «لله قومٌ دفَعْتُم في جنوبهم»، وأشار محقق الديوان إلى أن هذه الرواية الثانية في النقائض، وقال محقق تفسير الطبري: «ورأيناها ثمّة» ـ والويل هو الهلاك والعذاب.

(٣) يُريد: وإن كانت الصفات متقاربة فإنها متغايرة في المعنى، وظاهر اللفظ يقتضي التثنية ولكنا وجدنا النص هكذا في الأصول.

(٤) المكتوبة هي لفظ الجلالة.

(٥) صاقَبَه صِقَاباً ومصاقَبَةً: قارَبَهُ وواجَهَهُ، يقال: جارٌ مصاقب.

وقال ابن زيد: الإشارة إلى المنافقين، وقالت فرقة: الإشارة إلى الجن، وقالت فرقة: هم كل عدوّ للمسلمين غير الفرقة التي أُمر النبي ﷺ أن يُشرّد بهم من خلفهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الخلاف إنما ينبغي أن يترتب على ما يتوجه من المعنى في قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾، فإذا حملنا قوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ على عمومه، ونفينا علم المؤمنين بهذه الفرقة المشار إليها جملة واحدة، وكان العلم بمعنى المعرفة لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد لم يثبت من الخلاف في قوله: [وآخَرين] إلا قول من قال: «الإشارة إلى المنافقين»، وقول من قال: «الإشارة إلى الجن»، وإذا جعلنا قوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ مجازاً بيِّناً أو نحو هذا مما نفيد به نفي العلم عنهم حَسُنت الأَقوال، وكان العلم متعدياً إلى مفعولَيْن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الوجه أَشبه عندي، ورجح الطبري أن الإشارة إلى الجن، وأَسند في ذلك ما رُوي من أن صهيل الخيل ينفر الجن، وأن الشيطان لا يدخل داراً فيها فرس للجهاد، ونحو هذا، وفيه ـ على احتماله ـ نظر، وكان الأَهم في هذه الآيات أن يبرز معناها في كل ما يقوّي المسلمين على عدوهم من الإنس وهم المحاربون والذين يدافعون على الكفر، ورهبتُهم من المسلمين هي النافعةُ للإسلام وأهله، ورهبةُ الجن فزعُهُمْ لا غناء له في ظهور الإسلام، وهو أجنبي جداً، والأَولى أن يُتأَول أن المسلمين إذا ظهروا وعزوا هابهم من جاورهم من العدوّ المحارب لهم، فإذا اتصلت حالهم تلك بمن بعدُ من الكفار داخلته الهيبة وإن لم يقصد المسلمون إرهابهم، فأولئك هم الآخرون[1].

ويحسُن أن يقدر قوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ بمعنى: «لا تعلمونهم فازعين راهبين ولا تظنون ذلك بهم، والله تعالى يعلمهم بتلك الحالة»، ويحسُن أيضاً أن تكون الإشارة إلى المنافقين على جهة الطعن عليهم، والتنبيه على سوءِ حالهم، وليستريب

(١) قال القرطبي بعد نقل هذه الآراء: «ولا ينبغي أن يُقال فيهم شيءٌ، لأن الله سبحانه قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فكيف يدعي أحد علماً بهم، إلا أن يصح حديث جاء في ذلك».



بنفسه كل من يعلم منها نفاقاً إذا سمع الآية ، ولِفَزَعهم ورَهْبتهِم غناءٌ كثير في ظهور الإسلام وعُلُوّه.

وقوله تعالى: ﴿ مِن دُونِهِمۡ ﴾ بمنزلة قولك: دون أن يكن هؤلاءِ ، فـ «دون» في كلام العرب و«من دون» يقتضي عدم المذكور بعدها من النازلة التي فيها القول ، ومنه المثل: «وأَمِرَّ دونَ عُبَيْدَةَ الوذَمُ»(١).

ثم تفضَّل تبارك وتعالى بِعِدَةِ المؤمنين على إنفاقهم في سبيل الله بأَن النفقة لابُدَّ أن تُوَفَّى ، أي أن تجازى ويُثابُ عليها ، ولزوم هذا هو في الآخرة ، وقد يمكن أن يُجازي الله تعالى بعض المؤمنين في الدنيا مجازاة مضاعفة إلى مجازاة الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا ﴾ الآية ، الضمير في [جَنحُوا] هو للذين نبذ إليهم على سواءٍ ، وجَنَح الرجل إلى الأمر إذا مالَ إليه وأَعطى يده فيه ، ومنه قيل للأَضلاع: جوانح لأنها مالت على الحُشوة(٢) ، وللخِباءِ: جناح ، وجنحت الإِبل إذا مالت أَعناقها في السَّيْر ، وقال ذو الرُّمَّة:

إذا مات فوْقَ الرَّحْل أَحْيَيْتُ رُوحَه ... بذِكْرَاكِ والعِيسُ المراسِيلُ جُنَّحُ(٣)

وجَنَح الليلُ إذا أَقبل وأَمال أطنابه(٤) على الأرض.

ومنه قول النابغة:

جــوانِــحُ قــدْ أيقَــنَّ أنَّ قبيلَــهُ ... إذا ما الْتقَى الجمعْانِ أَوَّلُ غَالِبِ(٥)

(١) تقدمت الإشارة إلى هذا المثل عند تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾ [آل عمران: ٢٨] ، وأُمِرَّ: أُحْكِم ، والوَذَمُ: سَيْرٌ تُشَدُّ به أُذُن الدلو ، وجمعه أَوْذُم وأَوْذامٌ ، ويضرب هذا المثل لمن يحكم الأمر دونه. (مجمع الأمثال للميداني ٢ ـ ٢٨٥).

(٢) الحِشْوة بضم الحاءِ ويكسرها: الأمعاءُ.

(٣) الرَّحْل: ما يوضع فوق ظهر البعير للركوب عليه. والعيس: الإبل البيض ، والمراسيل: سهْلة السير التي تعطيك ما عندها عفواً دون إجهاد لها أو لك ، وجُنَّح: مائلة صدورها إلى الأرض ، وقيل: مائلة في سيرها من النشاط ، يريد أنَّه يغني بأشعاره فيحيى روحه.

(٤) الأطْناب: جمع طُنُب بضمتين ، والطُّنُب: حبل الخباءِ ، يقال: خِباءٌ مُطَنَّب ورواقٌ مُطَنَّب ، أي مشدودٌ بالأطْناب.

(٥) البيت في وصف الطيور التي تتبع الجيش ، ويوضح هذا البيتُ الذي قبْلَه ، وفيه يقول:

إذا مــا غَـزا بــالجَيْش أبْصَـرْتَ فــوقَــهُ ... عَصَــائِــبَ طيْــر تَهْتَــدي بعَصَــائــبِ

والقبيل: الجماعة من قوم شَتى تكون من الثلاثة فصاعداً ، وقد فسّر ابن عطية رحمه الله كلمة «جوانح».

أي موائل، وقال لبيد:

جُنُوحَ الهالِكيِّ على يديهِ مُكِبّاً يَجْتَلِي نُقَبَ النِّصالِ[(١)]

وقرأ جمهور الناس: ﴿لِلسَّلْمِ﴾ بفتح السين وشدِّها، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: [للسِّلْم] بكسرها وشدها، وهما لغتان في المسالمة.

ويقال أيضاً: (السَّلَم) بفتح السين واللام، ولا أحفظها قراءة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَٱجْنَحْ﴾ بفتح النون، وهي لغة تميم، وقرأ الأشهب العقيلي: [فاجنُح] بضم النون وهي لغة قيس، قال أبو الفتح:

وهذه القراءة هي القياس، لأن فَعَلَ إذا كان غير متعد فمستقبله[(٢)].

يفعُل بضم العين أقيس، قعَد يقعُد أقيس من جلَس يجْلِس، وعاد الضمير في ﴿لَهَا﴾ مؤنثاً إذ السَّلم بمعنى المسالمة والهدنة، وقيل: السّلم مؤنثة كالحرب، ذكره النحاس، وقال أبو حاتم: يذكَّر السَّلم.

وقال قتادة، والحسن بن أبي الحسن، وعكرمة، وابن زيد:

هذه الآية منسوخة بآيات القتال في (براءَة)[(٣)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد يحتمل ألاَّ يترتب نسخها بها بأن يُعنى بهذه من تجوز مصالحته، وتبقى تلك التي في (براءة) في عَبَدة الأوثان، وإلى هذا ذهب الطبري، وقول الجماعة صحيح أيضاً إذ كان الجنوح إلى سلْم العرب مستقراً في صدر الإسلام فنَسَخت ذلك آية (براءَة)

---

(١) البيت مع الأبيات السابقة عليه في وصف ثور وحشي ناشط كثير الحركة ضلَّ عن القطيع الذي كان يرعى معه، وبات في حِمَى بعض الأشجار يحرك قرنه كلما تحركت أغصان الشجر أو قطرت على ظهره، وقد أكَبَّ كما يكبُّ الصَّيقل الذي يشحذ السيوف، ومعنى جُنُوح: إكْباب، أي أكبَّ مثْل إكباب، والهالكيّ: الصيقلي الذي يشحذ السيوف على يديه أو يصنعها، ويجتلي: يجْلو، والنُّقَب: الصدأ الذي ظهر في النصال، والصورة التي عرضها لبيد في هذه الأبيات وما تبعها من معركة بين الثور والكلاب من روائع الصور في الشعر العربي.

(٢) أي: مُضَارعُه.

(٣) كقوله تعالى: في الآية: (٥): ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.
وقوله في الآية (٣٦): ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾.

ونبذت إليهم عهودهم، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾[1].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول بعيد من أن يقول ابن عباس رضي الله عنهما، لأن الآيتين مدنيَّتان، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أمرٌ في ضمنه وعيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

الضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا﴾ عائد على الكفار الذين قيل فيهم: ﴿وَإِن جَنَحُوا﴾، وقوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ﴾ يريد: بأن يظهروا له السَّلم ويبطنوا الغدر والخيانة، أي فاجنح وما عليك من نياتهم الفاسدة. ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي كافيك ومعطيك نُصرةً وإظهاراً، وهذا وعدٌ محضٌ. و﴿أَيَّدَكَ﴾ معناه: قوَّاكَ، ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد: بالأنصار بقرينة قوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، وهذه إشارة إلى العداوة التي كانت بين الأوس والخَزْرج في حروب بعاث، فألَّف الله تعالى قلوبهم على الإسلام، وردّهم متحابّين في الله، وعددت هذه النعمة تأنيساً لمحمد ﷺ، أي: كما لطف بك ربُّك أولاً فكذلك يفعل آخراً.

وقال ابن مسعود: نزلت هذه الآية في المتحابِّين في الله، وقال مجاهد: إذا تراءى المتحابان فتصافحا وتضاحكا، تحاتَّت خطاياهم، فقال له عَبْدَة بن أبي لبابة: إن هذا ليسير، فقال له: لا تقل ذلك، فإن الله يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، قال عَبْدة: فعرفتُ أنه أفقه مني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله تَمثُّل حسَنٌ بالآية، لا أن الآية نزلت في ذلك، بل تظاهرت أقوال

(١) محمد: ٣٥.

المفسرين أنها في الأَوس والخزرج كما ذكرنا ، ولو ذهبَ ذاهبٌ إلى عموم المؤمنين في المهاجرين والأَنصار ، وجعل التأليف ما كان بين جميعهم من التحابّ حتى تكون أُلفة الأَوس والخزرج جزءاً من ذلك لَسَاغَ ذلك ، وكل تآلف في الله فتابع لذلك التآلف الكائن في صدر الإِسلام ، وقد روى سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن مألفة ، لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[(١)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والتشابُه هو سبب الأُلفة ، فمن كان من أَهل الخير أَلِف أشباهه وأَلِفوه.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ .

قال النقاش: نزلت هذه الآية بالبيداءِ في غزوة بدر قبل القتال ، وحكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في الأَوس والخزرج خاصة ، قال: ويقال: إنها نزلت حين أَسلم عمر رضي الله عنه وكمل المسلمون أربعين ، قاله ابن عمر ، وأَنس ، فهي ـ على هذا ـ مكيَّة.

و﴿ حَسۡبَكَ ﴾ في كلام العرب ، و[شَرْعُكَ][(٢)] بمعنى: كافيك ويكفيك ، والمحسب: الكافي ، وقالت فرقة: معنى هذه الآية: يكفيك الله ويكفيك من اتَّبعك من المؤمنين ، فـ [مَنْ] ـ في هذا التأْويل ـ رفع عطفاً على اسم الله عزَّ وجلَّ ، وقال عامر الشعبي ، وابن زيد: معنى الآية: حسبك الله وحسب من اتَّبعك من المؤمنين ، فـ[مَنْ] ـ في هذا التأويل ـ في موضع نصب عطفاً على موضع الكاف ، لأن موضعها نصب على المعنى لِـ (يَكْفيك) التي سدّت [حَسْبُك] مسدَّها ، ويصح أن تكون [مَنْ] في موضع خفضٍ بتقدير محذوف كأَنه قال: وحسب ، وهذا كقول الشاعر:

أَكُـلَّ امْـرِئٍ تحْسَبِيـنَ ٱمْـرءاً ونـارٍ تَـوَقَّـدُ بـاللَّيْـلِ نـارا؟[(٣)]

---

(١) لفظه في «الجامع الصغير» للإمام السيوطي: (المؤمن يألف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف) ، ثم قال: رواه الإمام أحمد في مسنده عن سهل بن سعد ، وذكر السيوطي أنه حديث صحيح ، ولكن الرواية في مسند الإمام أحمد: (المؤمن مألف. . .) كما ذكر ابن عطية ، (راجع المسند ٥ ـ ٣٣٥) ، وبلفظ (مألف) ذكره في «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي».

(٢) يقال في المثَل: «شَرْعُكَ ما بلَّغكَ المحَلَّ» أي: يكفيك من الزاد ما بلَّغك مقصدك. (مجمع الأمثال للميداني).

(٣) نُسب هذا البيت لجارية بن الحجاج ، وحارثة بن حمران ، وعدي بن زيد العبادي ، وأبي دؤاد ـ وهو=



التقدير: «وكلّ نارٍ»، وهذا الوجه من حذف المضاف مكروه، بابُه ضرورة الشعر[١]، ويروى البيتَ «وناراً»، ومن نحو هذا قول الشاعر:

إذا كانت الهَيْجاءُ وانْشَقَّتِ العَصَا   فحَسْبُك والضَّحّاكُ سَيْفٌ مُهَنَّدُ[٢]

يروى «الضحاكُ» مرفوعاً، و«الضحاكَ» منصوباً، و«الضحاكِ» مخفوضاً، فالرفع عطف على قوله: «سيفٌ» بنيّةِ التأخير، كما قال الشاعر:

. . . .   عليْـك ورَحْمَـةُ اللهِ السَّـلامُ[٣]

ويكون «الضحاك» ـ على هذا ـ محسباً للمخاطب[٤]، والنصب عطفٌ على موضع الكاف من قوله: «حَسْبُكَ»، والمُهنَّد ـ على هذا ـ محسب للمخاطَب، و«الضحاك» على تقدير محذوف، كأنه قال: «فحسبك وحسب الضحاك».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

= في كتاب سيبويه ١ ـ ٣٣، وابن عقيل ٢ ـ ٢٠، والكامل ٢٤٧، ٨٢٥، والسيوطي ٢٣٩.

(١) قال أبو حيان في «البحر المحيط» تعقيباً على ذلك: «وليس بمكروه ولا ضرورة، وقد أجازه سيبويه في الكلام وخرَّج عليه البيت وغيره من الكلام الفصيح». (البحر المحيط ٤ ـ ٥١٦).

(٢) لم نقف على قائل البيت، و«كان» هنا تامة، والهيجاء: الحرب، وانشقت العصا: تفرقت الجماعة، وقد ذكر ابن عطية بالتفصيل الأوجه الثلاثة في إعراب كلمة «الضحاك»، وقد روي بها البيت، وذكر صاحب اللسان البيت دليلاً على أن الكاف في (حَسْبُكَ) في موضع نصب كما هي في الآية الكريمة، وذكر أن (مَنْ) في موضع نصب أيضاً.

(٣) هذا عجز بيت للأحوص، والبيت بتمامه:

ألا يـا نخلـةً مِـنْ ذاتِ عِـرْقٍ   عليْـكِ ورحمـةُ اللهِ السـلامُ

هكذا ذكره في الخزانة ١ ـ ١٩٢، ٣١٢ ـ وفي مجالس ثعلب ١ ـ ١٩٨، رُوي الشطر الثاني: «بَرُودِ الظِّلِّ شاعكم السَّلامُ»، وعلى هذا فلا شاهد فيه على العطف، وتقدير العطف بنيّةِ التأخير كما في رواية الخزانة وابن عطية: «عليك السلامُ ورحمةُ الله»، فـ (رحمة) معطوفة على (السلام) على نيّة التأخير، والنخلة كناية عن امرأة، ومعنى «شاعَكُم»: عَمَّكُم وصَحِبَكُم.

(٤) أي: هو الكافي للمخاطب.



قوله تعالى: ﴿حَرِّضِ﴾ معناه: حُثَّهم وحُضَّهم. قال النقاش: وقرئت [حَرِّص] بالصاد غير منقوطة، والمعنى متقارب، والحارض ـ الذي هو القريب من الهلاك ـ لفظة مباينة لهذه ليست منها في شيء[١].

وقالت فرقة من المفسرين: المعنى: حرِّضْ على القتال حتى يبين لك فيمن تركه أنه حُرِّض.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول غير ملتئم ولا لازم من اللفظ، ونحا إليه الزجاج.

والقتالُ مفترض على المؤمنين بغير هذه الآية، وإنما تضمنت هذه الآية أمر النبي ﷺ بتحريضهم على أَمر قد وجب عليهم من غير هذا الموضع.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن﴾ إلى آخر الآية في لفظ خبر ضمنه وعد بشرط، لأَن قوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ بمنزلة أَن يقال: إنْ يصبرْ منكم عشرون يَغْلِبُوا، وفي ضمنه الأَمر بالصبر، وكسرت العين من [عِشرون] لأَن نسبة عشرين من عشرة نسبة اثنين من واحد، فكما جاءَ أَول اثنين مكسوراً كسرت العين من عشرين، ثم اطرد في جُموع أَجزاءِ العشرة، فالمفتوح كأَربعة وخَمسة وسبعة فُتح أَول جمعه، والمكسور كستَّة وتِسْعَة كُسر أَول جمعه، هذا قول سيبويه، وذهب غيره إلى أَن (عشرين) جمع عِشْر الإِبل، وهو ورودها للتِّسع[٢]، فلما كان في عَشرة وعَشرة عِشْرٌ وعِشْرٌ ويومان من الثالث جمع ذلك على عِشْرين، كما قال امرؤ القيس:

. . . . ثلاثينَ شَهْراً في ثلاثة أَحْوالِ[٣]

---

(١) يقال: حَرَضَ يحرُض ويحرِض حرَضاً وحُروضاً: هَلَك، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾، وهذا معنى آخر غير معنى حَرَّض أي حَثَّ وحَضَّ. (اللسان).

(٢) إذا مُنعت الإبل من الماء تسعاً ثم وردت في العاشر فهو «عِشْر الإبل».

(٣) هذا عجز بيت، والبيت بتمامه:

وهَلْ يَنْعَمَنْ مَنْ كانَ أَقْرَبُ عَهْدِهِ ثلاثين شَهْراً في ثلاثةِ أَحْوالِ؟

وهو في الديوان، ورواية الأصمعي: يعِمَنْ، ورواية الطوسي والسكري وأبي سهل: أقرب عهده، والبيت في «معاني القران» لابن النحاس، ورقة ١٢٩ وروايته: آخر عهده، وفي الخصائص ٢ ـ ٣١٣: أحدث عهده.



لما كان في الثلاثين حولٌ وحولٌ وبعض الثالث.

وتظاهرت الروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من الصحابة بأَن ثبوت الواحد للعشرة كان فرضاً من الله عزَّ وجلَّ على المؤمنين، ثم لمَّا شق ذلك عليهم حط الفرض إلى ثبوت الواحد للاثنين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو النَّسخ، لأَنه رفع حكم مستقر بحكم آخر شرعي، وفي ضمنه التخفيف إذ هذا من نسخ الأَثقل بالأَخف، وذهب بعض الناس إلى أَن ثبوت الواحد للعشرة إنما كان على جهة ندب المؤمنين إليه، ثم حط ذلك حين ثقل عليهم إلى ثبوت الواحد للاثنين، وروي أَيضاً هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال كثير من المفسرين: وهذا تخفيف لا نسخ إذ لم يستقر لفرض العشرة حكم شرعي، قال مكي: وإنما هو كتخفيف الفطر في السفر وهو لو صام لم يأْثم وأَجزأَه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر، ولا يمتنع كون المنسوخ مباحاً من أَن يقال: نُسخ، واعتبر ذلك في صدقة النجوى، وهذه الآية التخفيف فيها نسخ للثبوت للعشرة، وسواءٌ كان الثبوت للعشرة فرضاً أَو ندباً هو حكم شرعي على كل حال، وقد ذكر القاضي ابن الطيب أَن الحكم إذا نُسخ بعضه أَو بعض أَوصافه أَو غير عدده فجائز أَن يقال له: نسخ، لأَنه حينئذ ليس بالأَول، وهو غيره، وذكر في ذلك خلافاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي يظهر في ذلك أَن النسخ إنما يقال حينئذ على الحكم الأَول مقيداً لا بإِطلاق، واعتبر ذلك في نسخ الصلاة إلى بيت المقدس[1].

---

(١) من أسرار الفصاحة في التعبير القرآني هنا ما ذكره المفسرون عن التقييد بالصبر، إذ جاء هذا التقييد في أول كل شرط ﴿عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ﴾ و﴿مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾، ثم حذف من الشرط الثاني ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا﴾ ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ﴾، وسبب الحذف من الشرط الثاني دلالة الأول عليه، وفي المقابل قُيِّد الشرط الثاني بقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على حين حذف من الشرط الأول في قوله ﴿يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ﴾. فالقيد المذكور في الجملة الأولى يحذف من الثانية، والقيد المذكور في الثانية يحذف من الأولى ليحدث في الآيتين توازن.



وقرأ حمزة، والكسائي وعاصم: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ﴾ في الموضعين بياءٍ على تذكير العلامة، ورواها خارجة عن نافع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بحسب المعنى، لأَن الكائن في تلك المائة إنما هو رجال، فذلك في الحمل على المعنى كقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1]، إذ أَمثالها حسنات. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: [إِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ] بالتاءِ في الموضعين على تأنيث العلامة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بحسب اللفظ والمقصد، كأَنه أَراد: إن تكن فرقة عددها مائة. وقرأَ أَبو عمرو بالياءِ في صدر الآية، وبالتاءِ في آخرها، ذهب في الأُولى إلى مراعاة ﴿يَغْلِبُوا۟﴾، وفي الثانية إِلى مراعاة ﴿صَابِرَةٌ﴾، قال أَبو حاتم: وقرأَ الأَعرج [إِنْ تَكُنْ] بالتاءِ من فوق ﴿مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ وجعلها كلها على التاءِ.

قال القاضي: أَبو محمد رحمه الله:

إلا قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ﴾ فإنه لا خلاف في الياءِ من تحت. وقوله: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ معناه: لا يفهمون مراشدهم ولا مقصد قتالهم، ولا يريدون به إلا الغَلبة الدنياوية، فهم يخافون الموت إِذا صُبر لهم، ومن يقاتل ليَغْلِب أو يستشهد فيصير إلى الجنة أَثبت قدماً لا محالة.

وروى المفضل عن عاصم: [وعُلِم] بضم العين وكسر اللام على البناءِ للمفعول، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، ابن عامر، والكسائي، وابن عمرو، والحسن، والأعرج، وابن القعقاع، وقتادة، وابن أَبي إِسحق: [ضُعْفاً] بضم الضاد وسكون العين. وقرأَ عاصم، وحمزة، وشيبة، وطلحة: [ضَعْفاً] بفتح الضاد وسكون العين، وكذلك اختلافهم في سورة الروم[2]، وقرأَ عيسى بن عمر: [ضُعُفاً] بضم

---

(١) الأنعام: ١٦٠.

(٢) في قوله تعالى في الآية: ٥٤ من سورة الروم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾.

الضاد والعين، ذكره النقاش، وهي مصادر بمعنى واحد، قال أَبو حاتم: من ضم الضاد جاز له ضم العين، وهي لغة، وحكى سيبويه الضَّعْف والضُّعْف لغتان بمنزلة الفَقْر والفُقْر، حكى الزهراوي عن أَبي عمرو بن العلاءِ أَنه قال: ضم الضاد لغة أَهل الحجاز، وفتحها لغة تميم، ولا فرق بينهما في المعنى، وقال الثعالبي في كتاب «فقه اللغة» له: الضَّعف بفتح الضاد في العقل والرأي، والضُّعف بضمها في الجسم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ترده القراءَة، وذكره أَبو غالب بن التياني غير منسوب.

وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع أيضاً «ضُعَفاءَ» بالجمع كظريف وظرفاءَ، وحكاه النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ لفظ خبر في ضمنه وعدٌ وحضٌ على الصبر، ويُلحظ منه وعيدٌ لِمَن لمْ يصبر بأَنه يُغلب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾.

هذه الآية تتضمن ـ عندي ـ معاتبة من الله عزَّ وجلَّ لأَصحاب نبيِّه ﷺ، والمعنى: ما كان ينبغي لكم أَن تفعلوا هذا الفعل الذي أَوجب أَن يكون للنبي أَسرى قبل الإثخان، والإِخبار هو لهم، ولذلك استمر الخطاب بـ ﴿تُرِيدُونَ﴾، والنبي ﷺ لم يأْمر باستبقاءِ الرجال وقت الحرب ولا أَراد قط عرَض الدنيا، وإِنما فعله جمهور مباشري الحرب، وجاءَ ذكر النبي ﷺ في الآية مشيراً إِلى دخوله ﷺ في العتب حين لم يَنْه عن ذلك حين رآه من العريش وأَنكره سعد بن معاذ، ولكنه ﷺ شغله بغْتُ الأَمر وظهور النصر، فترك النهي عن الاستبقاءِ، ولذلك بكى ﷺ وأَبو بكر حين نزلت هذه الآية، ومرَّ كثير من المفسرين على أَن هذا التوبيخ إنما كان بسبب إشارة من أَشار على النبي ﷺ بأَخذ الفدية، وذلك أَن رسول الله ﷺ لما جمع أَسرى بدر استشار فيهم أَصحابه، فقال أَبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله هم قرابتك، ولعل الله أَن يهديهم بعْدُ إِلى الإسلام، ففادِهم واستبقِهم ويتقوى المسلمون بأَموالهم، وقال

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يا رسول الله ، بل نضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر ، وقال عبد الله بن رواحة: بل نجعلهم في وادٍ كثير الحطب ثم نضرمه عليهم ناراً ، وقد كان سعد بن معاذ قال وهو مع رسول الله ﷺ في العريش وقد رأى الأسر: لقد كان الإثخان في القتل أحب إليَّ من استبقاء الرجال: فأخذ رسول الله ﷺ بقول أبي بكر رضي الله عنه ومال إليه ، فنزلت هذه الآية مخبرة أن الأولى على سائر الكفار كان قتل أسرى بدر ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية والمسلمون قليل ، فلما كثروا واشتد سلطانهم نزل في الأسر: ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾[1] ، وذكر الطبري ، وغيره أن رسول الله ﷺ لما تكلَّم أصحابه في الأسرى بما ذكر دخل ولم يُجبهم ، ثم خرج فقال: «إن الله تعالى يُلين قلوب رجال ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] ، ومثل عيسى قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[3] ، ومثلك يا عمر مثل نوح قال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[4] ، ومثل موسى قال: ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[5] ، ثم قال رسول الله ﷺ: «أنتم اليوم فلا يُفلتن منهم رجل إلا بفدية أو ضرب عنق»[6] وفي هذا الحديث قال عمر رضي الله عنه: «فَهَوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يَهْوَ ما قلت».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه حجة على ذكر «الهوى» في الصلاح.

وقرأت فرقة: [مَا كَان لِلنَّبي] معرفاً ، وقرأ جمهور الناس: ﴿ لِنَبِيٍّ ﴾ ، وقرأ أبو

---

(١) محمد: ٤.

(٢) إبراهيم: ٣٦.

(٣) المائدة: ١١٨.

(٤) نوح: ٢٦.

(٥) يونس: ٨٨.

(٦) الحديث مروي من طرق كثيرة ، وقد أخرجه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والترمذي وحسَّنه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وأخرج مثله أحمد عن أنس رضي الله عنه ، وكذلك أخرج مثله ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والمضمون واحد ، ولكن توجد اختلافات يسيرة في الألفاظ. (الدر المنثور).

عمرو بن العلاءِ وحده: [أَنْ تَكُونَ] على تأنيث العلامة مراعاة لِلَفْظ الأَسرى ، وقرأَ باقي السبعة وجمهور الناس: ﴿أَن يَكُونَ﴾ بتذكير العلامة مراعاة لمنع الأَسرى ، وقرأَ جمهور الناس والسبعة: ﴿أَسْرَىٰ﴾ ، وقرأَ بعض الناس: [أُسَارَى] ، ورواها المفضل عن عاصم ، وهي قراءَة أبي جعفر.

والقياس والباب أَن يجمع أَسيرٌ على أَسْرى ، وكذلك كل فَعيل بمعنى مفعول ، وشُبِّه به فَعيلٌ وإِن لم يكن بمعنى مفعول كمريض ومَرْضى إذا كانت أَيضاً أَشياءَ سبيلُ الإنسان أَن يجبر عليها وتأْتيه غَلَبة فهو فيها بمنزلة المفعول ، وأَمَّا جمعه على أُسارى فشبيه بكُسالى جمع كسلان ، وجمع أَيضاً كسْلان على كَسْلَى تشبيهاً بأَسْرى في جمع أَسير ، قال سيبويه: وهما شاذَّان ، وقال الزجاج: أُسارَى جمع أَسْرى ، فهو جمع الجمع(١).

وقرأَ جمهور الناس: ﴿يُثْخِنَ﴾ بسكون الثاءِ ، وقرأَ أبو جعفر ، ويحيى بن يَعْمَر ، ويحيى بن وثاب ، [يُثَخِّن] بفتح الثاءِ وشد الخاءِ ، ومعناه في الوجهين: يبالغ في القتل ، والإثخان إِنما يكون في القتل والجراحة وما كان منهما.

ثم أَمدَّ(٢) مخاطبةَ أَصحاب النبي ﷺ فقال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ أَي: مالها الذي يعِنُّ ويعرض ، والمراد ما أُخذ من الأَسرى من الأَموال ، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ أَي عمل الآخرة ، فحُذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه ، وقرأَ ابن جماز: [الآخِرَةِ] بالخفض على تقدير المضاف ، وينظر لذلك قول الشاعر:

أَكُلَّ امْرِىءٍ تَحْسَبِينَ امْرءًا ... ونارٍ تَوَقَّدُ باللَّيلِ نارا؟(٣)

---

(١) أُسارى تكون بضم الهمزة وتكون بفتحها ، وكانوا يشدون الأسير بالقِدِّ وهو الإسَارُ ، فسُمِّي كل أَخيذ وإِنْ لم يؤسر أسيراً ، قال الأعشى:

وقَيَّدني الشِّعْرُ في بَيْتِهِ ... كما قَيَّدَ الآسِرَاتُ الحِمَارا

وقال أبو عمرو بن العلاء: الأَسْرى: هم غير المُوثقين عندما يؤخذون ، والأُسارى: هم الموثوقون ربطاً ، وحكى أبو حاتم أنه سمع هذا من العرب.

(٢) تأتي (أَمَدَّ) بمعنى (مَدَّ) ، يقال: أَمَدَّ الشيءَ ومدَّه: زاد فيه ، والمعنى المراد هنا أن الله زاد في مخاطبة أصحاب النبي ﷺ.

(٣) سبق الاستشهاد بهذا البيت والتعليق عليه عند تفسير قوله تعالى في هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

على تقدير: وكلِّ نارٍ.

وذكر الطبري وغيره أَن رسول الله ﷺ قال للناس: إِن شئتم أَخذتم فداءَ الأسرى ويقتل منكم في الحرب سبعون على عددهم، وإِن شئتم قُتلوا وَسلِمْتُم، فقالوا: نأْخذ المال ويستشهد منا سبعون، وذكر عبد بن حميد بسنده أَن جبريل نزل على النبي ﷺ بتخْيير الناس هكذا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى الروايتين فالأَمر في هذا التَّخيير من عند الله فإِنه إِعلامٌ بغيب، وإِذا خُيِّروا فكيف يقع التوبيخ بعْدُ بقوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ والذي أَقول في هذا: إِن العَتْب لأَصحاب النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ إلى قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ إنما هو على استبقاءِ الرجال وقت الهزيمة رغبة في أَخذ المال منهم، وجميع العتْب إذا نظر فإِنما هو للناس، وهناك كان عمر رضي الله عنه يقتل ويحضّ على القتل ولا يرى الاستبقاءَ، وحينئذ قال سعد بن معاذ: الإِثخان أَحب إِليَّ من استبقاءِ الرجال، ولذلك جعلهما رسول الله ﷺ ناجِيَيْن من عذاب إِن لو نزل، ومما يدل على حرص بعضهم على المال قول المقداد حين أَمر رسول الله ﷺ بقتل عقبة بن أَبي معيط: «أَسيري يا رسول الله»، وقول مصعب بن عُمير للذي يأْسر أَخاه: «شُدَّ يدك عليه فإِن له أُمّاً موسرة»، إِلى غير ذلك من قصصهم، فلما تحصل الأَسرى وسيقوا إِلى المدينة وأَنفذ رسول الله ﷺ القتل في النَّضْر وعُقْبة، والمَنَّ في أَبي عزَّة وغيره، وجعل يَرْتَئي في سائرهم نزَلَ التخيير من الله تعالى، فاستشار رسول الله ﷺ حينئذ، فمرَّ عمر رضي الله عنه على أَول رأيه في القتل، ورأَى أَبو بكر رضي الله عنه المصلحة في قوة المسلمين بمال الفداءِ، ومال رسول الله ﷺ إِلى رأي أبي بكر رضي الله عنه، وكلا الرأْيين اجتهاد بعد تخيير، فلم ينزل على شيءٍ من هذا عتب، وذكر المفسرون أن الآية نزلت بسبب هذه المشورة والآراءِ، وذلك معترض بما ذكرته، وكذلك ذكروا في هذه الآيات تحليل المغانم لهذه الأمة، ولا أَقول ذلك، لأَن حكم الله بتحليل المغنم لهذه الأُمة قد كان تقدم قبل بدر، وذلك في السَّرِيَّة التي قُتل فيها عمرو بن الحضرمي، وإِنما المبتدع في بدر استبقاءُ الرجال لأَجل المال، والذي منَّ الله به فيها إِلحاق فدية الكافر بالمغانم التي قد تقدم تحليلها.

ووَجْهُ ما قال المفسرون أَن الناس خُيِّروا في أَمرين أَحدهما غير جيّد على جهة الاختبار لهم ، فاختاروا المفضول فوقع العتب ، ولم يكن تخييراً في مستويين ، وهذا كما أُتِي رسول الله ﷺ ليلة الإِسراءِ بإِنَاءَيْنِ فاختار الفاضل[(١)] .

و﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان من قِبلِ الآية لأَن بالعزَّة والحكمة يتم مراده على الكمال والتوفية ، وقال أبو عمرو بن العلاء: الأَسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون ، والأَسارى هم الموثقون ربطاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وحكى أبو حاتم أنه سمع هذا من العرب ، وقد ذكره أَيضاً أبو الحسن الأَخفش ، وقال: العرب لا تعرف هذا وكلاهما عندهم سواءٌ.

وقوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ الآية. قالت فرقة: الكتاب السابق هو القرآن ، والمعنى: لولا الكتاب الذي سبق فآمنتم به وصدَّقتم لمسَّكم العذاب لأَخْذكم هذه المفاداة ، وقال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، والحسن أيضاً ، وابن زيد: الكتاب السابق هو مغفرة الله لأَهل بدر ما تقدم من ذنوبهم أَو تأَخر ، وقال الحسن ، وابن عباس ، وأَبو هريرة ، وغيرهم: الكتاب هو ما قد كان الله قضاه في الأَزل من إِحلال الغنائم والفداءِ لمحمد ﷺ وأُمته ، وكانت في سائر الأُمم محرَّمة. وقالت فرقة: الكتاب السابق هو عفو الله عنهم في هذا الذنب مُعَيَّناً ، وقالت فرقة: الكتاب السابق هو أن الله عزَّ وجلَّ قضى ألاَّ يعاقب أحداً بذنب أتاه بجهالة ، وهذا قول ضعيف تعارضه مواضع من الشريعة ، وذكر الطبري عن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أَبي طالب أن الكتاب السابق هو ألاَّ يعذب أَحداً بذنب إلا بعد النهي عنه ، ولم يكونوا نُهوا بعْدُ ، وقالت فرقة: الكتاب السابق هو ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر.

وذهب الطبري إلى دخول هذه المعاني كلها تحت اللفظ وأنه يَعُمُّها ، ونَكَّبَ[(٢)] عن تخصيص معنى دون معنى.

---

(١) حديث الإِسراء حديث طويل ، وقد رواه البخاري ، وفيه مما يشير إليه ابن عطية هنا: (ثُمَّ أُتيت بإناءٍ من خمر وإناءٍ من لبن وإناءٍ من عسل فأخذت اللبن فقال: هي الفطرة ، أنت عليها وأُمتك).

(٢) نكَّب عن الشيءِ: عدل عنه وتنَحَّى.



واللام في ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ جواب ﴿لَّوْلَا﴾ ، و﴿كِتَٰبٌ﴾ رفع بالابتداءِ والخبر محذوف ، وهكذا حال الاسم الذي بعد (لولا) ، وتقديره عند سيبويه: لولا كتاب سابق من الله تداركَكم ، و[ما] من قوله تعالى: ﴿فِيمَآ﴾ يراد بها إمَّا الأَسرى وإمَّا الفداءُ ، وهي موصولة.

وفي ﴿أَخَذْتُمْ﴾ ضمير عائد عليها ، ويحتمل أن تكون مصدرية فلا تحتاج إلى العائد ، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «لو نزل في هذا الأمر عذاب لَنَجا منه عمر بن الخطاب»[١] ، وفي حديث آخر: «وسعد بن معاذ» ، وذلك أن رأْيهما كان أن يُقتل الأَسرى[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآية ، نصٌّ على إباحة المال الذي أُخذ من الأَسرى وإلحاقٌ له بالغنيمة التي كان تقدم تحليلها.

وقوله: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ حالان من [ما] في قوله: ﴿مِمَّا﴾ ، ويصح أن يكونا من الضمير الذي في ﴿غَنِمْتُمْ﴾ ، ويحتمل أن يكون ﴿حَلَٰلًا﴾ مفعولاً بـ ﴿فَكُلُوا۟﴾ . ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ معناه: في التسرع حسب إرادة البشر وشهوته في نازلة أُخرى ، وجاءَ قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اعتراضاً فصيحاً في أثناءِ الكلام ، لأن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هو متصل بالمعنى بقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ .

---

(١) أخرجه ابن مردويه ، ولفظه فيه: (لو نزل العذاب ما أفلت إلا ابن الخطاب) ، ورواية ابن جرير: قال رسول الله ﷺ: (لَوْ عُذِّبنا في هذا الأمر يا عمر ما نجا غيرك).

(٢) يرى بعض المفسرين أن معنى هذه الآية هو: لولا كتاب من الله سبق بنصركم وتأييدكم حتى استوليتم عليهم قتلاً وأسراً على قلّة عددكم لمسَّكم فيما أخذتم من غنائمهم وفدائهم عذابٌ عظيم منهم لكونهم أكثر منكم عَدَداً ، ولكنه تعالى سهَّل عليكم ونصركم فلم ينلكم هذا العذابُ منهم ، وينظر أصحاب هذا الرأي إلى قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ .



رُوي أَن الأَسرى ببدر أَعلموا رسول الله ﷺ أَنهم لهم ميل إلى الإسلام ، وأَنهم يُؤَملونه ، وأَنهم إن فدوا ورجعوا إلى قومهم التزموا جلبهم إلى الإسلام ، وسَعَوْا في ذلك ، ونحو هذا الغرض ، ففي ذلك نزلت هذه الآية ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الأَسرى في هذه الآية عباس وأَصحابه ، قالوا للنبي ﷺ: آمنا بما جئت به ونشهد أَنك لرسول الله ، لَنَنْصَحنَّ لك على قومنا فنزلت هذه الآية.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ ، وقرأَ أَبو عمرو وحده من السبعة: [مِنَ الأَسَارَى] ، وهي قراءة أبي جعفر ، وقتادة ، ونصر ابن عاصم ، وابن أَبي إسحق ، واختلف عن الحسن بن أَبي الحسن ، وعن الجحدري ، وقرأَ ابن محيصن: [مِن لَسْرَى] بالإدغام ، ومعنى الكلام: إن كان هذا عن جدّ منكم وعلم الله من نفوسكم الخير والإسلام سيجبر عليكم(١) أَفضل مما أَعطيتم فدية ، وسيغفر لكم جميع ما اجترحتموه ، وقرأَ الأَعمش: [يُثِبْكُمْ خَيْراً]. وقرأَ جمهور الناس: [أُخِذَ] بضم الهمزة وكسر الخاءِ ، وقرأَ شيبة بن نصاح ، وأَبو حيوة [أَخَذَ] بفتحهما.

ورُوي أَن أَسرى بدر افتدوْا بأَربعين أُوقية أَربعين أُوقية إلا العباس فإنه افتدي بمائة أُوقية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأُوقية أَربعون درهماً ، وقال قتادة: فادُوهم بأَربعة آلاف أَربعة آلاف ، وقال عبيدة السلماني: كان فداءُ أَسرى بدر بمائة أُوقية ، والأُوقية أَربعون درهماً ، ومن الدنانير ستة ، وروي أَن العباس بن عبد المطلب قال: فيَّ وفي أَصحابي نزلت هذه الآية ، وقال حين أَعطاه رسول الله ﷺ من مالِ البحرين ما قَدَر أن يُقِل: هذا خيرٌ مما أُخذ مني ، وأَنا أَرجو أن يغفر الله لي ، وأَسند الطبري أيضاً إلى العباس أَنه قال: فيَّ نزلت حين أَعلمت رسول الله ﷺ بإسلامي وسأَلته أَن يحاسبني بالعشرين أُوقية التي أُخذت مني قبل المفاداة فأَبى وقال: (ذلك فيْءٌ)(٢) فأَبدلني الله من ذلك عشرين عبداً كلهم تاجرَ بمالي ، وروي عن العباس أَنه قال: ما أَودُّ أن هذه الآية لم تنزل ولي الدنيا بأَجمعها ، وذلك أن الله قد آتاني خيراً مما أُخذ مني ، وأَنا أَرجو أن يغفر لي.

---

(١) أي: يُعَوِّضُكم ما ذهب ويُعْطيكم أفضل منه ، وفي حديث الدعاء: (واجبُرْني واهْدني).

(٢) وأخرج مثله أبو نعيم في الدلائل من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، في حديث طويل عن هذا.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ ﴾ الآية.

قولٌ أُمِرَ أَن يقوله للأسرى ويورد معناه عليهم. والمعنى: إِن أَخلصوا فُعل بهم كذا، وإِن أَبطنوا خيانة ما زعموا أَن يُؤتمنُوا عليه من العهد فلا يسرهم ذلك ولا يسكنوا إِليه، فإِن الله بالمرصاد لهم، الذي خانوه من قبْلُ بكفرهم وتركهم النظر في آياته، وهو قد بيَّنها لهم إِدراكاً يحصلونها به، فصار ذلك كعهد متقرِّر، فجعل جزاءَهم على خيانتهم إِياه أَنْ مكَّن منهم المؤمنين، وجَعَلَهُم أَسرى في أَيديهم.

وقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان مناسبتان، أَي عليم بما يبطنونه من إِخلاص أَو خيانة، حكيم فيما يُجازيهم به.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَما تفسير هذه الآية بقصة عبد الله بن أَبي سرْح، فينبغي أن يُحَرَّر[1]، فإِن جُلبت قصة عبد الله بن أَبي سرح على أَنها مثال كما يمكن أَن تجلب أَمثلة في عصرنا من ذلك فحسن، وإِن جُلبت على أَن الآية نزلت في ذلك فخطأٌ، لأَن ابن أَبي سرح إِنما تبيَّن أَمره في يوم فتح مكة، وهذه الآية نزلت عقيب بدر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾.

---

(١) تتلخص قصة ابن أبي سرح هذا فيما رواه قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً كتب لنبي الله ﷺ ثم عمد فنافق، فلحق بالمشركين بمكة، ثم قال: ما كان محمد يكتب إلا ما شئت، فلما سمع ذلك رجل من الأنصار نذر: لئن أمكنه الله منه ليضربنه بالسيف، فلما كان يوم الفتح أمَّن رسول الله ﷺ الناسَ إلا عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ومقيس ابن ضبابة، وابن خطل، وامرأة كانت تدعو على النبي ﷺ كل صباح، فجاء عثمان بابن أبي سرح وكان رضيعه أو أخاه من الرضاعة ـ فقال: يا رسول الله هذا فلان أقبل تائباً نادماً، فأعرض نبي الله ﷺ، فلما سمع به الأنصاري أقبل متقلداً سيفه، فأطاف به، وجعل ينظر إلى رسول الله ﷺ رجاءَ أن يومىء إليه، ثم إن رسول الله ﷺ قدّم يده فبايعه، فقال: أما والله لقد تَلَوَّمْتُك فيه لتوفي نذرك، فقال: يا نبي الله إني هِبْتُك فلولا أومضت إليَّ، فقال: إنه لا ينبغي لنبي أن يومض. (رواه ابن جرير).



مقصد هذه الآية وما بعدها تَبْيين منازل المهاجرين والأنصار والمؤمنين الذين لم يهاجروا والكفار والمهاجرين بعد الحديبية، وذِكْر نسب بعضهم من بعض، فقدم أولا ذِكْرَ المهاجرين وهم أَصل الإسلام، وانظر تقديم عمر رضي الله عنه لهم في الاستشارة، وهاجر معناه: هجر أَهله وقرابته وهجروه، و﴿ وَجَٰهَدُواْ ﴾ معناه: أجهدوا أَنفسهم في حرب من أَجهد نفسه في حربهم. ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾ هم الأنصار، وآوَى معناه: هيأَ مأوى وهو الملجأ والحِرْزُ، فحكم الله على هاتين الطائفتين بأن بعضهم أَولياءُ بعض، فقال كثير من المفسرين: هذه الموالاةُ هي المؤازرة والمعاونة واتصال الأَيدي، وعليه فسّر الطبري الآية، وهذا الذي قالوا لازمٌ من دلالة اللفظ، وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وكثير منهم: إن هذه الموالاةُ هي في الميراث، وذلك أن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار، وكانت بين الأَنصار أُخوة النسب، وكانت أيضاً بين بعض المهاجرين، فكان المهاجري إذا مات ولم يكن له بالمدينة مهاجريٌّ وَرِثَهُ أَخوه الأنصاري، وإن كان له وليٌّ مسلم لم يهاجر، فكان المسلم الذي لم يهاجر لا ولاية بينه وبين قريبه المهاجري فلا يرثه، قال ابن زيد: واستمر أمرهم كذلك إلى فتح مكة، ثم توارثوا بعد ذلك لما لم تكن هجرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فذهبت هذه الفرقة إلى أن هذا هو مقصد الآية، ومن ذهب إلى أنها من التآزر والتعاون فإنما يحمل نفي الله تعالى ولايتهم عن المسلمين على أَنها صفة الحال، لا أن الله حكَم بأَنْ لا ولاية بين المهاجرين وبينهم جملة، وذلك أن حالهم إذا كانوا متباعدي الأَقطار تقتضي أنَّ بعضهم إنْ حَزَبهم حازب لا يجد الآخر ولا ينتفع به، فعلى هذه الجهة نفي الولاية، وعلى التأويلين ففي الآية حض للأعراب على الهجرة، قاله الحسن بن أبي الحسن، ومن رأَى الولاية في الموارثة فهو حكم من الله بنفي الولاية في الموارثة، قالوا: ونَسَخَ ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾(١) الآية.

وقرأَ جمهور السبعة والناس: ﴿ وَلَٰيَتِهِم ﴾ بفتح الواو، و﴿ ٱلْوَلَٰيَةُ ﴾ أيضاً بفتح

(١) ستأتي بعد ثلاث آيات، فهي الآية (٧٥) من هذه السورة.



الواو[١]، وقرأ الكسائي: [وَلاَيَتهم] بفتح الواو، و[الوِلاية] بكسر الواو، وقرأ الأعمش، وابن وثاب: [وِلايتهم] و[الوِلاية] بكسر الواو، وهي قراءة حمزة، قال أَبو علي: والفتح أجود لأنها في الدين، قال أَبو الحسن الأَخفش: «والكسر فيها لغة»، وليست بذلك، ولحن الأَصمعي الأَعمش[٢]، وأَخطأ عليه لأنها إذا كانت لغة فلم يلحن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لاسيما ولا يُظن به إلا أنه رواها، قال أَبو عبيدة: الوِلاية بالكسر هي من وليت الأَمر إليه فهي في السلطان، والوَلاية هي في المولى، يقال: مولى بيّن الوَلاية بفتح الواو.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ﴾ يعني: إن استدعى هؤلاءِ المؤمنون الذين لم يهاجروا نصركم على قوم من الكفرة فواجب عليكم نصرهم، إلا إن استنصروكم على قوم كفار قد عاهدتموهم أَنتم وواثقتموهم على ترك الحرب فلا تنصروهم عليهم، لأَن ذلك غدر ونقض للميثاق وترك لحفظ العهد والوفاءِ به، والقراءَة: ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ برفع الراء، ويجوز [فَعَلَيْكُمُ النَّصْرَ] على الإغراءِ، ولا أَحفظه قراءَة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على مخاطبة المؤمنين، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والأَعرج: [بِمَا يَعْمَلُونَ] بالياءِ على ذكر الغائب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾﴾.

---

(١) يريد [الوَلاية] في قوله تعالى في الآية (٤٤) من سورة (الكهف): ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾.

(٢) هكذا في جميع النسخ المخطوطة، ولكن من الواضح أنها «الأخفش» فالكلام عنه، ويؤيد ذلك ما قاله في «البحر» ونصه: «ولحن الأصمعي الأخفش في قراءته بالكسر وأخطأ في ذلك لأنها قراءة متواترة»، وكلام ابن عطية يؤيد هذا حين يقول: «لأنها إذا كانت لغة فلم يلحن» والذي قال إنها لغة هو الأخفش.



هذا حكم بأَن الكفار ولايتهم واحدة ، وذلك بجمع الموارثة والمعاونة والنُّصرة ، وهذه العبارة ترغيب وإِقامة للنفوس ، كما تقول لمن تريد أَنْ يستضلع[١] : «عدوُّك مجتهد» ، أَي: فاجتهد أنت.

وحكى الطبري في تفسير هذه الآية عن قتادة أنه قال: أَبى الله أَن يقبل إِيمان من آمن ولم يهاجر ، وذلك في صدر الإِسلام ، وذلك أيضاً مذكور مستوعب في تفسير قوله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[٢].

والذي يظهر من الشرع أن حكم المؤمن التارك للهجرة مع علمه بوجوبها ، حكم العاصي لا حكم الكافر ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إنما هي فيمن قتل مع الكفار ، وفيهم قال رسول الله ﷺ: «أنا بريءٌ من مسلم أَقام بين المشركين لا تراءَى نارهما» الحديث[٣] على اختلاف أَلفاظه ، وقولُ قتادة إنما هو فيمن كان يقوم متربصاً يقول: مَنْ غلَب كنت معه ، وكذلك ذكر في كتاب الطبري والكشي.

والضمير في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ قيل: هو عائد على الموارثة والتزامها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا لا تقع الفتنة عنه إلاَّ عن بُعد وبوساطة كثيرة ، وقيل: هو عائد على المؤازرة

---

(١) استضلع وتضلَّع بمعنى واحد ، إذ يراد بهما: امتلأ من العلوم وشبع.

(٢) النساء: ٩٧.

(٣) أخرجه أبو داود في سُنَنه عن جابر بن عبد الله في كتاب الجهاد قال: (بعث رسول الله ﷺ سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود فأسرع فيهم القتل ، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فأمر لهم بنصف العَقل ، وقال: أنا بريءٌ من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين ، قالوا: يا رسول الله لِمَ؟ قال: لا تراءى نارهما) ، والمعنى كما جاء في «النهاية» لابن الأثير: يلزم المسلم ويجب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشرك ، ولا ينزل بالموقع الذي إذا أُوقدت فيه ناره تلوح وتظهره لنار المشرك إذا أوْقدها في منزله ، ولكنه ينزل مع المسلمين في دارهم ، وإنما كره مُجَاورة المشركين لأنهم لا عهد لهم ولا أمان ، وحثَّ المسلمين على الهجرة ، والترائي: تفاعُلٌ من الرؤية ، يقال: تراءى القوم إذا رأى بعضهم بعضاً ، وتراءى لي الشيءُ: أي ظهر حتى رأيته ، وإسناد الترائي إلى النارين مجازٌ ، من قولهم: داري تنظر إلى دار فلان ، أي تقابلها ، يقول: ناراهما مختلفتان ، هذه تدعو إلى الله ، وهذه تدعو إلى الشيطان ، فكيف يتَّفقان؟ والأصل في تراءَى: تَتَراءَى ، فحذفت إحدى التَّاءَيْن تخفيفاً.



والمعاونة واتصال الأيدي ، وهذا تقع الفتنة عنه عن قُرْب فهو آكد من الأول ، ويظهر أيضاً عوده على حفظ العهد والميثاق الذي يتضمنه قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ ، وهذا إن لم يفعل فهو الفتنة نفسها ، ويظهر أن يعود الضمير على النصر للمسلمين المنتصرين في الدِّين ، ويجوز أن يعود الضمير مجملاً على جميع ما ذكر.

والفتنة: المحنة بالحرب وما أُنجز معها من الغارات والجلاءِ والأسر.

والفسادُ الكبير: ظهور الشِّرك ، وقرأ جمهور الناس: ﴿كَبِيرٌ﴾ بالباءِ المنقوطة بواحدة ، وقرأ أبو موسى الحجازي عن الكسائي بالثاءِ المنقوطة مثلثة ، وروى أبو حاتم المدني أن رسول الله ﷺ قرأ: [وفساد عريض] ، وقرأت فرقة: [والذين كفروا بعضُهم أوْلى ببعض].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ الآية ، آية تضمنت تخصيص المهاجرين والأنصار وتشريفهم بهذا الوصْف العظيم. و﴿حَقًّا﴾ نصب على المصدر المؤكد لما قبله ، ووَصْفُ الرزق بالكريم معناه أنه لا يستحيل نجواً[(١)] ، والمراد به طعام الجنة ، كذا ذكره الطبري وغيره ، ولازم اللفظ نفي المذمّات عنه ، وما ذكروه فهو في ضمن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مِن بَعْدُ﴾ يريد به: مِنْ بَعد الحديبية وبيعة الرضوان ، وذلك أن الهجرة من بعد ذلك كانت أقل رتبة من الهجرة قبل ذلك ، وكان يقال لها: الهجرة الثانية ، لأن الحرب وضعت أوزارها نحو عامين ، ثم كان فتح مكّة ، وبه قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»[(٢)] ، وقال الطبري: المعنى: من بَعْد ما بيَّنْتُ لكم حكم الولاية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكان الحاجز بين الهجرتين نزول الآية ، فأخبر الله تبارك وتعالى في هذه الآية بأنهم من الأولين في المؤازرة وسائر أحكام الإسلام.

---

(١) النَّجْو: ما يخرج من البطن ، ويقال: أنْجَى ، أي أحْدث ، والمعنى الذي يقصده المؤلف: لا يتغير في أجوافهم فيصير نَجْوا ، ولكنه يصير رشحاً كرشح المسك على ما وضحه الطبري في تفسيره.

(٢) رواه البخاري عن مجاشع بن مسعود ، ولفظه فيه: (لا هجرة بعد فتح مكة) ، ورمز له السيوطي بأنه صحيح. (الدر المنثور).



وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾ لفظ يقتضي أنَّهم تبع لا صدر، وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ كذلك، ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام: «مَوْلى القوم منهم»(١)، «وابن أُخت القوم منهم»(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾(٣) إلى آخر السورة، قال من تقدم ذكره: هي في المواريث، وهي ناسخة للحكم المتقدم ذكره من أَن يرث المهاجري الأنصاري، ووجب بهذه الآية الأَخيرة أَن يرث الرجل قريبه وإِن لم يكن مهاجراً معه، وقالت فرقة منها مالك بن أَنس رحمه الله: إن الآية ليست في المواريث، وهذا فِرار عن توريث الخال والعمة ونحو ذلك، وقالت فرقة: هي في المواريث إلا أَنها نُسخت بآية المواريث المُبيِّنَة.

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ معناه: القرآن، أَي ذلك مثبت في كتاب الله، وقيل: المعنى: في كتاب الله السابق في اللوح المحفوظ، و﴿عَلِيمُۢ﴾ صفةٌ مناسبة لنفوذ هذه الأَحكام.

كمل تفسير سورة الأنفال بتوفيق من الله

والحمد لله رب العالمين

---

(١) رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه، ولفظه فيه: (مولى القوم من أنفسهم)، وقد رمز له الإمام السيوطي بالصحة في «الجامع الصغير».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والشيخان، والترمذي، والنسائي عن أنس، وأبو داود عن أبي موسى، والطبراني عن جبير بن مطعم، وعن ابن عباس، وعن أبي مالك الأشعري، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة في «الجامع الصغير».

(٣) الرَّحِمُ مؤنثة، والجمع: أرحام، والمراد بها ها هنا العصبات دون المولود بالرحم، والواحد: ذو رحم، ومما يبين أن المراد بالرحم العصبات قول العرب: وصَلَتْكَ رَحِمٌ، لا يريدون قرابة الأم.
والخلاف في توريث ذوي الأرحام معروف من أيام السلف رضوان الله عليهم، فقال قوم: لا يرث من لا فرض له من ذوي الأرحام، روي ذلك عن أبي بكر، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وروي عن علي، وهو قول أهل المدينة، وروي عن مكحول والأوزاعي، وبه قال الإمام الشافعي رضي الله عنه.
وقال بتوريثهم عمر بن الخطاب، وابن مسعود، ومعاذ، وأبو الدرداء، وعائشة، وعلي في رواية عنه، وهو قول الكوفيين وأحمد، واحتجوا بهذه الآية، ولكن أصحاب الرأي الأول قالوا: هذه أية مجملة جامعة، والظاهر بكل رحم قرُب أو بُعد، وآيات المواريث مُفَسَّرة، والمُفسَّر قاض على المجمل ومُبيِّن.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة التوبة

مدنية وآياتها تسع وعشرون ومائة .

هذه السورة مدنية إلا آيتيْن: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخرها ، وتُسمى سورة التَّوبة ، قاله حذيفة وغيره ، وتُسمى الفاضحة[١]، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وتُسمى الحافرة لأَنها حفرت عن قلوب المنافقين ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما زال ينزل: «ومنهم ، ومنهم» حتى ظن أنه لا يبقى أَحد ، وقال حذيفة: هي سورة العذاب ، قال ابن عمر رضي الله عنهما: كنا ندعوها المُقَشْقِشَة ، قال الحارث بن يزيد: كانت تدعى المبعثرة ، ويقال لها المثيرة ، ويقال لها البحوث[٢] .

وقال أبو مالك الغفاري: أول آية نزلت من براءة ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ ، وقال سعيد بن جبير: كانت براءَة مثل سورة البقرة في الطول .

واختُلف ـ لم سقط سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ من أَولها ـ فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: أَشبهت معانيها معاني الأَنفال ، وكانتا تدعيان القرينتين في زمن رسول الله ﷺ ، فلذلك قَرَنْت بينهما ، ولم أَكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ، ووضعتها في السبع الطُّوَل[٣] ، وقال علي بن أَبي طالب لابن عباس رضي الله عنهما: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أَمانٌ وبِشارة ، و«براءَة» نزلت بالسَّيف ونبذ العهود ، فلذلك لم تبدأْ بالأَمان .

---

(١) لأنها فضحت أسرار المنافقين ، وهذا بدليل قول ابن عباس رضي الله عنهما: «ما زال ينزل: ومنهم ومنهم حتى ظن أنه لا يبقى أحد».

(٢) وهذا لأنها أيضاً تبحث عن أسرار المنافقين ، وبقية الأسماء تدور حول هذا المعنى بالنسبة للمنافقين.

(٣) السبع الطُّوَل: سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، فهذه ست سُوَر متواليات ، واختلفوا في السابعة ، فمنهم من قال: هي الأنفال وبراءة ، وعدَّهما سورة واحدة ، ومنهم من جعل السابعة سورة يونس.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويعزى هذا القول للمُبَرِّد وهو لعِليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وهذا كما يبدأُ المخاطب الغاضب: «أَمَّا بَعْدُ» دون تقريظ ولا استفتاح بِتَبْجيل، وروي أن كَتَبَة المصحف في مدة عثمان رضي الله عنه اختلفوا في الأنفال وبراءَة، هل هما سورة واحدة أو هما سورتان؟ فتركوا فصلاً بينهما مراعاة لقول من قال: هما سورتان، ولم يكتبوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ مراعاة لقول من قال منهم: هما واحدة، فرضي جميعهم بذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا القول يضعفه النظر أن يُختلف في كتاب الله هكذا، ورُوي عن أُبي بن كعب أَنه قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بوضع ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في أول كل سورة، ولم يأمرنا في هذه بشيءٍ، فلذلك لم نضعه نحن، ورُوي عن مالك أَنه قال: بلغنا أَنها كانت نحو سورة البقرة ثم نُسخ ورُفع كثير منها وفيه البسملة، فلم يَرَوْا بَعْدُ أَنْ يضعوه في غير موضعه[1].

وسورة براءَة من آخر ما نزل على النبي ﷺ، وحكى عمران بن حدير أن أَعرابياً سمع سورة براءَة فقال: أَظن هذه من آخر ما أَنزل اللهُ على رسوله، فقيل له: لِم تقول ذلك؟ فقال أَرى أَشياءَ تنقض وعهوداً تنبذ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى الَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾.

---

(١) وقيل: كان من شأن العرب في زمانها في الجاهلية، إذا كان بينهم وبين قوم عهد فأرادوا نقْضه كتبوا إليهم كتاباً ولم يكتبوا فيه بَسْملة، فلمّا نزلت سورة براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين بعث بها النبي ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقرأها عليهم في الموسم، ولم يبسمل في ذلك على ما جرت به عادتهم في نقض العهد من ترك البسملة، وقال القرطبي بعد أن ذكر أكثر من رأي: «والصحيح أن التسمية لم تكتب لأن جبريل عليه السلام ما نزل بها في هذه السورة، قاله القُشَيْري».



﴿بَرَآءَةٌ﴾ رفع على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: هذه الآيات براءة، ويصح أن ترتفع بالابتداءِ والخبرُ في قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾، وجاز الابتداءُ بالنكرة لأنها موصوفة فتعرفت تعريفاً ما، وجاز الإِخبارُ عنها، وقرأ عيسى بن عمر: [بَرَاءَةً] بالنصب على تقدير: الزموا براءَةً، ففيها معنى الإغراءِ. و﴿بَرَآءَةٌ﴾ معناها: تخلُّصٌ وتَبرُّؤٌ من العهود التي بينكم وبين الكفار البادئين بالنقض، تقول: برئتُ إليك من كذا، فبرىء الله تعالى ورسوله بهذه الآية إلى الكفار من تلك العهود التي كانت ونقضها الكفار، وقرأ أَهل نجران: [مِنِ اللهِ] بكسر النون.

وهذه الآية حُكْم من الله عزَّ وجلَّ بنقض العهود والموادعات التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين طوائف المشركين الذين ظهر منهم أو تُحسِّس من جِهتهم نقض، ولما كان عهد رسول الله ﷺ لازماً لأُمته حسن أَن يقول: [عَاهَدْتُمْ]، قال ابن إسحق وغيره من العلماء: كانت العرب قد واثقها[1] رسول الله ﷺ عهداً عاماً على أَلاّ يُصد أحد عن البيت الحرام، ونحو ذلك من الموادعات، فَنَقَضَ ذلك بهذه الآية، وأَجَّل لجميعهم أَربعة، فمن كان له مع النبي ﷺ عهد خاص وبقي منه أَقل من الأربعة الأَشهر بلغ به تمامها، ومن كان أَمده أَكثر من أَربعة أَشهر أَتم له عهده، إلا إِنْ كان ممن تحسس منه نقض فإنه قصر على أربعة أَشهر، ومن لم يكن له عهد خاص فرضت له الأَربعة الأشهر يسيح فيها في الأَرض، أَي يذهب مسرَّحاً آمناً كالسَّيح من الماءِ وهو الجاري المنبسط، ومنه قول طرفة بن العبد:

لوْ خِفْتُ هذا منْك ما نِلْتَني   حتَّى تَرَى خَيْلاً أَمامي تَسِيحْ[2]

وهذا يُنْبىء عن أن رسول الله ﷺ استشْعر من الكفار نقضاً وتربُّصاً به إلا من الطائفة المستثناة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أول الأَشهر الأَربعة شوَّال وحينئذ نزلت الآية، وانقضاؤُها عند انسلاخ الأَشهر الحرم، وهو انقضاء المحرم بعد يوم الأَذان

(١) واثق فلاناً: عاهَدَه، وفي أكثر النسخ الخطية: وافقها بالفاء، ولفظ «البحر المحيط»: «أوثقها».

(٢) السَّيْح: الماءُ الظاهر الجاري على وجه الأرض، والسِّياحة: الذهاب في الأرض للعبادة والترهب، ويقال كما في اللسان: ساح في الأرض يسيح سياحةً وسيوحاً وسَيْحاً، وسيحاناً، فمعنى أن الخيل تسيح أنها تذهب في الأرض، هذا والبيت موجود في الديوان.



بخمسين يوماً، فكأن أجل من له عهد أربعة أشهر من يوم نزول الآية، وأجل سائر المشركين خمسون ليلة من يوم الأذان(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

اعتُرِض هذا بأن الأجل لا يلزم إلا من يوم سُمِع، ويحتمل أنَّ البراءَة قد كانت سُمِعت من أول شوال، ثم كرر إشهارها مع الأذان يوم الحج الأكبر، وقال السدي وغيره: بل أولها يوم الأذان وآخرها العشرون من ربيع الآخر، وهي الحُرُم، استعير لها الاسم بهذه الحرمة والأمن الخاص الذي رسمه الله وألزمه فيها، وهي أجل الجميع ممن له عهد وتحسس منه نقض، وممن لا عهد له.

وقال الضحاك وغيره من العلماءِ: «كان من العرب من لا عهد بينه وبين رسول الله ﷺ جملة، وكان منهم من بينه وبينهم عهد وتَحَسَّس منهم النقض، وكان منهم من بينه وبينهم عهد ولم ينقضوا، فقوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ هو أجل ضربه لمن كان بينه وبينهم عهد وتَحسَّس منهم نقضه، وأوَّل هذا الأجل يوم الأذان، وآخره انقضاءُ العشر الأول من ربيع الآخر، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ هو حُكم مباين للأوَّل حَكَم به في المشركين الذين لا عهد لهم البتَّةَ، فجاءَ أجل تأمينهم خمسين يوماً، أولها يومُ الأذان وآخرها انقضاءُ المحرم، وقوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم﴾ يريد به الذين لهم عهد ولم ينقضوا ولا تُحسِّس منهم نقض، وهم ـ فيما روي ـ بنو ضمرة من كنانة، عاهد لهم المحسَّر بن خويلد، وكان بقي من عهدهم يوم الأذان تسعة أشهر».

وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: إنما أَجَّل الله أربعة أشهر من كان عهده ينصرم عند انقضائها أو قبله، والمعنى: فقل لهم يا محمد: سيحوا، وأما من كان له عهد يتمادى بعد الأربعة الأشهر، فهم الذين أمر الله لهم بالوفاءِ.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ معناه: واعلموا أنكم لا تغلبون الله

---

(١) يوم الأذان هو يوم الإعلام بهذه الأحكام التي جاءت في هذه الآية نحو العهود مع المشركين، وهو اليوم الذين أذن فيه عليٌّ رضي الله عنه وقرأ هذه السورة على الناس، وقد اختلف الناس فيه، فقيل: هو يوم عرفة، وقيل: هو يوم النحر ـ وسيأتي بيان ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾.



ولا تعجزونه هرباً من عقابه، ثم أعلمهم بحُكْمه بخزي الكافرين، وذلك حَتْم إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ الآية. ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ معناه: إعلامٌ وإشْهَارٌ، و﴿ٱلنَّاسِ﴾ هاهنا: عام في جميع الخلق، و﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرف، والعامل فيه ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ وإن كان قد وصف فإن رائحة الفعل باقية، وهي عاملة في الظرف، وقيل، لا يجوز ذلك إذ قد وُصف المصدر فزالت عنه قوة الفعل ويصح أن يعمل فيه فعل مضمر تقتضيه الألفاظ، وقيل: العامل فيه صفة الأذان، وقيل: العامل فيه [مُخْزي].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد.

ويوم الحجّ الأكبر ـ قال عمر، وابن عمر، وابن المسيب، وغيرهم: هو يوم عرفة، وقال به علي رضي الله عنه، ورُوي عنه أيضاً أنه يوم النحر، وروي ذلك عن أَبي هريرة وجماعة، وروي ذلك عن النبي ﷺ، وقال منذر بن سعيد وغيره: كان الناس يوم عرفة مفترقين إذ كانت الحمس تقف بالمزدلفة. وكان الجمع يوم النحر بمنى، فلذلك كانوا يسمونه «الحج الأكبر» أي: من الأصغر الذي هم فيه مفترقون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا زال في حجة أَبي بكر رضي الله عنه لأنه لم يقف أَحد بالمزدلفة، وقد ذكر المهدوي أن الحمس ومن اتبعها وقفوا بالمزدلفة في حجة أبي بكر رضي الله عنه، والذي تظاهرت به الأحاديث في هذا المعنى أن عليّاً رضي الله عنه أذَّن بتلك الآية يوم عرفة إثر خطبة أَبي بكر، ثم رأى أنه لم يعلم الناس بالإسماع فتتبعهم بالأذان بها يوم النحر، وفي ذلك اليوم بعث معه أَبو بكر مَن يُعينه بالأذان بها كأَبي هريرة رضي الله عنه وغيره، وتتبعوا بها أيضاً أَسواق العرب كذي المجاز وغيره، فمن هنا يترجح قول سفيان: إن ﴿يَوْمَ﴾ في هذه الآية بمعنى «أَيام»، وبسبب ذلك قالت طائفة: يومُ الحج الأَكبر: عرفة حيث وقع أَول الأذان، وقالت طائفة أُخرى: هو يوم النحر حيث وقع إكمال الأذان، واحتجوا أيضاً بأنه من فاته الوقوف يوم عرفة فإنه يجزيه الوقوف ليلة النحر، فليس يوم عرفة ـ على هذا ـ يوم الحج الأكبر.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا حجة في هذا.

وقال سفيان بن عُيَيْنَة: المراد أيام الحج كلها كما تقول: «يوم صفين، ويوم الجمل»، تريد جميع أَيامه، وقال مجاهد: يوم الحج الأَكبر: أَيام منى كلها ومجامع المشركين حيث كانوا بذي المجاز، وعكاظ، ومجنة، حين نودي فيهم ألاَّ يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كما قال عثمان لعمر رضي الله عنهما حين عرض عليه زواج حفصة رضي الله عنها: إني قد رأَيت أَلا أتزوج يومي هذا، وكما ذكر سيبويه أَنك تقول لرجل: ما شغلك اليوم؟ وأَنت تريد: في أَيامك هذه.

واختلف، لم وُصف بالأَكبر؟ فقال الحسن بن أَبي الحسن، وعبد الله بن الحارث بن نوفل: لأَنه حجَّ ذلك العام المسلمون والمشركون وصادف أيضاً عيد اليهود والنصارى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف أن يصفه الله تعالى في كتابه بالكبر لهذا، وقال الحسن أيضاً: إنما سُمِّي أَكبر لأَنه حجَّ فيه أبو بكر رضي الله عنه ونبذت فيه العهود.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو القول الذي يشبه نظر الحسن، وبيانه أن ذلك اليوم كان المفتتح بالحق وإمارة الإِسلام بتقديم رسول الله ﷺ، ونبذت فيه العهود، وعزَّ فيه الدّين وذلَّ الشِّرك، ولم يكن ذلك في عام ثمان حين ولى رسول الله ﷺ الحج عتَّاب بن أَسِيد[1]،

(١) عتاب بن أَسيد (بفتح الهمزة من أسيد): صحابي جليل، أسلم يوم الفتح، واستعمله النبي صلوات الله وسلامه عليه على مكة وذلك حين سار إلى حنين وحجّ بالناس عام الفتح، وأقرّه أبو بكر على مكة إلى أن مات، قالوا: وكان صالحاً فاضلاً، وكان حين استعمله النبي ﷺ شديداً على المريب، ليِّناً على المؤمنين، وكان يقول: والله لا أعلم متخلفاً عن هذه الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه فإنه لا يتخلف عنها إلا منافق، وقد تزوج بنت أبي جهل حتى لا يتزوجها عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه على فاطمة=



بل كان أَمر العرب على أَوله ، فكل حجّ بعد حجّ أبي بكر رضي الله عنه فمتركب عليه ، فحقه لهذا أَن يُسَمَّى أَكبر.

وقال عطاءُ بن أَبي رباح ، وغيره: الحج الأكبر بالإضافة إلى الحج الأَصغر وهي العمرة ، وقال الشعبي: بالإضافة إلى العمرة في رمضان فإنها الحج الأَصغر ، وقال مجاهد: الحج الأَكبر: القِرانُ ، والأَصغر: الإفراد ، وهذا ليس من الآية في شيءٍ ، وقد تقدم ما ذكره منذر بن سعيد ، ويتجه أَن يوصف بالأَكبر على جهة المدح لا بالإضافة إلى أَصغر معين ، بل يكون المعنى: الأَكبر من سائر الأَيام ، فتأَمله.

واختصار ما تحتاج إليه هذه الآية على ما ذكر مجاهد وغيره من صور تلك الحال أن رسول الله ﷺ افتتح مكة سنة ثمان ، فاستعمل عليها عتَّاب بن أَسيد ، وقضى أمر حنين والطائف وانصرف إلى المدينة ، فأَقام بها حتى خرج إلى تبوك ، ثم انصرف من تبوك في رمضان سنة تسع ، فأَراد الحج ، ثم نظر في أن المشركين يحجون في تلك السنة ويطوفون عراة فقال: لا أُريد أَن أرى ذلك ، فأَمَّر أبا بكر رضي الله عنه على الحج بالناس وأَنفذه ، ثم أَتْبعه عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه على ناقته العضباءِ ، وأَمره أن يؤذن في الناس بأَربعة أَشياء وهي: «لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ـ وفي بعض الروايات: ولا يدخل الجنة كافر ـ ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته»[(١)] ، وفي بعض الروايات: ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فَأَجلُه أربعة أَشهر يسيح فيها ، فإذا انقضت فإن الله بريءٌ من المشركين ورسولُه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأقول: إنهم كانوا ينادون بهذا كله ، فهذا للذين لهم عهد وتحسس منهم نقضه ، والإبقاءُ إلى المدة لمن لم يخبر منه نقض.

وذكر الطبري أن العرب قالت يومئذ: نحن نبرأُ من عهدك وعهد ابن عمك إلا من

= رضي الله عنها ، وقد ولدت له ابنةُ عبد الرحمن. (الإصابة ، والاستيعاب).

(١) الحديث مروي من طرق كثيرة ، فقد أخرجه ابن أبي حاتم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وأخرجه أحمد ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرجه عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن طريق سعيد بن المسيب. (الدر المنثور).

الطعن والضرب ، فلام بعضهم بعضاً وقالوا: ما تصنعون وقد أَسلمت قريش؟ فأَسلموا كلهم ولم يسِخْ أَحَدٌ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وحينئذ دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وكان رسول الله ﷺ قد أَمر عليًّا أن يقرأَ على الناس الأَربعين آية صدر سورة براءَة ، وقيل: ثلاثين ، وقيل: عشرين ، وفي بعض الروايات: عشر آيات ، وفي بعضها ، تسع آيات ، ذكرها النقاش[١] ، وقال سليمان بن موسى الشامي: ذلك ثمان وعشرون آية ، فلحق علي أَبا بكر رضي الله عنهما في الطريق ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أَمير أَو مأْمور؟ فقال: بل مأْمور ، فنهضا حتى بلغا الموسم ، فلما خطب أَبو بكر رضي الله عنه بعرفة قال: قم يا علي فأَدِّ رسالة رسول الله ﷺ ، فقام علي رضي الله عنه ففعل ، قال: ثم وقع في نفسي أن جميع الناس لم يشاهدوا خطبة أَبي بكر فجعلت أَتتَبع الفساطيط يوم النحر.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ﴾ بفتح الأَلف على تقدير: بأَن الله ، وقرأَ الحسن ، والأعرج: [إِنَّ الله] بكسر الأَلف على القطع ، إِذ الأَذان في معنى القول. وقرأَ جمهور الناس: [وَرَسُولُه] بالرفع على الابتداءِ وحذف الخبر ، وتقديره: ورسوله بريءٌ منهم ، هذا وهو عند شيخنا الفقيه الأُستاذ أَبي الحسن بن الباذش[٢] رحمه الله معنى العطف على الموضع ، أي تُؤنس بالجملة الأُولى التي هي ابتداءُ وخبر فُعطفت عليها هذه الجملة ، وقيل: هو معطوف على موضع المكتوبة قبل دخول ﴿أَنَّ﴾ التي لا تغير معنى الابتداءِ بل تؤكده وإِذ قد قرئت بالكسر[٣] ، لأَنه لا يعطف على موضع

(١) هو محمد بن الحسن بن محمد بن زياد ـ أبو بكر النقاش ـ مقرىء مفسر ، وكان إمام أهل العراق في القراءات والتفسير ، قرأ القرآن على هارون بن موسى الأخفش ، وروى الحديث عن أبي مسلم الكَجِّيّ ، وصنف تفسيراً سماه «شفاء الصدور» ، وله: «الإشارة في غريب القرآن» و«الموضح في معاني القرآن» و«دلائل النبوة» و«القراءات» وقد ضعفه جماعة منهم الدارقطني ، (طبقات المفسرين) ، وله ترجمة في إرشاد الأريب ، وفي الأنساب ، وفي تذكرة الحفاظ ، والبداية والنهاية ، ووفيات الأعيان ، وغيرها.

(٢) علي بن أحمد بن خلف الأنصاري الغرناطي المعروف بابن الباذش ، من العلماء بالعربية ، من كتبه: «المقتضب من كلام العرب» ، و«شرح كتاب سيبويه» و«شرح أصول ابن السرَّاج في النحو» ، و«شرح الإيضاح» للفارسي. (الأعلام).

(٣) واضح أن الواو زائدة قبل كلمة (إذ) ـ وهكذا وجدناها في جميع الأصول.



(أَنَّ) بالفتح، وانظره فإنه مختلف في جوازه، لأن حكم (أَن) رفع حُكم الابتداءِ إلاَّ في هذا الموضع وما أَشبهه، وهذا قول أبي العباس، وأَبي علي رحمهما الله. ومذهب الأستاذ[1] على مقتضى كلام سيبويه ألاَّ موضع لما دخلت عليه (أَنَّ) إذ هو معرب قد ظهر فيه عمل العامل، ولأنه لا فرق بين (أَنَّ) و(ليْت) و(لَعلَّ)، والإجماع على ألاَّ موضع لما دخلت عليه هذه[2]، وقيل: هو عطف على الضمير المرفوع الذي في ﴿ بَرِيٓءٌ ﴾، وحسّن ذلك أن المجرور قام مقام التوكيد، كما قامت ﴿ وَلَآ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾[3]. وقرأ ابن أَبي إسحق، وعيسى بن عمر: [رسولَه] بالنصب عطفاً على لفظ المكتوبة، وبهذه الآية امتحن معاوية أَبا الأَسود حتى وضع النحو إذ جعل قارئاً يقرأ بخفض [ورَسُولُهُ].

والمعنى في هذه الآية: بريءٌ من عهودهم وأَديانهم براءَة عامة تقتضي المحاربة وإعمال السيف.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِن تُبۡتُمۡ ﴾ أَي: عن الكفر، ووَعدَهم مع شرط التوبة، وتَوعدهم مع شرط التولِّي، وجاز أَن تدخل البشارة في المكروه لما جاءَ مصرَّحاً به مرفوع الإِشكال.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥ ﴾.

---

(١) يعني بالأستاذ أبا الحسن بن الباذش، وقد سبق التعريف به في الصفحة السابقة.

(٢) قال أبو حيان في «البحر المحيط ٥ ـ ٦» (وهذا كلام فيه تعقب لأن علة كون (أنَّ) لا موضع لما دخلت عليه ليس ظهور عمل العامل بدليل: «ليس زيد بقائم» و«ما في الدار من رجل»، فإنه ظَهَر عملُ العامل ولهما موضع، وقوله: «والإجماع... الخ» يريد أن (لَيْتَ) لا موضع لها من الإعراب بالإجماع، وليس كذلك، لأن الفراءَ خالف وجعل حكم «ليت، ولعَلَّ، وكأن، ولكن، وأنَّ» حكم (إنَّ) في كون اسمهن له موضع).

(٣) الأنعام: ١٤٨.



هذا هو الاستثناءُ الذي تقدم ذكره في المشركين الذين بقي من عهدهم تسعة أَشهر وكانوا قد وفوا بالعهد على ما يجب ، وقال قتادة: هم قريش الذين عوهدوا زمن الحديبية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا مردود بإسلام قريش في الفتح قبل الأَذان بهذا كله ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ : إلى الأَربعة الأَشهر التي في الآية. وقرأَ الجمهور: ﴿يَنقُصُوكُمْ﴾ بالصاد غير منقوطة ، وقرأَ عطاءُ بن يسار ، وعكرمة ، وابن السميفع: [ينقُضُوكُمْ] بالضاد ، من النقض ، وهي متمكنة مع العمد. ولكنها قلقة في تعدِّيها إلى الضمير ، ويحسن ذلك أن النقض نقض وفاءٍ وحق للمعاهد ، وكذلك تعدّى ﴿فَأَتِمُّوٓاْ﴾ بـ﴿إِلَىٰ﴾ لما كان العهد في معنى ما يؤدي ويبرأُ منه[1] وكأَنهم ينقضون العهد ، و﴿يُظَٰهِرُواْ﴾ معناه: يعاونوا ، فالظَّهر: المُعين ، وأَصلُهُ من الظهر ، كأَن هذا يسند ظهره إلى الآخر ، والآخر كذلك ، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تنبيه على أن الوفاء بالعهد من التقوى.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ الآية. الانسلاخ: خروج الشيء عن الشيءِ المتلبس به ، كانسلاخ الشاة عن الجلد والرجل عن الثياب ، ومنه قوله تعالى: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾[2] ، فشبَّه انصرام الأشهر بأَسمائها وأَحكامها من الزمن بذلك[3] ، وقد تقدم القول فيمن جُعِل له انقضاءُ الأَشهر الحُرُم أجلاً ، وما المعنيّ بالأَشهر الحُرُم بما أَغنى عن إعادته.

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أَمر بقتال المشركين فخرج الأَمر بذلك بلفظ [اقْتُلوا] على جهة التشجيع وتقوية النفس ، أَي: هكذا يكون أَمركم معهم ، وهذه الآية

---

(١) في بعض النسخ: ويبرأ به.

(٢) يس: ٣٧.

(٣) يقال: سلَخْتُ الشهر إذا صرت في أواخر أيامه ، قال أبو الهيثم: يقال: أهللنا هلال شهر كذا أي دخلنا فيه ولبسناه فنحن نزداد كل ليلة إلى مُضِيِّ نصفه لباساً منه ، ثم نسلخه عن أنفسنا بعد تكامل النصف منه جُزءاً فجُزءاً حتى نسلخه كله ، وأنشد:

إذا ما سَلَخْتُ الشَّهرَ أَهْلَلْتُ مِثْلَهُ كفَى قاتلاً سَلْخي الشُّهورَ وإهْلالي

ويقال أيضاً: سلَخت المرأةُ درعها: نزعته.

نسخت كل موادعة في القرآن أو مهادنة وما جرى مجرى ذلك، وهي على ما ذُكر مائة آية وأربع عشرة آية، وقال الضحاك، والسدي وعطاءَ: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[(١)]، وقالوا: لا يجوز قتل أسير البتَّة صبراً، إما أن يُمنَّ عليه وإمَّا أن يُفادى، وقال قتادة، ومجاهد، وغيرهما: قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ منسوخ بهذه الآية، وقالوا: لا يجوز المنُّ على أسير ولا مفاداته، ولا شيءَ إلا القتل، وقال ابن زيد: هما محكمتان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولم يفسر أكثر من هذا، وقوله هو الصواب، والآيتان لا يشبه معنى واحدة معنى الأخرى، وذلك أن هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ أفعالٌ إنما تتمثل مع المحارب المرسل المناضل، وليس للأسير فيها ذكْر ولا حُكم، وإذا أُخذ الكافر خرج عن درجات هذه الآية وانتقل إلى حكم الآية الأُخرى، وتلك الآية لا مدخل فيها لغير الأسير، فقول ابن زيد هو الصواب، وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ معناه: الأسر، وقوله: ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ معناه: في مواضع الغِرَّة حيث يُرصدون، وقال النابغة[(٢)]:

أَعَاذِلُ إنَّ الجهْلَ مِن لَذَّةِ الْفتى ... وإنَّ الْمنايا للنُّفُوسِ بِمَرْصَدِ[(٣)]

ونُصب ﴿كُلَّ﴾ على الظرف، وهو اختيار الزجاج، أَو بإسقاط الخافض، التقدير: في كل مرصد، أو على كل مرصد، وحكى سيبويه: ضُرِب الظهرَ والبطنَ[(٤)].

---

(١) محمد: ٤.

(٢) البيت لعديٍّ بن زيد، وقد نسبه القرطبي للنابغة أيضاً، ونسبه في اللسان لعديَّ بن زيد وهو الصواب، وهو من قصيدة مطلعها:

أتَعْرفُ رسْمَ الدار مِنْ أمِّ مَعْبَدِ؟ ... نعَم، ورَمَاكَ الشَّوْقُ قَبْلَ التَّجَلُّدِ

(٣) العذْلُ: اللَّوم، والعاذل هنا زوجُه، وقد أشار إليها في بيت آخر قبل هذا يقول فيه:

وعَاذَلَةٍ هَبَّتْ بلَيْلٍ تَلُومُني ... فلمَّا غَلَتْ في اللَّوْم قُلْتُ لَها اقْصدي

ويروى الشطر الثاني: (وإنَّ المنايا للرِّجال بمَرْصَد)، والمعنى: إن المرءَ قد يطلب اللذة جهلاً إذ يتوهم فيها السعادة في حين أنها تنتهي به إلى التعاسة، وإن الموت يترصَّد الناس ويتربص بهم لينقضَّ عليهم.

(٤) المرصد: مَفْعَل من رصَدَ يرصُد بمعنى رَقَب ـ يكون مصدراً وزماناً ومكاناً قال عامر بن الطفيل: =

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا﴾ يريد: من الكفر، فهي متضمنة الإيمان، ثم قرن بها إقامة الصلاة وإيتاءَ الزكاة تنبيهاً على مكان الصلاة والزكاة من الشرع[١]، وقوله: ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ تأمين.

وقال أَنس بن مالك: هذا هو دين الله الذي جاءَت به الرسل، وهو من آخر ما نزل قبل اختلاف الأَهواءِ، وفيه قال النبي ﷺ: «من فارق الدنيا مخلصاً لله تعالى مطيعاً له لقي الله وهو عنه راض»[٢]، ثم وعد بالمغفرة في صيغة الخبر عن أَوصافه تعالى.

= ولقد علمتَ وما إخالُك ناسياً ... أن المنيَّةَ لِلْفَتى بالمَرْصَدِ

وقال الزمخشري: ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾: كل مَمَرٍّ ومُجْتاز ترصدونهم فيه، وانتصابُه على الظرف كقوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وقال الزجاج: مَرْصَد: ظرف كقولك: ذهبتُ مذهباً، وردَّه أبو علي الفارسي لأن المرصد هو المكان الذي يرصد فيه العدو فهو مكان مخصوص لا يحذف الحرف منه إلا سماعاً كما حكى سيبويه: دخلتُ البيتَ، وكقول الشاعر: كما عَسَل الطريقَ الثَّعلبُ، وقال أبو حيّان الأندلسي رداً على الفارسي:

يصح انتصابه على الظرف لأن قوله: ﴿وَاقْعُدُوا﴾ ليس معناه حقيقة القُعود، بل المعنى: ارصدوهم في كل مكان يرصد فيه، ومتى كان العامل من لفظ الظرف أو معناه جاز أن يعمل فيه بغير واسطة: تقول: «جلست مجلس زيد وقعدت مجلس زيد» تريد: في مجلس زيد. هذا والذي قدّر الواسطة المحذوفة (عَلَى) هو الأخفش قال: معناه: على كل مرصد ـ فحذف الحرف وأعمل الفعل ـ والذي عليه النحاة أن حذف الحرف وإعمال الفعل مخصوص بالشعر، كقول الشاعر:

تَحِنُّ فتُبْدي ما بها مِنْ صَبَابَةٍ ... وأُخْفي الَّذي لَوْلا الأسى لَقَضاني

أي: لقضى عَلَيّ.

(١) هذا هو التعليل الذي يراه ابن عطية لذكر الصلاة والزكاة بعد التوبة أو معها، ولكن كثيراً من العلماء يرون رأياً آخر هو أن الله تعالى علَّق القتل على الشرك، ثم قال: ﴿فَإِن تَابُوا﴾ وذلك يقتضي زوال القتل بمجرد التوبة من غير اعتبار لشيءٍ آخر كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، غير أن الله تعالى ذكر التوبة وذكر معها شرطين آخرين هما إقامة الصلاة وإيتاءُ الزكاة فلا سبيل إلى إلغائهما، ونظير ذلك قوله ﷺ: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»، قال ابن العربي: فانتظم القرآن والسنة واطَّردا، ويرى العلماءُ أن ذلك فيمن يترك الصلاة والزكاة مستحلا لذلك، وقد يلتقي تعليل ابن عطية برأي العلماء عند التأمل والنظر الدقيق.

(٢) أخرجه ابن جرير عن أنس ولكن بلفظ: (من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا يشرك به شيئاً فارقها والله راض عنه).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٧﴾.

أُمر رسول الله ﷺ في هذه الآية ـ بعد الأمر بقتال المشركين ـ بأَن يكون متى طَلَب مشركٌ عهداً يأمن به حتى يسمع القرآن ويرى حال الإسلام أَنْ يُعْطيه ذلك، وهي الإجارة من الجوار.

ثم أُمر بتبليغه المأمن إذا لم يرض بالإسلام ولم يُهْد إليه، وقال الحسن: هي محكمة سُنَّة[1] إلى يوم القيامة، وقاله مجاهد، وقال الضحاك، والسدي: هذا منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾. وقال غيرهما: هذه الآية إنما كان حكمها مدة الأربعة الأَشهر التي ضربت لهم أَجلاً.

وقوله سبحانه: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعني القرآن[2]، وهي إضافة صفة إلى موصوف، لا إِضافة خلق إلى خالق، والمعنى: ويَفْهَم أَحكامه وأَوامره ونواهيه، فذُكر السماعُ بالآذان إِذ هو الطريق إلى الفهم، وقد يجيءُ السماع في كلام العرب مستعملاً بمعنى الفهم، كما تقول لمن خاطبته فلم يقبل منك: «أنت لم تسمع قولي»، تريد: لم تفهمه، وذلك في كتاب الله تعالى في عدة مواضع. و﴿أَحَدٌ﴾ في هذه الآية مرتفع بفعل يفسره قوله تعالى: ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ ويضعف فيه الابتداءُ لولاية الفعل لِـ [إِنْ]. وقوله تعالى: [ذلِكَ] إشارة إلى هذا اللطف في الإِجارة والإِسماع وتبليغ المأمن، و[لا يَعْلَمُونَ] نفى علمهم بمراشدهم في اتباع محمد ﷺ.

---

(١) هكذا في جميع الأصول، وفي القرطبي نقلاً عن الحسن أيضاً، والمعنى بها يكاد يكون غير واضح.

(٢) لما كان القرآن أعظم المعجزات ومصدر الهداية والإرشاد علّق السماع به.

و﴿حَتَّى﴾ يصحُّ أن تكون للغاية، أي: إلى أن يسمع، ويصحُّ أن تكون للتعليل ـ وهي في الحالين متعلقة بـ ﴿فَأَجِرْهُ﴾، ولا يصح أن يكون من باب التنازع وذلك لمانع لفظي، وهو لو أُعمل الأول وهو ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ لأضمر في الثاني ﴿فَأَجِرْهُ﴾ وحتى لا تجر المضمر، لكن من النحويين من أجاز أن تجر ﴿حَتَّى﴾ المضمر على خلاف رأي الجمهور، ولا مانع عند هؤلاءِ أن يكون من باب المتنازع، مع العلم بأنه لا مانع من حيث المعنى من كونه من باب التنازع، وإنما المانع لفظي كما قلنا ـ ذكر ذلك أبو حيان في «البحر المحيط».



وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية.

لفظ استفهام وهو على جهة التعجب والاستبعاد، أي: على أي وجه يكون للمشركين عهد وهم قد نقضوا وجاهروا بالتعدي؟ ثم استثنى من عموم المشركين القوم الذين عوهدوا عند المسجد الحرام، أي: في ناحيته وجهته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما رُوي عنه: المعني بهذا قريش. وقال السدي: المعني بنو جذيمة من الديل. وقال ابن إسحق: هي قبائل بني بكر، كانوا قد دخلوا وقت الحديبية في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فلم يكن نقض إلا قريش وبنو الديل من بني بكر، فأُمر المسلمون بإتمام العهد لمن لم يكن نقض. وقال قوم: المعني خزاعة، قاله مجاهد، وهو مردود بإسلام خزاعة عام الفتح، وقال بعض من قال إنهم قريش: إن هذه الآية نزلت فلم يستقيموا، بل نقضوا فنزل تأجيلهم أربعة أشهر بعد ذلك، وحكى الطبري هذا القول عن ابن زيد، وهو ضعيف متناقض، لأن قريشاً وقت الأذان بالأربعة الأشهر لم يكن منهم إلا مسلم، وذلك بعد فتح مكة بِسنَة، وكذلك خزاعة، قاله الطبري وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يريد به الموفين بالعهد من المؤمنين، فلذلك جاءَ بلفظ معرف للوفاء بالعهد متضمن للإيمان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

بعد ﴿كَيْفَ﴾ في هذه الآية فعل مقدر ولابُدّ، يدل عليه ما تقدم، فيحسن أن يُقدّر: «كيف يكون لهم عهد»؟ ونحوه قول الشاعر:

وخَبَّرْتُماني أَنَّما الموتُ في القرى ... فكَيْفَ وهاتا هضْبَةٌ وكثيبُ؟[1]

---

(١) هذا البيت لكعب بن سعيد الغَنَوي (مجموع أشعار العرب ١ ـ ١٤) من قصيدة له يرثي أخاً له، ورواية البيت فيه:

وَحَدَّثْتُمَاني أَنَّمَا الْمَوْتُ في القُرى ... فكَيْفَ وهاتا روْضَةٌ وَقَلِيبُ؟ =

وفي ﴿كَيْفَ﴾ هنا تأكيد للاستيعاب الذي في الأولى، و﴿لَا يَرْقُبُوا﴾ معناه: لا يراعوا ولا يحافظوا، وأَصل الارتقاب بالبصر، ومنه الرقيب في المسير وغيره، ثم قيل لكل من حافظ على شيءٍ ورعاه: راقبه وارتقبه.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿إِلًّا﴾، وقرأَ عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما بياءٍ بعد همزة خفيفة اللام: [إِيلاً]، وقرأَت فرقة: [أَلاًّ] بفتح الهمزة، فأَمَّا من قرأَ: ﴿إِلًّا﴾ فيجوز أَن يراد به الله عزَّ وجلَّ، قاله مجاهد، وأبو مجلز، وهو اسمه بالسريانية وعُرّب، ومن ذلك قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين سمع كلام مسيلمة، فقال: هذا كلامٌ لم يخرج من إِلٍّ[1]. ويجوز أَن يراد به العهد، والعرب تقول للعهْد والحِلْف والجِوار ونحو هذه المعاني: إِلاً، ومنه قول أَبي جهل:

لإِلٌّ علَيْنَا واجِبٌ لا نُضيعُه … مَتينٌ قُواهُ غيْرُ مُنْتَكَثِ الْحَبْلِ[2]

ويجوز أن يراد به القرابة، فإنها في لغة العرب يقال لها: إِلٌّ، ومنه قول ابن مقبل:

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفٌ خلَفُوا … قَطعُوا الإِلَّ وأَعْراقَ الرَّحِمْ[3]

= والتقدير: فكيف مات؟ والبيت في شواهد سيبويه وفي جمهرة أشعار العرب: «هضبة وقليب»، قال الشنتمري: أراد بالقليب القبر، وأصله البئر، كأن الشاعر حُذّر من وباءِ الأمصار وهي القُرى فخرج إلى البادية فرأى قبْراً فعلم أنه لا نجاة من الموت فقال هذا ينكر على مَنْ حذَّره من الإقامة في القرى. هذا وقد جاء حذف الفعل بعد (كيف) لدلالة المعنى عليه في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾؟

(١) قال الأزهري: الإلّ: اسم الله بالعبرانية، وأصله من الأليل وهو البريق، وقال السهيل في «الروض»: حذار أن تقول هو اسم الله تعالى فتسمي الله باسم لم يُسَمِّ به نفسه لأنه نكرة، ونفى ذلك أيضاً صاحب اللسان لأنه لم يسمع، وأصل الإل في اللغة: التَّحديد، ومنه الألّة للحربة، ومنه أُذن مؤَلَّلةٌ أي مُحَدَّدة، ومنه قول طرفة بن العبد يصف أذني ناقته بالحِدَّة والانتصاب:

مُؤَلَّلَتانِ يُعْرَفُ العِتْقُ فيهما … كَسَامِعَتَي شاةٍ بحَوْمَلَ مُفْرَد

أي هما مثل أذني ثور وحشي مفرد في هذه الرملة المعروفة بحومل.

(٢) نَكَثَ الحبلَ: نَقَضه، وانتكث الحبلُ: انتقضَ أي تَفَكَّكَ وتفرقت خيوطه. والإِلُّ في البيت بمعنى: العَهْد والحِلْف والجوار كما ذكر ابن عطية.

(٣) الخُلُوف: جمع خلْف بسكون اللام، وهم الذين يَخْلُفونَ غيرهم في ديارهم خياراً كانوا أو شراراً، وقيل: هو خاص بالأشرار، يقال: هؤلاء خلْف سوءٍ وهم الأخساءُ الأراذل، والإلّ في البيت: القرابة على ما قال أبو عبيدة، وإن كان المعنى ينسجم مع العَهْد كما قال ابن عطية رحمه الله، والأعراق: جمع عِرْق وهو أصل الشيء.



أَنشده أَبو عبيدة على القرابة، وظاهره أنه في العهود، ومنه قول حسان:

لَعَمْـرُكَ إنَّ إِلَّـكَ مـن قُـرَيْـشٍ ... كـإِلِّ السَّقْـبِ مِـنْ رَأْلِ النَّعـامِ(١)

وأما من قرأَ: [أَلاًّ] بفتح الهمزة فهو مصدر من فعل الأَلّ الذي هو العهد، ومن قرأَ: [إِيلاً] فيجوز أن يراد به الله عزَّ وجلَّ، فإنه يقال: إِلّ وإِيل، وفي البخاري: قال الله: جِبْر، وميك، وسراف: عَبْدٌ بالسريانية، وإِيلُ: اللهُ عزَّ وجلَّ(٢)، ويجوز أَن يريد: ﴿إِلًّا﴾ المتقدم فأَبدل من أَحد المثلين ياءً، كما فعلوا ذلك في قولهم: أَمَّا وأَيما، ومنه قول سعد بن قرط يهجو أُمَّه:

يـا لَيْتَمَـا أُمُّنَـا شَـالَـتْ نعـامَتُهـا ... أَيمـا إلـى جنَّـةٍ أَيمـا إلـى نـار(٣)

ومنه قول عمر بن أَبي ربيعة:

رأَتْ رجُلا أَيما إذا الشَّمْسُ عارضت ... فيضْحى وأَمَّا بـالعَشِيِّ فيخصَرُ(٤)

وقال الآخر:

لا تُفْسِـدُوا أَبـاً لكُـمْ ... إيمـا لنـا إيمـا لَكُـم(٥)

قال أَبو الفتح: ويجوز أَن يكون مأخوذاً من آل يؤول إِذا ساس(٦).

---

(١) استشهد صاحب اللسان بالبيت على أن (الإِلّ) بمعنى القرابة، ونسبه أيضاً لحسَّان بن ثابت، والسَّقْب: ولَدُ الناقة، والرَّأْل: ولد النعام، يقول: إن قرابتك من قريش مثل قرابة ولد الناقة لولد النعام.

(٢) معنى ذلك أن هذه الأسماء تحمل معنى العبودية لله، فهي كلها بمعنى «عبد الله».

(٣) نسب البيت إلى سعد بن قرط، أو سعد بن قرين، أو معبد بن قرط، وهو فيه يدعو على أُمِّه بالموت وقد كان عاقاً لها، والبيت في الخزانة ٤ ـ ٤٣١، وفي شواهد السيوطي ٦٧، وفي مغنى اللبيب ٨٥، والنحويون يستشهدون بهذا البيت على أمور منها: فتح الهمزة في (إمَّا)، والإبدال، وأن (إمَّا) الثانية عاطفة عند أكثرهم، قالوا: وزعم يونس، والفارسي، وابن كيسان أنها غير عاطفة كالأولى، ووافقهم ابن مالك لأنها غالباً ما تلازم الواو، ومن غير الغالب جاءَ هذا البيت.

(٤) عارضت: غدت في عرض السماء، ويضحى: يبرز للشمس، ويخصر: يبرد، والبيت كناية عن مواصلة السفر بالنهار وفي العشي، وهو في الديوان، وذكره في الخزانة ٤ ـ ٥٥٢.

(٥) لم نعثر على قائله، والشاهد فيه إبدال الميم ياءً في إمَّا الأولى وإما الثانية.

(٦) يقال: أُلْتُ الشيءَ أَوْلاً وإِيالاً، سُسْتُه، والإِيالَةُ: السياسة، وآل عليهم أوْلاً وإِيالاً وإِيالة: وَلِيَ، وفي المَثَل: «قد أُلْنا وإِيلَ علينا»، نسبه ابن برّي إلى عمر وقال: معناه: سُسْنا وسِيسَ علينا، وقال الشاعر:

أَبـا مـالـكٍ فـانظُـرْ فـإنَّـكَ حـالـبٌ ... صَرَى الحربِ فانظُرْ أَيَّ أَوْلٍ تَؤُولُها

(عن اللسان).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «قد أُلنا وإيلَ عَلَينَا»، فكأن المعنى ـ على هذا ـ: لا يرقبون فيكم سياسة ولا مداراة ولا ذمة، وقلبت الواو ياءً لسكونها والكسرة قبلها.

والذمَّة أيضاً بمعنى المتاب والحِلْفِ والجوار، ونحوهُ قول الأصمعي: «الذمة كل ما يجب أن يحفظ ويُحمى»[١]، فمن رأى في (الإلّ) أنه العهد جعلهما لفظتين مختلفتين لمعنى واحد أو متقارب، ومن رأى (الإلّ) لغير ذلك فهما لفظان لمعنيين.

و﴿ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ معناه: تأبى أن تذعن لما يقولونه بالألسنة، وأَبَى يَأْبى شاذٌّ، لا يُحفظ فعل يفْعل بفتح العين في الماضي والمستقبل، وقد حُكي ركَن يركَن. وقوله: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾ يريد به الكل، أو يريد استثناءَ من قضى له بالإيمان، كل ذلك محتمل.

وقوله تعالى: ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ الآية. اللازم من أَلفاظ هذه الآية أن هذه الطائفة الكافرة الموصوفة بما تقدم لمَّا تركت آيات الله ودينه وآثرت الكفر وحالها في بلادها، كل ذلك كالشراءِ والبيع لمَّا كان تَرْكاً لما قد مُكِّنوا منه وأَخْذاً لما يمكن نبذه، وهذه نزعة مالك رحمه الله في منع اختيار المشتري فيما تختلف آحاد جنسه، ولا يجوز التفاضل فيه[٢]، وقد تقدم ذكر ذلك في سورة البقرة، وقوله: ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ﴾ يريد: صدُّوا أنفسهم وغيرهم، ثم حكم عليهم بأَن عملهم سَيِّءٌ، و[ساءَ] في هذه الآيةِ ـ إِذْ لم يُذكر مفعولها ـ يحتمل أَن تكون مضمنة كبئس، فأَما إذا قلت: «ساءَني فعل زيد» فليس بتضمين بوجه، وإن قدرت في هذه الآية مفعولاً زال التضمين.

وروي أَن أبا سفيان بن حرب جمع بعض العرب على طعام، وندبهم إلى وجه من

(١) قال أبو عبيدة مَعْمر: الذِمَّةُ: التَّذَمُّم، وجمع ذِمَّةٍ: ذِمَمٌ، وبئر ذَمَّة (بفتح الذال): قليلة الماء، وجمعها: ذمام، وأهل الذمة: أهل العقد.

(٢) مفهوم الآية أن هؤلاء الكفرة لم يخيروا بين الدخول في الإسلام والبقاء على كفرهم إلا مع بيان الحقيقة لهم، وهي ما ينالهم من العذاب الأليم الدائم إن هم اختاروا الكفر، وبناءً على هذا المفهوم أخذ الإمام مالك رحمه الله حكماً في عمليات البيع والشراء يمنع بمقتضاه الإنسان من الشراء على أن يختار في كل ما تختلف آحادُ جنسه ولا يجوز فيه التفاضل إلا مع بيان ثمن كل فرد من أفراد الجنس المذكور توضيحاً للحقيقة.



وجوه النقض فأجابوا إلى ذلك فنزلت الآية، وقال بعض الناس: هذه في اليهود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا القول وإن كانت ألفاظ هذه الآية تقتضيه فما قبلها وما بعدها يردُّه ويتبرأُ منه، ويختل أُسلوب القول به.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾ الآية. وصف لهذه الطائفة المشترية يضعف ما ذهب إليه من قال إن قوله: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ هو في اليهود، وقوله تعالى: ﴿فِي مُؤْمِنٍ﴾ إعلامٌ بأن عداوتهم إنما هي بحسب الإيمان فقط، وقوله أولاً: ﴿فِيكُمْ﴾ كان يحتمل أن يظن ظانٌّ أن ذلك لِلإحن التي وقعت فزال هذا الاحتمال بقوله: ﴿فِي مُؤْمِنٍ﴾ ثم وصفهم بالاعتداءِ والبداءَة بالنقض للعهود والتعمق في الباطن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿تَابُوا﴾: رجعوا عن حالهم، والتوبة منهم تتضمن الإيمان، ثم قرن تعالى بإيمانهم إقامة الصلاة وإيتاءَ الزكاة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: حرّمت هذه الآيةُ دماءَ أهل القِبْلَة، وقال ابن زيد: قرن الله الصلاة بالزكاة ولم يرض بإحداهما دون الأُخرى[(١)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا مرَّ أبو بكر رضي الله عنه وقت الردَّة.

والأُخوّة في الدين هي أُخوّة الإسلام، وجمعُ الأخ منها: إخوان، وجمعهُ من النسب: إخوة قاله بعض اللغويين، وقد قيل: إن الأخ من النَّسب يجمع على إخوان

(١) في هذا المعنى روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ فرَّق بين ثلاثٍ فرَّق الله بينه وبين رحمته يوم القيامة، من قال: أطيع الله ولا أطيع الرسول، والله تعالى يقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، ومن قال: أقيم الصلاة ولا أُوتي الزكاة، والله تعالى يقول: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾، ومن فرَّق بين شكر الله وشكر والديه، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾.

أيضاً ، وذلك ظاهر من قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ ﴾[١] ، ويبين ذلك قوله تعالى في آخر الآية: ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ ، وكذلك قوله في هذه السورة: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ ﴾[٢] الآية. فأما الأخ من التَّوادِّ ففي كتاب الله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[٣].

وقال أبو هريرة في البخاري: «كان إخوتي منَ المهاجرين يشغلهم الصفق بالأسواق»[٤] ، فيصح من هذا كله أن الأخ يجمع إِخوة وإِخواناً سواءٌ كان من نسب أَو مودة ، وتفصيلُ الآيات: بيانها وإِيضاحها.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم ﴾ الآية. النكثُ: النقض ، وأَصله في كل ما قُبل ثم حُلَّ ، فهي في الأَيمان والعهود مستعارة ، وقوله: ﴿ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ ﴾ أي بالاستنقاص والحرب وغير ذلك مما يفعله المشرك ، وهذه استعارة ، ومنه قول النبي ﷺ حين أَمَّر أُسامة: «إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أَبيه من قبل» الحديث[٥].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويليق هنا ذكر شيءٍ من طعن الذمي في الدين ، فالمشهور من مذهب مالك رحمه الله أَنه إذا فعل شيئاً من ذلك مثل تكذيب الشريعة وسبّ النبي ﷺ ونحوه قُتِل ، وقيل: إذا كفر وأَعلن بما هو معهود من مُعتقده ، وكُفْره أُدّب على الإِعلان وتُرك ، وإذا كفر بما ليس من معهود كفره كالسبِّ ونحوه قُتِل ، وقال أَبو حنيفة في هذا: إنه يُسْتَتاب ،

(١) النور: ٦١.

(٢) التوبة: ٢٤.

(٣) الحجرات: ١٠.

(٤) الصفق بالأسواق هو البيع والشراء ، يقال: صَفق البيعَ ، أمضاه ، وكانت العرب إذا أرادوا إنفاذ البيع ضربَ أحدهما يده على يد صاحبه ، فقالوا: صفق يده ، أو صفق على يده بالبيع فوصفوا به البيع.

(٥) الحديث رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، وغيرهم ، ولفظه كما في البخاري: «عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بعث النبي ﷺ بعثاً وأمّر عليهم أُسامة بن زيد ، فطعن بعض الناس في إِمْرتِهِ فقام رسول الله ﷺ فقال: إن كنتم تطعُنُون في إِمْرَتِه فقد كنتم تطعُنُون في إِمْرَة أبيه من قبلُ ، وايم الله إن كان لخَليقاً للإمارة ، وإن كان لَمِنْ أحبّ الناس إليّ ، وإنَّ هذا لَمِنْ أحب الناس إليّ بَعْدَهُ».

واختلف إذا سبَّ الذمِّي النبي ﷺ ثم أَسلم تقية القتل، فالمشهور من المذهب أَنه يُترك، وقد قال ﷺ: «الإِسلام يَجُبُّ ما قبله»[١]، وفي «العتبية» أنه يقتل ولا يكون أَحسن حالاً من المسلم.

وقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ أَي رؤُوسهم وأَعيانهم الذين يقودون الناس إليه، وقال قتادة: المراد بهذا أبو جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وغيرهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ـ إن لم يتأَول أَنه ذكرهم على جهة المثال ـ ضعيف، لأن الآية نزلت بعد بدر بكثير، وروي عن حذيفة أنه قال: لم يجىءْ هؤلاءِ بَعْدُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يريد: لم ينقرضوا فهم يحيون أَبداً ويقاتلون، وأَصوب ما في هذا أَن يقال: إنه لا يُعنى بها مُعيَّن، وإنما وقع الأَمر بقتال أَئمة الناكثين بالعهود من الكفرة إلى يوم القيامة دون تعيين، واقتضت حال كفار العرب ومحاربي رسول الله ﷺ أَن تكون الإِشارة إِليهم أَولا بقوله: ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾، وهم حصلوا حينئذ تحت اللفظة إذ الذي يتولى قتال النبي ﷺ والدفع في صدر شريعته هو إِمام مَنْ يكفر بذلك الشرع إلى يوم القيامة، ثم تأْتي في كل جيل من الكفار أَئمة خاصة بجيلٍ جيلٍ.

وقرأَ نافع، وابن كثير، وأَبو عمرو: [أَئِمَّة] بهمزة واحدة وبعدها ياءٌ مكسورة، وقد رُوي عن نافع مدُّ الهمزة، وروى عنه ابن أَبي أَويس [أَئِمَّة] بهمزتين، وأَصْلها: (أَأْمِمَة) وزنها أَفْعِله جمع إِمام، كعمادٍ وأَعْمدة، نقلت حركة الميم إلى الهمزة التي هي فاءُ الفِعل[٢]، وأُدْغِمت الميم في الميم الأُخرى وقلبت الهمزة ياءً لانكسارها ولاجتماع همزتين من كلمة واحدة، وقرأَ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي [أَئِمَّة] والتعليل واحد إلا أَنهم لم يقلبوا الهمزة ياءً. وقرأَ المُسَيَّبي[٣] عن نافع: [آيِمَّة]

---

(١) رواه ابن سعيد عن الزبير وعن جُبَيْر بن مطعم بلفظ (الإِسلام يَجُبُّ ما كان قبله)، والحديث صحيح وهو في مسند أحمد ٤/ ٢٠٥.

(٢) معنى ذلك أن الهمزة الأولى هي همزة الجمع، والثانية همزة الأصل التي كانت في (إمام) ـ وكان إدغام الميم في الميم للمجانسة.

(٣) المُسَيَّبِيّ: هو إسحق بن محمد بن عبد الرحمن بن المسيَّب، أبو محمد المسيَّب المدني، إمام =



بهمزة ممدودة، وقرأ هشام عن أبي عامر بمَدَّة بين الهمزتين[١].

وقرأ الناسُ الجم الغفير: ﴿لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ على جمع يمين، وليس المرادُ نفي الأَيْمَانَ جملة، وإنما المعنى: لا أَيْمَان لهم يُوَفىّ بها ويُبَرّ، وهذا المعنى يشبه الآية، وقرأ الحسن، وعطاءٌ، وابن عامر وحده من السبعة: ﴿لا إيمَان لَهُمْ﴾ وهذا يحتمل وجهين، أحدهما، لا تصديق، قال أبو علي: وهذا غير قويّ لأنه تكرير، وذلك أنه وصف أَئمة الكفر بأَنهم لا إيمان لهم، فالوجه في كسر الألف أنه مصدر من آمنه إيماناً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾[٢]، فالمعنى أنهم لا يُؤَمِّنون كما يُؤَمِّن أهلُ الذمة الكتابيون، إذ المشركون لم يكن لهم إلا الإسلام أو السيف، قال أبو حاتم: فسّر الحسَن قراءَته: لا إِسلام لهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والتكرير الذي فرَّ أبو علي منه متَّجه لأَنه بيان المبهم الذي يوجب قتلهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾ عرض وتحضيض: وقوله: ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن: المراد: من المدينة، وهذا يستقيم كغزوة أُحُد والأحزاب وغيرهما، وقال السدي: المراد: من مكة، فهذا على أَن يكون المعنى: همُّوا وفعلوا، أَو على أَن يقال: هموا بإِخراجه

= جليل، عالم بالحديث، قيّم في قراءة نافع، ضابط لها، قال أبو حاتم السجستاني: إذا حدثت عن المُسَيَّبِيّ عن نافع ففرِّغ سمعك وقلبك فإنه أتقن الناس، وأعرفهم بقراءة أهل المدينة. (غاية النهاية ١ ـ ١٥٧، ١٥٨).

(١) الأولى حينئذ أن تكتب (أآئمة) ويمكن أن تكتب (آئمة) وتأمل الفرق بين هذه القراءة وبين قراءة المسيَّبيّ عن نافع.

(٢) قريش: ٤.



بأَيديهم فلم يصلوا إلى ذلك، بل خرج بأَمر الله عزَّ وجلَّ، وهذا يجري مع إِنكار النبي ﷺ على أَبي سفيان بن الحارثة قوله:

وَرَدَّنـــــــي للهِ مـــــــنْ طـــــرَّدْتُ كـــلَّ مُطَـــرَّدِ

ولا ينسب الإخراج إِليهم إلا إِذا كان الكلام في طريق تَذْنيبهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[(١)]، وقوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾[(٢)]، والأَول على أَن ما فعلوا به من أَسباب الإِخراج هو الإِخراج.

وقوله: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قيل: يراد أَفعالهم بمكة بالنبي ﷺ وبالمؤمنين، وقال مجاهد، يراد به ما بدأَت به قريش من معونة بني بكر حلفائهم على خزاعة حلفاءِ رسول الله ﷺ، فكان هذا بدءَ النقض، وقال الطبري: يعني فعلهم يوم بدر، وقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ استفهام على معنى التقرير والتوبيخ، وقوله: ﴿فَٱللَّهُ﴾ مرتفع بالابتداءِ، و﴿أَحَقُّ﴾ خبره، و﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾ بدل من اسم الله، بدل اشتمال، أو في موضع نصب على إسقاط خافض تقديره: بأَن تخشوه، ويجوز أَن يكون [الله] ابتداءً، و﴿أَحَقُّ﴾ ابتداءٌ ثان[(٣)]، و﴿أَن تَخْشَوْهُ﴾ خبر الثاني، والجملة خبر الأَول، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كما تقول: افعل كذا إن كنت رجلاً، أَي: رجلاً كاملاً، فهذا معناه: إن كنتم مؤمنين كاملي الإيمان، لأن إيمانهم كان قد استقر.

وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية. قررت الآيات قبلها أَفعال الكفرة، ثم حضَّ على القتال مقترناً بذنوبهم لتنبعث الحمية مع ذلك، ثم جزم الأَمر بقتالهم في هذه الآية مقترناً بوعد وكيد يتضمن النصرة عليهم والظفر بهم، وقوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾ معناه: بالقتل والأَسر وذلك كله عذاب، ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ معناه: يذلهم على ذنوبهم، يقال: خَزِي الرجل يخزى خزياً إِذَا ذلَّ من حيث وقع في عار، وأَخزاه غيره، وخَزِي يَخزى خزايةً إذا استحيا، وأما قوله: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الكلام يحتمل أَن يريد جماعة المؤمنين، لأَن كل ما يهد من الكفر هو شفاءٌ من همّ صدور المؤمنين،

---

(١) البقرة: ٢١٧.

(٢) محمد: ١٣.

(٣) هكذا في جميع الأصول، وقال أبو حيان تعليقاً على ذلك: «وحسن الابتداءُ بالنكرة لأنها أفعل التفضيل، وقد أجاز سيبويه أن تكون المعرفة خبراً للنكرة في نحو: أقصِدُ رجلاً خيرٌ منه أبوه».

ويحتمل أن يريد تخصيص قوم من المؤمنين، وروي أنهم خزاعة، قاله مجاهد والسدي، ووجه تخصيصهم أنهم الذين نقض فيهم العهد ونالتهم الحرب، وكان يومئذ في خزاعة مؤمنون كثير، ويقتضي ذلك قول الخزاعي المستنصر بالنبي ﷺ:

. . . . ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِع يدا

وفي آخر الرجز يقول:

. . . . وَقَتَلُونَا رُكَّعاً وسُجَّدا[1]

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ على إسناد الفعل إلى الله عزَّ وجلَّ. وقرأت فرقة: [وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ] على إسناد الفعل إلى الغيظ، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيَتُوبُ﴾ بالرفع على القطع مما قبله، والمعنى أن الآية استأنفت الخبر بأنه قد يتوب على بعض هؤلاءِ الكفرة الذين أمر بقتالهم، قال أبو الفتح: وهذا أمر موجود سواءٌ قوتلوا أو لم يقاتلوا، فلا وجه لإدخال التوبة في جواب الشرط الذي في ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ على قراءَة النصب، وإنما الوجه الرفع على الاستئناف والقطع، وقرأ الأعرج، وابن أَبي إسحق، وعيسى الثقفي، وعمرو بن عبيد، وأَبو عمرو ـ فيما رُوي عنه ـ: [ويتُوبَ] بالنصب على تقدير: «وأَن يتوب»، ويتوجه ذلك عندي إذا ذهبت إلى أَن التوبة إنما يراد بها هنا أَن قتل الكافرين والجهاد في سبيل الله هو توبة لكم أَيها المؤمنون

---

(١) الخزاعي الذي قال هذا الرجز اسمه عمرو بن سالم، وقصتُه أن صلح الحديبية جعل بني بكر يدخلون في عَقْد قريش وعهدهم، وخزاعة تدخل في عقد النبي ﷺ وعهده، وبقيت الهدنة سبعة عشر شهراً بين الطرفين، ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة حلفاء الرسول ﷺ ليلاً بماءٍ لهم يقال له: «الوتير» قرب مكة، فقالت قريش: ما يعلم بنا محمد (ﷺ) وهذا الليل وما يرانا أحد، فأعانوا بني بكر على خزاعة بالكراع والسلاح، وركب عمرو بن سالم هذا حتى قدم المدينة على رسول الله ﷺ بأبيات أنشده إياها، ومنها:

اللَّهُمَّ إنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدا ... حِلْفَ أَبِينَا وأبِيهِ الأتْلَدا
كُنَّا والِداً وكنت وَلَدا ... ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا ولم نَنْزَعْ يدَا
فانْصُرْ رسول الله نصْراً أعْتدا ... وادْعوا عِبَادَ اللهِ يأْتُوا مَدَدَا

إلى أن يقول:

هُمْ بَيَّتُونا بالهَجِير هُجَّدَا ... وقَتَلُونَا رُكَّعاً وسُجَّدَا

فقال رسول الله ﷺ: «نُصرتَ يا عمرو بن سالم» وأمر رسول الله ﷺ بالجهاد، وكان أن كتم مخرجه، وسأل الله أن يُعمي على قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم، وكان نصر الله الأكبر، وتم فتح مكة.



وكمال لإيمانكم، فتدخل التوبة ـ على هذا في شرط القتال(١).

و﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان نِسْبَتُهما إلى الآية واضحة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ في هذه الآية ليست المعادلة، وإنما هي المتوسط في الكلام، وهي عند سيبويه التي تتضمن إضراباً عن اللفظ الأول لا معناه، واستفهاماً، فهي تسُدّ مسدَّ «بلْ وألف الاستفهام» وهي التي في قولهم: «إنَّهَا لإبل أَمْ شَاءٌ»، التقدير: بل أَهي شاءٌ؟ وقوله: ﴿أَن تُتْرَكُوا﴾ يَسُد عند سيبويه مسَدَّ مفعولي (حسِب)، وقال المبرّد: [أَنْ] وما بعدها مفعول أَول، والثاني محذوف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَن تقديره: مُهْملين، أَو سُدىً، ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا﴾ هي (ما) دخلت على (لم) وفيها مبالغة، ومعنى الآية:

---

(١) بدأت الآية الكريمة بأمر هو ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾، وبعده جوابُه ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ﴾. وفي الأمر معنى الشرط، والتقدير: إن تقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ثم جاء بعد الجواب قوله: ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾، ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، و﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ﴾ و﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ ـ وكلها مجزومة بالعطف على [يُعذبْ]، ويجوز فيها كلمة الرفع على القطع من الأول والاستئناف، ويجوز النصب على إضمار (أنْ) وهو ما يسمَّى الصرف عند الكوفيين، وعليه قول الشاعر:

فإن يَهْلِكْ أبو قابوسَ يَهْلِكْ ... ربيعُ النَّاس والشَّهْرُ الحرامُ
ونأخُذْ بَعْدَه بذِنَابِ عَيْشٍ ... أَجَبُّ الظَّهْرِ لَيْسَ لَهُ سَنَامُ

وإن شئت رفعت (نأخذ) على القطع، وإن شئت نصبته، لكن جاءت بعد ذلك جملة ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ﴾ والقراءة فيها بالرفع على الاستئناف، ولا يجوز الجزم لأنه ليس من جنس الأول، لأن القتال غير موجب لهم التوبة من الله كما أوجب لهم العذاب والخزي، وكما أوجب شفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فقد تم الكلام، ثم قال سبحانه: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾، هذا وقد ذكر ابن عطية التعليل المقبول لجواز النصب في [وَيَتُوبَ] على معنى أن نعتبر الجهادَ في سبيل الله وقَتْلَ الكفار توبةً.



أظننتم أن تُتركوا دون اختبار وامتحان؟ فـ[لَمَّا] في هذه الآية بمنزلة قول الشاعر:

بِـأَيْـدِي رجـالٍ لـم يَشيمـوا سُيُـوفَهُـمْ   ولَمْ تَكْثُرِ الْقَتْلَى بها حينَ سُلَّتِ[1]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمراد بقوله: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ﴾ لما يعلم ذلك موجوداً كما علمه أزلاً بشرط الوجود، ولما يظهر فعلكم واكتسابكم الذي يقع عليه الثوابُ والعقاب، ففي العبارة تجوز، وإلاَّ فحَتْم أنه قد علم الله في الأَزل اللذين وصفهم بهذه الصفة مشروطاً وجودهم، وليس يحدث له علم[2] تبارك وتعالى عن ذلك.

و﴿وَلِيجَةًۚ﴾ معناه: بطانة ودخيلة، قال عبادة بنُ صفْوان الغَنوي:

ولائِجُهُـم فـي كـلِّ مَبْـدَى وَمَحْضَـرٍ   إلى كُلِّ مَنْ يُرْجى وَمَنْ يُتَخَوَّف[3]

وهو مأخوذ من الولوج، فالمعنى: أمراً باطناً مما ينكره الحق.

وهذه الآية مخاطبة للمؤمنين معناها أنه لابد من اختبارهم، فهي كقوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ﴾[4]، وكقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾[5]، وفي هذه الآية طعن على المنافقين الذين اتخذوا الولائج لاسيما عندما فُرض القتال، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بالتاءِ على المخاطبة، وقرأ الحسن، ويعقوب ـ في رواية رؤيس ـ وسلام بالياءِ على الحكاية عن الغائب.

---

(١) الشاعر هو الفرزدق، والبيت في المدح، وكلمة (شام) من الأضداد، يقال: شام السيْف شيما: سلَّه وأغمده، والمراد هنا الإغماد، والواو في قوله: (ولم تكثر) واو الحال، أي: لم يغمدوها والقتلى بها لم تكثر، وإنما يغمدونها بعد أن تكثر القتلى، ومن الشواهد الواضحة على أن شام بمعنى أغمد قول الطرماح:

وقَـدْ كنْـتُ شِمْـتُ السَّيْـفَ بعْـدَ استِـلالـهِ   وحاذَرْتُ يومَ الوَعْد ما قيلَ في الوَعْدِ

(٢) نص هذه الجملة في بعض النسخ: «وليس يحدث أنه علم».

(٣) الولائج: جمع وليجة وهو بطانة الرجل وخاصته، والمَبْدَى خلاف المَحْضَر، قاله في اللِّسان، وقال: البَدْوُ والباديةُ والبَداةُ والبَداوةُ: خلاف الحضر، وفي الحديث: (مَنْ بَدَا جَفَا)، أي: من نزل البادية صار فيه جفاءُ الأعراب، والرجاءُ ضد الخوف، يقول: إن بطانتهم من كل نوع، من البدو، ومن الحضر، فهم موضع القصد من الجميع.
وهم موضع الرجاءِ والخوف.

(٤) البقرة: ٢١٤.

(٥) العنكبوت: ١ـ ٢.



وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية[1]. معناه: ما كان للمشركين بحق الواجب أَن يعمروا، وهذا هو الذي نفى الله عزَّ وجلَّ، وإلا فقد عمروا مساجده قديماً وحديثاً وتَغَلُّباً وظُلْماً، وقرأَ حماد بن أَبي سلمة عن ابن كثير، والجحدري: [مَسْجِد اللهِ] بالإفراد في الموضعين، وقرأَ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، والأَعرج، وشيبة، وأَبو جعفر، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: ﴿مَسَاجِدَ﴾ بالجمع في الموضعين، وقرأَ ابن كثير أيضاً، وأَبو عمرو: [مسْجِدَ] بالإفراد في هذا الموضع الأَول، و﴿مَسَاجِدَ﴾ بالجمع في الثاني، كأَنَّه ذكر أولا الذي فيه النازلة ذلك الوقت، ثم عمم المساجد ثانياً في الحكْم الثابت ما بقيت الدنيا، ولفظ الجمع يقتضي عموم المساجد كلها، ويحتمل أَن يراد به المسجد الحرام في الموضعين وحده على أن يقدر كل موضع سجود فيه مسجداً ثم يُجمع، ولفظ الإفراد في الموضعين يقتضي خُصُوص المسجد الحرام وحده، ويحتمل أَن يُراد به الجنس فيعم المساجد كلها، ولا يمنع من ذلك إضافته كما ذهب إليه من لا بصر له، وقال أَبو عليٍّ: الثاني في هذه القراءَة يراد به الأَول وسائر المساجد كلها حكمها حكم المسجد الحرام.

وقوله تعالى: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ إشارة إلى حالهم، إِذ أَقوالهم وأَفعالهم تقتضي الإِقرار بالكفر والتحلي به، وقيل: الإشارة إلى قولهم في التَّلْبية: «إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك» ونحو ذلك، وحكى الطبري عن السدي أَنه قال: الإِشارة إِلى أَن النصراني كان يقول: أنا نصراني، واليهودي كذلك، والوثني يقول: «أَنا مشرك».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا لم يحفظ، ثم حكم الله عليهم بأَن أَعمالهم قد حَبِطت، أَي: بطلت، ولا أَحفظها تستعمل إلا في السعي والعمل، ويشبه أَن يكون من الحبط وهو داءٌ قاتل

---

(١) قيل في سبب نزول هذه الآية: إن العباس لما أُسِرَ وعُيِّر بالكفر وقطيعة الرحم قال: تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا، فقال علي: أَلَكُم محاسن؟ قال: «نعم، إنَّا لنَعْمُر المسجد الحرام، ونَحْجُبُ الكعبة، ونسقي الحجاج، ونَفُكّ العاني»، فنزلت هذه الآية رداً عليه، ولهذا قال الزمخشري: معنى الآية: «ما صحّ وما استقام لهم ذلك»، وهذا هو معنى قول ابن عطية هنا: «ما كان للمشركين بحق الواجب أن يعمروا، وهذا هو الذي نفي الله عزَّ وجلَّ، وإلا فقد عمروا مساجده قديماً وحديثاً وتغلُّباً وظلماً».



يأخذ السائمة إذا رعَتْ وبيلا ، وهو الذي في قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ مما ينبت الربيع مما يقتل حبطاً أو يُلِم» الحديث[١] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

المعنى في هذه الآية: إنَّمَا يعمر مساجد الله بالحق لهم والواجب ، ولفظ هذه الآية الخبر وفي ضمنها أَمر المؤمنين بعمارة المساجد ، وقد قال بعض السلف: إذا رأَيتم الرجل يعمر المساجد فحسنوا به الظن ، وروى أَبو سعيد الخدري أَن النبي ﷺ قال: «إذا رأَيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإِيمان»[٢] ، وقد تقدم القول في قراءة ﴿مَسَٰجِدَ﴾ وقوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يتضمن الإيمان بالرسول إذ لا يتلقى ذلك إلا منه ، وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ حذفت الألف من (يخشى) للجزم ، قال سيبويه: «واعلم أن الأخير إذا كان يسكن في الرفع حذف في الجزم لئلا يكون الجزم بمنزلة الرفع» ، ويريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة ، وهذه مرتبة العدل بين الناس ، ولا محالة أَن الإِنسان يخشى غيره ويخشى المحاذير

---

(١) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه الإمام البخاري عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ جلس ذات يوم على المِنْبر وجلسنا حوله فقال: «إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يُفْتَح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ، فقال رجل: يا رسول الله أو يأتي الخير بالشَّر؟ فسكت النبي ﷺ ، فقيل له: ما شأنك تُكلِّم رسول الله ﷺ ولا يكلمك؟ فرأينا أنه يُنْزَلُ عليه ، قال: فمسح عنه الرُّحَضَاءَ فقال: أين السائل؟ وكأنه حمده ، فقال: إنه لا يأتي الخير بالشَّر ، وإن مما ينبت الربيع يَقْتُل أو يُلِمّ ، إلا آكلة الخضراءِ أكلت حتى إذا امتدت خاصِرتَاها استقبلت عين الشمس فَثَلَطَتْ وبَالَت ورَتَعَتْ ، وإن هذا المال خَضِرَةٌ حُلْوَة ، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ، أو كما قال النبي ﷺ ، وإنه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ، ويكون شهيداً عليه يوم القيامة».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه ، والنسائي ، والبيهقي في شعب الإيمان ـ عن أبي سعيد ، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة. (الجامع الصغير).



الدنيوية، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه، و[عَسَى] من الله واجبة حيثما وقعت في القرآن، ولم يرْجُ الله بالاهتداءِ إلا من حصل في هذه المرتبة العظيمة من العدالة، ففي هذا حضٌّ بليغ على التقوى.

وقرأ الجمهور: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وقرأ ابن الزُّبير[(١)]، وأبو وجْزَة[(٢)] ومحمد بن عليّ، وأبو جعفر القاري[(٣)]: [أجعلتم سُقاةَ الحاج وعمرَةَ المسجدِ الحرامِ][(٤)]، وقرأها كذلك ابن جبير إلا أنه نصب ﴿المَسْجدَ﴾ على إرادة التنوين في [عَمَرَة]. وقرأ الضحاك، وأبو وجزة، وأبو جعفر القاري [سُقايةَ] بضم السين[(٥)]، و[عمرة]، فأما من قرأ ﴿سِقَايَةَ﴾ و﴿وَعِمَارَةَ﴾ ففي الكلام عنده محذوف إمَّا في أوله وإمَّا في آخره، فإمَّا أن يُقَدّر: أجعلتم أهل سقاية، وإما أن يُقَدّر: كفعل من آمن بالله، وأما من قرأ: [سُقاة] و[عَمَرَة] فنمط قراءَته مستو. وأما قراءَة الضحاك فجمع ساقٍ إلا أنه ضم أوله، كما قالوا: عرق وعُراق وظِئْر وظُؤَار[(٦)]، وكان قياسه أن يقال: سُقاءٌ، وإن أُنِّث كما أُنِّث من الجموع (حجارة) وغيره.

وسقاية الحاج كانت في بني هاشم، وكان العباس يتولاها، قال الحسن: ولما نزلت هذه الآية قال العباس: ما أُراني إلا أَترك السقاية، فقال النبي ﷺ: «أقيموا عليها فإنها لكم خير»[(٧)].

---

(١) هو عبد الله بن الزبير بن العوّام القرشي الأسدي، أُمُّه أسماءُ بنت أبي بكر رضي الله عنه، ولد عام الهجرة، وحنكه رسول الله ﷺ بتمرة فكان أول شيء دخل في جوفه هو ريق النبي ﷺ، ووردت عنه الرواية في حروف القرآن، وقتل سنة ٧٣ من الهجرة، وهو قول الجمهور (الإصابة).

(٢) اسمه يزيد بن عبيدة السعدي المدني، وردت عنه الرواية في حروف القرآن، وتوفي سنة ١٣٠ من الهجرة. (طبقات القراء).

(٣) هو يزيد بن القعقاع أبو جعفر المخزومي المدني القاري، أحد القراء العشرة المشهورين، تابعي كبير القدر (طبقات القراء).

(٤) (سُقَاة) في هذه القراءة: جمع ساقٍ مثل رامٍ ورماة، و(عَمَرَة) بفتح العين وحذف الألف: جمع عامر مثل صانع وصَنَعَة، قال ابن الجزري في كتابه «النَّشر في القراءات العشر»: «وهي رواية ميمونة والقورسي عن أبي جعفر، وكذا رواها ابن جبير عن ابن جماز».

(٥) قال القرطبي تعقيباً على هذه القراءة: وهي لغة.

(٦) العُراق: العظم أكل لحمه، والظِّئْرُ: المرضعة لغير ولدها، يقال: ظأَرت المرأةُ والناقة على غير ولدها: عَطَفَت.

(٧) أخرج أبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه في قوله: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ قال: أرادوا أن يدعوا=



وعمارة المسجد ، قيل: هي حفظه من الظلم فيه أَو يقال هُجْرا ، وكان ذلك إلى العباس ، وقيل: هي السدانة خدمة البيت خاصة ، وكانت في بني عبد الدار ، وكان يتولاها عثمانُ بن طلحة بن أَبي طلحة ـ واسم أَبي طلحة عبد الله بن عبد العزَّى بن عبد الدار ـ وشيبةُ بن عثمان بن أبي طلحة المذكور ، هذان هما اللذان دفع إليهما رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة في ثاني يوم الفتح بعد أن طلبه العباس وعلي رضي الله عنهما ، وقال ﷺ لعثمان وشيبة: «يوم وفاءٍ وبِرّ ، خذوها خالدة تالدة لا ينازعكموها إلا ظالم»[1].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يعني السدانة ، واختلف الناس في سبب نزول هذه الآية ـ فقيل: إن كفار قريش قالوا لليهود: إنا نسقي الحجيج ونعمر البيت ، أفنحن أَفضل أَم محمد ﷺ ودينه؟ فقالت لهم أحبار اليهود: بل أنتم ، فنزلت الآية في ذلك ، وقيل: إن الكفار افتخروا بهذه الآية فنزلت الآية في ذلك ، وأَسند الطبري إلى النعمان بن بشير أنه قال: كنت عند منبر النبي ﷺ في نفر من أَصحابه ، فقال أَحدهم: ما أَتمنى بعد الإسلام إلا أن أَكون ساقي الحجاج ، وقال الآخر: إلا أن أكون خادم البيت وعامره ، وقال الثالث: إلا أَن أَكون مجاهداً في سبيل الله ، فسمعهم عمر بن الخطاب فقال: اسكتوا حتى أَدخل على النبي ﷺ فأَستفتيه ، فدخل فاستفتاه ، فنزلت الآية في ذلك[2] ، وقال ابن عباس ، والضحاك: إن المسلمين عيَّروا أَسرى بدر بالكفر ، فقال العباس: بل نحن سقاة الحاج

= السقاية والحجابة فقال رسول الله ﷺ: «لا تدعوها فإن لكم فيها خيراً». (الدر المنثور).

(١) عثمان بن طلحة بن أبي طلحة: اسمه عبد الله بن عبد العزَّى ، أسلم في هدنة الحديبية ، وهاجر مع خالد بن الوليد ، وشهد الفتح مع النبي ﷺ ، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر قال: دخل النبي ﷺ الكعبة ودخل معه بلال وعثمان بن طلحة ، وأُسامة بن زيد ، وفي هذا الحديث أن النبي ﷺ طلب من عثمان مفتاح البيت ، فدخل فمكث فيه نهاراً ثم خرج ، قد سكن عثمان بالمدينة إلى أن مات بها سنة اثنين وأربعين من الهجرة.

(٢) أخرجه مسلم ، وأبو داود ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ـ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، وفيه: «فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ، وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صليتم الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ. . . . الخ» (الدر المنثور).



وعمرة البيت، فنزلت الآية في ذلك[١]، وقال مجاهد: أُمِروا بالهجرة فقال العباس: أنا أَسقي الحاج، وقال عثمان بن طلحة: أنا حاجب للكعبة فلا نهاجر، فنزلت ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ ﴾ إلى قوله: ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾[٢]، قال مجاهد: وهذا كله قبل فتح مكة، وقال محمد بن كعب: إن العباس، وعليّاً وعثمان بن طلحة تفاخروا، فقال العباس: أنا ساقي الحاج، وقال عثمان: أنا عامر البيت ولو شئت بتُّ فيه، وقال علي: أنا صاحب جهاد الكفار مع النبي ﷺ، والذي آمنت وهاجرت قديماً، فنزلت الآية في ذلك[٣].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

لما حكم الله تعالى في الآية المتقدمة بأَن الصنفين لا يستويان بيَّن ذلك في هذه الآية الأَخيرة، وأَوضحه، فعدَّد الإِيمان، والهجرة، والجهاد بالمال والنفس، وحكم أَن أَهل هذه الخصال أَعظم درجة عند الله من جميع الخلق، ثم حكم لهم بالفوز برحمته، ورضوانه، والفوزُ: بلوغُ البُغية، إِما في نيل رغبة، أَو نجاة من مهلكة، وينظر إِلى معنى هذه الآية الحديث الذي جاء «دعوا لي أصحابي، فلو أَن أَحدكم أَنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصيفه»[٤].

---

(١) أخرجه ابن جرير، وأبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، وابن مردويه ـ عن عبد الله بن عبيدة رضي الله عنه، وأخرج الفريابي مثله عن ابن سيرين. (الدر المنثور).

(٣) أخرج مثله أبو نعيم في فضائل الصحابة، وابن عساكر عن أنس رضي الله عنه، وفيه «شيبة بن عثمان» بدلاً من «عثمان».

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس رضي الله عنه، ولفظه: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغتم أعمالهم». قال الإمام السيوطي، وهو حديث صحيح، وفي الصحيحين وغيرهما من الصحاح عن أبي سعيد الخُدري أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أَحَدِهم ولا نصِيفَه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

لأن أَصحاب هذه الخصال على سيوفهم انبنى الإِسلام، وهم ردُّوا الناس إلى الشرع.

وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ الآية. هذه آية وعد، وقراءَة الناس: ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ بضم الياءِ وكسر الشين المشددة، وقرأ الأعمش، وطلحة بن مصرف، وحميد بن هلال: [يبْشُرهم] بفتح الياءِ وسكون الباءِ وضم الشين خفيفة، وأَسند الطبري إلى جابر ابن عبد الله أَنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أَهل الجنةِ الجنةَ قال الله عزَّ وجلَّ: أَعطيتكم أَفضل من هذا، فيقولون: ربنا أَي شيءٍ أفضل من هذا؟ قال: رضواني»(١)، وفي البخاري في كتاب السُّنة منه: «فلا أَسخط عليكم أبداً».

وقرأَ الجمهور: ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ بكسر الراءِ، وقرأَ عاصم، وعمرو: [ورُضوان] بضم الراءِ، وقرأَ الأعمش بضم الراءِ والضاد جميعاً، قال أَبو حاتم: لا يجوز هذا(٢).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ﴾ الآية.

ظاهر هذه المخاطبة أنها لجميع المؤمنين كافة، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة، ورَوَتْ فرقة أن هذه الآية إنما نزلت في الحضّ على الهجرة ورفض بلاد الكفر، فالمخاطبة ـ على هذا ـ إنما هي للمؤمنين الذين كانوا في مكة وغيرها من بلاد العرب، خوطبوا بألاَّ يُوالوا الآباءَ والإِخوة فيكونون لهم تبعاً في سكنى بلاد الكفرة، ولم يذكر الأَبناءُ في هذه الآية إذ الأَغلب من البشر أَن الأَبناءَ هم التبع للآباءِ. و(الإخوان) في هذه الآية جمع أخ النسب، وكذلك هي قوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾(٣).

---

(١) الحديث رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، ولفظه كما جاء في كتاب التوحيد في البخاري: «عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبَّيْك ربنا وسعْدَيْك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تُعْط أحداً من خَلْقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

(٢) ردَّ عليه أبو حيان في «البحر» فقال: «ينبغي أن يجوز، فقد قالت العرب: «سُلُطان» بضم اللام، وأورده التصريفيون في أبنية الأسماء».

(٣) النور: ٦١.



وقرأ عيسى بن عمر: ﴿ إِنِ اسْتَحَبُّوا﴾ بفتح الألف من [أَن]، وقرأ الجمهور [إِنْ] بكسر الألف على الشرط، و﴿ اسْتَحَبُّوا﴾ متضمنة معنى: فَضَّلوا وآثروا، ولذلك تعدت بـ [عَلَى].

ثم حكم الله تعالى بأن مَنْ والاهم واتَّبعهم في أغراضهم فإنه ظالم، أي واضع للشيء غير موضعه، وهذا ظلم المعصية لا ظلم الكفر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

هذه الآية تقوِّي مذهب من رأى أن هذه والتي قبلها إنما مقصودها الحضُّ على الهجرة، وفي ضمن قوله: ﴿ فَتَرَبَّصُوا﴾ وعيد بين. وقوله: [بِأَمْرِهِ] قال الحسن: الإشارة إلى عذاب أو عقوبة من الله، وقال مجاهد[1]: الإشارة إلى فتح مكة، والمعنى: فإذا جاءَ الله بأمرِهِ فلم تُسْلفوا ما يكون لكم به أجر ومكانة في الإسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذُكر الأَبناء في الآية لمَّا جَلبت ذكرَهم المحبةُ، والأبناءُ صدرٌ في المحبة، وليسوا كذلك في أَن يتبعهم آباؤُهم في آرائهم كما في الآية المتقدمة، وقرأ جمهور الناس: ﴿ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾، وقرأ عاصم وحده بخلاف عنه، وأبو رجاءٍ، وأبو عبد الرحمن، وعصمة: [وعشيراتكم] وحسُنَ هذا الجمع إذْ لكل أَحدٍ عشيرة تختص به، ويُحسّن الإفراد أَن أبا الحسن الأَخفش قال: إنما تجمع العرب «عشائر» ولا تكاد تقول «عشيرات». و﴿ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ معناه: اكتسبتموها، وأَصل الاقتراف والمقارفة: مقاربة الشيءِ[2]. ﴿ وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ بيِّنٌ في أَنواع المال، وقال ابن المبارك:

---

(١) مجاهد: يكنى أبا الحجَّاج، وهو مولى عبد الله بن السائب بن أبي السائب المخزومي، أسند مجاهد إلى ابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو، ومات سنة اثنتين ومائة يوم السبت وهو ساجد، راجع (صفوة الصفوة ـ الجزء الثاني).

(٢) قال القرطبي: أصل الاقتراب اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره.

الإشارة إلى البنات اللواتي لا يتزوجن ولا يوجد لهن خاطب(١) ﴿ومسَاكِنُ﴾ جمع مسكن بفتح الكاف، مفْعل من السُّكْنى، وما كان من هذا معتل الفاءِ فإنما يأتي على مَفْعِل بكسر العين كموعدِ وموطن، والمساكن: القصور والدور، و﴿أَحَبَّ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وكان الحجاج بن يوسف يقرؤُها [أحبُّ] بالرفع، وله في ذلك خبرٌ مع يحيى بن يَعْمَر، سأله الحجّاج: هل تسمعني أَلحن؟ قال: نعم، في هذا الحرف، وذَكَر له رفع [أَحَبّ] فنفاه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك خارج في العربية على أَن يضمر في كان الأَمر والشأن(٢)، ولم يُقْرَأ بذلك، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ عموم لفظ يراد به الخصوص فيمن يوافي على فسقه، أَو عموم مطلق على أنه لا هداية من حيث الفسق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـًٔا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾﴾.

هذه مخاطبة لجميع المؤمنين، يعدّد الله نعمه عليهم، و﴿مَوَاطِنَ﴾ جمع موطِن بكسر الطاءِ، والموطن: موضع الإقامة أو الحلول لأَنه أول الإقامة، والمواطن المشار إليها بدرٌ، والخندق، والنضير، وقُريظة، ولم يصرف [موَاطن] لأَنه جمع

---

(١) نقل المفسرون هنا بيت شعر يؤيد هذا المعنى، وهو:

كَسَدْنَ مِن الفقْرِ في قَومِهِنّ ... وقَدْ زَادَهُنَّ مَقَامي كُسودا

ولكن أبا حيان قال تعقيباً على رأي ابن المبارك: «وتفسير ابن المبارك بأن ذلك إشارة إلى البنات اللواتي لا يتزوجن لِقلّة خطابهن تفسير غريب ينبو عنه اللفظ».

(٢) يجوز ـ في غير القرآن ـ رفع (أَحَبّ) على الابتداء والخبر، واسم كان مضمر فيها، والمبتدأُ والخبر في محلّ نصب خبر كان، وعليه أنشد سيبويه قول العُجَير السلوكي:

إذا مِتُّ كان الناسُ صِنفَانِ: شامتٌ ... وآخَرُ مُثْنٍ بالّذي كنتُ أصْنَعُ

كما أنشد لهشام أخي ذي الرّمة:

هيَ الشّفاءُ لِدَائي لَوْ ظفِرْتُ بها ... وليْسَ منها شفاءُ الداءِ مَبْذولُ

ونهاية جمع. ﴿وَيَوْمَ﴾ عطف على موضع قوله: ﴿فِي مَوَاطِنَ﴾ أو على لفظه بتقدير: «وفي يوم»، فانحذف حرف الخفض، و﴿حُنَيْنٍ﴾ وادٍ بين مكة والطائف قريب من ذي المجاز، وصُرف حين أُريد به الموضع والمكان، ولو أُريد به البقعة لم يصرف، كما قال الشاعر:

نَصَــرُوا نَبِيَّهُــمُ وشَــدُّوا أَزْرَهُ ... بِحُنَيْـنَ يـوم تَـواكُـلِ الأَبْطَـالِ[(١)]

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، رُوي أن رسول الله ﷺ قال حين رأى جملته اثني عشر ألفاً: «لنْ نُغلب اليوم من قِلَّة»، ورُوي أن رجلاً من أَصحابه قالها فأَراد الله إِظْهَار العجز فظَهر حين فر الناس، ثم عطف القدر بنصره.

وقوله تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، أَي: بقدر ما هي رحبة واسعة لِشدَّة الحال وصعوبتها، فـ (ما) مصدرية.

وقوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ يريد فِرار الناس عن النبي ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واختصار هذه القصة أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة وكان في عشرة آلاف من أَصحابه وانْضاف إليه أَلفان من الطلقاء فصار في اثني عشر أَلفاً سمع بذلك كفار العرب فشق عليهم، فجمعت له هوازن وأَلفافُها وعليهم مالك بن عوف النصري، وثقيف وعليهم عبد ياليل بن عمرو، وانضاف إليهم أَخلاط من الناس حتى كانوا ثلاثين أَلفاً، فخرج إليهم رسول الله ﷺ حتى اجتمعوا بِحُنين، فلما تَصافَّ الناس حمل المشركون من جوانب الوادي فانهزم المسلمون، قال قتادة: ويقال: إِن الطُّلقاءَ من أَهل مكة فرُّوا وقصدوا إِلقاءَ الهزيمة في المسلمين، وكان رسول الله ﷺ على بغلة شهباءَ، وقال

---

(١) البيت لحسَّان بن ثابت (الصحاح ـ حَنَنَ) قال: وحُنَيْنٌ: موضع يذكَّر ويؤَنَّث، فإن قصدت به البلد والموضع ذكَّرته وصَرَفْته، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، وإن قصدت به البَلْدة والبقعة أنَّثته ولم تصرفه كما قال الشاعر: وساق البيت، وقال الفراءُ في «معاني القرآن»: وقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾: وادٍ بين مكة والطائف، وجرى حنينٌ لأنه اسمٌ لمذكر، وإذا سمَّيْتَ ماءً أو وادياً أو جبلاً باسم مذكر لا علة فيه أجريته، من ذلك حنينٌ وبدرٌ وأحدٌ وحِراءٌ وثَبيرٌ ودابقٌ وواسطٌ، وإنما سمّي واسطاً بالقصر الذي بناه الحجاج بين الكوفة والبصرة، ولو أراد البلدة أو اسماً مؤنثاً لقال: واسطة، وربما جعلت العرب (واسط وحنينَ وبدرَ) اسماً لبلدته التي هو فيها فلا يجرونه، وأنشد بعضهم: نصروا نبيَّهُمُ... الخ».



أَبو عبد الرحمن الفهري: كنت مع النبي ﷺ يومئذ، وكان على فرس قد اكتنفه العباسُ عمُّه وابنُ عمِّه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وبين يديه أيمن بن أُم أَيمن ـ وثَمَّ قُتِل رحمه الله ـ فلما رأَى رسول الله ﷺ شدة الحال نزل عن بغلته إلى الأرض ـ قاله البراءُ بن عازب ـ واسْتَنْصَر الله عزَّ وجلَّ فأَخذ قبضة من تراب وحصى فرمى بها وجوه الكفار وقال: «شاهت الوجوه»، وقال أبو عبد الرحمن: تطاول من فرسه فأَخذ قبضة التراب، ونزلت الملائكة لنصره، ونادى رسول الله ﷺ: «يا للأنصار»، وأَمر رسولُ الله ﷺ العباسَ أن ينادي: أَين أَصحاب الشجرة؟ أَين أصحاب سورة البقرة؟ فرجع الناس عُنُقاً واحداً[1] وانهزم المشركون، قال يَعْلَى بن عطاءٍ: فحدثني أَبناؤُهم عن آبائهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا دخل في عينيه من ذلك التراب، واستيعاب هذه القصة في كتب السِّيَر.

وظاهر كلام النحاس أَن رسول الله ﷺ كان في أربعة عشر أَلفاً، وهذا غلط.

وقوله: ﴿مُّدْبِرِينَ﴾ نصب على الحال المؤكدة كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾[2]، والمؤكدة هي التي يدل ما قبلها عليها كدلالة التَّولِّي على الإِدبار.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ الآية. ﴿ثُمَّ﴾ هاهنا على بابها من الترتيب، والسكينةُ: النصر الذي سكنت إليه ومعه النفوس والحال. والإشارة بالمؤمنين إلى الأَنصار على ما رُوي، وذلك أَن رسول الله ﷺ نادى في ذلك اليوم: «يا معشر الأَنصار»، فانصرفوا وهم ردُّوا الهزيمة، والجنود: الملائكة والرعب، قال أبو حاجر يزيد بن عامر[3]: «كان في أَجوافنا مثل ضربة الحجر في الطست من الرعب». وعذابُ

---

(١) بضم العين والنون: جماعة واحدة، ومنه حديث فزارة: «فانظروا إلى عُنُق الناس» أي: جماعتهم، ومنه حديث الحُدَيْبِيَة: «وإنْ نَجَوْا تكن عُنُق قطعها الله» أي: جماعة من الناس، قاله ابن الأثير في النهاية.

(٢) البقرة: ٩١، وفيها يقول سبحانه: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾.

(٣) يزيد بن عامر بن الأسود بن حبيب ـ أبو حاجر السُّوَائي، قال أبو حاتم: له صحبة، رَوَى عن النبي ﷺ في الصلاة، كان شهد حنيناً مع المشركين، ثم أسلم، ولما انهزم المشركون يوم حنين لحق بالطائف فقال رسول الله ﷺ: «لو أتاني مسلماً لرددت عليه أهله وماله» فلحق به، فردَّ عليه أهله وماله، وقد مدح النبي ﷺ بقصيدة منها:

مـا إنْ رأيـتُ ولا سَمِعْـتُ بِـوَاحِـدٍ ... فـي النَّـاسِ كُلِّهِـمُ كمثـل محمـد



الذين كفروا هو القتل الذي استحر فيهم والأَسر الذي تمكن في ذراريهم ، وكان مالك ابن عوف النَّصْري قد أَخرج الناس بالعيال والذَّراري ليقاتلوا عليها فخطَّأَهُ في ذلك دُرَيْد ابن الصِّمة ، وقال لمالك بن عوف: راعي ضأن ، وهل يردُّ المنهزمَ شيءٌ؟ وفي ذلك اليوم قُتل دُرَيد بن الصمة القتلة المشهورة ، قتله ربيع بن رُفَيْع بن أَهْبان السلميُّ ، ويقال له ابن الدُّغُنَّة(١).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ إعلام بأَن من أَسلم وتاب من الكفار الذين نجوا ذلك اليوم فإِنهم مقبولون مسلمون موعودون بالغفران والرحمة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨﴾.

قال قتادةُ ، ومعْمرُ بن راشد ، وغيرهما: صفة المشرك بالنجس إِنَّما كانت لأَنه جُنُب ، إِذْ غسله من الجنابة ليس بغسل. وقال ابن عباس وغيره: بل معنى الشرك هو الذي نجسه كنجاسة الخمر ، قال الحسن البصري: من صافح مشركاً فليتوضأْ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فمن قال: «بسبب الجنابة» أَوجب الغسل على من يُسلم من المشركين ، ومن قال بالقول الآخر لم يوجب الغسل ، والمذهب كله على القول بإِيجاب الغسل إلا ابن عبد الحكم فإِنه قال: ليس بواجب.

وقرأَ أَبو حيوة: [نِجْسٌ] بكسر النون وسكون الجيم(٢).

---

(١) يزيد بن رُفَيْع (بالتصغير) بن ثعلبة ـ السَّلمِيّ ، كان يقال له: ابن الدُّغُنَّة ، وهي أُمُّه ، ويقال: اسمها لدغة ، وجزم بذلك ابن هشام ، والكلبي ، وأبو عبيدة ، وفي غزوة حنين أدرك ربيعةُ دُرَيْد بن الصمة ، وهو في شجار له (أي هودج أو سرير) فظنه أولاً امرأة ، فإذا به شيخ ، وفي قصة قتله له أن دريداً قال له: فإذا رجعت إلى أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فلما أخبرها بذلك قالت: لقد أعتق أُمّهاتٍ لك ، ألا تكرّمت عن قتله لما أخبرك بِمَنّه علينا؟ فقال: ما كنتُ لأتكرَّم عن رضا الله ورسوله. (عن الإصابة هو والهامش السابق).

(٢) وهذا على تقدير حذف الموصوف ، أي: جنس نِجسٌ ، أو ضَرْبٌ نِجْسٌ ، وهو اسم فاعل من (نجس) فخففوه بعد الإتباع.



ونَصَّ الله تعالى في هذه الآية على المشركين وعلى المسجد الحرام، فقاس مالك رحمه الله وغيره جميعَ الكفار من أَهل الكتاب وغيرهم على المشركين، وقاس سائر المساجد على المسجد الحرام، ومنع من دخول الجميع في جميع المساجد، وكذلك كتب عمرُ بن عبد العزيز إلى عماله، ونزَع في كتابه بهذه الآية، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾[١]، وقال الشافعي: هي عامة في الكفار خاصة في المسجد الحرام، فأَباح دخول اليهود والنصارى والوثنيين في سائر المساجد، ومن حُجَّته حديث رَبْط ثُمامةَ بن أثال[٢]، وقال أَبو حنيفة: هي خاصة في عَبدة الأَوثان وفي المسجد الحرام، فأَباح دخول اليهود والنصارى في المسجد الحرام وغيره، ودخول عبَدة الأَوثان في سائر المساجد، وقال عطاء: وصف المسجد الحرام ومنع القُرْب يقتضي منعهم من جميع الحرم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقوة قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا﴾ تقتضي أَمْرَ المسلمين بمنعهم، وقال جابر بن عبد الله، وقتادة: لا يقربُ المسجد الحرام مشركٌ إِلا أن يكون صاحب جزية أَو عبداً لمسلم، وعبَدة الأَوثان مشركون بإجماع.

واختلف في أَهل الكتاب ـ فمذهب عبد الله بن عُمَر وغيره أَنهم مشركون، وقال جمهور أَهل العلم: ليسوا بمشركين، وفائدة هذا الخلاف تَتَبيَّن في فقه مناكحتهم وذبائحهم وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ يريد: بعد عام تسع من الهجرة، وهو عامٌ حجَّ فيه أَبو بكر بالناس وأَذَّن عليٌّ بسورة براءَة[٣].

---

(١) النور: ٣٦.

(٢) خالف ابن العربي الإمام الشافعي في رأيه وفي حجَّته بحديث ثُمامة هذا فقال: «وهذا جمود منه (أي من الشافعي) على الظاهر، لأن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ تنبيه على العلة بالشرك والنجاسة، فإن قيل: فقد ربط النبي ﷺ ثُمامَة في المسجد وهو مشرك، قيل: أجاب علماؤنا عن هذا الحديث ـ وإن كان صحيحاً ـ بأجوبة أحدها: أن ذلك كان متقدماً على نزول الآية». وقد نقل القرطبي رأي ابن العربي هذا تعقيباً على رأي الشافعي.

(٣) قال قتادة: بل سنة عشر، وأيّده ابن العربي، فقال: «وهو الصحيح الذي يعطيه مقتضى اللفظ، وإن من العجب أن يقال: إنه سنة تسع وهو العام الذي وقع فيه الأذان، ولو دخل غلامُ رجلٍ داره يوماً فقال=

وأَما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ قال عمرو بن قائد: المعنى: وإِذْ خِفْتُم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذه عُجمة، والمعنى بارعٌ بـ ﴿وَإِنْ﴾، وكان المسلمون لمَّا ـ مُنِع المشركون من الموسم وهم كانوا يجلبون الأَطعمة والتجارات ـ قذف الشيطان في نفوسهم الخوف من الفقر، وقالوا: من أَين نعيش؟ فوعدهم الله بأَن يُغْنِيهم من فضله، قال الضحاك: ففتح عليهم باب أَخذ الجزية من أَهل الذِّمَّة بقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، وقال عكرمة: أَغناهم بإِدرار المطر عليهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَسلمت العرب فتمادى حجُّهم وتَجْرُهم[1] وأَغنى الله من فضله بالجهاد والظهور على الأُمم.

والعيْلَةُ: الفقر، يقال: عال الرجل يعيل عيْلَة إِذَا افتقر، قال الشاعر:

ومَـا يـدْرِي الفقيـرُ متـى غِنَـاهُ ... ومـا يـدري الغَنِـيُّ متى يعِيـلُ[2]

وقرأَ علْقَمَة وغيرُه من أَصحاب ابن مسعود: [عَائِلَةً] وهو مصدر كالقائلة من قالَ يقيلُ، وكالعاقِبة والعافية، ويحتمل أن تكون نعتاً لمحذوف تقديره: «حالاً عائلة»، وحكى الطبري أنه يقال: «عال يعول» إذا افتقر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

= له مولاه: لا تدخل هذه الدار بعد يومك، لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه». نقل ذلك أيضاً القرطبي عن ابن العربي.

(١) يقال: تَجَر تجْراً وتِجَارَةً: مارس البيع والشراءَ، ويقال: اتَّجر، ويقال: تاجر فلانٌ فلاناً: اتَّجر معه (المعجم الوسيط).

(٢) قال هذا البيت أَحَيْحَةُ بن الحَلاج، من أربعة أبيات ذكرها صاحب اللسان في عَيَلَ، وعَال يَعيل من باب ضرب، والمصدر: عيْلة وعُيول.

تضمنت هذه الآية قتال أهل الكتاب من اليهود والنصارى حتى يقتلوا أو يُؤَدُّوا الجزية، قال مجاهد: وعند نزول هذه الآية أخذ رسول الله ﷺ في غزو الروم، ومشى نحو تبوك، ومن جعل أهل الكتاب مشركين فهذه الآية عنده ناسخة بما فيها من أخذ الجزية لقوله تبارك وتعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾(١)، ونفى عنهم الإيمان بالله واليوم الآخر من حيث تركوا شرع الإسلام الذي يجب عليهم الدخول فيه، فصار جميع ما لهم في الله عزَّ وجلَّ وفي البعث من تخيلات واعتقادات لا معنى لها، إذ تلقوها من غير طريقها، وأيضاً فلم تكن اعتقاداتهم مستقيمة، لأنهم تشعبوا وقالوا: عزير ابن الله، والله ثالث ثلاثة، وغير ذلك، ولهم أيضاً في البعث آراءٌ كثيرة، كشراءِ منازل الجنة من الرهبان، وقول اليهود في النار: نكون فيها أياماً بِعَدَد، ونحو ذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فبيّن ونص على مخالفتهم لمحمد ﷺ، وأما قوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ﴾ فمعناه: ولا يطيعون ويمتثلون، ومنه قول عائشة رضي الله عنها: ما عقلتُ أبويّ إلاَّ وهما يدينان الدين(٢)، والدِّين في اللغة لفظة مشتركة، وهي هاهنا: الشريعة، وهي مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾(٣)، وأما قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فنصٌّ في بني إسرائيل وفي الروم، وأجمع الناس على ذلك، وأما المجوس فقال ابن المنذر: لا أعلم خلافاً في أن الجزية تؤخذ منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورُوي أن رسول الله ﷺ قال: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»(٤)، فقال كثير من

(١) التوبة: ٥.

(٢) قال ابن جرير: «كُلُّ مطيع مَلِكاً أو ذا سلطانٍ فهو دائن له، يقال منه: دان فلان لفلان فهو يَدين له دِيناً».
ثم استشهد بقول زهير:
لئِـنْ حَلَلْـتَ بجَـوٍّ فـي بنـي أَسَـدٍ ... فـي دِيـنِ عَمْـرو وحـالـتْ بَيْنَنَـا فَـدَكُ
و(جوّ) وادٍ بعينه، ودينُ عمرو: طاعته وسلطانه، وهو عمرو بن هند، وفَدَكُ: قريةٌ في وادي القرى، وهو في هذا البيت يخاطب الحارث بن ورقاءَ الصيداوي من بني أسد، وكان أغار على بني عبد الله بن غطفان، فغنم واستاق إبلاً لزهير فهو يقول له: لئن حللتَ بحيث لا أُدركك فسيصلك هجائي، وسأُدَنِّس عرضك كما يدنِّس الودكُ القبطية.

(٣) آل عمران: ١٩.

(٤) ذكر في الموطأ عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذُكِر أمْرَ المجوس فقال: =



العلماءِ: معنى ذلك في أخذ الجزية منهم، وليسوا أَهل كتاب، فعلى هذا لم يتعد التشبيه إلى ذبائحهم ومناكحهم، وهذا هو الذي ذكره ابن حبيب في «الواضحة».

وقال بعض العلماءِ: معناه: سنوا بهم سنة أَهل الكتاب إِذ هم أَهل كتاب، فعلى هذا يتجه التشبيه في ذبائحهم وغيرها، والأَول هو قول مالك وجمهور أصحابه، ورُوي أَنه قد كان بعث في المجوس نَبِيٌّ اسمه زرادشت، وأَما مجوس العرب فقال ابن وهب: لا تقبل منهم جزية ولابد من القتال أو الإِسلام، وقال سحنون، وابن القاسم، وأَشهب: تؤخذ الجزية من مجوس العرب والأُمم كلها، وأَما عَبَدة الأَوثان من العرب فلم يستثن الله فيهم جزية، ولا بقي منهم على الأَرض بَشَر، وقال ابن حبيب: وإِنما لهم القتال أَو الإِسلام، وهو قول أَبي حنيفة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويوجد لابن القاسم أَن الجزية تؤخذ منهم، وذلك أيضاً في «التفريع» لابن الجلاب، وهو احتمالٌ لا نَصٌّ، وأما أَهْل الكتاب من العرب فذهب مالك رحمه الله إلى أن الجزية تؤخذ منهم، وأشار إلى المنع من ذلك أبو حنيفة، وأَما السامرة والصابئة فالجمهور على أنهم من اليهود والنصارى تؤخذ منهم الجزية وتؤكل ذبائحهم، وقالت فرقة: لا تؤكل ذبائحهم وعلى هذا لا تؤخذ الجزية منهم، ومنع بعضهم الذبيحة مع إِباحة أَخذ الجزية منهم، وأَما عبدة الأَوثان والنيران وغير ذلك فجمهور العلماء على قبول الجزية منهم، وهو قول مالك في «المدونة»، وقال الشافعي، وأَبو ثور: «لا تؤخذ الجزية إلا من اليهود والنصارى والمجوس فقط» ومذهب مالك رحمه الله أن الجزية لا تؤخذ إلا من الرجال البالغين الأَحرار العقلاءِ، وهو قول الشافعي وأَبي حنيفة، ولا تضرب على الصبيان والنساءِ والمجانين، ولا تضرب على رهبان الديارات والصوامع المنقطعين، قال مالك في «الواضحة»: «وأما إِن كانت قد ضربت عليهم ثم انقطعوا بعد ذلك فلا تسقط عنهم»، وأَما رهبان الكنائس فتضرب عليهم، واختلف في الشيخ الفاني، ومنْ راعى أن عِلَّتها الإِذلال

= ما أدري كيف أصنع في أمرهم، فقال عبد الرحمن بن عوف: أشهد لسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب»، وفي (الدر المنثور): «أخرجه مالك، والشافعي، وأبو عُبيد في كتاب «الأموال»، وابن أبي شيبة ـ عن جعفر عن أبيه، ثم ساق نص الحديث.



أَمضاها في الجميع ، وقال النقاش[(١)]: «العقوبة الشرعية تكون في الأموال والأَبدان ، فالجزية من عقوبات الأَموال».

وأما قَدْرها فذهب مالك رحمه الله وكثير من أهل العلم إلى ما فرضه عمر رضي الله عنه ، وذلك أربعة دنانير على أهل الذهب ، وأَربعون درهماً على أَهل الفضة ، وفرض عُمَرُ رضي الله عنه ضيافة وأَرزاقاً وكسوة ، قال مالك في «الواضحة»: «ويحط ذلك عنهم اليوم لما حدث عليهم من اللوازم» ، فهذا أَحد ما ذكر عن عمر ، وبه أَخذ مالك ، قال سفيان الثوري: «رُويت عن عُمر ضرائب مختلفة».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وأَظن ذلك بحسب اجتهاده رضي الله عنه في يُسرهم وعُسْرهم.

وقال الشافعي ، وغيره: قدر الجزية دينارٌ على الرأس ، ودليل ذلك أَمر رسول الله ﷺ معاذاً بذلك[(٢)] ، وأَخذه جزية اليمن كذلك أَو قيمته معافر[(٣)] ، وهي ثياب ، وقال كثير من أَهل العلم: ليس لذلك في الشرع حدّ محدود ، وإنما ذلك إلى اجتهاد الإمام في كل وقت ، وبحسب قوم قوم ، هذا كله في العنْوة[(٤)] ، وأما الصلح فهو ما صولحوا عليه من قليل أو كثير ، واختلف في المذهب في العبد الذي يعتقه الذميّ أو المسلم ، هل يلزمه جزية أَم لا؟ وقال ابن القاسم: لا ينقص أحد من أَربعة

---

(١) محمد بن الحسن بن محمد بن زياد ، أبو بكر النقاش ، عالم بالقرآن وتفسيره ، أصله من الموصل ، ونشأته ببغداد ، كان في مبدأ أمره يتعاطى نقش السقوف والحيطان فعرف بالنقاش.
من تصانيفه: «شفاء الصدور. خ» في التفسير ، و«الإشارة» في غريب القرآن» و«الموضح» في القرآن ومعانيه ، و«المعجم الكبير» في أسماء القُرّاء وقراءاتهم ، و«مختصره» ، و«أخبار القصاص» ، قال الذهبي: «وقد اعتمد الداني في التيسير على روايته للقراءات ، والله أعلم فإن قلبي لا يسكن إليه ، وهو عندي متهم ، عفا الله عنه. توفي سنة ٣٥١ هـ ـ ٩٦٢ م. (وفيات الأعيان ، وإرشاد الأريب).

(٢) رواه النسائي ، والإمام أحمد في مسنده ، ولفظه: عن معاذ قال: «بعثه النبي ﷺ إلى اليمن ، فأمره أن يأخذ من كل ثلاثين من البقر تبيعاً أو تبيعة ، ومن كل أربعين مُسنّة ، ومن كل حالم ديناراً أو عِدْله معافر). (المسند ٥ ـ ٢٣٠).

(٣) قال في الصحاح: «ومَعافر بفتح الميم: حيٌّ من هَمْدان ، لا ينصرف في معرفة ولا نكرة ، لأنه جاءَ على مثال ما لا ينصرف من الجمع ، وإليهم تُنسب الثياب المَعَافريّة ، تقول: ثوب مَعافريٌّ ، فتصرفه لأنك أدخلت عليه ياءَ النسبة ولم تكن في الواحد».

(٤) يقال: عَنَا الشيءَ عَنْوَةً: أَخَذَه قسْراً وقهْراً ، والعَنْوة: القَهْرُ ، وفي حديث الفتح: «أنه دخل مكة عَنْوَةً» أي قَهْراً وغلبَةً.



دنانير كان فقيراً أو غنياً، وقال أَصبغ: يحط الفقير بقدر ما يرى من حاله، وقال ابن الماجشون: لا يؤخذ من الفقير شيءٌ.

والجِزْية وزنها فِعْلة من جَزَى يجزي إذا كافأ عمَّا أُسدي إليه، فكأَنهم أَعْطُوهَا جزاءَ ما مُنحوا من الأَمن، وهي كالقِعْدة والجِلْسة، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

يَجْـزِيـكَ أَوْ يُثْـنـي علَيْـكَ وإِنَّ مَـنْ أَثْنى علَيْكَ بما فَعَلْتَ كمن جَزَى[1]

وقوله تعالى: ﴿عَن يَدٍ﴾ يحتمل تأْويلاتٍ، منها أن يريد سوق الذميّ لها بيده لا مع رسولٍ ليكون في ذلك إذلالٌ له، ومنها أنْ يريد: عن نعمة منكم قِبَلَهم في قبولها منهم وتأْمينهم، والْيَدُ في اللغة: النعمة والصنع الجميل، ومنها أَن يريد: عن قوة منكم عليهم وقهر لا تبقى لهم معه راية ولا معقل، واليد في كلام العرب: القوّة، يقال: فلانٌ ذو يدٍ، ويقال: ليس لي بكذا وكذا يدٌ، أَي: قوة.

ومنها أن يريد: أَن ينقدوها ولا يؤخروها، كما تقول: بعته يداً بِيَدٍ، ومنها أَن يريد: عن استسلام منهم وانقياد، على نحو قولهم: «أَلقى فلان بِيَده» إذا عجز واستسلم.

وقوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ لفظ يعُمّ وجوهاً لا تنحصر لكثرتها، ذُكِر منها ـ عن عكرمة ـ أن يكون قابضها جالساً والدافع من أهل الذِّمَّة قائم، وهذا ونحوه داعٍ إلى صغارهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

الذي كثر في كُتُب أهل العلم أَن فرقة من اليهود تقول هذه المقالة، ورُوي أنه لم

---

(١) قال في (اللسان): «الجَزَاءُ: المكافأة على الشيء»، وقال: «الجِزْيَةُ: خراجُ الأرض، والجمع: جِزىً وجِزْيٌ، وجزية الذّمي منه، والجمع الجِزَى، مثل لِحْيَةٍ ولِحَىً، وهي فِعْلة من الجزاء كأنها جَزَت عن قَتْلِهِ، ومنه الحديث «ليس على مسلم جِزْيَة» وهو حديث ضعيف، وقد استشهد كل المفسرين بهذا البيت، ولم نقف على قائله.



يقلها إلا فنحاص. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قالها أَربعة من أَحبارهم، سلاَّم بنُ مِشْكَمْ، ونُعمان بن أَبي أَوفى، وشاسُ بن قَيْس، ومالك بن الصَّيف، وقال النقاش: لم يبق يهودي يقولها بل انقرضوا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فإذا قالها واحد فينبغي[1] أن يلزم الجماعة شنعة المقالة لأجل نباهة القائل فيهم، وأَقوال النبهاء أبداً مشهورة في الناس يحتج بها، فمن هنا صحَّ أن تقول الجماعة قول نَبِيِّها.

وقرأَ عاصمٌ، والكسائي: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ بتنوين [عُزَيْر] والمعنى أَن (ابناً) ـ على هذا ـ خبر ابتداءٍ عن [عُزَيْر]، وهذا هو أصح المذاهب لأنه المعنى المنعيّ عليهم. و(عُزَيْر) ـ ونَحْوُهُ ـ ينصرف عجمياً كان أَو عربياً، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر: [عُزَيْرُ ابنُ اللهِ] دون تنوين [عُزَيْر]، فقال بعضهم: [ابن] خبر عن [عُزَيْر]، وإنما حذف التنوين من [عزير] لاجتماع الساكنين[2]، ونحوه قراءَةُ من قرأَ: ﴿أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[3]، قال أَبو عليّ: وهو كثير في الشعر، وأَنشد الطبري في ذلك:

لَتجدَنِّي بالأَميرِ بَرًّا
وبالقَنَاةِ مِدْعساً مِكَرَّا
إِذَا عُطَيْفُ السُّلَمِيُّ فَرَّا[4]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالألف ـ على هذه القراءَة والتأويل ـ ثابتةٌ في [ابْن]، وقال بعضهم: [ابن] صفة لـ

(١) في بعض النسخ: «فيَتَوجَّه».
(٢) يرى أبو حيان في «البحر» أنَّ من زعم ذلك وكذلك من زعم أن (ابْناً) صفة لـ [عُزَيْر] وقع بين عَلَمَيْن فَحُذف تنوينه والخبر محذوف، أي: معبودنا ـ فقوله مُتَمَحّل، لأن الذي أُنكر عليهم إنما هو نسبة البُنُوَّة إلى الله تعالى.
(٣) الإخلاص: ١ ـ ٢.
(٤) دعَسَه بالرُّمح يدْعَسُه دَعْساً: طعنة، ورجلٌ مِدْعَسٌ: طعَّان، ويكون بالصاد، قال صاحب اللسان: «وهو الأعرف»، وقال سيبويه: «وكذلك الأنثى بغير هاءٍ، ولا يجمع بالواو والنون لأن الهاءَ لا تدخُلُ مُؤَنثه»، والشاهد في قوله: «عُطَيْفُ السُّلَمِي» بدون تنوين في (عُطَيف).



[عُزَيْر]، كما تقول: «زيدُ بن عمرو»، وجعلت الصفة والموصوف بمنزلة اسم واحد، وحذف التنوين إذا جاءَ الساكنان كأَنهما التقيا من كلمة واحدة، والمعنى: عُزَيْر ابنُ اللهِ معبودنا وإِلَهُنا، أَو المعنى: معبودنا أَو إِلهُنا عُزَيْرٌ ابن الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقياس هذه القراءة والتأويل أَن يحذف الأَلف من [ابْن] لكنها ثبتت في خط المصحف، فيتدرج من هذا كله أَن قراءَة التنوين في [عُزَيْر] أَقواها.

وحكى الطبري وغيره أن بني إسرائيل أَصابتهم فِتن وبلاءٌ ـ وقيل مرضٌ ـ وأَذهب الله عنهم التوراة في ذلك ونسوها، وكان علماؤُهم قد دفنوها أَول ما أَحسوا بذلك البلاءِ، فلما طالت المدة فُقدت التوراة جملة فحفظها الله عزيراً كرامة منه له، فقال لبني إسرائيل: إن الله قد حفظني التوراة فجعلوا يدرسونها من عنده، ثم إن التوراة المدفونة وُجدت فإذا هي مساوية لما كان عُزَيْر يدرس، فضلوا عن ذلك وقالوا: إن هذا لم يتهيّأ إلا وهو ابن الله، وظاهر قول النصارى المسيح ابن الله أَنها نُبُوَّة النسل كما قالت العرب في الملائكة، وكذلك يقتضي قول الضحاك والطبري وغيرهما، وهذا أَشنع في الكفر، قال أَبو المعالي: أَطبقت النصارى على أَن المسيح إله وأَنه ابن الإِله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويقال: إن بعضهم يعتقدها بنوة حُنُوٍّ ورحمة، وهذا المعنى أَيضاً لا يحل أن تطلق البنوة عليه، وهو كُفر لمكان الإِشكال الذي يدخل من جهة التناسل، وكذلك كفرت اليهود في قولهم: عُزَيْر ابن الله، وقولهم: نحن أَبناءُ الله، وإنما توجد في كلام العرب استعارة البنوة عبارة عن نِسَبٍ وملازماتٍ تكون بين الأَشياءِ إذا لم يُشْكل الأَمر وكان أَمر النسل من الاستحالة، ومن ذلك قول عبد الملك بن مروان: «وقد زَبَنَتْنا الحرب وزَبنَّاها»[١]، فنحن بنوها وهي أُمنا»، يريد الملازمة، ومن ذلك قول حُرَيْث بن محصن:

بنُو الْمجد لم تَقْعُد بِهِم أُمَّهاتُهم ... وآبَاؤُهم أَبْنَاءُ صِدْقٍ فأَنْجبُوا[٢]

---

(١) ومنه قولهم: «حَرْبٌ زَبون» لأنها تزْبِن الناس أي تدفعهم وتصدمهم على التشبيه بالناقة الزَّبون وهي التي تدفع حالبها عن حلبها، وفي حديث معاوية: «فَرُبَّمَا زَبَنَت فكسرت أنف حالبها».

(٢) يصفهم بالمجد والشرف من جهة الأمهات ومن جهة الآباء، ومعنى «لم تقعد بهم أمهاتهم»: لم تقصر=



ومن ذلك: ابنُ نَعْش، وابن ماءٍ، وابن السبيل، ونحو ذلك، ومنه قول الشاعر:

والأَرْضُ تَحْمِلنا وكانت أُمَّنا

ومنه أَحد التأويلات في قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة ابن زنى»(١) أي ملازمه، والتأويل الآخر: لا يدخلها مُشكل الأَمْر، والتأويلان في قول النصارى: المسيح ابن الله كما تقدم من الصفة والخبر إلا أن شغب التنوين ارتفع هاهنا، وعُزَيْر نَبيٌّ من أَنبياءِ بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يتضمن معنيين، أَحدهما: إلزامهم المقالة بالتأكيد في ذلك كما قال: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾(٢)، وكقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾(٣)، والمعنى الثاني في قوله سبحانه: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي هو ساذج لا حجة عليه ولا برهان(٤)، غاية بيانه أَن يقال بالأَفواه قولاً مجرداً نَفْس دعوى(٥).

و[يُضَاهُونَ] قراءَة الجماعة، ومعناه: يحاكون ويُبادرون ويماثلون، وقرأَ عاصم وحده من السبعة، وطلحة بن مصرف [يُضَاهِئُون] بالهمز على أَنه من (ضاهأ)، وهي لغة ثقيف بمعنى (ضاهى).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومن قال إن هذا مأْخوذ من قولهم: «امرأَةٌ ضَهْيَاءُ» ـ وهي التي لا تحيض، وقيل:

= من ناحية الشرف، يقال: فلان مُقْعَد الحسب إذا لم يكن له شرف، وقد أَقْعَدَهُ آباؤه وتَقَعّدوه، قال الطِّرمّاح يهجو رجلاً:

ولكنَّــــهُ عَبْـــدٌ تَقَعَّـــد رأيَـــهُ لِئَامُ الْفُحـولِ وارْتِخَـاصُ الْمَنَـاكِـح

وأنجب الرجل: ولد نجيبا، والنجيب الكريم، قال الشاعر:

أَنْجَـــبَ أزْمَـــانَ والـــداهُ بِـــهِ إذْ نَجَـــلاهُ فنِعْـــمَ مَـــا نجَـــلا

(١) تقدم الكلام على هذا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. والحديث لا أصل له.

(٢) البقرة: ٧٩.

(٣) الأنعام: ٣٨.

(٤) وردت كلمة (ساذج) في بعض النسخ بالدال المهملة أي (سادج)، والسَّدْجُ والتَّسَدّج: الكذب وتَقَوّل الأباطيل، وقد سدَج سدْجاً وتسَدَّج أي: تكذب، قال الشاعر: «فينا أقاويل امرىءٍ تسدَّجا»، فالمعنى: هو كلام كاذب لا حجة عليه.

(٥) هكذا بالأصل.



التي لا ثدي لها، سُميت بذلك لشبهها بالرجال ـ فقوله خطأٌ، قاله أبو عليّ، لأن الهمزة في (ضاهأ) أَصلية، وفي (ضهياءَ) زائدة كحمراءَ[١]، وإن كان الضمير في [يُضَاهِئُونَ] لليهود والنصارى جميعاً فالإِشارة بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ هي إِمَّا لمشركي العرب إِذ قالوا: «الملائكة بنات الله»، وهم أَول كافر، وهو قول الضحاك، وإِما لأُمَمٍ سالفة قبلهما، وإِما للصدر الأَول من كفرة اليهود والنصارى، ويكون ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ لمعاصري محمد ﷺ، وإِن كان الضمير في [يُضَاهِئُونَ] للنصارى فقد كانت الإِشارة بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ إلى اليهود، وعلى هذا فَسّر الطبري، وحكاه الزهراوي عن قتادة.

وقوله تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ دعاءٌ عليهم عام لأَنواع الشّر، ومعلوم أن من قاتله الله فهو المغلوب المقتول، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن المعنى: لعنهم الله[٢]. و﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ مقصده: أَنّى توجهوا وأَنّى ذهبوا، ويُدل مكان هذا الفعل المقصود فعل سوءٍ يحلُّ بهم، وذلك فصيح في الكلام كما تقول: «لعن الله الكافر أنّى هلك» كأَنك تحتم عليه بهلاك، وكأَنه حتم عليهم في هذه الآية بأَنهم يؤفكون، ومعناه: يحرمون ويصرفون عن الخير، والأَرض المأْفوكة التي لم يصبها مطر، قال أَبو عبيدة: ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ معناه: يحدّون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يريد: من قولك «رجلٌ محدود» أَي: محروم لا يصيب خيراً، وكأَنه من الإِفك الذي هو الكذب، فكأَن المأْفوك هو الذي تكذبه أَراجيه فلا يلقى خيراً[٣]. ويحتمل أَن

(١) اختلف العلماءُ في (ضَهْيَا) هل يمد أو لا؟ فقال ابن ولأّد: امرأةٌ ضهيَا وهي التي لا تحيض، مهموز غير ممدود، وسيبويه يمدُّه فيجعله ضهياء، والهمزة فيه زائدة لأنهم عند الجمع يقولون: نساءٌ ضُهْيٌ فيحذفون الهمزة، ونقل أبو الحسن عن النَّجيرميّ «امرأة ضَهْيَاءَةٌ» بالمدّ والهاء، جمع بين علامتي تأنيث، حكاه عن أبي عمرو الشيباني، وأنشد: «ضَهْيَاءَةٌ أو عاقِرٌ جماد».

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل شيءٍ في القرآن قتْل فهو لعن، ومنه قول أبان بن تغلب:

قـاتَلَهـا اللهُ تَلْحـانـي وقـدْ عَلِمَـتْ ... أنـي لِنَفسـيّ إفْسَـادي وإصْـلاحـي

وقال النقاش: أصل «قاتل الله» الدعاءُ، ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشر وهم لا يريدون الدعاءَ، وأنشد الأصمعي:

يـا قـاتَـلَ اللهُ ليلـى كيْـفَ تُعجبنـي ... وأُخبِـرُ النـاسَ أنـي لا أُبـالِيهَـا؟

(٣) من الأفك بمعنى الصرف عن الحق قوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: يصرف عن الإيمان من =

يكون قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ ابتداءَ تقرير، أَي: بأَي سبب ومن أَي جهة يصرفون عن الحق بعدما تبين لهم؟

و[قَاتَلَ] في هذه الآية بمعنى (قتل)، وهي مفاعلة من واحد، وهذا كُلُّهُ بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

واحد الأحبار حِبْر بكسر الحاءِ، ويقال حَبْر بفتح الحاءِ، والأَول أفصح ومنه مداد الحبر، والحَبر بالفتح: العالِم، وقال يونس بن حبيب: لم أَسمعه إلا بكسر الحاءِ، وقال الفراءُ: سمعت فتح الحاءِ وكسرها في العالِم، وقال ابن السكِّيت: الحِبر بالكسر: المداد، والحَبْر بالفتح: العالِم، والرهبانُ: جمع راهب وهو الخائف، من الرهبة، وسماهم أَرباباً وهم لا يعبدونهم ولكن من حيث تلقوا الحلال والحرام من جهتهم وهو أَمر لا يُتلقى إلا من جهة الله عزَّ وجلَّ، ونحو هذا قال ابن عباس، وحذيفة بن اليمان، وأَبو العالية، وحكى الطبري أَن عدي بن حاتم قال: جئت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب ذهب، فقال: يا عدي اطرح هذا الصليب من عنقك، فسمعته يقرأُ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فقلت: يا رسول الله، وكيف ولم نعبدهم؟ فقال: أَليس تستحلُّون ما أَحلوا وتحرِّمون ما حرَّموا؟ قلت: نعم، قال: فذاك[1]. ﴿وَٱلْمَسِيحَ﴾ عطف على الأَحبار والرهبان،

= صُرف، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: لتصرفنا وتصدنا؟ ويأتي الأفيك والمأفوك بمعنى المخدوع عن رأيه، وبمعنى من لا حزم له ولا حيلة، وعليه قول الشاعر: «مَالي أَرَاكَ عاجزاً أفيكاً»؟

(١) أخرجه ابن سعد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسَّنه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن عدي بن حاتم ولكن دون ذكر الصليب الذي في عنقه. (الدر المنثور)، وفي تفسير ابن كثير أن هذا الحديث رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن جرير=

و﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ نصب على المصدر والعامل فيه فعل من المعنى؛ لأنه ليس من لفظ (سُبحان) فعل، والتقدير: أُنزهه تنزيها، فمعنى ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾: تنزيهاً له، واحتج من يقول إن أهل الكتاب مشركون بقوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والغير يقول: إن اتخاذ هؤلاء الأرباب ضرب من الإشراك، وقد يقال في المرائي: إنه أَشرك، وفي ذلك آثار.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ الآية. نور الله في هذه الآية: هو الصادر عن القرآن والشرع المثبت في قلوب الناس، فمن حيث سماه نوراً سمَّى محاولة إفساده والصد في وجهه إطفاءً. وقالت فرقة: النور: القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا معنى لتخصيص شيءٍ مما يدخل تحت المقصود بالنور.

وقوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ عبارة عن قلة حيلتهم وضعفها، أَخبر عنهم أَنهم يحاولون مقاومة أَمر جسيم بسعي ضعيف، فكان الإطفاءُ بنفخ الأَفواه، ويحتمل أن يراد: بأَقوال لا برهان عليها، فهي لا تجاوز الأَفواه إلى فهم سامع. وقوله: [ويَأْبَي] إيجابٌ يقع بعده أَحياناً (إلاّ) وذلك لوقوعه هو موقع الفعل المنفي، لأَن التقدير: ولا يريد الله إلا أن يتم نوره، وقال الفراءُ: «هو إيجابٌ فيه طرف من النفي»، وردّ الزجاج على هذه العبارة وبيانه ما قلناه[1].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ الآية. ﴿رَسُولَهُۥ﴾ يراد به محمد ﷺ، وقوله: ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ يعُم القرآن وجميع الشرع، وقوله: ﴿وَدِينِ

= من طُرق عن عديّ بن حاتم، وفيه أنه رضي الله عنه لما بلغته دعوة النبي ﷺ فرَّ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأُسِرَت أُخته وجماعة من قومه، ثم مَنَّ رسول الله ﷺ على أُخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام، وفي القدوم على الرسول ﷺ، فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيساً في قومه طيءٍ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدَّث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عديّ صليب... الخ.

(١) قال الزجاج: الجحد والتحقيق ليسا بذوي أطراف، وأدوات الجحد: ما، ولا، وإنْ، وليس، وهذه لا أطراف لها ينطق بها، ولو كان الأمر كما أراد ـ أي الفراءُ ـ لجاز: كرهت إلا زيداً، وقد رد عليه ابن عطية، وخلاصته أن (أَبى) مَنع وامتناع فضارعت النفي، قال الشاعر:

وهَـلْ لِـيَ أُمٌّ غَيـرُهـا إنْ تـركتُهـا؟ أبَـى اللهُ إلا أنْ أكـونَ لَهـا ابْنَمـا



﴿ٱلْحَقِّ﴾ إشارة إلى الإِسلام والمِلَّة بجمعها وهي الحنيفية، وقوله: [لِيُظْهِرهُ] قال أَبو هريرة، وأَبو جعفر محمد بن عليّ، وجابر بن عبد الله[١] ما معناه: إن الضمير عائد على الدين، وإِظهاره عند نزول عيسى بن مريم وكون الأَديان كلها راجعة إلى دين الإِسلام، فذلك إِظهاره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأن هذه الفرقة رأت الإِظهار على أَتم وجوهه، أَي: حتى لا يبقى معه دين آخر، وقالت فرقة: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ﴾ أي ليجعله أَعلاها وأَظهرها، وإن كان معه غيره كان دونه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا لا يحتاج إلى نزول عيسى، بل كان هذا في صدر الأمة وهو حتى الآن إِن شاءَ الله، وقالت فرقة: الضمير عائد على الرسول، ومعنى [لِيُظْهِرَهُ] ليطلعه ويعلِّمه الشرائع كلها والحلال والحرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأْويل وإِن كان جائزاً صحيحاً فالآخر أَبرع منه وأَليق بنظام الآية وأَجْرى مع كراهية المشركين، وخُصَّ المشركون هنا بالذكر لما كانت كراهية مختصة بظهور دين محمد ﷺ، فذُكِر العُظْم[٢] والأُوَّلُ مِمَّن كرِه وصدَّ فيه، وذُكر الكافرون في الآية قَبْلُ لأَنها كراهية إِتمام نور الله في قديم الدهر وفي باقيه فعَمَّ الكفرة من لدن خلق الدنيا إلى انقراضها إذ قد وقعت الكراهية والإِتمام مراراً كثيرة.

---

(١) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي، صحابي.
من المكثرين في الرواية عن النبي ﷺ، وروى عنه جماعة من الصحابة، غزا تسع عشرة غزوة، وكانت له في أواخر حياته حلقة في المسجد النبوي، روى له البخاري ومسلم وغيرهما ١٥٤٠ حديثاً، توفي ٧٨ هـ (الإصابة، وكشف النقاب، وتهذيب الأسماء).

(٢) عُظْمُ الشيءِ ومُعْظَمه: جُلُّه وأكثره، وعُظْم الشيء: أكبره، وفي الحديث: «أنه كان يُحدِّث ليلةً عن بني إسرائيل لا يقوم فيها إلا إلى عُظْم صلاة» كأنه أراد: لا يقوم إلا إلى الفريضة، ومنه الحديث: «فأسْنَدوا عُظْم ذلك إلى ابن الدُّخْشُم»، أي معظمه، (اللسان)، أما الأَوَّل فجمع أوَّل يريد السابقين.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

المراد بهذه الآية بيان نقائص المذكورين، ونَهْيُ المؤمنين عن تلك النقائص مترتبٌ ضمن ذلك، واللام في ﴿ لَيَأْكُلُونَ ﴾ لام تأكيد، وصورة هذا الأكل هي أنهم يأخذون أموال أتباعهم ضرائب وفروضاً باسم الكنائس والبيع وغير ذلك مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف إلى الله، وهم خلال ذلك يحتجنون[(١)] تلك الأموال كالذي ذكره سلمان في كتاب السير عن الراهب الذي استخرج كنزه[(٢)]، وقيل: كانوا يأخذون منهم من غلاتهم وأموالهم ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع، وقيل: كانوا يرتشون في الأحكام، ونحو ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿ بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾ يعُمُّ كلَّ ذلك، وقوله: ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ الأشبه هنا أن يكون مُعدى، أي: يصدُّون غيرهم، وهذا الترجيح إنما هو لنباهة منازلهم في قومهم، و(صدَّ) يستعمل واقفاً ومتجاوزاً، ومنه قول الشاعر:

صَدَدْتِ الكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو ... وكَانَ الكَأْسُ مجْرَاهَا اليَمِينَا[(٣)]

و (سَبيلِ الله): الإسلام وشريعة محمد عليه الصلاة والسلام، ويحتمل أن يريد: ويصدون عن سبيل الله في أكلهم الأموال بالباطل، والأول أرجح. وقوله: (والَّذينَ) ابتداءً وخبره (فبشِّرهم)، ويجوز أن يكون (الَّذينَ) معطوفاً على الضمير في قوله:

---

(١) من قولهم: احتجن الشيءَ بمعنى احتوى عليه وضمَّه إليه، ويقال: احتجن عليه بمعنى حَجَر، فهو من الاحتجان بمعنى جَمْع الشيءِ وضمه، وفي بعض النسخ (يَحْتَجِبُون) والمعروف أن الاحتجاب معناه الاختفاء خلف ستار، وعبارة القرطبي (يَحْجُبون).

(٢) الكنز للراهب والذي استخرج هذا الكنز هو سلمان الفارسي، وفي العبارة غموض.

(٣) البيت لعمرو بن كلثوم ـ من معلقته المشهورة، وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى في الآية (٣٤) من سورة الأنفال: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾.

(يأكُلُونَ) على نظر في ذلك ، لأن الضمير لم يؤكد ، وأسند أبو حاتم إلى علباءَ بن أحمد أنه قال: لما مرَّ عثمان بكتب المصحف أراد أن ينقص الواو من قوله: (والذين يكنزونَ) فأبى ذلك أُبي بن كعب وقال: «لتلحقنها أو لأضعن سيفي على عاتقي» فألحقها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى إرادة عثمان يجري قول معاوية: إن الآية في أهل الكتاب ، وخالفه أبو ذَرٍّ فقال: بل هي فينا ، فشكاه إلى عثمان فاستدعاه من الشام ثم أخرجه إلى الرَّبْذَة(١) ، والذي يظهر من الألفاظ أنه لما ذكر بعض الأحبار والرهبان الآكلين المال بالباطل ذكر بعد ذلك مقولة نقص الكانزين المانعين حق المال.

وقرأ طلحةَ بن مصرف: [الَّذينَ يَكْنِزونَ] بغير واو ، و(يكنزون) معناه: يجمعون ويحفظون في الأوعية. ومنه قول المنخَّلِ الهُذلي:

لا دَرَّ درِّي إن أطعمْتُ جائِعَهُمْ   قِرْفَ الحَتيِّ وعندي البُرُّ مكْنوزُ(٢)

أَي محفوظ في أَوعيته ، وليس من شروط الكنز الدفن لكن كثُر في حفظة المال أن يدفنوه حتى تعورف في المدفون اسم الكنز ، ومن اللفظة قولهم: «رَجل مُكْتَنِز الخلْق» أي مجتمع ، ومنه قول الراجز:

---

(١) الرَّبذَة بفتح الراءِ المشددة ، وبفتح الباء: موضع قريب من المدينة ، وظاهر الخبر أن عثمان هو الذي أخرج أبا ذر إلى الرَّبَذَةَ ، ولكن يظهر من رواية البخاري أنه عرض عليه ذلك وترك له حرية الخروج إليها ، فقد روى البخاري عن زيد بن وهب قال: (مررت بالربذة فإذا بأبي ذر فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في (الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله) فقال معاوية: نزلت في أهل الكتاب ، فقلت: نزلت فينا وفيهم ، وكان بيني وبينه في ذلك ، فكتب إلى عثمان يشكوني ، فكتب إلي عثمان أن أقدم المدينة ، فقدمتُها فكثر علي الناس حتى كأنهم لم يروني من قبل ، فذكرت ذلك لعثمان فقال: إن شئت تنحَّيت فكنت قريباً ، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل ، ولو أمَّروا عليّ حبشياً لسمعتُ وأطعتُ).

(٢) الدَّرُّ: اللَّبن ، والدَّرُّ أيضاً: العمل من خير أو شر ، ومنه قولهم: لله درُّك ، يكون مدحاً ويكون ذمّاً ، وغلب في مجال المدح: لله «درُّك» ، وفي مجال الذَّم: «لا درَّ درُّك» قال: الفراءُ: وقد استعملوه من غير أن يقولوا (لله) ، فيقولون: درَّ درُّ فلان ، ولا درَّ درُّه ، ومنه هذا البيت. ويروى: «نازِلَهُم» بدلا من «جائِعَهم» ، وقِرْفُ الحَتِيِّ هو سوَيقُ المُقْل ، والمُقْلُ هو ثمر شجر الدوم ينضج ويؤكل ، يقول: إنه نزل بقوم فكان قراه عندهم قِرفَ الحَتِيِّ ، فلما نزلوا به قال: لا دَرَّ درِّي . . إلخ.



عَلَـى شَـديـدٍ لَحْمُـهُ كِنـاز ... بـاتَ يُنَـزِّينـي عَلَـى أَوْفـاز[(١)]

والتَّوعد في الكنز إنما وقع على منع الحقوق منه ، ولذلك قال كثير من العلماءِ: الكنز هو المال الذي لا تُؤَدَّى زكاته وإن كان على وجه الأَرض ، وأَما المدفون إِذا أُخرجت زكاته فليس بكنز كما قال رسول الله ﷺ: «كُل ما أُدِّيت زكاته فليس بكنز»[(٢)] ، وهذه الأَلفاظ مشهورة عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وروي هذا القول عن عِكرمة ، والشعبي ، والسّدي ، ومالك ، وجمهور أَهل العلم. وقال عليّ بن أَبي طالب رضي الله عنه: «أَربعة آلاف درهم فما دونها نفقة، وما زاد عليها فهو كنز وإِن أُديت زكاته»، وقال أَبو ذرٌّ وجماعة معه: «ما فَضَل من مال الرجل عن حاجة نفسه فهو كنز» ، وهذان القولان يقتضيان أَن الذم في حبس المال لا في منع زكاته فقط، ولكن قال عُمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: هي منسوخة بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾[(٣)] فأَتى فرض الزكاة على هذا كله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

كأَن مضمن الآية: «لا تجمعوا مالاً فتعذبوا» ، فنسخه التقرير الذي في قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ ، والضمير في قوله: ﴿يُنفِقُونَهَا﴾ يجوز أَن يعود على الأَموال والكنوز التي يتضمنها المعنى ، ويجوز أَن يعود على الذهب والفضة إِذ هما أَنواع ، وقيل: عاد على الفضة واكتفي بضمير واحد عن ضمير الآخر إِذْ أَفهمه المعنى ، وهذا نحو قول الشاعر:

نَحْـنُ بِمـا عِنْـدَنـا وأَنْـتَ بِمـا ... عِنْـدَكَ رَاضٍ والـرَّأْيُ مُخْتَلِـفُ[(٤)]

---

(١) الراجز يصف حملاً ، وقد رواه في (اللسان) غير منسوب وبلفظ آخر ، قال:

أَسـوقُ عيـراً مـائـلَ الجهـاز ... صعبـاً ينـزينـي علـى أو فـاز

واللحم الكناز: المجتمعُ الصلب ، والنزوُ: الوَثبان ، يقال: نزا ينزو ، ومنه أنزاه ونزَّاه تنزية ، والوفْزُ: ألا يطمئن في قعود ، ويقال: قعد على أوفاز في الأرض ، يقول: إن جملي صلب مجتمع اللحم يثب بي في سرهة فينزّيني فلا أطمئن في قعودي عليه.

(٢) أخرج ابن عدي ، والخطيب عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أي مال أديت زكاته فليس بكنز) ، وأخرجه ابن أبي شيبة عن جابر رضي الله عنه موقوفاً.

(٣) من الآية (١٠٣) من سورة (التوبة).

(٤) البيت لقيس بن الخطيم ، وقد أنشده سيبويه مستشهداً على جواز الاكتفاء بضمير الواحد عن ضمير الآخر عند فهم المعنى ، إذ لم يقل: راضون.



ونحو قول حسَّان:

إنَّ شَـرْخَ الشَّبـابِ والشَّعَـر الأَسْـ ـــوَدَ مـا لـم يُعـاص كـان جُنـونـا[١]

وسيبويه يكره هذا في الكلام، وقد شبه كثير من المفسرين هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾[٢]، وهي لا تشبهاالأن ﴿أَوْ﴾ قد فصلت التجارة عن اللَّهو وحسنت عود الضمير على أحدهما دون الآخر.

والذهب يؤنث ويذكر والتأنيث أشهر، وروي أن أصحاب النبي ﷺ قالوا: قد ذم الله كسب الذهب والفضة، فلو علمنا أي المال خير حتى نكسبه، فقال عمر رضي الله عنه: أنا أسأل لكم رسول الله ﷺ عن ذلك فسأله فقال: (لسانٌ ذاكر، وقلب شاكر، وزوجة تعين المؤمن على دينه)[٣]، وروي أن النبي ﷺ قال لما نزلت الآية: «تبّاً للذهب تبّاً للفضة»[٤]، فحينئذ أَشفق أصحابه وقالوا ما تقدم.

والفاءُ في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ جواب لِمَا في قوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ من معنى الشرط، وجاءَت البشارة مع العذاب لمَّا وقع التصريح بالعذاب، وذلك أَن البشارة تقيد بالخير والشر فإِذا أُطلقت لم تُحمل إِلاَّ على الخير فقط، وقيل: بل هي أَبداً للخير فمتى قُيِّدت بِشَرّ فإنما المعنى: أقم لهم البشارة عذاباً أليماً، وهذا نحو قول الشاعر:

وخيـلٍ قـد دلفـتُ لهـا بِخَيْـلٍ تَحِيَّـةُ بَيْنَهُـمْ ضَـرْبٌ وجيـعُ[٥]

---

(١) الشاهد فيه إنه لم يقل: يُعاصيا، ومثل هذا البيت والذي قبله في الاكتفاء بضمير الواحد عن ضمير الآخر إذا فهم المعنى، قول ابن أحمر يصف رجلاً كان بينهما مشاجرة في بئر (تسمَّى الطَّوِيّ)، وإن هذا الرجل رماه بأمر يكرهه، ورمى أباه بمثله على براءتهما منه:

رَمَـانـي بـأمـر كنـتُ منـه ووالـدي بـريئـاً ومـن أجْـلِ الطَّـوِيِّ رَمَـانـي

(٢) من الآية (١١) من سورة الجمعة.

(٣) رواه الترمذي وحسنَّه، ورواه ابن ماجه من غير وجه عن سالم بن أبي الجعد، ذكر ذلك القرطبي وابن كثير، وفي ابن كثير أن الإمام أحمد رواه عن ثوبان بلفظ: لما نزل في الذهب والفضة ما نزل قالوا: فَأيّ المال نتّخذ؟ فقال عمر: فأنا أعلم لكم ذلك، فأوضععلى بعير فأدركه، وأنا في أثره (قائل ذلك ثوبان)، فقال: يا رسول الله أي المال نتّخذ؟ قال: (قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة).

(٤) رواه عبد الرزاق عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الآية، قال النبي ﷺ: «تبّاً للذهب تبّاً للفضة» يقولها ثلاثاً، قال: فَشَقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: فأي المال نتخذ؟ فقال عمر... الخ. (ابن كثير).

(٥) قائل هذا البيت عمرو بن معديكرب، والدَّلف: المشي رويداً في خطو متقارب، وقيل: هو فوق =



وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا ﴾ الآية. ﴿ يَوْمَ ﴾ ظرف والعامل فيه ﴿ أَلِيمٍ ﴾. وقرأ جمهور الناس: ﴿ يُحْمَىٰ ﴾ بالياءِ بمعنى: تُحمى الوقود، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [تُحمَى] بالتاءِ من فوق بمعنى: تُحمى النار، والضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ عائد على الكنوز أَو الأَموال حسبما تقدم.

وقرأ قوم [جِباهُم] بالإِدغام وأَشموها الضم، حكاه أَبو حاتم.

ووردت أَحاديث كثيرة في معنى هذه الآية من الوعيد لكنها مُفسَّرَة في منع الزكاة فقط لا في كسب المال الحلال وحفظه، ويؤدي ذلك حال الصحابة وأَموالهم رضي الله عنهم، فمن تلك الأَحاديث قوله ﷺ: «من ترك بعده كنزاً لم يُؤَدّ زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أَقرع» الحديث[١]، وأَسند الطبري قال: كان نعْل سيف أَبي هريرة من فضة فنهاه أَبو ذَرٍّ وقال: قال رسول الله ﷺ: «مَن ترك صفراءَ أَو بيضاءَ كوي بها»[٢]، وأُسند إلى أَبي أُمامة الباهلي قال: «مات رجل من أهل الصُّفَّة فوجد في بردته دينار فقال رسول الله ﷺ: كيّة، ثم مات آخر فوجد له ديناران فقال رسول الله ﷺ: كيّتان»[٣].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا إِما لأَنهما كانا يعيشان من الصدقات وعندهما التِّبْر، وإِمَّا لأَن هذا كان في صدر الإِسلام ثم قرر الشرع ضبط المال وأَداءَ حقه، ولو كان ضبط المال ممنوعاً لكان حقه أَن يخرج كله لا زكاته فقط، وليس في الأُمة من يُلْزم هذا.

= الدبيب، والشاهد في البيت أن في كلمة (تحية) استعارة تهكمية فيها السخرية منهم كما في قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وفيهما نُزِّل التَّضادُّ منزلة التناسب.

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الزكاة ـ باب إثم مانع الزكاة ـ ولفظه: «من آتاه الله مالاً فلم يُؤَدّ زكاته مُثِّل له يوم القيامة شُجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه ثم يأخذ بلهزمتيه ـ يعني شدقيه ـ ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾. الآية.

(٢) أخرجه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وابن مردويه عن ثوبان رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٣) أسنده الطبريُّ إلى أبي أُمامة، ذكر ذلك القرطبي كما ذكره ابن عطية، وفي ابن كثير أن الإمام أحمد رواه عن بريد بن أصرم قال: سمعتُ علياً رضي الله عنه يقول: مات رجل من أهل الصفة وترك دينارين أو درهمين فقال رسول الله ﷺ: «كيَّتان»، صلوا على صاحبكم، ورواه قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي أمامة صدي بن عجلان بمثل إسناد الطبري إلا أنه قال: «بمئزره» بدلاً من «بردته».



وقوله: ﴿ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ ﴾ إشارة إلى المال الذي يكوى به، ويحتمل أن يكون إلى الفعل النازل بهم، أي: هذا جزاءُ ما كنزتم، وقال ابن مسعود: والله لا يمس دينار ديناراً، بل يمد الجلد حتى يكوى بكل دينار وبكل درهم، وقال الأَحنف بن قيس: دخلت مسجد المدينة وإذا رجل خشن الهيئة رَثُّها يطوف في الخلق وهو يقول: بشِّر أَصحاب الكنوز بكيٍّ في جباههم وجنوبهم وظهورهم، ثم انطلق يتذمّر وهو يقول: وما عسى تصنع في قريش.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) ﴾.

هذه الآية ـ والتي بعدها ـ تتضمن ما كانت العرب شرعته في جاهليتها من تحريم شهور الحلِّ، وتحليل شهور الحُرمة، وإذا نُصّ ما كانت العرب تفعله تبين معنى الآيات، فالذي تظاهرت به الروايات ويَنْفَكُّ من مجموع ما ذكر الناس أَن العرب كانت لا عيش لأَكثرها إلا من الغارات وإعمال سلاحها، فكانوا إذا توالت عليهم حرمة ذي القعدة وذي الحجة والمحرم صعب عليهم وأَملقوا، وكان بنو فُقَيْم[1] من كنانة أَهل دين في العرب وتَمَسُّكٍ بشرع إبراهيم عليه السلام، فانتدب منهم القَلَمَّس وهو حذيفة بن عبد فُقَيم فنسأَ الشهور للعرب، ثم خلفه على ذلك ابنه عباد بن حذيفة، ثم خلف ابنه قلع بن عباد، ثم خلفه ابنه أُمية بن قلع، ثم خلفه ابنه عوف بن أُمية، ثم خلفه ابنه أَبو ثمامة جنادة بن عوف، وعليه قام الإسلام، وذكر الطبري وغيره أَن الأَمر كان في عدوان قبل بني مالك بن كنانة، وكان صورة فعلهم أَن العرب كانت إذا فرغت من حجّها جاءَ إليهم من شاءَ منهم مجتمعين فقالوا: أَنسئنا شهراً، أَي: أَخِّر عنا حرمة المحرّم فاجعلها في صفر، فيحلُّ لهم المحرم فيُغِيرون فيه ويعيشون، ثم يلتزمون

(١) بضم الفاءِ وفتح القاف بعدهما ياءٌ ساكنة، والقَلَمَّس بفتح القاف واللام وتشديد الميم، وكان القَلَمَّس هذا يقوم بعد صدورهم من منًى فيقول: أنا الذي لا يُرَدُّ لي قضاءٌ، فيقولون: أَنسئنا شهراً، أي أخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر، فيحل لهم المحرم.. الخ.



حرمة صفر ليوافقوا عدة الأَشهر الأَربعة ، قال مجاهد: ويسمون ذلك الصفر المحرَّم ، ثم يسمون ربيعاً الأَول صفراً وربيعاً الآخر ربيعاً الأول ، وهكذا في سائر الشهور يستقبلون سنتهم من المحرم الموضوع لهم فيسقط على هذا حكم المحرم الذي حُلِّل لهم ، وتجيء السَّنَة من ثلاثة عشر شهراً أَوّلها المحرم المحلّل ثم المحرَّم الذي هو في الحقيقة صفر ثم استقبال السَّنَة كما ذكرنا ، ففي هذا قال الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ أَي: ليست ثلاثة عشر شهراً. قال الطبري: حدثني ابن وكيع عن عمران بن عُيَيْنَة بن حصين عن أبي مالك قال: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً ، قال مجاهد: ثم كانوا يحجون في كل شهر عامين ولاءً ثم بعد ذلك يُبَدلون فيحجون عامين ولاءً ، ثم كذلك حتى جاءَت حجة أبي بكر رضي الله عنه في ذي القعدة حقيقة وهم يسمونه ذا الحجة ، ثم حج رسول الله ﷺ سنة عشر في ذي الحجة حقيقة ، فذلك قوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أَربعة حرم: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان»[1] ، وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب في حجة الوداع فساق الحديث فقال فيه: «أَولهن رجب مُضر الذي بين جمادى وشعبان ، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويجيءُ في أَكثر الكتب أَنهم كانوا يجعلون حرمة المحرم في صفر ويُسكت عن تمام القصة ، والذي ذكرناه هو بيانها ، وأَمّا كون المحرم أَول السنة العربية ، وكان حقه ـ إذ التاريخ من الهجرة ـ أَن يكون أول السَّنَة في ربيع الأَول ، فإِن ذلك فيما يروى ، لأَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دوّن ديوان المسلمين وجعل تاريخه المحرم إذ قبله انقضاءُ الموسم والحج ، فكان الحج خاتمة للسَّنَة ، واعتد بعام الهجرة وإن كان قد نقص من أَوَّله شيءٌ ، ولما كانت سنة العرب هلالية ، بدأَ العام من أَول شهر ، ولم يكن في الثاني عشر من ربيع الذي هو يوم دخول النبي ﷺ المدينة ، ولا كان عند تمام

(١) الحديث رواه الإمام أحمد عن أبي بَكْرَة ، ورواه البخاري في التفسير وغيره ، ورواه مسلم عن عبد الرحمن بن أبي بَكْرة عن أبيه ، وابن جرير عن أبي هريرة ، ورواه البزار عن محمد بن معمر ، ورواه ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وهو ثابت في كتب التفسير والسير من طرق عدة.



الحج؛ لأنه في كسر شهر، وأما الأربعة الحُرم فهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم ورجب، ومعنى قول النبي ﷺ: «ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان» قصد التفريق بينه وبين ما كانت تفعله قبائل ربيعة بأَسرها، فإنها كانت تجعل رجبها رمضان وتحرّمه ابتداعاً منها، وكانت قريش ومن تابعها في ذلك من قبائل مضر على الحق، فقرر رسول الله ﷺ ذلك ونسبه إلى مضر إذْ كان حكمه وتحريمه إنما كان من قِبَل قريش، وفي المفضّليات لبعض شعراءِ الجاهلية:

وشَهْــر بَنــي أُميَّــةَ والْهــدايــا . . . .[1]

البيت، قال الأصمعي: يريد رجباً، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع:

[اثنا عْشَر شهراً] بسكون العين[2]، وذلك تخفيف لتوالي الحركات، وكذلك قرأ: [أَحَدَ عْشَرَ] و[تِسْعَةَ عْشَرَ][3].

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أَي فيما كتبه وأَثبته في اللوح المحفوظ أَو غيره، فهي صفة فعل مثل خلقه ورزقه وليست بمعنى قضائه وتقديره، لأَن تلك هي قبل خلق السموات والأَرض، والكتاب الذي هو المصدر هو العامل في ﴿يَوْمَ﴾، و﴿فِي﴾ من قوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ متعلقة بـ «مُستَقِرّة أَو ثابتة» ونحوه، ويقلق أن يكون الكتاب: القرآن في هذا الموضع، وتأَمل، ولا يتعلق [في] بـ [عِدَّة] للتفرقة بين الصلة

---

(١) هذا شطر بيت قاله عوف بن الأحوص العامريُّ ضمن أبيات يهجو بها رجلاً من بني الحارث بن كعب، وهي:

وإنِّــي والَّــذي حَجَّــتْ قُــرَيْــشٌ ... محــارِمَــهُ ومــا جَمَعَــتْ حِــرَاءُ
وشَهْــرِ بَنــي أُمَيَّــةَ والْهَــدَايَــا ... إذَا حُبِسَــتْ مُضَــرِّجَهــا الــدِّمَــاءُ
أذُمُّــكَ مــا تَــرَقْــرقَ مــاءُ عَيْنــي ... عَلَــيَّ إذاً مـــن الله الْعَفَــاءُ

ومُضَرِّجها: اسم فاعل، و«الدماءُ» فاعله، و«ها» عائدة على الهدايا، وهو منصوب على الحال من ضمير الهدايا في «حُبست»، وهو جائز لأن إضافة الصفة كاسم الفاعل إلى معمولها ليست محضة فلا تفيد تعريفاً (راجع همع الهوامع ٢ ـ ٤٧) وأذمك معناها: لا أذمك.

(٢) قرأ بها أيضاً هُبَيْرَةَ عن حَفْص كما قال في «البحر المحيط»، قال: بإسكان العين مع إثبات الألف، وهو جمع بين ساكنين على غير حدِّه، كما روي: «التَقَتْ حَلْقَتَا البُطان» بإثبات ألف «حلقتا».

(٣) الأولى من قوله تعالى في الآية (٤) من سورة (يوسف): ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾، والثانية من قوله تعالى في الآية (٣٠) من سورة (المدثر): ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾. ولكن لا يوجد هنا التقاءٌ بين ساكنين.



والموصول بخبر [إنَّ][(١)]. وقوله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ نصٌّ على تفضيل هذه الأَربعة وتشريفها، قال قتادة: «اصطفى الله من الملائكة والبشر رسلاً، ومن الشهور المحرّم ورمضان، ومن البقع المساجد، ومن الأَيام الجمعة، ومن الليالي ليلة القدر، ومن الكلام ذكْره، فينبغي أَن يُعظِّم ما عظَّم الله».

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ﴾ قالت فرقة: معناه: الحساب المستقيم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما حكى المهدوي: معناه: القضاءُ المستقيم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والأَصوب عندي أن يكون ﴿ٱلدِّينُ﴾ هاهنا على أَشهر وجوهه، أَي ذلك الشرع والطاعة لله. ﴿ٱلْقَيِّمُۚ﴾ أَي: القائم المستقيم، وهو من «قام يقوم» بمنزلة «سيِّد» من «ساد يسود»، وأَصله قَيْوِمٌ، وقوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ﴾ الضمير عائد على «الاثنَا عشر شَهْراً» أَي: لا تظلموا أَنفسكم بالمعاصي في الزمن كله، وقال قتادة: الضمير عائد على «الأربعة الأَشهر»[(٢)]، ونهى عن الظلم فيها تشريفاً لها بالتخصيص والذكر وإن كان منهياً عنه في كل الزمن، وزعم النحاة أَن العرب تكني عما دون العشرة من الشهور: «فيهن»، وعمَّا فوق العشرة: «فيها»، وروي عن الكسائي أَنه قال: إني لأَتعجب من فعل العرب هذا، وكذلك يقولون فيما دون العشرة من الليالي: «خَلَوْن»، وفيما فوقها: «خَلَتْ». وقال الحسن: معنى «فيهِنَّ» أَي بِسَبَبِهِنَّ ومن جرّاهن في أن تُحِلُّوا حرامها وتبدلوه بما لا حرمة له، وحكى المهدوي أَنه قيل: «لا تظلموا فيهن أَنفسكم بالقتال» ثم نسخ بفرض القتال في كل زمن، قال سعيد بن المسيب في كتاب الطبري: كان رسول الله ﷺ يحرم القتال في الأَشهر الحرم بما أَنزل الله في ذلك حتى نزلت براءَة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

---

(١) وهو ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾، وهذا هو رأي أبي علي، وقد نقله عنه أيضاً أبو حيَّان في «البحر» وعلق عليه بقوله: «وهو كلام صحيح».

(٢) والسبب أنه إليها أقرب، ولأن لها مزية في تعظيم الظلم لقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّۗ﴾، وليس المعنى أن الظلم في غير هذه الأيام جائز، بل هو حرام في كل وقت وبخاصة في هذه الأوقات.



وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ معناه: فيهن فأحرى في غيرهن، وقوله: ﴿كَآفَّةً﴾ معناه: جميعاً، وهو مصدر في موضع الحال، قال الطبري: كالعاقبة والعافية، فهو ـ على هذا ـ كما تقول: خاصة وعامة، ويظهر أيضاً أنه من كفَّ يكفُّ، أي جماعة تكف من عارضها، وكذلك تقول: الكافة، أي تكف من خالفها، فاللفظة ـ على هذا ـ اسم فاعل، وقال بعض الناس: معناه: يكف بعضهم بعضاً عن التخلف، وما قدماه أَعَمُّ وأحسن، وقال بعض الناس: كان الفرض بهذه الآية قد توجَّه على الأعيان ثم نسخ ذلك بعْدُ وجُعل فرض كفاية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الذي قالوه لم يُعلم قط من شرع النبي ﷺ أنه ألزم الأُمة جميعاً النَّفْر، وإنما معنى الآية الحض على قتلاهم والتحزب عليهم وجمع الكلمة، ثم قيدها بقوله سبحانه: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾، فبحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا لهم، وأما الجهاد الذي يندب إليه فإنما هو فرض على الكفاية إذا قام به بعض الأُمة سقط عن الغير.

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ خبر في ضمنه أمْرٌ بالتقوى ووعْد عليها بالنصر والتأييد.

قوله عز وجلَّ:

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿ٱلنَّسِىٓءُ﴾ على وزن فَعيل مصدر بمعنى التأخير، تقول العرب: أَنْسَأَ الله في أَجلك ونسأ في أَجلك، ومنه قوله النبي ﷺ: «منْ سرَّه النَّسَأَ في الأَجل والسَّعة في الرزق فَلْيصل رحمه»[١]، وهذه قراءَة الجمهور والسبعة، وقرأ ابن كثير فيما روي عنه وقوم

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع بلفظ: «من سرَّه أن يُبْسَط له رزقه أو ينْسَأ له في أثره فَلْيَصِلْ رحمه»، وأخرجه مسلم في كتاب البرّ، وأبو داود في كتاب الزكاة.

معه في الشَّاذ[1]: [النَّسيُّ] مشددة الياءِ، وقرأَ فيما روى عنه جعفر بن محمد، والزهري: [النَّسيءُ]، وقرأَ أَيضاً فيما رُوي عنه: [النَّسْءُ] على وزن «النَّسْع»، وقرأَت فرقة [النَّسْيُ]. فأَما [النَّسيءُ] بالمدّ والهمز فقال أبو علي: هو مصدر مثل النكير والنذير وعذير الحيّ[2]، ولا يجوز أَن يكون فعيلاً بمعنى مفعول؛ لأَنه يكون المعنى: إِنَّما المؤَخَّر زيادة، والمُؤَخِّر الشهر، ولا يكون الشهر زيادة في الكفر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقال أَبو حاتم: هو فعيل بمعنى مفعول، وينفصل عن إِلزام أَبي علي بأَن يُقَدَّر مضاف، كأَن المعنى: إِنما إِنساءُ النسيءِ، وقال الطبري: هو في معنى الزيادة، أي زيادتهم في الأشهر، وقال أَبو وائل: كان «النسيءُ» رجلاً من بني كنانة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وأَما [النَّسيُّ] فهو الأَول بعينه خففت الهمزة، وقيل: قلبت الهمزة ياءً وأُدغمت الياءُ في الياءِ، وأَما [النَّسْءُ] فهو مصدر من نسأَ إِذا أَخَّر، وأَما [النَّسْيُ] فقيل: تخفيف همزة «النَّسءِ»، وذلك على غير قياس، وقال الطبريُّ: هو مصدر من نَسِي ينْسى إِذا تَرك.

---

(١) هذه القراءةُ ليست من الشاذّ، فقد قرأ بها نافع، قال أبو حيان في «البحر»: وقرأ الزهري، وحميد، وأبو جعفر، وورش عن نافع والحلواني: (النَّسِيّ) بتشديد الياء من غير همز»، ونقل القرطبي عن النحاس قوله: «ولم يرْوِ أحدٌ عن نافع فيما علمناه «إنَّما النَّسِيُّ» بلا همز إلا ورش وحده»، وعلى هذا يكون معنى قول ابن عطية: «وقومٌ معه في الشاذّ» وقوم ممن يُعَدّون في الشاذ، وليس غرضه أن يجعل هذه القراءَة من الشاذّ.

(٢) العَذير: العاذِر، يقال: عذيرَكَ من فلانٍ، بالنصب، أي: هات من يعذرك، فَعيل بمعنى فاعل، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو ينظر إلى ابن مُلْجَم: عذيرَك مِنْ خَلِيلِكَ من مراد.
والعاذِرُ والعذير: من يفعل شيئاً لقومه فيقبلون عُذْرَه فلا يلومونه، فيكون كأنه اعتذر من التقصير وهم قبلوا عذره، كمن يتخذ طعاماً لقومه في ختان أو عُرْس، وإضافة «عذير» للحيّ على معنى اللام وليست من إضافة المصدر إلى مفعوله، لأن أعذر المذكور لازم، قال ذو الأصبع العدواني:

عَذيرَ الحيِّ مِنْ عُدْوا نَ كانوا حيَّةَ الأَرْض
بغَى بعضٌ على بَعْضٍ فلم يرعَوْا على بَعْض

يقول: هات عُذْراً فيما فعل بعضهم ببعض من التباعد والتباغض والقتل، ولم يرع بعضهم على بعض بعدما كانوا حيّة يحذرها الناس جميعاً.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والنسيءُ هو فعل العرب في تأخيرهم الحرمة، وقوله تعالى: ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي: جارٍ مع كفرهم بالله، وخلافٌ منهم للحق، فالكفر متكثر بهذا الفعل الذي هو باطلٌ في نفسه[(١)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومما وجد في أشعارها من هذا المعنى قول بعضهم:

ومنَّا مُنْسِيءُ الشَّهْرِ القَلَمَّس[(٢)]

وقال الآخر:

نَسَؤوا الشُّهور بها وكانوا أَهْلَها ... مِنْ قبلِكُمْ والعِزُّ لَمْ يَتحوّل[(٣)]

ومنه قول جِذْلِ الطِّعانِ:

وَقَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ أَنَّ قَوْمي ... كِرَامُ النَّاسِ إِنَّ لَهم كِراما

فأَيُّ الناسِ فاتونا بِوتْرٍ؟ ... وأيُّ النَّاس لم تَعْلك لِجَامَا؟

أَلَسْنَا النَّاسِئينَ عَلَى مَعَدٍّ ... شهور الحِلِّ نَجْعَلُها حرامَا؟[(٤)]

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: [يَضِلُّ] بفتح الياءِ وكسر الضاد، وقرأ ابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وعمرو بن ميمون:

---

(١) قال بعض العلماء: لأن الكافر إذا أحدث معصية ازداد كفراً، قال تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾، كما أن المؤمن إذا أحدث طاعة ازداد إيماناً، قال تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، ذكر ذلك أبو حيان في «البحر»، وقال القرطبي: «لما فعلته العرب من جمعها من أنواع الكفر، فإنها أنكرت وجود الله، وأنكرت البعث، وأنكرت بعثة الرسل». الخ.

(٢) القلَمّس بفتح القاف واللام وتشديد الميم سبقت الإشارة إليه، واسمه حُذَيْفَة بن عبد من بني فُقَيْم من بني كنانة، وشاعرهم يقول هذا الشعر افتخاراً منه لأن الذي يظفر بالنسيءِ تختاره العرب للرياسة، وروي هذا الشطر من بحر الوافر: «ومنا ناسِيءُ» بدلاً من «مُنْسِيء».

(٣) ينسب هذا البيت لأمية بن الأسكر الليثي، وقيل هو للشويعر ربيعة بن عبس الليثي، والشاعر فيه يفخر بقوم كان لهم النسيءُ قبل غيرهم ولا يزال العزّ فيهم لم يتحول عنهم.

(٤) هذه الأبيات مختلف في نسبتها، فصاحب اللسان، وصاحب التاج ينسبان البيت الأخير فيها إلى عُمَيْر بن قَيْس بن جِذْل الطِّعان، والألوسي والقُرطبي ينسبانه إلى الكميت، وواضح أن ابن عطية ينسبها كلها إلى عُمَيْر هذا لكِنَّ خطأ النساخ جعله: جِذْل الطِّعان.



[يُضِلُّ] بضم الياءِ وكسر الضاد، فإِمَّا على معنى: يُضِل الله، وإما على معنى: يُضِل به الذين كفروا أَتباعهم ، فـ ﴿الَّذِينَ﴾ في التأْويل الأَول في موضع نصب، وفي الثاني في موضع رفع، وقرأَ عاصم أيضاً، وحمزة، والكسائي، وابن مسعود ـ فيما روي عنه ـ: ﴿يُضَلُّ﴾ بضم الياءِ وفتح الضاد على المفعول الذي لم يُسم فاعله، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ﴾ للتناسب في اللفظ، وقرأَ أَبو رجاءِ: [يَضَلُّ] من ضلَّ يضَل ، على وزن فعِل بكسر العين يفعَل بفتحها ، وهما لغتان ، يقال: ضلَّ يَضِل وضَلَّ يَضَلُّ والوزن الذي ذكرناه يفرق بينهما ، وكذلك يروى قول النبي ﷺ: «حتَّى يَضِلَّ الرجل أن يدري كم صلَّى» بفتح الضاد وكسْرها[1] .

وقوله تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ معناه: عاماً من الأَعوام ، وليس يريد أَن تلك كانت مداولة في الشهر بعينه ، عام حلال وعام حرام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد تأَول بعض الناس القصة أَنهم كانوا إِذا شق عليهم توالي الأَشهر الحرم أَحل لهم المحرم وحرم عليهم صفر بدلاً منه ، ثم مشت الشهور مستقيمة على أَسمائها المعهودة ، فإِذا كان من قابل حرّم المحرم على حقه ، وأُحل صفر ، ومشت الشهور مستقيمة ، ورأَت هذه الطائفة أَن هذه كانت حالة القوم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي قدمناه قبْلُ أَليق بأَلفاظ الآيات ، وقد بيَّنه مجاهد ، وأَبو مالك ، وهو مقتضى قول النبي ﷺ: «إن الزمان قد استدار» مع أَن الأَمر كله قد تقضَّى ، والله أَعلم أَيُّ ذلك كان.

وقوله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟﴾ معناه: ليوافقوا ، والمواطأَة: الموافقة ، تواطأَ الرجلان على كذا إِذا اتفقا عليه ، ومعنى ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾: ليحفظوا في كل عام أَربعة أَشهر في العدد.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب «الصلاة» ، ورواه في الموطأ في «النداء» ـ (عن المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) جـ ٣ ص ٥١٥ .



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فأزالوا الفضيلة التي خصّ الله بها الأَشهر الحرم وحدها، بمثابة أن يفطر أحدٌ رمضان ويصوم شهراً من السَّنَة بغير مرض أَو سفر، وقوله: ﴿زُيِّنَ﴾ يحتمل هذا التَّزْيين أَن يضاف إلى الله عزَّ وجلَّ والمراد به خلقه لكفرهم وإقرارهم عليه وتحبيبه لهم، ويحتمل أَن يضاف إلى مُغْويهم ومُضِلهم من الإنس والجن، ثم أَخبر تعالى أَنه لا يهديهم ولا يرشدهم، وهو عموم معناه الخصوص في الموافقين أَو عموم مطلق لكن لا هداية من حيث هم كفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذكر أبو علي البغدادي في أَمر النسيءِ أنه كان إذا صدر الناس من (منى) قام رجل يقال له نعيم بن ثعلبة، فيقول: أنا الذي لا أُعاب ولا يردّ لي قضاءٌ، فيقولون: أَنْسِئنا شهراً، أَي أَخِّر عنا حرمة المحرم فاجعلها في صفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واسم نعيم لم يعرف في هذا، وما أَرى ذلك إلاَّ كما حكى النقاش من بني فُقَيْم، كانوا يسمون القلامس وأَحدهم قَلَمَّس، وكانوا يفتون العرب في الموسم، يقوم كبيرهم في الحجر، ويقوم آخر عند الباب، ويقوم آخر عند الركن فيفتون.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فهم على هذا عدَّة، منهم نعيم وصفوان ومنهم ذرِّيّة القَلَمّس حذيفة وغيرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقال رسول الله ﷺ: «لا عَدْوى ولا هامةَ ولا صفر»[1]، فقال بعض الناس: إنه يريد بقوله: «ولا صفر» هذا النسيءَ، وقيل غير ذلك.

---

(١) رواه الشيخان، وأبو داود عن أبي هريرة، وعن السائب بن زيد، وكذلك أخرجه الإمام أحمد في مسنده بهذا اللفظ عن أبي هريرة، وعن السائب بن زيد، وأخرجه هو ومسلم في صحيحه عن جابر بلفظ: «لا عَدْوى ولا طِيرَة ولا هامَةَ ولا صَفَر ولا غول».



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

هذه الآية هي بلا اختلاف نازلة عتاباً على تخلف من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام، غزا فيها الروم في عشرين ألفاً بين راكب وراجل، وتخلف عنه قبائل من الناس ورجال من المؤمنين كثير ومنافقون، فالعتاب في هذه الآية هو للقبائل وللمؤمنين الذين كانوا بالمدينة، وخص الثلاثة: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أُمية بذلك التذنيب الشديد بحسب مكانهم من الصحبة إذ هم من أَهل بدر وممن يقتدى بهم، وكان تخلفهم لغير علَّة كما يأْتي.

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ استفهام بمعنى التقرير والتوبيخ، وقوله: ﴿قِيلَ﴾ يريد النبي ﷺ إلاَّ أَن صرفه الفعل لا يُسَمَّى فاعله يقتضي غلاظاً ومخاشنة مّا.

والنَّفر هو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لأَمر يحدث، يقال في ابن آدم: نَفَر إلى الأَمر ينفِرُ نفيراً ونفراً، ويقال في الدابة: نفرتْ تنفرُ بضم الفاءِ نُفوراً[(١)]، وقوله: ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ أصله تثاقلتم، أُدغمت التاءُ في الثاءِ فاحتيج إلى أَلف الوصل، كما قال: ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾[(٢)] وكما تقول: «ازَّيَّن»، وكما قال الشاعر:

تُولي الضَّجيجَ إذا ما استَافَها خَصِراً عذب المَذاقِ إذا ما اتَّابَع القُبَلُ[(٣)]

وقرأ الأَعمش ـ فيما حكى المهدوي وغيره ـ: [تَثَاقَلْتُمْ] على الأَصل، وذكرها أَبو

---

(١) ويقال أَيضاً «تنفِر» بكسر الفاءِ كما قال صاحب اللسان. ويقال: قومٌ نُفُور، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

(٢) من قوله تعالى في الآية (٧٢) من سورة (البقرة): ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

(٣) البيت أنشده الكسائي كما قال القرطبي، وساف الشيءَ يَسُوفه ويَسَافُه سوفاً وساوَفه واستافه، كل ذلك بمعنى: شَمَّه، والخَصِر بكسر الصاد: البارِدُ من كل شيءٍ، والشاهد في قوله: اتَّابع، إذ أَصلُها «تتابع»، ومن الكلمات التي حصل فيها الإدغام على مثل «اثَّاقلتم» «اطَّيَّرنا» في قوله تعالى في سورة النمل: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ «وازَّيَّنَتْ» في قوله تعالى في سورة يونس: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾.



حاتم «تتاقلتم» بتاءَين ثم ثاءٍ مثلثة ، وقال: هي خطأٌ أو غلط ، وصوّب [تَثَاقَلْتُمْ] بتاءٍ واحدة وثاءٍ مثلثة إن لو قرىءَ بها ، وقوله: ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ عبارة عن تخلفهم ونكولهم وتركهم ، الغزو لسكنى ديارهم والتزام نخلهم وظلالهم ، وهو نحو من: أَخلَد إلى الأَرض ، وقوله: [أَرَضِيتُمْ] تقرير يقول: أَرضيتم نزر الدنيا على خطير الآخرة وحَظِّها الأَسعد؟ ثم أَخبر فقال: إن الدنيا بالإضافة إلى الآخرة قليل نَزْر ، فتعطي قوةُ الكلام التعجبَ من ضلال من يرضى النَّزْر بدل الكثير الباقي[(١)].

وقوله: ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا ﴾ الآية ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ ﴾ شرط وجواب ، وقوله: [يُعذِّبْكُمْ] لفظ عام يدخل تحته أَنواع عذاب الدنيا والآخرة ، والتهديد بعمومه أَشدُّ تخويفاً ، وقالت فرقة: يريد: يُعذبكم بإمساك المطر عنكم ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: استنفر رسول الله ﷺ قبيلة من القبائل فقعدت فأَمسك الله عنها المطر وعذَّبها به ، و«أَليمٌ» بمعنى مُؤلم ، بمنزلة قول عمرو بن معديكرب:

أَمِـنْ رَيْحَـانَـةَ الـدَّاعـي السَّميـع . . . .[(٢)]

وقوله: ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ توعّد بأن يبدل لرسول الله ﷺ قوماً لا يقعدون عند استنفاره إياهم ، والضمير في قوله: ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ﴾ عائد على الله عزَّ وجلَّ ، أَي: لا يَنقص ذلك من عِزِّه وعِزِّ دينه ، ويحتمل أَن يعود على النبي ﷺ ، وهو أَليق. ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَي: على كل شيء مقدور ، وتبديلهم منه ليس بمحال ممتنع.

قوله عزَّ وجل:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

---

(١) النَّزْر: القليل التافه من كل شيء.

(٢) هذا صدر بيت ، وهو بتمامه:

أَمِـنْ رَيْحَـانَـةَ الـدَّاعـي السَّميـعُ ... يُـؤَرِّقُـنـي وأَصْحَـابـي هُجُـوعُ؟

والسميع بمعنى: المُسْمع ، قال الأزهري: ولست أنكر أن يكون السميع سامعاً ، ويكون مُسْمعاً كما قال عمرو بن معديكرب ، ولكنه شاذٌّ.

هذا أيضاً شرط والجواب في الفاءِ من قوله: ﴿فَقَدْ﴾ وفيما بعدها، قال النقاش: هذه أول آية نزلت من سورة التوبة، ومعنى الآية: إنكم إن تركتم نصره فالله متكفل به إذ قد نصره في موضع القِلَّة والانفراد وكثرة العدو، فنَصْره إياه اليوم أحرى منه حينئذ. وقوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يريد: فعلوا من الأفاعيل ما أدّى إلى خروجه، وأسند الإخراج إليهم إذ المقصود تذنيبهم، ولما كان مقصد أبي سفيان بن الحارث الفخر في قوله: «مَنْ طَرَّدْتُ كُلَّ مُطَرَّدِ» لم يقرره النبي ﷺ، والإشارة إلى خروج رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة وفي صحبته أبو بكر رضي الله عنه، واختصار القصة أن رسول الله ﷺ كان ينتظر أمر الله عزَّ وجلَّ في الهجرة من مكة، وكان أبو بكر رضي الله عنه حين ترك ذمة ابن الدُّغُنة قد أراد الخروج من مكة فقال له رسول الله ﷺ: «اصبر فلعل الله أن يسهل في الصحبة»، فلما أذن الله لرسوله ﷺ في الخروج تجهز من دار أبي بكر وخرجا فبقيا في الغار الذي في جبل ثور في غربي مكة ثلاث ليال، وخرج المشركون في أثرهم حتى انتهوا إلى الغار، فطمس عليهم الأثر، وقال أبو بكر للنبي ﷺ: «لو نظر أحدهم إلى قدمه لرآنا»، فقال له النبي ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»؟ ويروى أن العنكبوت نسجت على باب الغار، ويروى أن الحمامة عشَّشت عند باب الغار، ويروى أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر رضي الله عنه أن يجعل ثُمَاماً[1] في باب الغار فتخيله المشركون نابتاً وصرفهم الله عنه، ووقع في «الدلائل» في حديث النبي ﷺ أنه نبتت على باب الغار «رَاءَةٌ» أمرها الله بذلك في الحين، قال الأصمعي: جمعها «راءٌ» وهي من نبات السهل. وروي أن أبا بكر رضي الله عنه لما دخل الغار خرق رداءَه فسَدّ به كِواءَ[2] الغار لئلا يكون فيها حيوان يؤذي النبي ﷺ، وروي أنه بقيت فيه واحدة فسدها برجله فوقى الله تعالى، وكان يروح عليهما باللَّبن عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه.

---

(١) الثُّمامُ: نبت معروف في البادية، ولا تَجْهده النَّعَمُ إلا في الجدوبة، والثَّمام: نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص، وربما حُشي به وسُدَّ به خصاص البيوت، والثمام: نبت ضعيف قصير لا يطول، وفي حديث عمر رضي الله عنه: اغزُوا والغزو حُلْوٌ خَضِر قبل أن يصير ثُماما، جاءَ ذلك كله في (لسان العرب).

(٢) الكَوُّ والكَوّة: الخرق في الحائط، والثَّقْبُ في البيت، والجمع كوىً بالقصر نادرٌ وكواءٌ بالمدّ، والكاف مكسورة فيهما، وقال اللحياني: من قال كَوّة ففتَح فجمعه كِواءٌ ممدود، والكُوة بالضم لغة، ومن قال كُوّة بالضم فجمعه كِوىً مكسور مقصور.



وقوله: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ معناه: أحد اثنين، وهذا كثالث ثلاثة ورابع أربعة، فإذا اختلف اللفظ فقلت: «رابع ثلاثة» فالمعنى: صيَّر الثلاثة بنفسه أربعة، وقرأ جمهور الناس: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ بنصب الياءِ من [ثاني]، قال أبو حاتم: لا يعرف غير هذا، وقرأت فرقة: [ثَانِيْ اثْنَيْن] بسكون الياءِ من [ثاني]، قال أبو الفتح: حكاها أبو عمرو بن العلاءِ، ووجهه أنه سكن الياءَ تشبيهاً لها بالألف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذه كقراءة: ﴿مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾(١) وكقول جرير:

هُوَ الخليفةُ فارْضَوْا ما رَضي لكُمُ ... مَـاضِـي العَـزِيمـةِ مـا في حُكْمِـهِ جَنَـفُ(٢)

وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه، وروى أن أبا بكر الصديق قال يوماً وهو على المنبر: أيكم يحفظ سورة التوبة؟ فقال رجل: أنا، فقال: اقرأ، فقرأ فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ بكى وقال: أنا واللهِ صاحبُه، وقال الليث: ما صحب الأنبياءَ مثل أبي بكر الصديق، وقال سفيان بن عيينة: خرج أبو بكر رضي الله عنه بهذه الآية من المعاتبة التي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أقول: بل خرج منها كل من شاهد غزوة تبوك ولم يتخلف، وإنما المعاتبة لمن تخلَّف فقط، أما إن هذه الآية منوهة بأبي بكر حاكمة بتقدمه وسابقته في الإسلام رضي الله عنه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ يريد به النصر والإنجاءَ واللطف(٣)، وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ الآية. قال حبيب بن أبي ثابت: الضمير في ﴿عَلَيۡهِ﴾

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٢٧٨) من سورة (البقرة): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

(٢) الأصل في الكلام «ما رَضِيَ» بفتح الياءِ، ولكن الشاعر سكَّن هنا على أساس تشبيه الياء بالألف، فكما أن الحركة لا تصل إلى الألف فهي كذلك هنا لا تصل إلى الياءِ، والجنف: الميْل والجور.

(٣) قال المُحَاسبيّ: يعني: معهما بالنصر والدفاع، لا على معنى ما عمَّ به الخلائق فقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ فمعناه العموم، وأنه يسمع ويرى من الكفار والمؤمنين.



عائد على أَبي بكر لأن النبي ﷺ لم يزل ساكن النفس ثقة بالله عزَّ وجلَّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول من لم يَر السكينة إلاَّ سكون النفس والجأش. وقال جمهور الناس: الضمير عائد على النبي ﷺ، وهذا أقوى، والسكينة عندي إنما هي ما ينزل الله على أَنبيائه من الحياطة لهم والخصائص التي لا تصلح إلا لهم[1]، كقوله تعالى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[2]، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ إلى آخر الآية يراد به ما صنعه الله لنبيّه إلى وقت تبوك من الظهور والفتوح، لا أَن تكون هذه الآية تختص بقصة الغار والنجاة إلى المدينة، فعلى هذا تكون الجنود الملائكة النازلين ببدرٍ وحُنَيْن، ومن رأَى أن الآية مختصة بتلك القصة قال: الجنود: ملائكة بشّروه بالنجاة وبأَن الكفار لا ينجح لهم سعي، وفي مصحف حفصة رضي الله عنها: [فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِيْنَتَهُ عَلَيْهِمَا وأَيَّدَهُمَا]، وقرأَ مجاهد: [وَآيَدَهُ] بأَلِفين، والجمهور: ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ بشد الياءِ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ يريد بإدحارها ودحضها وإذلالها، ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ قيل: يريد: «لا إلهَ إلاَّ الله»، وقيل: الشرع بأَسره، وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَكَلِمَةُ﴾ بالرفع على الابتداءِ، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، ويعقوب: [وكَلِمةَ] بالنصب على تقدير: «وجعل كلمة»، قال الأعمش: ورأَيت في مصحف أنس بن مالك المنسوب إلى أُبي بن كعب «وجَعلَ كَلِمتَهُ هِيَ العُليا».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

---

(١) وقال ابن عباس رضي الله عنهما: السكينةُ: الرحمة، وقال قتادة: الوقار، وقال ابن قتيبة، الطمأنينة، وكلها أقوال متقاربة.

(٢) البقرة: ٢٤٨.



هذا أمرٌ من الله تعالى لأمة محمد ﷺ بالنَّفير إلى الغزو ، فقال بعض الناس: هذا أَمْر عامٌّ لجميع المؤمنين فعبّر عنه بالفرض على الأعيان في تلك المدة ، ثم نسخه الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟﴾[1] ، روي ذلك عن الحسن وعكرمة.

وقال جُلُّ الناس: بل هذا حضٌّ ، والأَمر في نفسه موقوف على فرض الكفاية ، ولم يقصد بالآية فرضه على الأعيان.

وأَما قوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فنصب على الحال من الضمير في قوله: ﴿ٱنفِرُوا۟﴾ ، ومعنى الخِفَّة الثِّقَل هنا مستعار لمن يمكنه السَّفَر[2] بسهولة ومن يمكنه بصعوبة ، وأمّا من لا يمكنه كالعُمْي ونحوهم فخارج عن هذا ، وروي أَن ابن أُم مكتوم جاءَ إلى النبي ﷺ فقال: أَعَلَيَّ أن أنفر؟ فقال له: نعم ، حتى نزلت: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾[3] ، وذكر الناس من معاني الخفة والثقل أَشياءَ لا وجه لتخصيص بعضها دون بعض ، بل هي وجوه متفقة ، فقيل: الخفيف: الغني والثقيل: الفقير ، قاله مجاهد ، وقيل: الخفيف: الشاب والثقيل: الشيخ ، قاله الحسن وجماعة ، وقيل: الخفيف: النشيط والثقيل: الكاسل ، قاله ابن عباس وقتادة ، وقيل: المشغول ومن لا شغل له ، قاله الحكم بن عُيينة وزيد بن علي ، وقيل: الذي له ضيعْة هو الثقيل ومن لا ضيْعة له هو الخفيف ، قاله ابن زيد ، وقيل: الشجاع هو الخفيف والجبان هو الثقيل ، حكاه النقاش ، وقيل: الراجل هو الثقيل والفارس هو الخفيف ، قاله الأوزاعي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذان الوجهان الآخران ينعكسان ، وقد قيل ذلك ولكنه بحسب وطأَتهم على العدوّ، فالشجاع هو الثقيل، وكذلك الفارس، والجبان هو الخفيف وكذلك الراجل ، وكذلك ينعكس الفقير والغني ، فيكون الغني هو الثقيل بمعنى صاحب الشغل، ومعنى

---

(١) التوبة: ١٢٢.

(٢) في بعض النسخ: لمن يمكنه النَّفْر.

(٣) تكررت ـ فهي في الآية (٦١) من سورة (النور) ، وفي الآية (١٧) من سورة (الفتح) وهي المقصودة هنا.

هذا أن الناس أُمروا جملة، وهذه الأَقوال إنما هي على معنى المثال في الثقل والخفة، وقال أَبو طلحة: ما سمع الله عذر أَحد، وخرج إلى الشام فجاهد حتى مات، وقال أَبو أَيوب: ما أجدني أبداً إلا ثقيلاً أو خفيفاً، وروي أَن بعض الناس رأَى في غزوات الشام رجلاً سقط حاجباه على عينيه من الكبر فقال له: يا عم، إن الله قد عذرك، فقال: يا بن أَخي، إنَّا قد أُمرنا بالنفر خِفافاً وثقالاً، وأَسند الطبري عمن رأَى المقداد بن الأَسود بحمص، وهو على تابوت صرَّاف وقد فضل على التابوت من سمنه وهو يتجهز للغزو، فقال له: لقد عذرك الله، فقال: أتت علينا سورة البعوث ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، وروي: سورة البحوث.

وقوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ وصفٌ لأَكْمل ما يكون من الجهاد وأَنْفَعه عند الله تعالى، فحض على أَكمل الأوصاف، وقدمت الأَموال في الذكر إذ هي أَول مصرف وقت التجهيز، فرتب الأَمر كما هو في نفسه، ثم أَخبر أَن ذلك لهم خير للفوز برضى الله وغلبة العدو ووراثة الأَرض، وفي قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تنبيه وهز للنفوس.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ الآية. ظاهر هذه الآية وما يحفظ من قصة تبوك أن الله لما أَمر رسوله بغزو الروم ندب الناس، وكان ذلك في شدة من الحر وطيب من الثمار والظلال، فنفر المؤمنون، واعتذر منهم لا محالة فريق لاسيَّما من القبائل المجاورة للمدينة، ويدل على ذلك قوله تعالى في أَول هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ لأَن هذا الخطاب ليس للمنافقين خاصة، بل هو عام، واعتذر المنافقون بِأَعذارٍ كاذبة، وكانوا بسبيل كسل مفرط وقصْد للتخلف، وكانت أَعذار المؤمنين حقيقة ولكنهم تركوا الأَوْلى من التحامل، فنزل ما سلف من الآيات في عتاب المؤمنين، ثم ابتدأ من هذه الآية ذكر المنافقين وكشف ضمائرهم، فيقول: لو كان هذا الغزو لِعَرَضٍ أَي لمالٍ وغنيمة تنال قريباً بسفرٍ قاصد يسير، لبادروا إليه، لا لوجه الله ولا لظهور كلمته، ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ في غزو الروم، أَي المسافة الطويلة.

وذكر أَبو عبيدة أَن أَعرابياً قدم البصرة وكان قد حمل حمالة فعجز عنها، وكان معه ابن له يسمى الأَحوص، فبادر الأَحوص أَباه بالقول فقال: «إنا من تعلمون، وابنا



سبيل، وجئنا من شُقَّة، ونطلب في حق، وتُنطونَنا[١] ويجزيكم الله». فتهيأ أبوه ليخطب فقال له: «يا، إياك، إنِّي قد كفيتك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يا: تنبيه، وإيَّاك: نهي، وقرأ عيسى بن عمر: [الشِّقَّة] بكسر الشين، وقرأ الأعرج: [بعِدت] بكسر العين، وحكى أبو حاتم أنها لغة بني تميم في اللفظتين.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ يريد المنافقين، وهذا إخبارٌ بغيب، وقوله: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ يريد عند تخلفهم مجاهرة وكفرهم، فكأنهم يوجبون على أنفسهم الحتم بعذاب الله، ثم أخبر أن الله الذي هو أعدل الشاهدين يعلم كذبهم، وأنهم كانوا يستطيعون الخروج ولكنهم تركوه كفراً ونفاقاً، وهذا كله في الجملة لا بتعيين شخص، ولو عُيِّن، لقتل بالشرع.

وقرأ الأعمش على جهة التشبيه بواو ضمير الجماعة: [لَوُ ٱسْتَطَعْنَا] بضم الواو، ذكره ابن جني، ومثله بقوله[٢] تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا ٱلْفِتْنَةَ﴾[٣]، ﴿فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ﴾[٤]، و﴿ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَٰلَةَ﴾[٥] وما أشبهه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

هذه الآية في صنف مُبالغ في النفاق واستأذنوا دون اعتذار، منهم عبد الله بن أُبي،

---

(١) لغة في «تُعطونَنا»، وهي لغة أهل اليمن، وفي الحديث: «اليدُ المُنْطية خير من اليد السفلى»، وفي حديث الدعاءِ «لا مانع لما أنْطَيْت، ولا مُنْطي لما منعت»، وقد جاءت في بعض النسخ على اللغة المشهورة: «تعطوننا».

(٢) هكذا في جميع النسخ، ولعلّ الصواب: «ومثله قولُه» ولكن أخطأ النساخ، ولعلَّه أراد: (مَثَّله) بفتح الميم وشد الثاءِ المفتوحة، يعني ابن جني.

(٣) التوبة: ٤٨.

(٤) الجمعة: ٦.

(٥) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦] وتكررت في الآية (١٧٥) من نفس السورة.

والجَدُّ بن قيس، ورفاعة بن التابوت، ومن اتبعهم، فقال بعضهم: ائذن لي ولا تفتني، وقال بعضهم: ائذن لنا في الإقامة، فأذن لهم رسول الله ﷺ استبقاءً منه عليهم، وأخذاً بالأسهل من الأمور، وتوكلاً على الله. وقال مجاهد: قال بعضهم: نستأذنه فإن أذن لنا في القعود قعدنا، وإلا قعدنا، فنزلت الآية في ذلك، وقالت فرقة: إن رسول الله ﷺ أذن لهم دون أن يؤمر بذلك فعُفي عنه ما يلحق من هذا، وقُدم ذكرُ العفو قبل العقاب إكراماً له ﷺ، وقال عمرو بن ميمون الأودي: إن رسول الله ﷺ صدع برأيه في قصتين دون أن يؤمر فيهما بشيءٍ، هذه وأمر أُساري بدرٍ، فعاتبه الله فيهما، وقالت فرقة: بل قوله سبحانه في هذه الآية: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ استفتاح كلام، كما تقول: أصلحك الله، وأعزك الله، ولم يكن منه ﷺ ذنب يُعفى عنه، لأن صورة الاستنفار وقبول الأعذار مصروفة إلى اجتهاده، وأما قوله سبحانه: ﴿لِمَ أَذِنتَ﴾ فهي على معنى التقرير(١).

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ يريد: في استئذانك وأنك لو لم تأذن لهم خرجوا معك، وقوله: ﴿وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَـٰذِبِينَ﴾ يريد: في أنهم استأذنوك يظهرون لك أنهم يقفون عند حدك وهم كذبة قد عزموا على العصيان أذنت لهم أو لم تأذن، وقال الطبري: معناه: حتى تعلم الصادقين في أن لهم عذراً والكافرين في ألاَّ عذر لهم.

قال القاضي أبو محد رحمه الله:

وعلى هذا التأويل يختلط المعتذرون، وقد قدمنا أن فيهم مؤمنين كالمستأذنين وهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، والأول أصوب، والله أعلم. وأدخل الطبري أيضاً في تفسير هذه الآية عن قتادة أن هذه الآية نزلت بعدها الآية الأُخرى في سورة النور ﴿فَإِذَا

---

(١) قال أبو عبد الله إبراهيم بن عرفة المعروف بنفطويه: «كان لرسول الله ﷺ أن يفعل وألا يفعل حتى ينزل عليه الوحي، كما قال: «لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لجعلتها عمرة»، وقد قال الله تعالى: ﴿۞ تُرۡجِى مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِىٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ فكان له أن يفعل ما يشاءُ مما لم ينزل عليه فيه وحي، واستأذنه المتخلفون في التخلف واعتذروا واختار أيسر الأمرين تكرماً وتفضُّلاً منه عليه الصلاة والسلام، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ افتتاح كلام وليس عفواً عن ذنب، كما قال ﷺ: «عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق» وما وجبتا قط، ومعناه: ترك أن يلزمكم ذلك. اهـ. مع بعض التصرف.



اَسْتَئْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا غلط لأن آية النور نزلت سنة أَربع من الهجرة في غزوة الخندق في استئذان بعض المؤمنين رسول الله ﷺ في بعض شأنهم في بيوتهم في بعض الأوقات ، فأباح الله له أن يأذن ، فتباينت الآيتان في الوقت والمعنى.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَئْذِنُكَ﴾ الآية ، نفي عن المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله ﷺ في التخلف دون عذر كما فعل الصنف المذكور من المنافقين.

وقوله: ﴿أَن يُجَاهِدُوا﴾ يحتمل أن تكون ﴿أَن﴾ في موضع نصب على معنى: لا يستأذنون في التخلف كراهية أن يجاهدوا ، قال سيبويه: ويحتمل أن تكون في موضع خفض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

على معنى: لا يحتاجون إلى أن يستأذنوا في أَن يجاهدوا ، بل يمضون قدماً ، أَي: فَهُم أَحرى أَلاَّ يستأذنوا في التخلف ، ثم أَخبر بعلمه تعالى بالمتقين ، وفي ذلك تعيير للمنافقين وطعن عليهم بيّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

هذه الآية تنص على أن المستأذنين إنما هم مخلصون للنفاق ، ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ معناه: شكّت ، والريب نحو الشك ، و﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: يتحيرون ولا يتجه لهم هدى ، ومن هذه الآية نزع أَهل الكلام في حدّ الشّك إلى أنه تردُّدٌ بين أَمرين ، والصواب في حده أَنه توقف بين أَمرين ، والتردُّد في الآية إِنما هو في ريب هؤلاء

(١) النور: ٦٢.



المنافقين ، إذ كانوا تخطر لهم صحة أمر النبي ﷺ أحياناً ، وأنه غير صحيح أحياناً ، ولم يكونوا شاكّين طالبين للحق ؛ لأنه كان يتضح لهم لو طلبوه ، بل كانوا مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، كالشاة العائرة بين الغنمين[1] ، وأيضاً فبين الشك والريب فرق مّا ، وحقيقة الرّيب إنما هو الأمر يستريب به الناظر ، فيخلط عليه عقيدته ، فربما أدّى إلى شكٍّ وحيرة ، وربما أدّى إلى علم النازلة التي هو فيها ، ألا ترى أنَّ قول الهُذَلي:

كأنّني أَرَبْتهُ بِريْبِ[2]

لا يتجه أن يفسر بشكٍّ.

قال الطبري: وكان جماعة من أهل العلم يرون أن هاتين الآيتين منسوختان بالآية التي ذكرنا في سورة النور ، وأسند عن الحسن وعِكْرمة أنهما قالا في قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾: منسوخة بآية النور: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ إلى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غلط وقد تقدم ذكره.

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ ﴾ الآية ، حجة على المنافقين ، أي: ولو

---

(١) هي الشاة المتردّدة بين قطيعين لا تدري أيّهما تتبع ، ومنه الحديث: «مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين غنمين» ، (اللسان).

(٢) الهُذَلِيّ هو خالد بن زهير ، وهذا البيت جاء آخر أبيات يقول فيها:

يا قَوْم مَالي وأَبا ذُؤَيْبِ
كنتُ إذا أتيْتُهُ مِنْ غَيْبِ
يشَمُّ عِطْفي ويَبُزُّ ثَوبي
كأنّي أَرَبْتُهُ بِرَيْبِ

وعلّق عليها ابن برّي بقوله: والصحيح في هذا أن (رابني) بمعنى شكّكني وأوجب عندي ريبة ، كما قال الآخر:

وقَدْ رَابَني مِنْ دَلْويَ اضْطِرابُهَا

وأما (أراب) فإنه يأتي مُتَعَدّياً وغير مُتَعَدّ ، فمن عدّاه جعله بمعنى (راب) كقول خالد ، وأما غير المتعدي فمعناه: أتى بريبةٍ. (اللسان).



أَرادوا الخروج بنيّاتهم، لنظروا في ذلك واستعدوا له قبل كونه. والعُدَّة: ما يُعَدُّ للأَمر ويُروَّى له من الأَشياءِ[1].

وقرأ جمهور الناس: ﴿عُدَّةً﴾ بِضَمّ العين وتاءِ تأْنيث، وقرأ محمد بن عبد الملك ابن مروان وابنه معاوية بن محمد: [عُدَّهُ] بضمّ العين وهاءِ إِضمار، يريد: «عُدَّتَه» فحذف تاءَ التأْنيث لما أَضاف، كما قال: «وإِقَامَ الصلاةِ» يريد: «وإِقامة الصلاة»، هذا قول الفراءِ، وضعَّفه أبو الفتح وقال: إنما حذف تاء التأْنيث وجعل هاءَ الضمير عوضاً منها، وقال أَبو حاتم: هو جمع (عُدَّة) على (عُدًّ) كبُرَّة وبُرّ ودُرَّة ودُرّ، والوجه فيه عُدد ولكن لا يوافق خط المصحف، وقرأ عاصم فيما روى عنه أَبان، وزِرُّ بن حبيش: [عِدَّه] بكسر العين وهاءِ إِضمار، وهو عندي اسم لما يُعَد كالذِّبْح والقِتْل[2]، لأَن العدو سُمّي قِتْلا إِذ حقه أَن يقتل، هذا في معتقد العرب حين سمته.

و﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ نفوذهم لهذه الغزوة، والتَّثبيط: التكسيل وكسر العزم، وقوله: ﴿وَقِيلَ﴾ يحتمل أَن يكون حكاية عن الله تعالى، أَي: قال الله تبارك وتعالى في سابق قضائه: ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾، ويحتمل أَن يكون حكاية عنهم، أَي: كانت هذه مقالة بعضهم لبعض، إِما لفظاً وإِما معنى، فحُكي في هذه الأَلفاظ التي تقتضي لهم مذمة، إِذ القاعدون النساءُ والأَطفال، ويحتمل أَن يكون عبارة عن إِذن محمد ﷺ في القعود، أَي: لما كره الله خروجهم يسر أَن قلت لهم: ﴿ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾، والقعود هنا عبارة عن التخلف والتراخي كما هو في قول الشاعر:

. . . . واقعُدْ فإِنَّكَ أَنت الطَّاعِمُ الكَاسي[3]

---

(١) من الرَّوايّة في الأمر، وهي النظر وعدم العجلة، بمعنى التفكير فيه، قال ابن الأثير: الرّويّة: ما يُرَوِّي الإنسان في نفسه من القول والفعل، أي يُزَوّر ويفكر، وأصلها الهمز، يقال: روَّأتُ في الأمر. (عن اللسان).

(٢) الذِّبح والقِتْل بكسر الذال والقاف هو ما يُعَدّ للذَّبح والقَتْل، وفي التنزيل: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي: بِكَبْش يُذْبح، قال الأزهري: هو بمنزلة المذبوح والذَّبيح، وهو بمنزلة الطِّحْن بمعنى المطحون، والقِطْف بمعنى المقطوف، وفي حديث الضحية «فَدَعا بِذِبْح فذبحه». (عن اللسان).

(٣) البيت للحطيئة في قصيدة مشهورة قالها يهجو الزبرقان بن بدر، وهو بتمامه:
دَعِ المكارمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا ... واقعُدْ فإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسي
أيَ المطعوم المكسُوّ، ومعناه يحمل قسوة في الهجاء علّق عليها النقاد.

وليس للهيئة في هذا كله مدخل، وكراهية الله انبعاثهم رفق بالمؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم﴾ الآية... خبر بأَنهم لو خرجوا لكان خروجهم مضرّة، وقوله: [إِلاَّ خَبَالاً] استثناءٌ من غير الأول، وهذا قول من قدّر أنه لم يكن في عسكر رسول الله ﷺ خبال فيزيد المنافقون فيه، فكأَن المعنى: ما زادوكم قوة ولا شِدَّة لكن خبالا، ويحتمل أَن يكون الاستثناءُ غير منقطع، وذلك أن عسكر رسول الله ﷺ في غزوة تبوك كان فيه منافقون كثير ولهُم لا محالة خبال، فلو خرج هؤلاءِ، لالْتَأَموا مع الخارجين فزاد الخبال، والخبال: الفساد في الأَشياءِ المؤتلفة الملتحمة كالمودات وبعض الأَجرام، ومنه قول الشاعر:

يــا بَنـي لُبَيْنــى لَسْتُمَــا بِيــدِ ... إِلاَّ يَــداً مخْبُــولــةَ الْعضُــد[1]

وقرأ ابن أَبي عبلة: [مَا زَادكُمْ] بغير واو[2].

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ﴾ ومعناه: لأَسرعوا السَّير.

و[خِلاَلَكُمْ] معناه: فيما بينكم من هنا إلى هنا لسدّ الموضع الخلَّة بين الرجلين، والإِيضاع: سرعة السَّير[3]، وقال الزجاج: [خِلاَلَكُمْ] معناه: فيما يخل بكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وماذا يقول في قوله تعالى: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾[4]، وقرأَ مجاهد فيما حكى النقاش عنه: [وَلأَوْفَضُوا]، وهو بمعنى الإِسراع، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾[5]، وحُكي عن الزبير أنه قرأَ: [ولأَرْفَضُوا]، قال أبو الفتح: هذه من

---

(١) هذا البيت لأوس، أنشده الزَّجاج ليدلل على أن الخبال هو الفساد وذهاب الشيءِ، ذكر ذلك في اللسان، والرواية فيه:

أبَنـــي لُبَيْنـــى لَسْتُـــمُ بِيَـــدِ ... إلا يـــداً مخْبُـــولَـــةَ العَضُـــدِ

(٢) والمعنى: ما زادكم خروجهم إلاّ خبالاً.

(٣) ومنه قول دُرَيْد بن الصمة:

يــا لَيْتَنــي فيهــا جَــذَعْ ... أخُـــبُّ فيـــه وأَضَـــعْ

وقول الآخر:

أرانَــا مُــوضِعيــنَ لأمْــرِ غَيْــبِ ... ونُسْحَــرُ بــالطَّعَــام وبــالشَّــرَاب

(٤) الإسراء: ٥.

(٥) المعارج: ٤٣.

«رَفَضَ البعير» إذا أسرع في مشيه رفْضاً ورفضاناً، ومنه قول حسّان بن ثابت:

بِـزُجَـاجَـةٍ رفضَـتْ بِمـا فـي قَعْـرِهـا رفْضَ الْقَلُوصِ بِرَاكِبٍ مُسْتَعْجِلِ[(١)]

ووقعت «وَلاَ أَوْضَعوا» بألف بعد «لا» في المصحف، وكذلك وقعت في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُۥٓ﴾[(٢)]، قيل: وذلك لخشونة هجاءِ الأَوَّلين[(٣)]، قال الزجاج: وإنما وقعوا في ذلك لأَن الفتحة في العبرانية وكثير من الأَلسنة تكتب ألفاً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن تمطل حركة اللام فيحدث ألف بين اللام والهمزة التي من «أَوضع»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: يطلبون لكم الفتنة، وقوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ﴾ قال سفيان بن عُيَيْنَة، الحسن، ومجاهد، وابن زيد: معناه: جواسيس يستمعون الأخبار وينقلونها إليهم، ورجَّحه الطبري، وقال النقاش: بناءُ المبالغة يضعف هذا القول.

وقال جمهور المفسرين: معناه: وفيكم مطيعون سامعون لهم، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ توعد لهم ولمن كان من المؤمنين على هذه الصفة.

---

(١) قبل هذا البيت:

إنَّ الَّتـي نـاوَلْتَنـي فَـرَدَدْتُهـا قُتِلَتْ قُتِلْتَ فهاتِهَا لَمْ تُقْتَلِ
كِلْتَاهُمَـا حَلَبُ الْعَصِيرِ فعاطِنِي بِـزُجَـاجَـةٍ أَرْخَـاهُمـا لِلْمِفْصَـلِ

والقَلُوص: الفَتِيَّةُ من الإبل بمنزلة الجارية الفتاة من النساءِ، وقيل: هي الثَّنِيَّة، وقيل: هي كل أُنثى من الإبل حين تركب، وسميت قلوصاً لطول قوائمها وهي لم تَجْسُمْ بَعْد.

(٢) النمل: ٢١.

(٣) الأولين: هم السابقون جمع أَوّل، يريد أن هجاءهم لم يكن قد ناله التهذيب.

(٤) قال في «الكشاف»: «كانت الفتحة تكتب ألفاً قبل الخط العربي والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن، وقد بقي من ذلك الألف أثر في الطباع فكتبوا صورة الهمزة ألفاً أُخرى، ومثل ذلك ﴿لا أذبحنه﴾» وقال في الألوسي: «كتب قوله تعالى: (وَلاَ أَوْضَعُوا) في الإمام بألفين الثانية منهما هي فتحة الهمزة، والفتحة ترسم لها ألف كما ذكره الداني»، وكلام صاحب الكشاف فيه ما قاله الزجاج، ورأي ابن عطية قريب من رأي الألوسي، وهي كلها أقوال متقاربة.



قوله عزَّ وجلَّ:

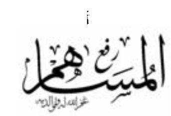
﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

في هذه الآية تحقير لهم ، وذلك أنه أخبر أنهم قديماً سعوا على الإسلام فأبطل الله سعيهم ، ومعنى قوله ﴿مِن قَبْلُ﴾ ما كان من حالهم منْ وقت هجرة رسول الله ﷺ ورجوعهم عنه في أُحد وغيرها ، ومعنى ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ دبروها ظهراً لبطن. ونظروا في نواحيها وأَقسامها ، وسعوا بكل حيلة ، وقرأ مسلمة بن محارب: [وَقَلَبُوا لَكَ] بالتخفيف في اللام ، و﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: الإسلام ودعوته.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ نزلت في الجدِّ بن قيس ، وذكر أن رسول الله ﷺ لما أَمر بالغزو إلى بلاد الروم حرَّض الناس فقال للجدِّ بن قيس: (هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟) ، وقال له وللناس: (اغزوا تغنموا بنات الأصفر) ، فقال له الجدُّ بن قيس: ائذن لي في التخلف ولا تفتِنِّي بذكر بنات الأَصفر ، فقد علم قومي أَني لا أَتمالك عن النساءِ إذا رأيتهن ، وذكر ابن إسحق نحو هذا من القول الذي فيه فتور كثير وتخلُّف في الاعتذار[1] ، وأَسند الطبري أن رسول الله ﷺ قال: «اغزوا تبوك تغنموا بنات الأَصفر» فقال الجدُّ: ائذن لي ولا تَفْتِنَّا بالنساءِ ، وهذا منزع غير الأَول إذا نُظر ، وهو أَشبه بالنفاق والمحادَّة[2]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الجَدَّ قال: «ولكني أُعينك بمالي» وتأول بعض الناس قوله: «ولا تَفْتِنِّي» أي: لا تصعب علي حتى

(١) أخرجه ابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في المعرفة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن جابر بن عبد الله مع اختلاف يسير في الألفاظ ، (الدر المنثور) (والسيرة النبوية عن ابن إسحق).

(٢) الحديث في تفسير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرجه ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه. (الدر المنثور).



أحتاج إلى مواقعة معصيتك ومخالفتك، فسَهِّل أنت عليَّ ودعني غير مُجَلِّح[(١)]، وهذا تأويل حسن واقف مع اللفظ، لكن تَظَاهَرَ ما رُوي من ذكر بنات الأصفر، وذلك معترض في هذا التأويل، وقرأ عيسى بن عمر: [وَلاَ تُفْتِنِّي] بضم التاء الأولى، قال أبو حاتم: هي لغة بني تميم، والأصفر هو الروم بن عيصو بن إسحٰق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وكان أصفر اللون فيقال للروم: بنو الأصفر، ومن ذلك قول أبي سفيان: «أَمِرَ أَمْرُ ابن أَبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأَصفر»، ومنه قوله الشاعر:

وبنُـو الأَصْفَـر الكِـرامُ ملـوكُ الـرُّو ... مِ لـم يَبْـق مِنْهُـمُ مَـذْكُـورُ[(٢)]

وذكر النقاش والمهدوي أن الأَصفر رجلٌ من الحبشة وقع ببلاد الروم، فتزوج وأَنسل بنات لَهُنَّ جمال، وهذا ضعيف، وقوله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي في الذي أَظهروا الفِرار منه بما تبيَّن لك وللمؤمنين من نفاقهم، وصحَّ عندكم من كفرهم، وفسد ما بينكم وبينهم.

و﴿سَقَطُوا﴾ عبارة مُنْبِئة عن تمكُّن وقوعهم، ومنه: «عَلى الخبير سَقَطْتَ»[(٣)]، ثم قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ وهذا توعد شديد لهم، أَي: هي مآلهم ومصيرهم كيفما تقلبوا في الدنيا فإليها يرجعون، فهي محيطة بهذا الوجه.

وقوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ الآية، أخبر تعالى عن معتقدهم وما هم عليه، والحسنة هنا بحسب الغزوة هي الغنيمة والظفر، والمصيبة الهزم والخيبة، واللفظ عام ـ بعد ذلك ـ في كل محبوب ومكروه. ومعنى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي قد حزمنا نحن في تخلفنا ونظرنا لأنفسنا.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا﴾ الآية. أَمَر الله عزَّ وجلَّ نبيَّه في هذه الآية أن يرد على المنافقين ويفسد عليهم فرحهم بأَن يعلمهم أَن الشيءَ الذي يعتقدونه مصيبة ليس

---

(١) من قولهم: جَلَّح في الأمر ركب رأسه فيه، أو أقدم عليه ومضى فيه.

(٢) البيت لعديّ بن زيد العباديّ.

(٣) قيل: إن هذا المثل لمالك بن جبير العامري أحد حكماء العرب، وقد تمثل به الفرزدق للحسين بن علي رضي الله عنهما حين أقبل يريد العراق والفرزدق يريد الحجاز، وذلك حين سأله الحسين بقوله: ما وراءَك؟ فأجابه قائلاً: «على الخبير سقطتَ»، قلوب الناس معك وألسنتهم مع بني أُمية والأمر ينزل من السماء. فقال الحسين رضي الله عنه: صَدقتني. (مجمع الأمثال للميداني) ١ ـ ٦٤٨.

كما اعتقدوه، بل الجميع مما قد كتبه الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين، فإمَّا أن يكون ظفراً وسروراً في الدنيا وإما أن يكون ذخراً للآخرة، وقرأ طلحة بن مصرّف: [قلْ هلْ يُصيبنَا] ذكره أبو حاتم، وعند ابن جني: وقرأ طلحة بن مصرف، وأعين قاضي الري: [قل لنْ يُصَيِّبنا] بشد الياءِ الثانية وكسرها، كذا ذكره أبو الفتح وشرح ذلك، وهو وهم، والله أعلم، قال أَبو حاتم: قال عمرو بن شفيق: سمعت أَعين قاضي الريّ يقرأ: [قُلْ لَنْ يُصيبنَّا] النون مشددة، قال أَبو حاتم: ولا يجوز ذلك لأَن النون لا تدخل مع «لن» ولو كانت لطلحة بن مصرف لجازت لأَنها مع «هل»، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾[1]. وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ يحتمل أَن يريد ما قضى وقدّر، ويحتمل أن يريد ما كتب الله في قرآننا وأَنزل علينا من أَنَّا إِما أن نظفر بعدونا وإِما أن نستشهد، فندخل الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الاحتمال يرجع إلى الأَول، وقد ذكرهما الزجَّاج.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ معناه: مع سعيهم وجدهم إِذ لا حولَ ولا قوة إِلا بالله، وهذا قول أَكثر العلماءِ، وهو الصحيح، والذي فعله رسول الله ﷺ مدَّة عمره، ومنه مظاهرته بين دِرْعَين، وتخبط الناس في معنى التوكل في الرزق، فالأَظهر والأَصح أن الرجل الذي يمكنه التَّحرف والحلال المحض الذي لا تدخله كراهية ينبغي له أن يمتثل منه ما يصونه ويحمله مثل الاحتطاب ونحوه، وقد قرن الله تبارك وتعالى الرزق بالتَّسبّب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[2].

ومنه قول النبي ﷺ في الطير: «تَغدو خِماصاً...» الحديث[3]، ومنه قوله ﷺ: «قَيِّدها وتوكَّل»[4]، وذهب بعض الناس إلى أن الرجل القوي الجلد إذا بلغ من التوكل

---

(١) الحج: ١٥.

(٢) مريم: ٢٥.

(٣) هذا جزءٌ من حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، عن عمر رضي الله عنه، وقد رمز له في «الجامع الصغير» بالصحة، ولفظه كاملاً: «لو أنكم تتوكلون على الله تعالى حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

(٤) رواه ابن خزيمة، والطبراني من حديث عمرو بن أُمية الضّمري بإسناد جيّد، وأما الرواية المشهورة=

إلى أن يدخل غاراً أو بيتاً يُجْهل أمرُه فيه ، ويبقى في ذكر الله متوكلاً يقول: إن كان بقي لي رزق فسيأْتي الله به ، وإن كان رزقي قد تَمَّ مِتُّ ـ إن ذلك حسنٌ بالغ عند قوم ، وحدثني أَبي رضي الله عنه أنه كان في الحرم رجل ملازم يُخرج من جيبه المرة بعد المرة بطاقة ينظر فيها ثم يصرفها ويبقى على حاله حتى مات في ذلك الموضع ، فقرأْت البطاقة فإِذا فيها مكتوب: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[1] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الطريقة لا يراها جُلُّ أَهل العلم ، بل ينبغي أن يسعى الرجل لقدر القوت سعياً جميلاً لا يواقع فيه شبهة ، فإِن تعذر عليه ذلك وخرج إلى حد الاضطرار ، فحينئذ إن تسامح في السؤال وأكل الميتة وما أمكنه من ذلك فهو له مباح ، وإن صبر واحتسب نفسه كان في أَعلى رتبة عند قوم ، ومن الناس من يرى أنَّ فرضاً عليه إبقاءُ رمقه.

وأمَّا من يختار الإِلقاءَ باليد ـ والسَّعْيُ ممكن ـ فما كان هذا قطُّ من خلق الرسول ﷺ ولا الصحابة ولا العلماء ، والله سبحانه الموفق للصواب ، ومِنْ حُجَج مَنْ يقول بالتوكل حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: «يدخل الجنة سبعون أَلفاً من أُمتي بلا حساب ، وهم الذين لا يَرْقُون ولا يَسْترْقُونَ ولا يكتوون ولا يتطببون ، وعلى ربهم يتوكلون»[2] ، وفي هذا الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لعُكَّاشَة بن محصن[3] أن

= (اعْقِلها وتَوَكَّل) فقد أخرجها الترمذي عن أنس كما قال في الجامع الصغير حيث رمز لها بالضعف ، لكن رواها ابن حبان في صحيحه عن عمرو بن أُمية الضمري بإسناد صحيح. (راجع شرح المناوي للجامع الصغير).

(١) الطور: ٤٨.

(٢) حديث متفق عليه ، وقد رواه البخاري في كتاب الرقاق ، ورواه مسلم في كتاب الجنة وكتاب الإيمان ، وفي الرواية أن النبي ﷺ قال: «عُرضت عليّ الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرُّهَيْط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رُفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أُمتي ، فقيل لي: هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي: هذه أُمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب» ، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أُولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقال بعضهم: فلعلَّهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياءَ ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «ما الذي تخوضون فيه»؟ فأخبروه فقال: : «هم الذين لا يَرْقُون. . . الخ».

(٣) هو عكَّاشة (بتشديد الكاف) بن محصن بن حرثان الأسدي ، من بني غنم ، صحابي من أُمراء السرايا ، =



يكون منهم، فقيل: ذلك لأنه عرف منه معدٌّ أنّه لذلك، وقال للآخر: سبقك بها عكاشة، وبردت الدعوة، فقيل: ذلك لأنه كان منافقاً، وقيل: بل عرف منه أنه لا يصلح لهذه الدرجة من التوكل.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

فالمعنى في هذه الآية الردّ على المنافقين في معتقدهم في المؤمنين، وإزالة ظنهم أن المؤمنين تنزل بهم مصائب، والإعلام بأنها حسنى كيف تصرفت.

و﴿تَرَبَّصُونَ﴾ معناه: تنتظرون، والحُسنَيان: الشهادة والظَّفَر[1]، وقرأ ابن محصين: [إلا احدى الحسنين] بوصل ألف ﴿إِحْدَى﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه لغة وليست بالقياس، وهذا نحو قول الشاعر:

يا بالْمُغيرة ربَّ أَمْرٍ مُعْضِلٍ[2]

وقول الآخر:

إن لَمْ أُقَاتِلْ فَالْبِسيني بُرْقُعا[3]

= يُعَدّ من أهل المدينة، شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ، وقتل في حرب الردَّة ببزاخة (بأرض نجد)، قتله طلحة بن خويلد الأسدي سنة ١٢ هـ. (عن الإصابة، والروض الأنف، والأعلام).

(١) في الحديث الشريف: «تكفَّل الله لمن جاهد في سبيله لا يُخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخل الجنة أو يرجع إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة»، وهو حديث طويل رواه مسلم، وروى البخاري بعضه ـ عن أبي هريرة. (منهاج الصالحين).

(٢) أعضله الأمر: غَلَبه، ويقال: أمْر عُضال ومُعْضل، فأوله عُضال فإذا لَزِمَ فهو مُعْضل، والشاهد في البيت هو وصل همزة «أبا».

(٣) البُرْقُع «بضم الباءِ والقاف»، والبُرْقَع «بضم الباء وفتح القاف»، والبُرْقوع: معروف، وهو للدوابّ ونساءِ الأعراب، وفيه خَرْقان للعينين، قال توبة بن الحمير:

وكنْتُ إذا ما جئْتُ ليلَى تبَرْقَعَتْ ... فقد رابني منْها الغَدَاة سُفُورَها

والشاهد في البيت الذي أورده ابن عطية وصل الهمزة في «فَالْبسيني».



وقوله: ﴿ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ ﴾ يريد الموت بإحداث الأَسف ، ويحتمل أن يكون توعداً بعذاب الآخرة ، وقوله: ﴿ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ يريد القتل.

وقيل: ﴿ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ ﴾ يريد أَنواع المصاعب والقوارع. وقوله: ﴿ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ وعيد وتهديد.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ سببها أَن الجدّ بن قيس حين قال: ﴿ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ﴾ قال: «إني أُعينُكَ بمال» فنزلت هذه الآية فيه ، وهي عامة بعده. والطَّوْعُ والكَرْهُ يعمان كل إِنفاق ، وقرأَ ابن وثاب ، والأَعمش: [أَوْ كُرْهاً] بضم الكاف.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتصل هنا ذكر أَفعال الكافر إِذا كانت بِرّاً كصلة القرابة وجبر الكسير وإِغاثة المظلوم ، هل ينتفع بها أَم لا؟ فاختصار القول في ذلك أَن في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن ثواب الكافر على أَفعاله البرَّة هو في الطعمة يطعمها» ونحو ذلك ، فهذا مُقنع لا يحتاج معه إلى نظر ، وأَما أن ينتفع بها في الآخرة فلا دليل ، ذلك أَن عائشة أُم المؤمنين قالت للنبي ﷺ: يا رسول الله ، أَرأَيت عبد الله بن جُدْعان ، أَينفعه ما كان يطعم ويصنع من خير؟ فقال: «لا ، إِنه لم يقل يوماً: ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين»(١) ، ودليل آخر في قول عمر رضي الله عنه لابنه: «ذاك العاصي بن وائل لا جزاه الله خيراً» ، وكان هذا القول بعد موت العاصي ، الحديث بطوله ، ودليل ثالث في حديث حكيم بن حزام على أَحد التَّأْوِيلَيْن ، أَعني في قول النبي ﷺ: «أَسلمتَ على ما سلف لك من خير» ، ولا حجة في أَمر أَبي طالب وكونه في ضحضاح من نار(٢) لأن ذلك إِنما هو بشفاعة محمد ﷺ ، وبأَنه وجده في غمرة من النار فأَخرجه ، ولو

---

(١) الحديث في «صحيح مسلم» ، وعبد الله بن جُدْعان (بضم الجيم وسكون الدال) التيمي القرشي ، أحد الأجواد المشهورين في الجاهلية ، أدرك النبي ﷺ قبل النبوة ، وكانت له جفنة يأكل منها الطعامَ القائمُ والراكبُ ، وهو الذي خاطبه أُمية بن أبي الصلت بأبيات منها:

أَأَذكُرُ حاجتي أم قَدْ كفَاني ... حياؤك؟ إنَّ شِيمَتَكَ الْحَيَاءُ

(٢) روى مسلم عن العباس قال: قلت: يا رسول الله ، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ، فهل نفعه ذلك؟ قال: «نعم ، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح».

والضحضاح في الأصل: ما رقّ من الماء على وجه الأرض ، ما يبلغ الكعبين ، فاستعاره للنار.



فرضنا أن ذلك بأعماله لم يحتج إلى شفاعة[(١)].

وأما أفعال الكافر القبيحة، فإنها تزيد في عذابه، وبذلك تفاضلهم في عذاب جهنم.

وقوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ﴾ أمر في ضمنه جزاءٌ، وهذا مستمر في كل أمر معه جواب، فالتقدير: «إن تنفقوا لن يتقبل منكم»، وأما إذا عُرّي الأمر من جواب، فليس يصبه تضمن الشرط.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

يحتمل أن يكون معنى الآية: وما منعهم الله أن تقبل إلاَّ لأجل أنهم كفروا بالله، فـ ﴿أن﴾ الأولى ـ على هذا ـ في موضع خفض نصبها الفعل حين زال الخافض، و[أنَّ] الثانية في موضع نصب مفعول من أجله، ويحتمل أن يكون المعنى: وما منعهم الله قبول نفقاتهم إلاَّ لأجل كفرهم، فالأُولى ـ على هذا ـ في موضع نصب، ويحتمل أن يكون المعنى: وما منعهم قبولَ نفقاتهم إلا كفرُهم، فالثانية في موضع رفع فاعلة.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم: ﴿أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾، وقرأَ حمزة، والكسائي، ونافع ـ فيما روي عنه ـ: [أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُم] بالياءِ، وقرأَ الأَعرج بخلاف عنه: [أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُم] بالتاءِ من فوق وإفراد النفقة، وقرأَ الأَعمش: [أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُم صدقَاتُهم]، وقرأَت فرقة [أَنْ نَقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُم] بالنون ونصب النفقة.

---

(١) أما غير أبي طالب فقد أوضح التنزيل أمرهم بقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ وقال مخبراً عن الكافرين: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.
ولولا شفاعة الرسول ﷺ لأبي طالب لكان كغيره، ويتبين ذلك مما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه»، ومن حديث العباس رضي الله عنه: «ولولا أنا لكان في الدَّرك الأسفل من النار». (ذكر ذلك القرطبي).



و﴿كُسَالَىٰ﴾: جمع «كسْلان»، و«كسلان» إذا كانت مؤنثة «كَسْلى» لا ينصرف بوجه، وإِن كانت مؤنثة «كسلانة» فهو ينصرف في النكرة.

ثم أَخبر عنهم تبارك وتعالى أَنهم لا ينفقون نفقة إلا على كراهية، إذِ لا يقصدون بها وجه الله ولا محبة المؤمنين، فلم يبق إلا فقد المال وهو من مكارههم لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ الآية، حقَّر هذا اللفظ شأْن المنافقين وعلَّل إِعطاءَ الله لهم الأَموال والأَولاد بإِرادته تعذيبهم بها، واختلف في وجه التعذيب، فقال قتادة: في الكلام تقديم وتأْخير، فالمعنى: فلا تعجبك أَموالهم ولا أَولادهم في الحياة الدنيا، إِنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة، وقال الحسن: الوجه في التعذيب أَنه بما أَلزمهم فيها من أَداءِ الزكاة والنفقة في سبيل الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فالضمير في قوله: ﴿بِهَا﴾ عائد ـ في هذا القول ـ على الأَموال فقط.

وقال ابن زيد وغيره: التعذيب هو مصائب الدنيا، ورزاياهم هي لهم عذاب، إذ لا يؤجرون عليها، وهذا القول وإن كان يستغرق قول الحسن، فإن قول الحسن يتقوى تخصيصه بأن تعذيبهم بإِلزام الشريعة أعظم من تعذيبهم بسائر الرزايا، وذلك لاقتران الذلة والغلبة بأَوامر الشريعة لهم.

وقوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ يحتمل أَن يريد: ويموتون على الكفر، ويحتمل أَن يريد: وتزهق أَنفسهم من شدة التعذيب الذي ينالهم[1].

وقوله: ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ جملة في موضع الحال على التأْويل الأَول، وليس يلزم ذلك على التأْويل الثاني.

---

(١) قال القرطبي في هذه الآية: «نَصٌّ في أن الله يريد أن يموتوا كافرين، سبق بذلك القضاءُ»، وأشار ابن عطية إلى هذا الرأي في الاحتمال الأول الذي ذكره، وقال الرماني والزمخشري: «المعنى: إنما يريد الله أن يملي لهم ويستدرجهم ليعذبهم»، ووضحه الزمخشري بقوله: «كأنه قيل: ويريد أن يديم عليهم نعمته إلى أن يموتوا وهم كافرون ملتهون بالتمتع عن النظر إلى العاقبة»، وأراد أبو حيان أن يدفع شبهة المعتزلة فوضح المعنى بقوله: «والذي يظهر من حيث عطف (وَتَزْهَق) على (لِيُعَذِّب) أن المعنى: ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ونبّه على عذاب الآخرة بعلّته وهو زهوق أنفسهم على الكفر، لأن من مات كافراً عُذِّب في الآخرة».



وقوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ الآية ، أَخبر الله تعالى عن المنافقين أَنهم يحلفون أَنهم من المؤمنين في الدِّين والشريعة ، ثم أَخبر تعالى عنهم ـ على الجملة لا على التعيين ـ أَنهم ليسوا من المؤمنين ، وإنما هم يفزعون منه فيظهرون الإيمان وهم يبطنون النفاق ، والفرق: الخوف ، والفَرُوقَةُ: الجبان[١] ، وفي المثل: «فَرَقٌ خَيْرٌ مِنْ حُبَّيْن»[٢].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾.

المَلْجَأُ: من لجأَ يَلْجأُ إذا أَوى واعتصم ، وقرأَ جمهور الناس: ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ﴾ بفتح الميم ، وقرأَ سعيد بن عبد الرحمن بن عوف: [أو مُغَارَاتٍ] بضم الميم ، وهي الغيران في أَعراض الجبال ، فَفَتْحُ الميم من: «غار الشيءُ» إذا دخل ، كما تقول: «غارت العين» ، إِذا دخلت في الحِجَاج[٣] ، وضمُّ الميم من: «أَغار الشيءُ غيرَه» إذا أَدخله ، فهذا وجه من اشتقاق اللفظة ، وقيل: إن العرب تقول: «غار الرجلُ وأَغار» بمعنى واحد ، أَي دخل. قال الزجاج: إذا دخل الغور ، فيحتمل أن تكون اللفظة أَيضاً من هذا.

---

(١) يقال: رجل فَرِقٌ وفَرُقٌ وفَرُوقٌ وفَرُوقَةٌ وفَرُّوقٌ وفَرُّوقَةٌ: فزِعٌ شديد الفَزَع. (اللسان).

(٢) صيغة هذا المثل كما ذكره الميداني: «فَرَقاً أَنْفَع من حُبٍّ» ، وأول من قاله الحجاجُ للغضبان بن القبعثري الشيباني ، وكان قد قال لأهل العراق حيث خلفوا الحجاج بقيادة ابن الجارود وأهل البصرة: «يا أهل العراق تعشَّوا الجدي قبل أن يتغذاكم» ، فلما قتل الحجاج ابن الجارود قبض على الغضبان وجماعة ، لكن عبد الملك بن مروان أمر بإخراجهم من السجن ، وطلب الحجاج الغضبان وقال له: إنك لسمين ، قال: من يكن ضيف الأمير يسمن ، فقال: أأنت قلت لأهل العراق: تعشوا الجدي قبل أن يتغذاكم؟ قال: ما نفعت قائلها ولا ضرت من قيلت فيه ، فقال الحجاج: «أو فرقاً خير من حُبٍّ» فأرسلها مثلاً يضرب في موضع قولهم: «رهبوت خير من رحموت» ، أي: لأن يفرق منك فرقاً خير من أن تموت. (مجمع الأمثال للميداني).

(٣) الحَجاج بفتح الحاء وبكسرها: العظم المستدير حول العين ، وفي الحديث: «كانت الضبع وأولادها في حجاج عين رجل من العماليق». (النهاية في غريب الحديث ـ لابن الأثير).

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويصح في قراءة ضم الميم أن تكون من قولهم: «حبْل مُغَارٌ» أي مفتول، ثم يستعار ذلك في الأمر المحكم المبرم فيجيءُ التأْويل على هذا: لو يجدون عُصْرَةً[١] أَو أُموراً مرتبطة مشددة تعصمهم منكم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ وقرأَ جمهور الناس: ﴿مُدَّخَلًا﴾ أصله مُفْتَعل، وهو بناءُ تأْكيد ومبالغة، ومعناه: السَّرب والنَّفَق[٢] في الأَرض. وبما ذكرناه في «الملجأ والمغارات والمدخل» فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الزجاج: المدَّخل معناه: قومٌ يدخلونهم في جملتهم. وقرأَ مسلمة بن محارب، والحسن، وابن أَبي إِسحق، وابن محيصن، وابن كثير بخلاف عنه: [أَو مَدْخلاً] فهذا من دَخَل، وقرأَ قتادة، وعيسى بن عمر، والأَعمش: [أَو مُدَّخَّلاً] بتشديدهما[٣]، وقرأَ أَبي بن كعب: [مُنْدخلا] بنون، قال أَبو الفتح: هذا كقول الشاعر:

. . . . ولاَ يَدِي في حَمِيتِ السَّمْنِ تَنْدَخِلُ[٤]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقال أَبو حاتم: قراءَة أُبي بن كعب: [مُتدَخلا] بتاءٍ مفتوحة، وروي عن الأَعمش، وعيسى: [مُدْخلاً] بضم الميم فهو من أَدْخل.

وقرأَ الناس: ﴿لَّوَلَّوْا﴾، وقرأَ جدُّ أَبي عبيدة بن قرمل[٥]: [لَوالَوا] من الموالاة،

---

(١) العُصْرة: الملْجأُ والمنجاة، يقال: عَصَر بالشيءِ واعتَصَر به: لجأ إليه. (اللسان).

(٢) السَّرَبُ بفتح السِّين المشددة والراءِ: حفير تحت الأرض، وقيل: بيت تحت الأرض، وهو أيضاً: جحر الثعلب والأسد والضبع والذئب. والنَّفق: مثله وزناً ومعنى، والجمع منهما أسراب وأنفاق.

(٣) يريد بتشديد الدال والخاء.

(٤) البيت للكميت، وهو بتمامه:

لا خَطْـوَتِـي تَتَعـاطَـى غَيْـرَ مَـوْضِعِهَـا ... ولا يَـدِي فـي حَمِيتِ السَّمْـنِ تَنْـدَخِـلُ

قال في اللسان: وليس بالفصيح، ورواية «البحر» و«الألوسي» مثل رواية ابن عطية: السَّمْن والذي في «اللسان» و«التاج»: «في حَميتِ السَّكْن» بسكون الكاف، اسم جمع لساكن، مثل ركْب وراكب، وصحْب وصاحب، والحَميتُ هو الزِّقُّ الذي نتف ما عليه من شعر، وهو للسَّمْن.

(٥) هكذا في جميع النسخ التي بأيدينا، ورواية «البحر» أوضح، ولفظها: «وَرَوى ابن أبي عبيدة ابن معاوية بن نَوْفَل، (بدلاً من «قرمل») «عن أبيه عن جدّه وكانت له صُحْبة». والصحيح: معاوية بن قرمل كما في الإصابة.

وأنكرها سعيد بن مسلم وقال: أَظُنُّها: «لَوأَلُوا» بمعنى «لَجؤوا»[١] وقرأ جمهور الناس: ﴿يَجْمَحُونَ﴾، ومعناه: يسرعون مصمّمين غير مُنْثَنين، ومنه قول مهلهل:

لَقَدْ جَمَحْتُ جماحاً في دمائِهِمُ ... حَتَّى رأَيتُ ذَوي أحسَابِهِم خَمَدوا[٢]

وقرأ أَنس بن مالك: [يجْمِزُونَ] ومعناه: يهربون، ومنه قولهم في حديث الرَّجم: «فلَمَّا أَذْلَقَتْهُ الحِجَارَةُ جَمَزَ»[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ الآية. الضمير في قوله: ﴿وَمِنْهُم﴾ عائد على المنافقين، وأَسند الطبري إلى أبي سعيد الخدري أنه قال: جاءَ ابن ذي الخُوَيْصِرَة التميمي[٤] ورسول الله ﷺ يقسم قسماً فقال: «اعدل يا محمد» الحديث المشهور بطوله، وفيه: قال أَبو سعيد: فنزلت في ذلك ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[٥]. وروى داود ابن أَبي عاصم أن النبي ﷺ أُتي بصدقة فقسمها ووراءَه رجل من الأنصار فقال: «ما هذا بالعدل» فنزلت الآية[٦].

---

(١) قال في اللسان: وأَلَ إليه وألا وَوُؤُلا وَوَئيلا وواءَلَ مُوَاءَلَةً ووِئالا: لَجَأَ، والمَوْئِل: المَلْجأُ.

(٢) الجُمُوح هو الإسراع الذي لا يرَده شيءٌ، ومنه قولهم: «فرس جموح» وهو الذي لم يردَّه اللجام، ونقل في اللسان عن الأزهري أن هذا قد يكون عيباً في الفرس، وهذا إذا كان من عادته ركوب الرأس، ويسمى جِمَاحاً، وقد يكون مدحاً للفرس بمعنى السرعة والنشاط ومصدره الجمُوح، ومنه قول امرىء القيس:

جَمُـوحـاً مَـرُوحـاً وإِحْضَـارُهَـا ... كَمَعْمَعَـةِ السَّعَـفِ الْمُـوَقَـدِ

لكن بيت المهلهل لا ينطبق عليه هذا الكلام، فهو يصور سرعته التي لا تنثني في إسالة دمائهم حتى قضى عليهم، والبيت في رواية «البحر المحيط»: حتى رأيت ذوي أَجْسَامِهِم جمدوا.

(٣) جاء ذلك في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفي الحديث أنه ﷺ قال له: «لعلَّك قبّلت، أو غمزت أو نظرت...» فقال: لا يا رسول الله، فأمر برجْمِهِ، فلما أَذْلَقَتْهُ الحجارة جَمَزَ وَفَرَّ»، ومعنى أَذْلَقَتْه: بلغت منه الجَهْدَ حتَّى قَلِقَ، ومعنى جَمَزَ: أَسْرَعَ هارباً من القتل.

(٤) اسمه حُرْقُوص بن زهير، وفي القرطبي والدر المنثور وتفسير ابن كثير أنه هو ذو الخوَيْصِرة وليس ابنه، وأنه أصل الخوارج.

(٥) هذا حديث طويل، أخرجه البخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وفيه أن النبي ﷺ قال: «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟» فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، ائذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال ﷺ: «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم».. الخ. (الدر المنثور، وابن كثير، والشوكاني).

(٦) أخرجه سنيد، وابن جرير. (الدر المنثور).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه نزعة منافق ، وكذلك روي من غير طريق أن الآية نزلت بسبب كلام المنافقين إذْ لَمْ يعطوا بحسب شطط آمالهم.

و﴿ يَلْمِزُكَ﴾ معناه: يعيبك ويأخذ منك في الغيبة ، ومنه قول الشاعر:

إِذَا لَقِيتُكَ تُبْدِي لِي مُكَاشَرَةً وإِنْ أَغِيبُ فأَنت الْهامِزُ اللَّمِزُ[١]

ومنه قول رؤبة:

. . . . في ظِلِّ عَصْرَي باطِلِي ولَمْزِي[٢]

والهمز أيضاً في نحو ذلك ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾[٣] ، وقيل لبعض العرب: أتهمز الفأرة؟ فقال: إنها تَهْمزها الهرَّة ، قال أبو علي: فجعل الأكل همزاً ، وهذه استعارة كما استعار حسّان بن ثابت الغَرَث في قوله:

. . . . وتُصْبِحُ غَرْثَى من لُحوم الْغَوَافِلِ[٤]

---

(١) رواه في اللسان ولم ينسبه ، ولفظه فيه:

إذا لَقيتُك عَنْ شَحْطٍ تُكاشِرُني وإنْ تَغَيَّبْتُ كنتَ الهامِزَ اللَّمِزُ

وفي بعض النسخ: فأنت الهامزُ اللُّمَزَةْ. والمكاشرة: الابتسام في وجه من تلقاه: تبتسم في وجهه والقلب يكرهه ، روي عن أبي الدرداء «إنا لنكْشِرُ في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتَقْليهم» أي تكرههم ، والهمز واللمز هو اغتياب الناس والغض منهم.

(٢) هما بيتان من مشطور الرَّجز ، قالهما رؤبة في أُرجوزة له ص ٦٤ من ديوانه (طبعة ليبسك سنة ١٩٠٣) يقول فيهما:

قَارَبْتُ بَيْنَ عَنَقِي وجَمْزِي في ظِلِّ عَصْرَى باطِلِي ولَمْزِي

والعَنَق (بفتح العين والنون): ضرب من سير الإبل والدابة ، وهو سير منبسط ، قاله في اللسان ، ومعناه: سيرممتد ، والجَمْز: مصدر جَمَزَ الإنسان والبعير والدابة جَمْزاً ، وهو عَدْوٌ دون الحُضْر الشديد وفوق العَنَق ، ومما روي في العَنَق قول الراجز:

يا ناقُ سِيرِي عَنَقاً فسِيحَا إلى سُلَيْمَانَ فَنَسْتَرِيحَا

(٣) الهمزة: ١.

(٤) هذا عجز بيت قاله حسَّان في أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ، والبيت بتمامه:

حَصَانٌ رزانٌ ما تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وتُصْبح غَرْثَى من لحُوم الغَوَافِل

والغَرَثُ: أيْسَر الجوع ، وقيل شدته ، وقيل: هو الجوع عامة ، وفي حديث علي رضي الله عنه: «أبيت مبطاناً وحولي غَرْثَى»؟ وحسّان رضي الله عنه يصور امتناع عائشة رضي الله عنها عن الخوض في أعراض الغافلات في صورة الجائعة التي امتنعت عن أكل اللحوم.



تركيباً على استعارة الأَكل في الغيبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولم يجعل الأعرابي الهمزَ الأَكل، وإِنما أَراد ضربها إِياها بالناب والظفر، وقرأَ جمهور الناس: ﴿ يَلْمِزُكَ ﴾ بكسر الميم، وقرأَ ابن كثير فيما روى عنه حماد بن سلمة [يلمُزك] بضم الميم، وهي قراءَة أهل مكة وقراءَة الحسن، وأَبي رجاءٍ، وغيرهم، وقرأَ الأعمش: [يُلَمِّزُكَ][1] وروى أيضاً حمَّاد بن سلمة عن ابن كثير: [يُلامِزُكَ]، وهي مفاعلة من واحد لأَنه فعل لم يقع من النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ الآية.

وصف للحال التي ينبغي أن يكون عليها المستقيمون، يقول تعالى: «ولو أن هؤلاء المنافقين رضوا قسمة الله الرزق لهم وما أعطاهم على يدي رسوله ورجوا أَنفسهم فضل الله ورسوله، وأَقروا بالرغبة إلى الله، لكان خيراً لهم وأفضل مما هم فيه». وحذف الجواب من الآية لدلالة ظاهر الكلام عليه، وذلك من فصيح الكلام وإيجازه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ ۞ إِنَّمَا ﴾ في هذه الآية حاصرة تقتضي وقوف الصدقات على الثمانية الأَصناف، وإنما اختلف في صورة القسمة ـ فقال مالك وغيره: ذلك على قدر اجتهاد الإمام وبحسب أَهل الحاجة، وقال الشافعي رحمه الله، هي ثمانية أَقسام على ثمانية أَصناف لا يخل بواحد منها إلا أَن المؤلفة انقطعوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويقول صاحب هذا القول: إنه لا يجزي المتصدق والقاسم من كل صنف أَقل من ثلاثة.

---

(١) بضم الياءِ وتشديد الميم المكسورة. (راجع فتح القدير للشوكاني).



وأَما الفقير والمسكين ـ فقال الأَصمعي ، وغيره: الفقير أَبلغ فاقة ، وقال غيرهم: المسكين أبلغ فاقة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا طريق إلى هذا الاختلاف ولا إلى الترجيح إلا النظر في شواهد القرآن ، والنظر في كلام العرب وأَشعارها ، فمن حجة الأَولين قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾[1] .

واعترض هذا الشاهد بوجوه منها: أَن يكون سمَّاهم مساكين بالإضافة إلى الغاصب وإن كانوا أَغنياءَ على جهة الشفعة ، كما تقول في جماعة: «تظلم مساكين لا حيلة لهم» ، وربما كانوا مياسير ، ومنها أنه قرىءَ [لِمسَّاكِينَ] بشد السين بمعنى: دبَّاغين يعملون المسوك[2] ، قاله النقاش وغيره ، ومنها أن تكون إضافتها إليهم ليست بإضافة مِلْك ، بل لما كانوا عاملين بها ، فهي كما تقول: سرج الفرس ، وباب الدار.

ومن حجة الآخرين قول الراعي:

أَمَّا الفقيرُ الذي كانَتْ حَلُوبَتُهُ وفْقَ الْعيالِ فلم يُتْرَكْ له سبدُ[3]

وقد اعترض هذا الشاهد بأَنه إنما سمّاه فقيراً بعد أن صار لا حلوبة له ، وإنما ذكر الحلوبة بأَنها كانت ، وهذا اعتراض يردّه معنى القصيدة ، ومقصد الشاعر بأَنَّه إنما يصف سعاية أتت على مال الحي بأَجمعه فقال: أَما الفقير فاستؤصل ماله فكيف بالغني مع هذه الحالة؟ وذهب من يقول إن المسكين أبلغ فاقة إلى أنه مشتق من السكون ، وأن الفقير مشتق من فقار الظهر ؛ كأنه أُصيب فقاره ، وذهب من يقول إن الفقير أبلغ فاقة إلى أنه مشتق من فقرت البئر إذا نزعت جميع ما فيها ، وأن المسكين من السكن.

---

(١) الكهف: ٧٩.

(٢) المُسُوك: جمع مَسْكٍ بفتح الميم وسكون السّين ، وهو الجلد.

(٣) قال الراعي ذلك يمدح عبد الملك بن مروان ويشكون إليه سُعَاتَه: والحَلُوبة: الناقة التي تحلب ، ويقال: حلوب ولكن الهاءَ أكثر ؛ لأنها بمعنى مفعولة ، والسَّبَد محرّكة: الوَبَر ، وقيل: الشعر ، ومن أقوالهم: «مَالَه سَبَدٌ ولا لَبَدٌ» ، أي ليس له ذُو وَبَر ولا صوف متلَبّد ، كناية عن الإبل والغنم ، ومعنى «وَفْقَ العيال» أن حَلُوبته لها لبن قدر كفايتهم ولا يبقى منه شيءٌ بعدهم.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومع هذا الاختلاف فإنهما صنفان يعمهما الإقلال والفاقة، فينبغي أن نبحث عن الوجه الذي من أجله جعلهما الله اثنين والمعنى فيهما واحد، وقد اضطرب الناس في هذا، فقال الضحاك بن مزاحم: الفقراءُ هم من المهاجرين، والمساكين من لم يهاجر، وقال النخعي نحوه، قال سفيان: لا يعطى فقراءُ الأعراب منها شيئاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمِسْكين: السائل يعطى في المدينة وغيرها، وهذا القول هو حكاية الحال وقت نزول الآية، وأما منذ زالت الهجرة فاستوى الناس، وتعطى الزكاة لكل متصف بفقر، وقال عكرمة: الفقراءُ من المسلمين، والمساكين من أهل الذمة، ولا تقولوا لفقراءِ المسلمين: مساكين، وقال الشافعي في كتاب ابن المنذر: الفقير: من لا مال له ولا حرفة سائلاً كان أو متعففاً، والمسكين: الذي له حرفة أو مال ولكن لا يغنيه ذلك سائلاً كان أو غير سائل، وقال قتادة بن دعامة: الفقير: الزَّمن[(١)] المحتاج، والمسكين: الصحيح المحتاج، وقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والزهري، وابن زيد، وجابر بن زيد، ومحمد بن مسلمة: المساكين: الذين يسعون ويسألون، والفقراءُ هم الذين يتصاونون، وهذا القول الأخير ـ إذا لُخِّص وحُرِّر ـ أحسن ما يقال في هذا.

وتحريره أن الفقير هو الذي لا مال له، إلا أنه لم يذل ولا بذل وجهه، وذلك إما لتعفف مفرط وإما لِبُلْغَةٍ تكون له كالحلوبة وما أشبهها، والمسكين هو الذي يقترن بفقره تذلل وخضوع وسؤال، فهذه هي المسكنة، فعلى هذا كلُّ مسكين فقير وليس كل فقير مسكيناً، ويقوّي هذا أن الله تعالى قد وصف بني إسرائيل بالمسكنة وقرنها بالذلّة مع غناهم، وإذا تأملت ما قلناه، بان أنهما صنفان موجودان في المسلمين، ويُقوي هذا قوله تبارك وتعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾[(٢)]، وقيل لأعرابي:

(١) يقال: رجلٌ زَمِنٌ أي مُبْتَلىً بيّن الزَّمانة وهي العاهة، والجمع: زَمِنون، ويقال: رجل زَمِينٌ، والجمع: زَمْنى.
(٢) البقرة: ٢٧٣.



أَفقير أنت؟ فقال: إني والله مسكين، وقال النبي ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطَّوَّاف الذي تردُّه اللقمة واللقمتان، ولكن المسكين هو الذي لا يجد غنىً يغنيه، ولا يُفْطن له فيُصَدَّق عليه، اقرؤوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ﴾»[1]، فدل هذا الحديث على أن المسكين في اللغة هو الطّواف، وجرى تنبيه النبي ﷺ في هذا الحديث على المتصاون مَجْرى تقديم الفقراءِ في الآية لمعنى الاهتمام، إذ هم بحيث إن لم يُتَهَمَّم بهم هلكوا، والمسكين يُلِحُّ ويُذكِّر بنفسه.

وأما العامل فهو الرجل الذي يستنيبه الإمام في السعي على الناس وجمع صدقاتهم، وكل من يصرف من عون لا يستغني عنه، فهو من العاملين؛ لأنه يحشر الناس على الساعي[2]، وقال الضحاك: للعاملين ثمن ما عملوا على قسمة القرآن، وقال الجمهور: لهم قدر تَعَبِهِمْ ومؤنته، قاله مالك، والشافعي في كتاب ابن المنذر، فإن تجاوز ذلك ثمن الصدقة فاختُلف ـ فقيل: يتم لهم ذلك من سائر الأَنصباءِ، وقيل: بل يتم لهم ذلك من خُمس الغنيمة. واختُلف إذا عمل في الصدقات هاشمي ـ فقيل: يعطى منها عُمالته[3]، وقيل: بل يعطاها من الخُمس، ولا يجوز للعامل قبول الهدية والمصانعة ممن يسعى عليه، وإن فعل ذلك رُدّ في بيت المال كما فعل النبي ﷺ بابن اللُّتْبية[4] حين استعمله على الصدقة فقال: «هذا لكم وهذا أُهدي إلي»، فقال النبي ﷺ: «هَلاً قعدتَ في بيت أَبيك وأُمك حتى تعلم ما يُهدى لك»؟، وأخذ الجميع منه[5].

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان عن أبي هريرة، وفيه «تردُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان»، ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

(٢) كل من يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة وجبايتها يسمون السعاة وجباة الصدقة ويقال للواحد: الساعي وجابي الصدقة، قال الشاعر:

إن السُّعـاةَ عَصَـوْكَ حِيـنَ بَعَثْتَهـم ... لَـمْ يَفْعَلُـوا مِمَّـا أَمَـرْتَ فَتِيـلا

(٣) قال الأزهري وحكاه في اللسان: «العمالة بالضم: رزق العامل الذي جُعل له على ما قُلِّد من عمل»، والكسر لغة، قاله في المصباح، وفي القاموس أنها مثلثة، ولكن في اللسان أن العَمَالة بالفتح تقال للناقة إذا كانت فارهة مثل: اليَعْمَلة.

(٤) اختلف في ضبطه، فقيل: بضم اللام المشددة وسكون التاء، وحكي فتحها، وقيل: بفتح اللام والمثناة، واسمه عبد الله، وكان من بني تولب، وهم حَيٌّ من الأزد، وقيل: اللُّتْبية: اسم أمّه.

(٥) روى البخاري عن أبي حُمَيْد السّاعدي قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأَسْد على صدقات بني=



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتأمل عِمالة السَّاعي هل يأخذها قبل العمل أو بعده؟ وهل هي إجارة أَو هي جعل؟ وهل العمل معلوم أو هو يُتَتَبَّعُ وإنما يعرف قدره بعد الفراغ؟

وأما المؤلفة قلوبهم فكانوا صِنْفين: مسلمين وكافرين مُساتِرين(١)، قال يحيى بن كثير: كان منهم أَبو سفيان بن حرب بن أُمية، والحارث بن هشام، وصفوان بن أُميَّة، وسُهَيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وأَبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعُيَيْنة، والأَقرع(٢)، ومالك بن عوف، والعباس بن مرداس، والعلاءُ بن جارية الثقفي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأكثر هؤلاء من الطلقاءِ(٣) الذين ظاهر أَمرهم يومَ الفتح الكفرُ، ثم بقوا مُظْهرين الإسلام حتى وثقه الاستئلاف في أَكثرهم، واستئلافُهم إما كان لتُجْلَب إلى الإسلام منفعة أو تُدْفع عنه مضَرَّة، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والحسن، والشعبي، وجماعة من أهل العلم: انقطع هذا الصنف بعزة الإسلام وظهوره، وهذا مشهور مذهب مالك رحمه الله. قال عبد الوهاب: إن احتيج إليهم في بعض الأَوقات أُعطوا من الصدقة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقول عمر رضي الله عنه ـ عندي ـ إنما هو لمُعيَّنين، فإنه قال لأَبي سفيان حين أَراد أَخْذ عطائه القديم، «إنما تأْخذ كرجل من المسلمين، فإِن الله قد أَغنى عنك وعن ضربائك»(٤)، يريد: في الاستئلاف، وأَما أن ينكر عمر الاستئلاف جملةً وفي ثغور

= سُلَيْم يُدعى ابن اللُّتْبية، فلما جاء حاسبه.

(١) المُسَاترة كالمُدَاجنة، والمعنى فيهما: حسن المخالطة بحسب الظاهر.

(٢) هما: عُيَيْنَةُ بن حِصْنَ، والأَقْرَعُ بن حابس.

(٣) هم الذين قال لهم النبي ﷺ يوم فتح مكة: «اذهبوا فأنتُم الطُّلقَاءُ».
وفي حديث حُنَيْن: «خَرَج ومعه الطُّلَقاءُ» قال في اللسان: هم الذين خلّى عنهم يوم فتح مكة وأطلقهم فلم يسترقهم، والواحد: طليق.

(٤) ضريب الشيء: مثله وشكله، والضُّرَبَاءُ هم الأَمثال والنُّظَراءُ.



الإِسلام فبعيد ، وقال كثير من أَهل العلم: المؤلفة قلوبهم موجودون إلى يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإذا تأملت الثغور وجدت فيها الحاجة إلى الاستئلاف.

وقال الزهري: المُؤَلَّفة: من أسلم من يهودي أو نصراني وإن كان غنياً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يريد: لتبسط نفسه ويحبب دين الإِسلام إليه.

وأمَّا الرقاب فقال ابن عباس ، والحسن ، ومالك ، وغيرهم:

هو ابتداءُ العِتق وعون المُكَاتب بما يأتي على حريته ، واخْتُلِف هل يعان بها المُكَاتَب في أَثناءِ نجومه[1] بالمنع والإِباحة ، واختُلِف على القول بإِباحة ذلك إن عجز ، فقيل: يُرَدُّ ذلك من عند السّيد ، وقيل: يمضي ؛ لأَنه كان يوم دفعه بوجه مترتب ، قال الشافعي: معنى ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: في المُكاتبين ، ولا يبتدأُ منها عتق عبد ، وقاله اللَّيْث ، وإبراهيم النَّخَعي ، وابن جُبَيْر ، وذلك أن هذه الأصناف إنما تُعْطَى إما لمنفعة المسلمين أو لحاجة في أَنفسها ، والعبد ليس له واحدة من هاتين العِلَّتين ، والمُكَاتب قد صار من ذوي الحاجة ، وقال الزهري: سهم الرقاب نصفان ، نصف للمُكَاتبين ، ونصف يعتق منه رقابٌ مسلمون مِمَّن صلَّى ، ويفدى منه أُسارى المسلمين ، ومَنَع ذلك غيرُه[2].

وأمَّا الغارم فهو رجل يركبه دَيْنٌ في غير معصية ولا سفَه ، قال العلماءُ: فهذا يُؤَدَّى عنه دينه وإن كانت له عروض تُقيم رَمَقه وتكفي عياله ، وكذلك الرجل يتحمل بحمالة

---

(١) تنجيم الدَّيْن: هو أن يُقَدَّر عطاؤه في أوقات معلومة متتابعة، مشاهرةً أو مساناة، ومنه تنجيم الُمكاتَب ونجوم الكتابة، وأصله أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت حلول ديونها وغيرها فتقول: إذا طلع النجم حلَّ عليك مالي، أي الثّريا، وكذلك باقي المنازل، فلما جاءَ الإِسلام جعل الله تعالى الأهلة مواقيت للحج والصوم ومحِل الديون، وسمَّوها نجوماً اعتباراً بالرسم القديم الذي عرفوه. (اللسان ـ نجم).

(٢) قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ معناه: وفي فكّ الرقاب، وعلى هذا التقدير يعطى ما حَصَلَ به فك الرقاب من ابتداء عِتق يشترى منه العبد فيُعتق ، أو تخليص مُكاتَب أو أسير.
قاله في «البحر» ، وهذا هو رأي ابن عباس ، والحسن ، ومالك.



في دياتٍ أو إصلاح بين القبائل، ونحو هذا، وهو أحد الخمسة الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «لا تَحِلُّ الصَّدقة لغني إلا لخمسة، لِعامِلٍ عليها، أو غازٍ في سبيل الله، أو رجل تحمل بحمالة، أو من أُهديت له، أَو من اشتراها بماله»[١].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد سقط المؤلفة من هذا الحديث، ولا يؤدى من الصدقة دَيْن ميّت، ولا يعطى منها من عليه كفارة ونحو ذلك من حقوق الله، وإنما الغارم مَنْ عليه دَيْن يسجن فيه، وفيه قيل في مذهبنا وغيره:

يُؤَدّى دَيْن الميّت من الصدقات، قاله أَبو ثور.

وأما في سبيل الله فهو المجاهد، يجوز أن يأْخذ من الصدقة لينفقها في غزوه وإن كان غنياً، قال ابن حبيب: ولا يُعْطَى منها الحاج إلا أن يكون فقيراً فيعطى لفقره، وقال ابن عباس، وابن عمر، وأحمد، وإسحق: يعطى منها الحاج وإن كان غنياً، والحج سبيل الله، ولا يعطى منها في بناءِ مسجد ولا قنطرة ولا شراءِ مصحف ونحو هذا.

وأما ابن السبيل فهو الرجل في الغربة والسفر يُعْدِم، فإنه يعطى من الزكاة وإن كان غنياً في بلده، وسمّي المسافر ابن سبيل لملازمته السبيل، كما يقال للطائر: «ابن ماءٍ» لملازمته له، ومنه عندي قولهم: «ابن جلا»، وقد قيل فيه غير هذا، ومنه قولهم: «بنو الحرب وبنو المجد»[٢].

ولا يعطى بنو هاشم من الصدقة المفروضة، قال ابن الماجشون، ومطرف، وأَصْبَغ، وابن حبيب: ولا من التطوع، ولا يعطى مواليهم لأن مولى القوم منهم، وقال ابن القاسم: يُعطى بنو هاشم من صدقة التطوع ويعطى مواليهم من الصدقتين، ومنْ سأَل الصدقة وقال إنه فقير؟ فقالت فرقة: يعطى دون أن يكلف بيّنة على فقره، بخلاف حقوق الآدميين يُدَّعى معها الفقير فإنه يُكَلَّف البيّنة لأَنها حقوق الناس يؤخذ لها

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن ماجه، وغيرهم ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه.

(٢) كما قال الشاعر:

أنــا ابْــنُ الْحَــرْب رَبَّتْنــي وَلِيــداً ... إلــى أنْ شِبْــتُ واكْتَهَلَــتْ لِــدَاتــي



بالأحوط، وأيضاً فالناس إذا تعلقت بهم حقوق لآدميين محمولون على الغنى حتى يثبت العدم، ويظهر ذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾[(١)]، أي إنْ وَقَعَ فَيُعْطِي هذا أن الأصل الغنى[(٢)]، فإن وقع ذو عسرة فنظرة، وقالت فرقة: الرجل الصحيح الذي لا يعلم فقره لا يُعطى إلا أن يعلم فقره، وأمَّا إن ادَّعى أنه غارم أو مُكاتَب أو ابن سبيل أو في سبيل الله أو نحو ذلك مما لم يُعلم منه فلا يُعْطَى إلا ببيِّنة قولاً واحداً، وقد قيل في الغارم[(٣)]:

تباع عروضه وجميع ما يملك ثم يعطى بالفقر، ويُعْطي الرجل قرابتَه الفقراء، وهم أَحق من غيرهم، فإن كان قريبه غائباً في موضع تقصر إليه الصلاة فجاره الفقير أَولى، وإن كان في غيبة لا تقصر إليه الصلاة، فقيل: هو أَولى من الجار الفقير، وقيل: الجار أَولى، ويُعطي الرجل قرابتَه الذين لا تلزمه نفقتهم، وتعطي المرأَة زوجَها، وقال بعض الناس: ما لم ينفق ذلك عليها، ويعطي الرجل زوجته إذا كانت من الغارمين، واختلف في ولاءِ الذي يُعْتَقُ من الصدقة ـ فقال مالك: ولاؤُه لجماعة المسلمين، وقال أَبو عبيد: ولاؤه للمُعْتِق، وقال عبيد الله بن الحسن: يجعل ماله في بيت الصدقات، وقال الحسن، وأحمد، وإسحق: ويعتق من ماله رقاب، وإذا كان لرجل على مُعْسرٍ دينٌ، فقيل: يتركه له ويقطع ذلك من صدقته، وقيل: لا يجوز ذلك جملة، وقيل: إن كان ممن لو رفعه للحاكم أَمكن أن يؤديه جاز ذلك، وإلا لم يجز لأنه قد توفي[(٤)].

وأما السبيل فهو الذي قدمنا ذكره، يُعْطَى الرجل الغازي وإن كان غنياً، وقال أصحاب الرأي: لا يُعطى الغازي في سبيل الله إلا أن يكون منقطعاً به، قال ابن المنذر: وهذا خلاف ظاهر القرآن وحديث رسول الله ﷺ، أما القرآن فقوله تعالى: ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وأما الحديث فقوله: «إلاَّ لخمسة، لعامل عليها، أو غاز في سبيل الله»، وأما صورة التفريق ـ فقال مالك وغيره: على قدر الحاجة ونظر الإمام،

---

(١) البقرة: ٢٨٠.

(٢) معنى هذه العبارة: أيْ إن حَصَل العُسْر فإن هذا التعبير يعطي بأن الأصل هو الغني وأن الفقر أمر طارىء.

(٣) في بعض النسخ: وقد قيل في المفلس.

(٤) في بعض النسخ: لأنه قد تَوِيَ، ومعناها: هلك، قال في الصحاح: التَّوَى: هلاك المال، ونقل ذلك في اللسان عن الصحاح ثم قال: التَّوَى: ذهابُ مال لا يُرْجَى.
تَوِيَ المالُ بالكسر يَتْوَى تَوىً: ذهب فلم يرج. وواضح أن التعبير بقوله (تَوِيَ) هو الصحيح، والله أعلم.



يضعها في أيّ صنف رأى، وكذلك المتصدِّق، قاله حذيفة بن اليمان، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، وأبو العالية. قال الطبري: وقال بعض المتأخرين: إذا قسم المتصدق قسم في ستة أصناف، لأنه ليس ثَمَّ عامل، ولأن المؤلفة قد انقطعوا، فإن قسم الإمام ففي سبعة أصناف، وقال الشافعي، وعكرمة، والزهري: هي ثمانية أقسام لثمانية أصناف لا يخل بواحد منها، واحتج الشافعي، بقول رسول الله ﷺ للرجل الذي سأله: «إن الله تعالى لم يرض في الصدقات بقسم نبي ولا غيره حتى قسمها بنفسه فجعلها ثمانية أقسام لثمانية أصناف، فإن كنت واحداً منها أعطيتك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والحديث في مصنف أبي داود، وقال أبو ثور: إذا قسمها الإمام لم يخل بصنف منها، وإن أعطى الرجلُ صدقَتَه صنفاً دون صنف أجزأه ذلك. وقال النخعي: إذا كان المال كثيراً قَسَّم على الأصناف كلها، وإذا كان قليلاً أعطاه صنفاً واحداً، وقالت فرقة من العلماء: من له خمسون درهماً فلا يعطى من الزكاة، وقال الحسن، وأبو عبيد: لا يعطى من له أُوقية وهي أربعون درهماً، قال الحسن: وهو غني.

وقال الشافعي: قد يكون الرجل الذي لا قدر له غنياً بالدرهم مع سعْيه وتحيله، وقد يكون الرجل له القدر والعيال ضعيف النفس والحيلة فلا تغنيه آلاف، وقال أبو حنيفة: لا يأخذ الصدقة من له مائتا درهم، ومن كان له أقل فلا بأس أن يأخذ. قال سفيان الثوري: لا يُدفع إلى أحد من الزكاة أكثر من خمسين درهماً إلا أن يكون غارماً، وقال أصحاب الرأي: إن أُعطي ألفاً وهو محتاج أجزأ ذلك، وقال أبو ثور: يعطى من الصدقة حتى يغنى ويزول عنه اسم المسكنة، ولا بأس أن يعطى الفقير الألف وأكثر من ذلك، وقال ابن المنذر: أجمع أكثر من يُحفظ عنه من أهل العلم أن لِمَنْ له دار وخادم لا يستغني عنهما أن يأخذ من الزكاة، وللمعطي أن يعطيه، وقال مالك: إن لم يكن في ثمن الدار أو الخادم فضلة عمن يحتاج إليه منهما جاز له الأخذ، وإلا لم يجز، وأما الرجل يعطي الآخر يظنه فقيراً فإذا هو غني، فإنه إن كان تعود ذلك أخذها منه، فإن فاتت نُظر، فإن كان الآخذ غنياً وأخذها مع علمه بأنها لا تحل له ضمنها على كل وجه، وإن كان لم يُغرّ بل اعتقد أنها تجوز له، أو لم يتحقق مقصدَ المعطي نُظر، فإن كان لبِسها أو أكلها ضمنها، وإن كانت تلفت لم يضمن. واخْتُلف في إجزائها عن



المتصدق ـ فقال الحسن، وأبو عبيدة: تجزيه، وقال الثوري، وغيره: لا تجزيه، وأهل بلد الصدقة أحق بها إلا أن تفضل فضلة فتنقل إلى غيرها بحسب نَظَرِ الإمام، قال ابن حبيب في «الواضحة»: أما المؤلفة فانقطع سهمهم، وأما سبيل الله فلابأس أن يعطي الإمام الغزاة إذا قلَّ الفيْءُ في بيت المال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الشرط فيه نظر، قال ابن حبيب: وينبغي للإمام أن يأمر السعاة بتفريقها بالمواضع التي جُبيت منها، ولا يحمل منها شيءٌ إلى الإمام إلاّ أن يرى ذلك لحاجة أو فاقة نزلت بقوم. قاله مالك.

ومن له مزرعة أو شيءٌ في ثمنه إذا باعه ما يغنيه لم يجز له أَخذ الصدقة.

وهذه جُملة من فقه الآية كافية على شرطنا في الإيجاز، والله الموفق برحمته(١).

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أَي مُوجَبَة مُحَدَّدة، وهو مأْخوذ من الفرض في الشيءِ بمعنى الحز والقطع لثبوت ذلك ودوامه شبه ما يفرض من الأحكام، ونصب [فَريضَة] على المصدر(٢)، ثم وصف نفسه تبارك وتعالى بصفتين مناسبتين لحكم هذه الآية لأَنه صدر عن علم منه بِخَلْقه، وحكمة منه في القسمة بينهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

---

(١) قال الزمخشري: «فإن قلتَ: لم عدل عن (اللام) إلى (في) في الأربعة الأخيرة؟ قلتُ: للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره، لأن (في) للوعاءِ، فنبه على أنهم أحقاءُ بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظِنّة لها ومصباً»، ثم ذكر مافي كل نوع من سمات تجعله أهلاً لهذا التفضيل.

(٢) قيل: هي في معنى المصدر المؤكد، لأن قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ معناه: فَرْضٌ من الله الصدقات لهم، وقال الكرماني: وأبو البقاء: [فَريضةً] حال من الضمير في [الفُقَراءِ]، أي مفروضة، وذُكر عن سيبويه أنها مصدر والتقدير: فرض الله الصدقات فريضة، وهذا هو الرأي الذي ذكره ابن عطية.

الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ﴾ عائد على المنافقين ، و﴿يُؤْذُونَ﴾ لفظ يعم جميع ما كانوا يفعلونه ويقولونه في جهة رسول الله ﷺ من الأذى ، وخص ـ بعد ذلك ـ مِنْ قولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ ، وروي أن قائل هذه اللفظة هو نبتل بن الحارث وكان من مَرَدة المنافقين ، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «مَنْ سرَّه أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نَبْتَل بن الحارث»[١] ، وكان ثائر الرأس ، منتفش الشعر ، أَحمر العينين ، أَسْفَع الخدين ، مشوَّهاً.

ورُوي عن الحسن البصري ، ومجاهد أنهما تأوَّلا أنهم أرادوا بقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أَنَّه يسمع منا معاذيرنا وتنصّلنا ويقبله ، أي: فنحن لا نبالي عن أَذاه[٢] ، ولا الوقوع فيه إذ هو سماع لكل ما يقال من اعتذار ونحوه ، فهذا تنَقُّص بقلة الحزامة والانخداع[٣] ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة معه أَنهم أرادوا بقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أنه يسمع كل ما ينقل إليه عنا ويصغي إليه ويقبله ، فهذا تشكُّك منه ووصف بأَنه تسوغ عنده الأَباطيل والنَّمائم.

ومعنى ﴿أُذُنٌ﴾ : سمّاع ، ويسمى الرجل السّماع لكل قول أُذُناً إِذْ كثر منه استعمال الأُذن ، فهذه تسمية الشيء بالشيءِ إذا كان منه بسبب ، كما يقال للرَّبيئَة: عينٌ[٤] ، وكما يقال للسمينة من الإبل التي قد بزل نابها: نابٌ[٥] ، وقيل: معنى الكلام: ذو أُذن ، أَي: ذو سماع ، وقيل: إن قوله تعالى: ﴿أُذُنٌ﴾ مشتق من قولهم: «أَذِنَ للشَّيْءِ» إذا استمع ، كما قال الشاعر وهو عديُّ بن زيد:

---

(١) لفظ الحديث في القرطبي «من أراد» والسُّفْعَةُ: سوادٌ مشربٌ بحمرة ، ويقال للرجل: أسفع.

(٢) أي: لا يَهُمّنا ولا يكرِثُنا أن نكف عن أذاه ، والعبارة قلقة حتى لو فهمناها على معنى البعد عن الشيء نتيجة لكرهه.

(٣) يقال: حَزُم حَزَامة كَضخُم ضَخامة ، فالحزامة مصدر ، ومنه قولهم: «ربّما كان من الحَزَامة أن تجعل أنفك في الخِزَامة» والخِزامة بكسر الخاء حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير يشد بها الزمام. (التاج).

(٤) الرَّبيئة: الطليعة ، وإنما أنثوه لأن الطليعة يقال لها: العينُ ، إذ بعينه ينظر ، والعين مؤنثة ، وقيل للربيئة عين لأنه يرعى أمور قومه ويحرسهم ، وجمع الربيئة: الرّبايا. (اللسان).

(٥) النابُ في الأصل هي السِّن التي خلف الرباعية ، وفيها التأنيث والتذكير. والنابُ: الناقة السمينة ، سمّوها بذلك حين طال نابها وعَظُم ، مؤنثة ، وهي مما سمّى فيه الكل باسم الجزءِ ، ومعنى «بَزل نابها»: انشق وانفطر ، ويكون ذلك حين تبلغ التاسعة من عمرها.



أَيُّهــا القَلْــبُ تعَلَّــلْ بـــدَدَنْ ... إِنَّ هَمِّــي فــي سَمَــاعٍ وأَذَنْ(١)

وفي التنزيل: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾(٢) ، ومن هذا قول النبي ﷺ: «ما أَذِن الله لشيءٍ كإِذْنه لنبي يتغنى بالقرآن»(٣) ، ومن هذا قول الشاعر:

فــي سَمَــاعٍ يــأْذَنُ الشَّيْــخُ لَــهُ ... وحَـدِيـثٍ مثْـلَ مـاذِيٍّ مُشَـار(٤)

ومنه قول الآخر:

صُـمٌّ إذا سَمِعـوا خَيْـراً ذُكِـرتُ بِـه ... وَإِنْ ذُكِـرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُـمْ أَذِنُـوا(٥)

وقرأ نافع: [أُذْن] بسكون الذال فيهما، وقرأ الباقون: [أُذُن] بضم الذال فيهما، وكلهم قرأ بالإضافة إلى ﴿خَيْرٍ﴾ إلا ما روي عن عاصم، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، ومجاهد، وعيسى ـ بخلاف ـ ﴿أُذُنٌ خَيْرٌ﴾ برفع [خَيْر] وتنوين [أُذُن]، وهذا يجري مع تأويل الحسن الذي ذكرناه، أي: من يقبل معاذيركم خير لكم، ورُويت هذه القراءَة عن عاصم، ومعنى ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ على الإضافة، أي سماع خير وحق.

و﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ معناه: يصدق بالله ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: معناه ويصدق المؤمنين، واللام زائدة كما هي في قوله سبحانه: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾(٦) ، وقال المبرد: هي

---

(١) الدَّدَنُ: اللهو، وفيه لغات كثيرة أشهرها (دَدٌ) مثل (يَد) و(دداً) مثل (قفاً وعصاً)، و(دَدَنٌ) مثل حَزَن، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «ما أنا من دَدٍ ولا الدَّدُ منّي»، وفي رواية «ما أنا من دَداً ولا دَداً مني»، قال ابن الأثير: الدَّدُ: اللهو واللعب، وهي محذوفة اللام، وقد استعملت مُتَمَّمة على ضربين: دداً كنَدًى ودَدَنٌ كبَدَنٍ، والأَذن: الاستماع يقال: أَذِنْتُ للشيءِ آذن له أَذَناً إذا استمعت له. (عن اللسان).

(٢) الانشقاق: ٥.

(٣) أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي ـ عن أبي هريرة، ولفظه كما رواه في الجامع الصغير: «ما أذن الله لشيءٍ ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به» قال أبو عبيد: «يعني: ما استمع الله لشيءٍ كاستماعه لنبي يتغنى بالقرآن، أي يتلوه يجهر به».

(٤) البيت لعديّ بن زيد، ومعنى «يأذن الشيخ له»: يستمع إليه معجباً، والماذِيّ: العَسَل الأبيض الرقيق، والمشار: المجتنى، وقبل هذا البيت يقول عَدِيٌّ:

ومَـــلاهٍ قَـــدْ تَلَهَّيْـــتُ بهـــا ... وقصـرتُ اليَـوْمَ فـي بيْـتِ عـذار

ومثل هذا البيت قول عمرو بن الأهيم:

فَلَمَّـــا أنْ تَسَـــايَـــرْنَـــا قَليـــلا ... أَذِنَّ إلـى الحَـديـث فَهُـنَّ صـورُ

(٥) البيت لقَعْنَب بن أُمّ صاحب، وقبله يقول:

إنْ يَسْمَعُـوا ريبَـةً طـاروا بهَـا فَـرَحـاً ... مِنِّي، ومـا سَمِعـوا مِـنْ صَـالِـح دَفَنُـوا

(٦) من قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢].



متعلقة بمصدر مقدر من الفعل كأنه قال: وإيمانه للمؤمنين، أي تصديقه، ويقال: «آمنت لك» بمعنى صدقتك، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعندي أن هذه التي معها اللام في ضمنها باءٌ، فالمعنى: ويصدق للمؤمنين بما يُخبرونه به، وكذلك: وما أنت بمؤمن لنا بما نقوله لك، والله المستعان.

وقرأ جميع السبعة إلا حمزة: [ورَحمةٌ] بالرفع عطفاً على [أُذُن]، وقرأ حمزة وحده: [وَرَحمة] بالخفض عطفاً على [خَيْر]، وهي قراءَة أُبي بن كعب، وعبد الله، والأَعمش، وخصص الرحمة للذين آمنوا إذ هم الذين نجوا بالرسول وفازوا به، ثم أَوجب تبارك وتعالى للذين يؤذون رسول الله العذاب الأَليم وحتم عليهم به.

وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ الآية. ظاهر هذه الآية أن المراد بها جميع المنافقين الذين يحلفون لرسول الله ﷺ وللمؤمنين بأنهم منهم في الدِّين، وأَنهم معهم في كل أَمر وكل حزب، وهم في ذلك يبطنون النفاق ويتربصون الدوائر، وهذا قول جماعة من أَهل التأويل، وقد روت فرقة أنها نزلت بسبب رجل من المنافقين قال: «إن كان ما يقول محمد حقاً فأَنا شرّ من الحمر»، فبلغ قوله رسول الله ﷺ فدعاه ووقف على قوله ووبخه، فحلف مجتهداً أنه ما فعل، فنزلت الآية في ذلك(٢)، وقوله: [واللهُ].

مذهب سيبويه أَنهما جملتان حذفت الأُولى لدلالة الثانية عليها، والتقدير عنده: والله أَحق أن يرضوه، ورسوله أَحق أن يرضوه، وهذا كقول الشاعر:

نحنُ بِمَا عِندنَا وأَنتْ بِمَا عِنْـ ـدكَ راضٍ والـرَّأْيُ مُختلِـف(٣)

---

(١) يوسف: ١٧.

(٢) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي مثله، وسمَّى الرجل المسلم عامر بن قيس من الأنصار، (الدر المنثور)، وفي القرطبي أن جماعة من المنافقين اجتمعوا، فيهم الجُلاسُ بن سُوَيْد، ووديعة بن ثابت، وفيهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس.

(٣) سبق الاستشهاد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية (٣٤) من هذه السورة وقد اعترض أبو حيان في «البحر» على هذا الرأي وقال: «فقوله: مذهب سيبويه أنّهما جملتان حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها إن كان الضمير=

ومذهب المبرد أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، وتقديره: والله أحق أن يرضوه، ورسوله، قال: وكانوا يكرهون أن يجمع الرسول مع الله في ضمير، حكاه النقاش عنه، وليس هذا بشيءٍ، وفي مصنف أبي داود أن النبي ﷺ قال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى» فجمع في ضمير، وقوله ﷺ في الحديث الآخر: «بئس الخطيب أنت» إنما ذلك لأنه وقف على «ومن يعصهما» فأدخل العاصي في الرشد[1]، وقيل: الضمير في ﴿يُرْضُوهُ﴾ عائد على المذكور كما قال رؤْبة:

فيها خُطوطٌ مِن سوادٍ وبَلَقْ كأنَّه في الجِلْدِ تَوْليعُ البَهَقْ[2]

وقوله: ﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: على قولهم ودعواهم.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ الآية قوله: [أَلَمْ] تقرير ووعيد، وفي مصحف أُبي بن كعب ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ على خطاب النبي ﷺ، وهو وعيد لهم، وقرأ الأعرج، والحسن: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ بالتاءِ، و﴿يُحَادِدِ﴾ معناه: يخالف ويشاق، وهو أن يعطي هذا حدّه لهذا وهذا حدّه لهذا، وقال الزجاج: هو أن يكون هذا في حدّ وهذا في حدّ.

وقوله: ﴿فَأَنَّ﴾ مذهب سيبويه أنها بدلٌ من الأُولى، وهذا معترض بأن الشيءَ لا يبدل منه حتى يستوفىٰ، والأُولى في هذا الموضع لم يأت خبرها بَعْدُ إذا لم يتم جواب الشرط، وتلك الجملة هي الخبر، وأيضاً فإن الفاءَ تمانع البدل، وأيضاً فهي في معنى آخر غير الأَول فيقلق البدل، وإذا تُلطِّف للبدل فهو بدل الاشتمال، وقال غير

= في (أنَّهما) عائداً على كل واحدة من الجملتين فكيف تقول: حذفت الأولى ولم تحذف الأولى وإنما حذف خبرها؟ وإن كان الضمير عائداً على الخبر وهو ﴿أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ فلا يكون جملة إلا باعتقاد كون ﴿أَن يُرْضُوهُ﴾ مبتدأ، و﴿أَحَقُّ﴾ المتقدم خبره، لكن لا يتعين هذا القول إذ يجوز أن يكون الخبر مفرداً بأن يكون التقدير: «أحق بأن يرضوه»، وعلى التقدير الأول يكون التقدير: «والله إرضاؤه أحق»، وللعلماء في إفراد الضمير في قوله تعالى: ﴿يُرْضُوهُ﴾ آراء كثيرة ذكر منها ابن عطية ثلاثة، ومن هذه الآراء أن الإفراد جاء لتعظيم الله سبحانه، أو لكونه لا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله، أو لأن الضمير موضوع موضع اسم الإشارة، فإنه يشار به إلى الواحد والمتعدد.

(١) أنكر النبي ﷺ على الخطيب لأنه فهم منه اعتقاد التسوية حين وقف على (يعصهما) فَنَبَّهه على خلاف معتقده.

(٢) البَهَق: بياض دون البرص، أو هو بياض يعتري الجسد بخلاف لونه وليس من البرص. والشاهد في البيت عود الضمير في قوله (كأنه)، أي: كأن المذكور.



سيبويه: هي مجردة لتأكيد الأُولى، وقالت فرقة من النحاة: هي في موضع خبر ابتداءٍ تقديره: «فواجب أنَّ له»، وقيل: المعنى: «فلَه أَن له»، وقالت فرقة: هي ابتداءٌ والخبر مضمر تقديره: «فأن له نار جهنم واجب»، وهذا مردود لأن الابتداءَ بـ (أنَّ) لا يجوز مع إِضمار الخبر، قاله المبرد، وحُكي عن أبي علي الفارسي قول يقرب معناه من معنى القول الثالث من هذه التي ذكرنا لا أَقف الآن على لفظه، وجميع القراءِ على فتح [أَنَّ] الثانية، وحكى الطبري عن بعض نحويي البصرة أنه اختار في قراءَتها كسر الأَلف، وذكر أَبو عمرو الداني أَنها قراءَة ابن أبي عبلة، ووجهه في العربية قوي لأَن الفاءَ تقتضي القطع والاستئناف، ولأَنه يصلح في موضعها الاسم ويصلح الفعل، وإِذا كانت كذلك وجب كسرها(١).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ﴾ خبر عن حال قلوبهم، وحذرهم إنما هو أن تتلى سورة، ومعتقدهم ـ هلْ تنزل أَم لا ـ ليس بنصّ في الآية لكنه ظاهر، فإن حمل على مقتضى نفاقهم واعتقادهم أن ذلك ليس من عند الله فوجه بيّن، وإن قيل: إنهم يعتقدون نزول ذلك من عند الله وهم ينافقون مع ذلك فهذا كفر عناد. وقال الزجاج وبعضُ من ذهب إلى التحرز من هذا الاحتمال: معنى ﴿ يَحْذَرُ ﴾: الأَمر وإن كان لفظه لفظ الخبر، كأَنه يقول: لِيَحْذَر.

---

(١) أجاز الخليل وسيبويه كسر همزة (فَإِنَّ)، قال سيبويه: وهو جيّد، وأنشد لابن مقبل:

وعلْمِي بأَسْدام المياه فلم تزَلْ ... قلائِصُ تَخْدِي في طريقٍ طلائحُ
وأنِّي إذا مَلَّت ركابي مُنَاخَها ... فإنِّي على حَظِّي من الأمر جامِحُ

والأسدام: المياه المتغيرة لقلة الوارد، وتخدي: تُسرع، والطلائح: المعيبة لطول السفر، والجامح: الماضي على وجهه، ومعنى: «ملّت ركابي مُنَاخَهاَ»: توالى سفرها وإناختها فيه وارتحالها، يقول: لا يكسرني طول السفر ولكني أمضي قدماً لما أرجوه من الحظ في أمري.



وقرأ أبو عمرو وجماعة معه: [أَن تنْزِل] ساكنة النون خفيفة الزاي ، وقرأ بفتح النون مشددة الزاي الحسنُ ، والأعرج ، وعاصم ، والأعمش ، وعيسى: و﴿أَن﴾ من قوله: ﴿أَن تُنَزَّلَ﴾ مذهب سيبويه أن ﴿يَحْذَرُ﴾ عامل فيها فهي مفعولة ، وقال غيره: (حَذِر) إنما هي من هيئات النفس التي لا تتعدى ، مثل (فَزِع) ، وإنما التقدير: «يحذر المنافقون من أن تنزل عليهم سورة»[1].

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ لفظه الأمر ومعناه التهديد ، ثم ابتدأ الإخبار عن أنه يخرج لهم إلى حيّز الوجود ما يحذرونه ، وفعل ذلك تبارك وتعالى في سورة التوبة فهي تسمى الفاضحة ؛ لأنها فضحت المنافقين.

وقال الطبري: كان المنافقون إذا عابوا رسول الله ﷺ وذكروا شيئاً من أمره قالوا: «لعلّ الله لا يفشي سِرّنا» ، فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يقتضي كفر العناد الذي قلناه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ الآية. نزلت ـ على ما ذكر جماعة من المفسرين ـ في وديعة بن ثابت ، وذلك أنه مع قوم من المنافقين كانوا يسيرون في غزوة تبوك ، فقال بعضهم لبعض: هذا يريد أن يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بني الأصفر ، هيهات هيهات. فوقّفهم رسول الله ﷺ على ذلك وقال لهم: قلْتم كذا وكذا ، فقالوا: «إنما كنا نخوض ونلعب» ، يريدون: كنا غير مُجدّين. وذكر ابن إسحق أن قوماً منهم تقدموا النبي ﷺ ، فقال بعضهم: كأنكم والله غداً في الحبال أَسرى لبني الأَصفر ، إلى نحو هذا من القول ، فقال النبي ﷺ: «أدرك القوم فقد احترقوا ، وأَخبرهم بما قالوا» ، ونزلت الآية[2]. وروى أن وديعة ابن ثابت المذكور قال في جماعة من المنافقين:

---

(١) هذا رأي المبرد ، وكثير من العلماء لا يرون ذلك ، ويقولون: إن (خاف) من هيئة النفس ومع ذلك تتعدى ، ومثلها (خشي). راجع «البحر» و«حاشية الجمل».

(٢) الحديث مروي من عدة طرق ، والألفاظ تختلف باختلاف الرواة. فقد أخرجه ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة ، وهذه الرواية هي التي ذكرها ابن عطية أولاً ، ثم ذكر رواية ابن إسحق ، ومعنى قوله (احترقوا): هلكوا. (الدر المنثور ، وفتح القدير ، والسيرة النبوية لابن هشام) ، وليس في الرواية نصٌّ على من خاطبه النبي ﷺ.



ما رأيت كقرائنا هؤلاءِ، لا أرغب بطوناً ولا أكثر كذباً ولا أجبن عند اللقاءِ، فعنَّفهم رسول الله ﷺ على هذه المقالة فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، ثم أمره بتقريرهم: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[1]، وفي ضمن هذا التقرير وعيد، وذكر الطبري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: رأيت قائل هذه المقالة وديعةَ متعلقاً بِحقَب[2] ناقة رسول الله ﷺ يماشيها تنكبه وهو يقول: «إنما كنا نخوض ونلعب»، والنبي ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[3]؟ وذكر النقاش أَن هذا المتعلق كان عبد الله بن أُبي بن سلول، وذلك خطأٌ لأَنه لم يشهد تبوك.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ﴾ الآية. المعنى: قل لهم يا محمد: «لا تعتذورا» على جهة التوبيخ، كأَنه قال: لا تفعلوا ما لا ينفع، ثم حكم عليهم بالكفر فقال: قل لهم: ﴿قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ الذي زعمتموه ونطقتم به، وقوله: ﴿عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ﴾ يريد ـ فيما ذكر المفسرون ـ رجلاً واحداً، قيل اسمه مخشّن بن حُمَيِّر، قاله ابن إسحق، وقال ابن هشام، ومقاتل: مخشيّ، وقال خليفة ابن خياط في تاريخه: مُخاشن بن حُمَيّر، وذكر ابن عبد البر: مُخاشن الحميريّ، وذكر جميعهم أنه استشهد باليمامة، وكان قد تاب وتسمّى عبد الرحمن، فدعا الله أن يستشهد ويجهل أَمره فكان ذلك باليمامة، ولم يوجد جسده، وذكر أيضاً ابن عبد البرّ: مخشّى بن حُمَيْر بضم الحاءِ وفتح الميم وسكون الياءِ، ولم يتقن القصة.

وكان مخشّى مع المنافقين الذين قالوا: «إنا كنا نخوض ونلعب»، فقيل: كان منافقاً ثم تاب توبة صحيحة، وقيل: كان مسلماً مخلصاً إلا أنه سمع كلام المنافقين فضحك لهم ولم ينكر عليهم، فعفا الله عنه في كلا الوجهين، ثم أَوجب العذاب لباقي المنافقين الذين قالوا ما تقدم.

---

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. (الدر المنثور، وفتح القدير).

(٢) الحَقَب (بوزنَ سَبَب): حبل يشد على بطن البعير سوى الحزام الذي يشد فيه الرحْل، والرواية في (فتح القدير): «قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه».

(٣) هذا نص رواية ابن جرير للحديث السابق تخريجه في الهامش رقم (١) من هذه الصفحة، وقد رواه الليث عن هشام بن سعد بنحو من هذا ـ ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره.



وقرأ جميع السبعة سوى عاصم: [إِنْ يُعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ] بالياءِ [تُعَذَّبْ] بالتاءِ[1]، وقرأ الجحدري: [إِنْ يَعْفُ] بالياءِ المفتوحة على تقدير: إِن يعفُ الله، [يُعذِّب] الله، [طَائِفَةً] بالنصب، وقرأ عاصم، وزيد بن ثابت، وأَبو عبد الرحمن: [إِنْ نَعْفُ] بالنون [نُعَذب] بنون الجميع أيضاً، وقرأ مجاهد: [إِنْ تُعْفَ] بالتاءِ المضمومة على تقدير: إن تُعْف هذه الذنوب [تُعَذَّب] بالتاءِ أَيضاً.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۢ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٦٧ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٦٨ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٦٩﴾.

هذا ابتداءُ إِخبار عنهم وحُكْمٌ من الله تعالى بما تضمنته الآية.

فقوله سبحانه: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۢ﴾ يريد: في الحكم والمنزلة من الكفر، وهذا نحو قولهم: «الأذنان من الرأس» يريدون: في حكم المسح، وإلا فمعلوم أَنهما من الرأْس، ولما تقدم من قبل: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾[2] حَسُن هذا الإِخبار.

وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ يريد: بالكفر وعبادة غير الله، وسائر ذلك من الآية لأَن المنافقين الذين نزلت هذه الآيات فيهم لم يكونوا أَهل قدرة ولا أَفعال ظاهرة وذلك بسبب ظهور الإِسلام وكلمة الله عزَّ وجل، والقَبْضُ هو عن الصدقة وفعل الخير، وقوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: تركوه حين تركوا نبيَّه وشِرْعته فتركهم حين لم يهدهم ولا كفاهم عذاب النار، وإنما يُعبِّر بالنسيان عن الترك مبالغة إِذْ أَبلغ

---

(١) قال أبو حيان في «البحر»: «ولقيني شيخنا الأديب أبو الحكم مالك بن المرحل المالقي بغرناطة فسألني: قراءة من تقرأ اليوم على الشيخ أبي جعفر الطباع؟ فقلت قراءة عاصم، فقال:
لعاصم قراءةٌ لِغَيْرِها مخالفة إن نَعْف عن طائفة منكم نعذب طائفة.

(٢) تقدم ذلك في الآية (٥٦) من هذه السورة في جملة الحديث عن المنافقين.

وجوه التَّرك الوجه الذي يقترن به نسيان، وعلى هذا يجيءُ ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[(١)]، و﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[(٢)]، ثم حكم عليهم عزَّ وجلَّ بالفسق وهو فسوق الكفر المقتضي للخلود في النار، وكان قتادة يقول: [فَنَسِيهُمْ] أي: من الخير ولم ينسهم من الشَّر.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الآية، لما قيَّد الوعد بالتصريح بالشَّر صحَّ ذلك وحَسُن وإن كانت آية وعيد محْضٍ، والكفار في هذه الآية: المُعْلِنون، وقوله: ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ أي كافيتهم وكافية جُرمهم وكفرهم نكالاً وجزاءً، فلو تمنى أحد لهم عذاباً لكان ذلك عنده حسْباً لهم. ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ معناه: أَبعدهم عن رحمته، و﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ معناه: مؤبد لا نقلة له.

وقوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية، أَمر الله نبيه أن يخاطب بها المنافقين فيقول لهم: كالذين من قَبْلكم، والمعنى: أَنتم كالذين، أو مثلكم مثل الذين من قبْلكم، وقال الزجاج: المعنى: وعداً كما وعد الذين من قبلكم، فهو متعلق بـ [وَعَد].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا قلق، ثم قال: كانوا أَشد منكم وأَعظم فعصوا فأُهلكوا، فأَنتم أَحرى بالإهلاك لمعصيتكم وضعفكم.

والخَلاَق: الحظ من القدر والدين وجميع حال المرءِ، وخلاقُ المرءِ: الشيءَ الذي هو به خليق، والمعنى: عجلوا حظهم في دنياهم وتركوا باب الآخرة فاتبعتموهم أنتم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

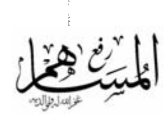
وأَورد الطبري في تفسير هذه الآية قوله ﷺ: «لتتبعن سَنَن من قبلكم شبْراً بِشِبْر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»[(٣)]، وما شاكل هذا الحديث مما

---

(١) البقرة: ٢٣٧.

(٢) القصص: ٧٧.

(٣) أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري، وفي تفسير ابن كثير أن ابن جُرَيج أخرجه عن أبي هريرة ـ وتمامه: «قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ أهل الكتاب؟ قال: فمن؟». =



يقتضي اتباع أُمة محمد ﷺ لسائر الأمم، وهو معنى لا يليق بالآية جداً، إذ هي مخاطبة لمنافقين كفار أَعمالهم حابطة، والحديث مخاطبة لموحّدين يتبعون سنن من مضى في أَفعال دنياوية لا تخرج عن الدين.

وقوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوٓا۟﴾ أَي: خلطتم كالذي خلطوا وهو مستعار من الخوض في المائعات، ولا يستعمل إلا في الباطل لأن التصرف في الحقائق إنما هو على ترتيب ونظام، وأُمورُ الباطل إنما هي خوض، ومنه قول النبي ﷺ: «رُبَّ متخوّض في مال الله له النار يوم القيامة»[1].

ثم قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ فيحتمل أن يراد بـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ القوم الذين وصفهم بالشدة وكثرة الأَموال والاستمتاع بالخلاق، والمعنى: وأَنتم أَيضاً يعتريكم بإعراضكم عن الحق، ويحتمل أن يريد بـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المنافقين المعاصرين لمحمد ﷺ، ويكون الخطاب لمحمد ﷺ، وفي ذلك خروج من خطاب إلى خطاب غير الأَول، وحبِطَ العمل وما جرى مجراه يَحْبط حَبَطاً إذا بطل بعد التعب، وحبط البطن حَبَطاً بفتح الباءِ، وهو داءٌ في البطن، ومنه قوله النبي ﷺ: «إنَّ مما يُنْبِت الربيع ما يقتل حَبَطَاً أو يُلِمُّ»[2]، وقوله: في ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ معناه ـ إذا كان في المنافقين ـ: ما يُصيبهم في الدنيا من مقت المؤمنين وفساد أَعمالهم وفي الآخرة بأَلا تنفع ولا يقع عليها جزاءٌ، ويُقَوّي أَن الإِشارة بـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إلى المنافقين قوله تعالى في الآية المستقبلة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ فتأَمله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

= وهكذا رواه أبو معشر عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فذكره.

(١) أخرجه البخاري في باب ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾، ولفظه فيه: «إن رجالاً يتخوَّضُونَ في مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة».

(٢) سبق الاستشهاد به عند تفسير الآية (١٧) من هذه السورة وهي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾.

يقول عزَّ وجلَّ لنبيّه ﷺ: ألم يأت هؤلاءِ المنافقين خبرُ الأُمم السابقة التي عصت الله بتكذيب رسله فأهلكها؟ وعاد وثمود قبيلتان، وقوم إبراهيم: نمرود وأصحابه وتباع دولته، وأصحاب مدين: قوم شعيب، والمؤتفكات: أهل القرى الأربعة، وقيل: السبعة الذين بُعث إليهم لوط ﷺ، ومعنى المؤتكفات: المنصرفات والمنقلبات، أفكت فائتكفت لأنه جعل أعاليها أسافلها، وقد جاءت في القرآن الكريم مفردة تدل على الجمع، ومن هذه اللفظة قول عمران بن حطان:

بمنطِـقٍ مُسْتَبِيـنٍ غَيْـرِ مُلْتَبِـسٍ ... بِـهِ اللِّسَـانُ وأنِّي غيْـرُ مُـؤْتَفِـك(١)

أي: غير منقلب منصرف مضطرب، ومنه يقال للريح: مؤتفكة لِتَصَرُّفِهَا، ومنه: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(٢)، والإِفك صرف القول من الحق إلى الكذب. والضمير في قوله: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ عائد على هذه الأمم المذكورة. وقيل: على المؤتفكات خاصة، وجعل لهم رسلاً وإنما كان نبيُّهم واحداً لأنه كان يرسل إلى كل قرية رسولاً داعياً، فهم رسل رسول الله، ذكره الطبري، والتأويل الأول في عود الضمير على جميع الأُمم أبيَن. وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يريد: بالمعجزات، وهي بيِّنة في نفسها بالإِضافة إلى الحق لا بالإِضافة إلى المكذبين بها.

ولما فرغ من ذكر المنافقين بالأشياءِ التي ينبغي أن تصرف عن النفاق وتنهي عنه عقَّب ذلك بذكر المؤمنين بالأشياء التي تُرغِّب في الإِيمان وتُنَشِّط إليه تلطُّفاً منه تبارك وتعالى بعباده لا ربَّ غيره، وذكرت هنا الولاية إذْ لا ولاية بين المنافقين، ولا شفاعة لهم، ولا يدعو بعضهم لبعض، وكأن المراد هنا الولاية في الله خاصة. وقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يريد: بعبادة الله وتوحيده وكل ما اتبع ذلك، وقوله: ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ يريد عبادة الأوثان وكل ما اتبع ذلك، وذكر الطبري عن أبي العالية أنه قال: كل

(١) انظر؛ شعر الخوارج لإحسان عباس. وقد أورد البيت فيه مع بعض الاختلاف. وفيه: لمنطق بدلا من بمنطق، ورأي بدلا من وأني.

(٢) من قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

ما ذكر الله في القرآن من الأمر بالمعروف فهو دعاءٌ من الشِّرك إلى الإسلام، وكل ما ذكر من النهي عن المنكر فهو النهي عن عبادة الأوثان والشياطين، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هي الصلوات الخمس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبحسب هذا تكون الزكاة المفروضة، والمدح عندي بالنوافل أبلغ، إذْ من يُقيم النوافل أحرى بإقامة الفرض. وقوله: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ جامع للمندوبات، والسين في قوله: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ﴾ مدخل في الوعد مهلة، لتكون النفوس تنعم برجائه، وفضله تعالى زعيم بالإنجاز.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. وعْدَهُ في هذه الآية صريح نص في الخير، وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ إما من تحت أشجارها، وإما مِن تحت عُلِّيَّاتها، وإما من تحت مجالسها بالإضافة إلى هذا، كما تقول في دارين متجاورتين ومتساويتي المكان: هذه تحت هذه.

وذكر الطبري في قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ عن الحسن أنه قال: سألت عنها عمران بن الحصين وأبا هريرة فقالا: على الخبير سَقَطْتَ، سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: «قَصْر في الجنة من اللؤلؤ، فيه سبعون داراً من ياقوتة حمراءَ، في كل دارٍ سبعون بيتاً من زمردة خضراءَ، في كل بيت سبعون سريراً»(١)، ونحو هذا مما يشبه هذه الألفاظ أو يقرب منها فاختصرتها طلباً للإيجاز، وأما قوله: ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ فمعناه: في جنات إقامة وثبوت، يقال: عَدَنَ الشيءُ في المكان إذا أقام به وثبت، ومنه المعدن، أي موضع ثبوت الشيءِ، ومنه قول الأعشى:

وإنْ يَسْتَضِيفُــوا إلــى حِلْمِــهِ ... يُضافـوا إلـى راجـحٍ قـدْ عَـدَنْ(٢)

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن الحسن، وتتمة الحديث التي تركها ابن عطية وكأنه يشك في نسبتها إلى الصادق الأمين، «على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون، على كل فراش امرأة من الحور العين، في كل بيت سبعون مائدة، في كل مائدة سبعون لوناً من كل طعام، في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة، فيُعطى المؤمن من القوة في كل غداة ما يأتي على ذلك كله. ـ (عن الدر المنثور، وفتح القدير)، وقد علّق أبو حيان على هذه التتمة بقوله: «وقد ذكر في آخر هذا الحديث أشياء، وإن صح النقل عن الرسول وجب المصير إليه». والحديث ضعيف بسبب جسر بن فرقد.

(٢) رواه الطبري بالتاء في الكلمتين (تستضيفوا ـ تضافوا)، وبلفظ (حُكْمه) بدلاً من (حِلْمِهِ) والبيت من نُونِيَّة الأعشى قيس أبي بصير، وروايته في الديوان تختلف عن هذه الرواية ولفظها: =



هذا الكلام اللغوي، وقال كعب الأَحبار: جنات عدن هي بالفارسية: جنات الكروم والأَعناب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأَظن هذا وهماً اختلط بالفردوس وقال الضحاك: جنات عدن هي: مدينة الجنة وعُظْمها، فيها الأَنبياءُ والعلماءُ والشهداءُ وأَئمة العدل والناس حولهم بعد والجنات حولها، وقال ابن مسعود: عدن هي بُطْنان الجنة وسرّتها[1]، وقال عطاءُ: عدن: نهرٌ في الجنة جناته على حافته، وقال الحسن: عدن: قصر في الجنة لا يدخله إلا نبي أَو صِدِّيق أو شهيد أو حكم عدل، ومدّ بها صوته.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والآية تأْبى هذا التخصيص إذ قد وعد الله بها جميع المؤمنين.

وأما قوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فروي فيه أن الله عزَّ وجلَّ يقول لعباده إذا استقروا في الجنة: «هل رضيتم؟ فيقولون: وكيف لا نرضى يا ربنا؟ فيقول: إني سأُعطيكم أفضل من هذا كله، رضواني، أَرضى عليكم، فلا أَسخط عليكم أبداً». الحديث[2]. وقوله: ﴿أَكْبَرُ﴾ يريد: أكبر من كل ما تقدم، ومعنى الآية والحديث متفق.

وقال الحسن بن أبي الحسن: وصل إلى قلوبهم برضوان الله من اللذة والسرور

=
وإنْ يُسْتَضافوا إلى حُكْمِه ... يُضَافُوا إلى هادِنٍ قَدْ رَزَن

ويستضيفوا: يَلْجئوا، والراجح: الهادىء الساكن، وعَدَنَ بالمكان يَعْدِنُ: أقام فيه وثبت، والهادِنُ في رواية الديوان: الساكن وهو بمعنى الراجح، ورزن: ثبت واستقر، والقصيدة في مدح قيس بن معد يكرب الكِنْدي، وهي ثلاثة وثمانون بيتاً.

(١) بُطْنان الجنة (بضم الباء): وَسَطُهَا، وفي الحديث: «ينادي منادٍ من بُطْنانِ العرش» أي من وسطه، وقيل: من أصله، (عن اللسان).

(٢) أخرجه أحمد، والبخاري ومسلم، والترمذي، والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي سعيد، ولفظه الذي نقله في (الدر المنثور): قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة، يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك يا ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا، ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحداً من خلقك، فيقول: الا أُعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أُحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».



ما هو أَلَذُّ عندهم وأَقَرُّ لأَعينهم من كل شيءٍ أَصابوه من لذة الجنة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويظهر أَن قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ إشارة إلى منازل المقربين الشاربين من تَسْنيم(١) الذين يرون كما يرى النجم الغائر في الأُفق، وجميع من في الجنة راض والمنازل مختلفة، وفضل الله تبارك وتعالى متسع. والفوز: النجاة والخلاص ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾(٢)، والمقربون هم في الفوز العظيم، والعبارة عندي عن حالهم بسرور وكمال أَجود من العبارة عنها بلذة، واللَّذة أيضاً مستعملة في هذا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله: ﴿جَٰهِدِ﴾ مأْخوذ من بلوغ الجهد، وهي مقصود بها المكافحة والمخالفة، وتتنوع بحسب المجاهد، فجهاد الكافر المُعْلِن بالسيف، وجهاد المنافق المتستِّر باللسان والتعنيف، والاكفهرار في وجهه ونحو ذلك.

ألا ترى أن من ألفاظ الشرع قوله ﷺ: «والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله»(٣)، فجهاد النفس إنما هو مصابرتها باتباع الحق وترك الشهوات، فهذا الذي

---

(١) التَّسْنيم: قالوا: هو ماءٌ في الجنة، وسمّي بذلك لأنه يجري فوق الغرف والقصور.

(٢) آل عمران: ١٨٥.

(٣) رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه عن فضالة بن عبيد، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة. (الجامع الصغير)، وفي مسند الإمام أحمد (٦ ـ ٢٠، ٢٢) أن عمرو بن مالك الجبني أخبر أنه سمع فضالة بن عبيد يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «من مات على مرتبة من هذه المراتب بعث عليها يوم القيامة»، وبهذا الإسناد عن فضالة بن عبيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله فإنه ينمو عمله إلى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر»، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المجاهد من جاهد نفسه لله، أو قال: في الله عزَّ وجلَّ».



يليق بمعنى هذه الآية ، لكنا نجلب أقوال المفسرين نصّاً لتكون معرضة للنظر ، قال الزجاج (وهو متعلق في ذلك بألفاظ ابن مسعود): أُمر في هذه الآية بجهاد الكفار والمنافقين بالسيف ، وأُبيح له فيها قتل المنافقين ، قال ابن مسعود: إنْ قدر وإلاَّ فباللسان ، وإلا فبالقلب والاكفهرار في الوجه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقتل لا يكون إلا مع التَّجْليح[١] ، ومن جلَّح خرج عن رتبة النفاق. وقال ابن عباس: المعنى: جاهد المنافقين باللسان ، وقال الحسن ابن أبي الحسن: المعنى: جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم ، قال: وأكثر ما كانت الحدود يومئذ تصيب المنافقين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ووجه ترك النبي ﷺ المنافقين بالمدينة أَنهم لم يكونوا مُجلِّحين ، بل كان كل مغموص عليه إذا وقف ادعى الإسلام ، فكان في تركهم إبقاءٌ وحيطة للإسلام ، ومخافة أن تنفر العرب إذا سمعت أَن محمداً ﷺ يقتل من يظهر الإسلام ، وقد أَوعبت هذا المعنى في صدر سورة البقرة ، ومذهب الطبري أَن النبي ﷺ كان يعرفهم ويسترهم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فلفظة عامة تتصرف في الأَفعال والأَقوال واللحظات ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾[٢] ، ومنه قول النسوة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: أَنت أَفظُّ وأَغلظ من رسول الله ﷺ[٣] ، ومعنى الغِلَظ:

---

(١) التَّجليح: المكاشفة والمجاهرة بالعداوة ، والمجالح: المكابر. (اللسان).

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) روى البخاري ومسلم هذا الحديث في باب «مناقب عمر رضي الله عنه» قالا: «استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه عاليةً أصواتهن على صوته ، فلما استأذن عمر ، قمن فبادرن الحجاب ، فأذن له رسول الله ﷺ فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك ، فقال عمر: أضحك الله سنَّك يا رسول الله ، فقال النبي ﷺ: «عجبت من هؤلاء اللاتي كنَّ عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب» ، فقال عمر رضي الله عنه: أنت أحق أن يهَبْن يا رسول الله ، ثم قال عمر: يا عدوات أنفسهن أتَهبنني ولا تَهَبْن رسول الله ﷺ! فقلن: نعم! أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ: «إيها يا بن الخطاب ، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً إلا سلَكَ فَجّاً غير فَجِّك».



خشونة الجانب، فهي ضدُّ قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[١]، ثم خبرت الآية المؤمنين عليهم في عقب الأمر بإخباره أنهم في جهنم[٢]، والمعنى: هم أَهل لجميع ما أُمرت أن تفعل بهم، والمأوى: حيث يأوي الإنسان ويستقر.

وقوله تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ الآية. هذه الآية نزلت في الْجُلاَس بن سويد بن الصامت، وذلك لأنه كان يأتي من قباءَ ومعه ابن امرأته عُمَير بن سعد ـ فيما قال ابن إسحق ـ وقال عُرْوَة: اسمُه مصعب، وقال غيره: وهما على حماريْن، وكان رسول الله ﷺ قد سمَّى قوماً ممن اتَّهمهم بالنفاق وقال: «إنهم رجس»، فقال الجُلاَسُ لِلَّذي كان يسير معه: والله ما هؤلاءِ الذين سمّى محمد إلا كبراؤُنا وسادتنا، ولئن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شرٌّ من حُمُرنا هذه، فقال له ربيبه أو الرجل الآخر: والله إنه لحق، وإنك لشَرٌّ من حمارك، ثم خشي الرجل أن يلحقه في دينه درك فخرج وأَخبر رسول الله ﷺ بالقصة، فأَرسل النبي عليه الصلاة والسلام في أَثر الجُلاس فقرَّره فحلف بالله ما قال، فنزلت هذه الآية[٣].

والإشارة بكلمة الكفر إلى قوله: «إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحُمُر»، لأَن التكذيب في قوة هذا الكلام. قال مجاهد: وكان الجُلاس لما قال له صاحبه: «إني سأُخبر رسول الله ﷺ بقولك هذا»، همَّ بقتله ثم لم يفعل عجزاً عن ذلك، فإلى هذا هي الإشارة بقوله: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾، وقال قتادة بن دعامة: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أُبي بن سلول، وذلك أَن سنان بن وبرة الأَنصاري والجهجاه الغِفَاري كسع أَحدهما رجل الآخر في غزوة المريسيع، فتثاورا، فصاح جهجاه بالأَنصار وصاح سنان بالمهاجرين فثار الناس فهدن رسول الله ﷺ الأَمر، فقال

---

(١) الشعراء: ٢١٥، وهي أيضاً ضد: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾.

(٢) في العبارة شيءٌ من القلق وقد يستقيم قوله: «والمعنى: هم أهل لجميع ما أُمرت أن تفعل بهم»، وذلك أنه أُمر بالجهاد وأُمر بالغلظة، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم»، وقال الضحاك: «جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهرتهم». وهذا يوضح ما ذكره ابن عطية من التخيير بين الجهاد بالسيف والغلظة بالكلام فهم أهل لجميع ذلك.

(٣) أخرجه ابن إسحق، وابن أبي حاتم عن كعب بن مالك، وأخرج مثله ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن عروة.



عبد الله بن أُبي بن سلول: ما أَرى هؤلاءِ إِلا قد تداعوا علينا ، ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال الأُول: سمِّن كَلْبَكَ يأكلك ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأَعزُّ منها الأذل ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فوقفه فحلف أَنه لم يقل ذلك ، فنزلت الآية مكذبة له(١) ، والإِشارة بكلمة الكفر إلى تمثيله: سَمِّنْ كلبك يأكلك ، قال قتادة: والإِشارة بـ ﴿وَهَمُّواْ﴾ إلى قوله: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾. وقال الحسن: همّ المنافقون من إِظهار الشرك ومكابرة النبي ﷺ بما لم ينالوا ، وقال تبارك وتعالى: ﴿بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ ولم يقل: «بعد إيمانهم» لأَن ذلك لم يتجاوز أَلسنتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ معناه أَن رسول الله ﷺ أَنفذ لعبد الله بن أُبي بن سلول دية كانت قد تعطلت له ، ذكر عكرمة أنها كانت اثني عشر أَلفاً ، وقيل: بل كانت للجُلاَس.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بحسب الخلاف المتقدم فيمن نزلت الآية من أَولها ، وتقدم اختلاف القراءِ في ﴿نَقَمُوٓاْ﴾ في سورة الأعراف ، وقرأَها أَبو حيْوَة وابن أَبي عبلة بكسر القاف ، وهي لغة ، وقوله: ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ استثناءٌ من غير الأَول ، كما قال النابغة:

وَلاَ عيْبَ فيهمْ غيْر أَنَّ سُيُوفَهُم … بِهِنَّ فلولٌ مِنْ قِراع الكَتَائِبِ(٢)

فكأَن الكلام: وما نقموا إلا ما حقه أن يشكر.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾: إنها نزلت في قوم من قريش أرادوا قتل رسول الله ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يناسب الآية، وقالت فرقة: إِن الجُلاس هو الذي همَّ بقتل رسول الله ﷺ،

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه. (الدر المنثور ـ وفتح القدير).

(٢) الفُلول جمع فلّ وهو الثَّلم في السيف ، والقراع والمقارعة: المضاربة بالسيوف في الحرب ، وهذا البيت من تأكيد المدح بما يشبه الذَّم ، والمعنى في الآية الكريمة: «وما عابوا وأنكروا إلا ما هو حقيق بالمدح والثناءِ» ، ومن نفس الباب قول الشاعر:

مَا نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إلا … أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا

وهذا يشبه الآية إلا أنه غير قوي السَّند، وحكى الزجاج أن اثني عشر من المنافقين همّوا بذلك فأَطلع الله عليهم، وذِكْرُ رسولِ الله ﷺ في إغنائهم من حيث كُثرت أَموالهم من الغنائم، فرسول الله ﷺ سبب في ذلك، وعلى هذا الحدّ قال رسول الله ﷺ للأنصار: «كنتم عالة فأغناكم الله بي»[1]، ثم فتح عزَّ وجلَّ لهم باب التوبة رفقاً بهم ولطفاً في قوله: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، وروي أن الجُلاس تاب من النفاق فقال: «إن الله قد ترك لي باب التوبة»، فاعترف وأَخلص وحسنت توبته. والعذاب الأَليم اللاحق بهم في الدنيا هو المقت والخوف والهجنة عند المؤمنين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾.

هذه الآية نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري، وقال الحسن: وفي معتب بن قشير معه، واختصار ما ذكره الطبري وغيره من أَمره أنه جاءَ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أَن يجعل لي مالاً فإنني لو كنت ذا مال لقضيت حقوقه وفعلت فيه الخير، فراده رسول الله ﷺ وقال: «قليلٌ تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه»، فعاود فقال له النبي ﷺ: «ألا تريد أَن تكون مثل رسول الله، لو دعوت أن تسير الجبال معي ذهباً لسارت؟»، فأَعاد عليه حتى دعا له رسول الله ﷺ بذلك، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة فتنحى عنها، وكثرت غنمه فكان لا يصلي إلا

(١) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وفي البخاري (كتاب المغازي) عن عبد الله بن زيد بن عاصم، قال: لمَّا أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي؟ وعالةً فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنّ، قال: ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ؟ قال: «لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشِعْباً لسلكت وادي الأنصار وشِعبُها، الأنصار شعار والناس دثار، إنكم ستلقون بعدي أَثَرَةً فاصبروا حتى تلقوني على الحوض».



الجمعة، ثم كثرت حتى تنحى بعيداً ونجم نفاقه، ونزل خلال ذلك فرض الزكاة على رسول الله ﷺ فبعث مصدقين بكتابه في أخذ زكاة الغنم، فلما بلغوا ثعلبة وقرأ الكتاب قال: هذه أُخت الجزية، ثم قال لهم: دعوني حتى أَرى رأيي، فلما أَتوْا رسول الله ﷺ وأَخبروه قال: «ويح ثعلبة» ثلاثاً، ونزلت الآية فيه، وحضر القصة قريب لثعلبة، فخرج إليه فقال: أدرك أَمرك فقد نزل فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أَتى رسول الله ﷺ فرغب أن يؤدي زكاته، فأَعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «إن الله أَمرني أَلا آخذ زكاتك»، فبقي كذلك حتى توفي رسول الله ﷺ، ثم ورد ثعلبة على أبي بكر، ثم على عمر، ثم على عثمان يرغب إلى كل واحد منهم أن يأخذ منه الزكاة، فكلهم رد ذلك وأَباه اقتداءً برسول الله ﷺ، فبقي ثعلبة كذلك حتى هلك في مدة عثمان[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ نص المعاقبة على الذنب بما هو أَشد منه، وقوله: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ يقتضي موافاتهم على النفاق، ولذلك لم يقبل الخلفاءُ رضي الله عنهم رجوع ثعلبة لشهادة القرآن عليه بالموافاة، ولولا الاحتمال في أنه نفاق معصية لوجب قتله.

وقرأ الأَعمش: ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ بالنون الثقيلة مثل الجماعة، [ولَنَكُونَنْ] خفيفة النون.

والضمير الذي في قوله: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ يعود على الله عزَّ وجلَّ، ويحتمل أن يعود على البخل المضمّن في الآية، ويضعف ذلك الضمير في ﴿ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾، وقوله: ﴿ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ يحتمل أن يكون نفاق كفر ويكون تقرير ثعلبة بعد هذا النص والإِبقاءُ عليه لمكان إظهاره الإِسلام وتعلقه بما فيه احتمال، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ نِفَاقًا ﴾ يريد به نفاق معصية وقلة استقامة فيكون تقريره صحيحاً، ويكون ترك في أَول الزكاة عقاباً له ونكالاً، وهذا نحو ما رُوي أن عاملاً كتب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنَّ فلاناً يمنع الزكاة، فكتب إليه أَنْ دَعْهُ واجعل عقوبته ألا يؤدي الزكاة مع المسلمين، يريد: لما يلحقه من المقت في ذلك.

---

(١) أخرجه الحسن بن سفيان، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والعسكري في الأمثال، والطبراني، وابن منده، والباوردي، وأبو نعيم في معرفة الصحابة، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر عن أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه. (الدر المنثور ـ وفتح القدير). والحديث ضعيف.



وقرأ الحسن، والأَعرج، وأَبو عمرو، وعاصم، ونافع، وسائرهم: [يكْذِبُونَ] خفيفة، وقرأَ أَبو رجاءٍ: [يُكَذِّبُون] مشددة.

وذكر الطبري في هذه الآية ما يناسبها من حديث رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، إذا وعد أَخلف، وإذا حدّث كذب، وإذا اؤْتمنَ خان»[١]، وفي حديث آخر: «وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» ونحو هذا من الأَحاديث، ويظهر من مذهب البخاري وغيره من أَهل العلم أَن هذه الخلال الذميمة منافق من اتصف بها إلى يوم القيامة. ورُوي أن عمرو بن العاص لما احتضر قال: «زوِّجوا فلاناً فإني قد وعدته، لا أَلقى الله بثلث النفاق»، وهذا ظاهر كلام الحسن بن أَبي الحسن، وقال عطاء بن أَبي رباح: «قد فعل هذه الخلال إخوة يوسف ولم يكونوا منافقين، بل كانوا أَنبياءَ»، وهذه الأَحاديث إنما هي في المنافقين في عصر النبي ﷺ، الذين شهد الله عليهم، وهذه الخصال في سائر الأمة معاصٍ لا نفاق، وذكر الطبري أَن الحسن رجع إلى هذا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا محالة أَنها كانت مع التوحيد والإيمان بمحمد ﷺ معاصٍ، ولكنها من قبيل النفاق اللغوي، وذكر الطبري عن فرقة أنها قالت: كان العهد الذي عاهد الله عليه هؤلاءِ المنافقون شيئاً نَوَوْهُ في أَنفسهم ولم يتكلموا به.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا فيه نظر[٢].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. وفي آخره: «وتلا هذه الآية ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ إلى آخر الآية، وأخرج البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»، (الدر المنثور)، و(تفسير ابن كثير).

(٢) للعلماء في هذه القضية رأيان وهي قضية «العهد والطلاق وكل حكم ينفرد به المرءُ ولا يفتقر إلى غيره فيه»، قال بعضهم: يلزمه منه ما يلتزمه بقصده وإن لم يلفظ به، قال ابن العربيّ: والدليل على صحة ما ذهبنا إليه ما رواه أشهب عن مالك وقد سُئل: إذا نوى الرجل الطلاق بقلبه ولم يلفظ به بلسانه فقال: يلزمه، كما يكون مؤمناً بقلبه وكافراً بقلبه، وقال الشافعي، وأبو حنيفة: لا يلزم أحداً حكمٌ إلا بعد أن يلفظ به، والحجة ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي عمَّا=

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ الآية. لفظ تعلق به من قال في الآية المتقدمة: إن العهد كان من المنافقين بالنِّيَّة لا بالقول، وقرأ الجمهور: ﴿يَعْلَمُوٓاْ﴾ بالياءِ من تحت، وقرأ أَبو عبد الرحمن، والحسن: [أَلَمْ تَعْلَموا] بالتاءِ من فوق، وهذه الآية تناسب حالهم، وذلك أَنها تضمنت إِحاطة علم الله بهم وحضْره لهم، وفيها توبيخهم، على ما كانوا عليه من التحدث في نفوسهم من الاجتماع على ثلب الإِسلام، وراحة بعضهم مع بعض في جهة النبي ﷺ وشرعه، فهي تعم المنافقين أَجمع، وقائل المقالة المذكورة ذهب إلى أَنها تختص بالفرقة التي عاهدت.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ ردَّ على الضمائر في قوله: ﴿يَكْذِبُونَ﴾، وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾، وقوله: ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾. و﴿يَلْمِزُونَ﴾ معناه: ينالون بأَلسنتهم، وقرأ السبعة: ﴿يَلْمِزُونَ﴾ بكسر الميم، وقرأ الحسن، وأَبو رجاءِ، ويعقوب، وابن كثير ـ فيما رُوي عنه ـ [يلْمُزون] بضم الميم، و﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ لفظة عموم في كل متصدق، والمراد به الخصوص فيمن تصدق بكثير، دلَّ على ذلك قوله عطفاً على ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾، ولو كان «الذين لا يجدون» قد دخلوا في «المطوّعين» لما ساغ عطف الشيءِ على نفسه، وهذا قول أَبي علي الفارسي في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[1] فإنه قال: المراد بالملائكة من عدا هذين وكذلك قال في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ

= حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به»، ورواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم، فإن الرجل إذا حدث نفسه بالطلاق لم يكن شيئاً حتى يتكلم به، قال أبو عمر: «ومن اعتقد بقلبه الطلاق ولم ينطق به لسانه فليس بشيءٍ، وهذا هو الأشهر عن مالك»، راجع تفسير القرطبي.

(١) البقرة: ٩٨.



وَرُمَّانٌ ﴾[(١)] ، وفي هذا كله نظر ، لأن التكرار لقصد التشريف يسوّغ هذا مع تجوز العرب في كلامها ، وأصل «المطَّوّعين» المَتَطوّعين ، فأبدلت التاءُ طاءً وأُدغم ، وأما المتصدق بكثير الذي كان سبباً للآية فأكثر الروايات أنه عبد الرحمن بن عوف ، تصدق بأَربعة آلاف وأَمسك مثلها ، فقال له النبي ﷺ: «بارك الله لك فيما أَمسكت وفيما أَنفقت»[(٢)] ، وقيل هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه تصدق بنصف ماله ، وقيل: عاصم بن عديّ ، تصدق بمائة وسْق ، وأما المتصدق بقليل فهو أَبو عقيل حبْجَاب الأَراشي ، تصدق بصاع من تمر ، وقال: يا رسول الله ، جررت البارحة بالحرير وأَخذت صاعين تركت أَحدهما لعيالي وأَتيت بالآخر صدقة ، فقال المنافقون: الله غني عن صدقة هذا ، وقال بعضهم: إن الله غني عن صاع أَبي عقيل[(٣)] ، وقيل: إن الذي لَمَزَ في القليل أَبو خيثمة ، قاله كعب بن مالك صاحب النبي ﷺ ، وتصدق عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف، وقيل: بأَربعمائة أُوقية من فضة، وقيل: أَقل من هذا ، فقال المنافقون: ما هذا إلا رياءٌ فنزلت الآية في هذا كله.

وقوله تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾ معناه: يستهزئون ويستخِفُّون ، وهو معطوف على ﴿يَلْمِزُونَ﴾ ، واعترض ذلك بأَن المعطوف على الصلة فهو من الصلة ، وقد دخل بين هذا المعطوف والمعطوف عليه قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ ، وهذا لا يلزم ، لأَن

---

(١) الرحمن: ٦٨.

(٢) أخرج البزار ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً ، فجاء عبد الرحمن فقال: يا رسول الله عندي أربعة آلاف ، أَلْفان أقرضهما ربي ، وأَلْفان لعيالي ، فقال: بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك فيما أمسكت ، وجاء رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، إني بتّ أجر الحرير فأصبت صاعين من تمر ، فصاعاً أقرضه ربي وصاعاً لعيالي ، فلمزه المنافقون ، قالوا: والله ما أعطى ابن عوف الذي أعطى إلا رياءً ، وقالوا: أو لم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ، فأنزل الله ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ الآية. وأخرج مثله البخاري ، ومسلم ، وابن المنذر ، وغيرهم عن ابن مسعود ، ولم يذكر فيه اسم المتصدق بكثير ، وذكر فيه أن المتصدق بقليل هو أبو عقيل ، وأنه تصدق بنصف صاع. (الدر المنثور) و(فتح القدير).

(٣) أخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبغوي في معجمه ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في المعرفة عن أبي عقيل قال: بتّ أجر الحديد على ظهري على صاعين من تمر ، فانقلبت بأحدهما إلى أهلي يتبلغون به ، وجئت بالآخر إلى رسول الله ﷺ أتقرب به إلى ربي ، فأخبرته بالذي كان فقال: انثره في المسجد ، فسخر القوم وقالوا: لقد كان الله غنياً عن صاع هذا المسكين، فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآيتين. (الدر المنثور).



قوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ معمول للذي عمل في ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ فهو بمنزلة قوله: «جاءَني الذي ضرب زيداً وعمراً فقتلهما». وقوله: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ تسمية العقوبة باسم الذنب، وهي عبارة عما حلَّ بهم من المقت والذل في نفوسهم، وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ معناه: مؤلم، وهي آية وعيد محض.

وقرأ جمهور الناس: ﴿جُهْدَهُمْ﴾ بضم الجيم، وقرأ الأعرج وجماعة معه: [جَهْدهُمْ] بالفتح، وقيل: هما بمعنى واحد، قاله أبو عبيدة، وقيل: هما لمعنيين، الضمّ في المال والفتح في تعب الجسم، ونحوه عن الشعبي[(١)].

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ يصح أن يكون خبر ابتداءٍ تقديره: هم الذين، ويصح أن يكون ابتداءً وخبره ﴿سَخِرَ﴾، وفي [سخِر] معنى الدعاءِ عليهم، ويحتمل أن يكون خبراً مجرداً عن الدعاءِ، ويحتمل أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ صفة جارية على ما قبلُ، كما ذكرتُ أول الترجمة.

وقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يحتمل معنيين، أحدهما أن يكون لفظ أَمر ومعناه الشرط بمعنى: إن استغفرت أَو لم تستغفر لن يغفر الله لهم، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾[(٢)]، وبمنزلة قول الشاعر:

أَسِيئِي بنا أَوْ أَحْسِنِي لاَ مَلُومَةٌ ... لَدَيْنَا وَلاَ مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتِ[(٣)]

وإلى هذا المعنى ذهب الطبري وغيره في معنى الآية، والمعنى الثاني الذي يحتمله اللفظ أن يكون تخييراً، كأَنه قال له: إن شِئْتَ فاستغفر، وإن شئتَ لا تستغفر، ثم أَعلمه أنه لا يغفر لهم وإن استغفر سبعين مرة، وهذا هو الصحيح لقول رسول الله ﷺ وتبْيينه ذلك، وذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمعه بعد نزول هذه الآية يستغفر لهم، فقال: يا رسول الله، أَتستغفر للمشركين وقد أعلمك الله أَنه لا يغفر

---

(١) وقيل: الجَهد بالفتح: المشقة، والجُهد بالضم: الطاقة.

(٢) التوبة: ٥٣.

(٣) البيت لكُثَيِّر عزّة، وفي بعض النسخ: «لنا» بدلاً من «بنا»، ورواه في (اللسان) لا ملولةٌ باللام، ومَقْلِيّة: مكروهة، وتقلّت: فعلت ما تستحق من أَجله الكره والبغض.
قال في اللسان: الجوهريُّ: تَقَلَّى أي تبغَّض قال كثير: «أسيئي بنا...» البيت، ثم قال: «خاطبها ثم غابت»، يعني انتقل من الخطاب إلى الغيبة.

لهم، فقال له: «يا عمر إن الله قد خيرني فاخترت، ولو علمت أني إذا زدت على السبعين يغفر لهم، لزدت»(١)، ونحو هذا من مقاولة عمر في وقت إرادة النبي ﷺ الصلاة على عبد الله بن أُبي بن سلول، وظاهر صلاته عليه أن كفره لم يكن يقيناً عنده، ومحال أن يصلي على كافر، ولكنه راعى ظواهره من الإقرار، ووكل سريرته إلى الله عزَّ وجلَّ، وعلى هذا كان ستر المنافقين من أجل عدم التعيين بالكفر، وفي هذه الألفاظ التي لرسول الله ﷺ رفض إلزام دليل الخطاب، وذلك أن دليل الخطاب يقتضي أن الزيادة على السبعين يُغفر معها، فقال رسول الله ﷺ: (ولو علمتُ) فجعل ذلك مما لا يعْلَمه ومما ينبغي أن يُتَعلَّم ويطلب علمه من الله عزَّ وجلَّ، ففي هذا حجة عظيمة للقول برفض دليل الخطاب، وإذا ترتب ـ كما قلنا ـ التخيير في هذه الآية، صح أن ذلك التخيير هو الذي نُسخ بقوله تعالى في سورة المنافقين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(٢) ولمالك رحمه الله مسائل تقتضي القول بدليل الخطاب، منها قوله: «إن المدرك للتشهد وحده لا تلزمه أحكام الإمام؛ لأن النبي ﷺ قال: «من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة»(٣)، فاقتضى دليل الخطاب أن من لم يدرك ركعة فليس بمدرك، وله مسائل تقتضي رفض دليل الخطاب، منها قول النبي ﷺ: «وفي سائمة الغنم الزكاة»(٤)، فدليل الخطاب أن لا زكاة في غير السائمة، ومالك يرى الزكاة في غير

---

(١) أخرج أحمد، والبخاري والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، والنحاس، وابن حبان، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت عمر يقول: لما توفي عبد الله بن أُبي دُعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام عليه، فلما وقف قلت: أعَلَى عدوّ الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا، والقائل كذا وكذا أُعَدِّدُ أيامه ورسول الله ﷺ يتبسم، حتى إذا أكثرتُ قال: يا عمر أخِّر عنّي، إني قد خيرت، قد قيل لي: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، فلو أعلم أني إن زدتُ على السبعين غُفِرَ له لزدتُ عليها، ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه، فعجبتُ لي ولجرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله، والله ورسوله أعلم، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾، فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده، حتى قبضه الله عزَّ وجلَّ. (الدر المنثور).

(٢) المنافقون: ٦.

(٣) أخرجه الشيخان، وأصحاب السنن الأربعة ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه مالك في «الموطأ»، ولفظه فيه: «وفي سائمة الغنم إذا بلغت أربعين إلى عشرين ومائة ـ شاة».

السائمة، ومنها أن الله عزَّ وجلَّ يقول في الصيد: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾[١]، فقال مالك: حكم المخطىء والمتعمد سواءٌ، ودليل الخطاب يقتضي غير هذا، وأما تمثيله بالسبعين دون غيرها من الأعداد فلأنه عدد كثيراً ما يجيءُ غاية ومقنعاً في الكثرة، ألا ترى إلى القوم الذين اختارهم موسى، وإلى أصحاب العقبة، وقد قال بعض اللغويين: إن التصريف الذي يكون من السين والباءِ والعين فهو شديد الأمْر، ومن ذلك السَّبعة فإنها عدد مقنع، هي في السموات وفي الأرض وفي خلق الإنسان وفي رزقه وفي أعضائه التي بها يطيع الله وبها يعصيه، وبها ترتيب أبواب جهنم فيما ذكر بعض الناس، وهي[٢]: عيناه وأُذناه ولسانه وبطنه وفرجه ويداه ورجلاه، وفي سهام الميسر وفي الأقاليم وغير ذلك، ومن ذلك السَّبعُ والعبوس والعنبس ونحو هذا من القول[٣].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى امتناع الغفران، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ إما من حيث هم فاسقون، وإما أنه لفظ عموم يراد به الخصوص فيمن يوافي على كفره.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

هذه آية تتضمن وصف حالهم على جهة التوبيخ لهم وفي ضمنها وعيد، وقوله: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ لفظ يقتضي تحقيرهم وأنهم الذين أبعدهم الله من رضاه، وهذا أمكن

---

(١) المائدة: ٩٥.

(٢) الضمير عائد على الأعضاء التي يطيع العبد بها ربّه ويعصيه.

(٣) قال الزمخشري في التعليل للتمثيل بالسبعين: «والسَّبعون جارٍ مجرى المثل في كلامهم للتكثير، قال عليٌّ رضي الله تعالى عنه:

لأصبحَنَّ العاص وابنَ العاصي ... سبعينَ ألفاً عاقدي النَّواصي

وقال الأزهري: «السبعون هنا جمع السَّبعة المستعملة للكثرة لا السَّبعة التي فوق الستَّة».



في هذا من أن يقال: «المتخلفون»، ولم يفرح إلا منافق، فخرج من ذلك الثلاثة، أَصحاب العُذْر(١)، ومَقْعَد: مصدر بمعنى القعود، ومثله:

مَـن كـانَ مسـروراً بمقتـل مـالِـكٍ . . . .(٢)

وقوله: ﴿خِلَٰفَ﴾ معناه: بعْد، وأَنشد أبو عبيدة في ذلك:

عَقَـبَ الـرَّبيـعُ خِـلافَهُـمْ فكَـأَنَّمـا نَشَـطَ الشَّـواطِـبُ بَيْنَهُـنَّ حَصيـرَا(٣)

يريد: بعدهم، ومنه قول الشاعر:

فَقُلْ لِلَّذي يَبْقَى خلافَ الَّذي مَضى تـأَهَّـبْ لأُخْـرَى مِثْلِهَـا فكَـأن قَـدِ(٤)

وقال الطبري: هو مصدر خالفَ يُخَالِفُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فعلى هذا هو مفعول له، والمعنى: فرح المخلفون بمقعدهم لخلاف رسول الله ﷺ، أو مصدر، ونصبه في القول الأَول كأنه على الظرف، وكراهيتهم لما ذُكر هي شحٌّ إِذ لا يؤمنون بالثواب في سبيل الله، فهم يضِنُّون بالدنيا. وقولهم: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ كان؛ لأن غزوة تبوك كانت في وقت شدة الحر وطيب الثمار والظلال، قاله ابن

---

(١) يريد الثلاثة الذين قال الله فيهم في الآية (١١٨) من هذه السورة: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾، وسيأتي الحديث عنهم.

(٢) هذا صدر بيت، وهو بتمامه:

مَـنْ كـان مَسْـروراً بِمَقْتَـلِ مَـالِـكٍ فَلْيَـأْتِ نِسْـوَتَنَـا بِـوَجْـه نَهَـارِ

وقد سبق أن استشهد المؤلف بهذا البيت وبيت آخر بعده عند تفسير قوله تعالى في الآية (٧٢) من سورة (آل عمران): ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾.

(٣) البيت في (اللسان)، وقد نسبه للحارث بن خالد المخزومي، وذكر أن ابن بَرِّي أنشده للتدليل على أن [خِلاَف] في الآية بمعنى (بَعْد)، والشَّوَاطِبُ من النساء: اللواتي يشقُقْنَ الخوص، ويَقْشُرْنَ العُسُب ليتَّخذْنَ منه الحُصْر ثم يُلقينها إلى المَنقيَّات، والمنقيَّة هي التي تأخذ كل شيءٍ على العسيب بِسكِّينها حتى تتركه رقيقاً صالحاً لعمل الحصرْ منه.

(٤) هذا ثاني بيتين، وأولهما:

تَمَنَّـى انـاسٌ أن اَمُـوتَ وإِنْ اَمُـتْ فَتِلْـكَ طَـريـقٌ لَسْـتُ فيهـا بـأَوْحَـد

وقد ذكره في اللسان غير منسوب، والرواية فيها (تَهَيَّأْ) بدلاً من (تأَهَّبْ)، وفي «البحر» (وكأَن) بدلاً من (فكأن)، ومثل هذا البيت الذي قبله قول مُزاحم العُقَيلي:

وَقَـدْ يفْـرُطُ الجهْـلُ الفتـى ثُـمَّ يَـرْعَـوي خِـلافَ الصِّبَـا لِلْجَـاهِلِيـنَ حُلُـومُ



عباس ، وكعب بن مالك ، والناس ، فأُقيمت عليهم الحجة بأَن قيل لهم: فإذا كنتم تجزعون من حرّ القيظ ، فنار جهنم التي هي أشدّ أَحْرى أَن تجزعوا منها لو فهمتم ، وقرأَ ابن عباس ، وأبو حيوة: [خلْف] ، وذكرها يعقوب ولم ينسبها ، وقرىءَ: [خُلْفَ] بضم الخاءِ ، ويقوي قول الطبري «إن لفظة الخلاف هي مصدر من خالَفَ» ما تظاهرت به الروايات من أن رسول الله ﷺ أَمرهم بالنَّفْر فعصوا وخالفوا وقعدوا مستأْذنين ، وقال محمد بن كعب: قال: «لا تَنْفروا في الحرّ» رجلٌ من بني سلمة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رجل: يا رسول الله ، الحرّ شديد فلا تنفر في الحرّ ، قال النقاش: وفي قراءَة عبد الله: [يعلمون] بدل [يَفْقَهُونَ].

وقال ابن عباس ، وأَبو رزين ، والربيع بن خثيم ، وقتادة ، وابن زيد: قوله: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ إشارة إلى مُدّة العُمْر في الدنيا ، وقوله: ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ إشارة إلى تأْبيد الخلود في النار ، فجاءَ بلفظ الأَمر ومعناه الخبر عن حالهم ، ويحتمل أن يكون صفة حالهم ، أَي: هم لما هم عليه من الخطر مع الله وسوءِ الحال بحيث ينبغي أن يكون ضحكهم قليلاً وبكاؤُهم من أجل ذلك كثيراً ، وهذا يقتضي أن يكون وقت الضحك والبكاءِ في الدنيا على نحو قوله ﷺ لأُمته: «لو تعلمون ما أَعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً»[1] ، وروي أن رسول الله ﷺ لما قال هذا الكلام أَوحى الله إليه: «يا محمد لا تقنط عبادي».

وقوله: ﴿جَزَآءً﴾ متعلق بالمعنى الذي تقديره: وليبكوا كثيراً إِذ هم مُعذَّبون جزاءً ، وقوله: ﴿يَكْسِبُونَ﴾ نصّ في أن التكسّب هو الذي يتعلق به الثواب والعقاب.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ الآية. (رجع) يستوي مُجاوزه ، وقوله تعالى: [إنْ] مبينة أَن النبي ﷺ لا يعلم بمستقبلات أَمره من أَجل وسواه[2] ، وأيضاً فيحتمل أن يموتوا هم قبل رجوعه ، وأَمْرُ الله عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ بأَن يقول لهم: ﴿لَن تَخْرُجُوا مَعِىَ﴾ هو عقوبة لهم ، وإظهارٌ لدناءَة منزلتهم وسوء حالهم ، وهذا هو المقصود في قصة ثعلبة بن حاطب التي تقدمت في الامتناع من أَخذ صدقته ، ولا خِزْي

(١) أخرجه البخاري ، والترمذي ، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ ، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾.

أعظم من أن يكون إنسان قد رفضه الشرع وردّه كالجمل الأجرب(١).

وقوله: ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ﴾ يقتضي عندي أن المراد رؤوسهم والمتبوعون، وعليها وقع التشديد بأنها لا تخرج ولا تقاتل عدواً، وكرر معنى قتال العدو؛ لأنه عُظم الجهاد وموضع بارقة السيوف التي تحتها الجنة، ولولا تخصيص الطائفة، لكان الكلام: «فإن رجعك الله إليهم»، ويشبه أن تكون هذه الطائفة قد حُتم عليها بالموافاة على النفاق، وعُيّنوا للنبي ﷺ، وإلاَّ فكيف يترتب ألا يصلي على موتاهم إن لم يعينهم الله. وقوله: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ نصّ في موافاتهم، ومما يؤيد هذا ما روي أن النبي ﷺ عيّنهم لحذيفة بن اليمان، وكانت الصحابة إذا رأوا حذيفة تأخر عن الصلاة على جنازة رجل تأخروا هم عنها، وروي عن حذيفة أنه قال يوماً: بقي من المنافقين كذا وكذا، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنشدك الله أنا منهم؟ فقال: لا، ووالله لا أمنت منها أحداً بعدك؟

وقرأ جمهور الناس: [مَعِيْ] بسكون الياءِ في الموضعين، وقرأ عاصم ـ فيما قال الفضل ـ ﴿معِيَ﴾ بحركة الياءِ في الموضعين، وقوله: [أَوَّلَ] هو بالإضافة إلى وقت الاستئذان.

والخالفون: جميع من تخلف من نساءٍ وصبيان وأهل عذر، غلب المذكر فجمع بالياءِ والنون وإن كان ثمَّ نساءٌ، وهو جمع خالف.

وقال قتادة: الخالفون: النساءُ، وهذا مردود، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الرجال، وقال الطبري: يحتمل قوله: ﴿مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ أن يريد: مع الفاسدين، فيكون ذلك مأخوذاً من: خَلَفَ الشيءُ إذا فسد، ومنه: خُلوف فم الصائم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تأويل مقحم، والأول أفصح وأجرى على اللفظة، وقرأ مالك بن دينار، وعكرمة: [مَعَ الْخَلِفينَ] وهو مقصود من «الخالفين»، كما قال: «عرِداً وبَرِداً» يريد: عارِداً وبارداً(٢) وكما قال الآخر:

---

(١) تقدم ذكر ضعف خبر ثعلبة.

(٢) يشير بهذا إلى أبيات سبق أن تكلّم عليها عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل=



مِثْلُ النَّقا لَبَّدَهُ بَرْدُ الظِّلَلْ (١)

يريد : الظلال .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ .

هذه الآية نزلت في شأن عبد الله بن أُبي بن سلول وصلاة رسول الله ﷺ عليه . روى أَنس بن مالك أن رسول الله ﷺ لما تقدم ليصلي عليه جاءَ جبريل عليه السلام ، فجذبه بثوبه وتلا عليه هذه الآية ، فانصرف رسول الله ﷺ ولم يصلِّ عليه(٢) ، وتظاهرت الروايات أن رسول الله ﷺ صلى عليه ، وأن الآية نزلت بعد ذلك ، وفي كتاب الجنائز من البخاري من حديث جابر قال : «أَتى رسول الله ﷺ عبد الله بن أُبي بعدما أُدخل حفرته فأَمر به فأُخرج ووضعه على ركبته ونفس عليه من ريقه وأَلبسه قميصه»(٣) ،

= عمران : ١٤٥] وهذه هي الأبيات :

أصْبَحَ قَلْبي صَرِدا
لا يَشْتَهِي أنْ يَرِدَا
إلا عَرِداً عَرِدَا
وصَلِّيَاناً بَرِدَا
وعَنْكَثاً مُلْتَبِدَا

يريد : عارداً وبارداً فحذف للضرورة ، والعرادة : شجرة صلبة العود ، وجمعها : عَرَادٌ ، وعرادٌ عرِد على المبالغة .

(١) النَّقا : القطعة من الرمل تنقاد محدودبة ، وفي الحديث الموضوع : «خلق الله آدم من نقا ضَريَّة» ، أي من رملها (وضَريَّة موضع معروف) ، وحكى يعقوب في تثنيته نقَيَان ونَقَوان ، والجمع نِقْيان وأَنقَاءٌ ، وهذه نقاةٌ من الرمل . ويقال : لَبَد بالمكان : أقام به ولزق ، فكأن برد الظلال ألصق تراب الرمل بالأرض وثبته عليها .

(٢) أخرجه أبو يَعْلى ، وابن جرير ، وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

(٣) الحديث في البخاري في كتاب الجنائز باب «هل يخرج الميت من القبر واللَّحد لعلَّة» ـ وتتمة الحديث=



وروي في ذلك أن عبد الله بن أُبي بعث إلى رسول الله ﷺ في مرضه ورغب إليه أن يستغفر له وأن يصلي عليه، ورُوي أن ابنه عبد الله بن عبد الله جاءَ رسول الله ﷺ بعد موت أبيه فرغب في ذلك وفي أن يكسوه قميصه الذي يلي بدنه، ففعل، فلما جاءَ رسول الله ﷺ ليصلي عليه قام إليه عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، أَتصلي عليه وقد نهاك الله عن الاستغفار لهم؟ وجعل يعدد أَفعال عبد الله، فقال له رسول الله ﷺ: أَخِّر عنِّي يا عمر فإني خُيِّرت، ولو أَعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت»[1]، وفي حديث آخر: «إن قميصي لا يغني عنه من الله شيئاً، وإني لأَرجو أن يسلم بفعلي هذا أَلف رجل من قومي»، كذا في بعض الروايات، يريد: من منافقي العرب، والصحيح أنه قال: «رجال من قومه»، فسكت عمر، وصلى رسول الله ﷺ على عبد الله، ثم نزلت هذه الآية بعد ذلك، وصلى عليه رسول الله ﷺ لموضع إظهار الإيمان، ومحالٌ أن يصلي عليه وهو يتحقق كفره، وبَعْد هذا ـ والله أَعلم ـ عُيِّن له من لا يصلي عليه، ووقع في مغازي أبي إسحق وفي بعض كتب التفسير: فأَسلم وتاب بهذه الفعلة من رسول الله ﷺ والرغبةِ من عبد الله أَلْفُ رجل من الخزرج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، قاله من لم يعرف عِدَّة الأَنصار.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ الآية. تقدم تفسير مثل هذه الآية[2]. والخطاب للنبي ﷺ والمراد أُمته إذ هو ـ بإجماع ـ ممن لا تفتنه زخارف الدنيا، ويحتمل أن يكون معنى الآية: «ولا تعجبك أيها الإنسان»، والمراد الجنس، ووجه تكريرها تأْكيد هذا المعنى وإيضاحه، لأن الناس كان يفتنون بصلاح حال المنافقين في دنياهم.

= كما جاء في البخاري: «فالله أعلم، وكان كسا عباساً قميصاً، قال سفيان: وقال أبو هريرة: وكان على رسح
وكان على رسول الله ﷺ قميصان، فقال له ابن عبد الله: يا رسول الله، أَلْبسْ أبي قميصك الذي يلي جلدك، قال سفيان: فيروون أن النبي ﷺ أَلْبَسَ عبد الله قميصه مكافأةً لما صنع»، وسفيان هو راوي الحديث عن عمرو عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم.

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر رضي الله عنهما. (الدر المنثور ـ وفتح القدير).

(٢) التوبة: ٥٥.



وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ الآية. العامل في ﴿وَإِذَآ﴾ ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ﴾، والسورة المشار إليها هي براءَة فيما قال بعضهم، ويحتمل أن تكون إلى كل سورة فيها الأمر بالإيمان والجهاد مع الرسول ﷺ، وسورة القرآن أُجمِع على ترك همزها في الاستعمال، واختُلف هل أَصلها الهمز أَم لا؟ فقيل: أَصلها الهمز، فهي من أَسْأَر إذا بقيت له قطعة من الشيء، فالسورة: قطعة من القرآن، وقيل: أَصلها ألاَّ تُهمز فهي كسورة البناءِ، وهي ما نبني منه شيئاً بعد شيءٍ، فهي الرتبة بعد الرتبة، ومن هذا قول النابغة:

أَلَــمْ تَــرَ أنَّ اللهَ أَعْطَــاكَ سُــورةً ... تـرى كـلَّ ملْـكٍ دونَهـا يَتَـذبْـذَبُ؟

وقد مضى هذا كله مستوعباً في صدر هذا الكتاب.

و﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟﴾ يحتمل أن تكون مفسرة بمعنى أي، فهي ـ على هذا ـ لا موضع لها، ويحتمل أن يكون التقدير: بأنْ، فهي في موضع نصب[1]، و﴿ٱلطَّوْلِ﴾ في هذه الآية: المالُ، قاله ابن عباس، وابن إسحق، وغيرهما، والإشارة بهذه الآية إلى الجَدِّ بن قيس، وعبد الله بن أُبيّ، ومعتب بن قشير، ونظرائهم.

والقاعدون: الزّمْنىٰ وأهل العذر في الجملة ومن تُرِك لضبط المدينة لأن ذلك عذر.

وقوله تعالى: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ الآية. تقريع وإظهار شنعة كما يقال على وجه التَّعْيير: رضيتَ يا فلان كذا؟ و﴿ٱلْخَوَالِفِ﴾: النساءُ، جمع خالفة، هذا قول جمهور المفسرين، وقال أبو جعفر النّحّاس: يقال للرجل الذي لا خير فيه: خالفةٌ، فهذا جمعه بحسب اللفظ، والمراد أخسّة الناس وأخلافهم، وقال النضر بن شميل في كتاب النقاش: الخوالف: من لا خير فيه، وقالت فرقة: الخوالف جمع خالف فهو جارٍ مجرى فوارس ونواكس وهوالك.

و﴿طُبِعَ﴾ في هذه الآية مستعار، ولما كان الطبع على الصوان والكتاب مانعاً منه وحافظاً عليه شُبّه القلب الذي غشيه الكفر والضلال حتى منع الإيمان والهدى منه بالصوان المطبوع عليه، ومن هذا استعارة الغفل والكنان للقلب، و﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ معناه: لا يفهمون.

---

(١) إذا كانت بمعنى (أي) فهي تفسيرية، لأن قبلها شرط، وإذا كان التقدير (بأنْ) فهي مصدرية.



قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ .

الأكثر في ﴿ لَٰكِنِ ﴾ أن تجيءَ بعد نفي ، وهو هنا في المعنى ، وذلك أن الآية السالفة معناها أن المنافقين لم يجاهدوا فَحَسُن بعدها : ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ ﴾ ، والخيرات جمع خَيْرةٍ ، وهو المستحسن من كل شيءٍ ، وكثر استعماله في النساءِ ، فمن ذلك قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾[١] ، ومن ذلك قول الشاعر ، أنشده الطبري :

ولقَدْ طَعَنْتُ مجَامِعَ الرَّبَلاَتِ ... رَبَلاَتِ هِنْدٍ خَيْرةِ المِلكَاتِ[٢]

و﴿ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ : الذين أدركوا بغيتهم من الجنة ، والفلاح يأتي بمعنى إدراك البغية ، كقول لبيد :

أَفْلِحْ بما شِئْت فقدْ يُبْلَغُ بالضَّعْـ ... ـفِ وقدْ يُخْدعُ الأريبُ[٣]

وقد يأْتي بمعنى البقاءِ كقول الشاعر :

لكلِّ همٍّ من الْهُموم سَعَةْ ... والمُسْيُ والصُّبْحُ لا فلاح معه[٤]

---

(١) الرحمن : ٧٠.

(٢) البيت أنشده أيضاً أبو عبيدة ، وهو لرجل من بني عدِيّ تيم جاهليّ ، قال الأخفش في قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ : «إنه لما وُصِفَ به وقيل : «فلان خير» أشبه الصفات فأدخلوا فيه الهاءَ للمؤنث ، ولم يريدوا به أفعل ، (كما في البيت) ، فإن أردت معنى التفضيل قلت : «فلانةُ خَيْرُ الناس» ولم تقل خيرة ، «وفلان خير الناس» ولم تقبل أخير.
والرَّبَلات : جمع رَبْلة بتسكين الباءِ وبتحريكها ، قال الأصمعي : والتحريك أفصح ، وهي ما حول الضَّرع والحياء من باطن الفخذ ، وخيْرة بسكون الياءِ هي الفاضلة من كل شيءٍ ، وقيل : هي الكريمة النسب ، الشريفة الحسب ، الحسنة الوجه ، الحسنة الخُلُق ، الكثيرة المال.

(٣) نسب صاحب (اللسان) البيت لعبيد ، ورواه «بالنَّوْك» بدلاً من «بالضَّعْف» وأشارَ إلى رواية الضعف ، والمعنى : عش بما شئت من عقل وحمق فقد يرزق الأحمق ويُحرم العاقل ، وقد سبق الاستشهاد بالبيت في غير هذا الموضع من الكتاب.

(٤) البيت للأضبط بن قُرَيْع السَّعْدي ، والمعنى : ليس مع كرّ الليل والنهار بقاءٌ. =



أي: لا بقاءَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبلوغ البُغية يعم لفظة الفلاح حيث وقعتْ فتأَمله.

و﴿أَعَدَّ﴾[1] معناه: يسَّر وهيأَ، وقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ يريد: من تحت مبانيها وأَعاليها، و﴿ٱلْفَوْزُ﴾ حصول الإِنسان على أَمله وظفره ببغيته، ومن ذلك فوزُ سِهام الأَيسار[2].

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الآية، اختلف المتأَولون في هؤلاءِ الذين جاءُوا ـ هل كانوا مؤمنين أو كافرين؟ فقال ابن عباس وقوم معه منهم مجاهد: كانوا مؤمنين وكانت أَعذارهم صادقة، وقرأ: [وجاء المُعْذِرون] بسكون العيْن، وهي قراءة الضحاك، وحميد الأَعرج، وأَبي صالح، وعيسى بن هلال، وقرأَ بعض قائلي هذه المقالة [المُعَذِّرونَ] بشد الذال، قالوا: وأَصله «المعتذرون» فقلبت التاءُ ذالاً وأُدغمت، ويحتمل «المُعْتَذِرُونَ» في هذا القول معْنيين، أَحدهما: المعتذرون بأَعذار حق، والآخر أن يكون: الذين قد بلغوا عذرهم من الاجتهاد في طلب الغزو معك فلم يقدروا، فيكون مثل قول لبيد:

. . . . ومنْ يبْكِ حوْلاً كامِلاً فقد اعْتَذَر[3]

وقال قتادة وفرقة معه: بل الذين جاؤُوا كفرة، وقولهم وعذرهم كذب، وكل هذه الفرقة قرأَ: ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ بشد الذال، فمنهم من قال: أَصله المعتذرون، نقلت حركة

= هذا وقد سبق لابن عطية أن استشهد بهذا البيت في مواضع أخرى من تفسيره.

(١) قال بعض المفسرين: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ . . .﴾ الآية. تفسير لكلمة (الخَيْرَات) إذ هي لفظ مبهم. وقيل: إن المراد بالخيرات هنا الحور العين بدليل الآية الكريمة: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾، أخرجه القرطبي في تفسيره عن الحسن. وقيل: المراد بها الغنائم من الأموال والذراري، ولكن ابن عطية اختار أقرب الأقوال ارتباطاً باللغة.

(٢) ذلك أنهم كانوا يتساهمون على الميسر، فكلما خرج قِدْحُ رجل قيل: قد فاز فوزاً.

(٣) هذا عجز البيت، وهو بتمامه:

إلـى الحَـوْلِ ثـمَّ اسْـمُ السَّـلام عليكمـا ومـن يَبْـكِ حَـوْلا كـاملاً فَقَـد اعْتَـذَر

أي فعل ما في طاقته واستحق أن يقبل عذره، ولبيد في البيت يطلب إلى ابنتيه أن يبكيا عليه عاماً واحداً، وبهذا يقبل عذرهما في عدم البكاء بعده.



التاءِ إلى العين وأُدغمت التاءُ في الذال، والمعنى: معتذرون بكذب، ومنهم من قال: هو من التعذير، أي الذين يعذرون الغزو ويدفعون في وجه الشرع، فالآية إلى آخرها ـ في هذا القول ـ إنما وصفت صنفاً واحداً في الكفر ينقسم إلى أعرابي وحضري، وعلى القول الأول وصفت صنفين مؤمناً وكافراً، قال أبو حاتم: وقال بعضهم: سألت مسلمة فقال: «المعذِّرون» بشد العين والذال، قال أبو حاتم: أراد: المعتذرين، والتاءُ لا تدغم في العين لبعد المخارج، وهي غلط منه أو عليه، قال أبو عمرو: وقرأ سعيد بن جبير: [المُعتَذرون] بزيادة تاءٍ، وقرأ الحسن ـ بخلاف عنه ـ وأبو عمرو، ونافع، والناس: [كَذَبوا] بتخفيف الذال، وقرأ الحسن ـ وهو المشهور عنه ـ وأُبي بن كعب، ، ونوح، وإسماعيل: [كَذَّبوا] بتشديد الذال، والمعنى: لم يصدقوه تعالى ولا رسوله وردُّوا عليه أمره، ثم توعَّد ـ في آخر الآية ـ الكافرين بعذاب أليم، فيحتمل أن يريد في الدنيا بالقتل والأسر، ويحتمل أن يريد في الآخرة بالنار.

وقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ يريد أن المعَذِّرين كانوا مؤمنين، ويرجحه بعض الترجيح فتأَمله[١]، وضعف الطبري قول من قال إن «المَعَذِّرين» من التعذير وأنحى عليه، والقول منصوصٌ ووجْهُهُ بيِّن والله المعين.

وقال ابن إسحق: المعذِّرون نفر من بني غفار، منهم خفاف بن إيماءِ بن رحْضة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يقتضي أنهم مؤمنون.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

(١) يميل أكثر المفسرين إلى أن المعتذرين كانوا مؤمنين، وهو رأي ابن عباس رضي الله عنهما، لأن التقسيم يقتضي ذلك، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؟ فلو كان الجميع كفاراً لم يكن لوصف الذين قعدوا بالكذب اختصاص، وكان التركيب الصحيح: «سيصيبهم عذاب أليم».



يقول تعالى: ليس على أَهل الأَعذار الصحيحة من ضعف أبدان أو مرض أو زمانة أو عدم نفقة ـ إثْمٌ ، والحرجُ: الإثْم[١]. وقوله: ﴿إِذَا نَصَحُواْ﴾ يريد: بِنيّاتهم وأَقوالهم سرّاً وجهرّاً ، وقرأ أبو حيوة: ﴿نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بغير لام وبنصب الهاءِ من المكتوبة[٢] ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ الآية في لائمة تُناط بهم أو تذنيب أو عقوبة ، ثم أَكد الرجاءَ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «والله لأَهل الإساءَة غفور رحيم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا على جهة التفسير أَشبه منه على جهة التلاوة لخلافه المصحف.

واختلف فيمن المراد بقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾.

فقالت فرقة: نزلت في بني مُقرِّن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبنو مُقَرِّن ستة إخوة صحبوا النبي ﷺ ، وليس في الصحابة ستة إخوة غيرهم ، وقيل: كانوا سبعة[٣].

وقيل: نزلت في عبد الله بن مُغَفَّل المزني ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ﴾ الآية. اختلف فيمن نزلت هذه الآية.

---

(١) هذه الآية أصل في سقوط التكليف عن العاجز ، فكل من عجز عن شيءٍ ، سقط عنه ، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المال ، وسقوط التكليف يكون إلى بدل هو فعلٌ تارة ، أو عُزْمٌ تارة أخرى ، ونظيرها قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ ، ومثل هذه الآيات ما رواه البخاري ، والإمام أحمد ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وغيرهم ـ عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة تبوك ، فأشرف على المدينة قال: «لقد تركتم بالمدينة رجالاً ما سرتم في مسير ، ولا أنفقتم من نفقة ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم فيه» قالوا: يا رسول الله ، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «حَبَسَهم العذر» ، فلا حرج على من حبسه العذر ، وفضل الله كبير ، ورحمته وسعت كل شيء.

(٢) يريد: لفظ الجلالة.

(٣) في (القاموس) ـ مادة قرن ـ «عبد الله ـ وعبد الرحمن ، وعقيل ، ومعقل ، والنعمان ، وسويد ، وسنان أولاد مُقَرِّن «كمحدِّث صحابيون».



فقيل: نزلت في عِرْباضِ بن سارية، وقيل: نزلت في عبد الله بن مُغفَّل، وقيل: في عائذ بن عمرو، وقيل: في أبي موسى الأشعري ورهطه، وقيل: في بني مُقَرِّن، وعلى هذا جمهور المفسرين، وقيل: نزلت في سبعة نفر من بطون شتى، فهم البكّاؤون، وهم سالم بن عُمَير من بني عمرو بن عوف، وحَرَمِيّ بن عمرو من بني واقف، وأبو ليلى عبدُ الرحمن بن كعب من بني مازن بن النجار، وسليمان بن صخر من بني المعَلَّى، وأبو رُعَيْلة عبد الرحمن بن زيد من بني حارثة، وهو الذي تصدق بعرضه فقبل الله منه، وعمرو بن غَنَمَة من بني سلمة، وعائذ بن عمرو المُزَنِيّ، وقيل: عبد الله بن عمرو المزني، قال هذا كله محمد بن كعب القرظي، وقال مجاهد: البكّاؤون هم بنو بكر من مزينة.

ومعنى قولهم: ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أي على ظهر يُركب ويُحمل عليه الأثاث، وقال بعض الناس: إنما استحملوه النعال، ذكره النقاش عن الحسن بن صالح، وهذا بعيد شاذ.

والعامل في ﴿إِذَا﴾ يحتمل أن يكون: ﴿قُلْتَ﴾ ويكون قوله: ﴿تَوَلَّوا﴾ مقطوعاً، ويحتمل أن يكون العامل: ﴿تَوَلَّوا﴾ ويكون تقدير الكلام: فقلت، أو يكون قوله: ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ بمنزلة: وجدوك في هذه الحال. وفي الكلام اختصار وإيجاز ولابُدّ، يدل ظاهر الكلام على ما اختصر منه، وقال الجرجاني في «النظم» له: إن قوله ﴿قُلْتَ﴾ في حكم المعطوف تقديره: وقلت. و﴿حَزَنًا﴾ نصب على المصدر، وقرأ معقل بن هارون: [لِنَحْمِلَهُمْ] بنون الجماعة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

قوله في هذه الآية ﴿۞ إِنَّمَا﴾ ليس بحصر، وإنما هي للمبالغة فيما يريد تقريره على نحو قولك: «إنما الشجاع عنترة»، ويقضي بذلك أنا نجد «السبيل» في الشرع على غير



هذه الفرقة «موجوداً» ، والسبيل قد توصل بِعَلَى وبِإلَى فتقول: لا سبيل على فلان ، ولا سبيل إلى فلان[١] ، غير أن وصولها بِعَلَى يقتضي أحياناً ضعف[٢] المتوصل إليه وقلَّة مَنَعَته ، فلذلك حسنت في هذه الآية ، وليس ذلك في (إلى) ، ألا ترى أنك تقول: «فلان لا سبيل له إلى الأمر ولا إلى طاعة الله» ، ولا يحسن في شبه هذا (عَلَى) ، والسبيل ـ في هذه الآية ـ سبيل العاقبة. وهذه الآية نزلت في المنافقين المتقدم ذكرهم: عبد الله بن أُبي ، والجدُّ بن قيس ، ومعتب ، وغيرهم ، وقد تقدم نظير تفسير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ ﴾ الآية. هذه المخاطبة للنبي ﷺ ، واشترك معه المسلمون في بعض لأن المنافقين كانوا يعتذرون أيضاً إلى المؤمنين ، ولأن إنباءَ الله أيضاً تحصَّل للمؤمنين. وقوله: ﴿ رَجَعْتُمْ ﴾ يريد: من غزوة تبوك. وقوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾[٣] معناه: لن نصدقكم ، ولكن لفظة ﴿ نُّؤْمِنَ ﴾ تتصل بلام أحياناً كما تقدم في قوله: ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤] ، و﴿نَبَّأَ﴾ ـ في هذه الآية ـ قيل: هي بمعنى عرَّف لا تحتاج إلى أكثر من مفعولين ، فالضمير مفعول أول ، وقوله: ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ مفعول ثان على مذهب أبي الحسن في زيادة (من) في الواجب ، فالتقدير: قد نبأنا الله أخباركم ، وهو على مذهب سيبويه نعت لمحذوف هو المفعول الثاني تقديره: قد نبأنا الله جليَّة من أخباركم. وقيل: ﴿نَبَّأَ﴾ بمعنى أعلم يحتاج إلى ثلاثة مفاعيل ، فالضمير واحد ، و﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ ثانٍ حسب ما تقدم من القولين ، والثالث محذوف يدل الكلام على تقديره: قد نبأنا الله من أخباركم كذباً ، أو نحوه ، وحذف هذا المفعول مع الدلالة عليه جائز بخلاف الاقتصار ، وذلك أن الاقتصار إنما يجوز إمَّا على المفعول الأول ويسقط الاثنان إذ هما الابتداءُ والخبر ، وإما على الاثنين

---

(١) ومن شواهد وصولها بإلى في الشعر البيت المشهور الذي سمعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكان له خبر طريف مع نصر بن حَجَّاج:

هلْ مِنْ سبيلٍ إلى خمرٍ فأشربَها ... أمْ مِنْ سَبيلٍ إلى نصر بن حَجَّاج؟

(٢) في بعض النسخ: (ضَعَة) بدلا من (ضَعْف).

(٣) قوله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ علَّة للنهي عن الاعتذار ، لأن غرض المعتذر أن يُصَدَّق فيما يعتذر به ، فإذا علم أنه مكَذَّب في اعتذاره كفَّ عنه. قاله في «البحر المحيط» ، وأشار إليه في «فتح القدير».

(٤) من الآية (٦١) من هذه السورة (التوبة).

الأخيرين ويسقط الأول، وأما أن يقتصر على المفعولين الأولين ويسقط الثالث دون دلالة عليه فذلك لا يجوز، ويجوز حذفه مع الدلالة عليه.

والإشارة بقوله سبحانه: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾[1]، ونحو هذا. وقوله: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ﴾ توعد معناه: وسيراه في حال وجوده ويقع الجزاءُ منه عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وقوله: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ يريد البعث من القبور، والغيب والشهادة يَعُمَّان جميع الأشياءِ، وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ معناه التخويف ممن لا تخفى عليه خافية.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

قيل: إن هذه الآية من أول ما نزل في شأن المنافقين في غزوة تبوك، وذلك أن بعض المنافقين اعتذروا إلى النبي ﷺ واستأذنوه في القعود قبل مسيره فأذن لهم، فخرجوا من عنده وقال أحدهم: والله ما هو إلا شحمة لأول آكل، فلما خرج رسول الله ﷺ نزل فيهم القرآن، فانصرف رجل من القوم فقال للمنافقين في مجلس منهم: والله لقد نزل على محمد ﷺ فيكم قرآن، فقالوا له: وما ذلك؟ فقال: لا أحفظ إلا أني سمعت وصفكم فيه بالرجس، فقال لهم مخشّى: والله لوَدِدْتُ أن أُجلد مائة جلدة ولا أكون معكم، فخرج حتى لحق برسول الله ﷺ، فقال له: ما جاءَ بك؟ فقال: وَجْهُ رسول الله ﷺ تسْفَعُه الريح وأنا في الكِنِّ، فروي أنه ممن تاب.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أمَرَنا بانتهارهم وعقوبتهم بالإعراض والوصم بالنفاق، وهذا مع إجْمال لا مع تعيين مصرح من الله ولا من رسوله، بل كان لكل واحد منهم ميدان المغالطة مبسوطاً، وقوله: ﴿رِجْسٌ﴾ أي نَتَن وقذر، وناهيك بهذا

(١) من الآية (٤٧) من هذه السورة، ومعنى كلامه أن الإشارة في الآية هنا ترجع إلى الآية السابقة وهي رقم (٤٧).

الوصف محطة دنيوية، ثم عطف بمحطة الآخرة فقال: ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي مسكنهم. ثم جعل ذلك جزاءً بتكسبهم المعاصي والكفر مع أن ذلك مما قدره الله وقضاه لا رب غيره ولا معبود سواه.

وأسند الطبري عن كعب بن مالك أنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك جلس للناس فجاءَه المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾. هذه الآية والتي قبلها مخاطبة للمؤمنين مع الرسول ﷺ، والمعنى: يحلفون لك مبطلين ومقصدهم أن ترضوا لا أنهم يفعلون ذلك لوجه الله ولا للبر.

وقوله: ﴿ فَإِن تَرْضَوْا ﴾ إلى آخر الآية شرط يتضمن النهي عن الرضى عنهم، وحكم هذه الآية يستمر في كل مغموص عليه ببدعة ونحوها، فإن المؤمن ينبغي أن يبغضه ولا يرضى عنه لسبب من أسباب الدنيا[1].

وقوله تعالى ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ الآية. ﴿ ٱلْأَعْرَابُ ﴾ لفظة عامة، ومعناه الخصوص فيمن استثناه الله عزَّ وجلَّ، وهذا معلوم بالوجود وكيف كان الأمر، وإنما انطلق عليهم هذا الوصف بسبب بُعدهم عن الحواضر ومواضع العلم والأحكام والشرع، وهذه الآية إنما نزلت في منافقين كانوا في البوادي، ولا محالة أن خوفهم هناك أقل من خوف منافقي المدينة، فألسنتهم لذلك مطلقة، ونفاقهم أنجم[2].

---

(١) في الآية الأولى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ ﴾الخ... ذكر الله تعالى حلفهم لأجل الإعراض، ولهذا جاءَ الأمر بالإعراض نصاً ﴿ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ﴾ لأن الإعراض من الأمور التي تظهر للناس، وفي الآية الثانية: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ ذكر سبحانه الحلف لأجل الرضى فأبرز النهي عن الرضى في صورة شرطية لأن الرضى من الأمور القلبية التي تخفى، وخُرِّج مخرج المتردِّدِ فيه وجُعل جوابه انتفاءَ رضي الله عنهم فصار رضى المؤمنين عنهم أبعد شيءٍ في الوقوع، لأنه معلوم منهم أنهم لا يرضون عمَّن لا يرضى الله عنهم.

(٢) الذي في كتب اللغة أن (العَرَب) جيل من الناس، والنسبة إليهم (عَرَبيّ)، وهم أهل الأمصار، و(الأعراب) منهم: سكان البادية خاصة، وجمعه أعاريب كما جاء في الشعر الفصيح، والنسبة إلى (الأعراب) أعرابي لأنه لا واحد له من لفظه، وليس الأعراب جمعاً للعرب كما كان الأنباط جمعاً=



وأَسند الطبري أَن زيد بن صوحان(١) كان يحدث أَصحابه بالعلم وعنده أَعرابي، وكان زيد قد أُصيبت يده اليسرى يوم نهاوند(٢)، فقال الأَعرابي: والله إِن حديثك ليعجبني وإِن يدك لتريبني، قال زيد: وما يريبك من يدي وهي الشمال؟ فقال الأَعرابي: والله ما أَدري أَليمينَ تقطعون أَم الشمال؟ فقال زيد: صدق الله، ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾. و﴿وَأَجْدَرُ﴾ معناه: أَحرى وأَقمن، والحدود هنا: السُّنن والأَحكام ومعالم الشريعة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

هذا نص في المنافقين منهم، ومعنى ﴿يَتَّخِذُ﴾ في هذه الآيات أَي: يجعل مقصده ولا ينوي فيه غير ذلك، وأَصل المغرم الدَّين، ومنه تعوذ رسول الله ﷺ من المغرم والمأْثم، ولكن كثر استعمال المغرم فيما يؤديه الإِنسان مما لا يلزمه بحق، وفي اللفظ معنى اللزوم، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾(٣) أَي: مكروهاً لازماً. و﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾: المصائب التي لا مخلص للإِنسان منها فهي تحيط به كما تحيط الدائرة، وقد يحتمل أَن تشتق من دور الزمان والمعنى: ينتظر بكم ما يأْتي به الأَيام وتدور به. ثم قال على جهة الدعاء: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾، وكل ما كان بلفظ دعاء

= لنبَط، وإنما العرب اسم جنس، وكلام ابن عطية يتفق مع هذا تماماً.

(١) زيْد بن صُوحان بن حُجر العبدي، من بني عبد القيس، من ربيعة، تابعي من أهل الكوفة، له رواية عن عمرو وعليّ، كان أحد الشجعان الرؤساءِ، وشهد وقائع الفتح فقطعت شماله يوم نهاوند، قاتل مع عليّ رضي الله عنه في يوم الجمل حتى قتل. (طبقات ابن سعد، والأعلام).

(٢) قال في معجم البلدان: بفتح النون الأولى وتكْسَر، والواو مفتوحة ونون ساكنة ودال مهملة: مدينة عظيمة في قبلة همذان، وكان فتحها سنة ١٩هـ، ويقال سنة ٢٠هـ، وقيل سنة ٢١هـ أيام عمر ابن الخطاب، حدث رجال الأدب أنه رأى بها فتى ساهماً يشكو حاله ويقول:

يـا طـولَ لَيْلـي بنَهـاوَنْـد ... مُفكِّـراً فـي البـثّ والـوَجْـدِ
كـأنَنـي فـي خَـانهَـا مُصْحَـفٌ ... مُسْتَـوحَـشٌ فـي يـدِ مُـرْتَـدِّ

(٣) من الآية (٦٥) من سورة (الفُرقان).

من جهة الله عزَّ وجلَّ فإنما هو بمعنى إيجاب الشيءِ، لأن الله لا يدعو على مخلوقاته وهي في قبضته، ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[١] و﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[٢]، فهي كلها أحكام تامة تضمنها خبرُهُ تبارك وتعالى. وقرأ الجمهور من السبعة وغيرهم: ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ بفتح السين، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن بخلاف عنه، وعاصم والأعمش بخلاف عنهما: [دَائِرَةُ السُّوءِ] بضم السين، واختلف عن ابن كثير[٣]، وقيل: الفتح المصدر والضم الاسم، واختلف الناس فيهما وهو اختلاف يقرب بعضه من بعض، والفتح في السين يقتضي وصف الدائرة بأنها سيئة، وقال أبو علي: معنى (الدائرة) يقتضي معنى (السوء) فإنما هي إضافة بيان وتأكيد، كما قالوا: «شمس النهار» و«لَحْيا رأسه»[٤].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا يقال: «رجل سَوْءٍ» إلا بفتح السين، هذا قول أكثرهم، وقد حكي: «رجل سُوءٍ» بضم السين، وقد قال الشاعر:

وكنْت كـذِئْـب السُّـوءِ لمَّا رأى دماً … بَصاحِبِهِ يَوْماً أَحالَ عَلَى الدَّم[٥]

ولم يختلف القـراءُ في فتح السين من قـوله تعـالى: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ الآية. قال قتادة: (هذه ثُنِيَّةُ الله تعالى من الأعراب)[٧]، و﴿وَيَتَّخِذُ﴾ في هذه الآية أيضاً هي بمعنى: يجعله مقصداً، والمعنى: ينوي بنفقته في سبيل الله القُرْبَةَ عند الله عزَّ وجلَّ واستغنام دعاءِ الرسول ﷺ،

---

(١) الآية (١) من سورة (الهُمَزَة).
(٢) الآية (١) من سورة (المُطَفِّفين).
(٣) تأمل أنه قال في أول هذه العبارة: «وقرأ ابن كثير» ولم يذكر عنه خلافاً كما نص على ذلك بالنسبة لعاصم وابن محيصن.
(٤) مُثَنَّى (لَحْي) بفتح اللام وسكون الحاءِ، قال في اللسان: «واللَّحْي منبت اللِّحية من الإنسان وغيره وهما لَحْيان».
(٥) البيت للفرزدق، وقد رواه في اللسان مادة ـ حول ـ «فكان كذئب السَّوءِ»، ورواه في مادة ـ سوأ ـ «وكنت كذئب السَّوءِ» والرواية فيه بفتح السّين في الموضعين.
(٦) من الآية (٢٨) من سورة (مريم).
(٧) ثُنِيَّة ـ على وزن هَدِيَّة ـ بمعنى الاستثناء، رُوي عن كعب أنه قال: «الشهداءُ ثُنِيَّة الله في الأرض» يعني استثناه من الصعقة الأولى.

ففي دعائه لهم خير الآخرة في النجاة من النار، وخير الدنيا في أرزاقهم ومنح الله لهم، فـ ﴿وَصَلَوَٰتِ﴾ على هذا عطف على ﴿قُرُبَٰتٍ﴾. ويحتمل أن يكون عطفاً على ﴿مَا يُنفِقُ﴾، أي: ويتخذ بالأعمال الصالحة صلوات الرسول قُربة، والأول أبيَن.

و﴿قُرُبَٰتٍ﴾ جمع قُرْبة أو قُرُبة بسكون الراء وضمها، وهما لغتان، والصلاة في هذه الآية: الدعاء إجماعاً، وقال بعض العلماء: الصلاة من الله رحمة، ومن النبي والملائكة دعاء، ومن الناس عبادة. والضمير في قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ يحتمل أن يعود على النفقة، وهذا في انعطاف الصلوات على القربات، ويحتمل أن يعود على الصلوات، وهذا في انعطافه على ﴿مَا يُنفِقُ﴾. وقرأ نافع: [قُرُبة] بضم الراء، واختلف عنه وعن عاصم والأعمش، وقرأ الباقون: ﴿قُرْبَةٌ﴾ بسكون الراءِ، ولم يختلف في ﴿قُرُبَٰتٍ﴾. ثم وعد تبارك وتعالى بقوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ الآية. وروي أن هذه الآية نزلت في بني مُقرّن من مُزَينة، وقاله مجاهد. وأسند الطبري إلى عبد الرحمن بن مغفل بن مُقرّن أنه قال: كنا عشرة ولد مُقرّن فنزلت فينا: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله: «عشرة ولد مقرّن» يريد الستة أولاد مقرّن لصلبه أو السبعة على ما في الاستيعاب من قول سويد بن مقرّن وبينهم لأن هذا هو الذي في مشهور دواوين أهل العلم.

قوله عزَّ وجَّل:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

قال أبو موسى الأشعري، وابن المسيّب، وابن سيرين، وقتادة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾: مَن صلى القبلتين. وقال عطاءٌ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾: من شهد بدراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وحولت القبلة قبل بدر بشهرين.

وقال عامر بن شراحيل الشعبي(١): ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾: من أدرك بيعة الرضوان. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ يريد سائر الصحابة، ويدخل في هذا اللفظ التابعون وسائر الأمة لكن بشريطة الإحسان، وقد لزم هذا الاسم الطبقة التي رأت مَنْ رأى النبي ﷺ، ولو قال قائل: إن السابقين الأوَّلين هم جميع من هاجر إلى أن انقطعت الهجرة لكان قولا يقتضيه اللفظ، وتكون ﴿مِنَ﴾ لبيان الجنس، و﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في هذه الآية عطف على قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾.

وقرأ عمر بن الخطاب، والحسن بن أبي الحسن، وقتادة، وسلام، وسعيد، ويعقوب بن طلحة، وعيسى الكوفي: [وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُون مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارُ] برفع الراءِ عطفاً على ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وكذلك ينعطف على كلتا القراءتين قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ جعل الاتباعَ عديلاً للأنصار. وأسند الطبريُّ أن زيد بن ثابت سمعه فرادّه فبعث عمر رضي الله عنه في أُبي بن كعب فسأَله فقال أُبي بن كعب: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾، فقال عمر رضي الله عنه: ما كنا نرى إلا أَنّا قد رفعنا رفعة لا ينالها معنا أَحد، فقال أُبي: إن مصداق هذا في كتاب الله في أَول سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾(٢)، وفي سورة الحشر: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾(٣)، وفي سورة الأنفال في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾(٤)، فرجع عمر إلى قول أُبي، ونبّهت هذه الآية من التابعين وهم الذين أَدركوا أَصحاب رسول الله ﷺ، كما نبّه من ذكرهم قوله ﷺ: (اللَّهم ارحم الأنصار

(١) هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري، أبو عمرو، رواية من التابعين، يضرب المثل بحفظه، ولد ونشأ ومات في الكوفة، وهو من رجال الحديث الثقات، وكان فقيهاً شاعراً، سئل عما بلغ إليه حفظه فقال: «ما كتبتُ سوداءَ في بيضاءَ ولا حدّثني رجل بحديث إلا حفظته». توفي سنة ١٠٣هـ. (راجع الوفيات، والتهذيب وتاريخ بغداد).

(٢) الآية (٣) من سورة (الجمعة).

(٣) الآية (١٠) من سورة (الحشر).

(٤) الآية (٧٥) من سورة (الأنفال).

وأَبناءَ الأَنصار وأَبناءَ أَبناءِ الأَنصار) فتأَمله(١).

وقرأَ ابن كثير: [مِن تَحْتِهَا الأَنْهارُ]، وقرأَ الباقون: ﴿ تَحْتَهَا ﴾ بإِسقاط ﴿مِنْ﴾، ومعنى هذه الآية: الحكمُ بالرضا عنهم بإِدخالهم الجنة وغفر ذنوبهم، والحكم برضاهم عنه في شكرهم وحمدهم على نعمه وإِيمانهم به وطاعتهم له، جعلنا الله من الفائزين برحمته ومنِّه.

وقوله: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ الآية. مخاطبة للنبي ﷺ شرَّك معه في بعضها أُمته، والإِشارة بقوله: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ إِلى جُهَيْنة ومُزَيْنة وأَسْلَم وغفار وعصيّة ولَحْيان وغيرهم من القبائل المجاورة للمدينة، فأَخبر الله عن منافقيهم، وتقدير الآية: «ومن أَهل المدينة قوم أَو منافقون»، هذا أَحسن ما حمله اللفظ. و﴿ مَرَدُوا ﴾ قال أَبو عبيدة: معناه: مَرَنوا عليه ولجُّوا فيه، وقيل غير هذا مما هو قريب منه، وقال ابن زيد: أَقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب الآخرون. والظاهر من معنى اللفظ أَن التمرد في الشيءِ أَو المرود عليه إِنما هو اللَّجاج والاستهتار به والعُتُو على الزاجر وركوب الرأْس في ذلك، وهو مستعمل في الشّر لا في الخير، من ذلك قولهم: شيطان ماردٌ ومَريدٌ، ومن هذا سميت مراد لأَنها تمردت، وقال بعض الناس: يقال: «تمرد الرجل في أَمر كذا» إِذا تجرد له، وهو من قولهم: «شجرة مرداءُ» إِذا لم يكن عليها ورق، ومنه: ﴿صَرْحٌ مُمَرَّدٌ ﴾(٢)، ومنه قولهم: «تمرَّدَ ماردٌ وعزَّ الأَبلقُ»(٣)، ومنه الأَمْرَد الذي لا لِحْية له، فمعنى ﴿ مَرَدُوا ﴾ في هذه الآية: لجُوا فيه واستهتروا به وعتوا على زاجرهم.

ثم نفىٰ عزَّ وجلَّ علْم نبيه بهم على التَّعيين، وأَسند الطبري عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ قال: فما بال أَقوام يتكلفون علم الناس، فلان في

---

(١) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه البخاري وغيره، وقد سبق الاستشهاد به في المجلد الثالث من هذا الكتاب عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ... ﴾.

(٢) من قوله تعالى في الآية (٤٤) من سورة النمل: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾.

(٣) مارد: حصن دومة الجندل، والأبلق: حصنٌ للسموءل بن عاديا، قيل: وصف بالأبلق لأنه بُني من حجارة مختلفة الألوان بأرض تيماءَ، وهما حصنان قصدتهما الزبّاءُ ملكة الجزيرة فلم تقدر عليهما فقالت: «تمرَّدَ ماردٌ وعزَّ الأبلق»، فصار مثلاً لكل ما يعزّ ويمتنع عن طالبه. (اللسان ـ مجمع الأمثال للميداني ـ المستقصى الزمخشري).



الجنة، وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري، أنت لعَمْري بنفسك أعلم منك بأعمال الناس، ولقد تكلَّفت شيئاً ما تكلَّفه الرسل، قال نبي الله نوح ﷺ: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١)، وقال نبي الله شعيب: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾(٢)، وقال تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾(٣).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾. في مصحف أنس بن مالك رضي الله عنه: [سيُعَذبُهُم] بالياءِ، والكلام ـ على القراءَتين ـ وعيد، واللفظ يقتضي ثلاثة مواطن من العذاب، ولا خلاف بين المتأولين أن العذاب العظيم الذي يُرَدُّون إليه هو عذاب الآخرة، وأكثر الناس أن العذاب المتوسط هو عذاب القبر، واختلف في عذاب المرة الأولى ـ فقال مجاهد وغيره: هو عذابهم بالقتل والجوع، وهذا بعيد لأن منهم من لم يصبه هذا، وقال ابن عباس أيضاً(٤): عذابهم هو بإقامة حدود الشرع عليهم مع كراهيتهم فيه، وقال ابن إسحق: عذابهم هو همُّهم بظهور الإسلام وعلو كلمته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ وهو الأشهر عنه ـ: عذابهم هو فضيحتهم ووصمهم بالنفاق، وروي في هذا التأويل أن رسول الله ﷺ خطب يوم جمعة فندَّد بالمنافقين وصرَّح وقال: «اخرج يا فلان من المسجد فإنك منافق، واخرج أنت يا فلان، واخرج أنت يا فلان) حتى أخرج جماعة منهم، فرآهم عمر يخرجون من المسجد وهو مقبل إلى الجمعة، فظن أن الناس انتشروا وأن الجمعة فاتته فاختبأ منهم حياءً، ثم وصل إلى المسجد فرأى أن الصلاة لم تُقْض وفهم الأمر(٥).

---

(١) من الآية (١١٢) من سورة (الشعراء).

(٢) الآية (٨٦) من سورة (هود).

(٣) أخرجه عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله تعالى عنه (الدر المنثور).

(٤) قال (أيضاً) نظراً للرأي الأساسي لابن عباس رضي الله عنهما وإن كان سيأتي ذكره بعد ذلك.

(٥) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن مردويه عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، وفي آخر هذه الرواية: (فلقي عمر رضي الله عنه رجلا كان بينه وبينه إخاءٌ فقال ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله ﷺ=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفعل النبي ﷺ بهم هو على جهة التأديب اجتهاداً منه فيهم، ولم يسلخهم ذلك من الإسلام وإنما هو كما يُخْرَجُ العصاة والمتهمون، ولا عذاب أعظم من هذا. وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يتكلم فيهم على الإجمال دون تعيين، فهذا أيضاً من العذاب. وقال قتادة وغيره: العذاب الأول هي علل وأدواءٌ أخبر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أنه يصبهم بها، وأسند الطبري في ذلك عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسرَّ إلى حذيفة باثني عشر رجلا من المنافقين، وقال: ستَّة منهم تكفيهم الدُّبَيْلَة[1]، سراج من نار جهنم تأخذ من كتف أحدهم حتى تفضي إلى صدره، وستة يموتون موتاً، ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا مات رجل ممن يُظَن أنه منهم نظر إلى حذيفة، فإن صلى صلَّى عمر عليه وإلا تركَ، وذكر لنا أن عمر بن الخطاب قال لحذيفة: أنشدك بالله، أمِنهم أنا؟ قال: لا، والله ولا أُؤَمن منها أحداً بعدك. وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: أما عذاب الدنيا فالأموال والأولاد، لكل صنف عذاب فهو مرتان، وقرأ قول الله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[2]، وقال ابن زيد أيضاً: المرتان هي[3] في الدنيا، الأولى: القتل والجوع والمصائب، والثانية: الموت إذ هو للكفارِ عذابٌ. وقال الحسن: الأولى هي أخذ الزكاة من أموالهم، والعذاب العظيم هو جميع ما بعد الموت، وأظن الزجاج أشار إليه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

المعنى: ومن هذه الطوائف آخرون اعترفوا بذنوبهم. واختُلف في تأويل هذه الآية

= خطبنا فقال كذا وكذا، فقال عمر رضي الله عنه: أبعدك الله سائر اليوم). (الدر المنثور).

(١) الدُّبَيْلَةُ: الداهية (مصغرة للتكبير)، ويقال: دبَلَته الدُّبَيْلَةُ.

(٢) من الآية (٥٥) من سورة (التوبة).

(٣) هكذا في جميع النسخ التي بين يديّ.



ـ فقال ابن عباس ـ فيما روي عنه ـ وأبو عثمان: هي في الأعراب، وهي عامة في الأمة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة، فهي آية ترج على هذا، وأسند الطبري هذا عن حجاج بن أبي زينب قال: سمعت أبا عثمان[1] يقول: ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من قوله: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ ﴾، وقال قتادة: بل نزلت هذه الآية في أبي لبابة الأنصاري خاصة في شأنه مع بني قريظة، وذلك أنه كلمهم في النزول على حكم الله ورسوله، وأشار هو لهم إلى حلقه يريد أن النبي ﷺ يذبحهم إن نزلوا، فلما افتضح تاب وندم وربط نفسه في سارية من سواري المسجد، وأقسم ألا يطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أو يموت، فمكث كذلك حتى عفا الله عنه ونزلت هذه الآية، وأمر رسول الله ﷺ بحَلِّه[2]، ذكر هذا القول الطبري عن مجاهد، وذكره ابن إسحق في كتاب السِّيَر أوعب وأتقن.

وقالت فرقة عظيمة: بل نزلت هذه الآية في شأن المتخلفين عن غزوة تبوك، فكان «عملهم السَّيىء» التخلف بإجماع من أهل هذه المقالة، واختلفوا في «الصالح» ـ فقال

---

(١) هو أبو عثمان النهدي.

(٢) سبق الاستشهاد بهذا الحديث، وقد أخرج البيهقي عن سعيد بن المسيب أن بني قريظة كانوا حلفاء لأبي لبابة فاطلعوا إليه وهو يدعوهم إلى حكم رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا لبابة، أتأمرنا أن ننزل؟ فأشار بيده إلى حلقه، «إنه الذبح»، فأخبر عنه رسول الله ﷺ بذلك، فقال له رسول الله ﷺ: أحسبت أن الله غفل عن يدك حين تشير إليهم بها إلى حلقك؟ فلبث حيناً حتى غزا رسول الله ﷺ تبوك، وهي غزوة العسرة، فتخلف عنها أبو لبابة فيمن تخلف، فلما قفل رسول الله ﷺ منها جاءَ أبو لبابة يسلم عليه، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ففزع أبو لبابة فارتبط بسارية التوبة التي عند باب أُم سلمة سبعاً من بين يوم وليلة في حرّ شديد لا يأكل فيهن ولا يشرب قطرة، وقال: لا يزال هذا مكاني حتى أُفارق الدنيا أو يتوب الله عليّ، فلم يزل كذلك حتى ما يسمع الصوت من الجهر ورسول الله ﷺ ينظر إليه بكرة وعشية، ثم تاب الله عليه، فنودي أن قد تاب الله عليك، فأرسل رسول الله ﷺ ليطلق عنه رباطه، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ فأطلقه عنه بيده، فقال أبو لبابة حين أفاق: يا رسول الله، إني أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأنتقب إليك فأُساكنك، وإني أختلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله ﷺ، فقال: يجزي عنك الثلث، فهجر أبو لبابة دار قومه، وساكن رسول الله ﷺ، وتصدق بثلث ماله، ثم تاب فلم يُرَ منه في الإسلام بعد ذلك إلا خير حتى فارق الدنيا. (الدر المنثور).

ويلاحظ أن قتادة يرى أن الآية نزلت في أبي لبابة وحده لتخلفه عن غزوة تبوك لا لموقفه من بني قريظة وإشارته لهم. كذلك يلاحظ أن جميع الأقوال تجعل أبا لبابة واحداً من الذين نزلت فيهم الآية، وقد اعترض أبو حيان على رأي قتادة وقال: «ويبعد ذلك من لفظ (وَآخَرُونَ) لأنه جمع».



الطبري وغيره: الاعتراف والتوبة والندم، وقالت فرقة: بل «الصالح» غزوهم فيما سلف من غزو النبي ﷺ، ثم اختلف أهل هذه المقالة في عدد القوم الذين عُنوا بهذه الآية ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا عشرة رهط ربط منهم أنفسهم سبعة، وبقي الثلاثة الذين خلفوا دون ربط وهم المذكورون بعد هذا، وقال زيد بن أسلم[1]: كانوا ثمانية منهم كردم، ومرداس، وأبو قيس، وأبو لبابة. وقال قتادة: كانوا سبعة، وقال ابن عباس أيضاً وفرقة: كانوا خمسة، وكلهم قال: كان فيهم أبو لبابة، وذكر قتادة فيهم الجَدَّ بن قيس، وهو ـ فيما أعلم ـ وهْم لأن الجَدَّ لم تُرْوَ له توبة، وأما قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرَ﴾ فهو بمعنى ﴿بِآخَرَ﴾ وهما متقاربان. و﴿عَسَى﴾ من الله واجبة.

ورُوي في خبر الذين ربطوا أنفسهم أن رسول الله ﷺ لما دخل المسجد فرآهم قال: (ما بال هؤلاءِ؟) فقيل له: إنهم تابوا وأقسموا ألا ينحلوا حتى يحلَّهم رسول الله ﷺ ويعذِرهم[2]، فقال رسول الله ﷺ: (وأنا والله لا أحلهم ولا أعذرهم إلا أن يأمرني الله بذلك، فإنهم تخلفوا عني وتركوا جهاد الكفار مع المؤمنين).[3]

وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية. رُوي أن أبا لبَابة والجماعة التائبة التي ربطت أنفسها وهي المقصودة بقوله سبحانه: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ جاءت رسول الله ﷺ لما تِيبَ عليها فقالت: يا رسول الله، إنا نريد أن نتصدق بأموالنا زيادةً في توبتنا، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أعرض لأموالكم إلا بأمر من الله»، فتركهم حتَّى نزلت هذه الآية، فهُم المراد بها، فروي أن رسول الله ﷺ أخذ ثلث أموالهم مراعاةً لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، فهذا هو الذي تظاهرت به أقوال المتأولين، ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

---

(١) هو زيد بن أسْلم العدوي العمري، مولاهم. فقيه مفسِّر، من أهل المدينة، كان مع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أيام خلافته، وكان ثقة، كثير الحديث، له حلقة في المسجد النبوي، وله كتاب في التفسير. (تهذيب التهذيب، تذكرة الحفاظ، الأعلام).

(٢) يقال عَذَرَ فلاناً فيما صنع: رفع عنه اللوم فيه. (المعجم الوسيط)، وفي (الصحاح): اعتذر رجل إلى إبراهيم النَّخَعي فقال له: «قد عذرتك غير معتذر، إن المعاذير يشوبها الكذب».

(٣) هذا جزءٌ من حديث طويل أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي بقية الحديث قصة تقدمهم بأموالهم للرسول ليتصدق منها ورفض رسول الله ﷺ لذلك إلا إذا أمره الله، وهو ما أشار إليه ابن عطية بعد ذلك.



وقالت جماعة من الفقهاءِ: المراد بهذه الآية الزكاة المفروضة، فقوله ـ على هذا ـ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ ضميره لجميع الناس، وهو عموم يراد به الخصوص إذ يخرج من الأموال الأنواع التي لا زكاة فيها كالثياب والرباع ونحوه، والضمير الذي في ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أيضاً كذلك عموم يراد به خصوص إذ يخرج منه العبيد وسواهم، وقوله: ﴿صَدَقَةً﴾ مجمل يحتاج إلى تفسير[1]، وهذا يقتضي أن الإمام يتولى أخذ الصدقات وينظر فيها، و﴿مِنْ﴾ في هذه الآية للتبعيض، هذا أقوى وجوهها.

وقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أحسن ما يحتمل أن تكون هذه الأفعال مسندةً إلى ضمير النبي ﷺ، ويحتمل أن تكون في موضع الحال من الضمير في ﴿خُذْ﴾، ويحتمل أن تكون في صِفَة الصدقة، وهذا مترجح بحسب رفع الفعل، ويكون قوله ﴿بِهَا﴾ أي بنفسها، أي: يقع تطهيرهم من ذنوبهم بها، ويحتمل أن تكون ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ صفة للصدقة و﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ مسنداً إلى النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون حالا من الصدقة، وذلك ضعيف لأنها حال نكرة، وحكى مكي أن تكون ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من صفة الصدقة وقوله ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ حالاً من الضمير في ﴿خُذْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مردودٌ لمكان واو العطف، لأن ذلك يتقدر: «خذ من أموالهم صدقة مطهرة ومزكيا بها»، وهذا فاسد المعنى، ولو لم يكن في الكلام واو عطف جاز[2]. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [تُطْهِرْهُم] بسكون الطاءِ.

وقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ معناه: ادع لهم فإن في دعائك لهم سكوناً لأنفسهم

---

(١) قال صاحب «البحر المحيط» تعليقاً على ذلك: «وإطلاق ابن عطية عليه أنه مجمل فيحتاج إلى تفسير ليس بجيّد» ورأيه أن لفظ «صدقة» مطلق لا مجمل، ولهذا يصدق بأدنى شيءٍ. «البحر ٥ـ٩٥». وكذلك يقول القرطبي: «هو مطلق غير مقيد بشرط في المأخوذ والمأخوذ منه، ولا يتبين المأخوذ ولا المأخوذ منه، وإنما بيان ذلك في السُّنة والإجماع».

(٢) حاول أبو حيان في البحر أن يجد تخريجاً لهذا الاعتراض فقال: «ويصحّ على تقدير مبتدأ محذوف والواو للحال، أي: وأنت تزكيهم»، لكنه عاد فاعترف أنه تخريج ضعيف لقلة نظيره في كلام العرب. وقال الزجاج: «والأجود أن تكون المخاطبة للنبي ﷺ، أي: فإنك تطهرهم وتزكيهم بها، على القطع والاستئناف».

وطمأنينة ووقاراً، فهذه عبارة عن صلاح المعتقد. وحكى مكي[(١)]، والنحاس[(٢)]، وغيرهما أنه قيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا وهم بعيد، وذلك أن تلك في المنافقين الذين لهم حكم الكافرين، وهذه في التائبين من التخلف الذين لهم حكم المؤمنين، فلا تناسخ بين الآيتين.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، ونافع، وابن عامر: [إِنَّ صَلَوَاتِكَ] بالجمع، وكذلك في (هود) وفي (المؤمنين)[(٣)]، وقرأ حفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي: [إِنَّ صَلاَتَكَ] بالإفراد، وكذلك قرأ حمزة والكسائي في (هود) وفي (المؤمنين)، وقرأ عاصم في (المؤمنين) وحدها جمعاً، ولم يختلفوا في سورة (الأنعام) و(سأل سائل)[(٤)]، وهو مصدر أفردته فرقة وجمعته فرقة.

وقوله تعالى: ﴿سَمِيعٌ﴾ أي لدعائك، ﴿عَلِيمٌ﴾ أي بمن يهدي ويتوب عليه وغير ذلك مما يقتضيه هاتان الصفتان. وروي أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية فعل ما أُمر به من الدعاءِ والاستغفار لهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾: رحمة لهم»، وقال قتادة: «﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي وقار لهم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما معناه أن من يدعو له النبي ﷺ فإنه تطيب نفسه ويقوى رجاؤه، ويُروى أنه قد

---

(١) اسمه مكيّ بن أبي طالب حموش بن محمد الأندلسي القيسي، مقرئ، عالم بالتفسير والعربية، من أهل القيروان، من أهم كتبه: «مشكل إعراب القرآن» و«الكشف عن وجوه القراءات وعملها»، «والهداية إلى بلوغ النهاية» في معاني القرآن، و«التبصرة في القراءات السبع» (خ)، و«الإيضاح» في الناسخ والمنسوخ، و«الرعاية» لتجويد القراءة وغيرها. توفي بقرطبة سنة (٤٣٧هـ). (الأعلام).

(٢) هو أحمد محمد بن إسماعيل المرادي المصري، أبو جعفر النحاس، مفسّر أديب، مولده ووفاته بمصر (٣٣٨هـ)، كان من نظراء نفطويه وابن الأنباري، صنف «تفسير القرآن»، و«إعراب القرآن» (خ)، و«ناسخ القرآن ومنسوخه»، و«معاني القرآن». (الأعلام).

(٣) أما في (هود) ففي قوله تعالى في الآية (٨٧): ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾، وأما في سورة (المؤمنون) ففي قوله تعالى في الآية(٢): ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾.

(٤) أما في (الأنعام) ففي قوله تعالى في الآية(٩٢): ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وأما في (سأل سائل) وهي (المعارج) ففي قوله تعالى في الآية (٢٣): ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، وأجمعوا على الإفراد فيهما لأن الكلمة مكتوبة به في السواد، قاله الإمام ابن خالويه.

صحت وسيلته إِلى الله تبارك وتعالى، وهذا بيِّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

قرأ جمهور الناس: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ على ذكر الغائب، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن ـ بخلاف عنه ـ: [أَلَمْ تَعْلَمُوا] على معنى: قل لهم يا محمد أَلم تعلموا؟ وكذلك هي في مصحف أُبي بن كعب بالتاءِ من فوق، والضمير في ﴿يَعْلَمُوٓاْ﴾ قال ابن زيد: يراد به الذين لم يتوبوا من المتخلفين، وذلك أَنه لما تيب على بعضهم قال الغير: ما هذه الخاصة التي خُص بها هؤلاءِ؟ فنزلت هذه الآية. ويحتمل أَن يكون الضمير في ﴿يَعْلَمُوٓاْ﴾ يراد به الذين تابوا وربطوا أَنفسهم.

وقوله: ﴿هُوَ﴾ تأكيد لانفراد الله بهذه الأُمور وتحقيق ذلك، لأَنه لو قال: «أَن الله يقبل التوبة» لاحتمل ذلك أَن يكون قبول رسوله قبولا منه، فبيَّنت الآية أَن ذلك مما لا يصل إِليه نبي ولا ملك، وقوله: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ معناه: يأمر بها ويُشرِّعها كما تقول: أَخذ السلطان من الناس كذا، إِذا حملهم على أَدائه، وقال الزجاج: معناه: ويقبل الصدقات، وقد وردت أَحاديث في أَخذ الله صدقة من عبيده، منها قوله ﷺ الذي رواه عبد الله بن أَبي قتادة المحاربي عن ابن مسعود عنه: «إِنَّ العبد إِذا تصدق بصدقة وقعت في يد الله قبل أَن تقع في يد السائل»(١) ومنها قوله الذي رواه أَبو هريرة: «إِنَّ الصدقة تكون قدر اللقمة يأْخذها الله بيمينه فيُربيها لأَحدكم كما يربي أَحدكم فَلُوَّه أَو فصيله حتى يكون مثل الجبل»(٢). وغير هذا من الأَحاديث التي هي عبارة عن القبول والتحفي بصدقة العبد، فقد يحتمل أَن تُخرَّج لفظة ﴿وَيَأْخُذُ﴾ على هذا.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن مسعود بلفظ (ما تصدق رجل بصدقة إلا وقعت...) وفي آخره: ثم قرأ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾. (الدر المنثور).

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن أبي هريرة، وأخرج مثله ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن أبي هريرة. (الدر المنثور).



ويتعلق في هذه الآية القول في قبول التوبة ، وتلخيص ذلك أن قبول التوبة من الكفر يقطع به عن الله عزَّ وجلَّ إجماعاً ، وهذه نازلة هذه الآية ، وهذه الفرقة التائبة من النفاق تائبة من كفر ، وأَما قبول التوبة من المعاصي فيقطع بأَن الله تعالى يقبل من طائفة من الأُمة توبتهم ، واختلف ـ هل تقبل توبة الجميع؟ وأَما إِذا عين إِنسان تائب فيرجى قبول توبته ولا يقطع بها على الله. وأَما إِذا فرضنا تائباً غير معين صحيح التوبة ، فهل يقطع على الله بقبول توبته أَم لا؟ فاختُلف ـ فقالت فرقة فيها الفقهاءُ والمحدثون ـ وهو كان مذهب أَبي رضي الله عنه[1] ـ: يقطع على الله بقبول توبته لأَنه تعالى أَخبر بذلك عن نفسه ، وعلى هذا يلزم أَن تقبل توبة جميع التائبين. وذهب أَبو المعالي وغيره من الأَئمة إِلى أَن ذلك لا يقطع به على الله تعالى ، بل يقوى فيه الرجاءُ ، ومن حجتهم أَن الإِنسان إِذا قال في الجملة: إِني أَغفر لمن ظلمني ، ثم جاءَ من قد سبَّه وآذاه ، فله تعقُّب حقه ، وبالغفران لقوم يصدق وعده ولا يلزمه الغفران لكل ظالم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ونحو هذا من القول ، والقول الأَول أَرجح ، والله الموفق للصواب.

وقوله تعالى: ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ هي بمعنى «من» ، وكثيراً ما يتوصل في موضع واحد بهذه وهذه ، تقول: لا صدقة إِلا عن غنى ، ومن غنى ، وفعل فلان ذلك من أَشره وبطره ، وعن أَشره وبطره[2].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ تقرير ، والمعنى: حق لهم أَن يعلموا ، وقوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ﴾ الآية. صيغة أَمر مضمنها الوعيد ، وقال الطبري: المراد بها الذين اعتذروا من المتخلفين وتابوا.

---

(١) كان ابن عطية يعتز برأي والده دائماً ، ووالده هو الإمام الحافظ أبو بكر غالب ابن عطية ، فقيه ، ومحدث ، وزاهد ، أخذ عن أعلام الأندلس ، ورحل إلى المشرق سنة ٤٦٩هـ وأخذ عن علمائه. وهذا العالم الفقيه هو الأستاذ الأول لابن عطية رحمه الله.

(٢) يمين الأمير» أفاد أنه جلس في ذلك الجانب ولكن مع ضرب من البعد ، ولهذا فإنها تفيد هنا أن التائب يجب أن يعتقد في نفسه أنه بعيد عن قبول الله توبَتَه بسبب ذلك الذنب فيحصل له انكسار العبد الذي طرده مولاه وأبعده عن حضرته ، فلفظة (عن) كالتنبيه على أنه لابد من حصول هذا المعنى للتائب ، ومن المعروف أن (عن) للمجاوزة ، وأن (من) لابتداءِ الغاية.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر أن المراد بها الذين اعتذروا ولم يتوبوا، وهم المتوعدون، وهم الذين في ضمير قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ إلا على الاحتمال الثاني من أنَّ الآيات كلها في الذين خلطوا عملاً صالحا وآخر سيئاً. ومعنى ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ أي موجوداً متعرضاً للجزاءِ عليه بخير أو شر، وأما الرسول والمؤمنون فرؤيتهم رؤية حقيقية لا تجوز، وقال ابن المبارك: رؤية المؤمنين هي شهادتهم على المرءِ بعد موته، وهي ثناؤهم عند الجنائز. وقال الحسن ما معناه أنهم حذروا من فراسة المؤمن التي قال فيها النبي ﷺ: «اتَّقوا فراسة المؤمن فإِنه ينظر بنور الله»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يريد البعث من القبور، ومعنى الغيب والشهادة: ما غاب وما شوهد، وهي حالتان تعم كل شيءٍ[(٢)]، وقوله ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ عبارة عن حضور الأعمال وإِظهارها للجزاءِ عليها، وهذا وعيد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ عطف على قوله أولا: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾، وقرأ نافع، والأعرج، وابن نصاح، وأبو جعفر، وطلحة، والحسن، وأهل الحجاز: ﴿مُرْجَوْنَ﴾ من أرجى يُرْجي دون همز، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وأهل البصرة: [مُرْجئُونَ] من أرجأ يرجئُ بالهمز، واختلف عن عاصم، وهما لغتان، ومعناهما

(١) أخرجه البخاري في التاريخ، والترمذي عن أبي سعيد، وأخرجه الطبرانيُّ في الكبير، وابن عدي في الكامل عن أبي أُمامة، وأخرجه ابن جرير عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) هكذا في جميع النسخ التي بين يدي، ويلاحظ أن الضمائر كلها للمفرد، وكان الصحيح أن يقول: (هما حالتان تَعُمَّان)، وهذه الظاهرة تكررت كثيراً في أُسلوب ابن عطية وأشرنا إليها في كل موضع.



التأخير، ومنه المرجئة لأنهم أخروا الأعمال، أي أخروا حكمها ومرتبتها. وأنكر المبرد ترك الهمز في معنى التأخير، وليس كما قال.

والمراد بهذه الآية ـ فيما قال ابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن إسحق ـ الثلاثة الذين خلفوا، وهم هلال بن أُمية الواقفي، ومرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، ونزلت هذه الآية قبل التوبة عليهم، وقيل: إنها نزلت في غيرهم من المنافقين الذين كانوا معرضين للتوبة مع بنائهم مسجد الضِّرار، وعلى هذا يكون ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ بإسقاط واو العطف بدلا من ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ أو خبر ابتداءٍ تقديرهم: هم الذين، فالآية ـ على هذا ـ فيما ترج لهم واستدعاءٌ إلى الإيمان والتوبة. و﴿عَلِيمٌ﴾ معناه: بمن يهدي إلى الرشد، و﴿حَكِيمٌ﴾ فيما ينفذه من تنعيم من شاءَ وتعذيب من شاءَ لا رب غيره ولا معبود سواه.

وقرأَ عاصم، وعوام القراءِ، والناس في كل قطر إلا بالمدينة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾، وقرأَ أهل المدينة، نافع، وأَبو جعفر، وشيبة، وغيرهم: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ بإسقاط الواو، وكذلك هي في مصحفهم، قاله أَبو حاتم، وقال الزهراوي: هي قراءَة ابن عامر، وهي في مصاحف أَهل الشام بغير واو. فأَما من قرأَ بالواو فذلك عطف على قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ أي: ومنهم الذين اتخذوا، وأَما من قرأَ بإِسقاطها فرفع الذين بالابتداءِ، واختلف في الخبر ـ فقيل: الخبر: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، قاله الكسائي، ويتجه بإضمارٍ إما في أَول الآية وإما في آخرها بتقدير: «لا تقم في مسجدهم»، وقيل: الخبر: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ﴾، قاله النحاس، وهذا أَفصح، وقد ذكرت كون ﴿وَالَّذِينَ﴾ بدلاً من ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ آنفاً. وقال المهدوي: الخبر محذوف تقديره: «مُعذبون» أَو نحوه.(١)

وأَما الجماعة المرادة «بالذين اتخذوا» فهم منافقو بني غنم بن عوف، وبني سالم بن عوف، وأسند الطبري عن ابن إسحق عن الزهري وغيره أنه قال: أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك حتى نزل بذي أَوان ـ بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ـ وقد كان أَصحاب مسجد الضِّرار أتوه وهو يتجهَّز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنا قد

(١) وقال الزمخشري: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ محله النصب على الاختصاص كقوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَوٰةَ﴾.



بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: إني على جناح سفر وحال شغل، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه، فلما أقبل ونزل بذي أوان نزل عليه القرآن في شأن مسجد الضرار، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُّخْشُم، ومعن بن عدي أو أخاه عاصم بن عدي فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحَرِّقاه، فانطلقا مسرعين ففعلا، وحرَّقاه بنار في سعف[1]. وذكر النقاش أن رسول الله ﷺ بعث لهدمه وتحريقه عمار بن ياسر، ووحشيا مولى المطعم بن عدي[2]، وكان بانوه اثني عشر رجلاً: خِذام بن خالد ومن داره أخرج مسجد الشقاق[3]، وثعْلبة بن حاطب[4]، ومُعَتِّب بن قُشير، وأبو حبيبة بن الأزعر[5] وعباد بن حُنَيف أخو سهل بن حُنيف، وجارية بن عمرو[6]، وابناه: مُجَمِّع بن جارية وهو كان إمامهم، وحلف لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في خلافته أنه لم يشعر بأمرهم، وزيْدُ بن جارية، ونبْتَل بنُ الحارث، وبَحْزَج من بني ضبيعة[7]، وبجاد بن عثمان[8]، ووديعة بن ثابت. وبَحْزَج منهم هو الذي حلف لرسول الله ﷺ: ما أردت إلا الحسنى والتوسعة علينا وعلى من عجز أو ضعف عن المسير إلى مسجد قباء.

وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

والآية تقتضي شرح شيء من أمر هذه المساجد، فروي أن رسول الله ﷺ لمَّا قدم المدينة وقت الهجرة بنى مسجداً في بني عمرو بن عوف، وهو مسجد قباء، وقيل:

---

(١) أخرجه ابن إسحق، وابن مردويه عن أبي رهم بن كلثوم بن الحصين الغفاري، وكان من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة، وأخرج مثله ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما. (الدر المنثور).

(٢) هو وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه.

(٣) خِذَام بن خالد من بني عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف. وهو بالخاءِ والذال المعجمتين.

(٤) نقل القرطبي عن ابن عبد البر أنه قال: «وفيه نظر لأنه شهد بدراً».

(٥) كتب بالزاي في كل المراجع تقريباً ما عدا القرطبي فقد كتبت فيه بالذال.

(٦) في «القرطبي» و«الدر المنثور»: جارية بن عامر، وفي «البحر المحيط» و«الألوسي»: حارثة بن عامر.

(٧) في بعض النسخ جاءَ اسمه: (يَخْرج) بالياءِ والخاءِ والراءِ، وفي الدر المنثور: يخدج بالدال المهملة، ولكنا اخترنا ما يتفق مع ما في الطبري وسيرة ابن هشام، والبحر المحيط.

(٨) بالباءِ المفتوحة.



وجده مبنياً قبل وروده، وقيل: وجده موضع صلاة فبناه، وتشرف القوم بذلك فحسدهم من حينئذ رجال من بني عمهم من بني غنم بن عوف وبني سالم بن عوف، فكان فيهم نفاق، وكان موضع مسجد قباءٍ مربطاً لحمار امرأة من الأنصار اسمها لية، فكان المنافقون يقولون: والله لا نصبر على الصلاة في مربط حمار لية ونحو هذا من الأقوال، وكان أبو عامر عبد عمرو المعروف بالراهب منهم، وكانت أُمه من الروم، فكان يتعبد في الجاهلية فسمي الراهب، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة، وكان سيداً نظيراً[1] وقريباً من عبد الله بن أبي بن سلول، فلما جاءَ الله تبارك وتعالى بالإسلام نافق ولم يزل مجاهراً بذلك فسماه رسول الله ﷺ الفاسق، ثم خرج في جماعة من المنافقين فحزَّب على رسول الله ﷺ الأحزاب، فلما ردهم الله بغيظهم أقام أبو عامر بمكة مظهراً لعداوته، فلما فتح الله مكة هرب إلى الطائف، فلما أَسلم أَهل الطائف خرج هارباً إلى الشام يريد قيصر مستنصراً به على رسول الله ﷺ، وكتب إلى قومه المنافقين منهم أن ابنوا مسجداً مُقَاوَمَةً لمسجد قباءٍ وتحقيراً له، فإني سآتي بجيش من الروم أُخرج به محمداً وأَصحابه من المدينة، فَبَنَوْهُ وقالوا: سيأتي أَبو عامر ويصلي فيه ويتخذه معبداً ويُسَر به، ثم إن أَبا عامر هلك عند قيصر. ونزل القرآن في أَمر مسجد الضرار، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعني أَبا عامر وقولهم: «سيأْتي أَبو عامر». وقرأ الأَعمش: [للّذين حاربوا الله]. وقوله ﴿ضِرَارًا﴾ أَي داعية للتضار بين جماعتين، فلذلك قال: ﴿ضِرَارًا﴾، وهو في الأَصل مصدر ما يكون من اثنين وإن كان المصدر الملازم لذلك مُفَاعلة كما قال سيبويه[2]. ونصب ﴿ضِرَار﴾ وما بعده على المصدر في موضع الحال، ويجوز أَن يكون على المفعول لأجله، وقوله: ﴿بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد: بين الجماعة التي كانت تصلي في مسجد قباءٍ، فإن من جاوز مسجدهم كانوا يصرفونه إليه وذلك داعية إلى صرفه عن الإيمان. وقيل: أَراد بقوله:

---

(١) النَّظير: المِثْلُ والمساوي، فهو مساو لابن سلول في المكانة بين قومه، وفي أبي عامر الراهب هذا يقول كعب بن مالك:

معـاذَ اللهِ مـن فِعْـلٍ خَبيـثٍ ... كَسَعْيِـكَ فـي الْعَشِيرَةِ عَبْدَ عَمْـرو
وقُلْـتَ بـأَنَّ لـي شـرَفـاً وَذِكْـراً ... فَقَـدْتَـابَعْـتَ إيمـانـاً بِكُفْـرِ

(٢) قال بعض العلماءِ: الضَّرَر: الذي لك به منفعة وعلى جارك فيه مضَرَّة ـ والضِرَّار: الذي ليس لك فيه منفعة وعلى جارك فيه المَضَرَّة.



﴿بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جماعة مسجد رسول الله ﷺ، وهذا بحسب الخلاف في المسجد المؤسس على التقوى، وسيأتي ذلك. قال النقاش: يلزم من هذا ألا يُصَلَّى عليه في كنيسة ونحوها لأنها بنيت على شرٍّ من هذا كله، وقد قيل في هذا: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تفقه غير قوي[١].

والإرصاد: الإعداد والتهيئة، والذي حارب الله ورسوله: أبو عامر الفاسق، وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ يريد: في غزوة الأحزاب وغيرها، والحالف المراد في قوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ هو بَخزَجُ ومن حلف من أصحابه، وكُسِرَت الألف من قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ لأن الشهادة في معنى القول.

وأسند الطبري عن شقيق[٢] أنه جاءَ ليصلي في مسجد بني غاضرة[٣] فوجد الصلاة قد فاتته، فقيل له: إن مسجد بني فلان لم يصل فيه بعد فقال: لا أُحب أن أُصلي فيه فإنه بُني على ضرار، وكل مسجد بني ضراراً ورياءً وسُمعة فهو في حكم مسجد الضرار، وروي أن مسجد الضرار لما هدم وأُحرق اتخذ مزبلة ترمى فيه الأقذار والقمامات.

(١) قال القرطبي: «لأن الكنيسة لم يقصد ببنائها الضرر بالغير، وإن كان أصل بنائها على شر، وإنما اتخذ النصارى الكنيسة واتخذ اليهود البيعة موضعاً للعبادة بزعمهم كالمسجد لنا فافترقا، وقد أجمع العلماءُ على أن من صلى في كنيسة أو بيعة على موضع طاهر أن صلاته صحيحة، وذكر البخاري أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يصلي في البيعة إذا لم يكن فيها تماثيل».

(٢) عرف بهذا اثنان: شقيق بن إبراهيم الأزدي البَلْخي، أبو علي، زاهد صوفي من مشاهير المشايخ في خراسان، من أول من تكلم في علوم الصوفية، وكان من كبار المجاهدين، استشهد سنة ١٩٤هـ. وشقيق بن ثور بن عفير السدوسي البصري، من أشراف العرب في العصر الأموي، شهد صفين مع علي، وقدم على معاوية في خلافته، وهو من التابعين، ومن الثقات عند رجال الحديث، وتوفي سنة ٦٤هـ. ونرجح أن المراد هو الثاني لأن الأول عاش ومات في خراسان، والحادثة المروية هنا تعلق بني غاضرة وهم من العرب.

(٣) في الصحاح: غاضرة: قبيلة من بني أسد، وحيٌّ من بني صعصعة، وبطن من ثقيف. وفي القاموس: وهم بنو غاضرة بن بغيض بن ثابت بن غطفان بن سعد.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

وروي أَن رسول الله ﷺ لما نزلت: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ كان لا يمر بالطريق التي فيها المسجد، وهذا النهي إنما هو لأن البانين لمسجد الضرار قد كانوا خادعوا رسول الله ﷺ وقالوا: بنينا مسجداً للضرورات والسيل الحايل بيننا وبين قومنا فنريد أَن تصلي لنا فيه وتدعو بالبركة، فهَمَّ رسول الله ﷺ بالمشي معهم إلى ذلك، واستدعى قميصه لينهض فنزلت الآية: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾. وقوله ﴿ لَّمَسْجِدٌ ﴾ قيل: إن اللام لام قَسَم، وقيل: هي لام الابتداءِ كما تقول: لَزيدٌ أَحسن الناس فعلا، وهي مقتضية تأكيداً.

وقال ابن عباس، وفرقة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم: المراد بالمسجد الذي أُسس على التقوى: هو مسجد قِباءٍ، وروي عن عمر، وأَبي سعيد، وزيد بن ثابت أَنه مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، ويليق القول الأَول بالقصة، إلا أَن القول الثاني رُوي عن رسول الله ﷺ، ولانظر مع الحديث، وأَسند الطبري في ذلك عن أَبي سعيد الخدري أَنه قال: اختلف رجل من بني خدرة ورجل من بني عمرو بن عوف فقال الخدري: هو مسجد الرسول ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباءٍ، فأَتيا رسول الله ﷺ فسأَلاه فقال: «هو مسجدي هذا، وفي الآخر خير كثير»[1] إلى كثير من الآثار في هذا عن أُبي بن كعب، وسهل بن سعد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومسجد رسول الله ﷺ كان في بقعته نخل وقبور مشركين ومِربد[2] ليتيمين كانا في

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، وابن حبان، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن أبي سعيد الخدري: (الدر المنثور، وفيض القدير).

(٢) المِرْبد: موقف الإبل ومَحْبسها، وبه سُمّي مِرْبد البصرة، كان سوقاً للإبل، وكان الشعراء يجتمعون فيه.

حجر أَسعد بن زرارة ، وبناه رسول الله ﷺ ثلاث مرات: الأُولى بالسَّميط[١] وهي لبنة أَمام لبنة ، والثانية بالصعيدة[٢] ، وهي لبنة ونصف في عرض الحائط ، والثالثة بالأُنثى والذكر ، وهي لبِنتان تعرض عليهما لبنتان ، وكان في طوله سبعون ذراعاً ، وكان عُمُده النخل ، وكان عريشاً يكف المطر ، وعرض على رسول الله ﷺ بنيانه ورفعه فقال: «لا ، بل يكون عريشاً كعريش أَخي موسى كان إِذا قام ضرب رأْسه في سقفه» ، وكان رسول الله ﷺ ينقل فيه اللَّبن على صدره ، ويقال إِن أَول من وضع في أَساسه حجراً رسول الله ﷺ ، ثم وضع أَبو بكر حجراً ، ثم وضع عمر حجراً ، ثم وضع عثمان حجراً ، ثم رمى الناس بالحجارة فتفاءَل بذلك بعض الصحابة في أَنها الخلافة فصَدَقَ فأْله.

وقوله: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ قيل: معناه: منذ أَول يوم ، وقيل: معناه: من تأْسيس أَول يوم ، وإِنما دعا إِلى هذا الاختلاف أَنَّ من أُصول النحويين أَنَّ (من) لا تُجر بها الأَزمان وإِنما تُجَر الأَزمان بمنذ ، تقول: ما رأَيته منذ يومين أَو سنة أَو يوم ، ولا تقول: من شهر ولا من سنة ، ولا من يوم ، فإِذا وقعت (من) في الكلام وهي تلي زمناً[٣] فيقدر مضمر يليق أَن تجره (من) كقول الشاعر:

لِمَنِ الديَارُ كقُنَّةِ الحِجْرِ ... أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ ومِنْ دهْرِ؟[٤]

و«مِنْ شَهْرِ» رواية ، فقدروه: «مِنْ مرِّ حِجَجٍ ومِنْ مرِّ دَهْرِ» ، ولما كان قوله تعالى ﴿أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ يوماً وهو اسم زمان احتاجوا فيه إِلى تقدير «مِنْ تأْسيس»[٥] ، ويحسن عندي

---

(١) السَّمِيطُ: بفتح السِّين المشددة وكسر الميم ، وقد تشدّد السِّين مع الضم وتشدّد الميم مع الفتح هو: الآجُرّ القائم بعضه فوق بعض ، وقد يُسَمى المَسْمُوط ، والسَّمْط. (المعجم الوسيط).

(٢) طريقة ثانية في البناء يكون عرض الجدار فيها مساوياً لِلَبنَة ونصف لَبنَة ، وأما الطريقة الأولى فيكون عرض الجدار فيها لبنة واحدة ، وقد وضح ذلك ابن عطيَة ، أما الطَريقة الثالثة فهي قائمة على وضع لَبِنَتين ثم فوقهما لبنتان أُخريان بالعرض.

(٣) هكذا في جميع النسخ التي بين يديّ ، والمفروض أن تكون العبارة: «فإذا وقعت (مِنْ) في الكلام يليها زمن».

(٤) البيت لزهير بن أبي سُلْمى ، وهو مطلع قصيدة يمدح بها هرم بن سنان ، والقُنَّة: قِمَّة الشيءِ أو ما أشرف منه على الأرض ، والحِجر: منازل ثمود عند وادي القرى بناحية الشام ، وأَقْوَيْن: أَقْفَرْن وخَلَوْنَ ، والحِجَج: السنون.

(٥) يعني: «من تأسيس أول».



أَنْ يُستغنى في هذه الآية عن تقدير ، وأَن تكون (مِنْ) تجر لفظة ﴿أَوَّلِ﴾ لأَنها بمعنى البداءَة ، كأَنه قال: من مبتدإِ الأيام ، وهي ـ هنا ـ تقوم مقام «المَرّ» في البيت المتقدم ، وهي كما تقول: «جئت من قبلك ومن بعدك» وأَنت لا تدل بهاتين اللفظتين إِلا على الزمن ، وقد حُكي لي هذا الذي اخترته عن بعض أَئمة النحو.

ومعنى ﴿أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ أَي بصلاتك وعبادتك. وقرأَ جمهور الناس: ﴿أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ﴾ بكسر الهاءِ ، وقرأَ عبد الله بن زيد: [أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فيهُ] بضم الهاءِ الثانية على الأَصل ، ويُحَسِّنه تجَنُّب تكرار لفظ واحد ، وقال قتادة وغيره: الضمير عائد على مسجد الرسول ﷺ ، والرجال: جماعةُ الأَنصار.

وروي أَن رسول الله ﷺ قال لهم: «يا معشر الأَنصار إِني رأيت الله أَثنى عليكم بالطهور فماذا تفعلون؟» فقالوا: يا رسول الله: إِنا رأَينا جيراننا من اليهود يتطهرون بالماءِ ، (قال القاضي أَبو محمد رحمه الله: يريدون الاستنجاءَ بالماءِ) ففعلنا نحن ذلك ، فلما جاءَ الإِسلام لم ندعه ، فقال رسول الله ﷺ: «فَلا تدعوه أَبداً»[١].

وقال عبد الله بن سَلاَم[٢] وغيره ما معناه: إِن الضمير عائد على مسجد قباءٍ ، والمراد بنو عمرو بن عوف ، وروي أَن رسول الله ﷺ إِنما قال المقالة المتقدمة لبني عمرو بن عوف ، والأَول أَكثر. واختلف أَهل العلم في الأَفضل بين الاستنجاءِ بالماءِ أَو بالحجارة ، فقيل هذا وقيل هذا ، ورأَت فرقة من أَهل العلم الجمع بينهما ، فينقى بالحجارة ثم يتبع بالماءِ ، وحدثني أَبي رضي الله عنه أَنه بَلَغه أَن بعض علماءِ القيروان كانوا يتخذون في مُتَوَضَّياتهم أَحجاراً في تراب ينقون بها ثم يستنجون بالماءِ أَخذاً بهذا القول.

---

(١) هذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده (٣ـ٤٢٢) عن عويم بن ساعدة الأنصاري ، وفيه أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: «إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء» . . . الخ.

(٢) هو عبد الله بن سَلام الحارث الإسرائيلي ، أبو يوسف ، صحابي ، قيل إنه من نسل يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة ، وكان اسمه «الحصين» فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ، وفيه نزلت الآية الكريمة ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ، والآية الكريمة: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ، وقد شهد مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح بيت المقدس والجابية ، ولما كانت الفتنة بين علي رضي الله عنه وبين معاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات بها سنة ٤٣هـ ، له (٢٥) حديثاً. (تهذيب التهذيب ـ الأعلام).



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإنما يتصور الخلاف في البلاد التي يمكن فيها أن تنقي الحجارة. وابن حبيب لا يجيز الاستنجاءَ بالحجارة حيث يوجد الماءُ ، وهو قولٌ شذَّ فيه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَتَطَهَّرُوا﴾ ، وقرأ طلحة بن مصرف ، والأعمش: [يطَّهَّروا] بالإدغام ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: [الْمُتَطَهِّرِينَ] بالتاءِ ، وأسند الطبري عن عطاءٍ أنه قال: أحدث قوم من أهل قباءٍ الاستنجاء بالماءِ فنزلت الآية فيهم ، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «منهم عُويم بن ساعدة» ولم يسم أحداً منهم غير عُويم.

وقوله تعالى ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ الآية. استفهام بمعنى تقرير. وقرأ نافع ، وابن عامر ، وجماعة: [أُسِّس بُنْيَانُهُ] على بناءِ [أُسِّسَ] للمفعول ورفع [بُنْيَان] فيهما[1] ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وجماعة: ﴿أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ على بناءِ الفعل للفاعل ونصب [بُنيان] فيهما ، وقرأ عمارة بن ضبا ـ رواه يعقوب ـ الأول على بناءِ الفعل للمفعول والثاني على بنائه للفاعل. والآية تتضمن معادلة بين شيئين ، فإما بين البناءَين وإما بين البانين ، فالمعادلة الأُولى هي بتقدير: «أَبِناءُ من أَسَّس؟». وقرأ نصر بن علي ـ ورويت عن نصر بن عاصم ـ: [أَفَمَنْ أُسُّ بُنيانِهِ] على إضافة [أُسُّ] إلى البنيان ، وقرأ نصر بن عاصم ، وأبو حيوة أيضاً: [أَساسُ بُنيانِهِ] ، وقرأ نصر بن عاصم أيضاً: [أُسُسُ بُنيانِهِ] على وزن (فُعُل) بضم الفاءِ والعين ، وهو جمع أَساس كقَذَالٍ وقُذُل ، حكى ذلك أبو الفتح[2] ، وذكر أبو حاتم أن

---

(١) أي في قوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ وقوله: [أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ].

(٢) روى أبو الفتح هذه القراءات عن نصر بن عاصم ونصر بن علي في كتاب المحتسب (ج١ـ٣٠٣ـ القاهرة ـ تحقيق على النجدي) ، ويتفق كلام ابن عطية مع ما في المحتسَب في قراءتين: [أَسَاسُ بُنْيَانِهِ] بفتح الألف وألف بين السِّينين ، و[أُسُّ بُنْيَانِهِ] برفع الألف بالسين المشددة وبخفض النون في بنيانه ـ أما القراءة الثالثة فقد ضبطها ابن عطية هنا: [أُسُسُ بُنْيَانِهِ] على وزن فُعُل بضم الفاء والعين. وقال: وهو جمع أساس كَقَذَالٍ وقُذُل ، ولكن محقق المحتسب ضبطها: [أَسَسُ بُنْيَانِهِ] وقال على وزن فَعَل. وضبط الفاء والعين بالفتح. وهو ما نقله ابن عطية عن أبي حاتم بعد ذلك.

ونصر بن عاصم هو: نصر بن عاصم الليثي ، (ويقال: الدؤلي) البصري النحوي ، تابعي ، سمع من مالك بن الحويرث وغيره ، وعرض القرآن على أبي الأسود ، وروى القراءة عنه عَرْضاً أبو عمرو ، =

هذه القراءَة لنصر إنَّما هي: [أَسَسُ] بهمزة مفتوحة وسين مفتوحة وسين مضمومة، وعلى الحكايتين فالإضافة إلى البنيان، وقرأَ نصر بن علي أيضاً: [أَساس] على جمع [أُسٍّ][1]، والبنيان مصدر، يقال: بنى يبني بناءً وبُنياناً كالغُفْران والطُّغيان فسمي به المبني مثل الخلْق إذا أَردت به المخلوق، وقيل: هو جمعٌ واحدُهُ بُنْيَانَةَ، وأَنشد في ذلك أَبو علي:

كبُنْيَانَةِ القَارِي مَوْضِعُ رجْلِها ... وآثارِ نِسْعيها من الدَّفِّ أَبْلَقُ[2]

وقرأَ الجمهور: ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ﴾، وقرأَ عيسى بن عمر: [عَلَى تَقْوًى] بتنوين الواو، حكى هذه القراءَة سيبويه وردها الناس، قال أَبو الفتح: قياسها أَن تكون الأَلف للإلحاق كأَرطًى ونحوه[3].

وأَما المراد بالُبنيان الذي أُسس على التقوى والرضوانِ فهو ـ في ظاهر اللفظ وقولِ الجمهور ـ المسجدُ المذكور قبلُ، ويطرد فيه الخلاف المتقدم، وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أَنه قال: المراد بالمسجد المؤسس على التقوى هو مسجد رسول الله ﷺ، والمراد بأَنه أُسس على تقوى من الله ورضوان هو مسجد قباءٍ، وأَما البنيان الذي أُسس على شفا جرف هار فهو مسجد الضرار بإجماع.

= وعبد الله بن أبي إسحق الحضرمي، وتوفي قبل سنة مائة. (طبقات القراءِ لابن الجزري).
أما نصر بن علي فهو نصر بن علي أبو حفص الحضيضي، روى الحروف عن حفص بن سليمان عن عاصم. (طبقات القراءِ لابن الجزري).

(١) على مثال: خُفّ وأَخْفَاف وقُفْل وأَقفال. ولكن الكثير إساسٌ مثل خِفَاف، قال الشاعر:

أَصْبَحَ الملكُ ثابتَ الإسَاسِ ... في البهاليلِ مِنْ بني العَبَّاسِ

هذا وجمع الأَساس مثل قَذَال وقُذُل.

(٢) الشاهد في البيت أَن (بُنْيَانَة) واحدة (بُنْيان). والقاري: ساكن القرية، كما أن البادي: ساكن البادية. والنِّسع: المفصل بين الكف والساعد، والدَّفُّ: من قولهم: دَفَّ الطائر أي ضرب بجناحيه، أو حَرَّكَ جناحيه ورجلاه في الأرض، وفي الحديث: «كُلْ ما دَفَّ ولا تأكل ما صَفَّ». والبَلَق: سوادٌ وبياضٌ في الشيءِ، يقال: بَلِق فهو أَبْلَق، والجمع: بُلْقٌ. والبيت غير منسوب.

(٣) معنى أن الألف للإلحاق أنها ليست للتأنيث وذلك مثل أَرطىً كما قال، ومثل تَترىً، وكذلك عَلْقىً في قول العجَّاج:

يَسْتَنُّ في عَلْقىً وفي مكُور

والعَلْقَى والمُكور: ضربان من الشجر، ويَسْتَنُّ: يرعى: فالعجاج يصف ثوراً يرعى في ضروب من الشجر.



والشَّفا: الحاشية والشَّفير[١]، والجُرُف: الحفير حول البئر ونحوه مما جرفته السيول والنَّدوة والبلى[٢]، وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، والكسائي، وجماعة: ﴿جُرُفٍ﴾ بضم الراءِ، وقرأَ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وجماعة: [جُرْف] بسكون الراءِ، واختلف عن عاصم، وهما لغتان، وقيل: الأَصل بضم الراءِ وتخفيفها بعد ذلك مستعمل. و﴿هَارٍ﴾ معناه: متهدم مُنْهال، من هَار يهور، ويقال: هار يهير ويهار، وأَصله: هاير أَو هاور، فقيل: قلبت راؤُه قبل حرف العلة فجاءَ هارِوْ أَو هارِي، فصنع به ما صنع بِقَاضٍ وغازٍ، وعلى هذا يقال في حال النصب: هاريا، ومثله «في يوم راح» أَصله: رائح، ومثله «شاكي السلاح» أَصله: شائك، ومثله قول العَجاج:

لاَثٍ بـــهِ الأَشـــاءُ والعُبْـــرِي[٣]

أصله: لائِثٌ، ومثله قول الشاعر:

.. .. خَفَضُـوا أَسِنَّتَهُـمْ فكُـلٌّ نـاعِ[٤]

على أَحد الوجهين، فإِنه يحتمل أَنه من «نَعَى ينعى» والمراد أَنهم يقولون: «يا ثارات فلان»، ويحتمل أَن يريد: «فَكُلُّهم نَائِعٌ» أَي عاطِشٌ كما قال عُمير بن شييم[٥]:

---

(١) الكلمات الثلاث معناها واحد: الحرف والطرف.

(٢) الجُرف: ما أكل السَّيْل من أسفل شقّ الوادي، وجمعه أجرافٌ وجروف وجَرِفة، فإن لم يكن من شقِّه فهو شطٌّ وشاطى، وجُرْف الوادي ونحوه من أَسْنادِ المسَايِل إذا نَخَرَ الماءُ في أصله فاحتفره فصار كالدحل وأشرف أعلاه، ولعل هذا يفسر لنا معنى إضافة «الندوة والبلى» إلى «السيول» في كلام ابن عطية.

(٣) الأَشَاءُ: النَّخل، والعُبْرِيّ: السِّدْرُ الذي على شاطى الأنهار، ومعنى: «لاثٍ به»: مُطيف به.

(٤) هذا عجز بيت للأجدع بن مالك كما قال في اللسان، والبيت بتمامه:

خَيْـلانِ مِـنْ قَـوْمـي ومِـنْ أعْـدَائِهِـمْ خَفَضُـوا أسِنَّتَهُـمْ وكُـلٌّ نـاعِ

والاحتمال الثاني هنا قاله يعقوب وأنشد البيت عليه بلفظ: «وكلّ ناعِي»، قال: «أراد نايعٌ أي عطشان إلى دم صاحبه». أما الاحتمال الأول فقد قاله الأصمعي، قال: «هو على وجهه، إنما هو فاعِلٌ من نَعَيْتُ، وذلك أنهم يقولون: يالثارات فلان:

ولقَـدْ نَعَيْتُـكَ يَـوْمَ حِـزمِ صَـوَائِـقٍ بِمَعَـابِـلٍ زُرْقٍ وأَبْيَـضَ مِخْـذَمِ

أي: طلبتُ دمك فلم أزل أضرب القومَ وأطعُنُهم وأنعاك وأبكيك حتى شفيت نفسي وأخذتُ بثاري».

(٥) في بعض الأصول كتب عمرو بن شييم، وفي بعضها كتب عامر. وصحة اسمه كما أثبتناه: عمير بن=



. . . . والأَسَـــلَ النِّيَـــاعَـــا[(١)]

وقيل في ﴿هَارٍ﴾: إن حرف علَّته حُذف حذفاً، فعلى هذا يجري بوجوه الإعراب فتقول: هذا جُرُفٌ هارٌ، ورأَيتُ جرُفاً هاراً، ومررت بَجُرُف هارٍ. واختلف القراءُ في إمالة ﴿هَارٍ﴾ و[انهار].

وتأَسيس البناءِ على تقوى إنما هو بِحُسْن النية فيه وقصد وجه الله تبارك وتعالى وإِظهار شرعه، كما صنع في مسجد النبي ﷺ وفي مسجد قباءٍ. والتأسيس على شفا جرف هار إنما هو بفساد النية وقصد الرياءِ والتفريق بين المؤمنين، فهذه تشبيهات صحيحة بارعة. و﴿خَيْرٌ﴾ في هذه الآية تفضيل، ولا شركة بين الأَمرين في خير إلا على معتقد باني مسجد الضِّرار، فبِحَسَب ذلك المعتقد صح التفضيل.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الظاهر منه وممَّا صح من خبرهم وهَدْم رسول الله ﷺ مسجدهم أَنه خارج مخرج المثل، أَي: مثل هؤلاءِ المضارين من المنافقين في قصدهم معصية الله وحصولهم من ذلك على سخطه كمن ينهار بنيانه في نار جهنم، ثم اقتضب الكلام اقتضاباً يدل عليه ظاهره. وقيل: بل ذلك حقيقة وإِن ذلك المسجد بعينه انهار في نار جهنم، قاله قتادة وابن جريج[(٢)]. وروي عن جابر بن عبد الله وغيره أَنه قال: رأَيت الدخان يخرج منه على عهد رسول الله ﷺ، وروي في بعض الكتب أَن رسول الله ﷺ رآه حين انهار حتى بلغ الأَرض السابعة ففزع لذلك رسول الله ﷺ، وروي أَنهم لم يصلوا فيه أَكثر من ثلاثة أَيام، أَكملوه يوم الجمعة وصلوا فيه يوم الجمعة وليلة السبت وانهار يوم الاثنين.

= شييم بن عمرو بن عباد بن بكر التغلبي، عدَّه ابن سلام في الطبقة الثانية من الإسلاميين، وكان يكثر من المثال في شعره، توفي عام ١٠١هـ. (معجم الشعراء ـ طبقات فحول الشعراء ـ المؤتلف والمختلف ـ مقدمة ديوانه).

(١) هذا جزء من بيت، رواه في اللسان منسوباً إلى القطامي (عمير بن هشيم)، والبيت بتمامه:

لَعَمْـــرُ بنـــي شِهَـــابٍ مَـــا أَقَـــامــوا ... صُـدورَ الخَيْـلِ والأَسَـلَ النِّيَـاعَـا

ثم قال: «يعني الرِّماح العطاش إِلى الدماءِ، والأسل: أطراف الأسنة»، ثم عاد فقال: قال ابن برّي: البيت لدريد بن الصمة. وهذا يوافق ما في «الصحاح».

(٢) قال الزمخشري: «لما جُعل الجرف مجازاً عن الباطل قيل: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ على معنى: فطاح به الباطل في نار جهنم، إلا أنه رشح المجاز فجيءَ بلفظ الانهيار الذي هو الجرف، وليصور أن المبطل كأنه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها».



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهكذا كله بإسناد لين، وما قدمناه أَصوب وأَصح، وكذلك بقي أَمره والصلاة فيه من قبل سفر رسول الله صلة الله عليه وسلم إِلى تبوك إِلى أَن قفل منها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ طعن على هؤلاءِ المنافقين وإِشارة إِليهم. والمعنى: لا يهديهم من حيث هم ظالمون، أَو يكون المراد الخصوص فيمن يوافي على ظلمه، وأَسند الطبري عن خلف بن ياسين أنه قال: رأَيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله في القرآن فرأَيت فيه مكاناً يخرج منه الدخان، وذلك في زمن أَبي جعفر المنصور. وروي شبيه بهذا أَو نحوه عن ابن جريج، أَسنده الطبري.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

الضمير في ﴿بُنْيَٰنُهُمُ﴾ عائد على المنافقين البانين للمسجد ومن شاركهم في غرضهم، وقوله: ﴿ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ تأكيد وتصريح بأَمر المسجد ورفع للإِشكال. والرِّيبة: الشك، وقد يُسمى ريبةً فسادُ المعتقد واضطرابه والاعتراض في الشيءِ والتخبط فيه والحزازة من أَجله وإِن لم يكن شكاً، فقد يرتاب من لا يشك، ولكنها في مُعتاد اللغة تجري مع الشك. ومعنى الريبة ـ في هذه الآية ـ أَمر يعم الغيظ والحنق ويعم اعتقاد صواب فعلهم ونحو هذا مما يؤدي كله إِلى الريبة في الإِسلام، فمقصد الكلام: لا يزال هذا البنيان الذي هدم لهم يُبقي في قلوبهم حزازة وأَثر سوءٍ، وبالشك فسر ابن عباس رضي الله عنهما الريبة هنا، وفسرها السدي بالكفر، وقيل له: أَفَكَفَر مجمع بن جارية؟ قال: لا ولكنها حزازة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومُجَمِّع رحمه الله قد أَقسم لعمر رضي الله عنه أَنه ما علم باطن القوم ولا قصد سوءاً، والآية إِنما عنت من أَبطن سوءاً، فليس مجمع منهم. ويحتمل أَن يكون



المعنى: لا يزالون مريبين بسبب بنائهم الذي اتضح فيه نفاقهم، وجملة هذا أن الريبة في الآية تعم معاني كثيرة يأخذ كل منافق منها بحسب قدره من النفاق.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي: [إِلاَّ أَنْ تُقَطَّعَ قلُوبُهُم] بضم التاءِ وبناءِ الفعل للمفعول، وقرأ ابن عامر، وحمزة، وعاصم ـ بخلاف عنه ـ: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ﴾ بفتح التاءِ على أنها فاعلة، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، ومجاهد، وقتادة، [إِلَى أَنْ تَقَطَّع] على معنى: إلى أن يموتوا، وقرأ بعضهم: [إِلَى أَنْ تَقْطَع]، وقرأ أبو حيوة [إِلاَّ أَنْ يُقْطِع] بالياءِ مضمومة وكسر الطَّاءِ ونصب القلوب، أي: بالقتل، وأما على القراءة الأولى فقيل: بالموت، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد وغيرهم. وقيل: بالتوبة، وليس هذا بالظاهر وإلا أن يُتَأَول: أو يتوبوا توبة نصوحة يكون معها من الندم والحسرة على الذنب ما يقطع القلوب همًّا وفكرة، وفي مصحف ابن مسعود: [ولو قُطِّعت قلوبهم]، وكذلك قرأها أصحابه وحكاها أبو عمرو: [وإن قُطِعت] بتخفيف الطاءِ، وفي مصحف أُبي: «حتى الممات»، وفيه «تقطع».

وقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية. هذه الآية نزلت في البيعة الثالثة وهي بيعة العقبة الكبرى، وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين، وكان أصغرهم سناً عقبة بن عمرو، وذلك أنهم اجتمعوا مع رسول الله ﷺ عند العقبة فقالوا: اشترط لك ولربك، والمتكلم بذلك عبد الله بن رواحة، فاشترط رسول الله ﷺ حمايته مما يحمون به أنفسهم، واشترط لربه التزام الشريعة وقتال الأحمر والأسود في الدفع عن الحوزة، فقالوا: ما لَنا على ذلك؟ قال: الجنة، فقالوا: نعم، ربح البيع لا نقيل ولا نقال، وفي بعض الروايات: ولا نستقيل، فنزلت الآية في ذلك، ثم الآية ـ بعد ذلك ـ عامة في كل من جاهد في سبيل الله من أُمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة، وقال بعض العلماءِ: ما من مسلم إلا ولله في عنقه هذه البيعة وفَى بها أو لم يَف، وفي الحديث: «إن فوق كل بِرٍّ بِرٌّ حتى يبذل العبد دمه فإذا فعل ذلك فلا بِرَّ فوق ذلك»[1]، وهذا تمثيل من الله عزَّ وجلَّ جميلَ صنعه بالمبايعة، وذلك أن حقيقة المبايعة أن تقع بين نفسين بقصد منهما وتملُّك صحيح، وهذه القصة

(١) قال القرطبي: رواه الحسن، ثم أنشد البيت المشهور:

الجُودُ بالمال جُودٌ فيه مكرُمَةٌ ... والجُودُ بالنَّفْسِ أقصى غايَةِ الجود



وهب الله عباده أَنفسهم وأَموالهم، ثم أَمرهم ببذلها في ذاته، ووعدهم على ذلك ما هو خير منها، فهذا غاية التفضل، ثم شبه القصة بالمبايعة، وأَسند الطبري عن كثير من أَهل العلم أَنهم قالوا: ثامَنَ الله تعالى في هذه الآية عباده فأَعلى لهم، وقاله ابن عباس، والحسن بن أَبي الحسن، وقال ابن عيينة: معنى الآية: اشترى منهم أَنفسهم أَلاَّ يُعْملوها إِلا في طاعة الله، وأَموالهم أَلاَّ ينفقوها إِلا في سبيل الله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فالآية ـ على هذا ـ أَعم من القتل في سبيل الله، ومبايعة الخلفاء هي منتزعة من هذه الآية، كان الناس يعطون الخلفاء طاعتهم ونصائحهم وجدهم، ويُعْطيهم الخلفاءُ عدلهم ونظرهم والقيامَ بأَمرهم. وحدثني أَبي رضي الله عنه أَنه سمع الواعظ أَبا الفضل ابن الجوهري يقول على المنبر بمصر: ناهيك من صفقةٍ البائع فيها رب العلا، والثمن جنة المأوى، والواسطة محمد المصطفى ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مقطوع ومستأْنف، وذلك على تأْويل سفيان بن عيينة، وأَما على تأْويل الجمهور من أَن الشراءَ والبيع إِنما هو مع المجاهدين فهو في موضع الحال. وقرأَ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وأَبو عمرو، والحسن، وقتادة، وأَبو رجاء، وغيرهم: ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ على البناءِ للفاعل، ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ على البناءِ للمفعول، وقرأَ حمزة، والكسائي، والنَّخعي، وابن وثاب، وطلحة، والأَعمش بعكس ذلك، والمعنى واحد إِذ الغرض أَن المؤمنين يقاتلون فيوجد فيهم من يَقْتُل وفيهم من يُقْتَل، وفيهم من يجتمعان له، وفيهم من لا تقع له واحدة منهما، وليس الغرض أَن يجتمع ولابد لكل واحد واحد، وإِذا اعتبر هذا بان[1].

وقوله سبحانه: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لأَن ما تقدم من الآية هو في معنى الوعد فجاءَ هذا مؤكداً لما تقدم من قوله: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾. وقال المفسرون: يظهر من قوله سبحانه: ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ أَن كل أُمة أُمرت بالجهاد ووعدت عليه.

---

(١) قال الزمخشري: ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ فيه معنى الأمر، لقوله تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾.



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أَن ميعاد أُمة رسول الله ﷺ تقدم ذكره في هذه الكتب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ استفهام على جهة التقرير، أَي: لا أَحد أَوفى بعهده من الله، وقوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ فعل جاءَ فيه استفعل بمعنى أَفعل، وليس هذا من معنى طلب الشيءِ كما تقول: استوقد ناراً، واستهدى مالاً، واستدعى نصراً، بل هو كعجب واستعجب[1]، ثم وصف الله تبارك وتعالى ذلك البيع بأَنه ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، أَي أَنه الحصول على الحظ الأَغبط من حط الذنوب ودخول الجنة بلا حساب[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾.

هذه الأَوصاف هي من صفات المؤمنين الذين ذكر الله أَنه اشترى منهم أَنفسهم، وارتفعت هذه الصفات لما جاءَت مقطوعة في ابتداءِ آية على معنى: هم التائبون. ومعنى الآية على ما تقتضيه أَقوال العلماءِ والشرع أَنها أَوصاف الكملة من المؤمنين ذكرها الله تعالى ليستبق إِليها أَهل التوحيد حتى يكونوا في أَعلى رتبة، والآية الأُولى مستقلة بنفسها، يقع تحت تلك المبايعة كل موحد قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا وإِن لم يتصف بهذه الصفات التي في هذه الآية أَو بأَكثرها. وقالت فرقة: بل هذه الأَوصاف جاءَت على جهة الشرط، والآيتان مرتبطتان فلا يدخل في المبايعة إِلا المؤمنون الذين هم على هذه الأَوصاف ويبذلون أَنفسهم في سبيل الله. وأَسند الطبري في ذلك عن الضحاك بن مزاحم أَن رجلاً سأَله عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ الآية، وقال الرجل: أَلا

(١) قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ خطاب من الله تبارك وتعالى بعد ضمائر الغائب على سبيل الالتفات، لأن في مواجهته تعالى لهم بالخطاب تشريف لهم، وهذه هي حكمة الالتفات هنا.

(٢) قال الحسن: «والله ما على الأرض مؤمن إلا يدخل الجنة في هذه البيعة»، فما أعظم هذا الفوز حقاً!.

أَحمل على المشركين فأَقتل حتى أُقتل؟ فقال الضحاك: ويلك، أَين الشرط: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ﴾ الآية؟ وهذا القول تحريج وتضييق والله أَعلم، والأَول أَصوب، والشهادة ماحية لكل ذنب إِلا لمظالم العباد، وقد رُوي أَن الله تعالى يحمل عن الشهيد مظالم العباد ويجازيهم عنه، خَتَمَ الله لنا بالحسنى.

وقالت فرقة: إِن رفع التائبين إِنما هو على الابتداءِ وما بعده صفة إِلا قوله: ﴿ٱلۡأَٰمِرُونَ﴾ فإِنه خبر الابتداءِ، كأَنه قال: هم الآمرون، وهذا حسن إِلا أَن معنى الآية ينفصل من معنى التي قبلها، وذلك قلق فتأَمله. وفي مصحف عبد الله بن مسعود: [التَّائِبِينَ الْعَابِدِينَ] إِلى آخرها، ولذلك وجهان: أَحدهما: الصفة للمؤمنين على اتباع اللفظ، والآخر: النصب على المدح.

و﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ يعم الرجوع من الشر إِلى الخير كان ذلك في كفر أَو معصية، والرجوع من حالة إِلى ما هي أَحسن منها وإِن لم تكن الأُولى شرًّا بل خيراً، وهكذا كانت توبة النبي ﷺ واستغفاره سبعين مرة في اليوم، والتائب هو المُقْلع عن الذنب العازم على التمادي على الإِقلاع النادم على ما سلف، والتائب عن ذنب يسمى تائباً وإِن قام على غيره إِلا أَن يكون من نوعه فليس بتائب، والتوبة ونقضها دائباً خير من الإِصرار، ومن تاب ثم نقض ووافى على النقض فإِن ذنوبه الأُولى تبقى عليه لأَن توبته منها علم الله أَنها منقوضة، ويحتمل الأَمر غير ذلك، والله أَعلم.

وقال الحسن في تفسير الآية: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ معناه: من الشرك.

و﴿ٱلۡعَـٰبِدُونَ﴾ لفظ يعم القيام بعبادة الله تبارك وتعالى والتزام شرعه وملازمة ذلك والمثابَرة عليه والدوام، والعابدُ هو المحسن الذي فسر رسول الله ﷺ في قوله: «أَنْ تعبد الله كأَنَّك تراه»(١)، وبأَدنى عبادة يؤديها المرءُ المسلم يقع عليه اسم عابد ويحصل في أَدنى رتبة، وعلى قدر زيادته في العبادة يحصل الوصف.

---

(١) هذا جزءٌ من حديث طويل رواه البخاري في تفسير سورة لقمان وفي كتاب الإيمان، ورواه مسلم في كتاب الإيمان، ورواه أبو داود في كتاب السنَّة، ورواه الترمذي في كتاب الإيمان، وابن ماجة في المقدمة، والإمام أحمد في مواضع كثيرة، وفيه أن جبريل عليه السلام سأله عن الإيمان، فأجاب، ثم سأله عن الإسلام فأجاب، ثم سأله عن الإحسان فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تراه فإنه يراك»، ثم سأله عن الساعة فأجاب بالحديث عن أشراطها، ثم قال في آخر الحديث: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم».

و﴿ ٱلۡحَٰمِدُونَ ﴾ معناه: الذاكرون لله بأَوصافه الحسنى في كل حال وعلى السرَّاءِ والضرَّاءِ، وحمده لأَنه أَهل لذلك، وهو أَعم من الشكر إِذ الشكر إِنما هو على النِّعَم الخاصة بالشاكر.

و﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ معناه: الصائمون، وروي عن عائشة رضي الله عنها أَنها قالت: «سياحة هذه الأمة الصيام»، أَسند الطبري، ورُوي أَنه من كلام النبي ﷺ[١]، وفي الحديث: «إِن لله ملائكة سيَّاحين مشَّائين في الآفاق يبلغون صلاة أُمتي عليّ»[٢]، ويروى الحديث (صيَّاحين) بالصاد مِن الصِّياح، والسياحة في الأَرض مأْخوذة من السَّيْح وهو الماءُ الجاري على الأَرض إِلى غير غاية، وقال بعض الناس ـ وهو في كتاب النقاش ـ: «﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ هم الجائلون بأَفكارهم في قدرة الله وملكوته»، وهذا قول حسن، وهي من أَفضل العبادات، ومن ذلك قول معاذ بن جبل رضي الله عنه: «اقعد بنا نؤمن ساعة»، ويروى أَن بعض العباد أَخذ القدح ليتوضأَ لصلاة الليل، فأَدخل إِصبعه في أُذن القدح وجعل يفكر حتى طلع الفجر، فقيل له في ذلك فقال: أَدخلت إِصبعي في أُذن القدح فتذكرت قول الله تعالى: ﴿ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ ﴾[٣]، وفكرت كيف أَتلقى الغُلَّ وبقيت في ذلك لَيْلي أَجمع.

و﴿ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ﴾ هم المصلون الصلوات الخمس، كذا قال أَهل العلم، ولكن لا يختلف في أَن من يكثر من النوافل هو أَدخل في الاسم وأَغرق في الاتصاف.

وقوله: ﴿ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ هو أَمر فُرض على أُمة محمد ﷺ بالجملة، ثم يفترق الناسُ فيه مع التعيين، فأَما ولاة الأَمر والرؤَساءُ فهو

---

(١) الخبر المسندإلى عائشة رضي الله عنها أسنده الطبري، أما أنه في كلام النبي ﷺ فقد روي عن أبي هريرة موقوفاً كما قال الشوكاني. وأخرج ابن جرير، أبو الشيخ، وابن مردويه، وابن النجار من طريق أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «السائحون هم الصائمون». (الدر المنثور).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والنسائي في سُنَنه، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بالصحة ولفظه كما رواه: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام». (الجامع الصغير).

(٣) من الآية (٧١) من سورة (غافر).



فرض عليهم في كل حال، وأَما سائر الناس فهو فرض عليهم بشروط، منها: أَلا تلحقه مضرَّة، وأَن يعلم أَن قوله يُسْمع ويُعْمل به ونحو هذا، ثم من تحمل بعد في ذات الله مشقة فهو أَعظم أَجراً، وأَسند الطبري عن بعض العلماءِ أَنه قال: حيثما ذكر الله الأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو الأَمر بالإِسلام والنهي عن الكفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا شك أَنه يتناول هذا وهو أَحرى أَن يتناول ما دونه[١] فتعميم اللفظ أَولى. وأَما هذه الواو التي في قوله: ﴿وَٱلنَّاهُونَ﴾ ولم يتقدم في واحدة من الصفات قبلُ، فقيل: معناها الربط بين هاتين الصفتين وهما الأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر إِذ هما من غير قبيل الصفات الأُول.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

لأَن الأُول فيما يخص المرءَ، وهاتان فيما بينه وبين غيره[٢]، ووجب الربط بينهما لتلازمهما وتناسبهما، وقيل: هي زائدة، وهذا قول ضعيف لا معنى له، وقيل: هي واو الثمانية، لأَن هذه الصفة جاءَت ثامنةً في الرتبة، ومن هذا قوله تعالى في أَبواب الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾[٣]، وقوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[٤]، ومن هذا قوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾[٥].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

على أَن هذه تعترض حتى لا يلزم أَن تكون واو ثمانية أَنها فرقت بين فصلين يعمان

---

(١) جاء في بعض النسخ: «إذ يتناول ما دونه»، على معنى أن اللفظ يتناول ما دون الإسلام والكفر فأولى به أن يتناولهما.

(٢) جاء ترتيب هذه الصفات في غاية من الحسن، إذ بدأ أولا بما يخص الإنسان مُرَتَّبة على ما سعى، ثم بما يتعدى الإنسان إلى غيره كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بما شمل ما يخصه في نفسه ويتعدى إلى غيره وهو الحفظ لحدود الله. ولما ذكر الله جميع الصفات أمر رسوله ﷺ أن يبشر المؤمنين، وفي الآية التي قبلها أمرهم سبحانه بالاستبشار فقال: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ﴾ فحصلت لهم المزية التامة بأن الله أمرهم بالاستبشار وأمر رسوله أن يبشرهم.

(٣) في الآية (٧٣) من سورة (الزُّمر).

(٤) في الآية (٢٢) من سورة (الكهف).

(٥) في الآية (٥) من سورة (التحريم).



بمجموعهما جميع النساءِ ولا يصح أَن يكون[١] [ثَيِّبَاتٍ أَبْكَاراً] فهي فاصلة ضرورة، وواو الثمانية قد ذكرها ابن خالويه في مناظرته لأَبي علي الفارسي في معنى قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وأَنكرها أَبو علي، وحدثني أَبي رضي الله عنه عن الأُستاذ النحوي أَبي عبد الله الكفيف المالقي ـ وكان قد استوطن غرناطة وأَقرأَ فيها في مدة ابن حبوس ـ أَنه قال: «هي لغة فصيحة لبعض العرب، من شأْنهم أَن يقولوا إِذا عدُّوا: واحد، اثنان، ثلاثة، أَربعة، خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، تسعة، عشرة، فهكذا هي لغتهم، ومتى ما جاءَ في كلامهم أَمر ثمانية أَدخلوا الواو»[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ لفظ عام تحته إِلزام الشريعة والانتهاءُ عما نهى الله عنه في كل شيءٍ وفي كل فن، وقوله ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: هو لفظ عام أُمر به النبي ﷺ أَن يبشر أُمته جميعاً بالخير من الله، وقيل: بل هذه الأَلفاظ خاصة لمن لم

(١) أي: لا يصح أن يكون التعبير «ثَيِّبَاتٍ أبكاراً» لأن هذا غير ممكن، وفي بعض النسخ: «لا يصح أن يَكُنَّ» أي النساء.

(٢) يرى بعض النحويين أن الواو التي تدخل على العدد ثمانية أو على ثامن الأشياء المعدودة تسمى «واو الثمانية»، ومنهم ابن خالويه الذي ذكرها في مناظرته لأبي علي الفارسي في معنى قوله تعالى في سورة الزُّمَر: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، وحكى الثعلبي عن أبي بكر بن عياش أن قريشاً كانت تقول: «ستة، سبعة، وثمانية» فتدخل الواو في الثمانية، وحكى نحوه القفال فقال: إن قوماً قالوا: العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة، فإذا احتيج إلى الزيادة عليها استؤنف خبر آخر بإدخال الواو، كقوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ...﴾ ثم قال سبحانه: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، ويدل على ذلك أنه سبحانه لما ذكر أبواب جهنم قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بدون واو، ولما ذكر الجنة قال: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ بالواو، وأنه سبحانه قال في سورة التحريم: ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ﴾... إلى أن قال: ﴿وَأَبْكَارًا﴾ فالسبعة نهاية العدد عندهم كالعشرة الآن عندنا. قال القُشيري أبو نصر: ومثل هذا الكلام تحكم، ومن أين أن السبعة نهاية عندهم؟ ثم هو منقوض بقوله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ ولم يذكر الاسم الثامن بالواو، وإنما ذكرت الواو في هذه الآيات لعلّة خاصة في كل آية، وفي آيتنا هذه ذكر ابن عطية رحمه الله العلّة وهي أنها أداة للربط بين صفتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنهما تختلفان عن الصفات السابقة من حيث إنهما تتعلقان بصلة المرء بغيره، أما الصفات الأولى فتختص بالمرء نفسه، وذكر أبو حيان التوحيدي علة أُخرى خلاصتها أن الصفات إذا تكررت للمدح أو الذم أو الترحم جاز فيها الإتباع للمنعوت والقطع في كلها أو بعضها، وإذا تباين ما بين الوصفين جاز العطف، ولما كان الأمر بالمعروف مبايناً للنهي عن المنكر لأن الأول طلب فعل والثاني ترك فعل حسن العطف في قوله سبحانه: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ ـ هذا وسنذكر إن شاء الله علّة ذكر الواو في الآيات الأخرى في مواضعها إن شاء الله، أي في (الكهف)، و(الزُّمَر) و(التحريم).



يغزُ ، أي: لمّا تقدم في هذه الآية وعد المجاهدين وفضلهم أُمِر أَن يبشر سائر الناس ممن لم يَغْزُ بأَن الإيمان مخلص من النار ، والحمد لله رب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية. يقتضي التأنيب ومنع الاستغفار للمشركين مع اليأس عن إيمانهم ، إمّا بموافاتهم على الكفر وموتهم ، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العاص بن وائل: «لا جزاه الله خيراً» ، وإما بنص من الله تعالى على أَحد كأَبي لهب وغيره فيمنع الاستغفار له وهو حيّ.

واختلف المفسرون في سبب هذه الآية؛ فقال الجمهور ـ ومداره على ابن المسيّب وعمرو بن دينار ـ: نزلت في شأن أَبي طالب ، وذلك أَن رسول الله ﷺ دخل عليه حين احتضر ووعظه وقال: (أَي عمّ ، قل: لا إله إلا الله كلمة أُحاجّ لك بها عند الله تعالى) ، وكان بالحضرة أَبو جهل وعبد الله بن أُمية ، فقالا له: يا أَبا طالب أَترغب عن ملّة عبد المطلب؟ فقال أَبو طالب: يا محمد ، والله لولا أَني أَخاف أَن يُعَيّر بها ولدي من بعدي لأَقررت بها عينك ، ثم قال: أَنا على ملّة عبد المطلب ، ومات على ذلك ، إذ لم يسمع منه النبي ﷺ ما قال للعباس ، فنزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[١] ، فقال رسول الله ﷺ: (والله لأَستغفرن لك ما لمْ أُنْهَ عنك) ، فكان يستغفر له حتى نزلت هذه الآية فترك رسول الله ﷺ الاستغفار لأَبي طالب[٢] ، وروي أَن المؤمنين لما رأَوا رسول الله ﷺ يستغفر لأَبي طالب جعلوا يستغفرون لموتاهم ، فلذلك دخلوا في التأنيب والنهي ، والآية ـ على هذا ـ ناسخة لفعل النبي ﷺ إذ أَفعالُه في حكم الشرع المستقر.

وقال فُضيْل بن عطية وغيره: إن رسول الله ﷺ لما فتح مكة أَتى قبر أُمّه فوقف عليه حتى سخنت عليه الشمس ، وجعل يرغب في أَن يؤذن له في الاستغفار لها فلم يؤذن له ، فأَخبر أَصحابه أَنه أُذن له في زيارة قبرها ومُنع أَن يستغفر لها ، فما رُئي باكياً أَكثر من يومئذ ، ونزلت الآية في ذلك[٣] ، وقالت فرقة: إنما نزلت بسبب قول النبي ﷺ في

---

(١) من الآية (٥٦) من سورة (القصص).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ، والإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن سعيد بن المسيّب. (الدر المنثور).

(٣) روى ابن جرير عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ لما قدم مكة أتى رسم قبر فجلس إليه فجعل=



المنافقين: (والله لأزيدن على السبعين)[١]، وقال ابن عباس، وقتادة، وغيرهما: إنما نزلت الآية بسبب جماعة من المؤمنين قالوا: نستغفر لموتانا كما استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه فنزلت الآية في ذلك[٢]، وعلى كل حال ففي ورود النهي عن الاستغفار للمشركين موضع اعتراض بقصة إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه، فنزل رفع الاعتراض في الآية التي بعدها.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ يريد: من بعد الموت على الكفر، فحينئذ تبين أنهم أَصحاب الجحيم، أَي سكانها وعمرتها، والاستغفار للمشرك الحيّ جائز إِذ يُرجى إِسلامه، ومن هذا قول أَبي هريرة رضي الله عنه: «رحم الله رجلا استغفر لأَبي هريرة وأُمّه»، قيل له: ولأَبيه، قال: لا إِن أَبي مات كافراً، وقال عطاءُ بن أَبي رباح: الآية في النهي عن الصلاة على المشركين، والاستغفار ها هنا يراد به الصلاة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾﴾.

المعنى: لا حجة أَيها المؤمنون في استغفار إِبراهيم الخليل لأَبيه فإِن ذلك لم يكن

= يخاطب، ثم قام مستعبراً، فقلنا: يا رسول الله إنَّا رأينا ما صنعت، قال: «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أُمي فأذن، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي»، فما رؤي باكياً أكثر من يومئذ، وروى مثله ابن حاتم عن ابن مسعود، وكذلك روى الطبراني عن عكرمة عن ابن عباس مثله في حديث طويل جاء فيه أنه ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك اعتمر، فلما هبط من ثنية عسفان أمر أصحابه أن استندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم فذهب فنزل على قبر أُمه... وفي آخر الحديث: «دعوت ربِّي أن يرفع عن أُمتي أربعاً، فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين، دعوت ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض وألا يلبسهم شيعاً وألا يُذيق بعضهم بأس بعض، فرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض، وأبى أن يرفع عنهم القَتْلَ والهرج». (الدر المنثور، وتفسير ابن كثير).

(١) سبق الاستشهاد بهذا الحديث عند تفسير قوله تبارك وتعالى في الآية(٨٠) من هذه السورة: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾.

(٢) أخرج مثله ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن محمد بن كعب. (الدر المنثور).



إلاَّ عن موعدة، واختلف في ذلك ـ فقيل: عن موعدة من إبراهيم في أن يستغفر لأبيه، وذلك قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [(١)]، وقيل: عن موعدة من أبيه له من أنه سيؤمن، فكان إبراهيم قد قوي طمعه في إيمانه فحمله على الاستغفار له حتى نُهي عنه، وقرأ طلحة: [وَمَا يسْتَغْفِر إبراهيمُ]، وروي عنه: [وما اسْتغفَرَ إبراهيمُ]. و﴿مَّوْعِدَةٍ﴾ مفعلة من الوعد، وأما تَبَيُّنُهُ أنه عدوٌّ لله ـ فقيل: بموت آزر على الكفر، وقيل: ذلك بأنه نُهي عنه وهو حيّ. وقال سعيد بن جبير[(٢)]: ذلك كله يوم القيامة، وذلك أن في الحديث أن إبراهيم عليه السلام يلقاه فيعرفه ويتذكر قوله: [سأَسْتَغْفِر لَكَ رَبِّي] فيقول له: الزم حَقْوي[(٣)] فلن أدعك اليوم لشيءٍ، فيلزمه حتى يأتي الصراط فليتفت إليه فإذا هو قد مُسِخَ ضِبْعاناً أَمْدَر[(٤)]، فيتبَرَّأُ منه حينئذ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وربط أمر الاستغفار بالآخرة ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ ثناءٌ من الله تعالى على إبراهيم، والأوَّاه، قال ابن مسعود: هو الدَّعَّاءُ، وقيل: هو الداعي بتضرع، وقيل: هو الموقن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: هو الرحيم، قاله ابن مسعود أيضاً، وقيل: هو المؤمن التَّوَّاب، وقيل: هو المُسبِّح، وقيل: هو الكثير الذكر لله عزَّ وجلَّ، وقيل: هو التَّلاَّءُ للقرآن، وقيل: هو الذي يقول من خوفه لله عزَّ وجلَّ أبداً: أَوَّاهْ ويكثر ذلك. وروي أن أبا ذر سمع رجلا يكثر ذلك في طوافه فشكاه إلى رسول الله ﷺ فقال: «دَعْهُ

---

(١) من الآية (٤٧) من سورة (مريم).

(٢) سعيد بن جُبَيْر السدي بالولاءِ، الكوفي، أبو عبد الله، تابعي، كان أعلمهم على الإطلاق، وهو حبشي الأصل، أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم أجمعين، كان ابن عباس إذا أتاه أحد من الكوفة يستفتيه يقول: أتسألوني وفيكم ابن أم دهماءَ؟ يعني سعيداً رضي الله عنه، قتله الحجاج لأنه كان مع ابن الأشعث عند خروجه على عبد الملك بن مروان، قال الإمام أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيداً وما على وجه الأرض أحدٌ إلا وهو مُفْتَقِرٌ إلى علمه، وكان مقتله عام ٩٥هـ (وفيات الأعيان ـ وطبقات ابن سعد، وتهذيب التهذيب. والأعلام).

(٣) الحَقْوُ بفتح الحاءِ وسكون القاف: الخَصْرُ وهو موضع شدّ الإزار، ثم أطلق على الإزار، والجمع أحْقٍ، أصْلُهُ أحْقُوٌ فحذف لأنه ليس في الأسماءِ اسم آخره حرف علّة وقبله ضمة. (الصحاح).

(٤) قال في الصّحاح: «وضِبْعَانٌ أَمْدَرَ أي: مُنْتفخ الجنبين عظيم البطن، ويقال: هو الذي تَتَربَّ جنباه كأنه من (المدر أو التراب)».



فَإِنَّهُ أَوَّاه»[١] ، والتَّأَوّه: التفجع الذي يكثر حتى ينطق الإنسان معه بأَوْهِ ، قال المؤلف: ويقال: أَوَّه[٢] ، فمن الأول قول رسول الله ﷺ لبلالٍ في بيع أَوْ شراءٍ أنكره عليه: (أَوْهِ ، ذلك الرِّبَا بعينه)[٣] ، ومن الثاني قول الشاعر:

فـأَوْهِ لِـذِكْـرَاهَـا إِذَا مَـا ذَكَـرْتُهَـا ... ومِـنْ بُعْـدِ أَرْضٍ بيْنَنَـا وسَمَـاءُ[٤]

ومن هذا المعنى قول المُثَقِّب العبدي:

إِذا مـا قُمْـتُ أَرْحلُهَـا بِلَيْـلٍ ... تَـأَوَّه آهَـةَ الـرَّجُـلِ الْحَـزِيـنِ[٥]

ويروىٰ: أَهَّةَ ، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «أَوَّهْ لأفراخ محمد». و﴿حَلِيمٌ﴾ معناه: صابر محتمل عظيم العقل ، والحلم العقل[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ الآية. معناه التأنيس للمؤمنين ،

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن ابي حاتم ، وابن مردويه عن أبي ذرّ رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) قال في اللسان: «وآوَّهْ ، وأَوَّهْ ، وآوُوهُ (بالمد وواوَيْن) ، وأَوْهِ (بكسر الهاء خفيفة) ، وأَوْهَ ، وآهِ ، كلُّهَا: كلمة معناها التَّحَزُّن».

(٣) قال في اللسان: «وردَ الحديث بأوْهِ في حديث أبي سعيد ، فقال النبي ﷺ عند ذلك: «أَوْهِ ، عَيْنُ الرِّبا»». وقال ابن الأثير: «أَوْهِ: كلمة يقولها الرجل عند الشكاية والتوجع ، وهي ساكنة الواو مكسورة الهاء». ثم قال: «وبعضهم يفتح الواو مع التشديد فيقول: أَوَّهْ ، وفي الحديث: «أَوَّهْ لفراخ محمد من خليفة يُسْتَخْلَف»».

(٤) أنشد الفراء في (أَوْهِ) ، قال صاحب اللسان: «ويروى: فأوُّ لذكراها ، ويُروى: فَآهٍ لذكراها» ، قال ابن برّي: ومثل هذا البيت:

فَـأَوْهِ علـى زيـارَةِ أُمّ عَمْـرو ... فكيـف مَـعَ العِـدَا وَمَـعَ الـوُشَـاةِ؟

وقال في الصحاح: «ويُرْوَى: (فَأَيٍّ لذكراها)».

(٥) المثقِّب العبدي: اسمه عائذ بن محصن بن ثعلبة ، شاعر جاهلي فحل قديم ، سمِّي المثقَّب لقوله: «وثَقَّبْنَ الوَصَاوِص والعيونا» ، وبيته هذا من قصيدته التي يطالب فيها حبيبته فاطمة بالوصال والمتعة ، والتي بدأها بقوله:

أفـاطِـمَ قبْـلَ بيْنِـكِ مَتِّعينـي ... ومنْعُـكِ مـا سـألْـتُ كـأَنْ تَبيني

وفي البيت يصف ناقته بأنها تتأوّه تَأَوُّهَ الرجل الحزين إذا ما قام ليضع الرحل عليها ليسير بها في الليل. قال في اللسان: ويروى: «تَهَوَّهُ هَاهَةَ الرجلِ» ، وقال ابن سيدة: وعندي أنه وضع الاسم موضع المصدر ، أي: تأوَّهُ تأوُّهَ الرَّجُلِ الحزين.

(٦) الحِلْم بالكَسْر: الأناة والعقل ، وجمعه أحلام وحلوم ، وفي الكتاب العزيز ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ ، وقال جرير:

هَـلْ مِـن حُلُـوم لأقـوام فَتُنْـذِرهُـمْ ... ما جرَّبَ النَّاسُ من عَضِّي وتَضْرِيسي؟



وقيل: إن بعضهم خاف على نفسه من الاستغفار للمشركين دون أَمْر من الله تبارك وتعالى فنزلت الآية مؤنسة، أَي: ما كان الله ـ بعد أَن هدى إلى الإسلام وأَنقذ من النار ـ لِيُحبط ذلك ويُضل أَهله لمواقعتهم ذنباً لم يتقدم منه نهي عنه، فأَما إذا بيّن لهم ما يتقون من الأُمور ويتجنَّبون من الأَشياءِ فحينئذ مَنْ واقع ـ بعد النهي ـ استوجب العقوبة. وقيل: إن هذه الآية إنما نزلت بسبب قوم من أَصحاب رسول الله ﷺ كانوا غيباً فحولت القبلة فصلوا ـ قبل أَن يصلهم ذلك ـ إلى بيت المقدس، وآخرين شربوا الخمر بعد تحريمها قبل أَن يصل إليهم، فخافوا على أَنفسهم وتكلموا في ذلك فنزلت الآية، والقول الأَول أَصوب وأَليق بالآية.

وذهب الطبري إلى أَن قوله سبحانه: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ إشارة إلى أَنه يجب أَيها المؤمنون أَلا تجزعوا من عدوّ وإن كثر، ولا تهابوا أَحداً فإن الموت المخوف والحياة المحبوبة إنما هما بِيَدِ الله تبارك وتعالى.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والمعنى الذي قال صحيح في نفسه، ولكن قوله: «إن القصد بالآية إنما هو لهذا» قول يبعد، والظاهر في الآية إنما هو لمَّا نَصَّ في الآية المتقدمة نعمتَه وفضلَه على عبيده في أَنه متى منَّ عليهم بهداية ففضلُه أَسبغ من أَن يصرفهم ويضلهم قبْلَ أَن تقع منهم معصية ومخالفة أَمر ـ أَتبع ذلك(١) بأَوصاف فيها تمجيد الله عزَّ وجلَّ وتعظيمه وبعْث النفوس على إدمان شكره والإقرار بعبوديته.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

التوبة من الله رجوعه بعبده من حالة إلى أَرفع منها، فقد تكون في الأَكثر رجوعاً من

---

(١) قوله: «أَتبَع ذلك...» هو جواب لمَّا في قوله: «إنما هو لمَّا نصَّ في الآية المتقدمة».

حالة المعصية إلى حالة الطاعة، وقد تكون رجوعاً من حالة طاعة إلى أكمل منها، وهذه توبته في هذه الآية على النبي ﷺ لأنه رجع به من حاله قبل تحصيل الغزوة وأجرها وتحمّل مشقاتها إلى حاله بعد ذلك كله. وأما توبته على المهاجرين والأنصار فحالها معرضة لأن تكون من تقصير إلى طاعة وجد في الغزو ونصرة الدين، وأما توبته على الفريق الذي كاد أن يزيغ فرجوع من حالة محطوطة إلى غفران ورضا.

و﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ معناه: دخلوا في أمره وانبعاثه ولم يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، وقوله سبحانه: ﴿فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ يريد: في وقت العسرة، فأنزل الساعة منزلة المدّة والوقت والزمن وإن كان عرف الساعة في اللغة أنه لِمَا قلَّ من الزمن كالقطعة من النهار. ألا ترى قوله ﷺ في رواح يوم الجمعة في الساعة الأولى وفي الثانية الحديث[1]، فهي هنا تجوّز، ويمكن أن يريد بقوله: ﴿فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ الساعة التي وقع فيها عزمهم وانقيادهم لتحمل المشقة إذ السّفرة كلها تَبَعٌ لتلك الساعة وبها وفيها يقع الأجر على الله وترتبط النية، فمن اعتزم على الغزو وهو مُعْسر فقد اتَّبع ساعة العسرة، ولو اتفق أن يطرأ لهم غنىً في سائر سفرتهم لما اختل كونهم متبعين في ساعة عُسرة، والعسرة: الشدة وضيق الحال والعدم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾[2]، وهذا هو جيش العسرة الذي قال رسول الله ﷺ فيه: «من جهّز جيش العسرة فله الجنة»[3]، فجهزه عثمان بن عفان رضي الله عنه بألف جمل وألف دينار، وروي أن رسول الله ﷺ قلَّب الدنانير في يده وقال: «وما على عثمان ما عمل بعد هذا؟»، وجاء أيضاً رجل من الأنصار بسبعمائة وَسْق من تمر[4]، وقال مجاهد، وقتادة: إن العسرة بلغت بهم في

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجمعة عن أبي هريرة رضي الله عنه، وكذلك رواه مسلم، والترمذي، ومالك في الموطأ في متاب الجمعة، ورواه أبو داود في كتاب الطهارة، ولفظه كما جاء في البخاري: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرّب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرّب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرّب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر».

(٢) من الآية (٢٨٠) من سورة (البقرة).

(٣) رواه البخاري في مناقب عثمان رضي الله عنه، ولفظه: «وقال النبي ﷺ: من يحفر بئر رومة فله الجنة، فحفرها عثمان، وقال: من جَهَّزَ جيش العُسْرَة فله الجنة، فجهَّزه عثمان».

(٤) الوَسْق بفتح الواو: مِكْيَلَة معلومة، وهي ستون صاعاً، والصاع خمسة أرطال وثلث، والوَسْق أيضاً: =



تلك الغزوة وهي غزوة تبوك إلى أن قسموا التمرة بين رجلين، ثم كان النفر يأخذون التمرة الواحدة فيمضغها أحدهم ويشرب عليها الماءَ ثم يفعل كلهم بها ذلك. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وأصابهم في بعضها عطش شديد حتى جعلوا ينحرون الإبل ويشربون ما في كروشها من الماءِ ويعصرون الفرث حتى استسقى لهم رسول الله ﷺ فرفع يديه يدعو، فما رجعهما حتى انسكبت سحابة فشربوا وادّخروا ثم ارتحلوا فإذا السحابة لم تخرج عن العسكر، وحينئذ قال رجل من المنافقين: وهل هذه إلا سحابة مرت؟[1] وكانت الغزوة في شدة الحرّ، وكان الناس كثيراً فقَلَّ الظَّهر فجاءَتهم العسرة من جهات. ووصل رسول الله ﷺ إلى أوائل بلد العدوّ فصالحه أهل أذرُج وأيْلة[2]، وغيرهما على الجزية ونحوها، وانصرف.

وأما الزَّيْغ الذي كادت قلوب فريق منهم أن تواقعه فقيل: همّت فرقة بالانصراف لما لقوا من المشقة والعسرة، قاله الحسن. وقيل: زيغها إنما كان بظنون لها ساءَت في معنى عزم رسول الله ﷺ على تلك الغزوة لما رأته من شدة العسرة وقلة الوفر وبعد المشقة وقوة العدو المقصود.

وقرأ جمهور السبعة، وأبو بكر عن عاصم: [تَزيغُ] بالتاءِ من فوق على لفظ القلوب، وروي عن أبي عمرو أنه كان يدغم الدال في التاءِ، وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم والأعمش، والجحدري: ﴿يَزِيغُ﴾ بالياءِ على معنى جَمْع القلوب، وقرأ ابن مسعود: [من بَعْدِ ما زاغَتْ قُلوبُ فريقٍ]، وقرأ أُبي بن كعب: [من بَعْدِ ما كادَتْ تَزيغُ].

= حِمْل البعير والعربة والسفينة. (المعجم الوسيط).

(١) أخرجه ابن جرير، وابن خُزيمة، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل والضياءِ في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: حدثنا عن شأن ساعة العسرة، فقال: خرجنا... إلى قوله: العسكر. وليس فيه كلام الرجل المنافق. (الدر المنثور).

(٢) أذرُج (بالذال المعجمة والراءِ المضمومة) قال في التاج: هي مدينة السَّراة، وقيل: إنما هي أذرُح، وذكر ذلك في اللسان، وصوب ياقوت ذلك وخطأ ما قبله وأطال في ذلك، وأيلة معروفة باسم إيلات قال في اللسان: «وأَيْلة: قرية عربية ورد ذكرها في الحديث، وهو بفتح الهمزة وسكون الياء البلد المعروف فيما بين مصر والشام».
وقال حسان بن ثابت:

مَلَكَـا مِـنْ جَبَـلِ الثَّلْـجِ إلـى ... جـانِبَـيْ أَيْلَـةَ مِـنْ عَبْـدٍ وحُـرّ



وأمَّا «كادَ» فيحتمل أَن يرتفع بها ثلاثة أَشياءَ، أَولها وأَقواها: القصة والشأْن، هذا مذهب سيبويه، وترتفع «القلوب» ـ على هذا ـ بـ[تزيغُ]. والثاني: أَن يرتفع بها ما يقتضيه ذكر المهاجرين والأَنصار أَولاً، ويقدر ذلك: «القوم»، فكأَنه قال: من بعد ما كاد القوم تزيغ قلوب فريق منهم. والثالث: أَن يرتفع بها «القلوب» ويكون في قوله: [تَزيغُ] ضمير القلوب، وجاز ذلك تشبيهاً بكان في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١]، وأَيضاً فلأَن هذا التقديم للخبر يراد به التأْخير، وشبهت (كاد) بـ(كان) لِلُزُوم الخبر لها، قال أَبو علي: ولا يجوز ذلك في (عسى)[٢].

ثم أَخبر الله عزَّ وجلَّ أَنه تاب أَيضاً على هذا الفريق وراجع به، وأَنَّس بإِعلامه للأُمة بأَنه رءُوفٌ رحيم. والثلاثة هم: كعْبُ بن مالك[٣]، وهلال بن أُمية الواقفي[٤]، ومُرارة بن الربيع العامري، ويقال: ابن ربيعة، ويقال: ابن ربعي[٥]. وقد خرَّج حديثهم بكماله البخاري ومسلم[٦]، وهو في السّير، فلذلك اختصرنا سوقه. وهم

(١) الآية (٤٧) من سورة (الروم).

(٢) أورد أبو حيّان في «البحر المحيط» إشكالات على هذه الإعرابات الثلاثة على قراءة التاء في [تَزيغ] فقال: «إذا قدّرنا فيها ضمير الشأن كانت الجملة في موضع نصب على الخبر والمرفوع ليس ضميراً يعود على اسم كاد، بل ولا سبباً له، وهذا يلزم في القراءة الياء أيضاً. وأما توسيط الخبر فهو مبني على جواز مثل هذا التركيب في مثل: «كان يقوم زيد»، وفيه خلاف والصحيح المنع. وأما توجيه الآخر فضعيف جداً من حيث أُضمر في كاد ضمير لا يعود إلا بتوهم، ومن حيث يكون خبر كاد واقعاً سببياً. ويُخَلِّص من هذه الإشكالات اعتقاد كون (كاد) زائدة ومعناها مراد ولا عمل لها». (البحر المحيط ٥ـ١٠٩).

(٣) كعب بن مالك بن عمرو بن القين الأنصاري الخزرجي، اشتهر في الجاهلية، وكان من شعراء النبي ﷺ في الإسلام، شهد الوقائع ثم كان من أصحاب عثمان، كفَّ بصره في آخر عمره، مات سنة ٥٠هـ وعمره سبع وسبعون سنة، وله ٨٠ حديثاً. (الأعلام، الإصابة، الأغاني).

(٤) هلال بن أُمية بن عامر بن قيس الأنصاري الواقفي، شهد بدراً وما بعدها، له ذكر في الصحيحين من رواية سعيد بن جُبَيْر عن ابن عمر. (الإصابة والاستيعاب).

(٥) مُرَارة بن ربيعة، ويقال ابن ربيع العمري الأنصاري من بني عمرو بن عوف كما جاء في (الاستيعاب)، ومُرارة بن ربعي بن عدي بن زيد بن جُشَم، ذكره ابن الكلبي وقال: كان أحد البكائين كما جاء في (الإصابة).

(٦) الحديث كما رواه البخاري طويل جداً، ويروي فيه كعب بلاءَه وبيعته ليلة العقبة، ويوري بصدق لماذا تخلف وكيف اعتذر للنبي ﷺ إلى أن نزلت الاية الكريمة، قال: «فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ الا أكون كذبته فأهلِك كما هلك الذين=



الذين تقدم فيهم: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ ﴾. ومعنى: ﴿ خُلِّفُوا ﴾: أُخِّرُوا وتُرِك أمرهم ولم تقبل منهم معذرة ولا ردّت عليهم، فكأنهم خُلِّفوا عن المعتذرين، وقيل: معنى ﴿ خُلِّفُوا ﴾ أي عن غزوة تبوك، قاله قتادة، وهذا ضعيف وقد ردّه كعب بن مالك نفسه وقال: معنى ﴿ خُلِّفُوا ﴾: تُركوا عن قبول العذر، وليس بتخلفنا عن الغزو، ويُقوّي ذلك جعله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ ﴾ غاية للتخلف، ولم يكن ذلك عن تخليفهم عن الغزو، وإنما ضاقت عليهم الأَرض عن تخليفهم عن قبول العذر.

وقرأَ الجمهور: ﴿ خُلِّفُوا ﴾ بضم الخاءِ وشدّ اللام المكسورة، وقرأَ عكرمة بن هارون المخزومي، وزِرّ بن حُبيش، وعمرو بن عبيد، وأَبو عمرو أَيضاً: [خَلَفُوا] بفتح الخاءِ واللام غير مشددة، وقرأَ أَبو مالك: [خُلِفُوا] بضم الخاءِ وتخفيف اللام المكسورة، وقرأَ أَبو جعفر محمد بن علي، وعلي بن الحسين، وجعفر بن محمد، وأَبو عبد الرحمن: [خَالَفُوا]، والمعنى قريب من التي قبلها، وقال أَبو جعفر: ولو خلفوا لم يكن لهم ذنب، وقرأَ الأَعمش: [وعلى الثلاثة المُخَلَّفِين].

وقوله تعالى: ﴿ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ معناه: برحبها، كأَنه قال: على ما هي في نفسها رحْبة، فـ[ما] مصدرية، ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ استعارة لأَن الهم والغمَّ مَلآها، ﴿ وَظَنُّوٓا ﴾ في الآية بمعنى: أَيقنوا وحصل علماً لهم[1].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا ﴾، لما كان هذا القول في تعديد نعمه بدأَ في ترتيبه بالجهة التي هي عن الله عزَّ وجلَّ ليكون ذلك مُنَبِّها على تلقي النعمة من عنده لا ربَّ غيره، ولو كان القول في تعديد ذنب لكان الابتداءُ بالجهة التي هي عن المذنب كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[2]، ليكون هذا أَشدّ تقريراً للذنب عليهم، وهذا من فصاحة القرآن وبديع نظمه ومُعجز اتِّساقه. وبيان هذه الآية ومواقع

= كذبوا، ثم قال كعب: «وكنا تخلفنا أَيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾، وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفْنَا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمَّن حلف له واعتذر إليه فقبل منه».

(١) في بعض النسخ: «وحصل علمٌ لهم» وهي أصح وأوضح.

(٢) من الآية (٥) من سورة (الصف).

ألفاظها إنَّما يكمل مع مطالعة حديث الثلاثة الذين خُلِّفوا في الكتب التي ذكرنا[١]، وإنما عظم ذنبهم واستحقوا عليه ذلك لأن الشرع يُطالبهم من الجد فيه بحسب منازلهم منه وتقدمهم فيه، إذ هم أُسوة وحجة للمنافقين والطاعنين، إذ كان كعبٌ من أهل العقبة وصاحباه من أهل بدر، وفي هذا ما يقتضي أن الرجل العالِمَ والمُقتدى به أقل عذراً في السقوط من سواه. وكتب الأوزاعي رحمه الله[٢] إلى المنصور أبي جعفر في آخر رسالة: «واعلم أن قرابتك من رسول الله ﷺ لن تزيد حق الله عليك إلا عِظَما، ولا طَاعَتَه إلاَّ وجوبا، ولا الناس فيما خالف ذلك منك إلاَّ إنكاراً والسلام». ولقد أحسن القاضي التنوخي في قوله:

والعَيْـــبُ يَعْلَـــقُ بـــالكبيـــر كبيـــرُ

وفي بعض طرق حديث الثلاثة أن رسول الله ﷺ كان ليلة نزول توبتهم في بيت أُم سلمة، وكانت لهم صالحة[٣]، فقال لها رسول الله ﷺ: «يا أُم سلمة، تِيب على كعب بن مالك وصاحبيه»، فقالت: يا رسول الله ألا أبعث إليهم؟ فقال: «إذاً يحطمكم الناس سائر الليلة فيمنعوكم النوم).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين، فجاءَ هذا الأمر اعتراضاً في أثناءِ الكلام إذْ عنَّ في القصة ما يجب التنبيه على امتثاله، وقال ابن جريج وغيره: الصدقُ في هذه الآية هو صدق الحديث، وقال نافع، والضحاك ما معناه: إن اللفظ أعمّ من صدق الحديث، وهو بمعنى الصحة في الدين والتمكن في الخير، كما تقول العرب: «عَوْدٌ صدقٌ ورجلٌ صدق». وقالت هذه الفرقة: كونوا مع محمد ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وأخيار المهاجرين الذين صدقوا الله

---

(١) يريد البخاري، ومسلم، وكتب السيرة كما سبق أن ذكر.

(٢) اسمه عبد الرحمن بن عمرو بن يُحْمد الأوزاعي، وأبو عمرو، إمام في الفقه والزهد، وأحد الكتاب المترسلين، ولد في بعلبك ونشأ في البقاع، وكانت الفُتيا تدور بالأندلس على رأيه إلى زمن الحكَم بن هشام، له كتاب «السُّنَن» في الفقه، و«المسائل» وقد سئل عن سبعين ألف مسألة أجاب عنها كلها، توفي سنة ١٥٧هـ. (تاريخ بيروت، الوفيات، الأعلام).

(٣) يريد: وكانت للثلاثة مصالحة، ولعله سهو من النساخ. وفي نسخة: «وكانت لهم صلْحاً» أي مصالحة.



في الإسلام. و﴿ مَعَ﴾ في هذه الآية تقتضي الصحبة في الحال والمشاركة في الوصف المقتضي للمدح ، وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس: [وكُونُوا مِنَ الصَّادِقِينَ] ، ورويت عن النبي ﷺ ، وكان ابن مسعود يتأول في صدق الحديث ، وروي عنه أنه قال: الكذب لا يصلح منه جدّ ولا هزل ، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ .

هذه معاتبة للمؤمنين من أَهل يثرب وقبائل العرب المجاورة لها على التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوه ، وقوة الكلام تعطي الأَمر بصحبته إلى توجُّهه غازياً وبذل النفوس دونه ، واختلف المتأَولون ، فقال قتادة: كان هذا الإلزام خاصاً مع النبي ﷺ ووجوب النفر إلى الغزو إذا خرج هو بنفسه ، ولم يبق هذا الحكم مع غيره من الخلفاءِ ، وقال زيد بن أَسلم: كان هذا الأَمر والإلزام في قلة الإسلام والاحتياج إلى اتصال الأَيدي ثم نسخ عند قوة الإسلام بقوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً﴾ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله في الانبعاث إلى غزو العدو على الدخول في الإسلام ، وأَما إذا أَلَمَّ العدو بجهة فمتعين على كل أَحد القيام بذبّه ومكافحته.

وأَما قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فمعناه أَلاَّ يتحمل رسول الله ﷺ في الله مشقة ويجود بنفسه في سبيل الله فيقع منهم شحّ على أَنفسهم ويكعّون عما دخل هو فيه ، ثم ذكر تعالى لِمَ لَمْ يكن لهم التخلف عن رسول الله ﷺ بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ الآية.
والنصب: التعب ، ومنه قول النابغة:



كِلِيني لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ ناصِبِ .... (١)

أي: ذي نَصَبٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾(٢).

والمخْمصة: مفْعَلة من خمص البطن وهو ضموره، واستعير ذلك لحالة الجوع إذ الخموص ملازم له، ومن ذلك قول الأعشى:

تَبِيتُونَ في المَشْتى مِلاءً بُطُونُكُمْ وجاراتُكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائِصَا(٣)

ومنه: «أَخْمَص القدم»(٤)، والخُمْصانة من النساءِ(٥).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا ﴾ أَي: ولا ينتهون من الأرض منتهىً مؤذياً للكفار، وذلك هو الغائط، ومنه في «المدونة»: «كنا لا نتوضَّأ من مَوْطىءٍ» من قول ابن مسعود. وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا ﴾ لفظٌ عامٌ لقليل ما يصنعه المؤمنون بالكفرة من أَخذ مالٍ أَو إِيراد هوانٍ وكثيره(٦)، والنَّيْلُ: مصدر نال ينال، وليس من قولهم: نلتُ أَنوله نولاً ونوالاً، وقيل: هو منه وبدلت الواو ياءً لخفتها هنا، وهذا ضعيف، والطبري قد ذكر نحوه وضعّفه وقال: ليس ذلك المعروف من كلام العرب. وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ ﴾ الآية. قدم الصغيرة للاهتمام، أَي: إِذا كتبت

---

(١) هذا صدر بيت قاله النابغة في مطلع قصيدة يمدح بها عمرو بن الحارث الأصغر المعروف بابن أبي شَمِر وذلك حين هرب النابغة إلى دمشق حين بلغه أن مُرّة بن قريع وشى به إلى النعمان في أمر المتجردة، وقيل: إن الواشي هو المُنَخّل بن عبيد اليشكري، والبيت بتمامه:

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ وليلٍ أُقاسيهِ بطيءِ الكَوَاكِبِ

و(كِلِي) فعل أمر بمعنى اتركي، والمعنى المراد: خلّي بيني وبين الهم الذي أتعبني والليل الطويل الذي أُقاسي منه. وقد أجمع الرواة على نصب (أُمَيْمَةَ) في البيت، وعلل ذلك أبو عبيدة والأصمعي بأن عادة العرب أن ينادوا اسم المرأة بالترخيم، وإذا كان الحرف الذي قبل هاء التأنيث مفتوحاً أبداً واحتاج الشاعر إلى إبقاء هاء التأنيث لأجل سلامة الوزن تكلم بها على عادة الترخيم ففتحها كما يفتح آخر المنادىٰ المؤنث المرخم. ومعنى (ناصب): ذو نصب، أي: تعب، فهو همٌّ مُتْعب.

(٢) من الآية (٦٢) من سورة (الكهف).

(٣) قاله الأعشى في قصيدة يهجو بها علقَمة بن عُلاثة، ويروى: (وجاراتكم جَوْعى) بدلا من (غَرْثى). والقصيدة مُقْذعة في الهجاء.

(٤) الأخْمَص: باطن القدم وما رقَّ من أسفلها وتجافى عن الأرض.

(٥) الخَمصان (بالفتح) والخُمصان (بالضم): الجائع الضامر البطن، والأنثى: خَمُصانة بالفتح والضم أيضاً، وجمعها خِماصٌ.

(٦) (كثيره) معطوفه على (قليل) فيكون المعنى: لفظ عامٌّ للقليل وللكثير مما يصنعه المؤمنون بالكفرة.



الصغيرة فالكبيرة أحرى، والوادي: ما بين الجبلين كان فيه ماءٌ أو لم يكن، وجمعه أَودية، وليس في كلام العرب فاعِلٌ وأَفعِلَة إلاّ في هذا الحرف وحده(١)، وفي الحديث: «ما ازداد قوم من أَهليهم في سبيل الله بعداً إلا ازدادوا من الله قرباً»(٢).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

قالت فرقة: سبب هذه الآية أَن المؤمنين الذين كانوا بالبادية سكاناً ومبعوثين لتعليم الشرع لما سمعوا قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ أَهمهم ذلك، فنفروا إِلى المدينة إِلى رسول الله ﷺ خشية أَن يكونوا مذنبين في التخلف عن الغزو، فنزلت هذه الآية في نفرهم ذلك. وقالت فرقة: إِن المنافقين لما نزلت الآيات في المتخلفين قالوا: هلك أَهل البوادي، فنزلت هذه الآية مقيمة لعذر أَهل البوادي.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فيجيءُ قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم ﴾ عموماً في اللفظ والمراد به في المعنى الجمهورُ والأكثر، وتجيءُ هذه الآية مبينة لذلك مطردة الأَلفاظ متصلة المعنى من قوله تبارك وتعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ إِلى قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُونَ ﴾. بيّن في آخر الآية العمومُ الذي في أَولها إِذ هو معرض أَن يتأَول فيه أَلاّ يتخلف بشر. والتفقه هو من النافرين، والإِنذارُ هو منهم، والضمير في ﴿ رَجَعُوٓا۟ ﴾ لهم أَيضاً. وقالت فرقة: هذه الآية ليست في معنى الغزو، وإِنما سببها أَن قبائل العرب لمّا دعا رسولُ الله ﷺ على مُضر بالسنين أَصابتهم مجاعةٌ وشدّة، فنفروا إِلى المدينة لمعنى

(١) سمع من ذلك: نادٍ وأندية، قال الجوهري: «الجمع أوْدية على غير قياس كأنه جمع وَدِيٍّ مثلُ سريٍّ وأَسْرِية للنهر»، وقال ابن الأعرابي: «الوادي: يجمع أوداءٍ على أفعال مثل صاحب وأصحاب». وطَيءٌ تقول: أوْداءٌ، قال جرير:

عــرفــتُ بِبُــرْقَــةِ الأوْداءِ رسْمــاً ... مُحيلا، طــال عَهْــدُكَ مِــنْ رسُــوم

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري.



المعاش فكادوا أَن يفسدوها، وكان أَكثرهم غير صحيح الإيمان وإنما أَضرعه الجوع[١]، فنزلت الآية في ذلك فقال: وما كان مَنْ صفته الإيمان لينفر مثل هذا النفير، أَي: ليس هؤلاءِ المؤمنين. وقال ابن عباس ما معناه: إن هذه الآية مختصة بالبعوث والسرايا، والآية المتقدمة ثابتة الحكم مع خروج رسول الله ﷺ في الغزو، وهذه ثابتة الحكم مع تخلفه، أَي: يجب إذا تخلف أَلا ينفر الناس كافة فيبقى هو منفرداً، وإنما ينبغي أَن تنفر طائفة وتبقى طائفة لتتفقه هذه الباقية في الدين وينذروا النافرين إذا رجع النافرون إليهم. وقالت فرقة: هذه الآية ناسخة لكل ما ورد من إلزام الكافة النفير والقتال، والضمير في قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾ عائد أَيضاً ـ على هذا التأْويل ـ على الطائفة المتخلفة مع النبي ﷺ، وهو على القول الأَول في ترتيبنا هذا عائد على الطائفة النافرة، وكذلك يترتب عوده مع بعض الأَقوال على هذه، ومع بعضها على هذه.

والجمهور على أَن التفقُّه إنما هو بمشاهدة رسول الله ﷺ وصحبته. وقالت فرقة: يُشْبه أَن يكون التفقه في الغزو في السرايا لما يرون من نُصرة الله لدينه وإظهارِهِ العدد القليل من المؤمنين على الكثير من الكافرين وعلمهم بذلك صحة دين الإسلام ومكانته من الله تعالى، ورجحه الطبري وقوّاه، والآخر أَيضاً قوي. والضمير في قوله سبحانه: ﴿وَلِيُنذِرُوا﴾ عائد على المتفقهين بحسب الخلاف، والإنذار عام للكفر والمعاصي والحذر منها أَيضاً كذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ الآية. قيل: هذه الآية نزلت قبل الأَمر بقتال الكفار كافة فهي من التدريج الذي كان أَول الإسلام.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قَوْل يضعفه أَن هذه الآية من آخر ما نزل. وقالت فرقة: إنما كان رسول الله ﷺ ربَّما تجاوز قوماً من الكفار غازياً قوماً آخرين أَبعد منهم، فأَمر الله تعالى بغزو الأَدنى فالأَدنى إلى المدينة، وقالت فرقة: الآية مبينة صورة القتال كافة، وهي مترتبة مع الأَمر بقتال الكفار كافة، ومعناها أَن الله تعالى أَمر فيها المؤمنين أَن يقاتل كل

(١) أي أَذَلَّهُ وأضعفه، يقال: أَضرع الله خدَّه: أَذلَّه. (المعجم الوسيط).



فريق منهم الجنس الذي يصاقبه[١] من الكفرة، وهذا هو القتال لكلمة الله وردّ الناس إلى الإسلام، وأَما إذا مال العدوّ إلى صقع من أَصقاع المسلمين ففرض على من اتصل به من المسلمين كفاية عدو ذلك الصقع وإن بعدت الدار ونأَت البلاد، وقال قائلوا هذه المقالة: نزلت الآية مشيرة إلى قتال الروم بالشام لأَنهم كانوا يومئذ العدو الذي يلي ويقرب، إذ كانت العرب قد عمّها الإسلام وكانت العراق بعيدة، ثم لما اتسع نطاق الإسلام توجه الفرض في قتال الفُرس والدَّيْلم[٢] وغيرهما من الأُمم، وسأَل ابن عمر رضي الله عنهما رجلٌ عن قتال الدَّيْلم فقال: عليك بالروم، وقال الحسن: هم الروم والدَّيْلم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يعني في زمنه ذلك، وقاله علي بن الحسين. وقال ابن زيد: المراد بهذه الآية وقت نزولها: العرب، فلما فُرغ منهم نزلت في الروم وغيرهم: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[٣].

وقرأَ جمهور الناس: ﴿غِلْظَةً﴾ بكسر الغين، وقرأَ المفضل عن عاصم، والأعمش: [غَلْظَة] بفتحها، وقرأَ أَبو عبد الرحمن السلمي، وأَبان بن ثعلب، وابن أَبي عبلة: [غُلْظَة] بضمها، وهي قراءَة أَبي حَيْوة، ورواها المفضّل عن عاصم أَيضاً، قال أَبو حاتم: رويت الوجوه الثلاثة عن أَبي عمرو، وفي هاتين القراءَتين شذوذ، وهي لغات. ومعنى الكلام: وليجدوا فيكم خشونة وبأساً، وذلك مقصود به القتال، ومنه: «العذاب الغليظ»[٤] و﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾[٥]، و﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾[٦] في صفة

---

(١) أي يقاربه ويواجهه، يقال: صاقَبَهُ مُصاقَبَةً وصِقاباً، ويقال: جارٌ مُصَاقب. (المعجم الوسيط).

(٢) الدَّيْلَمُ: جيل من العجم كانوا يسكنون نواحي أَذْربيجان، ولهذه الكلمة معانٍ كثيرة تجدها في كتب اللغة.

(٣) من الآية (٢٩) من هذه السورة (التوبة).

(٤) إشارة إلى ما ورد في كثير من آيات التنزيل، مثل قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، وقوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، وقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

(٥) من الآية (١٥٩) من سورة (آل عمران).

(٦) من الآية (٦) من سورة (التحريم).



الزبانية، و(غَلُظَتْ عَلَيْنَا كُدْيَة) في حفر الخندق[١] إلى غير ذلك.

ثم وعد الله تعالى في آخر الآية، وحضَّ على التقوى التي هي ملاك الدين والدنيا وبها يلقى العدو، وقد قال بعض الصحابة: «إنما تقاتلون الناس بأعمالكم». وأهلها هم المجدون في طريق الحق، فوعد تعالى أنه مع أهل التقوى، ومن كان الله معه فلن يُغلَب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

هذه الآية نزلت في شأن المنافقين، والضمير في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم﴾ عائد على المنافقين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ يحتمل أن يكون لمنافقين مثلهم، ويحتمل أن يكون لقوم من قراباتهم من المؤمنين يستنيمون إليهم[٢]، ويثقون بسترهم عليهم، ويطمعون في ردّهم إلى النفاق. ومعنى ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ الاستخفاف والتحقير لشأن السورة كما تقول: أي غريب في هذا؟ أو أيّ دليل؟

ثم ابتدأ عزَّ وجلَّ الردَّ عليهم والحكم بما يهدم لبسهم فأخبر أن المؤمنين زادتهم إيماناً، وأنهم يستبشرون من ألفاظها ومعانيها برحمة الله ورضوانه. والزيادة في الإيمان موضع تخبط للناس وتطويل، وتلخيص القول فيه أن الإيمان الذي هو نفس التصديق ليس مما يقبل الزيادة والنقص في نفسه، وإنما تقع الزيادة في المُصَدَّق به، فإذا نزلت سورة من الله تبارك وتعالى حدث للمؤمنين بها تصديق خاص لم يكن قبل، فتصديقُهم

---

(١) إشارة إلى ما حدث في غزوة الخندق، وجاءت هذه الجملة في حديث رواه البخاري عن جابر، ولكن بلفظ: (فَعَرَضَتْ) بدلاً من (وغلظت). قال جابر: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كُدْيَةٌ شديدة، فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كُدْيَةٌ عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل»، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيباً أهيل أو أهيم... الحديث. والكُديةُ هي الصَّفاةُ العظيمة الشديدة، وقيل: الأرض الصلبة.

(٢) استنام إلى الشيء: استراح وسكن إليه.



بما تضمنته السورة من أَخبار وأَمر ونهي أَمرٌ زائد على الذي كان عندهم من قبلُ، فهذا وجه من زيادة الإِيمان، ووجه آخر أَن السورة ربما تضمنت دليلاً أَو تنبيهاً عليه فيكون المؤمن قد عرف الله بعدة أَدلة، فإِذا نزلت السورة زادت في أَدلته، وهذه أَيضاً جهة أُخرى من الزيادة، وكلها خارجة عن نفس التصديق إِذا حصل تامًّا، فإِنه ليس يبقى فيه موضع زيادة، ووجه آخر من وجوه الزيادة أَن الرجل ربما عارضه شك يسير أَو لاحت له شبهة مشغبة فإِذا نزلت السورة ارتفعت تلك الشبهة واستراح منها، فهذا أَيضاً زيادة في الإِيمان إِذ يرتقي اعتقاده عن مرتبة معارضة تلك الشبهة إِلى الخلوص منها، وأَما على قول من يُسمّي الطاعات إِيماناً ـ وذلك مجاز عند أَهل السُّنَّة ـ فَتَتَرَتَّب الزيادة بالسورة، إِذ تتضمن أَوامر ونواهي وأَحكاماً، وهذا حكم من يتعلم العلم في معنى زيادة الإِيمان ونقصانه إِلى يوم القيامة، فإِن تعلُّم الإِنسان العلم بمنزلة نزول سورة القرآن.

و﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون، وهذا تشبيه، وذلك أَن السالم المعتقد المنشرح الصدر بالإِيمان يشبه الصحيح، والفاسد المعتقد يشبه المريض، ففي العبارة مجاز فصيح لأَن المرض والصحة إِنما هي[1] خاصة في الأَعضاءِ، فهي في المعتقدات مجاز، والرجس في هذه الآية عبارة عن حالهم التي جمعت معنى الرجس في اللغة، وذلك أَن الرجس في اللغة يجيءُ بمعنى القذر، ويجيءُ بمعنى العذاب، وحال هؤلاءِ المنافقين هي قذر وهي عذاب عاجل كفيل بآجل، وزيادة الرجس إِلى الرجس هي عمههم في الكفر وخبطهم في الضلال، يعاقبهم الله على الكفر والإِعراض بالخَتم على قلوبهم والحتم بالنار عليهم، وإِذا كفروا بسورة فقد زاد كفرهم فذلك زيادة رجس إِلى رجسهم.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ الآية. قرأَ الجمهور ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ بالياءِ على معنى: أَوَلا يرى المنافقون. وقرأَ حمزة: [أَوَلاَ تَرَوْنَ] بالتاءِ على معنى: أَولا ترون أَيها المؤمنون، فهذا تنبيه للمؤمنين. وقرأَ ابن مسعود، وأَبي بن كعب، والأَعمش: [أَوَلاَ تَرَى] أَي أَنت يا محمد، وروي عن الأَعمش أَيضاً: [أَوَلَمْ تَرَوْا]، وذكر عنه أَبو حاتم: [أَوَلَمْ يَرَوْا]. وقال مجاهد: [يُفْتَنُونَ] معناه: يُخْتبرون بالسَّنَة

(١) ـ يريد: إنما هي صفات خاصة في الأعضاء.



والجوع، وحكى عنه النقاش أنه قال: مرضة أو مرضتين، وقال الحسن بن أَبي الحسن، وقتادة: معناه: يُخْتبرون بالأَمر بالجهاد، والذي يظهر مما قبل الآية ومما بعدها أَن الفتنة والاختبار إِنما هي بكشف الله تعالى أَسرارهم وإِفشائه عقائدهم، فهذا هو الاختبار الذي تقوم عليه الحجة برؤْيته وترك التوبة، وأَما الجهاد والجوع فلا يَتَرَتَّب معهما ما ذكرناه، فمعنى الآية على هذا: أَفلا يزدجر هؤلاء الذين تفضح سرائرهم كل سنة مرة أَو مرتين بحسب واحد واحد، ويعلمون أَن ذلك من عند الله فيتوبون ويتذكرون وعد الله ووعيده، وأَما الاختبار في المرض فهو في المؤمنين، وقد كان الحسن ينشد:

أَفـي كـلِّ عـام مـرْضَـةٌ ثـم نَقْهَـةٌ فحتَّى مَتى حتى مَتى وإِلى مَتى؟

وقالت فرقة: المعنى: يفتنون بما يشيعه المشركون على رسول الله ﷺ من الأَكاذيب، فكان الذين في قلوبهم مرض يفتنون في ذلك، وحكى الطبري هذا القول عن حذيفة وهو غريب من المعنى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

الضمير في قوله سبحانه: ﴿بَعْضُهُمْ﴾ عائد على المنافقين، والمعنى: وإِذا ما أُنزلت سورة فيها فضيحة أَسرارهم نظر بعضهم إِلى بعضهم على جهة التقرير، يفهم من تلك النظرة التقرير، هل معكم من ينقل عنكم؟ هل يراكم من أَحد حين تدبرون أَموركم؟ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ معناه: عن طريق الاهتداءِ، وذلك أَنهم حينما يبين لهم كشف أَسرارهم والإِعلام بمغيَّبات أُمورهم يقع لهم لا محالة تعجب وتوقف نظر، فلو اهتدوا لكان ذلك الوقت مظنة ذلك، فهم إِذ يصممون على الكفر ويرتبكون فيه(١) كأَنهم انصرفوا عن تلك الحال التي كانت مظنة للنظر الصحيح والاهتداءِ، وابتدأَ

(١) قال في اللسان: «ارتبك الرجل في الأمر، أي نشب فيه ولم يكد يتخلّص منه»، وقال: «وفي حديث=



بالفعل المسند إليهم إذ هو تعديد ذنب على ما قد بيَّنّاه. وقوله: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ يحتمل أن يكون دعاءً عليهم ، ويحتمل أن يكون خبراً ، أي استوجبوا ذلك ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفهمون عن الله ولا عن رسوله. وأسند الطبري في تفسير هذه الاية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لا تقولوا: انصرفنا عن الصلاة ، فإن قوماً انصرفوا فصرف الله قلوبهم ، ولكن قولوا: قضينا الصلاة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا النظر الذي في هذه الآية إنما هو إيماءٌ ، وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال: ﴿نَّظَرَ﴾ في هذه الآية في موضع: «قال».

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ مخاطبة للعرب في قول الجمهور ، وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك ، إذ جاءَ بلسانهم وبما يفهمونه من الأغراض والفصاحة وشُرّفوا به غابر الأيام. وقال الزَّجاج: هي مخاطبة لجميع العالم ، والمعنى: لقد جاءَكم رسول من البشر ، والأول أصوب. وقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يقتضي مدحاً لنسب النبي ﷺ وأنه من صميم العرب وأشرفها[1] ، وينظر إلى هذا المعنى قوله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى بني هاشم من قريش ، واصطفاني من بني هاشم»[2] ، ومنه قوله ﷺ: «إني من نكاح ولست من سفاح»[3] ، معناه أن نسبه ﷺ إلى آدم عليه السلام لم يكن النسل فيه إلا من نِكاح ، ولم يكن فيه زنى. وقرأ عبد الله بن قُسَيْط المكي: [مِنْ أَنْفَسِكُمْ]

= علي: (تحيّر في الظلمات وارتبك في الهلكات) ، ومنه: ارتبك الصيد في الحبالة: اضطرب».

(١) في جميع النسخ الأصلية جاء (وشرفها) بدون الهمزة ، والمعنى يقتضي وجودها ، وقد نقل أبو حيان في البحر كلام ابن عطية كما أثبتناه هنا.

(٢) أخرجه ابن سعد ، ومسلم ، والترمذي ، والبيهقي في الدلائل عن واثلة بن الأسقع ، وفي أوله: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى إسماعيل من بني كنانة» الحديث. (الدر المنثور).

(٣) أخرج عبد الرزاق في المصنف ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في سننه ، وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيءٌ من ولادة الجاهلية ، وقال رسول الله ﷺ: «خرجتُ من نكاح ولم أخرج من سفاح». (الدر المنثور). واخرجه ابن عدي في الكامل ، والطبراني في الأوسط عن علي كرم الله وجهه بزيادة في آخره «من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأُمي ، لم يصبني من سفاح الجاهلية شيءٌ» ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث حسن.

بفتح الفاءِ من النفاسة، ورويت عن النبي ﷺ وعن فاطمة رضي الله عنها، وذكر أَبو عمرو أَن ابن عباس رضي الله عنهما رواها عن النبي ﷺ.

وقوله: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ معناه: عَنَتُكم، فـ﴿مَا﴾ مصدرية، وهي ابتداءٌ، و﴿عَزِيزٌ﴾ خبر مقدم، ويجوز أَن يكون ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ فاعلا بـ ﴿عَزِيزٌ﴾ و﴿عَزِيزٌ﴾ صفة للرسول ﷺ، وهذا أَصوب من الأَول[١]. والعَنتُ: المشقَّة، وهي هنا لفظة عامة، أَي: ما شق عليكم من كفر وضلال بسبب الحق، ومن قتْل أَو إِسارٍ أَو امتحان بسبب الحق واعتقادكم أَيضاً معه. وقال قتادة: المعنى: عنت مؤمنيكم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وتعميم عَنت الجميع أَوجه.

وقوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ يريد: على إِيمانكم وهداكم، وقوله: ﴿رَءُوفٌ﴾ معناه: مبالغٌ في الشفقة، قال أَبو عبيدة: الرأفة أَرقّ من الرحمة. وقرأَ [رؤُفٌ] دون مدٍّ؛ الأَعمشُ، وأَهل الكوفة، وأَبو عمرو[٢].

ثم خاطب النبي ﷺ بعد تقريره عليهم هذه النعمة فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يا محمد، أَي

---

(١) فيكون المعنى على هذا: يَعِزّ عليه مشقتكم، كما قال الشاعر:

يسُرُّ المرءَ ما ذَهَبَ اللَّيالي ... وكان ذَهابُهُنَّ لَهُ ذهابا

أي: يسر المرءَ ذهاب الليالي. ويجوز أن يكون ﴿عَزِيزٌ﴾ مبتدأ و﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ هو الخبر وأن تكون ﴿مَا﴾ بمعنى الذي، ذكره الحوفي، وهو إعراب دون الإعرابين السابقين كما قال أبو حيان الأندلسي في «البحر».

(٢) وصف الله تبارك وتعالى محمداً ﷺ في هذه الآية بستة أوصاف، الأولى: الرسالة وهي كمال الإنسان لما احتوت عليه من كمال ذات الرسول وطهارة نفسه الزكية وأنه من الخيار بحيث صار أهلاً لأن يكون واسطة بين الله وبين خلقه، ولما كانت هذه الصفة أشرف الأشياء بدأ بها. الثانية: أنه من أنفسهم، وهي صفة مؤثرة في التبليغ والفهم عنه والتآنس به، فإن كان الخطاب للعرب ففي هذه الصفة التنبيه على شرفهم والتحريض على اتباعه، وإن كان الخطاب لبني آدم ففيها التنويه بهم واللطف في إيصال الخير إليهم. والثالثة: أنه يعزّ عليه ما يشق عليهم فهذا الوصف من نتائج الرسالة ومن نتائج أنه منهم لأنه من كان منك دلّك على الخير وصعب عليه إيصال ما يؤذي إليك، والرابعة: حرصه ﷺ على هدايتهم، وهذه أيضاً من نتائج الرسالة. والصفتان الخامسة والسادسة أنه رءُوف رحيم بالمؤمنين، وهذا من نتائج التبعية له والدخول في دين الله، وصدق الله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

وهذا وقد قال الحسن بن الفضل: لم يجمع الله لنبي بين اسمين من أسمائه إلا لنبيّنا ﷺ، فإنه قال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.



أَعرضوا بعد هذه الحال المتقررة التي منَّ الله تبارك وتعالى عليهم بها ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ معناه: وأَعمالك بحسب قولك من التفويض إِلى الله والتوكل عليه والجِدّ في قتالهم. وليست بآية موادعة لأنها من آخر ما نزل، وخصّص العرش بالذكر إِذ هو أَعظم المخلوقات. وقرأ ابن محيصن: [الْعَظِيمُ] برفع الميم صفة للربّ، ورويت عن ابن كثير.

وهاتان الآيتان لم توجدا حين جمع المصحف إِلا في حفظ خزيمة بن ثابت[1]، «ووقع في البخاري: أَو أَبي خزيمة»، فلما جاءَ بهما تذكرهما كثير من الصحابة، وقد كان زيد يعرفهما ولذلك قال: «فقدت آيتين من آخر سورة التوبة». ولو لم يعرفهما لم يدر هل فقد شيئاً أَم لا، فإِنما ثبتت الآيتان بالإِجماع لا بخزيمة وحده، وأَسند الطبري في كتابه قال: كان عمر لا يثبت آية في المصحف إِلا أَن يشهد عليها رجلان، فلما جاءَ خزيمة بهاتين الآيتين قال: والله لا أَسأَل عليهما بيِّنَة أَبداً فإِنه هكذا كان ﷺ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

يعني صفة النبي ﷺ التي تضمنتها الآية، وهذا ـ والله أَعلم ـ قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مدة أَبي بكر رضي الله عنه حين الجمع الأَول، وحينئذ فقدت الآيتان، ولم يجمع من القرآن شيءٌ في خلافة عمر رضي الله عنه. وخزيمة بن ثابت هو المعروف بذي الشهادتين، وعرف بذلك لأَن رسول الله ﷺ أَمضى شهادته وحده في ابتياع فرس وحكم بها لِنَفْسه ﷺ[2]، وهذا خصوص لرسول الله ﷺ[3]. وذكر النقاش

---

(١) هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الأنصاري، أبو عمارة، صحابي جليل، من أشراف الأوس ومن شجعانهم، حمل راية بني خَطْمَةَ (من الأوس) يوم فتح مكة، وعاش إلى خلافة علي، وشهد معه صفّين فقتل فيها سنة ٣٧هـ، روى له البخاري ومسلم ٣٨ حديثاً، وهو المعروف بذي الشهادتين.

(٢) روى أبو داود من طريق الزهري عن عمارة بن خزيمة، أن عمه حدَّثه وهو من أصحاب النبي ﷺ: أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي (اسمه سوار بن الحارثة) فجحده، فشهد له خزيمة، فقال له رسول الله ﷺ: ما حملك على الشهادة ولم تكن معنا حاضراً؟ قال: صدقتك بما جئت به وعلمت أنك لا تقول إلا حقاً، فقال رسول الله ﷺ: من شهد له خزيمة أو شهد عليه فحسبه. وروى الدارقطني عن خزيمة بن ثابت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعل شهادته شهادة رجلين، وفي البخاري من حديث زيد بن ثابت: فوجدتها مع خزيمة بن ثابت الذي جعل النبي ﷺ شهادته بشهادتين. (الإصابة ـ الأعلام).

(٣) يعني أنه لا يجوز لأحد أن يحكم لنفسه، والنبي صلوات الله وسلامه حكم لنفسه في هذه القضية، فهي خصوصية له ﷺ، كما أن جعل شهادة خزيمة بن ثابت بشهادة رجلين خصوصية لخزيمة.



عن أُبي بن كعب أنه قال: أَقرب القرآن عهداً بالله تعالى هاتان الآيتان: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخر السورة[1].

انتهى بعون الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة التوبة
والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) في «نوادر الأصول» عن بُريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال عشر كلمات عند دُبُر كل صلاة وجد الله عندهن مَكْفِياً مَجْزِياً، خمسٌ للدنيا وخمسٌ للآخرة: حسبيَ اللهُ لديني، حسبيَ اللهُ لدنياي، حسبيَ اللهُ لما أهمَّني، حسبيَ اللهُ لمن بَغَى عَليّ، حسبيَ اللهُ لمن حسدني، حسبيَ اللهُ لمن كادني بسوءٍ، حسبيَ اللهُ عند الموت، حسبيَ اللهُ عند المساءلة في القبر، حسبيَ اللهُ عند الميزان، حسبي الله عند الصراط، حسبيَ اللهُ لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أُنيب».



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة يونس عليه السلام

هذه السورة هي مكيّة ، قال مقاتل: إلا آيتين وهي[١] قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ نزلت بالمدينة. وقال الكلبي: هي مكيّة إلاَّ قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾[٢] نزلت في اليهود بالمدينة. وقالت فرقة: نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة وباقيها بالمدينة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ .

تقدم في أول سورة البقرة ذكر الاختلاف في فواتح السور ، وتلك الأقوال كلها تترتَّب هنا ، وفي هذا الموضع قول يختص به ، قال ابن عباس ، وسالم بن عبد الله ، وابن جبير ، والشعبي: ﴿الٓر﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿نٓ﴾ هو (الرَّحْمن) قُطع اللفظُ في أوائل هذه السُّور[٣]. واختُلف عن نافع في إمالة الراءِ ، والقياس ألاَّ تمال. وكذلك اختلف

---

(١) هكذا بلفظ (هي) ، والمتأمل في أُسلوب ابن عطية يجده يكثر من ذلك فهو يستعمل الضمير (هي) قاصداً به مذكوراً سيأتي وهو «الآيات» ، ومن العجيب أن القرطبي ينقل هنا عن مقاتل رأيه فيقول: «وقال مقاتل: إلا آيتين وهي قوله: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾» وهو نفس تعبير ابن عطية ، فهل أخذه عن مقاتل؟ على أن الذي ذكره أكثر المفسرين كالشوكاني ، والقرطبي هو: «إلا ثلاث آيات هي». فهل قال ذلك ابن عطية وأخطأ النساخ؟ والخلاف بين ابن عباس ومقاتل في أن المكي ثلاثُ آيات أو آيتان مبني على اختلافهما في تحديد آخر الآية الثانية ، فمقاتل يرى أنها تمتد إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ ، وابن عباس رضي الله عنهما يرى أنها تنتهي عند قوله تعالى: ﴿ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ، والآيات المقصودة هي رقم (٩٤) من السورة وما بعدها.

(٢) الآية رقم (٤٠) من السورة.

(٣) تعبير القرطبي هنا نقلا عن ابن عباس: «﴿الٓر﴾ ، و﴿حمٓ﴾ ، و﴿نٓ﴾: حروف(الرَّحمن) مفرقة» ، وهو يفسر المعنى المراد هنا.



القراءُ ، وعلَّة من أَمال الراءَ أَن يدل بذلك على أنها اسم للحرف وليست بحرف في نفسها وإنما الحرف (ر)(١).

وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ﴾ قيل: هو بمعنى: (هذه)(٢) ، وقد يشبه أَن يتصل المعنى بـ ﴿ تِلْكَ ﴾ دون أَن نقدرها بدل غيرها ، والنظر في هذه اللفظة إنما يتركب على الخلاف في فواتح السور فتدبّره. و﴿ الْكِتَابِ ﴾ قال مجاهد ، وقتادة: المراد به التوراة والإنجيل ، وقال مجاهد أَيضاً وغيره: المراد به القرآن ، وهو الأَظهر. و﴿ الْحَكِيمِ ﴾ فعيل بمعنى محكم ، كما قال تعالى: ﴿ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾(٣) ، أَي: مُعتد مُعَد ، ويمكن أَن يكون ﴿حكِيم﴾ بمعنى: ذو حكمة فهو على النسب ، قال الطبري «فهو مثل أَليم بمعنى مؤلم» ، ثم قال: هو الذي أَحكمه وبيَّنه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فساق قولين على أَنهما واحد.

وقوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ الآية. قال ابن عباس ، وابن جريج ، وغيرهما: نسبت هذه الآية أَن قريشاً استبعدوا أَن يبعث الله رسولا من البشر. وقال الزجاج: إنما عجبوا من إخباره أَنهم يُبعثون من القبور ، إذ النذارة والبشارة تتضمنان ذلك ، وكثر كلامهم في ذلك حتى قال بعضهم: أَما وجد اللهُ من يبعث إلا يتيم أَبي طالب؟ ونحو هذا من الأَقاويل التي اختصرتها لشهرتها ، فنزلت الآية. وقوله:

---

(١) قال ابن خالويه في كتاب «الحجة»: «يُقرأُ بكسر الراء وفتحها ، فالحجة لمن أمال أنه أراد التخفيف والحجة لمن فَتَح أنه أتى باللفظ على الأصل ، وكلهم قصروا الراءَ ، وأهل العربية يقولون في حروف المعجم: إنه يجوز إمالتها ، وتفخيمُها ، وقَصْرُها ومَدُّها ، وتذكيرُها وتأنيثها».

(٢) والمشار إليه ـ على هذا ـ حاضر قريب ، وهذا هو رأي ابن عباس رضي الله عنهما ، واختاره أبو عبيدة كما ذكر أبو حيان في «البحر» ، وعليه جاء قول الأعشى:

تِلْكَ خَيْلي منْهُ وتِلْكَ ركابي ... هُنَّ صُفْرٌ أولادُها كالزَّبيب

ثم اختلف ـ بعد ذلك ـ في المقصود بالإشارة ، فقيل: آيات القرآن الكريم ، وقيل: آيات السورة التي تقدم ذكرها في آخر التوبة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ ، وقيل: المشار إليه هو (الراءُ) فإنها كنوز القرآن ، وبها العلوم التي استأثر الله بها ، إذ المراد أن الحروف التي افتتحت بها السور وإن قربت ألفاظها فمعانيها بعيدة المنال.

(٣) من الآية (٢٣) من سورة (ق).



﴿أَكَانَ﴾ تقرير[١]، والمراد بـ﴿النَّاسِ﴾: قائلوا هذه المقالة. و﴿عَجَبًا﴾ خبر ﴿كان﴾، واسمها: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾، وفي مصحف ابن مسعود: [أكانَ لِلنَّاسِ عجبٌ]، وجعل الخبر في قوله سبحانه: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾، والأول أصوب لأن الاسم معرفة والخبر نكرة وهذا القلب لا يصحُّ ولا يجيءُ إلاَّ شاذّاً[٢]، ومنه قول حسان:

. . . . يكُـونُ مِـزَاجُهـا عسَـلٌ ومَـاءُ[٣]

ولفظة العجب هنا ليست بمعنى التعجب فقط، بل معناه: أَوصل إنكارهم وتعجبهم إلى التكذيب؟ وقرأت فرقة: [إِلَى رَجْلٍ] بسكون الجيم. ثم فسّر الوحي وقسّمه على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين. والقدمُ ـ هنا ـ: ما قُدِّم. واخْتُلف في المراد بها ها هنا ـ فقال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أَنس، وابن زيد: هي الأَعمال الصالحة من العبادات، وقال الحسن بن أَبي الحسن، وقتادة: هي شفاعة محمد ﷺ، وقال زيد بن أَسلم، وغيره: هي المصيبة بمحمد ﷺ بموته، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً، وغيره: هي السعادة السابقة لهم في اللوح المحفوظ، وهذا أَليق الأَقوال بالآية، ومن هذه اللفظة قولُ حسّان:

لَنَـا القَـدمُ العُلْيـا إِلَيْـكَ وخَلْفُنَـا لأَوَّلِنَـا فـي طَـاعـةِ اللهِ تَـابِـعُ[٤]

---

(١) قال القرطبي: «استفهام معناه التقرير والتوبيخ»، وقال الشوكاني: «لإنكار العجب مع ما يفيد من التقريع والتوبيخ». وجعله الألوسي وابو حيان للإنكار فقط.

(٢) قال أبو حيان: «وهذا تخريج الزمخشري وابن عطية، وقيل: «كان» تامة، و﴿عَجَبٌ﴾ فاعل بها، والمعنى: أَحَدثَ للناس عجبٌ لأن أوحينا؟ وهذا التوجيه حسن». فالشذوذ ناتج عنده من فهم الزمخشري وابن عطية وليس في القراءة نفسها.

(٣) وهذا عجز بيت لحسّان، وهو بتمامه:

كـأنَّ سبيئـةً مـن بَيْـتِ رأسٍ يكـون مِـزَاجُهـا عسـلٌ ومَـاءُ

والسبيئةُ: الخمر، وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ الآية (٣٥) من سورة (الأنفال).

(٤) ورواه في «اللسان»: «القدم الأولى»، والقَدَم: السابقة وما تقدموا فيه غيرهم من الخير، والخَلْفُ: الباقي بعد الهالك والتابعُ له، سُمّي به المُتَخَلّف والخالف لا على جهة البَدَل، وجمعه: خلوف مثل قَرْن وقرون، والخَلْفُ هنا محمود، أما في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فهو مذموم. والبيت من القصيدة له يذكر فيها الأيام الأولى من تاريخ المسلمين في المدينة، وهي أحد عشر بيتاً.



وقول ذي الرمة:

لكُمْ قَدمٌ لاَ يُنْكِرُ النَّاسُ أَنَّها ... مع الحسَبِ العالي طمَّتْ على الْبحْرِ[1]

ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ في صفة جهنم: «حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول: قَطْ قَطْ»[2] أَي ما قدم لها من خلقه، هذا على أَن (الجبار) اسم الله تبارك وتعالى، ومن جعله اسم جنس كأَنه أَراد الجبارين من بني آدم، فالقدم على هذا التأْويل: الجارحة[3]. والصدق في هذه الآية بمعنى الصلاح، كما تقول: رجلٌ صِدْقٌ ورجلُ سوْءٍ[4]. وقوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يحتمل أَن يكون تفسيراً لقوله: «أَكان وحْيُنا إِلى بشر عجبا؟» قال الكافرون عنه كذا وكذا؟ وذهب الطبري إِلى أَن في الكلام حذفاً يدل الظاهر عليه، تقديره: فلما أَنْذر وبَشَّر قال الكافرون كذا وكذا. وقرأَ جمهور الناس، وهي قراءَة نافع، وأَبي عمرو، وابن عامر: ﴿إِن هذا لسحر مبين﴾، وقرأَ مسروق بن الأَجدع، وابن جبير، والباقون من السبعة، وابن مسعود، وأَبو رُزَيْن، ومجاهد، وابن وثاب، وطلحة، والأَعمش، وعيسى بن عمرو بخلاف، وابن محيصن، وابن كثير بخلاف عنه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ﴾، والمعنى متقارب. وفي مصحف أُبيّ: [قال الكافرون ما هذا إِلاَّ سحرٌ مبين]. وقولهم في الإِنذار والبشارة سحرٌ إِنما هو

---

(١) أنشد هذا البيت الزمخشري في «أساس البلاغة» (قدم) قال: «ولفلانٍ قدم في هذا الأمر: سابقة وتقدم، وله قدم صدق»، قال ذو الرمة: «لكم قَدَمٌ...» وهو في الديوان وتفسير الطبري: «مع الحسب العادي»، وفي الديوان: «على الفخر»، ومعنى العادي: القديم. ومعنى البيت: لكم سوابق تقدمت من الخير والفضل والحسب ما يعدّه الإنسان من مفاخره.

(٢) رواه البخاري في تفسير سورة (ق)، وفي الإيمان، وفي التوحيد، وكذلك رواه مسلم، والترمذي، والإمام أحمد في مواطن كثيرة من مسنده، ولفظه كما في البخاري عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُلْقى في النار وتقول: هل من مزيد حتى يضع قدمه فيها فتقول: قَطْ قَطْ»، وروى مثله عن أبي هريرة في لفظ طويل، ومثله عن أبي هريرة أيضاً بلفظ موجز.

(٣) هذا الاحتمال غير وارد لأن بعض روايات الحديث في مسلم تقول: «حتى يضع ربّ العزّة»، ولأن معنى الحديث يرفضه.

(٤) رجُلٌ صَدْقٌ بفتح الصاد. جاء في الصحاح: «رجُلٌ صَدْقُ اللقاءِ وصَدْقُ النَّظَر وقوم صُدْقٌ بالضم، مثل فرس وَرْدٍ وأفراسٍ وُرْد، وجَوْنٍ وجُونٍ». وفي المعجم الوسيط: الصَّدْق: الكامل من كل شيءٍ، يقال: «رمْحٌ صَدْقٌ: مُسْتَوٍ صُلْبٌ، ورجُلٌ صَدْقُ اللقاءِ: ثَبْتٌ فيه». ويقال كذلك بالكسر: رجُلٌ صِدْقٌ.
وأمّا السَّوْءُ فبفتح السين: «يقال: رجلُ سَوْءٍ وعَمَلُ سَوْءٍ، ورجُلُ السَّوْءِ، والرجلُ السَّوْءُ». (المعجم الوسيط).



بسبب أنه فرق بذلك كلمتهم وحال بين القريب وقريبه فأشبه بذلك ما يفعله الساحر فظنوه من ذلك الباب.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾.

هذا ابتداءُ دعاءٍ إلى عبادة الله عزَّ وجلَّ وإعلام بصفاته، والخطاب بها لجميع الناس، و﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ هو على ما تقرر أن الله عزَّ وجلَّ خلق الأرض ثم استوى إلى السماء وهي دخان فخلقها ثم دحى الأرض بعد ذلك. وقوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قيل: هي من أيام الآخرة، وقال الجمهور ـ وهو الصواب ـ: بل من أيام الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذلك في التقدير، لأن الشمس وجريها لم يتقدم حينئذ، وقول النبي ﷺ في خلق الله المخلوقات: «إن الله ابتدأ يوم الأحد كذا ويوم كذا كذا» إنما هو على أن نقدر ذلك الزمان ونعكس إليه التجربة من حين ابتدأ ترتيب اليوم والليلة. والمشهور أن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد، ووقع في بعض الأحاديث في كتاب مسلم، وفي الدلائل أن البداءَة وقعت يوم السبت[1]، وذكر بعض الناس أن الحكمة في خلق الله تبارك وتعالى هذه الأشياءَ في مدة محدودة ممتدة وفي القدرة أن يقول كن فيكون إنما هو ليعلِّم عباده التؤدة والتماهل في الأمور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا مما لا يوصل إلى تعليله، وعلى هذا هي الأجنَّة في البطون وخلق الثمار

(١) عبارة ابن عطية هنا تدل على أنه يشك في صحة هذه الرواية، بدليل قوله: «ووقع في بعض الأحاديث»، والحقيقة المشهورة عند العلماءِ أن الله بدأ الخلق يوم الأحد، وأن مدة الخلق كانت ستة أيام بنَصّ القرآن الكريم. ومعنى ذلك أن هذه الرواية تتعارض مع الآية فلا بد من إسقاطها أو تأويلها، ولا يمنع من ذلك ورودها في صحيح مسلم غفر الله لنا وله، وقد تكلم كثير من الحفاظ في هذا الحديث. والله أعلم.



وغير ذلك، والله عزّ وجلّ قد جعل لكل شيءٍ قدراً وهو أَعلم بوجه الحكمة في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾قد تقدم القول فيه في ﴿الٓمٓصٓ﴾. وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يصح أَن يريد (بالأَمر) اسم الجنس من الأُمور، ويحتمل أَن يريد الأَمر الذي هو مصدر أَمَرَ يأْمُرُ أَمْراً، وتدبيره لاَ إِله إِلاَّ هُو الإِنفاذ لأَنه قد أَحاط بكل شيءٍ علما. وقال مجاهد: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ معناه: يقضيه وحده.

وقوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ ردٌّ على العرب في اعتقادها أَن الأَصنام تشفع لها[(١)]، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إِشارة إِلى الله تبارك وتعالى، أَي هذا الذي هذه صفاته فاعبدوه، ثم قررهم على هذه الآيات والعبر فقال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَي: فيكون التذكُّر سبباً للاهتداءِ.

واختصار القول في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أَن يكون استوى بقهره وغلبته، وإِمَّا أَن يكون ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بمعنى استولى ـ إِن صحَّت اللفظة في اللسان، فقد قيل في قول الشاعر:

قَـدِ استـوى بِشْـرٌ عَلَـى الْعِـراقِ ... مِـنْ غَيْـرِ سيْـفٍ ودَمٍ مُهْـرَاقِ

إِنَّه بيتٌ مصنوع ـ وإِما أَن يكون فَعَلَ فِعْلا في العرش سماه استوى. واستيعاب القول قد تقدم.[(٢)]

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الآية آية إِنباءِ بالبعث من القبور، وهي من الأُمور التي جوزها العقل وأَثبت وقوعها الشرع. وقوله ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الضمير في ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر، وكذلك قوله: ﴿حَقًّا﴾، وقال أَبو الفتح: ﴿حَقًّا﴾ نعت. وقرأَ الجمهور: ﴿إِنَّهُۥ﴾ بكسر الأَلف على القَطع والاستئناف، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع، والأَعمش، وسهل بن شعيب، وعبد الله: [أَنه] بفتح الأَلف، وموضعها النصب على تقدير: أَحق أَنه، وقال الفراءُ: موضعها رفع على تقدير: يحق أَنَّه.

---

(١) قال بعض العلماءِ: فماذا إِذا ادَّعَوْا الإِذن لها وقالوا: إِنها تشفع بعد أَن يؤذن لها، والآية لا تنفي الإِذْنَ؟ يقال: ولن يأْذن لها لأَنها ليست أَهلا للشفاعة.

(٢) في الآية (٥٤) من سورة (الأعراف). واللغويون لهم آراء كثيرة في معنى (استوى) أشهرها أنه بمعنى: استولى وظهر، وقد سئل مالك بن أنس رضي الله عنه: كيف استوى؟ فقال: «الكيف غير معقول، والاستواءُ غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

يجوز عندي أن يكون [أنه] بدلاً من قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، قال أبو الفتح: إن شئت قدرت: لأنه يبدأ الخلق، أي: فمن في قدرته هذا فهو غني عن إخلاف الوعد، وإن شئت قدرته: وَعدَ اللهُ حقاً أنَّه، ولا يعمل فيه المصدر الذي هو ﴿وَعْدَ﴾ لأنه قد وصُف فآذن ذلك بتمامه وقطع عمله[١]. وقرأ ابن أبي عبلة [حقٌّ] بالرفع، فهو ابتداءٌ وخبره [أنَّهُ]، وقوله: ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ يريد النشأة الأولى، والإعادة هي البعث من القبور، وقرأ طلحة: [يُبْدِي الْخَلْقَ] بضم الياءِ وكسر الدال. وقوله ﴿لِيَجْزِىَ﴾ هي لام كي، والمعنى أن الإعادة إنما هي لِيَقَع الجزاءُ على الأعمال، وقوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾] أي بالعدل في رحمتهم وحُسْن جزائهم، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ابتداءٌ، والحميمُ: الْحَارُّ المسَخَّن، وهو فعيل بمعنى مفعول، ومنه الحمام والحمة، ومنه قول المرقش:

فــي كــلِّ يــوْم لَهَــا مِقْطَــرةٌ وكبــاءٌ مُعَــدَّةٌ وحميــمْ[٢]

وحميم النار ـ فيما ذكر عن رسول الله ﷺ ـ إذا أدناه الكافر من فيه تساقطت فروة رأسه[٣]، وهو كما وصفه الله تعالى: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾[٤].

---

(١) فلا يصح أن يوصف قبل تمامه.

(٢) البيت للمرقّش الأصغر، واسمه ربيعة بن سفيان بن سعد، وهو ابن أخ للمرقش الأكبر، وعمٌّ لطرفة بن العبد، وهو أشهر المرقشين، ويعد واحداً من فرسان العرب وشجعانهم، والبيت من قصيدة يتغزل فيها في محبوبته ابنة عجلان، والرواية هنا ناقصة، وفيها اختلاف عن الديوان، واللفظ كما في الديوان:

فــي كُــلِّ مُمْســىً لَهَــا مِقْطَــرَةٌ فيهــا كِبــاءٌ مُعَــدَّةٌ وحميــمْ

وروايه اللسان: «كُلِّ عشاءٍ ـ ومُعَدّ». وجميع الروايات تحتاج إلى مناقشة في الوزن الشعري، والمِقْطَرَة: المِجْمَرَة، والكِباءُ بكسر الكاف: العود، الحميم: ماءٌ حارٌ تُحَمّ به، يصفها بالنظافة فيقول: إنها تُعدُّ كل مساءٍ ماءً ساخناً لتغتسل به، وهذا المعنى مأثور ومتكرر في الشعر الغزلي عند الجاهلين، إذ ينسبون إلى الحبيبات كل نعيم للدليل على الترف.

(٣) رواه الترمذي، والإمام أحمد (٥ـ٢٦٥) ولفظه كما جاء فيه: عن أبي أُمامة عن النبي ﷺ في قوله: «وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُه» قال: يقرب إليه فيتكرهه فإذا دنا شوى وجهه ووقعت فروة رأسه... الخ الحديث.

(٤) من الآية (٢٩) من سورة (الكهف).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) ﴾.

هذا استمرار على وصف آيات الله والتنبيه على صنعته الدالة على الصانع ، وهذه الآية تقتضي أَن الضياءَ أَعظم من النور وأَبهى بحسب الشمس والقمر ، ويلحق هاهنا اعتراض وهو أَنا وجدنا الله تعالى شبّه هداه ولطفَه بخلقه بالنور ، فقال: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[1] ، وهذا يقتضي أَن النور أَعظم هذه الأَشياءِ وأَبلغها في الشروق ، وإِلاَّ فلم ترك التشبيه الأَعلى الذي هو الضياءُ وعدل إِلى الأَقل الذي هو النور؟ فالجواب عن هذا والانفصال أَن تقول: إِن لفظة النور أَحكم وأَبلغ في قوله سبحانه: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وذلك أَنه تعالى شبَّه هداه ولطفه الذي نصبه لقوم يهتدون وآخرين يضلون معه بالنور الذي هو موجود أَبداً في الليل وأَثناءَ الظلام ، ولو شبهه بالضياءِ لوجب أَلاَّ يضل أَحد إِذ كان الهدى يكون مثل الشمس التي لا تبقى معها ظلمة ، فمعنى الآية: إِن الله تبارك وتعالى قد جعل هداه في الكفر كالنور في الظلام فيهتدي قومٌ ويضل آخرون ، ولو جعله كالضياءِ لوجب أَلا يضل أَحد ، وبقي الضياءُ على هذا الانفصال أَبلغ في الشروق كما اقتضت آيتنا هذه ، والله عزَّ وجلَّ هو ضياءُ السموات والأَرض ونورُها وقيُّومُها. ويحتمل أَن يعترض هذا الانفصال ، والله المستعان.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ يريد البروج المذكورة في غير هذه الآية[2]. وأَما الضمير الذي ردَّه على القمر وقد تقدم ذكر الشمس معه فيحتمل أَن يريد بالضمير القمر وحده لأَنه هو المراعى في معرفة عدد السنين والحساب عند العرب ، لكنه اجتزأَ بذكر

---

(١) من الآية (٣٥) من سورة (النور).

(٢) في قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ ، وفي سورة الفرقان: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ ، وفي سورة البروج: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ ، وكانت العرب تنسب للبروج الأنواء ، وهي ثمانية وعشرون برجاً.



الواحد كما قال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[(١)] ، وكما قال الشاعر:

رماني بذَنْبٍ كنْتُ منْهُ ووالِدِي ... بريئاً ، ومن أَجْلِ الطَّوِيّ رماني[(٢)]

قال الزجاج: وكما قال الآخر:

نحن بما عندنا وأَنْتَ بِما ... عندك راضٍ والرَّأْيُ مُخْتَلِف[(٣)]

وقوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا۟﴾ المعنى: قدر هذين النَّيِّرين منازل لكي تعلموا بها عدد السنين والحساب رفقاً بكم ، ورفعاً للالتباس في معاشكم وتَجْرِكم وإجارتكم وغير ذلك مما يضطر فيه إلى معرفة التواريخ.

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أَي للفائدة لا لِلَّعب والإهمال ، فهي إذاً يحق أَن تكون كما هي.

وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وعاصم في رواية حفص: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ ، وقرأَ ابن كثير أَيضاً ، وعاصم ، والباقون[(٤)] ، والأَعرج ، وأَبو جعفر ، وشيبة ، وأَهل مكة ، والحسن ، والأَعمش: [نُفَصِّل] بنون العظمة.

وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إنما خصهم لأَن نفع التفصيل فيهم ظهر وعليهم أَضاءَ

---

(١) من الآية (٦٢) من سورة (التوبة).

(٢) لأن الشاعر قال: (بريئاً) ولم يقل (بريئين)، وقد سبق الاستشهاد بالبيت ، وقد رواه الفراء في كتابه «معاني القرآن» ، وفي اللسان أن ابن برّي قال: البيت لابن أحمر ، وقيل: هو للأزرق بن طرفة بن العَمَرّد الفراصي ، ورُوي: (ومِنْ جَوْل الطويّ) ، والطَّوِي: بئر اختصم عليها الشاعر مع أحد الناس فقال خَصْمه: إنّه لِصّ وابن لَصّ ، فقال هذه القصيدة ، وبعد البيت:

دَعَاني لِصاً في نُصوصٍ وما دعَا ... بها والدي فيما مضَى رجُلانِ

وجول الطَّويّ: كل ناحية من نواحي البئر من أعلاها إلى أسفلها.

(٣) إذ قال: (راضٍ) ولم يقل: (رضوان) ، وقد سبق الاستشهاد بالبيت عند تفسير قوله تعالى في الآية (٣٤) من سورة التوبة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ، وكذلك عند تفسير قوله سبحانه في الآية (٦٢) من نفس السورة: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾.

وهذا مثل الآية والبيتين قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ إذ لم يقل سبحانه (إليهما) ، ومثلها أيضاً قول حسان بن ثابت الأنصاري:

إنَّ شَرْخَ الشباب والشَّعَرَ الأسْـ ... ـوَدَ ما لَمْ يُعاصِ كان جُنونا

فقد قال: (يعاص) ولم يقل: (يعاصيَان).

(٤) يريد باقي السبعة.



وإن كان التفصيل إنما وقع مجملا للكل مُعَدّاً ليحصله الجميع. وقرأ جمهور السبعة ، وقد رويت عن ابن كثير: ﴿ضِيَآءً﴾ ، وقرأ ابن كثير وحده فيما روي أيضاً عنه[١]: [ضِئَاءً] بهمزتين ، وأصله ضياءً فقلبت[٢] ، فجاءت [ضِئَاءا] ، فقلبت الياءُ همزة لوقوعها بين ألفين. قال أبو علي: وهي غلط[٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الآية ، آية اعتبار وتنبيه ، ولفظة (الاختلاف) تعم تعاقب الليل والنهار وكونهما خلفة وما يتعاورانه من الزيادة والنقص وغير ذلك من لواحق سير الشمس وبحسب أقطار الأرض ، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لفظ عام لجميع المخلوقات ، والآيات: العلامات والدلائل ، وخصص القوم المتقين تشريفاً لهم إذ الاعتبار فيهم يقع ، ونسبتهم إلى هذه الأشياءِ المنظور فيها أفضل من نسبة من لم يهتد ولا اتَّقى.

قوله عز وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

قال أبو عبيدة ، وتابعه القتبي وغيره: ﴿يَرْجُونَ﴾ في هذه الآية بمعنى يخافون ، واحتجوا ببيت أبي ذؤيب:

إذا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لم يرجُ لَسْعَها ... وخالَفَها في بيت نُوبٍ عواسِلِ[٤]

---

(١) في القرطبي وفي البحر المحيط أنها قراءة قنبل.

(٢) يعني: قدمت الهمزة التي بعد الألف فصارت قبل الألف وصارت ضئايا ، ثم قلبت الياءُ همزة لوقوعها بعد ألف زائدة فصارت ضئاءا ، وكذلك إن قدرت لأن الياء حين تأخرت رجعت إلى أصلها وهو الواو التي انقلبت عنها ـ إن قدرت هذا فإن الياء تقلب همزة أيضاً وتكون على وزن فلاع مقلوب من فعال.

(٣) لأن القياس هو الفرار من اجتماع همزتين إلى تخفيف إحداهما فكيف نتخيل تقديماً وتأخيراً يؤديان إلى اجتماعهما ولم يكونا موجودين في الأصل. وتأمل التعليل الذي ذكره ابن عطية لقلب الياء المتأخرة همزة وهو أنها وقعت بين ألفين ، وما ذكرنا هنا من أنها قلبت همزة لوقوعها بعد ألف زائدة ، فقد قيل بالرأيين.

(٤) جاء في اللسان: «وقال ثعلب: قال الفراءُ: الرجاءُ في معنى الخوف لا يكون إلا مع الجحد ، تقول؛ =



وحكى المهدوي عن بعض أَهل اللغة ـ قال ابن سيدة: هو الفراءُ ـ: إن لفظة الرجاءِ إذا جاءَت منفية فإنها تكون بمعنى الخوف ـ وحكى عن بعضهم: إنها تكون بمعناها في كل موضع تدل عليه قرائن ما قبله وما بعده، فعَلَى هذا التأويل معنى الآية: «إن الذين لا يخافون لقاءَنا». وقال ابن زيد: هذه الآية في الكفار، وقال بعض أَهل العلم: الرجاءُ في هذه الآية على بابه، وذلك أَن الكافر المكذب بالبعث ليس يرجو رحمة الله في الآخرة، ولا يحسن ظناً بأَن يلقى الله، ولا له في الآخرة أَمل، فإنه لو كان له فيها أَمل لقارنه لا محالة خوفٌ، وهذه الحال من الخوف المقارن هي الفائدة من النجاة، والذي أَقول: إن الرجاءَ في كل موضع على بابه، وإن بيت الهذلي معناه: لم يرج فقْدَ لَسْعِها فهو يبني عليه ويصبر إذ يعلم أَنه لا بُدَّ منه.

وقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ يريد: كانت آخر همهم ومنتهى غرضهم، وأَسند الطبري عن قتادة أَنه قال في تفسير هذه الآية: «إذا شئت رأَيت هذا الموصوف، صاحب دنيا، لها يغضب، ولها يرضى، ولها يفرح، ولها يهتم ويحزن». فكأَن قتادة صورها في العصاة، ولا يترتب ذلك إلا مع تأَوّل الرجاءِ على بابه، إذ قد يكون العاصي المُجلِّح[1] مستوحشاً من آخرته، فأَما على التأويل الأَول فمن لا يخاف لقاءَ الله فهو كافر، وقوله: ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ تكميل في معنى القناعة بها والرفض لغيرها، لأَن الطمأنينة بالشيءِ هي زوال التحرك إلى غيره. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ يحتمل أَن يكون ابتداءَ إشارة إلى فرقة أُخرى من الكفار، وهؤلاءِ ـ على هذا التأويل ـ أَضل صفقة لأَنهم ليسوا أَهل دنيا بل أَهل غفلة فقط[2]، ثم حتم عليهم بالنار، وجَعَلها مأواهم، وهو حيث يأْوي الإنسان ويستقر، ثم جعل ذلك بسبب كسبهم واجتراحهم، وفي هذه اللفظة ردّ على الجبرية ونص على تعلُّق العقاب بالتكسب الذي للإنسان.

= ما رجوتك، أي: ما خفتك، ولا تقول: رجوتك بمعنى خفتك وأنشد لأبي ذؤيب: إذا لَسَعَته... البيت. أي: لم يخف ولم يبال، ويروى: وحالفها».

(١) المُجَلِّح في الأمر: الذي يُقدم عليه في عزم وتصميم ويركب رأسه فلا يتراجع.

(٢) لم يذكر الاحتمال الثاني وهو أن يكون قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ من عطف الصفات، فيكون الغافلون عن الآيات هم الذين لا يرجون لقاءَ الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية. لما قرّر تبارك وتعالى حالة الفرقة الهالكة عقَّب ذلك بذكر حالة الفرقة الناجية ليتضح الطريقان ويرى الناظر فرق ما بين الهدى والضلال، وهذا كله لطف منه بعباده. وقوله: ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ لا يترتب أن يكون معناه: يرشدهم إلى الإيمان، لأنه قد قررهم مؤمنين، فإنما الهدى في هذه الآية إنما على أحد وجهين، إما أن يريد أن يديمهم ويثبتهم، كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾(١) فإنما معناه: اثبتوا، وإما أن يريد به: يرشدهم إلى طرق الجنان في الآخرة. وقوله: ﴿بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ يحتمل أن يريد: بسبب إيمانهم ويكون ذلك مقابلاً لقوله قبل: ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، ويحتمل أن يكون الإيمان هو نفس الهدى، أي: يهديهم إلى طريق الجنة بنور إيمانهم. قال مجاهد: يكون لهم إيمانهم نوراً يمشون به، ويتركب هذا التأويل على ما روي عن النبي ﷺ: «إن العبد المؤمن إذا قام من قبره للحشر تمثل له رجل جميل الوجه طيب الرائحة، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقوده إلى الجنة»(٢) وبعكس هذا في الكافر، ونحو هذا مما أسنده الطبري وغيره. وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يريد؛ من تحت عِلِّيَّاتهم وغرفهم، وليس التحت الذي هو بالمسامتة، بل يكون من ناحية الإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾(٣)، وكما قال حكاية عن فرعون: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ الآية. الدعوى بمعنى الدعاءِ، يقال: دعا الرجل وادَّعى بمعنى واحد، قاله سيبويه. و﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ تقديس وتسبيح وتنزيه لجلاله عن كل ما لا يليق به، وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في ذلك: «هي

---

(١) من الآية (١٣٦) من سورة (النساء).

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ قال: حدثنا الحسن قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «المؤمن إذا خرج من قبره صُوّر له عمله في صورة حسنة وريح طيبة، فيقول له: ما أنت؟ فوالله إني لأراك عين امرئ صدق، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة، وأما الكافر فإذا خرج من قبره صُوِّر له عمله في صورة سيئة وريح منتنة، فيقول له: ما أنت؟ فوالله إني لأراك عين امرئ سوءٍ، فيقول: أنا عملك، فينطلق به حتى يدخله النار». (الدر المنثور).

(٣) من الآية (٢٤) من سورة (مريم).

(٤) من الآية (٥١) من سورة (الزخرف).



كلمات رضيها الله تعالى لنفسه»، وقال طلحة بن عبيد الله: قلت: يا رسول الله، ما معنى «سبحان الله»؟ فقال: «معناها تنزيه الله من السّوءِ»، وقد تقدم ذكر خلاف النحاة في ﴿ٱللَّهُمَّ﴾، وحكي عن بعض المفسرين أنهم رأوا أن هذه الكلمة إنما يقولها المؤمن في الجنة عندما يشتهي الطعام، فإنه إذا رأى طائراً أو غير ذلك قال: «سبحانك اللّهم» فنزلت تلك الإرادة بين يديه فوق ما اشتهى[1]. رواه ابن جريج، وسفيان بن عيينة.

وقوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ يريد: تسليم بعضهم على بعض، والتحية مأخوذة من تمني الحياة للإنسان والدعاء بها، يقال: حيّاه يُحيِّيه، ومنه قول زهير بن جناب:

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ الفَتى ... قَدْ نِلْتُهُ إلاَّ التَّحِيَّهْ[2]

يريد دعاءَ الناس للملوك بالحياة، وقد سُمّي المُلْكُ تحية بهذا التدريج، ومنه قول عمرو بن معديكرب:

أَزورُ أَبَا قابوس حتَّى ... أُنيخَ علَى تَحِيَّتِهِ بِجُنْدِي[3]

أَراد: على مملكته. وقال بعض العلماء: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ يريد تسليم الله عزَّ وجلَّ، والسلام مأخوذ من السلامة.

---

(١) أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن ابن جريج قال: أُخبرت أن قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ إذا مَرَّ بهم الطائر يشتهونه قالوا: سبحانك اللّهم، ذلك دعاؤهم به، فيأتيهم الملك بما اشتهوا، فإذا جاء الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردون عليه فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾، فإذا أكلوا قدر حاجتهم قالوا: الحمد للهِ رَبِّ العَالَمين، فلذلك قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. (الدر المنثور).

(٢) رواية التّاج: «ولكُلُّ ما» وكذلك في غيره من المراجع، يقول: لقد نلت كل ما يتمناه أمثالي ولم ينقصني إلا أن أكون ملِكاً ينحني لي الناس بالتحية، وزُهَيْر كان سيداً وخطيباً وشاعراً وبطلاً في قومه (قضاعة) ونال فعلا مكانة عالية وعمّر طويلا، وقيل: رأته ابنة له يوماً يدبّ على عصاه فقالت لابن ابنها: خذ بيد جدِّك، فقال له: من أنت؟ فلما أجابه أنشأ يقول:

أَبَنِيَّ إنْ أَهْلِكْ فَقَدْ ... أَوْرَثْتُكُمْ مَجْداً بَنِيَّهْ
وتَرَكْتُكُمْ أَبْنَاءَ سَا ... داتٍ زِنَادُكُمْ وَرِيَّهْ
ولَكُلُّ مَا نَالَ الفَتَى ... قَدْ نِلْتُهُ إلا التَّحِيَّهْ

(٣) عن اللسان: (قال أبو عمرو: التحية المُلْك، وأنشد قول عمرو بن معديكرب: «أسيرُ به إلى النُّعْمَانِ حَتَّى... البيت» يعني على مُلْكِه، ويُروى: «أسير بها»، ويروى: «أَؤُمُّ بها». وقال خالد بن يزيد: لو كانت التحية المُلك لما قيل: التحيّات لله).



وقوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ يريد: وخاتمة دعواهم في كل موطن وكلامهم شكر الله تعالى وحمده على سابغ نعمه، وكانت بدايتهم بالتنزيه والتعظيم. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهي عند سيبويه [أَنْ] المخففة من الثقيلة، وقرأ ابن محيصن، وبلال بن أبي بُردة، ويعقوب، وأبو حيوة: [أَنَّ الْحَمْدَ للهِ]، وهي ـ على الوجهين ـ رفع على خبر الابتداءِ، قال أبو الفتح: هذه القراءَة تدل على أن قراءَة الجماعة هي [أَنْ] المخففة من الثقيلة بمنزلة قول الأعشى:

فـي فِتْيـةٍ كسُيـوف الْهِنْـدِ قَـدْ علِمُـوا   أَنْ هَالِكٌ كلُّ منْ يحْفَى وينْتَعِلُ(١)

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قال مجاهد: «نزلت في دعاءِ الرجل على نفسه أَو ماله أَو ولده ونحو هذا، فأَخبر الله تعالى أَنه لو فعل مع الناس في إجابته إِلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابتهم إِلى الخير لأَهلكهم، ثم حذف بعد ذلك من القول جملة يتضمنها الظاهر تقديرها: ولا يفعل ذلك ولكن يذر الذين لا يرجون، فاقتضب القول وتوصل إِلى هذا المعنى بقوله سبحانه: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، فتأَمل هذا التقدير فتجده صحيحاً. و﴿ٱسْتِعْجَالَهُم﴾ نصب على المصدر، والتقدير: مثل استعجالهم، وقيل: التقدير: تعجيلا مثل استعجالهم، وهذا قريب من الأول. وقيل: إن هذه الآية نزلت في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾(٢)،

---

(١) الرواية في الديوان:

فـي فِتْيَـةٍ كسُيُـوفِ الهنْـدِ قَـدْ عَلِمُـوا   أنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عن ذي الحيلَةِ الحِيَلُ

وهو أنسب للمعنى، وأما الحديث عن الحفاء والانتعال في بيت آخر قبل هذا البيت بثلاثة أبيات، وفيه يقول الأعشى:

إمَّـا تَـرَيْنَـا حُفَـاةً لا نِعَـالَ لَنَـا   إنَّـا كـذلـك مـا نَحْفَـى ونَنْتَعِـلُ

والبيتان من قصيدته المشهورة التي مطلعها:

وَدِّعْ هُـرَيْـرَةَ إنَّ الـرَّكْـبَ مُـرْتَحِـلُ   وهـلْ تُطِيـقُ وَدَاعـاً أيُّهَـا الـرَّجُـلُ؟

(٢) من الآية (٣٢) من سورة (الأنفال).

وقيل: نزلت في قوله تعالى: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾[(١)] وما جرى مجراه.

وقرأ جمهور القراءِ: ﴿لَقُضِيَ﴾ على بناءِ الفعل للمفعول ورفع [الأجل]، وقرأ ابن عامر وحده[(٢)]، وعوف، وعيسى بن عمر، ويعقوب: [لَقَضَى] على بناء الفعل للفاعل ونصب [الأَجل]، وقرأ الأعمش: [لَقَضَيْنَا]، والأَجل ـ في هذا الموضع ـ أَجل الموت، ومعنى (قضى) في هذه الآية: أكمل وفرغ، ومنه قول أَبي ذُؤَيب:

وعلَيْهِمـا مَسْـرُودتـانِ قَضَـاهُمـا ... داودُ أَوْ صَنَـعُ السَّـوَابِـغ تُبَّـعُ[(٣)]

وأَنشد أَبو علي في هذا المعنى:

قضيْـتُ أُمـوراً ثـم غـادرْتُ بَعْـدَهـا ... فـوائـح فـي أَكمـامِهـا لَـمْ تفتَّـق[(٤)]

وتعَدَّى (قضى) في هذه الآية بإِلى لما كان بمعنى: فَرغَ، وفَرغ يتعدى بإِلى وباللام، فمن ذلك قول جرير:

الآن فَقَـدْ فَـرَغْـتُ إِلَـى نُمَيْـرِ ... فصِرْتُ علَى جَمَاعَتِهَا عَـذَابَـا[(٥)]

---

(١) من الآية (٧٧) من سورة (الأعراف)، وهي قوله سبحانه: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

(٢) يعني من بين القراء السبعة، وإلا فقد قرأ بها معه عوف وغيره ممن ذكرهم ابن عطية.

(٣) هذا البيت من عَيْنِيَّة أبي ذؤيب المشهورة التي قالها في الرثاء، ومطلعها: «أَمِنَ المنونِ وريْبها تَتَوَجَّعُ»، وقوله: «مسرودتان»: رواية المفضل الضبي في «المفضليات»، والمسرودة: الدرع التي سمرت حلقاتها، والسَّرْد: الحلق، وقوله تعالى: ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾ معناه أن يجعل المسمار على قدر الثقب بحيث لا يكون الثقب واسعاً فيتقلقل المسمار، ولا يكون الثقب دقيقاً والمسمار غليظاً فينقصم الحلق. ورواية جمهرة أشعار العرب: «وعليهما ماذيتان» أي: درعان من الحديد لينتان سهلتان. ومعنى «قضاهما»: أحكمهما وأكملهما وفرغ منهما، ورجُلٌ صَنَعٌ: ماهر في الصناعة، وتُبَّع: من ملوك اليمن، وقيل: كان يجيد صناعة الدروع، أو يأمر بصنعها محكمة، وداود عليه السلام اشتهر أيضاً بصنع الدروع، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾ و(صَنَعُ) مضافةٌ إلى (السوابغ)، وروي بالفعل الماضي في صَنَع، (والسوابغَ) مفعول به.

(٤) ويروى (حوائج) بدلا من (فوائح)، وقضى هنا بمعنى انتهى منها وأكملها، وكُمُّ كل نوْر وعاؤه، والتفتق: التَّفتح ويترتب عليه انتشار الرائحة الطيبة. ولم نقف على قائله.

(٥) البيت غير موجود في ديوانه (دار المعارف بمصر ـ تحقيق: د. نعمان محمد أمين) وأقرب الظن أن يكون من قصيدته المشهورة التي قالها في هجاء الراعي النميري، ومطلعها:

أقِلِّـي اللَّـوْم عـاذلَ والعِتَـابَـا ... وقُـولـي إن أَصَبْـتُ لَقَـدْ أَصـابَـا

ومنها البيت المشهور الذي قال النقاد عنه إنه أهجى بيت قالته العرب:

فَغُـضَّ الطـرفَ إِنَّـكَ مـن نُمَيْـرِ ... فَـلا كَعْبـاً بَلَغْـتَ ولا كـلابَـا



ومن الآخر قوله عز وجل: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾[١] ، وقرأ الأعمش[٢]: [فَنَذَرَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا] ، و﴿يَرْجُونَ﴾ في هذا الموضع على بابها ، والمراد الذين لا يؤمنون بالبعث فهم لا يرجون لقاءَ الله ، والرجاءُ مقترن أَبداً بخوف ، والطغيان: الغُلُوّ في الأمر وتجاوز الحدّ ، والعَمَهُ: الخبط في ضلال ، فهذه الآية نزلت ذامّة لخلق ذميم هو في الناس ، يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة فيحملهم أَحياناً سوءُ الخلق على الدعاءِ في الشَّرّ ، فلو عُجِّل لهم لهلكوا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ﴾ الآية ، هذه الآية أَيضاً عتابٌ على سوءِ الخُلق من بعض الناس ، ومضمنه النهيُ عن مثل هذا ، والأمرُ بالتسليم إِلى الله تعالى والضراعة إِليه في كل حال ، والعلمُ بأَن الخير والشر منه لا ربّ غيره. وقوله ﴿لِجَنبِهِ﴾ في موضع حال ، كأَنه قال: مضطجعاً ، ويجوز أَن يكون حالاً من ﴿الْإِنسَانَ﴾ ، والعامل فيه ﴿مَسَّ﴾[٣]، ويجوز أَن يكون حالا من ضمير الفاعل في ﴿دَعَانَا﴾ والعامل فيه (دعا) وهما معنيان متباينان. و﴿الضُّرُّ﴾ لفظ عام لجميع الأَمراض والرزايا في النفس والمال والأَحبة ، هذا قول اللغويين ، وقيل: هو مختص برزايا البدن: الهزال والمرض ، وقوله: ﴿مَرَّ﴾ يقتضي أَن نزولها في الكفار ثم هي بعْدُ تتناول كل من دخل تحت معناها من كافر أَو عاص ، فمعنى الآية: مرَّ في إِشراكه بالله وقلَّة توكله عليه. وقوله ﴿زُيِّنَ﴾ إِن قدرناه من الله تبارك وتعالى فهو خلقه الكفر لهم واختراعه في نفوسهم صحبة أَعمالهم الفاسدة ومثابرتهم عليها ، وإِن قدرنا ذلك من الشيطان فهو بمعنى الوسوسة والمخادعة ، ولفظة التزيين قد جاءَت في القرآن بهذين المعنيين مرّة من فعل الله تعالى ، ومرّة من فعل الشياطين.

---

(١) الآية (٣١) من سورة (الرحمن).

(٢) يفهم من كلام الزمخشري أن هذه القراءة بالنصب [فَنَذَرَ] حيث قال: «فإن قلت: فكيف اتصل به قوله: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾؟ وما معناه؟ قلت: قوله: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ﴾ متضمن نفي التعجيل ، كأنه قيل: ولا نعجل الشَّرَّ ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم».

(٣) هذا قول الزجاج ، وضعفه أبو البقاء لأمرين ، أحدهما: أن الحال ـ على هذا ـ واقع وجوب بعد ﴿وَإِذَا﴾ وليس بالوجه ، والثاني: كثرة دعائه في كل أحواله لا على الضر يصيبه في كل أحواله ، وعليه آيات كثيرة في القرآن. راجع البحر المحيط ٥ ـ ١٢٩.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

هذه آية وعيد للكفار وضرب أَمثال لهم، أَي: كما فعل هؤلاءِ فِعلَكُم فكذلك يُفْعل بكم ما فعل بهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ إِخبارٌ عن قسوة قلوبهم وشدة كفرهم. وقرأَ جمهور السبعة، وغيرهم: ﴿ نَجْزِى ﴾ بنون الجماعة، وفرقة: [يجْزِي] بالياءِ على معنى: يجزي الله. و﴿ خَلَٰٓئِفَ ﴾ جمع خليفة. وقوله: ﴿ لِنَنظُرَ ﴾ معناه: لنبيّن في الوجود ما علمناه أَزلا، لكن جرى القول على طريق الإِيجاز والفصاحة. وقرأَ يحيى بن الحارث[1] ـ وقال: رأَيتها في الإِمام مصحف عثمان ـ: [لِنَظُّرَ] بإِدغام النون في الظّاءِ[2]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إِن الله تعالى إِنّما جعلنا خلفاء لينظر كيف عملنا فأَرُوا الله حسن أَعمالكم في السِّرّ والعلانية»، وكان أَيضاً يقول: «قد استُخلفت يا بن الخطاب فانظر كيف تعمل»، وأَحياناً كان يقول: «قد استُخلفت يا بن أُم عُمر».

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ﴾ الآية. هذه الآية نزلت في قريش لأَن بعض كفارهم قال هذه المقالة على معنى: ساهلنا يا محمد واجعل هذا الكلام الذي هو من قِبَلِكَ على اختيارنا، وأَحلَّ ما حرّمته وحرّم ما حلّلته ليكون أَمرنا حينئذ واحداً

---

(١) هو يحيى بن الحارث بن عمرو بن يحيى، أبو عمرو الذّمَاري (من ذَمار على مرحلتين من صنعاء) ثم الدمشقي، إمام الجامع الأموي وشيخ القراءِ بدمشق بعد ابن عامر، أخذ القراءة عن ابن عامر. مات سنة ١٤٥هـ وله تسعون سنة. (طبقات القراء).

(٢) قال أبو الفتح: ظاهر هذا أنه أدغم النون في الظاءِ، وهذا لا يعرف في اللغة، ويُشبه أن تكون مخفاة فظنها القراءُ مدغمة على عادتهم في تحصيل كثير من الإخفاء إلى أن يظنوه مدغماً، وذلك لأن النون لا تدغم إلا في ستة حروف يجمعها قولك (يَرْمَلون).



وكلمتنا متصلة. فذَمَّ الله هذه الصنعة وذكَّرهم بأَنهم يقولون هذا للآيات البينات، ووصفهم بأَنهم لا يؤمنون بالبعث، ثم أَمر نبيّه عليه الصلاة والسلام أَن يردّ عليهم بالحق الواضح، وأَن يستسلم ويتبع حكم الله تعالى ويُعلم بخوفه ربّه. واليوم العظيم: يومُ القيامة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾.

هذه من كمال الحجة. أَي: هذا الكلام ليس من قِبَلي ولا من عندي، وإِنما هو من عند الله، ولو شاء الله ما بعثني به ولا تلوتُه عليكم ولا أَعلمتكم به. و﴿أَدْرَىٰكُم﴾ بمعنى: أُعْلمكم، يقال: دريت بالأَمر وأَدريت غيري. وهذه قراءَة الجمهور، وقرأَ ابن كثير[(١)] في بعض ما روي عنه: [وَلأَدْرَاكُمْ بِهِ] وهي لام تأْكيد دخلت على (أَدرى)، والمعنى ـ على هذا ـ ولأَعلمكم به من غير طريقي، وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما، وابن سيرين[(٢)]، وأَبو رجاءِ[(٣)]، والحسن[(٤)]: [وَلاَ أَدْرَأْتُكُمْ بِهِ]، وقرأَ ابن عباس

---

(١) هو عبد الله بن كثير الداريّ، مولى عمرو بن علقمة الكناني، ويكنى أبا مَعْبد، توفي بمكة سنة عشرين ومائة للهجرة.

(٢) محمد بن سيرين البصري الأنصاري بالولاءِ، أبو بكر، إمام وقته في علوم الدين بالبصرة، تابعي، من أشراف الكتاب نشأ بزازاً وتفقه وروى الحديث، واشتهر بالورع، ينسب له كتاب «تعبير الرؤيا. ط»، وهو غير «مُنْتَخَب الكلام في تفسير الأحلام» المنسوب إليه. وردت عنه الرواية في حروف القرآن، مات سنة ١١٠هـ. (طبقات القراء).

(٣) هو عمران بن تيم، أبو رجاء العطاردي التابعي، ولد قبل الهجرة وأسلم في حياة النبيﷺ ولم يره، عرض القرآن على ابن عباس رضي الله عنهما وتلقنه من أبي موسى رضي الله عنه، وحدث عن عمر رضي الله عنه وغيره، مات سنة ١٠٥هـ ـ (طبقات القراء).

(٤) هو أبو سعيد الحسن البصري إمام أهل البصرة، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه، وكان جامعاً عالماً فقيهاً حجة مأموناً عابداً كثير العلم فصيحاً، توفي سنة ١١٠هـ ـ (طبقات القراء).



أَيضاً وشهر بن حوشب: [وَلاَ أَنْذَرْتكُمْ بِهِ]، وخرّج الفراءُ قراءَة ابن عباس، والحسن على لغة لبعض العرب منها قولهم: «لَبَأْتُ» بمعنى «لبَّيْتُ»، ومنها قول امرأة منهم: «رَثَأْتُ زوجي بأَبيات»، أَي: رثَيْتُ، وقال أَبو الفتح: إِنما هي [أَدْرَيْتكُم] قلبت الياءُ أَلفاً لانفتاح ما قبلها[١]. وروينا عن قطرب: إِن لغة عقيل في أَعطيتك: أَعطأْتك، قال أَبو حاتم: قلبت الياءُ أَلفاً كما هي لغة بني الحارث بن كعب: «السلام علاك».

ثم قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أَي الأَربعين سنة قبل بعثته عليه السلام، ويريد: لم تجربوني في كذب ولا تكلمت في شيءٍ من هذا، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَن من كان على هذه الصفة لا يصح منه كذب بعد أَن كلَّ عمرُه[٢] وتقاصر أَمله واشتدت حنكته وخوفه لربّه، وقرأَ الجمهور بالبيان في ﴿لَبِثْتُ﴾، وقرأَ أَبو عمرو [لَبِتُّ] بإِدغام الثاءِ في التاءِ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الآية. جاءَ في هذه الآية التوقيف على عِظَمِ جُرْمِ المفتري على الله بعد تقدم التنصل من ذلك، قيل: فاتسق القول واضطردت فصاحته، وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهامٌ وتقرير، أَي: لا أَحد أَظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ﴾ ممن ﴿كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ بعد بيانها، وذلك أَعظم جرم على الله، وأَكثر استشراف إِلى عذابه. ثم قرر أَنه لا يفلح أَهل الجرم، و﴿يُفْلِحُ﴾ معناه: يظفر ببغيته.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ الآية. الضمير في ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ عائد على الكفار من قريش الذين تقدمت محاورتهم، و﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ هي الأَصنام، وقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ هو مذهب النبلاءِ منهم، فأَمر الله تعالى نبيّه عليه الصلاة والسلام أَن يقررهم ويوبّخهم: أَهم يعلمون الله بأَنباءٍ من السموات والأَرض لا يعلمها هو؟ وذكر «السموات» لأَن من العرب من يعبد الملائكة والشعرى. وبحسب هذا حسن أَن يقول: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، وقيل: ذلك على تجوّز الأَصنام

---

(١) هذا مع أن الياء ساكنة، وذلك كقولهم في يَيْبَس: يَابسَ، وقالوا في الإضافة إلى الحِيرَة: حاريّ، وإلى طيءٍ: طائيّ، فقد قلبت الياء الساكنة في هذه الكلمات ألفاً، ثم لما صارت ألفاً هُمِزَ على لغة من قال في الباز: البأز، وفي العالم: العألم، وفي الخاتم: الخأتم. (راجع ذلك في كتاب الخصائص لابن جني ـ باب ما همزته العرب ولا أصل له في همز مثله ٣ـ١٤٢).

(٢) أي: ضعف وثقل عن العمل، يقال: كلّ عن الأمر بمعنى: ثقل الأمر عليه فلم ينبعث له. (المعجم الوسيط).



التي لا تعقل، وفي التوقيف على هذا أعظم غلبة لهم، ولا يمكنهم إلا أن يقولوا: لا نفعل ولا نقدر، وذلك لهم لازم من قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾. و﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ استئناف تنزيه لله عزَّ وجلَّ. وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر هنا: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ بالياءِ على الغيبة، وفي حرفين في النحل، وحرف في الروم، وحرف في النمل[١]، وذكر أبو حاتم أنه قرأها كذلك نافع، والحسن، والأعرج، وابن القعقاع، وشيبة، وحميد، وطلحة، والأعمش. وقرأ ابن كثير، ونافع هنا وفي النمل فقط: [تُشْرِكُونَ] بالتاءِ على مخاطبة الحاضر. وقرأ حمزة، والكسائي الخمسة الأحرف بالتاءِ، وهي قراءَة أبي عبد الرحمن.

قوله عز وجل:

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قالت فرقة: المراد آدم، كان أُمة وحده، ثم اختلف الناسُ بعْدُ، وفي أمر بنيه. وقالت فرقة: المراد نَسَم بنيه إذ استخرجهم الله من ظهره وأشهدهم على أنفسهم. وقالت فرقة: المراد آدم وبنوه من لدن نزوله إلى قتل أحد ابنيه الآخر. وقالت فرقة: المراد: وما كان الناس إلاَّ أُمة واحدة في الضلالة والجهل بالله، فاختلفوا فرقاً في ذلك بحسب الجهالة. ويحتمل أن يكون المعنى: كان الناس صنفاً واحداً مُعَدّاً للاهتداء. واستيفاءُ القول في هذا متقدم في سورة البقرة في قوله سبحانه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[٢]. وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو جعفر، ونافع، وشيبة، وأبو عمرو:

---

(١) أما في (النحل) ففي الآية (١) وهي قوله سبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، وفي الآية (٣) وهي قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ـ وأما في الروم ففي الآية (٤٠) وفيها يقول سبحانه وتعالى: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ـ وأما في النمل ففي الآية (٦٣) حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾. والحجة لمن قرأ بالياء أنه أخبر بها عن المشركين في حال الغيبة، والحجة لمن قرأ بالتاء أنه أراد: قل لهم يا محمد: تعالى الله عما تشركون أيُّها الكفرة.

(٢) من الآية (٢١٣) من سورة (البقرة).



﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بضم القاف وكسر الضاد، وقرأ عيسى بن عمرو: [لَقَضَى] بفتحهما على الفعل الماضي.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يريد قضاءَه وتقديره لبني آدم بالآجال المؤقتة. ويحتمل أن يريد الكلمة في أمر القيامة وأن العقاب والثواب إنما يكون حينئذ(١).

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الآية. يريدون بقولهم: ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ آية تضطر الناس إلى الإيمان، وهذا النوع من الآيات لم يأت بها نبي قط، ولا هي معجزات اضطرارية، وإنما هي معرضة للنظر ليهتدي قوم ويضل آخرون. وقوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ إن شاءَ الله فعل وإن شاءَ لم يفعل، لا يطلع على غيبه أحد. وقوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ وعيد وقد صدقه الله تبارك وتعالى بنصرته محمداً ﷺ، قال الطبري: في بدر وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ الآية. المراد بالناس في هذه الآية الكفار، وهي بعْدُ تتناول من العاصين من لا يؤدي شكر الله تبارك وتعالى عند زوال المكروه عنه، ولا يرتدع بذلك عن معاصيه، وذلك في الناس كثير. والرحمة هنا بعد الضراءِ كالمطر بعد القحط والأمن بعد الخوف والصحة بعد المرض ونحو هذا مما لا ينحصر. والمكرُ: الاستهزاءُ والطعن عليها من الكفار واطراح الشكر والخوف من العصاة، ووصف مكر الله بالسرعة وإن كان الاستدراج بمهلهم لأنه مُتَيَقَّن به وواقع لا محالة، وكل آت قريب. قال أبو حاتم: قرأ الناس: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ بضم السين، وخفف السين الحسنُ، وابن أبي الحسن، وأبو عمرو.

ويقال: ﴿أَسْرَعُ﴾ من: سرعَ، ولا يكون من؛ أَسْرَعَ يُسْرِعُ، حكى ذلك أبو علي، قال: ولو كان من أَسْرَع لكان شاذاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد قال رسول الله ﷺ في نار جهنم: «لَهِيَ أَسْودُ مِن القَار»(٢) وما حفظ للنبي ﷺ فليس بشاذ(٣).

---

(١) في بعض النسخ: «إنما كان حينئذ»، وقد آثرنا التعبير الذي أثبته أبو حيان في نقله عن ابن عطية رحمه الله.
(٢) الحديث في الموطأ.
(٣) معنى كلام أبي علي أن (أَسْرع) اسم تفضيل لأنها من الثلاثي. وابن عطية يرى أنها مثل (أسود) التي=



وقرأ الحسن، والأعرج، ونافع، وقتادة، ومجاهد: ﴿تَمْكُرُونَ﴾ بتاءٍ على المخاطبة، وهي قراءَة أَهل مكة، وشبل، وأبي عمرو، وعيسى، وطلحة، وعاصم، والأعمش، والجحدري، وأَيوب بن المتوكل، [وقرأَ الحسن، وقتادة، ومجاهد][1] ورويت أَيضاً عن نافع، والأعرج [يمْكُرُون] على الغيبة. قال أَبو حاتم: قال أَيوب بن المتوكل: «في مصحف أُبي: يا أَيها الناس إن الله أَسرع مكرا وإن رسله لديكم يكتبون ما تمكرون»[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

هذه الآية تتضمن تعديد النعمة فيما هي الحال بسبيله من ركوب البحر. وركوبُه وقت حُسْن الظن به للجهاد والحج مُتَّفَقٌ على جوازه، وكذلك لضرورة المعاش بالصيد فيه أَو لتصرف التجر، وأَما ركوبُه لطلب الغنى والاستكثار فمكروه عند الأَكثر. وغاية مُبيحِهِ أَن يقول: وتركُه أَحسنُ، وأَما ركوبه في ارتجاجه فمكروه ممنوع، وفي الحديث: «من ركب البحر في ارتجاجه فقد بَرِئت منه الذِّمة»[3]،

= وردت في حديث نبوي شريف. قال أبو حيّان تعليقاً على ذلك: «في بناء التعجب وأفعل التفضيل من (أفعَل) ثلاثة مذاهب: المنع مطلقاً وما ورد من ذلك فهو شاذ، والجواز مطلقاً، والتفصيل بين أن تكون الهمزة فيه للنقل فيمنع، أو لغير النقل فيجوز نحو: أشكل الأمر، وأظلم الليل». ثم قال: «وأما تنظير «أسود من القار» بأسرع ففاسد، لأن أسود فعله ثلاثي، ولم يمتنع التعجب والتفضيل من نحو سوِد وحمِر وأَدِم إلا لكونه لوناً، وقد أجاز ذلك بعض الكوفيين في الألوان مطلقاً، وبعضهم في السواد والبياض فقط». (البحر: ٥ـ١٣٦).

(١) ما بين القوسين المعقوفين زيادة يقتضيها المعنى، وقد نقلناها عن البحر، وإلا لما كان هنا مبرر لأن يقول: «ورويت أيضاً» عن نافع، والأعرج.

(٢) قال أبو حيان تعليقاً على ذلك: «وينبغي أن يحمل هذا على التفسير لأنه مخالف لما أجمع عليه المسلمون من سواد المصحف، والمحفوظ عن أُبيّ القراءةُ والإقراءُ بسواد المصحف». (البحر ٥ـ١٣٧).

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٥ـ٧٩) عن أبي عمران الجوني قال: حدثني بعض أصحاب محمد ﷺ وغزونا نحو فارس فقال: قال رسول الله ﷺ: «من بات فوق بيت ليس له إجار فوقع فمات فبرئت منه=



وقال النبي ﷺ: «البحر لا أركبه أبداً»[(١)].

وقرأ جهور القراءِ من السبعة وغيرهم: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾، قال أَبو عليّ: وهو تضعيف مبالغة لا تضعيف تَعْدِية، لأَن العرب تقول سرتُ الرجلَ وسيَّرته، ومنه قول الهزلي:

فَلا تَجزَعَنْ مِن سِيرةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا ... فـأَوَّلُ راضٍ سُنَّـةً مـن يَسيـرُهَـا[(٢)]

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا البيت اعتراض حتى لا يكون شاهداً في هذا، وهو أَن يجعل الضمير كالظرف، كما تقول: «سرت الطريق»[(٣)]، وهذه قراءَة الجمهور من (سَيَر)، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود، وفي مصحف أَبي شَيْخ[(٤)]. وقال عوف بن أَبي جميلة:

= الذمة، ومن ركب البحر عند ارتجاجه فمات فقد برئت منه الذمّة». وقد علّق على الحديث الشيخ ناصر الدين الألباني في كتابه: «الأحاديث الصحيحة» فقال: «أخرجه الإمام أحمد وهو صحيح متصل الإسناد وجهالة الصحابي لا تضر».

(١) لم نقف على تخريج هذا الحديث، ولكن في الدارمي حديث آخر فيه: «لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز»، ومعنى هذا التحذير من ركوب البحر إلا في الطاعة ولأمر هام كالجهاد والحج، على أن الثابت في القرآن الكريم أن البحر نعمة من نعم الله، وفيه فوائد كثيرة، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. فإن صحَّ الحديث فليس لنا أن نفهم منه إلا مجرد التحذير من ركوب البحر إلا عند الضرورة. وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ دلالة على جواز ركوب البحر، والله أعلم.

(٢) جاء في (اللسان ـ سَيَر): «والسِّيرَةُ: السُّنَّة، وقد سارَتْ وسِرْتُهَا، قال خالد بن زهير ـ وقال ابن برِّي: وهو لخالد ابن أُخت أبي ذؤيب ـ كان أبو ذؤيب يرسله إلى محبوبته فأفسدها عليه فعاتبه أبو ذؤيب في أبيات كثيرة فقال له خالد:

فَـإِنَّ الَّتـي فِينَـا زَعَمْـتَ ومِثْلَهَـا ... لَفِيـكَ، ولكنِّـي أَرَاكَ تَجُـورُهَـا
تَنَقَّـذْتَهَـا مِـن عنـد وَهْـب بـن جـابـر ... وأنـتَ صَفـيُّ النفـس منه وخيْـرُهَـا
فـلا تجـزَعَـنْ مِـنْ سُنَّـةٍ أَنـت سِـرْتَهَـا ... فـأوَّلُ راضٍ سُنَّـةً مـن يَسيـرُهَـا

يقول: أنت جعلتها سائرةً في الناس، وقال أبو عبيد: سارَ الشيءُ وسِرْتُهُ، فعمَّ». وعلى هذا فالبيت لخالد بن زُهَيْر.

(٣) قال أبو حيان في «البحر» تعليقاً على ذلك: «هذا لا يجوز عند الجمهور لأن (الطريق) عندهم ظرف مختص كالدار والمسجد فلا يصل إليه الفعل غير (دخلت) عند سيبويه، و(انطلقت وذهبت) عند الفراءِ إلا بواسطة (في) إلا في الضرورة، وإذا كان كذلك فضميره أحرى ألا يتعدى إليه الفعل».

(٤) أبو شَيْخ الهُنائي، اسمه حيْوان بحاء مهملة أو معجمة والياء ساكنة، روى عن عمر رضي الله عنه، ومعاوية، وروى عنه بَيْهَس وقتادة، وثَّقه ابن حبان، ومات بعد المائة. (خلاصة تذهيب =



قد كان يُقرأ: [يَنشُركُم] فغيرها الحجاج بن يوسف ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ . قال سفيان بن أَبي الزعل: كانوا يقرؤون: [يَنشُركُم] فنظروا في مصحف ابن عفان رضي الله عنه فوجدوها ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ ، فأول من كتبها كذلك الحجاجُ. وقرأ ابن كثير في بعض طرقه: [يُسيركم] من أَسار ، وقرأ ابن عامر وحده من السبعة: [يَنْشُرُكُمْ] بفتح الياءِ وضم الشين ، من النَّشر والبَث ، وهي قراءَة زيد بن ثابت ، والحسن ، وأَبي العالية ، وأَبي جعفر ، وعبد الله بن جبير بن الفصيح ، وأَبي عبد الرحمن ، وشيبة ، وروي عن الحسن أنه قرأ: [يُنْشِرُكُمْ] بضم الياءِ وكسر الشين وقال هي قراءَة عبد الله ، قال أَبو حاتم: أَظنه غلط.

و﴿ٱلْفُلْكِ﴾: جمع (فُلْكٍ) ، وليس باسم واحد للجميع والفرد[1] ، ولكنه فُعْل جُمِع على فُعْل ، ومما يدل على ذلك قولهم: (فُلْكان) في التثنية ، وقراءَة أَبي الدرداء وأَم الدرداء: [في الفُلْكِيّ] على وزن فُعْلِيّ بياءِ نَسَب[2] ، لقولهم: أَشقريّ ودَوَّاريّ[3] في دور الدهر ، وكقول الصَّلَتان[4]:

أَنـــا الصلتـــانـــي. . . . .[5]

---

(١) يشير بذلك إلى رأي الفراء ، ثم استدل على كلامه بأنه قد ثُني فقيل: فُلْكانِ ، ذلك أن التثنية تدل على أنه قد حدث تغيير ، إذ من المعروف أن ما لا يُغَيّر ليس بجمع بل هو مشترك ، والخلاف أصلاً بين ابن جني والفراءِ ، فابن جني يقدّر التغيير ويعتبر سكون الجمع غير سكون الواحد ، والفراءُ لا يقدر التغيير لأن السكون أمرٌ عدمي فكيف نقدره؟ راجع حواشي البيضاوي.

(٢) نسب أبو الفتح هذه القراءة إلى أُم الدرداء فقط ، واسمها هجيمة بنت حيي الأوصابية الحميرية أُم الدرداء الصغرى زوجة أبي الدرداء ، أخذت القراءة عن زوجها ، وأخذ عنها إبراهيم بن عبلة ، وعطية بن قيس ، ويونس بن هبيرة ، توفيت بعد الثمانين. (طبقات القراء ٢ـ٣٥٤).

(٣) يقال للدّهر: دوَّاري ، قال الليث: الدَّوَّاريُّ الدّهر الدائر بالإنسان أحوالا ، قال العجّاج:

والـــدَّهـــرُ بـــالإنســـانَ دوَّاريُّ أَفْنـــى القـــرونَ وهُـــو قَعْسَـــرِيّ

(٤) الصَّلَتان بفتح الصاد المشددة واللام: اسم لثلاثة شعراء ، (عَبْديّ) نسبة إلى عبد القيس ، واسمه قُثم وهو المراد هنا ، و(ضبّيّ) نسبة إلى ضبّ بن أُدّ ، و(فَهْميّ) نسبة إلى فهم بن مالك. (راجع تاج العروس للزبيدي).

(٥) هذا جزءٌ من بيت قاله في مطلع قصيدة نظمها حين جعلوا إليه الحكم بين الفرزدق وجرير ، أيهما أشعر. (راجع الأمالي للقالي ٢ـ١٤٢ ، ١٤٣) ، والبيت بتمامه:

أنـــا الصَّلَتَـــانـــيُّ الـــذي قـــدْ عَلِمْتُـــمُ مَتـــى مـــا يُحَكَّـــم فَهْـــوَ بـــالحـــقّ صـــادِعُ



وقوله: ﴿وَجَرَيْنَ﴾ علامة قليل العدد[(١)] ، وقوله: ﴿بِهِم﴾ خروج من الحضور إلى الغيبة ، وحسُنَ ذلك لأن قوله: ﴿كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ هو بالمعنى المعقول: حتى إذا حصل بعضكم في السفن[(٢)] ، والريح إذا أُفردت فعُرْفها أن تستعمل في العذاب والمكروه ، لكنها لا يحسن في البحر أن تكون إلا واحدة لا نشراً ، فقيدت المفردة بالطيّب فخرجت عن ذلك العُرف وبرع المعنى. وقرأ ابن أبي عبلة: [جَاءَتْهُمْ رِيحٌ عَاصِفٌ] ، والعاصف: الشديدة من الريح ، يقال: عصَفَت الرّيح[(٣)] ، وقوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ على بابه في الظن ، لكنه ظن غالب مفزع بحسب أنه في محذور ، وقوله: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ أَي: نسوا الأَصنام والشركاءَ وجردوا الدعاءَ لله ، وذكر الطبري في ذلك عن بعض العلماءِ حكاية قول العجم: «هيا شراهيا» ومعناه: يا حي يا قيوم ، قال الطبري: جواب قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ﴾ : ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ، وجواب قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ : ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾[(٤)] .

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿يَبْغُونَ﴾ : أَي يفسدون ويكفرون ، والبغي: التعدي والأَعمال الفاسدة ، وأَكَّد

---

(١) يقول: إن النون علامة جمع قليل العدد ، وهو جمع المؤنث السالم ، وهذا يتفق مع ما نبّه عليه الأشموني عند الكلام على جموع القلّة من أن استعمالها في القِلّة على سبيل الحقيقة ، واستعمالها في الكثرة على سبيل المجاز ، وقد خالف في ذلك ابن خروف وتبعه الرضي وقالا: إن الجمعين لمطلق الجمع دون نظر إلى قِلّة أو كثرة.

(٢) قال أبو حيان في «البحر» تعقيباً على ذلك بعد أن نقله: «فكأنه قدّر مفرداً غائباً يعاد الضمير عليه فيصير كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ﴾ أي: أو كذي ظلمات ، فعاد الضمير غائباً على اسم غائب فلا يكون من باب الالتفات».

(٣) ويقال أيضاً: (أعصفت الريح) ، فهي عاصف ومعصف ومعصفة ، أي: شديدة. فالفعلان لازمان ، قال الشاعر:

حَتّـى إذَا أعصَفَـت ريـحٌ مُـزَعْـزِعَـةٌ فيهـا قطـارٌ ورعْـدٌ صـوْتـه زَجَـل

(٤) هذا مخالف للظاهر لأن قوله: (وظنوا) ظاهره العطف على جواب (إذا) لا أنه معطوف على (كنتم) لكنه محتمل ، قاله في البحر.



ذلك بقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾(١) ، ثم ابتدأ بالزجر وذمِّ البغي في أَوجز لفظ. وقوله: [مَتَاعُ الحياةِ] رفع ، وهذه قراءَة الجمهور ، وذلك على خبر الابتداءِ ، والمبتدأُ ﴿بَغْيُكُمْ﴾ ، ويصحُّ أَن يرتفع [مَتَاعُ] على خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: ذلك متاع ، أَو هو متاع ، وخبر البغي قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾. وقرأَ حفص عن عاصم ، وهارون عن ابن كثير ، وابن أَبي إِسحق: ﴿مَّتَـٰعَ﴾ بالنصب ، وهو مصدر في موضع الحال من البغي ، وخبر البغي ـ على هذا ـ محذوف تقديره: مذموم أَو مكروه أَو نحو هذا ، ولا يجوز أَن يكون الخبر قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ لأَنه كان يحول بين المصدر وما عمل فيه بأَجنبي ، ويصح أَن ينتصب ﴿مَّتَـٰعَ﴾ بفعل مضمر تقديره: تمتعون متاعَ الحياة الدنيا. وقرأَ ابن أَبي إِسحق: «متاعاً الحياةَ الدنيا» بالنصب فيهما ، ومعنى الآية: إِنما بغيكم وإِفسادكم مضر لكم وهو في حالة الدنيا ثم تلقون عقابه في الآخرة ، قال سفيان بن عيينة: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أَي: تعجل لكم عقوبته في الحياة الدنيا ، وعلى هذا قالوا: البغي يصرع أَهله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقالوا: الباغي مصروع لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾(٢) ، ولقول النبي ﷺ: «ما من ذنب أَسرع عقوبة من بَغْي»(٣). وقرأَت فرقة: ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ على ضمير

---

(١) قال الزمخشري: فإن قلتَ: ما معنى قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ والبغي لا يكون بحق؟ قلت: بلى ، وهو استيلاءُ المسلمين على أرض الكفرة وهدْم دورهم وإحراق زروعهم وقطْع أشجارهم كما فعل رسول الله ﷺ ببني قريظة. اهـ. وعلّق على ذلك أبو حيان في «البحر» فقال: وكأنه قد شرح قوله تعالى: ﴿يَبْغُونَ﴾ بأنهم يفسدون ويعبثون مترقين في ذلك ممعنين فيه من: بَغَى الجرحُ إذا ترقَّى للفساد. ولا يصح أن يقال في المسلمين إنهم باغون على الكفرة إلا إذا ذُكر أن أصل البغي هو الطلب مطلقاً ولا يتضمن الفساد وحينئذ ينقسم إلى طلب بحق وطلب بغير حق ، ولما حمل ابن عطية البغي هنا على الفساد قال: «أكّدَ ذلك بقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾. وجواب ﴿لَمَّآ﴾ هو ﴿إِذَا﴾ الفجائية وما بعدها ، وذلك دليل على أنها حرف يترتب ما بعدها من الجواب على ما قبله من الفعل الذي وقع بعد ﴿لَمَّآ﴾ وأنها تفيد الترتيب والتعليق في المضي ، وأنها كما قال سيبويه حرف ، والجواب بها دليل على أنه لم يتأخر (بَغْيُهُم) عن (إنجائهم) ، بل بنفس ما وقع الإنجاءُ وقع البغي.

(٢) من الآية (٦٠) من سورة (الحج).

(٣) أخرجه البخاري ، والإمام أحمد في مسنده ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه في سننهم ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم في مستدركه عن أبي بكرة ، قال ذلك في «الجامع الصغير» ، ولفظه: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم».



المعظم المتكلم، وقرأت فرقة: [فَيُنَبِّئُكُمْ] على ضمير الغائب، والمراد الله عزَّ وجلَّ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

المعنى: إنما مثل تفاخر الحياة الدنيا وزينتها بالمال والبنين إذ يصير ذلك إلى الفناءِ كمطر نزل من السماءِ فاختلط. ووقف هنا بعض القراءِ على معنى: فاختلط الماءُ بالأرض، ثم استأنف: ﴿ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ على الابتداءِ والخبر المقدم، ويحتمل ـ على هذا ـ أن يعود الضمير في ﴿ بِهِۦ ﴾ على الماءِ أو على الاختلاط الذي يتضمنه القول[١]. ووصلَت فرقةٌ فرفع (النبات) على ذلك بقوله: ﴿ فَٱخْتَلَطَ ﴾، أَي: اختلط النبات بعضه ببعض بسبب الماءِ. وقوله: ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ ﴾ يريد الزروع والأشجار ونحو ذلك، وقوله: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ يريد سائر العشب المرعي.

و﴿ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ لفظة كثرت في مثل هذا، كقوله: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ ﴾[٢]. والزُّخْرف: التَّزيّن بالألوان، وقد يجيءُ الزخرف بمعنى الذهب إذ الذهب منه. وقرأَ مروان بن الحكم، وأَبو جعفر، والسبعة، وشيبة، ومجاهد، والجمهور: ﴿ وَٱزَّيَّنَتْ ﴾، أَصله: تزيَّنَت، سكنت التاءُ لتُدغم فاحتيج إلى ألف وصل. وقرأَ ابن مسعود، والأعمش، وأُبي بن كعب: [وتزيَّنَتْ] وهذه أَصل قراءَة الجمهور، وقرأَ الحسن، وأَبو العالية، والشعبي، وقتادة، ونصر بن عاصم، وعيسى: [وَأَزْيَنَتْ] على معنى: حضرت زينتها كما تقول: أَحصد الزرع، و[أَزْيَنَت] على مثال: أَفْعَلَتْ[٣]، وقال عوف بن أَبي جميلة: كان أَشياخنا يقرؤُونها: [وازْيَانَّت] النون

---

(١) قال أبو حيان تعقيباً على ما ذكره ابن عطية: «والوقف على قوله: ﴿ فَٱخْتَلَطَ ﴾ لا يجوز وخاصة في القرآن لأنه تفكيك للكلام المتصل الصحيح المعنى الفصيح اللفظ، وذهاب إلى اللغز والتعقيد والمعنى الضعيف، ألا ترى أنه لو قيل: بالاختلاط نبات الأرض لم يكد ينعقد كلاماً لضعف الإسناد وقربه من عدم الإفادة؟ ولولا أن ابن عطية ذكره وخرجه لم نذكره في كتابنا».

(٢) من الآية (٣١) من سورة الأعراف.

(٣) صحّت الياءُ فيه على جهة النُّدْرَة كأغْيَلَت المرأة، وكان القياس أن تقلب الياءُ ألفاً فيقال: ازَّانَتْ.

شديدة وألف ساكنة قبلها[١]، وهي قراءة أبي عثمان النهديّ، وقرأت فرقة: [وَازْيَأَنَّتْ]، وهي لغة منها قول الشاعر:

. . . . إِذا ما الْهَوَادي بالعَبيطِ احْمأَرَّتِ[٢]

وقرأت فرقة: [وازَّايَنَت]، والمعنى في هذا كله: ظهرت زينتُها.

وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ على بابها[٣]، والضمير في ﴿عَلَيْهَآ﴾ عائد على الأَرض، والمراد ما فيها من نعمة ونبات، وهذا الكلام فيه تشبيه جملة أَمر الحياة الدنيا بهذه الجملة الموصوفة أَحوالها، و﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية، وهي حرف ابتداءٍ لدخولها على ﴿إِذَآ﴾، ومعناها متصل إلى قوله: ﴿قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾، ومن بعد ذلك بدأ الجواب، والأَمر الآتي واحد الأُمور كالريح والصِّر والسَّموم ونحو ذلك، وتقسيمه ليلا أَو نهاراً تنبيه على الخوف وارتفاع الأَمن في كل وقت. و﴿حَصِيدًا﴾ فعيل بمعنى مفعول، وعبّر بحصيد عن التالف الهالك من النبات وإِن لم يهلك بحصاد إِذ الحكم فيهما واحد، وكأَن الآفة حصدته قبل أَوانه. وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ أَي: كأَن لم تنعم ولم تنضر ولم تغر بغضارتها. وقرأَ قتادة: [يَغْنَ] بالياءِ من تحت، يعني الحصيد، وقرأَ مروان: [كَأَنْ لَمْ تَتَغَنَّ] بتاءَين مثل تَتَفَعّل[٤]، والمغاني: المنازل المعمورة، ومنه قول الشاعر:

وقـد نَغْنـى بِهَـا وَنَـرَى عُصُـوراً ... بهـا يَقْتَـدْنَنَـا الخُـرُدَ الخِـذالا[٥]

وفي مصحف أُبي بن كعب: «﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ وما كُنّا لِنُهْلِكها إِلاَّ بِذُنُوبِ

---

(١) على وزن اسْوادَّتْ واحْمَارَّت.

(٢) هذا عجز بيت لكُثيِّر، والبيت بتمامه:

وأنْـتَ ابـنُ لَيْلـى خَيْـرُ قَـومِـكَ مشْهـداً ... إذا مـا الْهَـوَادي بـالْعَبيـطِ احْمَـارت

ورواية الديوان: «إذا ما احمأرَّتْ بالْعَبيطِ الْعَوَامِلُ»، وهو من قصيدة قالها كثير يمدح بها عبد العزيز بن مروان، وقد سبق الاستشهاد بالبيت عند تفسير قوله تعالى في الفاتحة: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وروي هناك بلفظ «العوالي» بدلا من الهوادي» (١ـ١٣٠)، وكثير هو صاحب عزَّة، توفي سنة ١٠٥هـ.

(٣) بابُها هو المعنى الأصلي للظن وهو أن يدرك الذهن الشيءَ مع ترجيحه.

(٤) قال أبو الفتح: «جاء هذا مجيءَ نظائره، كقولهم: تمتَّعتُ بكذا، وتأنَّقتُ فيه، وتلبَّسْتُ بالأمر». (المحتسب ١ـ٣١٢).

(٥) سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾ الآية (٩٢) من سورة (الأعراف).

أَهْلِهَا ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾» رواها عنه ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل: إن فيه: «وَما كان لِيُهلِكَها إلاَّ بذنوب أَهلها»(١) ، وقرأَ أَبو الدرداءِ: [لِقَوْم يَتَذَكَّرُونَ].

ومعنى الآية التحذير من الاغترار بالدنيا إذ هي معرضة للتلف وأَن يصيبها ما أَصاب هذه الأَرض المذكورة بموت أَو غيره من رزايا الدنيا ، وخصّ المتفكرين بالذكر تشريفاً للمنزلة ، ولِيَقَع التسابق إلى هذه الرُّتبة.

قوله عزَّ وجل:

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٦ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٧﴾.

نَصَّتْ هذه الآية أَن الدعاءَ على الشرع عامّ في كل بشر ، والهداية التي هي الإرشاد مختصة بمن قُدِّر إيمانه. و«السَّلَامُ» ، قيل هو اسم الله عزَّ وجلَّ ، فالمعنى يدعو إلى داره التي هي الجنة. وإضافتها إليه إضافة ملك إلى مالك. فقيل: السلام: بمعنى السلامة ، أَي: من دخلها ظفر بالسلامة وأَمن الفناءَ والآفات ، وهذه الآية رادّة على المعتزلة(٢).

وقد وردت في دعوة الله تعالى عباده أَحاديث منها رؤيا النبي ﷺ جبريل وميكائيل ، ومثَّلا دعوة الله ، ومحمداً عليه الصلاة والسلام الداعي ، والملة المدعو إليها ، والجنة التي هي ثمرة الغفران بالمأْدُبَة يدعو إليها مِلِك إلى منزله(٣) ، وذكر قتادة في كلامه على

---

(١) قال العلماءُ: هذا مخالف لما في سواد المصحف ولا يصح أن يقرأ به ، ولعلَّه من قبيل الشرح والتوضيح.

(٢) يتركز الخلاف بين أهل السُّنَّة والمعتزلة في «إرادة الاهتداء» ، فأهل السُّنَّة يقولون: إن هذه الإرادة خاصة ، والمعتزلة يقولون: إنها عامة ، ومعنى كلام المعتزلة أن يكون الله جلَّ شأنه قد أراد إيمان الكفار ولم يقع مراده سبحانه وتعالى عن ذلك ، وكلام ابن عطية هذا ينفي ما قاله ابن تيمية وبعض المحدثين من أن لابن عطية ميولاً اعتزالية. وقد رددنا عليهم في مقدمة هذا التفسير. هذا وقد قال قتادة ومجاهد: هذه الآية بيِّنة الحجة والردّ على القدرية لأنهم قالوا: هدى الله الخلق كلهم إلى صراط مستقيم ، والله قال: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فردُّوا على الله نصوص القرآن. قال ذلك القرطبي.

(٣) أخرجه ابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن سعيد بن أبي هلال=



هذه الآية: ذُكر لنا أن في التوراة مكتوباً: «يا باغي الخير هلُمّ، ويا باغي الشّرّ انته»(١).

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الآية. قالت فرقة وهي الجمهور: الحُسْنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله عزَّ وجلَّ، وروي في ذلك حديث عن النبي ﷺ، رواه صُهيب(٢)، وروي هذا القول عن أَبي بكر الصديق، وحذيفة، وأَبي موسى الأَشعري، وعامر بن سعد، وعبد الرحمن بن أَبي ليلى. وروي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَنه قال: الزيادة: غرفة من لؤلؤة واحدة. وقالت فرقة: الحسنى: هي الحسنة، والزيادة: هي تضعيف الحسنات إلى سبعمائة فدونها حسبما روي في نصّ الحديث وتفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾، وهذا قولٌ يعضده النظر، ولولا عظم القائلين بالقول الأَول لترجّح هذا القول، وطريق ترجيحه

= رضي الله عنه قال: سمعت أن أبا جعفر محمد بن علي رضي الله عنه وتلا ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فقال: حدثني جابر رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا، فقال: اسمَعْ سمعَتْ أُذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أُمتك كمثل ملِك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه. فالله الملِك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، من أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها». (التخريج عن الدر المنثور، واللفظ عن الطبري).

(١) أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والإمام أحمد عن قتادة. (الشوكاني).

(٢) حديث صهيب هذا أخرجه الإمام مسلم، والإمام أحمد في مسنده، والترمذي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وكثيرون غيرهم أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم تثقل موازيننا وتبيض وجوهنا وتدخلنا الجنة وتزحزحنا عن النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبّ إليهم من النظر إليه ولا أقرّ لأعينهم».

وخرّجه أيضاً ابن المبارك في دقائقه عن أبي موسى الأشعري موقوفاً، وخرّج الترمذي عن أُبي بن كعب قال: سألت رسول الله ﷺ عن الزيادتين في كتاب الله، في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «النظر إلى وجه الرحمن»، وعن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال: «عِشْرُونَ أَلْفاً».

وأخرج أبو الشيخ، وابن منده في الرد على الجهمية، والدارقطني في الرؤية، وابن مردويه، واللالكائي، والخطيب، وابن النجار عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل عن هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فقال: الذين أحسنوا العمل في الدنيا لهم الحسنى وهي الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم. (الدر المنثور، والشوكاني، وابن كثير، والقرطبي).



أَن الآية تتضمن اقتراناً بين ذكْر عمّال الحسنات وعمّال السيئات ، فوصف المحسنين بأَن لهم ـ على إِحسانهم ـ حُسْنى زيادة من جنسها ، ووصف المسيئين بأَن لهم السيئة مثلها ، فتعادل الكلامان. وعبّر عن الحسنات بالحسنى مبالغةً إِذْ هي عشرة. وقال الطبري: الحُسْنى عام في كل حسْنى فهي تعم جميع ما قيل ، ووعد الله في جميعها بالزيادة ، ويؤيد ذلك أَيضاً قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ ، ولو كان معنى الحُسْنى الجنَّة لكان في القول تكرير بالمعنى ، على أَن هذا ينفصل عنه بأَنه وصف المحسنين أَن لهم الجنة وأَنهم لا يرهق وجوههم قترٌ ولا ذلة ، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ على جهة المدح لهم ، أَي: أُولئك مستحقوها وأَصحابها حقاً وباستيجاب.

و﴿يَرْهَقُ﴾ معناه: يغشى مع ذلة وتضييق ، والقَتَرُ: الغبار المسودّ ، ومنه قول الشاعر:

مُتَـــوَّجٌ بـــرداءِ المُلْـــك يَتْبَعـــهُ موجٌ تَرَى وسْطَهُ الرَّايَاتِ والقَتَرا[(١)]

وقرأَ الحسن ، وعيسى بن عمرو ، والأَعمش ، وأَبو رجاءِ: ﴿قَتْرٌ﴾ بسكون التاءِ.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية. اختلف النحويون في رفع ﴿جَزَآءُ﴾ بم هو؟ فقالت فرقة: التقدير: «لهم جزاءُ سيِّئة بمثلها» ، وقالت فرقة: التقدير: «جزاءُ سيئة مثلها» والباءُ زائدة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويتوجه أَن يكون رفع الجزاءِ على المبتدأ ، وخبره في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ، لأَن ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ فكأَنه قال: «ولِلَّذينَ كسبوا السيئات جزاءُ سيئة بمثلها» ، وعلى الوجه الآخر فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ رفع بالابتداءِ ، وتعمُّ السيئاتُ ها هنا الكفرَ والمعاصي ، فمثل سيئة الكفر التخليد في النار ، ومثل سيئة المعاصي مصروف إِلى مشيئة الله تبارك وتعالى.

والعاصمُ: المنجي والمجير ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾[(٢)] ،

---

(١) البيت للفرزدق ، والتتويج لا يكون بالرداء ، ولكنه أراد بالرداءِ المهابة ، والموْجُ: الجيش الكثيف ، والرايات: الأعلام ، والقتَر بالفتح: الغبرة ، وتأمل كيف يكون القتَر وسط الموج؟ ولهذا روي: «ترى فَوْقَهُ» وهي الأصح.

(٢) من الآية (٤٣) من سورة (هود).



و﴿أُغْشِيَتْ﴾: كُسيت، ومنه الغشاوة، والقِطَعُ: جمع قِطْعة. وقرأ ابن كثير: ﴿قِطْعاً﴾ بسكون الطاءِ، وقرأ الباقون بفتح الطاءِ، والقِطْعُ: الجُزءُ من الليل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[١]، وهذا يراد به الجزءُ من زمان اللَّيل، وفي هذه الآية يراد الجزءُ من سواده[٢]. و﴿مُظْلِمًا﴾ نعت لِقِطْعٍ، ويجوز أن يكون حالاً من الذكر الذي في قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[٣]، فإذا كان نعتاً فكان حقه أن يكون قبل الجملة، ولكن قد يجيءُ بعدها، وتقدير الجملة: «قِطْعاً استقر من الليل مظلماً» على نحو قوله تبارك وتعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾[٤]. ومن قرأ ﴿قِطَعًا﴾ جمع قِطْعة فنصب ﴿مُظْلِمًا﴾ على الحال من الليل، والعاملُ في الحال ﴿مِّنَ﴾ إذ هي العامل في ذي الحال[٥]. وقرأ أُبي بن كعب: [كَأَنَّمَا يغشَى وجوهَهُمْ قِطْعٌ من اللَّيْل مُظْلِمٌ][٦]. وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿قِطَعٌ مِنَ اللَّيْل مُظْلِمٌ﴾ بتحريك الطاءِ في ﴿قِطَع﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قرأ نافع، وابن كثير، أبو عمرو، وعاصم، والحسن، وشيبة، وغيرهم: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ بالنون. وقرأت فرقة: [يحشُرُهُمْ] بالياءِ. والضمير في ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ عائد

---

(١) من الآية (٨١) من سورة (هود)، والآية (٦٥) من سورة (الحجر).

(٢) أي: يراد الزمان من الليل في آية هود وآية الحجر، حيث طلب إلى لوط عليه السلام أن يسري بأهله في هذا الزمن من الليل، أما في آيتنا ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ فيراد به جزء من سواده وظلامه.

(٣) يريد بقوله: «الذِّكر» الضمير في متعلق ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾.

(٤) من الآية (٩٢) من سورة (الأنعام). وقد نقل أبو حيان هذا الكلام عن ابن عطية ثم عقب عليه بقوله: «ولا يتعين تقدير العامل في المجرور بالفعل فيكون جملة، بل الظاهر أن يقدر باسم الفاعل فيكون من قبيل الوصف بالمفرد، والتقدير: قِطْعاً كائناً من الليل مظْلماً».

(٥) قال في تفسير «أبو السعود»: «العامل فيه ﴿أُغْشِيَتْ﴾ لأنه العامل من ﴿قِطَعًا﴾. وهو موصوف بالجار والمجرور، والعامل في الموصوف عامل في الصفة، أو معنى الفعل في ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾. وهذا التوضيح مذكور أيضاً في الكشاف».

(٦) بسكون الطاءِ في ﴿قِطْع﴾، أما قراءة ابن أبي عبلة فالطاء مفتوحة كما قال ابن عطية.



على جميع الناس محسنين ومسيئين ، و﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ نصب على تقدير: لازموا مكانكم ، وذلك مقترن بحال شدة وخزي ، و﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ في هذا الموضع من أسماءِ الأفعال إذ معناه: قفوا واسكنوا ، وهذا خبر من الله تعالى عن حالة تكون لِعَبَدَةِ الأوثان يوم القيامة ، يؤمرون بالإقامة في موقف الخزي مع أصنامهم ، ثم يُنْطِق الله الأصنام بالتبري منهم. وقوله: ﴿ وَشُرَكَآؤُكُمْ ﴾ أي الذين تزعمون أنتم أنهم شركاءُ لله ، فأضافهم إليهم لأن كونهم شركاءَ إنما هو بزعم هؤلاءِ. وقوله: ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ معناه: فرقنا في الحجة والمذهب وهو من زلتُ الشيءَ عن الشيءِ أزيله ، وهو تضعيف مبالغة لا تعدية. وكونُ مصدر زيَّل تزييلا يدلُّ على أن زيّل إنما هو فعَّل لا فيْعل لأن مصدره كان يجيءُ على فيعلة. وقرأت فرقة: [فَزَايَلْنَا] ، وروي عن النبي ﷺ أن الكفار إذا رأَوْا العذاب وتقطعت بهم الأسباب قيل لهم: اتَّبعوا ما كنتم تعبدون ، فيقولون: كنا نعبد هؤلاءِ ، فتقول الأصنام: والله ما كنا نسمع ولا نعقل ، وما كنتم إيانا تعبدون ، فيقولون: والله لإيَّاكم كنا نعبد ، فتقول الآلهة: ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[(١)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وظاهر هذه الآية أن محاورتهم إنما هي مع الأصنام دون الملائكة وعيسى بن مريم بدليل القول لهم: ﴿ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ﴾ ، ودون فرعون ومن عبد من الجن بدليل قولهم: ﴿ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ ، وهؤلاءِ لم يغفلوا قط عن عبادة من عبدهم ، و﴿ أَنتُمْ ﴾ رفع بالابتداءِ ، والخبر: موبخون أو مُهانون[(٢)] ، ويجوز أن يكون ﴿ أَنتُمْ ﴾ تأكيداً للضمير الذي في الفعل المقدر الذي هو «قفوا» أو نحوه[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه. (الدر المنثور).

(٢) هذا الإعراب عليه مآخذ ، من أهمها أن يفك الكلام الذي اتصلت أجزاؤه ، وفيه تقدير إضمار لا ضرورة له ، وأيضاً فإن قوله تعالى: ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ يدل على أنهم ثبتوا هم وشركاؤهم في مكان واحد حتى وقع التفريق بينهم ، وكذلك فإن قراءَة من قرأ: [أَنْتُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ] بالنصب يدّلُّ على أنه مفعول معه والعامل فيه اسم الفعل ، فلو كان ﴿ أَنتُمْ ﴾ مبتدأ حُذف خبره لما جاز أن يأتي بعده مفعول معه ، تقول: «كل رجل وضيعتُه» بالرفع ، ولا يجوز النصب.

(٣) وهذا أيضاً ليس بجيد ، إذ لو كان تأكيداً لذلك الضمير الذي في الفعل المقدر (قفوا أو نحوه) لجاز تقديمه على الظرف ، إذ الظرف لم يتحمل ضميراً على هذا القول فيلزم تأخيره عنه ، وهو غير جائز ، لا تقول: «أنت مكانك» ، والأصح أنه لا يجوز حذف المؤكد في التأكيد المعنوي ، فلذلك هذا التأكيد=



و﴿شَهِيدًا﴾ نصب على التمييز ، وقيل : على الحال:[(١)] . و﴿إِن﴾ هذه عند سيبويه هي مخففة موجبة حرف ابتداءٍ ، ولزمتها اللام فرقا بينها وبين (إِنْ) النافية ، وقال الفراءُ: ﴿إِن﴾ بمعنى (ما) ، واللام بمعنى (إلاَّ) . و﴿هُنَالِكَ﴾ نصب على الظرف . وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر: [تَبْلُو] بالباءِ بواحدة بمعنى: تختبر ، وقرأَ حمزة ، والكسائي: [تَتْلُو] بالتاءِ بنقطتين من فوق بمعنى: تَتْبَع ، أي تطلب وتتبع ما أَسلفت من أَعمالها ، ويصح أَن يكون بمعنى: تقرأُ كتبها التي ترفع إِليها. وقرأَ يحيى بن وثاب: [وَرِدُّوا] بكسر الراءِ ، وقرأَ الجمهور: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَي رُدُّوا إِلى عقاب مالكهم وشديد بأسه ، فهو مولاهم في الملك والإِحاطة لا في الرحمة والنصر ونحوه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ .

هذا توقيف وتوبيخ واحتجاج لا محيد عن التزامه . و﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يريد: المطر ، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ يريد: النبات ونحو ذلك ، و﴿يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لفظ يعم جملة الإِنسان ومعظمه حتى أَن ما عداهما تبع ، و﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ الجنين من النطفة ، والطائر من البيضة ، والنبات من الأَرض ، إِذ له نمو شبيه بالحياة. ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ مثل البيضة من الطائر ونحو ذلك ، وقد تقدم فيما سلف إِيعاب القول في هذه المعاني. وتدبير الأَمر عام لهذا وغيره من جميع الأَشياءِ ، وذلك استقامة الأُمور كلها عن إِرادته عزَّ وجلَّ ، وليس تدبيره بفكر ولا رَوِيَّة وتغيّرات ، تعالى عن ذلك ، بل علمه محيط كامل دائم. ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ لا مندوحة لهم عن ذلك ، ولا تمكنهم المباهتة بسواه ، فإِذا أَقروا بذلك ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ في افترائكم وجعلكم الأَصنام آلهة.

وقوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ الآية. يقول: فهذا الذي هذه صفاته ربكم الحق ، أَي المستوجب للعبادة والأُلوهية ، وإِذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغير حق ،

= ينافي الحذف ، وليس في كلامهم «أنت زيداً».

(١) التمييز أحسن لقبوله (مِنْ). راجع «البحر المحيط».



وعبارة القرآن في سوق هذه المعاني تفوت كل تفسير براعة وإيجازاً وإيضاحاً، وحكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله، وكذلك هو الأمر في نظائرها وهي مسائل الأصول التي الحق فيها في طرف واحد، لأن الكلام فيها إنما هو في تقرير وجود ذات كيف هي، وذلك بخلاف مسائل الفروع التي قال الله فيها: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(١)، وقال النبي ﷺ: «الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمورٌ متشابهات»(٢)، والحق في هذه في الطرفين لأن المتعبدين إنما تُعِبّدوا بالاجتهاد لا بالتعيين في كل نازلة، ويدلك على أن الحق في الطرفين اختلاف الشرائع بتحليل وتحريم في شيء واحد، والكلام في مسائل الفروع إنما هو في أحكام طارئة على وجود ذات متقررة لا يُختلف فيها، وإنما يُختلف في الأحكام المتعلقة بالمتشرع(٣). وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ تقرير(٤)، كما قال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾؟(٥) ثم قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ﴾ أي: كما كانت صفات الله كما وصف، وعبادته واجبة كما تقرر، وانصراف هؤلاء كما قدر عليهم وتكسبوا ـ كذلك حَقَّتْ.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي هنا وفي آخر السورة(٦): ﴿كَلِمَةُ﴾ على الإفراد الذي يراد به الجمع، كما يقال للقصيدة: كلمة. فعبّر عن وعيد الله بكلمته. وقرأ نافع، وابن عامر في الموضعين المذكورين: [كَلِمَاتُ]، وهي قراءة أبي جعفر، وشيبة بن نصاح.

---

(١) من الآية (٤٨) من سورة (المائدة).

(٢) رواه البخاري في الإيمان والبيوع، ومسلم في المساقاة، وأبو داود في البيوع وكذلك الترمذي والنسائي، وابن ماجه في الفتن، والدارمي في البيوع، والإمام أحمد في مواطن كثيرة من مسنده، ولفظه كما في البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أُمور مُشْتَبِهة، فمن ترك ما شُبِّه عليه من الإثم كان لما استبان أترك، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان، والمعاصي حمى الله، من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه».

(٣) ثبت عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل قال: «اللَّهُمَّ لك الحمد» الحديث، وفيه: «أنت الحقُّ، ووعدك الحقّ، وقولك الحقّ، والجنة حقّ، ولقاؤك حقّ، والنار حقّ، والساعة حقّ، والنبيُّون حقّ، ومحمد حقّ». سبحانه وتعالى هو الواجب الوجود.

(٤) يمكن أن يكون الاستفهام إنكارياً كما قال الألوسي بمعنى إنكار الواقع والتعجب منه بالنظر للمخلوقين.

(٥) الآية (٢٦) من سورة (التكوير).

(٦) في الآية (٩٦) من هذه السورة حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وهذه الآية إخبار أن في الكفار من حتم الله بكفره وقضى بتخليده. وقرأ ابن أبي عبلة: [إِنَّهُمْ] بكسر الألف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

هذا توقيف أيضاً على قصور الأصنام وعجزها، وتنبيه على قدرة الله عز وجلَّ، وبدْءُ الخلق يريد به إنشاءَ الإنسان في أول أمره، وإعادتُه هي البعث من القبور. و﴿تُؤْفَكُونَ﴾ معناه: تصرفون وتحرمون، تقول العرب: «أَرض مأْفوكة» إذا لم يصبها مطر فهي بمعنى الخيبة والتلف، كما قال: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ﴾ الآية. ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ يريد به: يُبيّن طرق الصواب ويدعو إلى العدل ويفصح بالآيات ونحو هذا. ووصف الأَصنام بأَنها لا تهدي إلا أَن تُهْدى، ونحن نجدها لا تَهتدي وإنْ هُدِيت، فوجه ذلك أنه عامل ـ في العبارة عنها ـ معاملتهم في وصفها بأَوصاف من يعقل، وذلك مجاز وموجود في كثير من القرآن، ذكر ذلك أَبو عليّ الفارسي، والذي أَقول: إن قراءَة حمزة والكسائي تحتمل أَن يكون المعنى: «أَمَّن لا يهدي أَحداً إلا أَن يُهدى ذلك الأَحد بهداية من عند الله»، وأَما على غيرها من القراءَات التي مقتضاها: «أَمَّن لا يَهْتَدي إلاَّ أَن يُهْدى» فيتجه المعنى على ما تقدم لأَبي عليّ الفارسي، وفيه تجوز كثير. وقال بعضهم: هي عبارة عن أَنها لا تنتقل إلا أَن تنقل. ويحتمل أَن يكون ما ذكر الله تعالى من تسبيح الجمادات هو اهتداؤها، ويحتمل أَن يكون الاستثناءُ في اهتدائها إلى مناكرة الكفار يوم القيامة حسبما مضى في هذه السورة.

وقراءَة الحمزة والكسائي هي ﴿يَهْدِىٓ﴾ بفتح الياءِ وسكون الهاءِ. وقرأَ نافع،

---

(١) الآية (٥٣) من سورة (النجم).



وأَبو عمرو، وشيبة، والأَعرج، وأَبو جعفر: [يَهْدّي] بسكون الهاءِ وتشديد الدال[1]. وقرأَ ابن كثير، وابن عامر: [يَهَدّي] بفتح الياءِ والهاءِ، وهذه أَفصح القراءَات، نقلت حركة تاءَ [يَهْتَدي] إلى الهاءِ وأُدغمت التاءُ في الدال، وهذه رواية ورش عن نافع. وقرأَ عاصم في رواية حفص: ﴿يَهِدّي﴾ بفتح الياءِ وكسر الهاءِ وشدّ الدال، أَتبع الكسرة الكسرة. وقرأَ عاصم في رواية أَبي بكر: [يِهِدِّي] بكسر الياءِ والهاءِ وشدّ الدال، وهذا أَيضاً إِتباع. وقال مجاهد: الله يهدي من الأَوثان وغيرها ما شاءَ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف.

وقرأَ يحيى بن الحارث الزِّماري: [إلا أَن يهَدّي] بفتح الهاءِ وشد الدال. ووقف القراءُ على: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ ثم يبدأُ: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ إخبار عن فساد طرائقهم وضعف نظرهم وأَنه ظن، ثم بيَّن منزلة الظن من المعارف وبُعْده عن الحق. والظن ـ في هذه الآية ـ على بابه في أَنه معتقد أَحد جائزين لكن ثمَّ ميلٌ إِلى أَحدهما دون حجة تبطل الآخر. وجواز ما اعتقده هؤلاءِ إِنما هو بزعمهم لا في نفسه، بل ظنهم محال في ذاته. والحق أَيضاً على بابه في أَنه معرفة المعلوم على ما هو به، وبهذه الشروط لا يغني الظن من الحق شيئاً، وأَما في طريق الأَحكام التي تَعَبَّدَ الناس بظواهرها فيغني الظن في تلك الحقائق ويصرف من طريق إِلى طريق. والشهادة إِنما هي مظنونة، وكذلك التُّهم في الشهادات تغني، وليس المراد في هذه الآية هذا النمط. وقرأَ جمهور الناس: ﴿يَفْعَلُونَ﴾، وقرأَ عبد الله بن مسعود: [تَفْعَلُونَ] بالتاءِ على مخاطبة الحاضر.

---

(١) قال أبو حيان في «البحر»: «فجمعوا بين ساكنين»، قال النحاس: «لا يقدر أحد أن ينطق به»، وقال المبرد: من رام هذا لابد أن يحرك حركة خفيفة، وسيبويه يسمي هذا: اختلاس الحركة.

(٢) فيكون قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ كلام تامّ معناه: أي شيءٍ لكم في عبادة الأوثان؟ ثم قيل لهم: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ لأنفسكم وتقضون بهذا الباطل الصراح فتعبدون آلهة لا تغني عن أنفسها شيئاً، و﴿كَيْفَ﴾ منصوبة بـ﴿تَحْكُمُونَ﴾، فالجملة الأولى وهي ﴿ما لكم﴾ استفهام معناه الإنكار والتعجب، والجملة الثانية وهي ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استفهام آخر فيه معنى الإنكار والتعجب، وسبب التعجب في الاستفهامين مختلف.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

هذا نفي قول من قال من قريش: «إن محمداً ﷺ يفتري القرآن وينسبه إلى الله تعالى» وعبّر عن ذلك بهذه الألفاظ التي تتضمن تشنيع قولهم وإعظام الأمر، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ﴾(١)، وكما قال حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾(٢)، وغير هذا مما يعطي المعنى والقرائن والبراهين استحالته.

و﴿ يُفْتَرَىٰ ﴾ معناه: يُختلق ويُنشأ، وكأن المرءَ يفريه من حديثه أي يقطعه ويَسِمُه بسمة، فهو مشتق من (فريْت) إذا قطعت لإصلاح. و﴿ تَصْدِيقَ ﴾ نصب على المصدر، والعامل فيه فعل مضمر، وقال الزجاج: هو خبر كان مضمرة، والتقدير: ولكن كان تصديق الذي بين يديه. وقوله: ﴿ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يريد التوراة والإنجيل، والذي بين اليد هو المتقدم للشيءِ، وقالت فرقة في هذه الآية: إن الذي بين يديه هي أشراط الساعة وما يأتي من الأمور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا خطأٌ، والأمر بالعكس، كتاب الله تبارك وتعالى بين يديْ تلك، أمَّا أنَّ الزجاج تحفظ فقال: «الضمير يعود على الأشراط والتقدير: ولكن تصديق الذي بين يدي القرآن» فهذا أيضاً قلق، وقيام البرهان على قريش حينئذ إنما كان في أن يصدق القرآنُ ما في التوراة والإنجيل مع أن الآتي بالقرآن ممن يقطعون أنه لم يطالع تلك الكتب ولا هي في بلده ولا في قومه. وتفصيل الكتاب هو تبيينُه. و﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ يريد: هو في نفسه على هذه الحالة، وإن ارتاب مبطل فذلك لا يلتفت إليه.

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ الآية. ﴿ أَمْ ﴾ هذه ليست بالمعادلة لألف الاستفهام

---

(١) من الآية (١٦١) من سورة (آل عمران).

(٢) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة).



التي في قولك: أزيدٌ قام أم عمرو؟ وإنما هي التي تتوسط الكلام. ومذهب سيبويه أنها بمنزلة «الألف» و«بَل» لأنها تتضمن استفهاماً وإضراباً عما تقدم. وهي كقولهم: «إنها لإبلٌ أم شاءٌ»؟ وقالت فرقة في ﴿ أَمْ﴾ هذه: هي بمنزلة ألف الاستفهام. ثم عَجَّزهم في قوله: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ ، والسُّورَةُ مأخوذة من «سُورَةِ البناءِ»[1] ، وهي من القرآن هذه القطعة التي لها مبدأ وختم. والتحدي في هذه الآية وقع بجهتَي الإعجاز اللتين في القرآن. إحداهما: النظم والرصف والإيجاز والجزالة ، كل ذلك في التعريف بالحقائق ، والأخرى: المعاني من الغيب لما مضى ولما يستقبل. وحين تحداهم بعشر مفتريات تحداهم بالنظم وحده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هذا قول جماعة من المتكلمين ، وفيه عندي نظر ، وكيف يجيءُ التحدي بمماثلة في الغيوب ردّاً على قولهم: «افتراه»؟ وما وقع التحدي في الآيتين: ـ هذه وآية العشر السُّور ـ إلا بالنظم والرصف والإيجاز في التعريف بالحقائق ، وما أُلزموا قط إتياناً بغيب، لأن التّحدي بالإعلام بالغيوب كقوله: ﴿ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾[2] ، وكقوله: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾[3] ، ونحو ذلك من غيوب القرآن فبيّن أن البشر مقصر عن ذلك ، وأما التحدي بالنظم فبَيَّن أيضاً أن البشر مقصر عن نظم القرآن إذ الله تعالى قد أحاط بكل شيءٍ علماً ، فإذا قدر الله اللَّفْظَةَ في القرآن علم بالإحاطة اللفْظَةَ التي هي أليق بها في جميع كلام العرب في المعنى المقصود حتى كمل القرآن على هذا النظام ، الأَوْلى فالأَوْلى ، والبشر ـ مع أن يفرض أفصح العالم ـ محفوف بنسيان وجهل بالألفاظ والحق ، وبغلط وآفات بشرية. فمحال أن يمشي في اختياره على الأَولى فالأَولى. ونحن نجد العربي ينقح قصيدته ـ وهي الحَوْلِيّات ـ يبدل فيها ويقدم ويؤخر ، ثم يدفع تلك القصيدة إلى أفصح منه فيزيد في التنقيح. ومذهب أهل الصرفة مكسور بهذا الدليل ، فما كان قط في العالم إلا من فيه تقصير سوى من يوحي إليه الله تعالى ،

---

(١) سُورَة مثل بُسْرَة: كلُّ منزلة من البناء ، ومنه سُورَة القرآن لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى.

(٢) من الآية (٣) من سورة (الرُّوم).

(٣) من الآية (٢٧) من سورة (الفتح).

وميّزتْ فصحاءُ العرب هذا القدر من القرآن وأذعنتْ له لصحة فطرتها وخلوص سليقتها، وأنهم يعرف بعضهم كلام بعض ويميزه عن غيره، كفعل الفرزدق في أبيات جرير، والجارية في شعر الأعشى، وقول الأعرابي في عَرْفَجِكُمْ[1]، فقطع، ونحو ذلك مما إذا تُتُبِّع بان. والقدر المعجز من القرآن ما جمع الجهتين: اطراد النظم والسرد، وتحصيل المعاني وتركيب الكثير منها في اللفظ القليل، فأمّا مثل قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾[2]، وقوله: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾[3] فلا يصح التحدي بالإتيان بمثله، لكن بانتظامه واتصاله يقع العجز عنه.

وقوله: ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ صفة للسُّورة، والضمير عائد على القرآن المتقدم الذكر، كأنه قال: فأتوا بسُورة مثل القرآن، أي في معانيه وألفاظه[4]. وخلطت فِرَقٌ في قوله: ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ من جهة اللسان، كقول الطبري: ذلك على المعنى، ولو كان على اللفظ لقال: «مثلها»، وهذا وهم بيّن لا يحتاج إليه. وقرأ عمرو بن فائد: [بِسُورةِ مِثْلِهِ] على الإضافة، قال أبو الفتح: التقدير: بسورة كلام مثله[5]، قال أبو حاتم: أمر عبدُ الله الأسودَ أن يسأل عمر رضي الله عنه عن إضافة [سُورَةٍ] أو تنوينها، فقال له عمر: كيف شئت.

وقوله: ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ إحالة على شركائهم وجنّهم وغير ذلك، وهو كقوله في الآية الأخرى: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[6]، أي معيناً، وهذا أشد إقامة لنفوسهم وأصح تعجيزاً لهم.

---

(١) العَرْفَج: نبات طيب الرائحة أغبر إلى الخضرة له زهرة صفراءٌ وليس له حبٌّ ولا شوك، والإبل والغنم تأكله رطباً ويابساً، ولهبه شديد الحمرة، ويبالغ بحمرته فيقال: كأن لحيته ضرام عرفجة.

(٢) الآية (٦٤) من سورة (الرحمن).

(٣) الآية (٢١) من سورة (المدثر).

(٤) احتج المعتزلة بهذه الآية على أن القرآن مخلوق، قالوا: لأنه تحدّى به، وطلب الإتيان بمثله، وعجزوا، ولا يمكن هذا إلا إذا كان الإتيان بمثله صحيح الوجود في الجملة، ولو كان القرآن قديماً لكان الإتيان بمثله محالاً في نفس الأمر، فوجب ألا يصح التحدي به.

(٥) فهو عند ابن جني على حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه.

(٦) من الآية (٨٨) من سورة (الإسراء).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

المعنى: ليس الأمر كما قالوا في أنه مفترى، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾، وهذا اللفظ يحتمل معنَيَيْن، أَحدهما: أَن يريد به الوعيد الذي توعدهم الله عزَّ وجلَّ على الكفر، و﴿تَأْوِيلُهُ﴾ على هذا يراد به ما يؤول إِليه أَمره، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾[(١)]، والآية بجملتها ـ على هذا التأويل ـ تتضمن وعيداً. والمعنى الثاني: أَنه أَراد: بل كذَّبوا بهذا القرآن العظيم المُنبِئ بالغيوب الذي لم تتقدم لهم به معرفة، ولا أَحاطوا بعلم غيوبه وحسن نظمه، ولا جاءَهم تفسير ذلك وبيانه. و﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يريد من سلف من أُمم الأنبياء. قال الزجاج: ﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب على خبر ﴿كَانَ﴾، ولا يجوز أَن يعمل فيها ﴿فَانظُرْ﴾[(٢)] لأَن ما قبل الاستفهام لا يعمل فيه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا قانون النحويين لأَنهم عاملوا (كيف) في كل مكان معاملة الاستفهام المحض في قولك: «كيف زيدٌ»؟، ولِـ(كَيْفَ) تصرفات غير هذا، تحل محل المصدر الذي هو «كيفية» وتخلع معنى الاستفهام، ويحتمل أَن يكون منها، ومن تصرفاتها قولهم: «كن كيف شئتَ»، وانظر قول البخاري: «كيف كان بدءُ الوحي»، فإِنه لم يستفهم[(٣)].

---

(١) من الآية (٥٣) من سورة (الأعراف).

(٢) أي: لا يعمل فيها لفظاً، لكن الجملة في موضع نصب بـ ﴿فَانظُرْ﴾ معلقة، وهي من نظر القلب لا العين.

(٣) علَّق أبو حيان على هذا بكلام طويل خلاصته أن ﴿كَيْفَ﴾ لها معنيان: أحدهما: الاستفهام المحض، فهي سؤال عن الهيئة إلا إذا تعلق عنها العامل فيكون معناها معنى الأسماء التي يستفهم بها عند تعليق العامل عنها، والثاني: الشرط كقول العرب: «كيف تكون أكون»، وأما قول البخاري: «كيف كان بدء=

وذكَّر الفعل المسند إلى «العاقبة» لما كانت بمعنى المآل ونحوه، وليس تأنيثها بحقيقي.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ الآية. الضمير في ﴿وَمِنْهُم﴾ عائد على قريش، ولهذا الكلام معنيان: قالت فرقة: معناه: مِن هؤلاءِ القوم من سيؤمن في المستقبل، ومنهم من حتم الله أنه لا يؤمن به أبداً. وقالت فرقة: معناه: مِن هؤلاءِ القوم من هو مؤمن بهذا الرسول إلا أنه يكتم إيمانه وعلمه بأن نبوة محمد ﷺ وإعجاز القرآن حق، حفظاً لرياسته أو خوفاً من قومه، كالفتية الذين خرجوا إلى بدر مع الكفار فقتلوا فنزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ (١)، وكالعباس ونحو هذا، ومنهم من ليس بمؤمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفائدة الآية على هذا التأويل التفريق لكلمة الكفار، وإضعاف نفوسهم، وأن يكون بعضهم على وجل من بعض. وفي قوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تهديد ووعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ آية مناجزة لهم ومتاركة، وفي ضمنها وعيد وتهديد، وهذه الآية نحو قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلى آخر السورة. وقال كثير من المفسرين منهم ابن زيد: هذه الآية منسوخة بالقتال لأن هذه مكية، وهذا صحيح(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾. جمع ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى ﴿مَّن﴾ لا على لفظها، ومعنى الآية: ومن هؤلاءِ الكفار من يستمع إلى ما تأتي به من القرآن

= الوحي»؟ فهو استفهام محض على سبيل الحكاية، كأن سائلا سأله فقال: «كيف كان بدءُ الوحي»؟ فأجاب بالحديث الذي فيه كيفية ذلك. «البحر ٥ـ١٦٠».

(١) من الآية (٩٧) من سورة (النساء).

(٢) قال بالنسخ مع ابن زيد مجاهدٌ، والكلبي، ومقاتل. وقال المحققون: ليست بمنسوخة، ومدلولها اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمراتها من الثواب والعقاب، ولم ترفع آية السيف شيئاً من هذا. قاله أبو حيان في البحر، ثم قال: هذا وقد جاء ترتيب الآية على نسق بلاغي بديع، إذ بدأ في المأمور بقوله: ﴿لِّى عَمَلِى﴾ لأنه آكد في الانتفاء منهم، وفي براءة بدأ بقوله: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ﴾ لأن هذه الجملة جاءت متممة لما قبلها ومؤكدة له وهو: ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، ولمراعاة الفواصل إذ لو تقدم ذكر براءته كما تقدم ذكر أن عمله له لم تقع الجملة فاصلة إذ كان يكون الترتيب: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾.



بأُذنه ، ولكن حين لا يُؤمن ولا يحصل فكأنه لا يسمع ، ثم قال على وجه التسلية للنبي ﷺ: أَفأَنت يا محمد تريد أَن تُسمع الصمّ؟ أَي: لا تكترث بذلك ، وقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ معناه: ولو كانوا في أَشدّ حالات الأَصمّ ، لأَن الأَصمّ الذي لا يسمع شيئاً بحال فذلك لا يكون في الأَغلب إِلا مع فساد العقل والدماغ ، فلا سبيل أَن يعقل حجة ولا دليل أَبداً. و﴿وَلَوْ﴾ هذه بمعنى (إِنْ) ، وهذا توقيف للنبي ﷺ. أَي: أَلزم نفسك هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ الآية. هي نحو الأُولى في المعنى ، وجاءَ [يَنْظُرُ] على لفظ [مَنْ] ، وإِذا جاءَ الفعل على لفظها فجائز أَن يعطف عليه آخر على المعنى ، وإِذا جاءَ أَولاً على معناها فلا يجوز أَن يعطف عليه آخر على اللفظ ، لأَن الكلام يلبس حينئذ(١). وهذه الآية نحو الأُولى في المعنى كأَنه قال: ومنهم من ينظر إِليك ببصره ، لكنه لا يعتبر ولا ينظر ببصيرته ، فهو لذلك كالأَعمى ، فهوّن ذلك عليك ، أَفتريد أَن تهدي العُمْي والهداية أَجمع بيد الله عزَّ وجلَّ؟(٢)

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

قرأَت فرقة: [وَلَكِن النَّاسُ] بتخفيف [لَكِن] ورفع [النَّاسُ] وقرأَت فرقة: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ بالتشديد ونصب ﴿ٱلنَّاسَ﴾ ، وظلم الناس لأَنفسهم إِنما هو بالتكسب منهم الذي يقارن اختراع الله تعالى لأَفعالهم. وعرف [لكن] إِذا كان قبلها واو أَن تثقل ، وإِذا عرّيت من الواو أَن تخفف ، وقد ينخرم هذا. وقال الكوفيون: قد تدخل اللام في خبر «لكنَّ» المشددة على حدّ دخولها في (إِنَّ) ، ومنع ذلك البصريون.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الآية وعيد بالحشر وخِزْيهم فيه وتعارفِهم في التلاوُم

---

(١) قال أبو حيان بعد أن نقل كلام ابن عطية هذا: «وليس كما قال ، بل يجوز أن تراعي المعنى أولاً ، فتعيد الضمير على حسب ما تريد من المعنى من تأنيث وتثنية وجمع ، ثم تراعي اللفظ ، فتعيد الضمير مفرداً مذكراً ، وفي ذلك تفصيل ذكر في علم النحو».

(٢) الاستفهام في الآيتين معناه النفي ، فكأن الكلام: أنت لا تُسمع الصم ، وأنتَ لا تَهدي العمي.



بعضهم لبعض. و﴿وَيَوْمَ﴾ ظرف، ونصبه يصح بفعل مضمر تقدير: واذكر يوم، ويصح أَن ينتصب بالفعل الذي يتضمنه قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾[١]، ويصح نصبه بـ ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾، والكاف من وقوله: ﴿كَأَن﴾ يصح أَن تكون في معنى الصفة لليوم[٢]، ويصحُّ أَن تكون في موضع نعت للمصدر كأَنه قال: ويوم نحشرهم حشراً كأَن لم يلبثوا، ويصح أَن يكون قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾. وخصص النهار بالذكر لأَن ساعاته وقسمته معروفة بيِّنة للجميع، فكأَن هؤلاءِ مُتَحَقِّقُون قلَّة ما لبثوا، إذ كل أَمد طويل إِذا انقضى فهو واليسير سواءٌ. وأَما قوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ فيحتمل أَن يكون معادلة لقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾، كأَنه أَخبر أَنهم يوم الحشر يتعارفون، وهذا التعارف على جهة التلاوم والخزي من بعضهم لبعض، ويحتمل أَن يكون من موضع الحال من الضمير في ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ ويكون معنى التعارف كالذي قبله، ويحتمل أَن يكون حالاً من الضمير في ﴿يَلْبَثُوٓاْ﴾ ويكون التعارف في الدنيا، ويجيءُ معنى الآية: ويوم نحشرهم للقيامة فتنقطع المعرفة بينهم والأَسباب، ويصير تعارفهم في الدنيا كساعة من النهار لا قدر لها، وبنحو هذا المعنى فسّر الطبري[٣]، وقرأَ السبعة وجمهور الناس: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ بالنون، وقرأَ الأَعمش فيما روي عنه: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياءِ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ﴾ إِلى آخرها. حكم على المكذبين بالخسارة، وفي اللفظ إِغلاظ على المحشورين من إِظهار ما هم عليه من الغرر مع الله تعالى. وهذا على أَن الكلام إِخبار من الله تبارك تعالى، وقيل: إِنه من كلام المحشورين على جهة التوبيخ لأَنفسهم.

---

(١) قال أبو حيان: «هذا كلام مجمل لم يبين الفعل الذي يتضمنه ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ ولعلَّه أراد ما قاله الحوفي من أن الكاف في موضع نصب بما تضمنت من معنى الكلام وهو السرعة».

(٢) قيل: «هذا لا يصح لأن ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ معرفة، والجمل نكرات، ولا تنعت المعرفة بالنكرة.» وأفضل إعراب لقوله تعالى: ﴿كَأَن...﴾ هو أنها جملة حالية من مفعول ﴿نَحْشُر﴾، وهذا ما اتفق عليه كل من الألوسي، والزمخشري، وأبو حيان، وذكره ابن عطية في آخر آرائه.

(٣) قيل: لا تعارف يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، وقيل: يبقى تعارف التوبيخ، وهو الأصح، والآية السابقة معناها: لا يسأله سؤال شفقة ورحمة، والدليل على بقاء التعارف للتوبيخ قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ الآية.



وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ الآية. ﴿وَإِمَّا﴾ شرط، وجوابه ﴿فَإِلَيْنَا﴾، والرؤية في قوله: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ رؤية بصر، وقد عدي الفعل بالهمزة فلذلك تعدى إلى مفعولين: أَحدهما (الكاف)، والآخر ﴿بَعْضَ﴾. والإشارة بقوله: ﴿بَعْضَ الَّذِى﴾ إلى عقوبة الله لهم في بدر وغيرها، ومعنى هذه الآية الوعيد بالرجوع إلى الله تعالى، أَي: إن أريناك عقوبتهم أَو لم نركها فهم على كل حال راجعون إلينا إلى الحساب والعذاب، ثم مع ذلك فالله شهيد من أَول تكليفهم على جميع أعمالهم، فـ﴿ثُمَّ﴾ ها هنا لترتيب الإخبار لا لترتيب القصص في أَنفسها[١]، و﴿إِمَّا﴾ هي (إِنْ) زيدت عليها (ما)، ولأَجلها جاز دِخول النون الثقيلة، ولو كانت (إِن) وحدها لم يجز.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ إخبار مثل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ﴾[٢]، وقال مجاهد، وغيره: المعنى: فإذا جاءَهُم رسولهم يوم القيامة للشهادة عليهم صُيِّر قوم للجنة وقوم للنار، فلذلك القضاءُ بينهم بالقسط[٣]، وقيل: المعنى: فإذا جاءَ رسولهم في الدنيا وبعث صاروا من حتم الله بالعذاب لقوم والمغفرة لآخرين لغاياتهم، فلذلك قضاءٌ بينهم بالقسط. وقرن بعض المتأَولين هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٤]، وذلك يتفق إمَّا بأَن نجعل ﴿مُعَذِّبِينَ﴾ في الآخرة، وإما بأَن نجعل القضاءَ بينهم في الدنيا بحيث يصح اشتباه الآيتين.

---

(١) هذا إذا أُريدت الشهادة على حقيقتها، أما إذا أُريد لازمها وهو ما يترتب عليها من عقاب فإن ﴿ثُمَّ﴾ تكون لترتيب القصص في أنفسها، قاله في الشوكاني وأبي السعود.

(٢) من الآيتين (٨، ٩) من سورة (المُلْك).

(٣) دليل ذلك قول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

(٤) من الآية: (١٥) من سورة (الإسراء).



وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ إلى قوله ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾. الضمير في ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يراد به الكفار، وسؤالهم عن الوعد تحديد بزعمهم في الحجة، أي: هذا الذي تُوعِدُنا حدِّدْ لنا فيه وقته لنعلم الصدق من ذلك من الكذب. وقال بعض المفسرين: قولهم هذا على جهة الاستخفاف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لا يظهر من اللفظة.

ثم أمره الله تعالى أن يقول لهم: ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، المعنى: قل لهم يا محمد ردّاً للحجة: إني لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً من دون الله، ولا أنا إلا في قبضة سلطانه وبضمن الحاجة إلى لطفه، فإذا كنت هكذا، فأحرى ألا أعرف غيبه ولا أتعاطى شيئاً من أمره، ولكن لكل أمة أجل انفرد الله تبارك وتعالى بعلم حدّه ووقته، فإذا جاءَ ذلك الأجل في موت أو هلاك أُمّة لم يتأخروا ساعة ولا أمكنهم التقدم عن حدّ الله عزَّ وجلَّ. وقرأ ابن سيرين: [آجَالُهُمْ] بالجمع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

المعنى: قل: يأيُّها الكافرون المستعجلون عذاب الله عزَّ وجلَّ ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ ليلاً وقت المبيت؟ يقال: بيّت القومُ القومَ إذا طرقوهم ليلاً بحربٍ أو نحوها، ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ لكم منه مَنَعَة أو به طاقة؟ فماذا تستعجلون منه وأنتم لا قِبَلَ لكم به؟ و﴿مَا﴾ ابتداءٌ، ﴿ذَا﴾ خبره، ويصح أن تكون ﴿مَّاذَا﴾ بمنزلة اسم واحد في موضع رفع بالابتداءِ وخبره الجملة التي بعده، وضعف هذا أبو علي وقال: إنما يجوز ذلك على تقدير إضمارٍ في ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ وحَذْفه كما قال:

. . . . كُلُّــــهُ لَــــمْ أَصْنَــــعِ[1]

---

(١) هذا جزءٌ من بيت لأبي النجم، والبيت بتمامه: =

و«زيد ضربتُ» ، قال: ويصحُّ أن تكون ﴿مَّاذَا﴾ في حال نصب لـ ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ . والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ يحتمل أن يعود على الله عزَّ وجلَّ ، ويحتمل أن يعود على العذاب.

وقوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ الآية. عطف بقوله: ﴿ثُمَّ﴾ جملة القول على ما تقدم ، ثم أدخل على الجميع ألف التقرير. ومعنى الآية: إذا وقع العذاب وعاينتموه آمنتم به حينئذ ، وذلك غير نافعكم ، بل جوابكم الآن ، وقد كنتم تستعجلونه مكذبين به. وقرأ طلحة بن مصرف: [أَثَمَّ] بفتح الثاءِ ، وقال الطبري في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ بضم الثاءِ: معناه: هنالك ، وقال: ليست (ثُمَّ) هذه التي تأتي بمعنى العطف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى الصحيح على أنها (ثُمَّ) المعروفة ، ولكن إطباقه على لفظ التنزيل هو كما قلنا ، وما ادعاه الطبري غير معروف. و﴿ءَآلْئَنَ﴾ أصله عند بعض النحاة «آنَ» فعل ماض دخلت عليه الألف واللام على حدّها في قوله:

. . . . الحِمَـــارِ الْيُجَــدَّعُ(١)

= قَــدْ أَصْبَحَــتْ أُمُّ الخِيَــارِ تَــدَّعِــي ... عَلَــيَّ ذنبــاً كُلُّــهُ لَــمْ أَصْنَــعِ

برفع (كلّ) ، وبها يتم المعنى الصحيح لأنه أراد التَّبَرُّؤَ من جميع الذنب ، ولو نصب (كُلّ) لكان ظهر قوله أنه صنع بعضه، وهذا هو حذف الضمير من الخبر، وهو قبيح، والتقدير: لم أصنعه ، وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير الآية (٥٠) من سورة (المائدة).

(١) وهذا أيضاً جزء من بيت قاله ذو الخِرَق الطُّهَوِيّ ، وقد ذكره صاحب اللسان مع بيت سابق عليه للاستشهاد على معنى (مُجَدَّع)، قال: «الجَدْع: القطع ، وقيل: هو القطع البائن... يقال: جَدَعه يَجْدعه جدْعاً فهو جادع ، وحمارٌ مُجَدَّع: مقطوع الأذن ، قال:

أَتَــانِــي كــلامُ التَّغْلَبِــيِّ بــن دَيْسَــقٍ ... فَفِــي أيِّ هَــذا ويْلَــه يَتَتَــرَّعُ؟
يقــول الخَنَــى ، وأبْغَــضُ العُجْــم نَــاطِقــا ... إلــى رَبِّــهِ صَــوْتُ الحمــار اليُجَــدَّعُ

أراد: الذي يُجَدَّع فأدخل اللام على الفعل المضارع لمضارعة اللام الذي ، كما تقول: هو اليَضْربُكَ. وهو من أبيات الكتاب». يريد: كتاب سيبويه. واليُجَدّع: فعل مضارع مبني للمجهول. وقد قال أبو بكر بن السَّرَّاج: لما احتاج إلى رفع القافية قلب الاسم فعلاً ، وهو من أقبح ضرورات الشعر ، وأنكر ابن بريّ أن يكون هذا البيت من أبيات الكتاب كما ذكر الجوهري وقال: وإنما هو في نوادر أبي زيد.



ولم يتعرف بذلك كل التعريف ، ولكنها لفظة مضمنة معنى حرف التعريف ولذلك بُنيت على الفتح لتضمنها معنى الحرف ، ولوقوعها موقع المبهم ، لأن معناها: «هذا الوقت» ، وقرأ الأعمش ، وأبو عمرو ، وعاصم ، والجمهور: ﴿آلآن﴾ بالمدّ والاستفهام على حدّ التوبيخ ، وكذلك ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾[1] ، وقرأها باستفهام بغير مدّ طلحة والأعرج.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الآية. هو الوعيد الأعظم بالخلود لأهل الظلم الأخصّ الذي هو ظلم الكفر لا ظلم المعصية. وقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ توقيف وتوبيخ. ونصت هذه الآية على أن الجزاءَ في الآخرة هو على تكسّب العبد.

وقوله تعالى: ﴿۞ وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ﴾ معناه: يستخبرونك ، وهي ـ على هذا ـ تتعدى إلى مفعولين: أحدهما الكاف ، والآخر في الابتداءِ والخبر. وقيل: هي بمعنى يستعلمونك ، فهي ـ على هذا ـ تحتاج إلى مفاعيل ثلاثة: أحدها الكاف ، والابتداءُ والخبر سدّ مسدَّ المفعولين[2].

و﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ قيل: الإشارة إلى الشرع والقرآن ، وقيل: إلى الوعيد ، وهو الأظهر ، وقرأ الأعمش: [آلحقُّ هُوَ] بِمَدَّةٍ وبلام التعريف[3]. وقوله: ﴿إِى﴾ هي لفظة تتقدم القَسَم ، وهو بمعنى (نعم) ، ويجيءُ بعدها حرف القسم وقد لا يجيءُ ، تقول: إي وربي ، وإي ربّي ، و﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ معناه: مُفْلتين ، وهذا الفعل أصله تعدية (عجز) لكن كثر فيه حذف المفعول حتى قالت العرب: «أَعْجَزَ فلان» إذا ذهب في الأرض فلم يُقدر عليه.

---

(١) من الآية (٩١) من هذه السورة (يونس).

(٢) الأصل أن (استنبأ) يتعدى إلى مفعولين أحدهما بِعَنْ تقول: استنبأتُ زيداً عن عمرو ، والظاهر أنها معلّقة عن المفعول الثاني ، ولا يلزم من كونها بمعنى (يستعلمونك) أنها تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل لأن (استعلم) لا يتعدى هو إلى ثلاثة مفاعيل فأولى بذلك ما كان بمعناه.

(٣) قال أبو الفتح تعليقاً على هذه القراءة: «إن الأجناس تتساوى فائدتها معرفتها ونكرتها في نحو هذا ، تقول: ثِقْ بأمانٍ من الله ، وثق بالأمان من الله ، وهذا حق ، وهذا الحق ، وهذا صدق ، وهذا الصدق ، ومنه قولهم: خرجت فإذا بالباب أسد ، وإذا بالباب الأسد ، المعنى واحد ووَضْع اللفظ مختلف ، وسبب ذلك كون الموضع جنساً». (المحتسب ٢ـ٣١٣).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

هذا إخبارٌ للكفار في سياق إخبارهم بأن ذلك الوعد حق. و﴿وَأَسَرُّوا﴾ لفظة تجيءُ بمعنى: أَخْفَوْا، وهي حينئذ من السّر، وتجيءُ بمعنى: أظهروا، وهي حينئذ من أسارير الوجه[1]. قال الطبري: المعنى: وأخفى رؤساءُ هؤلاءِ الكفار الندامة عن سفلتهم ووضائعهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

بل هو عام في جميعهم.

و﴿أَلَا﴾ استفتاح وتنبيه، ثم أوجب أن جميع ما في السموات والأرض مِلك لله تبارك وتعالى، قال الطبري: يقول: فليس لهذا الكافر يومئذ شيءٌ يفتدي به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وربط الآيتين هكذا يتجه على بعد، وليس هذا من فصيح المقاصد. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قيّد بالأكثر لأن بعض الناس يؤمن فهم يعلمون حقيقة وعد الله تعالى، وأكثرهم لا يعلمون فهم لأجل ذلك يكذبون.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِي﴾ يريد: يُحْيِي من النطفة، ﴿وَيُمِيتُ﴾ بالأجل، ثم يجعل المرجع إليه بالحشر يوم القيامة. وفي قوة هذه الآيات ما يستدعي الإيمان وإجابة دعوة الله عزَّ وجلَّ، وقرأ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالتاءِ من فوق الأعرج، وأبو عمرو،

---

(١) من شواهد مجيئها بمعنى أظهروا قولُ كُثير:

فَأَسْرَرْتُ النَّدَامَةَ يَوْمَ نَادَى ... بِرَدِّ جِمَالِ غَاضِرَةَ المُنَادِي

أي: أظهرت الندامة. ويقوّي معنى الإظهار في الآية أن يوم القيامة ليس بيوم تصبر ولا تجلّد، ولا يقدر فيه الكافر على كتمان ما ناله، ولأنه عند رؤيَة العذاب يوم القيامة يتحسَّر الإنسان على ارتكاب ما سببه له وأوجبه عليه، ويظهر الندامة على ما فاته من الفوز والخلاص من العذاب، ولهذا يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾.



وعاصم، ونافع، والناس. وقرأ عيسى بن عمر ﴿يُرْجعُونَ﴾ بالياءِ من تحت. واختلف عن الحسن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

هذه آية خوطب بها جميع العالم، والموعظة: القرآن لأن الوعظ إنما هو بقولٍ يأمر بالمعروف ويزجُر ويرقِّق ويُوعد ويَعد، وهذه صفة الكتاب العزيز، وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يريد: لم يختلقها محمد ﷺ ولا غيره، بل هي من عند الله عزَّ وجلَّ، و﴿لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ يريد به الجهل والعُتُوّ عن النظر في آيات الله تبارك وتعالى ونحو هذا مما يدافع الإِيمان. وجعَلَه موعظة بحسب الناس جميعاً، وجعله هُدىً ورحمة بحسب المؤمنين فقط، وهذا تفسير صحيح المعنى إذا تُؤُمّل بان وجهه.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ الباءُ متعلقة بمحذوف استغني عن ذكره يدل عليه قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾. قال بعض المتأولين وهو هلال بن يِساف[1]، وقتادة، والحسن، وابن عباس رضي الله عنهما: الفضل: الإِسلام، والرحمة: القرآن، وقال أَبو سعيد الخدري: الفضل: القرآن، والرحمة: أَن جعلهم من أَهله، وقال زيد بن أَسلم، والضحاك: الفضل: القرآن، والرحمة: الإِسلام، قالت فرقة: الفضل: محمد ﷺ، والرحمة: القرآن.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا وجه عندي لشيءٍ من هذا التخصيص إلا أَن يستند منه شيءٌ إِلى النبي ﷺ، وإِنما الذي يقتضيه اللفظ ويلزم منه أَن الفضل هو هداية الله تعالى إِلى دينه، والتوفيق إِلى اتباع شريعته، والرحمة هي عفوه وسُكنى جنته التي جعلها جزاءً على التَّشرع بالإِسلام والإِيمان به. ومعنى الآية: قل يا محمد لجميع الناس: بفضل الله وبرحمته فليقع الفرح منكم، لا بأُمور الدنيا وما يجمع من حطامها، فالمؤمنون يقال لهم: فَلْتفْرَحُوا، وهم مُتَلَبِّسُونَ بعلة الفرح وسببه، ومُحَصِّلون لفضل الله منتظرون الرحمة.

---

(١) ضبطه محقق «المحتَسب» لابن جني بالفتح، وذكر في الهامش نقلا عن القاموس أنه بالكسر وقد يفتح.



والكافرون يقال لهم: بفضل الله وبرحمته فلْتَفرحوا، على معنى أَن لو اتفق لكم، أَو لو سعدتم بالهداية إِلى تحصيل ذلك.

وقرأَ أُبيّ بن كعب، وابن القعقاع، وابن عامر، والحسن ـ على ما زعم هارون ـ ورويت عن النبي ﷺ: [فَلْتَفْرَحُوا]. و[تَجْمَعُونَ] بالتاءِ فيهما على المخاطبة، وهي قراءَة جماعة من السلف كبيرة، وعن أَكثرهم خلاف. وقرأَ السبعة سوى ابن عامر[1]، وأَهلُ المدينة، والأَعرج، ومجاهد، وابن أَبي إِسحق، وقتادة، وطلحة، والأَعمش بالياءِ فيهما على ذكر الغائب، ورويت عن الحسن بالتاءِ من فوق فيهما. وقرأَ أَبو التياح، وأَبو جعفر، وقتادة ـ بخلاف عنهم ـ وابن عامر بالياءِ في الأُولى وبالتاءِ في الآخرة، وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن، وجماعة من السلف، ورويت عن النبي ﷺ بالياءِ في الأُولى وبالتاءِ في الآخرة، ورويت عن أَبي التياح. وإِذا تأَملت وجوه ذلك بانت على مَهْيَع الفصيح من كلام العرب، ولذلك كثر الخلاف من كل قارئ، وفي مصحف أُبي بن كعب: «فبذلك فافرحوا»، وأَما من قرأَ: [فَلْتَفْرَحُوا] فأَدخل اللام في أَمر المخاطب فذلك على لغة قليلة، حكى ذلك أَبو علي في الحجة، وقال أَبو حاتم وغيره: الأَصل في كل أَمر إِدخال اللام إِذا كان النهي بحرف، فكذلك الأَمر إِذا كان أَمراً لغائب بلام[2]، قال أَبو الفتح: إِلا أَن العرب رفضت إِدخال اللام في أَمر المخاطب لكثرة ترداده[3]. وقرأَ أَبو التياح، والحسن بكسر اللام من [فَلِتَفْرَحُوا]،

---

(١) ذكر ابن عطية أن ابن عامر في الجماعة الأولى التي قرأت بالتاءِ، وأكَّدَ ذلك بقوله: «وقرأ السبعة سوى ابن عامر بالياءِ»، ثم عاد فنقل أن ابن عامر قرأ في الأولى وهي [فَلْيفرَحوا] بالياءِ، وفي الثانية وهي ﴿تَجْمعون﴾ بالتاء، ولو تأملت الأسماء في كل جماعة لوجدت تكراراً أو ما يشبه التناقض، لكن يتضح لك الموقف حين تقرأ قوله: «وإذا تأملت وجوه ذلك بانت ـ أي ظهرت كلها ـ على مهْيَع الفصيح من كلام العرب، ولذلك كثر الخلاف من كل قارئ». ولهذا فلا داعي لتعليق أبي حيان على ما نسبه ابن عطية لابن عامر من القراءة بالتاء وتأكيده أنه قرأ بالياء، فقد عاد ابن عطية وذكر ذلك.

(٢) معنى هذا أن أصل الأمر أن يكون بحرف الأمر وهو اللام، فأصل اضرب: لِتَضْرب، وأصل قم: لتقم، ولكن لما كثر أمر الحاضر حذفوا حرف المضارعة تخفيفاً ودلّ المقام عليه فلما حذف حرف المضارعة بقي ما بعده في الأغلب ساكناً فاحتيج إلى همزة الوصل ليقع الابتداء به فقيل: اضرب، اكتب، اذهب. . .الخ. ذكر ذلك أبو الفتح في المحتسب. (٢ـ٣١٣).

(٣) كان أمر الحاضر أكثر لأن الغائب بعيد عنك، فإذا أردت أن تأمره احتجت إلى أن تأمر المخاطب ليؤدي كلامك إلى الغائب، فتقول: يا محمد قل لعلي اقرأ، أما الحاضر فلا يحتاج إلى ذلك لأن خطابك إياه مباشرة أغنى عن تكليف غيره أن يحمل إليه كلامك. (عن أبي الفتح في المحتسب ٢ـ٣١٣).



فإن قيل: كيف أمر الله بالفرح في هذه الآية وقد ورد ذمُّه في قوله: ﴿لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[(١)]، وفي قوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[(٢)]، قيل: إن الفرح إذا ورد مقيّداً في خير فليس بمذموم، وكذلك هو في هذه الآية، وإذا ورد مقيداً في شرّ أو مطلقاً لحقه ذمٌّ إذ ليس من أفعال الآخرة، بل ينبغي أن يغلب على الإنسان حزنه على ذنبه وخوفه لربّه. وقوله: ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يريد: من مال الدنيا وحطامها الفاني المؤذي في الآخرة.

قوله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

هذه المخاطبة لكفار العرب الذين جعلوا البحائر والسوائب والنصيب من الحرث والأنعام وغير ذلك مما لم يأذن الله به، وإنما اختلقوه بأمرهم. وقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ﴾ لفظة فيها تجوّز، وإنزال الرزق إما أن يكون في ضمن إنزال المطر بالمآل أو نزول الأمر به الذي هو ظهور الأثر في المخلوق منه المخترع، ثم أمر الله نبيّه بتوقيفهم على أحد القسمين، وهم لا يمكنهم ادعاءُ إذن الله في ذلك، فلم يبق إلا أنهم افتروْه، وهذه الآية نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾[(٣)]، ذكر ذلك الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ آية وعيد. لمّا تحقق عليهم بتقسيم الآية التي قبلها أنهم مفترون على الله عظّم في هذه الآية جرم الافتراءِ، أي: ظنّهم في غاية الرداءَة بحسب سوءِ أفعالهم، ثم ثنّى بإيجاب الفضل على الناس في الإمهال لهم مع الافتراءِ والعصيان، والإمهال داعية إلى التوبة والإنابة. ثم استدرك ذكر من لا يرى حق الإمهال ولا يشكره ولا يبادر فيه على جهة الذمّ لهم، والآية بعد هذا تعُمُّ جميع فضل الله وجميع تقصير الخلق في شكره لا ربّ غيره.

---

(١) من الآية (١٠) من سورة (هود).
(٢) من الآية (٧٦) من سورة (القصص).
(٣) من الآية (٣٢) من سورة (الأعراف).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

قصد الآية وصف إحاطة الله بكل شيءٍ، ومعنى اللفظ: وما تكون يا محمد ـ والمراد هو وغيره ـ في شأن من جميع الشؤون، ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ﴾ الضمير عائد على ﴿شَأْنٍ﴾ أي فيه وبسببه من قرآن، ويحتمل أن يعود الضمير على جميع القرآن، ثم عمَّ بقوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾، وفي قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ تحذير وتنبيه. و﴿تُفِيضُونَ﴾: تأخذون وتنهضونَ بجدّ، يقال: أفاض الرجل في سيره وفي حديثه، ومنه الإفاضة في الحج، ومفيض القِداح[1]، ويحتمل أن (فاض) عُدّي بالهمزة.

و﴿يَعْزُبُ﴾ معناه: يغيب حتى يخفى، حتى قالوا للبعيد: عازب ومنه قول الشاعر:

عـوازبُ لـم تسمَـعْ نُبُـوحَ مُقَـامَـةٍ ... ولـمْ تَـرَ نَـاراً تِـمَّ حَـوْلٍ مُجَـرَّمِ[2]

وقيل للغائب عن أهله: عازب، حتى قالوه لمن لا زوجة له، وفي السير أن بيت سعد بن خيثمة كان يقال له: بيت العزاب. وقرأ جمهور السبعة، والناس: [يَعْزُب] بضم الزاي، وقرأ الكسائي وحده منهم: [يَعْزِب] بكسرها، وهي قراءَة ابن وثاب، والأعمش، وطلحة بن مصرف. قال أبو حاتم: القراءَة بالضم والكسرُ لغة. والمِثْقَالُ: الوزن، وهو اسم لا صفة كمعطار ومضراب. والذّرّ: صغار النمل، جعلها الله مثالاً إذ لا يُعرف في الحيوان المتغذي المتناسل المشهور النوع والموضع أصغر منه. وقرأ

---

(١) القِداح: جمع قَدَح. يقال: أفاض الرجل بالقداح إفاضة: ضرب بها، لأنها تقع منبثة متفرقة، ويجوز أفاض على القداح، قال أبو ذؤيب الهذلي يصف حماراً وأُتُنه:

وكَـأَنَّهُـنَّ رِبَـابَـةٌ وكَـأَنَّـهُ ... يَسَرٌ يُفِيضُ عَلَى القِـداح ويَصْـدَعُ

يعني: يفيض بالقداح.

(٢) البيت لطُفَيْل، قال ذلك في أساس البلاغة، والعوازبُ: البعيدة، والنُّبُوح: ضجَّةُ الحيّ وأصواتُ كلابهم، وتِمُّ الشيءِ بكسر التاءِ: تمامه وكماله، والحول المُجرَّمُ: الذي كمل وانقضى، يقول: إنها لبعدها الشديد لم تعرف شيئاً عن ضجيج الحياة ونباح الكلاب في الحيّ ولم تر ناراً ولا علامة من علامات الحياة المألوفة مدة عام كامل.



جمهور الناس، وأكثر السبعة: ﴿ وَلَآ أَصۡغَرَ ﴾ ﴿ وَلَآ أَكۡبَرَ ﴾ بفتح الراءِ عطفاً على ﴿ ذَرَّةٍ ﴾ في موضع خفض لكن منع من ظهوره امتناع الصرف. وقرأ حمزة وحده: ﴿وَلاَ أَصْغَرُ﴾ ﴿وَلاَ أَكْبَرُ﴾ عطفاً على موضع قوله: ﴿ مِّثۡقَالِ﴾ لأن التقدير: وما يعزب عن ربّك مثقالُ ذرّة. والكتاب المبين: اللّوح المحفوظ، كذا قال بعض المفسرين، ويحتمل أن يريد تحصيل الكتبة، ويكون القصد ذكر الأعمال المذكورة قبلُ، وتقديم الأصغر في الترتيب جزئيٌ على قولهم: القمريْن والعمريْن، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾[١]، والقصد بذلك كله تنبيه الأقل، وأن الحكم المقصود إذا وقع على الأقل فأحرى أن يقع على الأعظم.

و﴿ أَلَآ ﴾ استفتاح وتنبيه، وأولياءُ الله هم المؤمنون الذين والُوه بالطاعة والعبادة، وهذه الآية يعطي ظاهرها أن من آمن واتقى فهو داخل في أولياءِ الله، وهذا هو الذي تقتضيه الشريعة في الوليّ، وإنما نبّهنا هذا التنبيه حذراً من بعض الصوفية وبعض الملحدين في الوليّ[٢]، وروي عن النبي ﷺ أنه سُئِل: من أولياءُ الله؟ فقال: «الذين إذا رأيتهم ذكرت الله»[٣].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذاوصف لازم للمتقين لأنهم يخشعون ويخشعون، وروي عن النبي ﷺ أيضاً أنه قال: «أَوْلياءُ الله هم قوم تحابّوا في الله واجتمعوا في ذاته، لم تجمعهم قرابة ولا مالٌ يتعاطونه»[٤]. وقوله: ﴿ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ يحتمل أن يكون في الآخرة، أي: لا يهتمون بهمّها، ولا يخافون عذاباً ولا عقاباً ولا يحزنون لذلك. ويحتمل أن

---

(١) من الآية (٤٩) من سورة (الكهف).

(٢) يشير بذلك إلى ما يرويه بعض الناس من أن الوليّ أفضل من النبي، وهناك عبارات نقلت عن بعض المتصوفين تحمل مثل هذه المعاني.

(٣) أخرجه ابن المبارك، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه: (قيل: يا رسول الله من أولياءُ الله؟ قال: الذين إذا رُؤوا ذُكر الله)، وروى ابن الشيخ مثله عن سهل بن الأسد. وتعددت رواياته من طرق عدة في صيغ قريب بعضها من بعض.

(٤) أخرج ابن أبي شيبة عن العلاء بن زياد رضي الله عنه عن نبي الله ﷺ قال: «عباد من عباد الله ليسوا بأنبياءَ ولا شهداءَ، يغبطهم الأنبياءُ والشهداءُ يوم القيامة بقربهم من الله على منابر من نور، يقول الأنبياءُ والشهداءُ: من هؤلاءِ؟ فيقول: هؤلاءِ كانوا يتحابون في الله على غير أموال يتعاطونها ولا أرحام كانت بينهم».



يكون ذلك في الدنيا، أَي: لا يخافون أَحداً من أَهل الدنيا ولا من أَعراضها، ولا يحزنون على ما فاتهم منها، والأَول أَظهر، والعموم في ذلك صحيح، لا يخافون في الآخرة جملة، ولا في الدنيا الخوف الدنيوي الذي هو فوت آمالها، وزوال منازلها، وكذلك في الحزن، وذكر الطبري عن جماعة من العلماءِ مثل ما في الحديث في الأَولياءِ الذين إذا رآهم أَحدٌ ذكر الله، وروي فيهم حديث: «إِن أَولياءَ الله هم قوم يتحابون في الله، وتجعل لهم يوم القيامة منابر من نور، وتنير وجوههم، فهم في عرصة القيامة لا يخافون ولا يحزنون»[1]. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال: «إِن من عباد الله عباداً ما هم بأَنبياءَ ولا شُهداءَ، يغبطهم الأَنبياءُ والشُهداءُ بمكانهم من الله، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: قومٌ تحابوا بروح الله على غير أَرحام ولا أَموال» الحديث، ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يصح أَن يكون في موضع نصب على البدل من (الأَولياءِ)، ويصح أَن يكون في موضع رفع على الابتداءِ على تقدير: «هم الذين»، وكثيراً ما يفعل ذلك بنعت ما عملت فيه (إِنَّ) إذا جاءَ بعد خبرها، ويصح أَن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ابتداءً وخبره في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ لفظ عام في تقوى الشرك والمعاصي.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

أَما بشرى الآخرة فهي بالجنة قولاً واحداً، وتلك هي الفضل الكبير الذي في قوله:

---

(١) الحديث مروي من عدة طرق مع اختلاف في بعض الألفاظ باختلاف الرواة.

(٢) رواه ابن جرير عن أبي زرعة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أخرجه أبو داود، وهناد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان عن عمر رضي الله عنه. (تفسير ابن جرير، والدر المنثور).



﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾[١] ، وأما بشرى الدنيا فتظاهرت الأَحاديث عن رسول الله ﷺ أَنها الرؤْيا الصالحة يراها المؤمن أَو تُرَى له. وروَى ذلك عن رسول الله ﷺ أَبو الدرداءِ ، وعمران بن حُصَين ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر - رضي الله عنهم جميعاً - ، وغيرهم على أَنه سُئل عن ذلك ففسّره بالرُؤْيا[٢] ، وعن النبي ﷺ في صحيح مسلم أَنه قال: لم يبق من المبشرات إِلا الرؤْيا الصالحة»[٣] ، وروت عنه أُم كند الكعبية أَنه قال: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات»[٤] ، قال قتادة ، والضحاك: البشرى في الدنيا هي ما يُبَشر به المؤمن عند موته وهو حيٌّ عند المعاينة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ويصح أَن تكون بشرى الدنيا ما في القرآن من الآيات المبشرات ، ويَقْوَى ذلك بقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ وإِن كان ذلك كله يعارضه قول النبي ﷺ: «هي الرُؤْيا» إِلا إِن قلنا: إِن النبي ﷺ أَعطى مثالاً من البشرى ، وهي تعم جميع الناس ، وقوله: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ يريد: لا خلف لمواعيده ولا ردّ في أَمره.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقد أَخذ ذلك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما على نحو غير هذا ، وجعل التبديل المنفي في الأَلفاظ ، وذلك أَنه رُوي أَن الحجاج بن يوسف خطب فأَطال خطبته حتى قال: إِن عبد الله بن الزبير قد بدّل كتاب الله ، فقال له عبد الله بن عمر: إِنك لا تطيق ذلك أَنت ولا ابن الزبير ، ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ، فقال له الحجاج: لقد أُعطيت

---

(١) من الآية (٤٧) من سورة (الأحزاب).

(٢) أخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، والترمذي ، وغيرهم عن رجل من أهل مصر قال: سألتُ أبا الدرداء رضي الله عنه عن قول الله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ فقال: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: «ما سألني عنها أحد منذ أُنزلت ، هي الرُّؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له ، فهي بشراه في الحياة الدنيا ، وبشراه في الآخرة الجنة». الدر المنثور.

(٣) أخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كشف النبي ﷺ الستارة في مرضه الذي مات فيه والناس صفوف خلف أبي بكر رضي الله عنه فقال: «إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له» ، المرجع السابق.

(٤) أخرجه ابن ماجه ، وابن جرير. (المرجع السابق).



علماً، فلما انصرف إليه في خاصته سكت عنه، وقد رُوي هذا النظر عن ابن عباس في غير مقاولة الحجاج، ذكره البخاري. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ إشارة إلى النعيم الذي وقعت به البشرى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ الآية. هذه آية تسلية لمحمد ﷺ، والمعنى: ولا يحزنك يا محمد ويهمك قولهم، أي قول كفار قريش، ولفظة «القول» تعم جحودهم واستهزاءَهم وخداعهم وغير ذلك.

ثم ابتدأ بوجوب أن العزة لله جميعاً، أي: فهم لا يقدرون لك على شيءٍ ولا يؤذونك إلا بما شاءَ الله، وهو القادر على عقابهم، لا يُعَازُّه شيءٌ، ففي الآية وعيد لهم. وكسر ﴿إِنَّ﴾ في الابتداءِ ولا ارتباط لها بالقول المتقدم لها. وقال ابن قتيبة: لا يجوز فتح إن في هذا الموضوع وهو كفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقوله: «وهو كفر» غُلُوّ. وكأن ذلك خرج على تقدير: لأَجل أَن العزة لله[1]. وقوله: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ أي لجميع ما يقولونه، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في نفوسهم من ذلك، وفي ضمن هذه الصفات تهديد.

ثم استفتح بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بالملك والإحاطة، وغلب من يعقل في قوله: ﴿مَن﴾ إذ له ملك الجميع ما فيها ومن فيها، وإذا جاءَت العبارة بِمَا فذلك تغليب للكثرة، إذ الأكثر عدداً من المخلوقات لا يعقل، فـ(مِنْ) تقع للصنفين بمجموعهما، و(ما) كذلك، ولا تقع لما يعقل إذا تجرد من الصفات والأحوال، ألا ترى لو ذكرتُ لك قولة في مسألة فأردت أن تسأل عن قائلها، أيجوز في كلام العرب أن تقول: «ما قائل هذا القول»؟ هذا ما يتقلده من يفهم كلام العرب. وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾. يصح أن يكون ﴿مَا﴾ استفهاماً بمعنى التقرير وتوقيف نظر المخاطب، ويعمل ﴿يَدْعُونَ﴾ في قوله: ﴿شُرَكَآءَ﴾. ويصح أن تكون نافية

---

(١) معنى هذا أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ تعليل، أي: لا يقع منك حزن لما يقولون لأجل أن العزّة لله، ولكن هذا المعنى لا يتضح إلا في قراءَة فتح ﴿إِنَّ﴾، أما إذا كسرت الهمزة فالواضح الاستئناف. والذي قرأ بالفتح هو أبو حيوة.



ويعمل ﴿يَتَّبِعُ﴾ في ﴿شُرَكَآءَ﴾ على معنى أنهم لا يتبعون شركاءَ حقاً، ويكون مفعول ﴿يَدْعُونَ﴾ محذوفاً، وفي هذا الوجه عندي تكلف[1]. وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلمي: ﴿تَدْعُونَ﴾ بالتاءِ، وهي قراءَة غير متجهة[2]، وقوله: [إِنْ] نافية، و﴿يَخْرُصُونَ﴾ معناه: يحسدون ويخمنون، لا يقولون بقياس ولا نظر. وقرأت فرقة: [وَلاَ يُحْزِنْكَ] من أحزن، وقرأت فرقة: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ من حزن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

لما نصّ على عظمة الله تبارك وتعالى في الآية المتقدمة عقَّب ذلك في هذه بالتنبيه على أفعاله لتبيّن العظمة المحكوم بها قبلُ. وقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟﴾ دال على أن النهار للحركة والتصرف، وكذلك هو في الوجود، وذلك أن حركة الليل متعذرة بفقد الضوءِ. وقوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مجازٌ، لأن النهار لا يُبصر، ولكنه ظرف للإبصار، وهذا موجود في كلام العرب، إذ المقصود من ذلك مفهوم، فمن ذلك قول ذي الرمّة:

---

(١) يظهر من كلام أبي حيان أنه لا تكلف، لأن التقدير: إن الذين جعلوهم آلهة وأشركوهم مع الله في الربوبية ليسوا شركاءَ حقيقة، إذ الشركة في الألوهية مستحيلة. ولو لم نقدر (حقيقة) أو (حقاً) لدّل التعبير على نفي اتباعهم الشركاءَ مع أنهم اتبعوهم فعلاً.

(٢) قراءة التاءِ هي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه أيضاً كما قال الزمخشري، قال: ووجه هذه القراءة أن يحمل ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ على الاستفهام، أي: وأيّ شيءٍ يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيّين؟ إنهم يتبعون الله تعالى ويطيعونه، فما لكم لا تفعلون مثل فعلهم؟ كقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾.
وفي إعراب ﴿مَا﴾ أجاز الزمخشري أن تكون موصولة عطفاً على ﴿مَن﴾ والعائد محذوف، أي: والذي يتّبعه الذين يدعون من دون الله شركاءَ. وأجاز غيره أن تكون ﴿مَا﴾ موصولة في موضع رفع على الابتداء والخبر محذوف، والتقدير: والذي يتّبعه المشركون باطل.



لَقَدْ لُمْتِنَا يا أُمَّ غَيْلانَ في السُّرَى ونِمْتِ وما لَيْلُ المَطِيِّ بِنَائِمِ[1]

وليس هذا من باب النسب كعيشة راضية ونحوها، وإنما ذلك مثل قول الشاعر:

أَمَّا النَّهَارُ فَفي قَيْدٍ وسِلْسِلَةٍ والَّليْلُ في بَطْنِ مَنحوتٍ من السَّاج[2]

فجعل الليل والنهار بهاتين الحالتين، وليس يريد إلا أنه هو فيهما كذلك، وهذا البيت لمسجون كان يبيت في خشبة السجن، وعلى أن هذا البيت قد ينشد: «أَما النهارَ» بالنصب، وفي هذه الألفاظ إيجاز وإحاطة على ذهن السامع لأن العبرة هي في أن الليل مظلم يُسكن فيه، والنهار مبصر يُتصرف فيه. فذُكر طرف من هذا والطرف الآخر من الجهة الثانية، ودلَّ المذكوران على المتروكين، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾[3]. وقوله: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ يريد: ويَعُون. والضمير في ﴿قَالُوا۟﴾ للكفار العرب، وذلك قول طائفة منهم: «الملائكة بنات الله»، والآية بعدُ تعُمّ كل من قال نحو هذا القول كالنصارى ومن يمكن أَن يعتقد ذلك من الكفرة. و﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ مصدر معناه: تنزيهاً له وبراءَة من ذلك، فسّره بهذا النبي ﷺ، وقوله: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ صفة على الإطلاق، أَي: لا يفتقر إلى شيءٍ بجهة من الجهات، والولد جزءٌ مما هو غني عنه، والحق هو قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾[4]، وقوله: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمِلْك والإحاطة والخلق، و﴿إِنْ﴾ نافية، والسلطان: الحجة، وكذلك معناه حيث تكرر من القرآن[5]، ثم

---

(١) البيت لجرير لا لذي الرمَّة، وهو البيت رقم (٦) من قصيدة له يجيب بها الفرزدق، ومطلعها:

لاخَيْرَ في مُسْتَعْجَلات المَلاوِم ولا في خليلٍ وصْلُهُ غَيْرُ دائِم

وأُم غَيْلان: ابنة جرير، والسُّرى: السَّيْر بالليل، وقد أسند النوم إلى الليل على سبيل المجاز العقلي وأراد أنه هو نفسه لا ينام، والإسناد إلى ظرف زمان هو الليل، والنوم يقع فيه.

(٢) السّاج: خشب أسود لا تكاد الأرض تبليه يُجْلَب من الهند، وواحدته: ساجة، وقد جعل الشاعر النهار مقيداً بالسلاسل، والليل محبوساً في بيت من الخشب الأسود المتين، وهو يريد أن يصف نفسه بذلك، ولم نقف على قائله فيما لدينا من المراجع.

(٣) من الآية (١٧١) من سورة (البقرة).

(٤) من الآية (١٥) من سورة (فاطر).

(٥) ﴿بِهَٰذَآ﴾ من قوله سبحانه: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ متعلق بمعنى الاستقرار وهو الذي تعلق به الظرف، قال ذلك الحوفي، وتبعه الزمخشري فقال: «الباءُ حقها أن تتعلق بقوله: ﴿إِنْ عِندَكُم﴾ على أن يجعل القول مكاناً للسلطان، والتقدير: إن عندكم فيما تقولون سلطان». وقال أبو البقاء: «﴿بِهَٰذَآ﴾ متعلق بـ﴿سُلْطَٰنٍ﴾ أو نعتٌ له».

وقفهم موبّخاً بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآية. هذا توعد لهم بأنهم لا يظفرون ببغية ولا يبقون في نعمة، إذ هذه حال من يصير إلى العذاب وإن نُعّم في دنياه يسيرا، وقوله: ﴿مَتَٰعٌ﴾ مرفوع على خبر ابتداءٍ، أي: ذلك متاع، أو هو متاع، أو على الابتداءِ بتقدير: لهم متاع. وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ إلى آخر الآية توعّد بحق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾.

تقدم في (الأعراف) الكلام على لفظة نوح، والمَقَام: وقوف الرجل لكلام أو لخطبة أو نحوه، والمُقَام أيضاً بضم الميم: إقامته ساكناً في موضع أو بلد، ولم يُقرأ هنا بضم الميم[(١)]، وتذكيرُه: وعظه وزجْرُهُ، والمعنى: يا قوم، إن كنتم تستضعفون حالي ودعائي لكم إلى الله فإني لا أُبالي عنكم[(٢)] لتوكلي على الله تعالى، فافعلوا ما قدرتم عليه.

وقرأ السبعة، وجمهور الناس: الحسن، وابن أبي إسحق، وعيسى: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟﴾ من أَجمع الرجل على شيءٍ إذا عزم عليه، ومنه قول الشاعر:

. . . . هلْ أغدُونْ يوماً وأَمري مُجْمَعُ؟[(٣)]

ومنه قول الآخر:

أَجمعُوا أَمرَهمْ بليْلٍ فَلَمَّا ... أَصبَحوا أَصبحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ[(٤)]

---

(١) قال أبو حيّان: «وليس كما ذكر، بل قرأ ﴿مُقَامِي﴾ بضم الميم أبو مجلز، وأبو رجاءٍ، وأبو الجوزاءِ».

(٢) تتعدى (بالَى) بنفسها أو بالباء فيقال: ما أباليه، وما أبالي بالأمر، ولم يسمع أنها تتعدى بعن.

(٣) هذا عجز بيت أورده صاحب «اللسان» في (جَمَعَ)، وهو من شواهد الفراء في «معاني القرآن»، وذكره القرطبي وأبو حيان في «البحر المحيط»، وهو كذلك في «الصحاح» و«التاج»، والبيت بتمامه:

يا ليتَ شِعْري والمُنى لا تَنْفَعُ ... هلْ أغدُونْ يوماً وأمْري مُجْمَعُ؟

قال في «اللسان»: «وجمع أمره، وأجمعه، وأجمع عليه: عزم عليه كأنه جمع نفسه له، والأمر مُجْمَع، ويقال أيضاً: أجْمِعْ أمْرَك ولا تَدَعْه مُنْتَشِراً».

(٤) هذا البيت من شواهد النحويين، ولم يذكره من المفسرين غير ابن عطية والبحر المحيط، وأجمعوا=



ومن الحديث: «ما لم يُجْمِعْ مُكْثاً»(١)، ومنه قول أبي ذُؤيب:

ذَكَـرَ الـوُرُودَ بهـا فـأَجْمَـع شـوْقـاً وأَقْبـلَ حيْنُـهُ يَتَتَبَّـعُ(٢)

وقرأ نافع ـ فيما روى عنه الأصمعي ـ وهي قراءَة الأعرج، وابن أبي رجاءٍ، وعاصم الجحدري، والزهري، والأعمش: [فَاجْمَعُوا] بفتح الميم من جَمَع إذا ضمَّ شيئاً إلى شيءٍ. و﴿أَمْرَكُمْ﴾ يريد به: قدرَتكم وحياتكم، ويؤيد هذه القراءَة قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾(٣)، وكل هؤلاءِ نصب (الشركاءَ)، ونَصْب قوله: ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ يحتمل أن يعطف على قوله: ﴿أَمْرَكُمْ﴾، وهذا على قراءَة ﴿فَاجْمَعُوا﴾ بالوصل(٤)، وأما من قرأَ: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ بقطع الألف فنصب «الشركاءَ» بفعل مضمر كأَنه قال: «وادعوا شركاءكم»، فهو من باب قول الشاعر:

شَـرَّابُ أَلْبَـانٍ وتَمْـرٍ وأَقِـط(٥)

ومن قول الآخر:

ورأَيْـتِ زوْجَـكِ فـي الـوَغَـى مُتَقَلِّـداً سَيْفـاً ورُمْحـا(٦)

= أمرهم: عزموا عليه واتفقوا، والشاعر في البيت يصور اتفاقهم على أمرهم بالليل، فلما جاء الصباح كان لهم ضجيج وضوضاءٌ، هذا ينادي، وذاك يجيب، وبين الإجابة والنداء يرتفع الرغاءُ والثغاءُ.

(١) هذا جزءٌ من حديث عن صلاة المسافر رواه الموطأ، ولفظه: «أُصلّي صلاة المسافر مالم أُجْمع مُكْثاً»، أي أعزِم إقامة. هكذا في «النهاية»، وفي «الموطأ»، وراجع أيضاً «المعجم الفهرس لألفاظ الحديث النبوي ـ مكث».

(٢) وَرَدَ المكان: أشرف عليه سواءٌ دخل أم لم يدخل، والمعنى هنا: «تذكر الوصول إلى غايته»، وأجمع أمره: عزم وصمم من شدة شوقه، والحيْنُ: الهلاك. يصور شوقه ورغبته في ورود الماء وسعيه إليه ومن ورائه الهلاك.

(٣) من الآية (٦٠) من سورة (طه).

(٤) ويحتمل أن يكون منصوباً على أنه مفعول معه، أو على حذف مضاف، أي: ذوي الأمر منكم، فجرى على المضاف إليه ما جرى على المضاف لو ثبت. قال أبو حيان في البحر نقلا عن أبي علي الفارسي، وقد نقل المؤلف احتمال النصب على المعية عن الفارسي.

(٥) لأن التمر لا يشرب وكذلك الأقط فلابد من فعل محذوف تقديره: «وأكّال»، لأن في المذكور من الكلام دليل على المحذوف. والأَقِط: لبن محمّض يجمّد حتى يستحجر ويطبخ، أو يطبخ به.

(٦) والرمح لا يُتَقلّد بل يحمل، ولهذا يقدر الناصب: «وحاملاً»، وقائل البيت هو عبد الله بن الزبعرى كما في الكامل للمبرد، ويروى: «ياليت زوجك قد غدا». هذا وقد سبق الاستشهاد به في المجلد الأول، ص ١١٤.



ومن قول الآخر:

عَلَفْتُهَــا تِبْنــاً ومــاءً بــارداً حتَّـى شَتَـتْ همَّـالَـةً عينَـاهـا[(١)]

وفي مصحف أُبي بن كعب: «فأَجمعوا أَمركم وادعوا شركاءكم»، قال أبو علي: وقد ينتصبُ «الشركاءُ» بواو مَعْ، كما قالوا: «جاءَ البريد والطيالسة». وقرأَ أَبو عبد الرحمن، والحسن، وابن أَبي إِسحق، وعيسى، وسلام، ويعقوب، وأَبو عمرو فيما رُوي عنه: [وشُرَكَاؤُكُم] بالرفع عطفاً على الضمير في: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾، وعطف على الضمير قبل تأكيده لأن الكاف والميم في ﴿أَمْرَكُمْ﴾ ناب مناب «أَنتم» المؤكد للضمير، ولطول الكلام أَيضاً. وهذه العبارة أَحسن من أَن يطول الكلام بغير ضمير[(٢)]، ويصح أَن يرتفع بالابتداءِ والخبر مُقدّر، تقديره: «وشركاؤُكم فليجمعوا»، وقرأَت فرقة: ﴿وشُرَكَائِكُم﴾ بالخفض على العطف على الضمير في قوله تعالى: ﴿أَمْرَكُمْ﴾، والتقدير: «وأَمر شركائكم» فهو كقول الشاعر:

أَكُـلَّ امْـرِئٍ تحسَبيــنَ امــرءاً ونـارٍ تَـوَقَّـدُ بـاللَّيْـلِ نـارا؟[(٣)]

أَي: وكل نار، والمراد بالشركاءِ في هذه الآية الأَنداد من دون الله، فأَضافهم إِليه إِذ يجعلونهم شركاءَ بزعمهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أَي: ملتبساً مُشْكلاً. ومنه قوله ﷺ في

---

(١) والماءُ لا يعلف، ولهذا يقدر الناصب: «وَسَقَيْتُهَا»، ويروى: (بدت) و(غدت) بدلا من (شتت) والمعنى واحد، والبيت في ابن عقيل والعيني. وقد روي البيت بلفظ آخر سبق أن ذكرناه في المجلد الأول ص ١١٤ وهو:

لمـا حطَطْـتُ الـرَّحْـلَ عَنْهَـا وارداً عَلَفْتُهَــا تِبْنَــاً ومــاءً بــارداً

والبيت مجهول القائل، وقيل: إنه لذي الرمّة.

(٢) وقد جاز العطف على الضمير بدون تأكيد لطول الكلام بـ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ (١٤٨ـ الأنعام) وذلك مع وقوعها بعد الواو، فمن باب أولى يجوز هنا للفصل بالكاف والميم الواقعين قبل الواو. ولكن ذلك ليس في قوة التأكيد نحو قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، وذلك لأن التوكيد فيه معنى لا يوجد في الفصل بغيره، إذ هُوَ يُثْبِتُ معنى الاسمية للمضمر المتصل الذي مازج الفعل وصار كجزء منه فضعف الفعل عن أن يعطف عليه، لكنه إذا أُكِّد صار فيه حيِّزُ الأسماء ولحق بما يحسن العطف عليه. قاله أبو الفتح في كتابه «المحتسب».

(٣) نسب هذا البيت لجارية بن الحجاج، ولحارثة بن حمران، ولعدي بن زيد، ولكن المشهور أنه لأبي دؤاد، وهو في الكتاب لسيبويه، وفي الكامل للمبرد، وفي ابن عقيل.



الهلال: «فإنْ غُمّ عليكم»، ومنه قول الراجز:

بَـلْ لَـوْ شهِـدْتِ النَّـاسَ إذْ تُكُمُّـوا   بِغُمَّـةٍ لَـوْ لَـمْ تَفَـرَّجْ غُمُّـوا[١]

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ معناه: أَنفذوا قضاءكم نحوي، وقرأ السَّريُّ بن ينْعُم: [ثُمَّ أَفْضُوا] بالفاءِ وقطع الألف، ومعناه: أَسرعوا، وهو مأخوذ من الأَرض الفضاءِ، أَي: اسلكوا إِليَّ بكيدكم واخرجوا معي وبي إِلى سعة[٢]، وقوله: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أَي: ولا تؤخرون، والنَّظِرة: التأخير.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣﴾.

المعنى: فإِن لم تقبلوا على دعوتي وكفرتم بها وتوليتم عنها، التولِّي أَصله بالبدن، ويستعمل في الإِعراض عن المعاني، يقول: فأَنا لم أَسأَلكم أجراً على ذلك ولا مالاً فيقع منكم قطع لي وتقصير بإِرادتي وإِنما أَجري على الذي بعثني. وقرأ نافع، وأَبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ: [أَجْري] بسكون الياءِ، وقرأ: [أَجْريَ] بفتح الياءِ الأَعرجُ، وطلحة بن مصرف، وعيسى، وأَبو عمرو. وقال أَبو حاتم: هما لغتان، والقراءَة بالإِسكان في كل القرآن. ثم أَخبرهم أَن الله أَمره بالإِسلام والدين الحنيف الذي هو توحيد الله والعمل بطاعته والإِعداد للقائه.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ الآية. إِخبار من الله عزَّ وجلَّ عن حال قوم نوح المكذبين

---

(١) الراجز هو العجاج، والبيت في ديوانه، ونسبه له ابن منظور في «اللسان» والقرطبي في تفسيره، ونسبه الطبري إلى رؤبة، وهذا غير صحيح، والبيت مطلع أرجوزة للعجاج يذكر مسعود بن عمرو العتكي من الأزد، وتُكُمّوا بضم التاء والكاف: أُلبسوا كمة فتغطوا بها، والأصل: تكمموا بميمين من كَمَمْتُ الشيءَ إذا سترته، ثم أبدلت الميم الأخيرة ياء فصار في التقدير: تكميوا، ثم حذفت الياءُ فصارت: تُكُمّوا، نقل ذلك «التاج» عن الفراء، والغَمُّ والغُمَّةُ: الكرب، والمعنى: تغطّوا بالكرب والهم.

(٢) قال أبو الفتح: هو أَفْضَيتُ من الفضاءِ، وذلك أنه إذا صار إلى الفضاء تمكن من الإسراع، ولام أفضيت والفضاءُ وما تصرف منهما واوٌ لقولهم: فضا الشيءُ يفضُوا فُضُواً إذا اتَّسع، وقولهم: أفضيت: صرت إلى الفضاء، مثل أنجدت: صرت إلى نجد.

له ، وفي ضمن ذلك الإخبار توعّد للكفار بمحمد ﷺ وضرب المثال لهم ، أي: أنتم بحال هؤلاءِ من التكذيب فستكونون بحالهم من النقمة والتعذيب ، و﴿ٱلْفُلْكِ﴾: السفينة ، والمفسرون وأهل الآثار مجمعون على أن سفينة نوح كانت واحدة ، والفلك لفظ الواحد منه ولفظ الجمع مستو ، وليس به ، وقد مضى شرح هذا في (الأعراف) ، و﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ جمع خليفة ، وقوله: ﴿فَٱنظُرْ﴾ مخاطبة للنبي ﷺ يشاركه في معناها جميع الخلق ، وفي هذه الآية أنه أغرق جميع من كذَّب بآيات الله التي جاءَ بها نوح عليه السلام ، وهي مقتضية أيضاً أنه أنذرهم فكانوا منذرين ، فلو كانوا جميع أهل الأرض كما قال بعض الناس لاستوى نوحٌ ومحمدٌ عليهما الصلاة والسلام في البعث إلى أهل الأرض ، ويردّ ذلك قول النبي ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يُعطهن أحدٌ قبلي» الحديث[1] ، ويترجح بهذا النظر أن بعثة نوح عليه السلام والغرق إنما كان[2] في أهل صقع لا في جميع الأرض.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

الضمير في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ عائد على نوح عليه السلام ، والضمير في ﴿قَوْمِهِمْ﴾ عائد على الرسل ، ومعنى هذه الآيات كلها ضرب المثل لحاضري محمد ﷺ ، أي: كما حلَّ بهؤلاءِ يحِلُّ بكم ، والبيِّنات: المعجزات والبراهين الواضحة ، والضمير في قوله: ﴿كَانُوا۟﴾ وفي ﴿لِيُؤْمِنُوا۟﴾ عائد على قوم الرسل ، والضمير في ﴿كَذَّبُوا۟﴾ عائد على قوم نوح عليه السلام ، وهذا قول بعض المتأولين ، وقال بعضهم: بل يَعود الثلاثة على قوم الرسل على معنى أنهم بادروا رسلهم بالتكذيب كلما

(١) الحديث مشهور رواه الشيخان البخاري ومسلم ، ورواه النسائي ، وتمامه: «نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وتربتها طهوراً فأيما رجل من أُمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأُحلت لي الغنائم ولم تحِل لأحد قبْلي ، وأُعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة».

(٢) هكذا في جميع النسخ.



جاءَ رسول، ثم لجّوا في الكفر وتمادوا فلم يكونوا ليؤمنوا بما سبق به تكذيبهم. وقال يحيى بن سلاّم[١]: ﴿مِن قَبْلُ﴾ معناه: من قبل العذاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا القول بُعد، ويحتمل اللفظ عندي معنى آخر وهو أَن تكون (ما) مصدرية، والمعنى: فكذبوا رسلهم فكان عقابهم من الله أَن لم يكونوا ليؤمنوا بتكذيبهم من قبل، أَي من سببه ومن جرائه[٢]. ويؤيد هذا التأويل قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾. وقال بعض العلماءِ: عقوبة التكذيب الطبْعُ على القلوب. وقرأَ جمهور الناس: ﴿نَطْبَعُ﴾ بالنون، وقرأَ العباس بن الفضل: [يَطْبَعُ] بالياءِ، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَي: هذا فِعلنا بهؤلاءِ، ثم ابتدأَ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ أَي: كفعلنا هذا. و﴿ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ هم الذين تجاوزوا طورهم، واجترحوا ما لا يجوز لهم وهي ها هنا في الكفر.

والضمير في ﴿بَعْدِهِم﴾ عائد على الرسل، والضمير في ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ عائد على فرعون، والملأُ: الجماعة من قبيلة وأَهل مدينة، ثم يقال للأَشراف والأَعيان من القبيلة أَو البلد ملأٌ، أَي: هم يقومون مقام الملأ، وعلى هذا الحدّ هي في قول رسول الله ﷺ في قريش بدر: «أُولئك الملأُ»، وكذلك هي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾[٣]، وأَما في هذه الآية فهي عامة لأَن بعثة موسى وهارون كانت إِلى فرعون وجميع قومه من شريف ومشروف، وقد مضى في ﴿الٓمٓصٓ﴾ ذكرهما وما بُعثا إِليهم فيه. والآيات: البراهين والمعجزات وما في معناها، وقوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ أَي: تعظموا وكفروا بها، و﴿مُّجْرِمِينَ﴾ معناه: يرتكبون ما لم يُبح الله ويجسرون من ذلك على الخطر الصعب.

---

(١) يحيى بن سَلاَّم بن أبي ثعلبة، التيمي بالولاء، البصري ثم الأفريقي، مفسِّر، فقيه، عالم بالحديث واللغة، ولد بالكوفة ورحل طويلاً ثم توفي بمصر سنة ٢٠٠هـ. ومن كتبه «تفسير القرآن»خ. و«اختيارات الفقه» و«الجامع»، وله مصنفات كثيرة في العلم.

(٢) قال أبو حيان: «والظاهر أن ﴿فَمَا﴾ موصولة، ولذلك عاد الضمير عليها في قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ﴾، ولو كانت مصدرية لبقي الضمير غير عائد على مذكور فتحتاج أن يتكلف ما يعود عليه الضمير».

(٣) من الآية (٢٠) من سورة (القصص).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝٧٧ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝٧٨﴾.

يريد بالحق آيتَي العصا واليد، ويدل على ذلك قولهم عندهما: «هذا سحر»، ولم يقولوا ذلك إلا عندهما، ولم يتعاطوا إلا مقاومة العصا فهي معجزة موسى عليه السلام التي وقع فيها عجز المعارض. وقرأ جمهور الناس: ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقرأ سعيد بن جُبَيْر، والأعمش: [لَسَاحِرٌ مُبِين][1].

ثم اختلف المتأَلون في قوله: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ فقالت فرقة: هو حكاية من موسى عنهم على معنى أَن قولهم كان: «أَسِحْرٌ هَذَا»؟ ثم اختلف في معنى قول قوم فرعون: «أَسحرٌ هذا»؟ فقال بعضهم: قالها منهم كل مستفهم جاهل بالأَمر فهو يسأَل عنه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا التأْويل يضعفه ما ذكر الله قبلُ عنهم من أَنهم صمموا على أَنه سحرٌ بقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. وقال بعضهم: بل قالوا ذلك على معنى التعظيم للسحر الذي رأَوه بزعمهم، كما تقول لفرس تراه يجيد الجري: «أَفرسٌ هذا»؟ على معنى التعجب منه والاستغراب وأَنت قد علمت أَنه فرس. وقالت فرقة غير هاتين: ليس ذلك حكاية من موسى عنهم، بل القول الذي حكاه عنهم مقدر تقديره: أَتقولون للحق لما جاءَكم سحرٌ؟

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

أَو نحو هذا من التقدير، ثم ابتدأَ يوقفهم بقوله: «أَسحرٌ هذا»؟ على جهة التوبيخ، ثم أَخبرهم عن الله تعالى أَن السَّاحرين لا يفلحون ولا يظفرون ببغية، ومثل هذا التقدير المحذوف على هذا التأْويل موجود في كلام العرب، ومنه قول ذي الرمّة:

---

(١) على قراءة الجمهور تكون ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى الفعل الذي حدث للعصا. وعلى قراءة سعيد والأعمش تكون ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى موسى عليه السلام.



فَلَمَّـا لَبِسْـنَ اللَّيْـلَ أَوْ حيـنَ نصَّبَـتْ لـهُ مِـنْ خَـذا آذانِهَـا وهـو جَـانـحُ[١]

يريد: أَو حين قاربن ذلك ، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾[٢] ، المعنى: بعثناهم لِيَسؤُوا ، ومثل هذا كثير شائع.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا﴾ الآية. المعنى: قال قوم فرعون لموسى: أجئتنا لتصرفنا وتلْوينا وتردّنا عن دين آبائنا؟ يقال: «لفت الرجل عن الآخر» إذا لواه ، ومنه قولهم: الْتفت ، فإِنه افتعل من لفت عنقه ، ومنه قول رؤْبة:

لفتـاً وتَهْـزيعـاً سـواءَ اللَّفْـتِ . . . .[٣]

وقرأ السبعة سوى أَبي عمرو ـ فإِنه اختلف عنه ـ: و﴿وَتَكُونَ﴾ بالتاءِ من فوق ، وهي قراءَة جمهور الناس ، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن ـ فيما زعم خارجة وإِسماعيل ـ: [وَيَكُونَ] بالياءِ من تحت ، ورويت عن أَبي عمرو ، وعن عاصم ، وهي قراءَة ابن مسعود. و﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ مصدر مبالغ من الكبر ، والمراد به ـ في هذا الموضع ـ الملك ، وكذلك قال فيه مجاهد ، والضحاك ، وأَكثر المتأَولين ، لأَنه أَعظم تكبر الدنيا ، ومنه قول الشاعر:

سُـؤْدُداً غيْـرَ فـاحِـشٍ لا يُـدا نيـهِ تَجْبـارُهُ ولا كبْـريـاءُ[٤]

---

(١) البيت في الديوان ، وقوله: «لبسن الليل»: أَدْلَجْن فيه وسَتَرَهُنَّ حتى صار لباساً لهنّ ، و«خذا آذانها»: استرخاؤها ، والأخذى: المسترخي الأذن ، والجانح هو الليل ، يقال: جَنَح الليْلُ بمعنى: مال للذهاب أو المجيءِ.

(٢) من الآية (٧) من سورة (الإسراء).

(٣) هذا بيت لرؤبة قاله ضمن قصيدة جاء مطلعها:

يـا بنْـتَ عمْـروٍ لا تَسُبِّـي بِنْتـي حَسْبُـكِ إحْسَـانُـكِ إنْ أحْسَنْـتِ

وبعده يقول:

. . . . وطـامِـح النَّخْـوَةِ مُسْتكِـتُ

واللَّفْتُ: اللَّيّ ، يقال: لفتَه يَلْفِتُه لفْتاً إذا لواه وصرفه ، والتهزيع: التكسير أو دقّ العنق ، وسواء اللفت: سوَى اللَّفْتِ. يقول: التَّهْزيع غير اللَّفْت. ومن اللفت قول الشاعر:

تَلَفَّـتُ نَحْـوَ الحَـيِّ حَتَّـى رَأَيْتُنـي وَجِعْـتُ مِـن الإصْغَـاءِ ليتـاً وأخْـدَعَـا

(٤) السؤدد: المجد والشرف والسيادة ، غير فاحش: ليس فيه بغي ولا تجبر ولا عدوان ولا تخالطه الكبرياء ، والتّجبار: مصدر بمعنى الجبر والقهر ، والكبرياء بوزن فعلياء هي العظمة إذا كانت وصفاً لله سبحانه ، فإذا كانت وصفاً للمخلوقين فهي التكبر والاستعلاء على الناس مع الظلم لهم.

وقوله: ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدقين.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

يخبر أَن فرعون قال لخدمته ومتصرفيه: ائتوني بكل ساحر، هذه قراءَة جمهور الناس، وقرأَ طلحة بن مصرف، ويحيى بن وثاب، وعيسى: [بِكُلِّ سَحَّارٍ] على المبالغة، قال أَبو حاتم: لسنا نقرأُ [سَحَّار] إلا في سورة الشعراءِ، فروي أَنهم أَتوه بسحرة الفرما وغيرها من بلاد مصر حسبما قد ذكر قبل في غير هذه الآية، فلما ورد السحرة باستعدادهم للمعارضة خيّروا موسى كما ذكر في غير هذه الآية، فقال لهم عن أَمر الله ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾ الآية. المعنى: فلما أَلقوا حبالهم وعصيهم وخيّلوا بها وظنو أَنهم قد ظهروا قال لهم موسى هذه المقالة. وقرأَ السبعة سوى أَبي عمرو. ﴿بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ وهي قراءَة جمهور الناس، وقرأَ أَبو عمرو، ومجاهد، وأَصحابه، وابن القعقاع: [به آلسّحر] بأَلف الاستفهام ممدودة قبل «السحر»، فأَما من قرأَ ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ بغير أَلف استفهام قبله فـ﴿مَا﴾ في موضع رفع على الابتداءِ، وهي بمعنى الذي وصلتها قوله: ﴿جِئْتُم بِهِ﴾، والعائد الضمير في ﴿بِهِ﴾، وخبرها ﴿ٱلسِّحْرُ﴾، ويؤيد هذه القراءَة والتأْويل أَنَّ في مصحف ابن مسعود: [ما جئتم به سحر]، وكذلك قرأَها الأَعمش، وفي قراءَة أُبي بن كعب: [مَا أَتَيْتُم به سِحْرٌ] والتعريف هنا في ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ أَرتب لأَنه تقدم مُنكراً في قولهم: [إِنَّ هذا لَسِحْر] فجاءَ هنا بلام العهد. كما يقال في أَول الرسالة: «سلام عليك»، وفي آخرها: «والسلام عليك»[2]، ويجوز أَن تكون

---

(١) راجع تفسير الأعراف ابتداءً من قوله تعالى في الآية (١٠٣): ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وما بعد ذلك من آيات نزلت في قصة موسى عليه السلام.

(٢) قال أبو حيان في «البحر» تعقيباً على ذلك: «وهذا أخذه من الفراء، قال الفراء: وإنما قال: ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ بالألف واللام لأن النكرة إذا أُعيدت أُعيدت بالألف واللام، ولو قال له: مَن رَجُلٌ؟ لم يقع في وهمه أنه يسأله عن الرجل الذي ذكره له ا.هـ. وما ذكراه هنا في السحر ليس هو من باب تقدم النكرة ثم=

﴿ مَا ﴾ استفهاماً في موضع رفع بالابتداءِ ، و﴿ جِئْتُم بِهِ ﴾ الخبر ، و﴿ ٱلسِّحْرُ ﴾ خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: «هو السحر إن الله سيبطله» ، ووجه استفهامه هذا هو التقرير والتوبيخ. ويجوز أن تكون ﴿ مَا ﴾ في موضع نصب على معنى: «أيَّ شيءٍ جئتم به» ، و﴿ ٱلسِّحْرُ ﴾ مرفوع على خبر الابتداءِ ، وتقدير الكلام: «أيَّ شيءٍ جئتم به هو السحر إن الله سيبطله». وأما من قرأ بألف الاستفهام والمدّ قبل ﴿ ٱلسِّحْرُ ﴾ فـ﴿ مَا ﴾ استفهام رفع بالابتداءِ ، و﴿ جِئْتُم بِهِ ﴾ الخبر ، وهذا على جهة التقرير ، وقوله: ﴿ ٱلسِّحْرُ ﴾ استفهام أيضاً كذلك ، وهو بدل من الاستفهام الأول ، ويجوز أن تكون ﴿ مَا ﴾ في موضع نصب بمضمر تفسيره في قوله: ﴿ جِئْتُم بِهِ ﴾ ، وتقديره: «أي شيءٍ جئتم به السحر» ، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ﴾ إيجاب عن عِدَةٍ من الله تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ ﴾ الآية. يحتمل أن يكون من كلام موسى عليه السلام ، ويحتمل أن يكون من إخبار الله عزَّ وجلَّ ، وكون ذلك كله من كلام موسى عليه السلام أقرب ، وهو الذي ذكره الطبري ، وأما قوله: ﴿ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ فمعناه: بكلماته السابقة الأزلية في الوعد بذلك ، قال ابن سلاَّم: ﴿ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ بقوله: ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ ، ومعنى ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾: وإن كره المجرمون. والمجرم: المجترم الراكب للخطر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

المعنى: فما صدق موسى ، ولفظة ﴿ ءَامَنَ ﴾ تتعدى بالباءِ ، وتتعدى باللام وفي ضمن المعنى الباءُ ، واختلف المتأولون في عود الضمير الذي في ﴿ قَوْمِهِۦ ﴾ ، قالت

= الإخبار عنها بعد ذلك ، لأن شرط هذا أن يكون المعرف بالألف واللام هو النكرة المتقدم لا غيره ، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ ، والسحر هنا ليس هو السحر الذي في قولهم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ ﴾ لأنهم أخبروا عن الأمر الذي فعله موسى عليه السلام ، والسحر الذي في قول موسى عليه السلام إنما هو سحرهم الذي جاءوا به ، فقد اختلف المدلولان».



فرقة: هو عائد على موسى عليه السلام، وقالت فرقة: هو عائد على فرعون، فمن قال إن العود على موسى عليه السلام قال: معنى الآية وصف حال موسى عليه السلام في أول مبعثه أنه لم يؤمن به إلا فتيان وشباب أكثرهم أولوا آباءٍ كانوا تحت خوف من فرعون ومن ملإٍ بني إسرائيل، فالضمير في [المَلإِ] عائد على الذرية، وتكون الفاءُ ـ على هذا التأويل ـ عاطفة جملة على جملة لا مرتبة. وقال بعض القائلين بعود الضمير على موسى عليه السلام: إن معنى الآية أن قوماً أدركهم موسى عليه السلام ولم يؤمنوا به، وإنما آمن ذرياتهم بعد هلاكهم لطول الزمان، قاله مجاهد، والأعمش، وهذا قول غير واضح، وإذا آمن قوم بعد موت آبائهم فلا معنى لتخصيصهم باسم الذرية، وأيضاً فما روي من أخبار بني إسرائيل لا يعطي هذا، وهيئة قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ﴾ تعطي تقليل المؤمنين به، لأنه نفى الإيمان ثم أوجبه للبعض، ولو كان الأكثر مؤمناً لأوجب الإيمان أولاً ثم نفاه عن الأقل، وعلى هذا الوجه يتخرج قول ابن عباس رضي الله عنهما في الذرية: «إنه القليل»، لا أنه أراد أن لفظة الذرية هي بمعنى القليل كما ظن مكي وغيره. وقالت فرقة: إنما سمّاهم ذُرّية لأن أُمهاتهم كانت من بني إسرائيل وآباءَهم من القبط، فكان يقال لهم: الذُّرّية كما قيل لِفُرْس اليمن: الأبناءُ، وهم الفُرْس المنتقلون من وهرز بسعاية سيف بن ذي يزن[1]، والأمر بكماله في السِّير. وقال السُّدي: كانوا سبعين أهل بيت من قوم فرعون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومما يضعف عود الضمير على موسى عليه السلام أن المعروف من أخبار بني إسرائيل أنهم كانوا قوماً قد تقدمت فيهم النبوات، وكانوا في مدة فرعون قد نالهم ذلٌّ مفرط وقد رجوا كشفه على يدي مولود يخرج فيهم يكون نبياً، فلما جاءَهم موسى عليه السلام أَصفقوا عليه[2] واتبعوه، ولم يحفظ قط أن طائفة من بني إسرائيل كفرت به،

(١) وهْرز: كان سجيناً عند كسرى، وكان ذا حسب ونسب وفضل وسِنّ بين قومه، فلما استنجد سيف بن ذي يزن بكسرى ليساعده ضد مسروق بن أبرهة ملك الحبشة بعد أن غلب وتسلط على أرض اليمن أمده كسرى بجيش، واختار وهرز ليضعه على رأس هذا الجيش لفضله وسنه وحسبه. (راجع كتب السيرة، وبخاصة سيرة ابن هشام).

(٢) يقال أَصْفَق على هذا، أوْلَهُ: أطبقوا عليه واجتمعوا. (المعجم الوسيط).

فكيف تعطي هذه الآية أَن الأَقل منهم كان الذي آمن؟ فالذي يترجح ـ بحسب هذا ـ أَن الضمير عائد على فرعون، ويؤيد ذلك أَيضاً ما تقدم من محاورة موسى عليه السلام وردّه عليهم وتوبيخهم على قولهم: «هذا سحر»، فذكر الله ذلك عنهم ثم قال: فما آمن لموسى إِلا ذرية من قوم فرعون الذين هذه أَقوالهم، وروي في ذلك أَنه آمنت زوجة فرعون وخازنه وامرأَة خازنه وشباب من قومه ـ قاله ابن عباس رضي الله عنهما ـ والسَّحرةُ أَيضاً فإِنهم معدودون في قوم فرعون، وتكون القصة ـ على هذا التأْويل ـ بعد ظهور الآية والتعجيز بالعصا، وتكون الفاءُ مرتبة للمعاني التي عطفت[1].

ولاعتقاد الفراءِ وغيره عود الضمير على موسى عليه السلام تخبطوا في عود الضمير في ﴿مَلَإِيْهِمْ﴾ فقال بعضهم: ذِكْر فرعون وهو الملك يتضمن الجماعة والجنود، كما تقول: «جاءِ الخليفة، وسافر الملك» وأَنت تريد جيوشه معه، وقال الفراءُ: المعنى: «على خوف من آل فرعون وملَئِهم»، وهو من باب: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[2].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا التنظير غير جيد لأَن إِسقاط المضاف في قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ هو سائغ بسبب ما يعقل من أَن القرية لا تسأَل، ففي الظاهر دليل على ما أُضمر، وأَما ها هنا فالخوف من فرعون متمكن لا يحتاج معه إِلى إِضمار، أَما إِنه ربما احتج بأَن الضمير المجموع في ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ يقتضي ذلك، والخوف إِنما يكون من الأَفعال والأَحداث التي للجثة، ولكن لكثرة استعماله ولقصد الإِيجاز أُضيف إِلى الأَشخاص.

وقوله: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ بدل من ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وهو بدل الاشتمال، فـ﴿أَن﴾ في موضع خفض، ويصح أَن تكون في موضع نصب على المفعول من أَجله، وقرأَ الحسن،

---

(١) يظهر من كلام ابن عطية أنه يؤيد الرأي القائل بأن الضمير في قوله تعالى: ﴿قَوْمِهِۦ﴾ يعود على فرعون، وأن القول بعوده على موسى ضعيف، ولكن الطبري ومن وافقه يؤيدون رأيهم بعود الضمير على موسى بأمور، منها: أنه أقرب مذكور والحديث عنه، وقد مضى الحديث عن فرعون من مدة، فالأولى عود الضمير على أقرب مذكور وهو موسى. ومنها أنه لوكان عائداً على فرعون لما ذكر بعد ذلك في قوله: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ بل لقيل: «على خوف منه». ومنها أنه يمكن أن يكون المعنى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ﴾ أي: ما أظهر إيمانه وأعلنه إلا ذرية من قوم موسى عليه السلام، فلا يدل ذلك على أن طائفة من بني إسرائيل كفرت بموسى. وقد ردَّ ابن عطية على بعض ما تقدم وهو الإظهار لاسم فرعون بدلاً من الإضمار.

(٢) من الآية (٨٢) من سورة (يوسف).



والجراح ﴿أَن يُفْتِنَهُمْ﴾ بضم الياءِ. ثم أَخبر عن فرعون بالعلوّ في الأَرض والإِسراف في الأَفعال والقتل والدعاوي ليتبيّن عذر الخائفين.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ﴾ إلى ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. ابتداءُ حكاية قول موسى عليه السلام لجماعة بني إِسرائيل المؤمنين منهم مؤنساً لهم ونادباً إِلى التوكل على الله الذي بيده النصر، ومسأَلة التوكل متشعبة للناس فيها خوضات، والذي أَقول: إِن التوكل الذي أُمرنا به هو مقترن بتسبب جميل على مقتضى الشرع، وهو الذي في قوله ﷺ: «قَيِّدها وتَوَكَّلْ»[١]، فقد جعله متوكلاً مع التقييد، والنبي ﷺ رأْس المتوكلين، وقد تسبَّب عمره كله، وكذلك السلف كله، فإِن شذَّ متوكل فترك التسبب جملة فهي رتبة رفيعة ما لم يُسرف بها إِلى حد قتل نفسه وإِهلاكها، كمن يدخل غاراً خفياً يتوكل فيه فهذا أَو نحوه مكروه عند جماعة من العلماءِ، وما رُوي من إِقدام عامر بن قيس على الأَسد ونحو ذلك كله ضعيف، وللصحيح منه قرائن تسهله، وللمسلمين أَجمعين قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٢]، ولهم قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾[٣]، وقول النبي ﷺ في مدح السبعين أَلفاً من أُمته: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٤] ليس فيه أَنهم يتركون التَّسَبُّب جملة واحدة، ولا حفظ عن عكاشة أَنه ترك التَّسبب، بل كان يغزو ويأْخذ سهامه[٥]. وأَعني بذلك ترك التسبب في الغذاءِ، وأَما ترك التسبب في الطب فسهل وكثير من الناس جُبِل عليه دون نيّة وحسبة، فكيف بمن

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» عن عمرو بن أُمية الضمري، ورواه ابن حبان في صحيحه عن عمرو بن أُمية أيضاً بلفظ: (اعقلها وتوكل)، وبنفس اللفظ رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه، وأخرجه ابن خزيمة والطبراني من طريق عمرو بن أُمية الضمري بإسناد جيد بلفظ (قيدها وتوكل). ورمز له السيوطي في «الجامع الصغير» بالضعف، غير أن المناوي نقلاً عن الزركشي قال: إن القطّان إنما أنكره من حديث أنس، هذا وقد سبق الاستشهاد به.

(٢) من الآية (١٩٨) من سورة (البقرة).

(٣) من الآية (٢٣) من سورة (المائدة).

(٤) من الآية (٢) من سورة (الأنفال).

(٥) عُكاشة بن مِحْصن صحابي جليل، شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ، وقُتل في حرب الردّة، وقد ذكر في الصحيحين في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، فقال عكاشة حين سمع ذلك: ادع الله أن يجعلني منهم «فقال صلوات الله عليه وسلامه: أنت منهم» ومع أن النبي ﷺ قد بشره بالجنة، فإنه ما تأخر عن الأخذ بالأسباب، فاشترك في كل الحروب والغزوات، وهذا عند ابن عطية دليل على أن التوكل على الله لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب.



يحتسب؟ وقال لهم: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم﴾ مع علمه بإيمانهم على جهة إقامة الحجة وتنبيه الأنفس وإثارة الأنفة، كما تقول: «إن كنت رجلا فقاتل» تخاطب بذلك رجلا تريد إقامة نفسه. وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ يريد: أهل الطاعة منضافة إلى الإيمان المشروط، فَذِكْرُ الإسلام فيه زيادة معنى. ثم ذكر أنه أجاب بنو إسرائيل بنيّة التوكل على الله والنطق بذلك، ثم دعوا في ألا يجعلهم فتنة للظَّلَمة، والمعنى: لا تنزل بنا بلاءً بأيديهم أو بغير ذلك مدة مجاورتنا لهم فيفتنون ويعتقدون أن إهلاكنا إنما هو بقصد منك لسوءِ ديننا وصلاح دينهم، وأنهم أهل الحق. قاله مجاهد وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا الدعاءُ ـ على هذا التأويل ـ يتضمن دفع فصلين، أحدهما: القتل والبلاءُ الذي توقعه المؤمنون، والآخر: ظهور الشرك باعتقاد أهله أنهم أهل الحق، وفي ذلك فساد الأرض، ونحو هذا المعنى قول النبي ﷺ: «بئس الميت أبو أمامة ليهود والمشركين، يقولون: لو كان نبياً لم يمت صاحبه»(١)، ويحتمل اللفظ من التأويل، وقد قالته فرقة: إن المعنى: لا تفتنهم وتبتلهم بقتلنا فتعذبهم على ذلك في الآخرة، وفي هذا التأويل قلق بيّن.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

روي أن فرعون أخاف بني إسرائيل وهدم لهم مواضع كانوا اتخذوها للصلاة ونحو

(١) حديث أبي أمامة هذا رواه الإمام أحمد في مسنده (٤ـ١٣٨)، عن زمعة بن صالح قال: سمعت ابن شهاب يُحدث أن أبا أُمامة بن سهل بن حنيف أخبره عن أبي أمامة أسعد بن زرارة، وكان أحد النُّقباء يوم العقبة أنه أخذته الشَّوْكَةُ فجاءه رسول الله ﷺ يعوده فقال: «بئس الميت ليهود» مرّتين، «سيقولون: لولا دَفَعَ عن صاحبه، ولا أملك ضراً ولا نفعاً ولأتمحلَّنَّ له» فأمر به وكوي بخطَّين فوق رأسه فمات. ا.هـ. قال ابن الأثير في «النهاية»: «الشَّوْكَة: حُمْرَةٌ تعلو الوجه والجسد، يقال منه: شيك الرجلُ فهو مشوك». وقد اختلفت النسخ الخطية في كلمة ﴿بئس﴾ فكتبت مرّة (لَبِس) ومرَّات (بئس).



هذا، فأوحى الله إلى موسى وهارون أن اتَّخذا وتخيّرا لبني إسرائيل بيوتاً بمصر، قال مجاهد: مصر في هذه الآية: الإسكندرية، ومصرُ ما بين البحر إلى أسوان، والإسكندرية من أرض مصر، و﴿تَبَوَّءَا﴾ معناه كما قلنا: تخيّرا واتَّخذا، وهي لفظة مستعملة في الأماكن وما يشبه بها، ومن ذلك قول الشاعر:

لهَـا أَمـرُهـا حَتَّـى إذا مـا تَبَـوَّأَتْ لأَقحـافِهـا مـرعـىً تبَـوَّأَ مضجَعـاً[1]

وهذا البيت للراعي، وبه سُمِّي الراعي، ومنه قول امرئ القيس:

يَتَبَـوَّءُونَ مَقَـاعِـداً لِقِتَـالِكُـمْ كَلُيُـوثِ غَـابٍ لَيْلُهُـنَّ زَئِيـرُ[2]

وقرأ الناس: ﴿تَبَوَّءَا﴾ بهمزة على تقدير (ـــ)[3]، وقرأ حفص في رواية هبيرة: ﴿تبَوَّيَا﴾، وهذا تسهيل ليس بقياسي، ولو جرى على القياس لكان بين الهمزة والألف، وقوله: ﴿قِبْلَةً﴾ معناه: مساجد، قاله ابن عباس، والربيع، والضحاك، والنخعي، وغيرهم، قالوا: خافوا فأُمروا بالصلاة في بيوتهم، وقيل: يقابل بعضها بعضا، قاله سعيد بن جبير، والأول أصوب. وقيل: معناه: موجهة إلى القبلة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومن هذا حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «خير بيوتكم ما استقبل به القبلة»، وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خطاب لبني إسرائيل، وهذا قبل نزول التوراة لأنها لم تنزل إلا بعد إجازة البحر[4]، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمرٌ لموسى عليه السلام. وقال مكي، والطبري: هو أمر لمحمد ﷺ، وهذا غير متمكن.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ الآية. غضبٌ من موسى عليه السلام على القبط

---

(١) البيت للراعي كما قال ابن عطية، واسمه عبيد بن الحصين، وهو من فحول الشعراء، عدّه ابن سلام الجمحيّ في كتابه «الطبقات» من فحول الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين، وكان يفضل الفرزدق على جرير، وله في ذلك قصة مشهورة، وقد روي البيت بلفظ: «لأمحالها» و«لأخفَافها» جمع خفّ بدلا من «لأقْحافها»، والأقحاف: جمع قِحْف، والقِحْف واحد من أقحاف ثمانية تُكَوِّن الجمجمة، والمعنى واضح على روايتي الأخفاف والأقحاف.

(٢) في «اللسان»: «تبَوَّأَ فلانٌ منزلاً: اتخذه، وتَبَوَّأت منزلاً: نزلته، وعليه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ فمعنى يتبوءُون في البيت: ينزلونها ويتخذونها مقاعد للقتال. والزئير: صوت الأسد يكون من صدره».

(٣) يوجد بياض بالأصل في أكثر النسخ، وفي نسخة واحدة: «على تقدير: تبوعاً».

(٤) يقال: جاز الموضع وبه: سار فيه وقطعه، ويقال: أجاز الموضع: جازه. (المعجم الوسيط).

ودعاءٌ عليهم، فقدم للدعاءِ تقرير نعم الله عليهم وكفرهم بها. و﴿ءَاتَيْتَ﴾ معناه: أَعطيت وملّكت، وتكرر قوله ﴿رَبَّنَا﴾ استغاثة، كما يقول الداعي بالله. وقوله: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ يحتمل أَن يكون لام كي على بابها، على معنى: آتيتهم الأموال إملاءً لهم واستدراجاً، فكان الإيتاءُ كي يضلوا، ويحتمل أَن تكون لام الصيرورة والعاقبة، كما قال: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[1]، والمعنى: آتيتهم ذلك فصار أَمرهم إلى كذا، ورُوي عن الحسن أَنه قال: هو دعاءٌ، ويحتمل أَن يكون المعنى على جهة الاستفهام، أَي: ربنا ليضلوا فعلت ذلك؟ وفي هذا تقرير الشنعة عليهم[2].

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، والحسن، والأَعرج، وشيبة، وأَبو جعفر، ومجاهد، وأَبو رجاءٍ، وأَهل مكة: [لِيَضِلُّوا] بفتح الياءِ على معنى: ليَضِلُّوا في أَنفسهم. وقرأَ عاصم، وحمزة، والكسائي، والأَعمش، وقتادة، وعيسى، والحسن، والأَعرج ـ بخلاف عنه ـ: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بضم الياءِ، على معنى: لِيُضِلُّوا غيرهم، وقرأَ الشعبي: [لِيِضِلُّوا] بكسر الياءِ.

وقرأَ الشعبي أَيضاً، وغيره: [اطمُسْ] بضم الميم، وقرأَت فرقة: ﴿ٱطْمِسْ﴾ بكسر الميم، وهما لغتان، يقال: طمَس يطمِس ويطمُس، قال أَبو حاتم: وقراءَة الناس بكسر الميم، والضم لغة مشهورة، ومعناه: عفّ وغيِّر، وهو من طموس الأَثر والعين وطمْس الوجوه، ومنه قول كعب بن زهير:

مِنْ كُلِّ نَضَّاخَةِ الذِّفرَي إِذَا عَرِقَت   عُرْضَتُهَا طَامِسُ الأَعْلَامِ مجْهولُ[3]

---

(١) من الآية (٨) من سورة (القصص).

(٢) قال بعض النحويين: هذه اللام في ﴿لِيَضِلُّوا﴾ وما أشبهها بتأويل الخفْض، أي: آتيتهم ما آتيتهم لضلالهم، والعرب تجعل لام (كي) في معنى لام الخفض، ولام الخفض في معنى لام (كي) لتقارب المعنى، قال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي لإعراضكم، ولم يحلفوا لإعراضهم، وقال الشاعر:

سَمَـوْتَ ولَـمْ تَكُـنْ أَهْـلًا لِتَسْمُـو   ولَكِـنَّ المُضَيَّـعَ قَـدْ يُصَـابُ

(٣) النَّضَّاخَةُ: كثيرة رشح العَرَق. والذِّفرَى: النُّقْرَة خلف أُذن الناقة، أو العظم الشَّاخص خلف الأذن، أو من لدُن المَقَذّ إلى نصف القَذَال، وكلها أماكن قريبة من غُدَّة العرق. وعُرْضَتُها: هِمَّتُهَا، والأعلام: العلامات تكون في الطريق ليهتدي بها السائر في الصحراء كالأحجار والآبار والتلال ونحوها، وطامِسُ الأعلام: الدارس منها. يقول: هذه الناقة كثيرة العرق لنشاطها في سيرها وإجهادها نفسها، وهي تعرف=

وروي أنهم حين دعا موسى عليه السلام بهذه الدعوة رجع سكرهم حجارة، وزادهم ودنانيرهم وحبوبهم من الأطعمة رجعت حجارة، قاله محمد بن كعب القرظي، وقتادة، وابن زيد. وقال مجاهد وغيره: معناه: أهلكها ودمرها، وروي أن الطمسة كانت من آيات موسى عليه السلام التسع، وقوله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بمعنى: اطبع واختم عليهم بالكفر، قاله مجاهد والضحاك، ولما أشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ بقتل أسرى بدر شبَّهه بموسى عليه السلام في دعائه على قومه الذين بعث إليهم في هذه الآية، وبنوح عليه السلام في قوله: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[1]. وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ مذهب الأخفش وغيره أن الفعل منصوب عطفاً على قوله: ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾، وقيل: هو منصوب على جواب الأمر، وقال الفراء والكسائي: هو مجزوم على الدعاءِ، ومنه قول الشاعر:

فَلاَ يَنْبَسِطْ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْكَ ما انْزَوَى ... وَلاَ تَلْقَنِي إلاَّ وَأَنْفُكَ رَاغِمُ[2]

وجعل رؤية العذاب نهاية وغاية، وذلك لِعِلْمِه من قِبَل الله تعالى أن المؤمن عند رؤية العذاب لا ينفعه إيمانه في ذلك الوقت ولا يخرجه من كفره، ثم أجاب الله هذه الدعوة في فرعون نفسه[3]، قال ابن عباس: العذاب هنا: الغرق، وقرأ الناس: ﴿دَّعْوَتُكُمَا﴾، وقرأ السُّدي، والضحاك: ﴿دعَوَاتكُمَا﴾، وروي عن ابن جريج، ومحمد بن علي، والضحاك أن الدعوة لم تظهر إجابتها إلا بعد أربعين سنة، وحينئذ كان أمر الغرق[4].

= الطريق وتمضي فيه مُسْرِعَةً مجدَّة ـ وإن طمست أعلامه وتغيرت ـ لكثرة ما سافرت فيه.

(١) من الآية (٢٦) من سورة (نوح).

(٢) البيت للأعشى، وهو من ميميته التي يهجو بها يزيد بن مسهر الشيباني، ولذلك يقول قبله:

يـزيـدُ يَغُـضُّ الطَّـرْفَ دُونـي كَـأَنَّمـا ... زَوَى بَيْـنَ عَيْنَيْـهِ عَلَـيَّ الْمَحَـاجِـمُ

يقال: زوى ما بين عينيه فانزوى بمعنى: جمعه فاجتمع، يقول: إن يزيد ينفر مني حين يلقاني، ويتجهم لي مُقَطِّباً وجهه كأنما وضعت بين عينيه المحاجم، وما أُبالي أن يستمر غضبه عليّ وإعراضه عني وأن أكون شجاً في حلقه.

(٣) وذلك حين أدركه الغرق فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وأُجيب بقول الله سبحانه: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

(٤) جاءت هذه الجملة في إحدى النسخ بلفظ: «وحينئذ كان الغرق».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأُعلما أَن دعاءَهما صادف مقدوراً، وهذا معنى إجابة الدعاء. وقيل لهما: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أَي في أَن تستعجلا قضائي فإن وعدي لا خلف له. وقوله: ﴿دَّعۡوَتُكُمَا﴾ ولم يتقدم الدعاءُ إلا لموسى عليه السلام، وروي أَن هارون كان يُؤَمِّن على دعاءِ موسى عليه السلام، قاله محمد بن كعب القرظي، فلذلك نسب الدعوة إليهما، وقيل: كنى عن الواحد بلفظ التثنية، كما قال:

قِفَـا نَبْـكِ.............. . . . .[1]

ونحو هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف لأن الآية تتضمن بعْدُ مخاطبتهما من غير شيء، قال علي بن سليمان: قول موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ﴾ دالٌّ على أنهما دعوا معاً[2]، وقوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾ أَي على ما أُمِرْتُمَا بِهِ من الدعاءِ إلى الله. وأُمِرا بالاستقامة وهما عليها للإدامة والتمادي.

وقرأَ نافع والناس: ﴿تَتَّبِعَآنِّ﴾ بتشديد التاءِ والنون على النهي، وقرأَ ابن عامر، وابن ذكوان: [تَتْبعانِّ] بتخفيف التاءِ وشدّ النون، وقرأَ ابن ذكوان أَيضاً: [تَتَّبعانِ] بتشديد التاءِ وتخفيف النون وكسرها، وقرأَت فرقة: [تَتْبعانْ] بتخفيفها وسكون النون، رواه الأَخفش الدمشقي عن أَصحابه عن ابن عامر، فأَما شدّ النون فهي النون

---

(١) هذا أول البيت الذي افتتح به امرؤ القيس معلقته المشهورة، وفيه يقول:

قِفَـا نَبْـكِ مِـنْ ذِكْـرَى حَبِيـبٍ وَمَنْـزِلِ ... بِسِقْـطِ اللِّوَى بيْـنَ الـدَّخـولِ فَحَـوْمَـلِ

وقد خاطب الشاعر صاحبيه على عادة العرب في المخاطبة بالمثنى.

(٢) نقل أبو حيان في «البحر» أن ابن السميفع قرأ: [قَدْ أَجَبْتُ دَعْوَتَكُمَا] خبراً عن الله تعالى، وبنصب «دعوة»، وأن الربيع قرأ [دَعْوَتَيْكُمَا]، ثم قال: «وهذا يؤيد قول من قال: إن هارون دعا مع موسى. وقراءة: [دَعْوَتَيْكُمَا] تدل على أنه قرأ: [قَدْ أَجَبْتُ] على أنه فعل وفاعل». «البحر المحيط ٥ـ١٨٧».
وقال أبو الفتح في «المحتسب»: «ومن ذلك قراءة أبي عبد الرحمن: [قَدْ أُجِيبَتْ دَعَوَاتُكُمَا] وهذه جَمْع دعوة، وبهذه القراءة تعلم قراءة الجماعة: ﴿دَّعۡوَتُكُمَا﴾ يراد فيها بالواحد معنى الكثرة، وساغ ذلك لأن المصدر جنس، والأجناس يقع قليلها موقع كثيرها، وكثيرها موضع قليلها»

الثقيلة حذفت معها نون التثنية للجزم، كما تحذف معها الضمة في «التفعلنَّ» حيث بُني الفعل معها على الفتح، وإنما كسرت هذه النون الثقيلة بعد أَلف التثنية. وأَما تخفيفها فيصح أَن تكون الثقيلة خففت، ويصح أَن تكون نون التثنية ويكون الكلام خبراً معناه الأَمر، أَي: لا ينبغي أَن تتَّبعا، قال أَبو علي: إِن شئت جعلته حالاً من ﴿ فَٱسْتَقِيمَا ﴾ كأَنه قال: غير متَّبعين.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والعطف يمانع في هذا فتأَمله.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

قرأَ الحسن بن أَبي الحسن: [وَجَوَّزْنَا] بشد الواو وطرح الأَلف، ويشبه عندي أَن يكون [جاوَزْنَا] كتب في بعض المصاحف بغير أَلف. وتقدم القول في صورة جوازهم البحر في البقرة والأَعراف.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا ﴾ لأَنّه يقال: تَبِعَ وأَتبع بمعنى واحد، وقرأَ قتادة، والحسن: [فَأَتَّبَعَهُمْ] بشد التاءِ، قال أَبو حاتم: القراءَة [أَتبع] بقطع الأَلف لأَنها تتضمن الإِدراك، [واتَّبع] بشد التاءِ هي طلب الأَثر سواءٌ أَدرك أَو لم يُدرك.

وروي أَن بني إِسرائيل الذين جاوزوا البحر كانوا ستمائة أَلف، وكان يعقوب قد استقر أَولاً بمصر في نيف على السبعين أَلفاً من ذريته فتناسلوا حتى بلغوا وقت موسى العدد المذكور، ورُوي أَن فرعون كان في ثمانمائة أَلف أَدهم حاشا ما بقي من أَلوان الخيل، وروي أَقل من هذه الأَعداد.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا كله ضعيف، والذي تقتضيه أَلفاظ القرآن أَن بني إِسرائيل كان لهم جمع كثير في نفسه قليل بالإِضافة إِلى قوم فرعون المتبعين.



وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والكوفيون، وجماعة: ﴿وَعَدۡوًاۚ﴾ على مثال: غزا غَزْواً، وقرأ الحسن، وقتادة: [وعُدُوّاً] على مثال: علا عُلُوّاً. وقوله: ﴿أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ أي في البحر، وروي في ذلك أن فرعون لما انتهى إلى البحر فوجده قد انفرق ومشى فيه بنو إسرائيل قال لقومه: إنما انفلق بأمري، وكان على فرس ذكر، فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام على فرس أُنثى وديق[1] فدخل بها البحر، فولج فرس فرعون وراءَه وحثت الجيوش خلفه، فلما رأى الانفراق يثبت له استمر، وبعث الله تعالى ميكائيل يسوق الناس حتى حصل جميعهم في البحر، فانطبق عليهم حينئذ، فلما عاين فرعون قال ما حُكي عنه في هذه الآية.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنَّهُۥ﴾ بفتح الألف، ويحتمل أن تكون في موضع نصب، ويحتمل أن تكون في موضع خفض على إسقاط الباءِ. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو: [إِنَّهُ] بكسر الألف، إما على إضمار الفعل، أي: «آمنت فقلت: إنه»، وإما على أن يتم الكلام في قوله: ﴿ءَامَنتُ﴾ ثم يبتدئ إيجاب: [إِنَّهُ]، ورُوي عن النبي ﷺ أن جبريل عليه السلام قال: «ما أبغضت أحداً قط بغضي لفرعون، ولقد سمعته يقول: ﴿ءَامَنتُ﴾ الآية، فأخذت من حال البحر[2] فملأت فمه مخافة أن تلحقه رحمة الله»[3]، وفي بعض الطرق «مخافة أن يقول لا إله إلاَّ الله فتلحقه رحمة الله»[4].

(١) يريد: استسلمت للفرس الذي يركبه فرعون واستأنست به، يقال: ودَقَ إلى الشيءِ: دنا من الشيءِ وأمكنه، ووَدَقَ له الصيد، وبه: استأنَسَ، وفي المثل: «وَدَقَ العَيْر إلى الماء» أي دنا منه، يضرب لمن خضع للشيء لحرصه عليه. (المعجم الوسيط، والصحاح).

(٢) حالُ البحر: الطين الأسود الذي يكون في أرضه، قاله القرطبي نقلا عن أهل اللغة.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه «حمأة البحر»، وأخرجه الترمذي وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكذلك عنه أخرجه الطيالسيّ، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان». (الدر المنثور).

(٤) أشار أبو حيان إلى البحر في هذه الزيادة فقال: «وأما ما يضم إليه من قولهم: «خشيت أن تدركه رحمة الله» فمن زيادات الباهتين لله وملائكته، وفيها جهالتان، إحداهما: أن الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس فحال البحر لا يمنعه، والأخرى: أنَّ مَنْ كره إيمان الكافر وأَحَبَّ بقاءه على الكفر فهو كافر، لأن الرضا بالكفر كفر».



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فانظر إلى كلام فرعون ففيه مجهلة وتلعثم، ولا عذر لأَحد في جهل هذا، وإنما العذر فيما لا سبيل إلى علمه، كقول علي رضي الله عنه: «أهللت بإهلال كإهلال النبي ﷺ والحال الطين»، كذا في الغريب المصنف وغيره، والأثر بهذا كثير مختلف اللفظ والمعنى واحد. وفعل جبريل عليه السلام هذا يشبه أَن يكون لأَنه اعتقد تجويزه المغفرة للتائب وإن عاين، ولم يكن عنده قبلُ إعلام من الله تبارك وتعالى أَن التوبة بعد المعاينة غير نافعة.

وقوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ الآية، قال أَبو علي: اعلم أَن لام المعرفة إذا دخلت على كلمة أَولها الهمزة فخففت الهمزة فإن في تخفيفها وجهين، أَحدهما: أَن تحذف وتُلْقَى حركتها على اللام وتقر همزة الوصل فيه فيقال: «أَلَحْمَر»، وقد حكى ذلك سيبويه، وحكى أَبو عثمان عن أَبي الحسن أَن ناساً يقولون: «لَحْمَر»، فيحذفون الهمزة التي للوصل، فمن ذلك قول الشاعر:

وَقَدْ كُنْتَ تُخْفِي حُبَّ سَمْرَاءَ حِقْبَةً فَبُحْ لاَنَ مِنْهَا بالَّذِي أَنْتَ بَائِحُ[1]

قرأَ نافع في رواية ورش لم يختلف عنه: [آلانَ] بمد الهمزة وفتح اللام، وقرأَ الباقون بمدّ الهمزة وسكون اللام وهمز الثانية، وقرأَت فرقة: [أَلاَنَ] بقصر الهمزة وفتح اللام وتخفيف الثانية. وقرأَ جمهور الناس: [أَلآنَ] بقصر الأُولى وسكون اللام وهمز الثانية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وقراءَات التخفيف في الهمزة تترتب على ما قال أَبو علي، فتأَمله، فإن الأُولى

---

(١) البيت غير منسوب، والشاهد فيه كلمة (أَلآنَ) التي تنطق (لآنَ) على النحو الذي وضحه أبو علي الفارسي، وقد نقل ابن خالويه عن اللغويين السبب في بناء (الآن) مع أن فيه الألف واللام، قال سيبويه: (الآن) إشارة إلى وقت أنت فيه بمنزلة (هذا) والألف واللام تدخل لعهد قد تقدم، فلما دخلت هاهنا لغير عهد ترك مبنياً. وقال المبرد: معرفته وقعت قبل نكرته وليس يشركه غيره في التسمية، فتكون اللف واللام مُعَرِّفَة له، وإنما تعني به الوقت الذي أنت فيه من الزمان، فلذلك بُني. وقال الفراء: أصله أوان، فقلبت الواو ألفاً فصار (آآن) ودخلت الألف واللام على مبني فلم تغيره عن بنائه. (راجع الحجة في القراءات لابن خالويه، ومعاني القرآن للفراء).



على لغة من يقول: «الْحَمر»، وهذا على جهة التوبيخ له والإعلان بالنقمة منه، وهذا اللفظ يحتمل أن يكون مسموعاً لفرعون من قول مَلَك مُوَصِّلٍ عن الله وكيف شاءَ الله، ويحتمل أن يكون معنى هذا الكلام معنى حاله وصورة خزيه، وهذه الآية نصٌّ في ردّ توبة المُعَاين.

وقوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ الآية. يُقَوّي ما ذكرناه من أنها صورة الحال، لأن هذه الألفاظ إنما يظهر أنها قيلت بعد غرقه. وسبب هذه المقالة ـ على ما رُوي ـ أن بني إسرائيل بَعُدَ عندهم غرق فرعون وهلاكه لعظَمِهِ عندهم، وكذَّب بعضهم أن يكون فرعون يموت، فنُجِّي على نجوة من الأرض حتى رآه جميعهم ميتاً كأنه ثور أحمر، وتحققوا غرقه[1]، وقرأت فرقة: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾، وقالت فرقة: معناه: من النجاة، أي من غمرات البحر والماءِ، وقال جماعة: معناه: نلقيك على نجوة من الأرض وهي ما ارتفع منها، ومنه قول أوس بن حجر:

فَمَنْ بِعَقْوَتِهِ كمن بِنَجْوَتِهِ ... والمُسْتَكِنُّ كمَنْ يَمْشي بِقِرْوَاح[2]

وقرأ يعقوب: [نُنْجِيكَ] بسكون النون وتخفيف الجيم، وقرأ أُبي ابن كعب: [نُنَحِّيكَ] بالحاءِ المشددة من التنحية، وهي قراءَة محمد بن السميفع اليماني، ويزيد البريدي[3]. وقالت فرقة: معنى [بِبَدَنِكَ]: بدرعك[4]، وقالت فرقة: معناه

---

(١) يقال: تحَقَّقَ الأمْرُ: صَحَّ ووقع، ويقال أيضاً: تحَقَّقَ الأمْر: عرف حقيقته.

(٢) البيت منسوب في «اللسان» إلى عبيد بن الأبرص، في (عقا) وفي (قرح). والمعروف أنه لأوس، وهو من قصيدة له مشهورة يصف فيها المطر، وهي قصيدة فريدة تغنى بها الموصلي لالتحام مقاطعها، ومطلعها:

ودِّع لَمِيسَ وَداعَ الصَّارِمِ اللاَّحِي ... إذْ فَنَكَتْ في فَسَادٍ بَعْدَ إصْلاح

ورواية الديوان:

فَمَنْ بِنَجْوَتِهِ كَمَنْ بمَحْفِلِهِ ... والمُسْتَكِنُّ كَمَنْ يَمْشي بِقِرْوَاح

والعَقْوَة: الساحة وما حول الدار والمحلة، والجمع: عِقَاءٌ، والنَّجْوَة: ما ارتفع من الأرض. والمحْفِل: مستقر الماءِ ووسطه. والكِنُّ: الوقاءُ والسِّتْر، وهو أيضاً: البيت، والقِرْواحُ: الأرض البارزة للشمس. يقول: إن المطر عمَّ الأرض وغمر كل شيءٍ فمن كان في مرتفع تساوى مع من كان في محلّ مستو من الأرض، ومن كان في كِنٍّ تساوى مع من كان على ظهر الأرض بارزاً للشمس.

(٣) وفي معنى التنحية يقول الحطيئة لأمّه: (سامحه الله):

تَنَحَّيْ فاقْعُدي مِنِّي بعيداً ... أَرَاحَ اللهُ مِنْكِ العَالَمِينا

(٤) ومن معاني البَدَن في اللغة: الدرع القصيرة، أنشد أبو عبيد لعمرو بن معديكرب:

ومَضَى نِسَاؤُهُمُ بِكُلِّ مُفَاضَةٍ ... جَدْلاءَ سَابِغَةٍ وبالأبْدَانِ =

بشخصك، وقرأت فرقة: [بِندائك] أي: بقولك: ﴿ءَامَنتُ﴾ إلى آخر الآية، ويشبه أن يكتب [بنداءك] بغير ألف في بعض المصاحف، ومعنى الآية: إنا نجعلك آية مع ندائك الذي لا ينفع[1]. وقرأت فرقة: [خَلفَكَ] أي: من أتى بعدك، وقرأت فرقة: ﴿خَلْفَكَ﴾ والمعنى: يجعلك الله آية له في عباده[2].

ثم بين عزَّ وجلَّ لعباده بقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾، وهذا خبر في ضمنه توعّد.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

المعنى: لقد اخترنا لبني إسرائيل أحسن اختيار، وأحللناهم من الأماكن أحسن محل و﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: يصدق فيه ظن قاصده وساكنِهِ وأهله، ويعني بهذه الآية إحلالهم بلاد الشام وبيت المقدس. قاله قتادة، وابن زيد، وقيل: بلاد مصر والشام، قاله الضحاك، والأول أصح بحسب ما حفظ من أنهم لن يعودوا إلى مصر، على أن في القرآن: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[3]، يعني ما ترك القبط من جنات وعيون وغير ذلك، وقد يحتمل أن يكون ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ معناه: الحالة من النِّعمة وإنْ لم يكن في قطر واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: فما اختلفوا

= المُفَاضة: الدرع الواسعة، والجدلاءُ: المحكمة النسج، والأبدان: الدروع القصيرة.

(١) قال القرطبي: «هذه القراءة مرغوب عنها لشذوذها وخلافها ما عليه عامة المسلمين، والقراءة سُنّة يأخذها آخر عن أول، وفي معناها نقص عن تأويل قراءتنا».

(٢) معنى قراءة ﴿خَلْفَكَ﴾ بسكون اللام: أي لبني إسرائيل ولمن بقي من قوم فرعون ممن لم يدركه الغرق ولم يبلغه الخبر. ومعنى قراءة فتح اللام: أي لمن يخلفك في أرضك، وربما كانت عبارة ابن عطية لا توضح الفرق بالدقة المطلوبة.

(٣) من الآية (٥٩) من سورة (الشعراء).



في نبوة محمد ﷺ حتى جاءَهم وبان علمُه وأَمْرُه ، فاختلفوا حينئذ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا التخصيص هو الذي وقع في كتب المتأَولين ، وهذا تأْويل يحتاج إِلى سند . والتأْويل الآخر الذي يحتمله اللفظ : أَن بني إِسرائيل لم يكن لهم اختلاف على موسى عليه السلام في أَول حاله ، فلما جاءَهم العلم والأَوامر وغرق فرعون اختلفوا .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فمعنى الآية مذمة ذلك الصدر من بني إِسرائيل . ثم أَوجب الله عزَّ وجلَّ بعد ذلك أَنه يقضي بينهم ويفصل بعقاب من يعاقب ورحمة من يرحم .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ ﴾ الآية . قال بعض المتأَولين ـ ورُوي ذلك عن الحسن ـ إِنَّ ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى (ما) ، والجمهور على أَنَّ ﴿إِنْ﴾ شرطية . والصواب في معنى الآية أَنها مخاطبة للنبي ﷺ ، والمراد بها سواه من كل من يمكن أَن يشك أَو يعارض . وقال قوم : الكلام بمنزلة قولك : «إِن كنت ابني فبرَّني»(١) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وليس هذا المثال بجيد ، وإِنما مثال هذا قوله تعالى لعيسى : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى ﴾(٢) ، وروي أَن رجلاً سأَل ابن عباس رضي الله عنهما عما يحيك في الصدر من الشك فقال له : ما نجا من ذلك أَحد ولا النبي ﷺ حتى أُنزل عليه : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذكر الزهراوي أَن هذه المقالة أَنكرت أَن يقولها ابن عباس ، وبذلك أَقول ، لأَن

---

(١) قال أبو حيان : «إن الشرطية تقتضي تعليق شيء على شيء ، ولا تستلزم تحقق وقوعه ولا إمكانه ، بل قد يكون ذلك في المستحيل عقلا ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ (الزخرف ٨١) ، ومستحيل أن يكون له ولد ، وكذلك مستحيل أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام في شك ، وقد يكون في المستحيل عادة كقوله تعالى : ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ أي فافعل ، ولكن وقوع (إن) للتعليق على المستحيل قليل ، وهذه الآية من ذلك ، ولما خَفِي هذا الوجه على أكثر الناس اختلفوا في تخريج هذه الآية» .

(٢) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة) .



الخواطر لا ينجو منها أَحد، وهي خلاف الشك الذي يجال فيه على الاستشفاءِ بالسؤال. و﴿ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ هم من أَسلم من بني إِسرائيل كعبد الله بن سلام، وروي أَن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «أَنا لا أَشك ولا أَسأَل»(١).

وقرأَ [فَسَلْ] دون همز الحسنُ، وأَبو جعفر، وأَهل المدينة، وأَبو عمرو، وعيسى، وعاصم، وقرأَ جمهور عظيم بالهمز. ثم جزم الله تبارك وتعالى الخبر بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾. واللام في ﴿لَقَدْ﴾ لام القسم، و﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ معناه: الشَّاكِّين الذين يحتاجون في اعتقادهم إِلى المماراة فيها، وقوله: ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يريد به: من أَن بني إِسرائيل لم يختلفوا في أَمره إِلاَّ مِن بعد مجيئه، وهذا قول أَهل التأْويل قاطبة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا هو الذي يشبه أَن ترتجى إِزالة الشك فيه من قبل أَهل الكتاب. ويحتمل اللفظ أَن يريد: بما أَنزلنا جميع الشرع، ولكنه بعيد بالمعنى لأَن ذلك لا يعرف ويزول الشك فيه إِلا بأَدلة العقل لا بالسماع من مؤمني بني إِسرائيل. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ الآية، مما خوطب به النبي ﷺ والمراد سواه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولهذا فائدة ليست في مخاطبة الناس به، وذلك شِدَّة التخويف، لأَنه إِذا كان رسول الله ﷺ يحذر من مثل هذا فغيرُه من الناس أَولى أَن يحذر ويتقي على نفسه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق، وابن جرير عن قتادة بدون كلمة (أنا)، وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياءُ في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ والعبارة فيه على لسان ابن عباس لا من كلام الرسول ﷺ. (الدر المنثور).



جاءَ هذا تحذيراً مُرَدَّداً وإعلاماً بسوءِ حال المحتوم عليهم ، والمعنى: إن الله أَوجب لهم سخطه في الأزل وخلقهم لعذابه ، فلايؤمنون ولو جاءَهم كل بيان وكل وضوح إلا في الوقت الذي لا ينفعهم فيه إيمان ، كما صنع فرعون وأشباهه من الخلق ، وذلك وقت المعاينة ، وفي ضمن الألفاظ التحذير من هذه الحال ، وبعث الكل على المبادرة إلى الإيمان ، والفرار من سخط الله.

وقرأ أَبو عمرو ، وعاصم ، والحسن ، وأَبو رجاءٍ: [كَلِمَة] بالإفراد. وقرأ نافع ، وأَهل المدينة: [كَلِمَات] بالجمع. وقد تقدم ذكر هذه الترجمة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ الآية. في مصحف أُبيّ ، وابن مسعود: [فَهَلاَّ] ، والمعنى فيهما واحد. وأَصل (لولا) في الكلام التحضيض أَو الدلالة على منع أَمر لوجود غيره ، فأَما هذه فبعيدة عن هذه الآية ، لكنها من جملة التي هي للتحضيض ، وحقيقة التحضيض بها أَن يكون المحضِّض يريد من المخاطب فعل ذلك الشيءِ الذي يحضه عليه. وقد تجيءُ (لولا) وليس من قصد المخاطب أَن يحضّ المخاطب على فعل ذلك الشيءِ فيكون حينئذ المعنى توبيخاً ، كقول جرير:

. . . . لَـــوْلاَ الكَمِـــيَّ المقنَّعَـــا[(١)]

وذلك أَنه لم يقصد حضَّهم على عقر الكميّ ، كقولك لرجل قد وقع في أَمر صعب: «لولا تحرَّزْتَ» ، وهذه الآية من هذا القبيل.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ومفهوم من معنى الآية نفيُ إيمان أَهل القُرى ، ومعنى الآية: فَهَلاَّ آمن أَهل القرية

(١) هذا جزءٌ من آخر بيت قاله جرير ضمن قصيدة يجيب بها الفرزدق ، وهي من النقائض يقول في مطلعها:

أَقَمْنَـــا ورَبَّتْنَـــا الـــدِّيَـــارُ ولا أرى ... كَمَـــرْبَعِنَـــا بَيْـــنَ الْحِنيَّيْـــن مَـــرْبَعَـــا

والبيت بتمامه كما جاء في الديوان (دار المعارف ٢ـ٩٠٧):

تَعُـــدُّون عَقْـــرَ النِّيـــبِ أفضَـــلَ سَعْيِكُـــمْ ... بَنِـــي ضَـــوْطَـــرَى هَـــلاَّ الكَمِـــيَّ المُقَنَّعَـــا

ويروى: «أفضل مجدكم» و«لَوْلا الكَميّ». والنِّيب: جمع أنْيَب ، وهو الذي غلُظ نابه لأنه كبر وصار ضخماً «من الأبل» ، والكَمِيُّ: الشُّجاع المقدام الجريءُ ، كان عليه سلاح أو لم يكن ، والمقنّع: الذي لبس القناع في الحرب استعداداً لها. والمعنى فعلا فيه توبيخ لأنهم يعدون ذبح الإبل الضخمة غاية مجدهم وفضلهم ، ويقول لهم: هلا تحدثتم عن الشجاعة وعددتم الشجعان منكم؟



وهم على مهل لم يلتبس العذاب بهم فيكون الإيمان نافعاً لهم في هذه الحالة، ثم استثنى قوم يونس عليه السلام، فهو بحسب اللفظ استثناءٌ منقطع، وكذلك رسمه النحويون أَجمع، وهو بحسب المعنى متصل لأَن تقديره: ما آمن مِنْ أَهل قرية إلا قوم يونس عليه السلام، والنصب في قوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ﴾ هو الوجْهُ، ولذلك أَدخله سيبويه في باب «مالا يكون فيه إلا النصب»، وكذلك مع انقطاع الاستثناء، ويشبه الآية قول النابغة:

إلا الأَوارِيَّ . . . .[1]

وذلك هو حكم لفظ الآية. وقالت فرقة: يجوز فيه الرفع وهذا مع اتصال الاستثناءِ[2]، وقال المهدوي: والرفع على البدل من ﴿قَرْيَةٌ﴾.

ورُوي في قصة يونس عليه السلام أَن القوم لما كفروا أَوحى الله إِليه أَن أَنذرهم بالعذاب لثلاثة، ففعل فقالوا: هو رجل لا يكذب فارقبوه، فإِن أَقام بين أَظهُركم فلا عليكم، وإِن ارتحل فهو نزول العذاب لاشك، فلما كان الليل تزود يونس عليه السلام وخرج عنهم، فأَصبحوا فلم يجدوه، فتابوا ودعوا الله وآمنوا ولبسوا الْمُسُوح وفرّقوا بين الأُمّهات والأَولاد من الناس والبهائم، والعذاب منهم ـ فيما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ على ثلثي ميل. وروي على ميل، وقال ابن جبير: غشيهم

(١) هذا أول البيت الثالث من الدالية التي قالها النابغة يمدح النعمان ويعتذر إليه، وفيها يقول:

يـا دارَ مَيَّـةَ بـالعَلْيـاءِ فـالسَّنَـدِ ... أقـوَتْ وطـالَ عَلَيْهَـا سَـالِـفُ الأبَـدِ
وقَفْـتُ فيهـا أصَيـلانـاً أُسَـائِلُهَـا ... عَيَّتْ جَـوَابـاً ومَـا الـرَّبْـعِ مِـنْ أحَـدِ
إلا الأوَارِيَّ لأيـاً مَـا أُبَيِّنُهَـا ... والنُّؤْيَ كـالحَـوْضِ بـالمَظْلُـومَـةِ الجَلَـدِ

والأوَارِيّ مستثنى منصوب لأنه من غير جنس السابق وهو (أحد)، والأوَارِي: جمع أريّ وهو عود أعْلاه معوج يُدَق لتشدّ فيه حبال الخيمة، ولأياً: تعباً وبُطْئاً، و(ما) زائدة للتوكيد، أي لَا أُبيِّنها لعيني إلا بيانا تعبا. والنُّؤي: الحفير الذي يحيط بالخيمة ليمنع ماء المطر، والباءُ للظرفية، والمظلومة: صفة لموصوف محذوف تقديره: بالأرض المظلومة وهي اليابسة التي انحبس عنها المطر، والجَلَد: الصلبة اليابسة التي يصعب فيها الحفر. والنؤيَ بالنصب معطوفة على الأواري. يقول: لا أرى بالدار من أحد إلا هذه الأوتاد التي لا أكاد أتبينها تحت التراب، وهذا النؤي الجاف الذي يشبه الحوض في الأرض الجافة الصلبة.

(٢) قال الزجاج: ويكون المعنى: غير قوم يونس، فلما جاء بإلاَّ أعرب الاسم الذي بعدها بإعراب (غير) كما قال:

وكُـلُّ أخ مُفَـارِقُـهُ أخـوهُ ... لعَمْـرُ أبيـكَ إلا الفَـرْقَـدَانِ



العذاب كما يغشى الثوب القبر، فرفع الله عنهم العذاب، فلما مضت الثلاثة وعلم يونس عليه السلام أن العذاب لم ينزل قال: كيف أتصرف وقد وجدوني في كذب؟ فذهب مغاضباً كما ذكر الله تعالى في هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وذهب الطبري إلى أن قوم يونس عليه السلام خُصُّوا من بين الأُمم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب، ذكر ذلك عن جماعة من المفسرين، وليس كذلك، والمعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي تلبس العذاب أو الموت بشخص الإنسان كقصة فرعون. وأما قوم يونس عليه السلام فلم يصلوا هذا الحدّ.

وقرأ الحسن، وطلحة بن مصرف، وعيسى بن عمر، وابن وثاب، والأعمش: [يُونِس] بكسر النون، وفيه للعرب ثلاث لغات: ضم النون وفتحها وكسرها، وكذلك في [يوسف]. وقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يريد: إلى آجالهم المفروضة في الأزل.

وروي أن قوم يونس عليه السلام كانوا بِنِينَوَى من أرض الموصل، ويقتضي ذلك قول النبي ﷺ لِعَدّاس حين قال له إنه من أهل نينوى: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى؟» الحديث الذي في السيرة لابن إسحق.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

المعنى: إن هذا الذي تقدم إنما كان جميعه بقضاء الله عليهم ومشيئته فيهم، ولو شاءَ الله لكان الجميع مؤمناً، فلا تأسف أنت يا محمد على كفر من لم يؤمن بك، وادع ولا عليك، فالأمر محتوم، أفتريد أنت أن تُكْرِه الناس بإدخال الإيمان في قلوبهم وتضطرهم إلى ذلك والله عزَّ وجلَّ قد شاءَ غيره؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فهذا التأويلُ الآية عليه محكمة، أي: ادع وقاتل من خالفك، وإيمانُ من آمن مصروف إلى المشيئة.



وقالت فرقة: المعنى: أَفأنت تكره الناس بالقتال حتى يدخلوا في الإيمان؟ وزعمت أَن هذه الآية في صدر الإسلام وأَنها منسوخة بآية السيف، والآية ـ على كلا التأويلين ـ رادَّة على المعتزلة[1]. وقوله تعالى: ﴿كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ تأكيد وهو من فصيح الكلام، و﴿جَمِيعًا﴾ حال مؤكدة، ونحوه قوله سبحانه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية. ردّ إلى الله تعالى، وأَن الحول والقوة في إيمان من يؤمن لله، وكون الرجس على الكفار. وقرأ عاصم في رواية أَبي بكر: [وَنَجْعَلُ الرِّجْسَ] بنون العظمة، وقرأ الباقون، وحفص عن عاصم: ﴿وَيَجْعَلُ﴾ بالياءِ، وقرأ الأعمش: [ويجْعَلُ اللهُ الرجْسَ]، والرِّجْس يكون بمعنى العذاب كالرجز، ويكون في معنى القذر والنجاسة كالركْس، ذكره أَبو علي هنا وغيره، وهو في هذه الآية بمعنى العذاب، و﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ يريد: آياتِ الله وحجج الشرع، ومعنى الإذن في هذه الآية: الإرادةُ والتقديرُ لذلك، فهو العلم والتمكين.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذه الآية أَمْرٌ للكفار بالاعتبار والنظر في المصنوعات الدالة على الصانع وغير ذلك من آيات السموات وأَفلاكها وكواكبها وسحابها ونحو ذلك، والأَرض ونباتها ومعادنها وغير ذلك، المعنى: انظروا في ذلك بالواجب يُنَبِّهكم إلى المعرفة بالله والإيمان بوحدانيته. وقرأ أَبو عبد الرحمن والعامّةُ بالبصرة: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟﴾ بكسر اللام، وقرأ نافع وأَهل المدينة: [قُلُ انظُرُوا] بضم اللام. ثم أَعلَم في آخر الآية أَن النظر في الآيات والسماع من «النُّذر» وهم الأَنبياءُ لا يُغني إلا بمشيئة الله، وأَن ذلك غير نافع لقوم قد قضى الله أَنهم لا يؤمنون، وهذا على أَن تكون ﴿مَا﴾ نافية، ويجوز أَن تُعَدّ استفهاماً على جهة التقرير الذي ضمنه نفْيُ وقوع الغَناءِ، وفي الآية ـ على هذا ـ توبيخ لحاضري رسول الله ﷺ من المشركين، وقوله: ﴿ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ حصر طريقي تعريف الله تعالى عباده. ويحتمل أَن تكون ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا تُغْنِى﴾ مفعولة بقوله: ﴿ٱنظُرُوا۟﴾ معطوفة على قوله: ﴿مَاذَا﴾، أَي: تأَمَّلُوا قدر غَناءِ الآيات والنذر عن الكفار إِذ قبلوا ذلك كفعل قوم يونس عليه السلام فإنه يرفع العذاب في الدنيا والآخرة، ويُنَجِّي من

---

(١) الذين يقولون: «إن الله لا يريد الشَّر». ذلك لأنها أثبتت مشيئة الإيمان والكفر لله سبحانه وتعالى.

(٢) من الآية (٥١) من سورة (النحل).



الهلكات. فالآية ـ على هذا ـ تحريض على الإيمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتجوز اللفظ ـ على هذا التأويل ـ إنما هو في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

هذا وعيد وحضٌ على الإيمان، أي: إذا لجوا في الكفر حلَّ بهم العذاب، وإذا آمنوا نجوا، هذه سنة الله في الأمم الخالية، فهل عند هؤلاءِ غير ذلك؟ وهو استفهام بمعنى التوقيف.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا﴾ مهادنة مّا، وهي من جملة ما نسخه القتال.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ الآية. لما كان العذاب لم تحصر مدته وكان النبي والمؤمنون بين أظهر الكفرة وقع التصريح بأَن عادة الله عزَّ وجلَّ سلَفَت بإِنجاءِ رسله ومُتَّبعيهم، فالتخويف ـ على هذا ـ أشد، وكلُّهم قرأ: ﴿نُنَجِّي﴾ مشددة الجيم إلا الكسائي وحفصاً عن عاصم فإِنهما قرآ: [نُنْجِي] بسكون النون وتخفيف الجيم، وقرأ عاصم في سورة الأنبياءِ في بعض ما روي عنه: [نُجِّي] بضم النون وحذف الثانية وشد الجيم، كأَن النون أُدغمت فيها، وهي قراءَة لا وجه لها، ذكر ذلك الزجاج[1]،

(١) الآية المقصودة من سورة الأنبياء هي قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. ومع أن ابن عطية نقل عن الزجاج أن هذه القراءة لا وجه لها فقد قال ابن خالويه في كتاب «الحجة»: «ولعاصم في قراءته وجه من النحو، لأنه جعل [نُجِّي] فِعْلَ مالم يُسَمّ فاعله، وأرسل الياءَ بغير حركة، لأن الحركة لا تدخل عليها في الرفع، وهي ساقطة في الجزم إذا دخلت في المضارع، وأضمر مكان المفعول الأول المصدر لدلالة الفعل عليه، ومنه قولهم: «من كذب كان شرّاً له»، يريدون: كان الكذب، فلما دلّ (كَذَبَ) عليه حذف، فكأنه هنا قال: «وكذلكَ نُجِّي النجاءُ المؤمنين»، وأنشد شاهداً لذلك:

وَلَوْ وَلَدَتْ قُفَيْرَةُ جَرْوَ كَلْبٍ ... لَسُبَّ بذلك الجِرْوِ الكلابا =



وحكى أبو حاتم نحوها عن الأعمش، وخط المصحف في هذه اللفظة [نُنجِ] بجيم مطلقة دون ياءٍ، وكذلك قرأ الكسائي في سورة مريم: [ثُمَّ نُنْجي الَّذِينَ اتَّقَوا] بسكون النون وتخفيف الجيم، والباقون بفتح النون وشدّ الجيم والكاف في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يصح أن تكون في موضع رفع، ويصح أن تكون في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الآية. مخاطبة عامة للناس أجمعين إلى يوم القيامة، يدخل تحتها كل من اتصف بالشك في دين الإسلام، وهذه الآية يتسق معناها بمحذوفات يدل عليها هذا الظاهر الوجيز، والمعنى: إنْ كنتم في شك من ديني فأنتم لا تعبدون الله، كذلك فليس هو بأهل أن يُشك فيه، وإنما يُشَكُّ في دينكم ويُرفض، وأما لا أعبد أحداً غيره، فاقتضت فصاحة الكلام وإيجازه اختصار هذا كله، ثم صرّح بمعبوده وخصّ من أوصافه ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ لما فيها من التذكير بالموت وفزع النفوس به، والمصير إلى الله بعده، والنقد للأصنام التي كانوا يعتقدونها ضارة ونافعة.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾.

المعنى: قيل لي: كن من المؤمنين وأقم وجهك للدين، ثم جاءَت العبارة بهذا الترتيب، والوَجْهُ في هذه الآية بمعنى المنْحَى والمقصد، أي: اجعل طريقك واعتمادك للدين والشرع، و﴿حَنِيفًا﴾ معناه: مستقيماً على قول من قال: الحنف: الاستقامة، وجعل تسمية المعوج القدم أحنف على وجه التفاؤل، ومن قال: «الحنف: الميل» جعل ﴿حَنِيفًا﴾ ها هنا: مائلا عن حال الكفرة وطريقهم. و﴿حَنِيفًا﴾ نصب على الحال. وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ معناه: قيل لي، ولا تدع، فهو عطف على ﴿أَقِمْ﴾، وهذا الأمر والمخاطبة للنبي ﷺ إذا كانت هكذا فأحرى أن يتحرز من ذلك

= قال في «الخزانة»: «وقفيرة: اسم أم الفرزدق، والجَرو: مثلث الجيم، والبيت لجرير» والشاهد في البيت كما جاءَ في «الدُّرر اللوامع»: نيابة غير المفعول به مع وجوده، فـ(بذلك) جار ومجرور وناب عن فاعل (سُبَّ) مع وجود المفعول وهو الكلاب».



غيره ، «ما لا ينفع ولا يضر» هو الأصنام والأوثان ، والظالم: الذي يضع الشيءَ في غير موضعه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآية. مقصد هذه الآية أن الحول والقوة لله. ويبين ذلك للناس بما يحسونه من أنفسهم. والضُّر لفظ جامع لكل ما يكرهه الإنسان كان ذلك في ماله أو في بدنه ، وهذه الآية مظهرة فساد حال الأصنام ، لكن كل مُمَيِّزٍ أدنى ميز يعرف يقيناً أنها لا تكشف ضراً ولا تجلب نفعاً.

وقوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ لفظ تام العموم[١] ، وخصص النبي ﷺ الفقه بالذكر في قوله: «مَنْ يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[٢] ، وهذا على جهة التشريف للفقه. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ترجية وبسط ووعد مّا.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

هذه مخاطبة لجميع الكفار مستمرة مدى الدهر ، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ هو القرآن والشرع الذي جاءَ به محمد ﷺ[٣] ، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أَي: اتبع الحق وأَذْعَن له فإنما يسعى لنفسه لأنه يوجب لها رحمة الله ويدفع عذابه ، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي حادَ عن طريق الحق ولم ينظر بعين الحقيقة ، وكفر بالله عزَّ وجلَّ فبِضِدّ ذلك. وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أَي:

---

(١) أَتَى في (الضُّر) بلفظ (المَسّ) وفي الخير بلفظ (الإرادة) ، وطابق بين الخير والضر مطابقة معنوية لا لفظية ، لأن مقابل الضُّر النفعُ ، ومقابل الخير الشرُّ ، فجاءت لفظة الضرّ ألطف وأخص من لفظة الشرّ ، وجاءت لفظة الخير أَتَمّ من لفظة النفع ، ولفظة المسّ أوجز من لفظة الإرادة وأَنَصّ على الإصابة وأنسب لقوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ ، ولفظة الإرادة أدل على الحصول في وقت الخطاب وفي غيره ، وأنسب للفظ الخير ، قاله في البحر.

(٢) رواه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم عن معاوية ، ورواه الإمام أحمد ، والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة ، ورواه أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود بلفظ: «مَنْ يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويُلْهمه رشده» ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث حسن.

(٣) وقيل: الحقُّ هو الرسول الله ﷺ.



لست بآخذكم ولابُدّ بالإيمان، وإنما أنا مبلغ، وهذه الآية منسوخة بالقتال(١).

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ الآية. معناه: اتَّبع ما رسمه لك شرعك، وما أَعلمك الله به من نُصْرَته لك، واصبر على شقاءِ الرسالة وما ينالك في الله من الأذى. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ وعدٌ للنبي ﷺ بأَن يغلبهم ـ كما وقع ـ تقتضيه قوة اللفظ. وهذا الصبر منسوخ بالقتال. وهذه السورة مكيّة، وقد تقدم ذكْر هذا في أَولها(٢).

انتهى تفسير سورة يونس بعون الله وتوفيقه

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(١) وذهب بعض العلماء إلى أن الآية محكمة غير منسوخة، وكذلك الآية التي بعدها، وحملوا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ على أنه ليس بحفيظ على أعمالهم ليجازيهم عليها، بل ذلك لله، وكذلك حملوا قوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على الصبر على طاعة الله وحَمْل أثقال النبوة وأداءِ الرسالة، وعلى هذا لا تعارض بين الآيتين وبين آية السيف. قال أبو حيان في البحر: «وإلى هذا مال المحققون».

(٢) روي أنه لما نزلت: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ جمع رسول الله ﷺ الأنصار فقال: «إنكم ستجدون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني».



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة هود عليه السلام(١)

هذه السورة مكية إلاَّ قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ونزلت في ابن سلام وأصحابه، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية(٢)، نزلت في شأن الثمار. وهذه الثلاث مدنية، قاله مقاتل(٣)، عَلَى أَنَّ الأُولى تشبه المكي.

وإذا أَردت بـ(هود) اسم السورة لم ينصرف، كما تفعل إذا سميت امرأَةً بـ(عمرو) و(زيْد)، وإذا أَردت سورة (هود) صرفت(٤).

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾.

تقدم استيعاب القول في الحروف المقطعة في أَوائل السور، وتختص هذه بأَن قيل: إن (الرَّحْمن) فرقت حروفه فيها، وفي ﴿حمٓ﴾ وفي ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ﴾.

---

(١) أسند أبو محمد الدارمي في مسنده وأبو داود في مراسيله، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا سورة هود يوم الجمعة»، وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شِبْتَ! قال: «شَيَّبَتْني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت»، قال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) الآية الأولى رقمها (١٢)، والثانية رقمها (١٧)، والثالثة رقمها (١١٤) من السورة.

(٣) وعن ابن عباس، والحسن، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وجابر بن زيد أن هذه السورة مكيّة كلها.

(٤) عيسى بن عمر يقول: «هذه هودٌ» بالتنوين على أنه اسم للسورة، وكذا إن سميتَ امرأة بـ(زيد)، لأنه لما سكن وسطه خفّ فصرف.



و﴿ كِتَٰبٌ ﴾ مرتفع على خبر الابتداءِ ، فمن قال: «الحروف إشارة إلى حروف المعجم» كانت الحروف المبتدأَ ، ومن تأول الحروف غير ذلك كان المبتدأَ: هذا كتاب ، والمراد بالكتاب القرآن.

و﴿ أُحۡكِمَتۡ ﴾ معناه: أُتقنت وأُجيدت شبه ما تحكم من الأُمور المتقنة الكاملة ، وبهذه الصفة كان القرآن في الأزل ، ثم فصل بتقطيعه وتبيين أَحكامه وأوامره على محمد ﷺ في أَزمنة مختلفة ، فـ﴿ ثُمَّ ﴾ على بابها ، وهذه طريقة الإحكام والتفصيل ، إذ الإحكام صفة ذاتية ، والتفصيل إنما هو بحسب من يُفصَّل له ، والكتاب بأَجمعه مُحْكم ومُفْصل ، والإحكام الذي هو ضد النسخ والتفصيلُ الذي هو خلاف الإجمال إنما يقالان مع ما ذكرناه باشتراك. وحكى الطبري عن بعض المتأَولين: أُحْكمت بالأَمر والنهي ، وفُصِّلت بالثواب والعقاب ، وعن بعضهم: أُحكمت من الباطل ، وفصلت بالحلال والحرام ، ونحو هذا من التخصيص الذي هو صحيح المعنى ولكن لا يقتضيه اللفظ. وقال قوم: ﴿ فُصِّلَتۡ ﴾ معناه: فُسّرت. وقرأ عكرمة ، والضحاك ، والجحدري ، وابن كثير فيما روي عنه: [ثُمَّ فَصَلَت] بفتح الفاءِ والصاد واللام ، ويحتمل ذلك معنيين ، أَحدهما: فَصَلَتْ أَي: نزلت إلى الناس ، كما تقول: «فَصَلَ فلان» لسفره ونحو هذا من المعنى ، والثاني: فَصَلَت بين المُحِقِّ والمُبْطِل من الناس.

و﴿ مِن لَّدُنۡ ﴾ معناها: من حيث ابتدئت الغاية ، كذا قال سيبويه ، وفيها لغات. يقال: [لَدْن] ، و[لُدْن] بسكون الدال ، وقرئ بهما ﴿ مِن لَّدُنۡ ﴾ ، ويقال: [لَدُ] بفتح اللام وضم الدال دون نون ، يقال: [لَدىً] بدال منونة مقصورة ، ويقال: [لَدٍ] بدال مكسورة منونة. حكى ذلك أَبو عبيدة.

و﴿ حَكِيمٍ ﴾ أَي: مُحْكِم ، و﴿ خَبِيرٍ ﴾ أَي: ذو خبرة بالأُمور أَجمع.

﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ ﴾ ، ﴿ أَن ﴾ في موضع نصب ، إما على إضمار فعل ، وإمَّا على تقدير: «بأَنْ» وإسقاط الخافض ، وقيل: على البدل من موضع «الآيات» ، وهذا معترض ضعيف لأَنه لا موضع للآيات ، وإن نظر موضوع الجملة فهو رفع ، ويحتمل أَن تكون في موضع رفع على تقدير: «تفصيله أَلا تعبدوا» ، وقيل: على البدل من لفظ «الآيات».



وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي: من عقابه وبثوابه، وإذا أُطلقت هاتان اللفظتان فالنذارة في المكروه والبشارة في المحبوب، وقدم «النذير» لأن التحذير من النار هو الأهم، و﴿أَنْ﴾ معطوفة على التي قبلها، ومعنى الآية: استغفروا ربكم، أَي: اطلبوا مغفرته لكم وذلك بطلب دخولكم في الإسلام، ثم توبوا من الكفر، أي: انسلخوا منه واندموا على سالفه، و﴿ثُمَّ﴾ مرتبة لأن الكافر أول ما ينيب فإنه في طلب مغفرة ربه، فإذا تاب وتجرد من الكفر تمَّ إيمانه. وقرأ الجمهور ﴿يُمَتِّعْكُم﴾ بشد التاءِ، وقرأ ابن محيصن: [يُمْتِعْكُمْ] بسكون الميم وتخفيف التاءِ. وفي كتاب أَبي حاتم: «إن هذه القراءَات بالنون»، وفي هذا نظر. و﴿مَّتَٰعًا﴾ مصدرٌ جارٍ على غير الفعل المتقدم مثل: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾(١)، وقيل: نصب بتعدي ﴿يُمَتِّعْكُم﴾ لأنك تقول: متَّعتُ زيداً ثوباً. ووَصْف المتاع بالحُسْن إنما هو لطيب عيش المؤمن برجائه في الله عزَّ وجلَّ وفي ثوابه، وفرحه بالتقرب إليه بمفترضاته، والسرور بمواعيده، والكافرُ ليس في شيءٍ من هذا. وأَما من قال بأَن المتاع الحسن هو فوائد الدنيا وزينتها، فيضعف بأَن الكفرة يشاركون في ذلك أَعظم مشاركة. والأَجل المسمّى هو أَجل الموت، معناه: إِلى أَجل مسمّى لكل واحد منكم، وهذا ظاهر الآية، والأَجل الكبير ـ على هذا ـ هو يوم القيامة. وتحتمل الآية أَن يكون التوعد بتعجيل العذاب إن كفروا، والوعد بتمتيعهم إن آمنوا، فتشبه ما قاله نوح عليه السلام، واليوم الكبير ـ على هذا ـ كيوم بدر ونحوه، والمجهلة ـ في أَي الأَمرين يكون ـ إنما هي بحسب البشر، والأَمر عند الله تعالى معلوم مُحَصّل، والأَجل واحد.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أي كل ذي إِحسان بقوله أَو بفعله أَو بقوّته أَو بماله أَو غير ذلك مما يمكن أَن يتقرب به، و﴿فَضْلَهُۥ﴾ يحتمل أَن يعود الضمير فيه على ﴿ذِى﴾ أَي: ثواب فضله وجزاءَه. ويحتمل أَن يعود الضمير فيه على الله عزَّ وجلَّ، أَي: يؤتي الله فضْلَه كلَّ ذي فضل وعمل صالح من المؤمنين، ونحو هذا المعنى ما وعد به الله تبارك وتعالى من تضعيف الحسنة بعشر أَمثالها، ومن التضعيف الغير محصور(٢) لمن شاءَ. وهذا التأويل تأَوله ابن مسعود وقال: «ويلٌ لمن غلبت

(١) الآية (١٧) من سورة (نوح).
(٢) الأصح أن يقال: غير المحصور.



آحاده عشراته» ، ويحتمل أن يكون قول ابن مسعود موافقاً للمعنى الأول[١].

وقرأ الجمهور: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ بفتح التاءِ واللام ، فبعضهم قال: معناه: الغيبة ، أي: فقل لهم: إني أخاف عليكم ، وقال بعضهم: معناه: [فإِن تَتَولّوا] فحذفت التاءُ ، والآية كلها على مخاطبة الحاضر ، وقرأ اليماني ، وعيسى بن عمر: [وَإِنْ تُوَلُّوَا] بضم التاءِ واللام وفتح الواو[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ توعُّد بيوم القيامة ، ويحتمل أن يريد به يوماً من الدنيا كبدر وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ توعُّد ، وهو يؤيد أن اليوم الكبير يوم القيامة لأنه توعَّد به ، ثم ذكر الطريق إليه من الرجوع إلى الله. والمعنى: إلى عقابه وجزائه رجوعُكُم ، وهو القادر الذي لا يضره شيءٌ ، ولا يجير عليه مجير ، ولا تنفع من قضائه واقية. وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ عموم يراد به الخصوص ، دون مالا يوصف الله بالقدرة عليه من المحالات وغيرها التي هي أشياءٌ. والشيءُ في اللغة: الموجود ، وما يتحقق أنه يوجد كزلزلة الساعة وغيرها.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾.

قيل: إن هذه الآية نزلت في الكفار الذين كانوا إذا لقيهم رسول الله ﷺ تطامنوا وثَنَوْا صدورهم كالمستتر[٣] ، وردُّوا إليه ظهورهم ، وغشوا وجوههم بثيابهم تباعداً

---

(١) نصُّ كلام ابن مسعود كما رواه الطبري هو: «قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات ، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات ، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات» ، ثم يقول: «هلك من غلب آحاده أعشاره».

(٢) قال أبو حيان في «البحر»: «وفي كتاب «اللوامع»: اليماني وعيسى: [وَإِنْ تُوَلُّوا] بثلاث ضمات مرتباً للمفعول به ، وهو ضد التبرِّي ، وقرأ الأعرج بضم التاءِ واللام وسكون الواو مضارع (أولى)».

(٣) ثَنَى الشيء ثنياً: عَطَفَه وردَّ بعضه على بعض ، ويقال: ثنى صدره على كذا: طواهُ عليه وستره. (المعجم الوسيط).



منه وكراهة للقائه، وهم يظنون أن ذلك يخفى عليه وعلى الله عزَّ وجلَّ، فنزلت الآية في ذلك. و﴿صُدُورَهُمْ﴾ منصوبة ـ على هذا ـ بـ﴿يَثْنُونَ﴾.

وقيل: هي استعارة للغل والحقد الذي كانوا ينطوون عليه، كما تقول: «فلان يطوي كشحه على عداوته ويثني صدره عليها». فمعنى الآية: ألا إنهم يُسرون العداوة ويتكتمون بها لتخفى ـ في ظنهم ـ عن الله، وهو تعالى ـ حين تغشاهم وإبلاغهم في التَّستُّر ـ يعلم ما يُسرون.

وقرأ سعيد بن جبير: [يُثْنُونَ] بضم الياءِ والنون، من أَثْنى. وقرأ ابن عباس: [لَيَثْنون]، وقرأ ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وابن يَعْمَر[1]، وابن أبزى، ونصر بن عاصم، والجحدري، وابن إسحق، وأبو رزين[2]، وعليّ بن الحسين، وأبو جعفر محمد بن عليّ، ويزيد بن عليّ، وجعفر بن محمد، وأبو الأسود[3]، والضحاك: [تَثْنَوْني صُدُورُهُمْ] برفع الصدور، وهي تحتمل المعنيَيْن المتقدمين في ﴿يَثْنُونَ﴾، وزنها تَفْعَوْعِلْ على بناءِ مبالغة لتكرار الأمر، كما تقول: اعشَوْشَبَت الأرض، واحْلَوْلَت الدنيا، ونحو ذلك[4]، وحكى الطبري عن ابن عباس ـ على هذه القراءَة ـ أَن هذه الآية نزلت في أَن قوماً كانوا لا يأتون النساءَ والحدث إلا ويتغشَّون ثيابهم كراهية أَن يفضوا بفروجهم إلى السماءِ. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما روى ابن

---

(١) اسمه يحيى بن يَعْمَر بفتح الياءِ والميم وسكون العين بينهما، أبو سليمان العدواني البصري، تابعي جليل، عرض على عمر، وابن عباس، وأبي الأسود الدؤلي، وعرض عليه أبو عمرو بن العلاء، توفي سنة ٩٠هـ. (طبقات ابن الجزري).

(٢) هو مسعود بن مالك، (ويقال: ابن عبد الله) أبو رزين الكوفي، روى عن ابن مسعود، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وروى عنه الأعمش. (طبقات ابن الجزري).

(٣) هو ظالم بن عمرو بن سفيان أبو الأسود الدؤلي، ثقة جليل، أول من وضع مسائل في علم النحو بإشارة من علي بن أبي طالب، أخذ القراءة عرضاً عن عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وروى القراءة عنه ابنه أبو حرب، ويحيى بن يَعْمَر، توفي بالبصرة سنة ٦٩هـ. (المصدر السابق).

(٤) كقولهم: «اخلَوْلَقَت السماءُ للمطر»، إذا قويت أمارة ذلك، «واغدَوْدَن الشَّعْر» إذا طال واسترخى، وأنشد أبو علي لِحَسَّان:

وقَامَتْ تُرَائِيك مُغْدَوْدِناً إذا ما تَنُوءُ بِهِ آدها

ومنه قول الشاعر:

لَوْ كُنْتَ تُعْطِي حِينَ تُسْأَلُ سَامَحَتْ لكَ النَّفْسُ واحْلَوْلاكَ كلُّ خليل



عُيَيْنة ـ: [تَثْنَوي] بتقديم الثاءِ على النون وبغير نون بعد الواو[١]، قال أَبو حاتم: هذه القراءَة غلط لا تتَّجه[٢]. وقرأَ نصر بن عاصم، ويحيى بن يَعْمَر، وابن أَبي إِسحق: [تَنْثَوِي] بتقديم النون على الثاءِ، وقرأَ عروة، وابن أَبزى، والأعمش: [تَثْنَونّ] بثاءٍ مثلثة بعدها نون مفتوحة بعدها واو مكسورة. وقرآا أَيضاً هما[٣] ومجاهد فيما روي عنه: [تَثْنَئِنّ] بهمزة بدل الواو، وهاتان مشتقتان من «الثِّنّ» وهو العشب المثني بسهولة[٤]، فشبه صدورهم به إِذ هي مجيبة إِلى هذا الانطواءِ على المكر والخداع. وأَصل [تَثْنَونّ[٥]]: «تَثْنَوْنِنُ»، سكنت النون المكسورة، ونقلت حركتها إِلى الواو التي قبلها، وأُدغمت في النون التي بعدها. وأَما [تَثْنَئِنُّ] فأَصلها: «تَثْنَانّ» مثل «تَحْمَارّ»، ثم قالوا: «اثْنَأَنَّ» كما قالوا: احْمَأَرَّ وابْيَأَضَّ[٦].

والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ عائد على الله تعالى، هذا هو الأفصح الأَجزل في المعنى،

---

(١) قال أبو حيان في «البحر»: على وزن تَرْعَوي.

(٢) إنما قال ذلك لأنه لاحظ الواو في هذا الفعل، لا يقال: ثنوتُه فانثوى، كما يقال: رعوته فارعوى، أي: كففتُه فانكفَّ. قاله في «البحر المحيط».

(٣) تأمل قوله: «هما»، والمتقدم ذكرهم ثلاثة هم: عروة، وابن أبزى، والأعمش، ولعلَّه أراد الأخيرين فقط.

(٤) قال أبو الفتح في المحتسب: وتَثْنَوِنّ وتَثْنَئِنّ من لفظ الثِّنّ ومعناه، وهو ما هش وضعف من الكلأ، وأنشد أبو زيد، ورويناه عنه:

يـــــا أَيُّهَـــــا الفُصَيِّـــــلُ المُعَنِّـــــي
إِنَّـــــكَ رِيَّـــــانُ فصَمِّـــــتْ عَنِّـــــي
يكفـــــي اللَّقُـــــوحَ أَكْلَـــــةٌ مِـــــنْ ثِـــــنِّ

والأبيات في (اللسان ـ ثنن)، وشرح ابن عطية للثِّنّ يلتقي مع هذا المعنى فهو العشب المثني بسهولة، وقد جاءَت الكلمة في بعض النسخ: «العسيب» بدلا من «العشب»، وهي بعيدة في معناها عن المراد.

(٥) يعني على قراءة عروة، وابن أبزى، والأعمش.

(٦) قال أبو الفتح: «أصله (تَثْنَانّ) فحركت الألف لسكونها وسكون النون الأولى، فانقلبت همزة، وعليه قول دُكَيْن:

راكِـــــدَةٌ مِخْـــــلاتُـــــه ومحلَبُـــــه وجُلُّـــــه حتَّـــــى ابيـــــأَض مَلْبَبُـــــه

يريد: ابْيَاضَّ فحرّك الألف فهمزتها، والمَلْبَب: موضع اللَّبَة، وهو وسط الصدر». ثم قال أبو الفتح: «ذهب أبو إسحق إلى أن (تَثْنَئِنّ) أصلها: (تَثْنَوِنّ) فهمزت الواو لانكسارها، ومذهب أبي إسحق هذا مردود».



وعلى بعض التأويلات يمكن أن يعود على محمد ﷺ ، و﴿يَسْتَغْشُونَ﴾ معناه: يجعلونها أَغشية وأَغطية ، ومنه قول الخنساءِ:

أَرْعَى النُّجُومَ وما كُلِّفتُ رِعْيَتَهَا وتارةً أَتَغَشَّى فضلَ أَطْمَارِي[1]

وقرأ ابن عباس: [عَلَى حينَ يَسْتَغْشونَ] ، ومن هذا الاستعمال قول النابغة:

عَلَى حِينَ عاتَبْتُ الْمَشيبَ علَى الصبَا وقلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِعُ[2]

و«ذات الصدور»: مافيها ، والذَّات تتصرف في الكلام على وجوه هذا أَحدها ، كقول العرب: «الذئب مغبوط بذي بطنه»[3] ، أَي بالذي فيه من النفخ ، وكقول أَبي بكر الصديق رضي الله عنه: «إِنما هو ذو بطن خارجة». والذاتُ التي هي حقيقة الشيءِ ونفسه قلقة في هذا الموضع ، ويحتمل أَن يفرق بين «ذي بطنه» وبين «الذات» ، وإِنما يجمعه بينهما المعنى.

وقوله تعالى: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٍ . . .﴾ الآية. تماد في وصف الله تبارك وتعالى

---

(١) أنشد صاحب اللسان هذا البيت في (رعى) قال: ورعَى النجوم رعْياً وراعاها: راقبَها وانتظر مغيبها ، قالت الخنساءُ: أرعى النجوم. . . البيت. واستغْشَى بثوبه وتغَشّى: تغطّى ، والأطمار: جمع طِمْر وهو الثوب الخلق ، ومنه الحديث «رُبّ ذي طِمْرين لا يُؤْبَهُ له لو أقسم على الله لأبَرّهُ».

(٢) البيت من قصيدة للنابغة يمدح فيها النعمان ، ويعتذر إليه مما وشت به بنو قُرَيع ، ومعنى (عَلى) هنا: (في) ، لأنه في البيت السابق يقول:

فَكَفْكَفْتُ مِنِّي عَبْرَةً فَرَدَدْتُهَا على النَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهِلٌ ودامِعُ

فهي مثل (عَلى) في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ ، والمعنى: كَفْكَفْتُ الدمع في وقت عتابي لنفسي عند مشيبها ، وقد جعل العتاب للمشيب على سبيل المجاز ، و(على الصبا) متعلق بـ(عاتبتُ) ، أي: عاتبته على فعل التصابي الذي لا يليق به ، وقد تقدم الاستشهاد بالبيت عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ الآية (١١٩) من سورة (المائدة).

(٣) ويروى: «الذئب يغبط بغير بطنة» ، و«ذو بطنه»: ما في بطنه ، ويقال: ذو البطن: اسم للغائط ، يقال: ألقى ذا بطنه إذا أحدث ، قال أبو عبيد: وذلك أنّه ليس يظن به أبداً الجوع ، إنما يظن به البطنة لأنه يعدو على الناس والماشية ، قال الشاعر:

ومَنْ يَسْكُنِ البَحْرينِ يَعْظُمْ طُحَالُه ويُغْبَطْ مافي بَطْنِهِ وهُوَ جَائِعُ

وقال غيره: إنما قيل فيه ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع ، وقال الشاعر:

لكالذِّئب مَغْبُوطُ الْحَشَا وهُوَ جَائِعُ

(مجمع الأمثال للميداني. ج١ ص٣٨٧ ـ الحياة. بيروت).



بنحوقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾. والدَّابة: ما دبَّ من الحيوان، والمراد جميع الحيوان الذي يحتاج إلى رزق، ويدخل في ذلك الطائر والهَوَامّ وغير ذلك، كلها دواب. وقد قال الأعشى:

نِيَافٌ كغُصْنِ البَانِ تَرْتَجُّ إنْ مَشَتْ دَبيبَ قَطَا البَطْحَاءِ في كلِّ مَنْهَلِ[1]

وقال علقمة بن عبدة لطير:

. . . . لِطَيْرِهِنَّ دَبيبُ[2]

وفي حديث أَبي عبيدة: «فإذا دابة مثل الظَّرِبِ»[3]، يريد: من حيوان البحر. وتخصيصه بقوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إنما هو لأَنه الأَقرب لحِسِّهم. والطائر والعائم إنما هو في الأَرض، وما مات من الحيوان قبل أَن يتغذى فقد اغتذى في بطن أُمه بوجه مّا.

وهذه الآية تعطي أَن الرزق: كل ما صحّ الانتفاع به خلافاً للمعتزلة في قولهم: «إنه الحلالُ الممتلك».

---

(١) من قصيدة له يقول في مطلعها:

صَحَا القَلْبُ مِنْ ذكْرَى قُتَيْلَةَ بَعْدَمَا يكونُ لَهَا مثْلَ الأسيرِ المُكَبَّلِ

والنياف: الطويلة التامة الحسن. والقطا: جمع قطاةٍ، وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراءِ، ويتخذ أُفْصوحةً في الأرض، ويطير في جماعات، ويقطع مسافات شاسعة، وبيضه مرقط، ومشيته رشيقة، والمنْهل: المورد، أي الموضع الذي فيه المشرب.

(٢) هو علقمة بن عبدة الفحل، أحد كبار الشعراءِ المعاصرين لامرىء القيس، والجملة جزء من بيت قاله ضمن قصيدته: طحَا بكَ قلبٌ في الحسان طروب، وهو بتمامه:

كأنَّهُمُ صابَتْ عَلَيْهِمْ سحابَةٌ صواعِقُهَا لِطَيْرِهِنَّ دَبِيبُ

وصابت: أمطرت، والدبيب: المشي الضعيق الخفيف. والمعنى: إن الممدوح إذا هجم على أعدائه كان كالسحابة التي تتفجر بالصواعق وتتهاطل كالطير عجزت عن التحليق فدبت تطلب النجاة، وفي البيت حركة تصور الجيش في كرّه، والطبيعة في صواعقها، والطَّير في دبيبها على الأرض.

(٣) الحديث في البخاري «شركة ومغازي»، وفي الموطأ «صفة النبي»، وفي مسند الإمام أحمد ٣ـ٣٠٦، ولفظه كما جاء في المسند عن جابر: «إن رسول الله ﷺ بعث سرية ثلاثمائة، وأَمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، فنفذ زادنا، فجمع أبو عبيدة زادهم فجعله في مزود، فكان يقيتنا حتى كان يصيبنا في كل يوم تمرة، فقال له رجل: يا أبا عبد الله، وما كانت تغني عنكم تمرة؟ قال: قد وجدنا فقدها حين ذهبت حتى انتهينا إلى الساحل، فإذا حوتٌ مثْلُ الظَّرِب العظيم، قال: فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشرة ليلة، ثم أخذ أبو عبيدة ضلعين من أضلاعه فنصبهما ثم أمر براحلته فرحلت فمر تحتهما فلم يصبها شيءٌ». والظَّرِبُ: الجبل المنبسط، أو الجُبَيْل (بالتصغير) كما قال في أساس البلاغة.



وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ إيجابُ تفضُّلٍ لأنه تعالى لا يجب عليه شيءٌ عقلا ، والْمُسْتَقَرّ: صلْب الأَب ، والمُسْتَوْدَع: بطن الأُم. وقيل: المسْتَقر: المأوى ، والمُسْتَوْدَع: القبر ، وهما ـ على هذا ـ ظرفان. وقيل: المُسْتَقر: ما حصل موجوداً من الحيوان ، والمُسْتَوْدَع: ما يوجد بعْدُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمُسْتَقَرّ ـ على هذا ـ مصدر استَقَرّ ، وليس بمفعول كمُسْتَوْدع ، لأَن استَقَرّ لا يتعدى. وقوله: ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ إشارةٌ إلى اللوح المحفوظ ، وقال بعض الناس: هذا مجازٌ ، وهي إشارة إلى علم الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف ، وحَمْلُه على الظاهر أَولى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾.

قال أَكثر أَهل التفسير: الأيام هي من أَيام الدنيا ، وقالت فرقة: هي من أَيام الآخرة ، يومٌ من أَلف سنة ، قاله كعب الأَحبار ، والأَول أَرجح. وأَجزأَ ذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عن كل ما فيها ، إذ كل ذلك خُلِقَ في تلك الستة الأَيام.

واختلفت الأَحاديث في يوم بداية الخلق ـ فروى أَبو هريرة ـ فيما أَسند الطبري أَن رسول الله ﷺ أَخذ بيده وقال: «خلق الله التربة يوم السبت ، والجبال يوم الأَحد ، والشجر يوم الاثنين ، والمكروه يوم الثلاثاء ، والنور يوم الأَربعاءِ ، وبث الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة» ، ونحو هذا من أَن البداءَة يوم السبت في كتاب مسلم ، وفي الدلائل لثابت: «وكان خلق آدم في يوم الجمعة ، لا يعتَدّ به إذ هو بشر كسائر بنيه ، ولو اعتُدّ به لكانت الأَيام سبعة خلاف ما في كتاب الله». وروي

عن كعب الأحبار أنه قال: «بدأ الله خلق السموات والأرض يوم الأحد، وفرغ يوم الجمعة، وخلق آدم في آخر ساعة منه»، ونحو هذا في جل الدواوين أن البدأة يوم الأحد، وقال قوم: خلق الله تعالى هذه المخلوقات في ستة أيام مع قدرته على خلقها في لحظة، نهجاً إلى طريق التؤدة والمهلة في الأعمال ليُحكم البشر أعمالهم. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: «كان العرش على الماءِ، وكان الماءُ على الريح»[1].

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ متعلق بـ﴿خَلَقَ﴾، والمعنى أن خلقه إياها كان لهذا، وقال بعض الناس: هو متعلق بفعل تقديره: أعلم بذلك ليبلوكم، ومقصد هذا القائل أن هذه المخلوقات لم تكن لسبب البشر.

وقرأ عيسى الثقفي[2]: [وَلَئِن قُلْتُ] بضم التاءِ، وقرأ الجمهور: ﴿قُلْتَ﴾ بفتح التاءِ.

ومعنى الآية: إن الله عزَّ وجلَّ هذه صفاته، وهؤلاء بكفرهم في حيز إن قلت لهم: «إنهم مبعوثون» كذبوا وقالوا: «هذا سحر»، أي: فهذا تناقض منكم، إذ كل مفطور يقر بأن الله خالق السموات والأرض، فهم من جملة المقرين بهذا، ومع ذلك ينكرون ما هو أيسر منه بكثير، وهو البعث من القبور، إذ البداءَة أعسر من الإعادة، وإذ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس. واللام في ﴿وَلَئِن﴾ مؤذنة بأن اللام في ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ لام قسم لا جواب شرط.

وقرأ الأعرج، والحسن، وأبو جعفر، وشيبة، وفرقة من السبعة: ﴿سِحْرٌ﴾، وقرأت فرقة: [سَاحِرٌ]، وقد تقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ الآية. المعنى: لئن تأخر العذاب الذي

---

(١) الثابت في البخاري عن عمران بن حُصَين قال: كنت عند النبي ﷺ إذ جاء قوم من بني تميم فقال: «اقبلوا بالبشرى يا بني تميم»، قالوا بشرتنا فأعطنا، (مرتين)، فدخل ناس من أهل اليمن فقال: «اقبلوا البشرى ياأهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم»، قالوا: قبِلْنا، جئنا لنتفقه في الدين، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان؟ قال: «كان الله ولم يكن شيءٌ غيره، وكان عرشه على الماءِ، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيءٍ»، ثم أتاني رجل فقال: يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت، فانطلقت أطلبها فإذا هي يقطع دونها السرابُ، وأيْمُ الله لَوَدِدْتُ أنها ذهبت ولم أقم.

(٢) هو عيسى بن مروان أبو عمرو الثقفي النحوي البصري، مؤلف الجامع والإكمال، مات سنة ١٤٩هـ. (طبقات القراء).



توعدتم به عن الله قالوا: ما هذا الحابس لهذا العذاب؟ على جهة التكذيب. و﴿الأُمَّةُ﴾ في هذه الآية: المُدّة، كما قال: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾[1]، قال الطبري: سميت بذلك المُدّةُ لأنها تمضي فيها أُمة من الناس وتحدث فيها أُخرى، فهي ـ على هذا ـ المدة الطويلة. ثم استفتح بالإخبار عن أَن العذاب يوم يأتي لا يردّه شيءٌ ولا يصرفه، و﴿وَحَاقَ﴾ معناه: حلَّ وأَحاط، وهي مستعملة في المكروه، و﴿يَوۡمَ﴾ منتصب بقوله: ﴿مَصۡرُوفًا﴾[2].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ۝٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١١﴾.

﴿أَذَقۡنَا﴾ هاهنا مستعارة، لأَن الرحمة هاهنا تعم جميع ما يُنتفع به من مطعوم وملبوس وجاهٍ وغير ذلك، و﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ هاهنا اسم الجنس. والمعنى: إن هذا الخُلُق في سجية الناس، ثم استثنى منهم الذين ردتهم الشرائع والإيمان إلى الصبر والعمل الصالح. و﴿لَيَـُٔوسٞ﴾ و﴿كَفُورٞ﴾ بناءَان للمبالغة. و﴿كَفُورٞ﴾ هاهنا من كُفْر النعمة، والمعنى: إنه ييأَس ويتحرج ويتسخط، ولو نظر إلى نعمة الله الباقية عليه في عقله وحواسه وغير ذلك، ولم يكفرها، لم يكن ذلك، فإن اتفق هذا أَن يكون في كافر أَيضاً بالشرع صحّ ذلك ولكن ليس من لفظ الآية.

وقال بعض الناس في هذه الآية: ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ إنما يراد به الكافر، وحَمَلَه على ذلك لفظة ﴿كَفُورٞ﴾، وهذا عندي مردودٌ، لأَن صفة الكفر لا تطلق على جميع الناس كما تقتضي لفظة الإِنسان.

والنَّعْمَاءُ: تشمل الصحة والمال ونحو ذلك، والضَّرَّاءُ من الضُّر، وهو أَيضاً

(١) من الآية (٤٥) من سورة (يوسف).

(٢) فهو معمول لخبر ﴿لَيۡسَ﴾، وقد استدل به على جواز تقديم خبر ليس عليها قالوا: لأن تقدم المعمول يؤذن بتقدم العامل، ونُسب هذا المذهب لسيبويه، وعليه أكثر البصريين، وذهب الكوفيون والمبرد إلى أنه لا يجوز، ولا يدل جواز تقدم المعمول على جواز تقدم العامل، وأيضاً فإن الظرف والمجرور يتوسع فيهما ما لا يتوسع في غيرهما، ويقعان حيث لا يقع العامل فيهما.



شامل، وقد يكثر استعمال الضراءِ فيما يخص البدن. ولفظ ﴿ ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ عَنِّيٓ ﴾ تقتضي بطراً وجهلا أَن ذلك بإِنعام من الله تعالى، واعتقاد أَن ذلك باتِّفاق أَو بعقد من الاعتقادات الفاسدة، وإِلا فلو قالها من يعتقد أَن ذهابها بإِنعام من الله وفضل لم يقع ذلك. و﴿ ٱلسَّيِّئَاتُ ﴾ هاهنا: كلُّ مايسوءُ في الدنيا.

وقرأَت فرقة: ﴿ لَفَرِحٌ ﴾ بكسر الراءِ، وقرأَت فرقة: [لَفَرُحٌ] بضمها. وهذا الفرح مطلق، ولذلك ذُمّ، إِذ الفرح انهمال النفس، ولا يأْتي الفرح في القرآن ممدوحاً إِلا إِذا قُيِّد بأَنه في خير.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ الآية. هذا الاستثناءُ متصل على ما قدمناه من أَن ﴿ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ عام يراد به الجنس، ومن قال «إِنه مخصص بالكافر» قال هاهنا: إِن الاستثناءَ منقطع، وهو قول ضعيف من جهة المعنى، وأَما من جهة اللفظ فجيّد، وكذلك قاله من النُّحاة قومٌ، واستثنى الله من الماشين على سجيّة الإِنسان هؤلاءِ الذين حملتهم الأَديان على الصبر على المكاره ومثابرة عبادة الله، وليس شيءٌ من ذلك في سجية البشر، وإِنما حَمَل على ذلك حب الله وخوفُ الدار الآخرة والصبر، والعملُ الصالح لا ينفع إِلا مع هداية وإِيمان. ثم وعدَ تبارك وتعالى أَهل هذه الصفة ـ تحريضاً عليها وحضّاً ـ بالمغفرة للذنوب والتفضل بالأَجر والنعيم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

سبب هذه الآية أَن كفار قريش قالوا: يا محمد لو تركت سبّ آلهتنا وتسفيه آبائنا لجالسناك واتَّبعناك. وقالوا: إِيتِ بقرآن غير هذا أَو بدله، ونحو هذا من الأَقوال، فخاطب الله تعالى نبيّه ﷺ على هذه الصورة من المخاطبة، ووقفه بها توقيفاً راداً على أَقوالهم ومبطلاً لها، وليس المعنى أَنه ﷺ همّ بشيءٍ من هذا فزجر عنه، فإِنه لم يرد قط ترك شيءٍ مما أُوحي إِليه، ولا ضاق صدره، وإِنما كان يضيق صدره بأَقوالهم وأَفعالهم وبُعدهم عن الإِيمان.



و[لعلّك] ها هنا بمعنى التوقيف والتقرير، و﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ هو القرآن والشريعة والدعاءُ إلى الله تعالى، كان في ذلك سب آلهتهم وتسفيه آبائهم أو غيره. ويحتمل أن يكون النبي ﷺ قد عَظُم عليه ما يلقى من الشدة فمال إلى أن يكون من الله تعالى إذنٌ في مساهلة الكفار بعض المساهلة، ونحو هذا من الاعتقادات التي تليق به ﷺ كما جاءَت آيات الموادعة. وعبّر بـ[ضائق] دون (ضيّق) للمناسبة في اللفظ مع ﴿تَارِكُۢ﴾، وإن كان (ضيّق) أكثر استعمالاً لأنه وصف لازم، و﴿وَضَآئِقُۢ﴾ وصف عارض، فهو الذي يصلح هنا. والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائد على ﴿البعض﴾، ويحتمل أن يعود على ﴿مَا﴾. و﴿أَن﴾ في موضع نصب على تقدير: «كراهة أَنْ»، والكنزُ ها هنا: المالُ، وهذا هو طلبهم آية تضطر إلى الإيمان، والله تبارك وتعالى لم يبعث الأنبياءَ بآيات اضطرار، وإنما بعثهم بآيات النظر والاستدلال، ولم يجعل آية الاضطرار إلا للأمم التي قدّر تعذيبها بكفرها بعد آية الاضطرار، كالناقة لثمود.

ثم آنَسَهُ تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾، أي: هذا القدر هو الذي فُوّض إليك، والله تعالى بعد ذلك هو الوكيل الممضي لإيمان من شاءَ وكفر من شاءَ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ الآية. هذه «أَمْ» التي عند سيبويه بمعنى «بل وألف الاستفهام»، كأنه أضرب عن الكلام الأول واستفهم في الثاني على معنى التقرير، كقولهم: «إنها لإِبلٌ أَمْ شَاءٌ؟». والافتراءُ أخصّ من الكذب، ولا يستعمل إلا فيما بهت به المرءُ وكابر وجاءَ بأمر عظيم منكر. ووقع التحدي في هذه الآية بعشر لأنه قيدها بالافتراءِ، فوسَّع عليهم القدر لتقوم الحجة غاية القيام، إذْ قَدْ عَجَّزهم في غير هذه الآية بسورة من مثله دون تقييد، فهذه مماثلة تامة في غيوب القرآن ومعانيه ونظمه ووعده ووعيده، وَعُجِّزوا في هذه الآية بأَنْ قيل لهم: عارضوا القدر منه بعشر أمثاله في التقدير والغرض واحد، واجعلوه مفترى لا يبقى لكم إلا نظمه، فهذه غاية التوسعة، وليس المعنى: عارضوا عشر سور بعشر، لأن هذه إنما كانت تجيءُ معارضة سورة بسورة مفتراة ولا يُبالي عن تقديم نزول هذه على هذه. ويؤيد هذا النظر أن التكليف في آية البقرة إنما هو بسبب الريب، ولا يزيلُ الريب إلا العلم بأنهم لا يقدرون على المماثلة التامة، وفي هذه الآية إنما التكليف بسبب قولهم: «افتراه»، فكلفوا نحو ما قالوا، ولا يطرد هذا في آية «يونس». وقال بعض الناس: هذه مقدمة في النزول

على تلك، ولا يصح أن يُعَجّزوا في واحدة فيكلفوا عشراً والتكليفان سواء، ولا يصح أن تكون السورة الواحدة إلا مفتراة، وآية سورة «يونس» في تكليف سورة متركبة على قولهم: «افتراه»، وكذلك آية البقرة، إنما ريبُهم بأن القرآن مفترى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقائل هذا القول لم يلحظ الفرق بين التكليفين، في كمال المماثلة مرة، ووقوفها على النظم مرة.

و﴿ مَنِ ﴾ في قوله: ﴿ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم ﴾ يراد بها الآلهة والأصنام والشياطين وكل ما كانوا يعظمونه، وقوله: ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ يريد: في أن القرآن مفترى.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

لهذه الآية تأويلان:

أحدهما: أن تكون المخاطبة من النبي ﷺ للكفار، أي: فإن لم يستجب من تدعونه[1] إلى شيءٍ من المعارضة ولا قدر جميعكم عليها فأذعِنوا حينئذ واعلموا أنه من عند الله، ويأتي قوله: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ متمكناً.

والثاني: أن تكون مخاطبة من الله تعالى للمؤمنين، أي: فإن لم يستجب الكفار إلى ما دُعوا إليه من المعارضة فاعلموا أن ذلك من عند الله. وهذا على معنى: دوموا على علمكم، فإنهم كانوا عالمين بذلك. قال مجاهد: قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ هو لأصحاب محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ يحتمل معنيين. أحدهما: بإذنه وعلى علم منه. والثاني: أنه أُنزل بما علمه الله تعالى من الغيوب، فكأنه أراد: «المعلومات له»، وقوله: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ تقرير.

---

(١) في بعض النسخ زيادة: ﴿من دون الله﴾.



وقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ الآية. قالت فرقة: ظاهرها العموم ومعناها الخصوص في الكفرة. هذا قول قتادة والضحاك[١]، وقال مجاهد: هي في الكفرة وفي أَهل الرياءِ من المؤمنين، وإِلى هذا ذهب معاوية حين حدثه سَيَّافُه شُفي بن ماتع الأَصبحي[٢] عن أَبي هريرة بقول رسول الله ﷺ في الرجل المتصدق، والمجاهد المقتول، والقائم بالقرآن ليله ونهاره ـ وكل ذلك رياءً ـ أَنهم أَول من تُسَعَّر به النار يوم القيامة، فلما حدّثه شُفي بهذا الحديث بكى معاوية وقال: صدق الله ورسوله، وتلا: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا... ﴾ الآية إِلى قوله: ﴿ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[٣].

فأَما من ذهب في أَنها في الكفرة فمعنى قوله: ﴿ يُرِيدُ ﴾: يقصد ويعتمد، أَي: هي وجهُهُ ومقصدُه لا مقصد له غيرها، فالمعنى: من كان يريد بأَعماله الدنيا فقط إِذ لا يعتقد الآخرة فإِن الله يجازيه على حُسْن أَعماله ـ في الدنيا ـ بالنعم والحواسّ وغير ذلك، فمنهم مُضَيّق عليه، ومنهم مُوَسَّع له، ثم حكم عليهم بأَنهم لا يحصل لهم يوم القيامة إِلا النار، ولا تكون لهم حالٌ سواها.

---

(١) قال القرطبي: «واختاره النحاس، بدليل الآية التي بعدها ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ﴾، فمن أَتى منهم بصلة رحم أو صدقة نكافئه بها في الدنيا بصحة الجسم وكثرة الرزق، لكن لا حسنة له في الآخرة».

(٢) شُفَي بن ماتع هذا كان سيافاً لمعاوية، ومات سنة ١٠٥هـ.

(٣) الحديث رواه مسلم بمعناه، والترمذي أيضاً، وهو في ابن جرير، وفيه أن أبا هريرة قال: حدثني رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى أهل القيامة ليقضي بينهم وكل أُمة جاثية، فأول من يُدْعى به رجل جمع القرآن، ورجل قُتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلتُ على رسولي؟ قال: بلى يا ربّ، قال: فماذا عَمِلتَ فيما عُلِّمتَ؟ قال: كنت أقوم آناءَ الليل وآناءَ النهار، فيقول الله له: كذبتَ، وتقول الملائكة: كذبتَ، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: «فلانٌ قارئ» فقد قيل ذلك. ويُؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أُوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا ربّ، قال: فماذا عملتَ فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبتَ، وتقول الملائكة: كذبتَ، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: «فلان جواد»، فقد قيل ذلك. ويُؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقال له: في ماذا قُتلت؟ فيقول: أُمرتُ بالجهاد في سبيلك فقاتلتُ حتى قتلت، فيقول الله له: كذبتَ، وتقول له الملائكة: كذبتَ، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: «فلان جريءٌ»، وقد قيل ذلك، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسَعَّر لهم النار يوم القيامة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فاستقام هذا المعنى على لفظ الآية، وهو عندي أرجح التأويلات بحسب تقدم ذكر الكفار والمنافقين في القرآن، فإنما قصد بهذه الآية أولئك[(١)].

وأما من ذهب إلى أنها في العصاة من المؤمنين فمعنى ﴿يُرِيدُ﴾ عنده: يُحب ويُؤثر ويُفَضّل ويقصد وإن كان له مقصد آخر بإيمانه، فإن الله يجازيه على تلك الأعمال الحسان ـ التي لم يعملها لله ـ بالنِّعم في الدنيا، ثم يأتي قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ بمعنى: ليس يجب لهم أو يحق لهم إلاَّ النار، وجائز أن يتغمدهم الله برحمته، وهذا هو ظاهر ألفاظ ابن عباس وسعيد بن جبير[(٢)].

وقال أنس بن مالك: هي في أهل الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومعنى هذا أن أهل الكتاب الكفرة يدخلون في هذه الآية، لا أنها ليست في غيرهم.

وقرأ جمهور الناس: ﴿نُوَفِّ﴾ بنون العظمة، وقرأ طلحة[(٣)]، وميمون بن مهران: [يُوَفَّ] بياءِ الغائب[(٤)].

و﴿يُبْخَسُونَ﴾ معناه: يعطون أقل من ثوابهم، و﴿حَبِطَ﴾ معناه: بطل وسقط، منه قول النبي ﷺ: «يقتل حبطاً أو يُلِمّ»[(٥)]، وهي مستعملة في فساد الأعمال. والضمير في

---

(١) ولقوله تعالى بعد ذلك: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ كما سبق أن ذكرنا.

(٢) وهذا الرأي يلتقي مع قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيّات»، فالمرءُ إنما يعطى على وجه قصده، وبحكم ضميره ونيَّته.

(٣) هو طلحة بن ميمون كما ذكر ذلك في البحر، وإلا فهناك طلحة بن مصرف مثلاً، وغيره.

(٤) في إعراب هذه الآية: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ...﴾ إلخ ذكر عن الفراءِ أن (كانَ) زائدة ولهذا جزم الجواب وهو ﴿نُوَفِّ﴾، قال أبو حيان: (ولعَلّه لا يصح، إذْ لوْ كانت زائدة لكان (يُريدُ) هو فعل الشرط، وكان يكون مجزوماً). وهذا التركيب من مجيء فعل الشرط ماضياً والجواب مضارعاً ليس مخصوصاً بكان، بل هو جائز في غيرها، كما روي في بيت زهير بن أبي سلمى:

ومَنْ هابَ أسْبابَ المنايا يَنَلْنَهُ ولوْ رامَ أنْ يَرْقَى السَّمَاءَ بِسُلَّم

(٥) هذا جزءٌ من حديث رواه البخاري، ومسلم، وابن ماجه والإمام أحمد، ولفظه كما في البخاري عن أبي سعيدالخدري رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ قام على المنبر فقال: «إنما أخشى عليكم من بعدي=

قوله: ﴿فِيهَا﴾ عائد على الدنيا في الأُولَيَيْن ، وفي الثالثة عائد على الآخرة ، ويحتمل أَن يعود في الثلاثة على الدنيا ، ويحتمل أن تعود الثانية على الأَعمال. وقرأَ جمهور الناس: ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ بالرفع على الابتداءِ والخبر ، وقرأَ أُبيّ ، وابن مسعود: [وَبَاطلاً] بالنصب ، قال أبو حاتم: ثبتت في أَربعة مصاحف ، والعامل فيه ﴿يَعْمَلُونَ﴾ ، و﴿مَا﴾ ، والتقدير: وباطلاً كانوا يعملون ، والباطل: كل ما تقتضي ذاته أَلاَّ تُنَال به غاية في ثواب ونحوه ، وبالله التوفيق.

قال عزَّ وجلَّ:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

اختلف المتأَولون في المراد بقوله ﴿أَفَمَنْ﴾ ـ فقالت فرقة: المراد بذلك المؤمنون بمحمد ﷺ. وقالت فرقة: المراد محمد ﷺ خاصة. وعلي بن أَبي طالب ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن عباس: المراد بذلك محمد ﷺ والمؤمنون جميعاً.

وكذلك اختلف في المراد بـ «البيِّنة» ـ فقالت فرقة: المراد بذلك القرآن ، أَي: على جَلِيَّة بسبب القرآن. وقالت فرقة: المراد محمد ﷺ، أَي: على جليَّة بسبب محمد ﷺ، والهاءُ في «البيّنة» للمبالغة كهاءِ علاَّمة ونسّابة.

كذلك اختلف في المراد بـ «الشَّاهد» ـ فقال ابن عباس ، وإِبراهيم النَّخَعي ، ومجاهد ، والضحاك ، وأَبو صالح ، وعكرمة: هو جبريل عليه السلام. وقال

= ما يفتح عليكم من بركات الأرض» ، ثم ذكر زهرة الدنيا فبدأ بإحداهما وثنى بالأُخرى ، فقام رجل فقال: يا رسول الله ، أو يأتي الخير بالشر؟ فسكت عنه النبي ﷺ ، قلنا: يوحَى إليه ، وسكت الناس كأن على رؤوسهم الطير ، ثم إنه مسح عن وجهه الرُّحَضَاءَ ، فقال: أَين السائل آنفاً؟ أَوَ خَيْرٌ هو؟ ثلاثاً ، إِن الخير لا يأتي إلا بالخير ، وإنه كلما يُنبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يُلِمُّ كلما أكلت ، إلا آكلة الخُضَر حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت ، وإن هذا المال خضِرَةٌ حُلوة ، ونعم صاحب المسلم لِمَنْ أخذه بحقه فجعله في سبيل الله واليتامى والمساكين ، ومن لم يأْخذه بحقه فهو كالآكل الذي لا يشبع ، ويكون عليه شهيداً يوم القيامة).



الحسن بن علي: هو محمد ﷺ، وقال مجاهد أيضاً: هو ملَك وكَّلَه الله بحفظ القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل أن يريد بهذه الألفاظ: جبريل عليه السلام[1]. وقال علي بن أبي طالب، والحسن، وقتادة: هو لسان النبي ﷺ. وقالت فرقة: هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ورُوي ذلك عنه. وقالت فرقة: هو الإنجيل، وقالت فرقة: هو القرآن، وقالت فرقة: هو إعجاز القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويتصرف قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ على معنيين. بمعنى: يقرؤُه، وبمعنى: يتْبَعه. وتصرفه بحسب الخلاف المذكور في «الشاهد»، ولْنُرَتِّب الآن اطراد كل قول وما يحتمل:

فإذا قلنا: إن قوله: ﴿أَفَمَن﴾ يراد به المؤمنون، فإذا جعلت ـ بعد ذلك ـ «البيِّنَة محمداً ﷺ، صحَّ أن يترتب «الشَّاهد» الإنجيل، ويكون ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بمعنى يقرؤُه، لأَن الإنجيل يُقرأُ، شأْن محمد ﷺ، وأَن يترتب جبريل عليه السلام، ويكون ﴿يَتْلُوه﴾ بمعنى: يَتْبَعه، أَي في تبليغ الشرع والمعونة فيه. وأن يترتب الملَك، ويكون الضمير في [مَنْهُ] عائداً على البينة» التي قدرناها محمد ﷺ، وأَن يترتب القرآن، ويكون ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بمعنى: يتْبَعه، ويعود الضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ على الربّ.

وإن جعلنا «البيِّنة» القرآن على أَن ﴿أَفَمَن﴾ هم المؤمنون ـ صح أن يترتب «الشَّاهد» محمد ﷺ، وصح أَن يترتب الإنجيل، وصح أَن يترتب جبريل والملَك، ويكون ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بمعنى: يقرؤُه، وصحّ أَن يترتب «الشَّاهد» الإعجاز، ويكون ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بمعنى: يتْبَعه، ويعود الضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ على القرآن.

وإذاجعلنا ﴿أَفَمَن﴾ للنبي ﷺ، كانت «البيِّنَة» القرآن، وترتب «الشَّاهد» لسان محمد النبي ﷺ، وترتب الإنجيل، وترتب جبريل والملَك، وترتب عليّ بن أَبي طالب رضي الله عنه، وترتب الإعجاز، ويُتَأول [يَتْلُوه] بحسب «الشاهد» كما قلنا، ولكن هذا القول يضعفه قوله: [أُولَئِكَ]، فإنا إذا جعلنا قوله: [أَفَمَنْ] للنبي ﷺ وحده لم نجد في الآية مذكورين يشارُ إليهم بذلك، ونحتاج في الآية إلى تجوُّز وتشبيهٍ

(١) فاعل (يريد) يعود على مجاهد في قوله قبل ذلك: (هُوَ ملَك).



بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[(١)] ، وهو شبه ليس بالقوي.

والأَصح في الآية أَن يكون قوله: ﴿أَفَمَن﴾ للمؤمنين ، أَو لهم وللنبي ﷺ معهم بأَلا يترتب «الشاهد»[(٢)] ـ بعد ذلك ـ يراد به النبي ﷺ داخلاً في قوله: ﴿أَفَمَن﴾ ، وما تركناه من بَسْطِ هذا الترتيب يخرجه التدبر بسرعة فتأَمله.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿كِتَٰبُ﴾ بالرفع ، وقرأَ الكلبي ، وغيره: [كِتَابَ] بالنصب ، فمن رفع قدَّر «الشاهد» الإِنجيل[(٣)] ، معناه: يقرأُ القرآن ، أَو محمد ﷺ ـ بحسب الخلاف ـ. والإِنجيل ، ومِنْ قبل الإِنجيل كتابُ موسى ، إِذ في الكتابين ذكْرُ القرآن وذكْرُ محمد ﷺ.

ويصحُ أَن يُقَدِّرَ الرافعُ «الشاهدَ» القرآنَ ، وتطرد الأَلفاظ بعد ذلك.

ومن نصب [كتابَ] قدّر «الشاهدَ» جبريل عليه السلام ، أَي: يتلو القرآنَ جبريلُ ، ومن قبلِ القرآن كتابَ موسى[(٤)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهنا اعتراض. يقال: إِذا قال: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أَو [كتابَ] بالنصب على القراءَتين ، والضمير في ﴿قَبۡلِهِۦ﴾ عائد على القرآن. فلِمَ لمْ يذكر الإِنجيل ـ وهو قبله ـ بينه وبين كتاب موسى؟ فالانفصال أَنه خصَّ التوراة بالذكر لأَن المِلَّتين مجتمعتان أَنهما من عند الله ، والإِنجيل ليس كذلك ، فكان الاستشهاد بما تقوم به الحجة على الطائفتين أَوْلى، وهذا يجري مع قول الجنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾[(٥)] ، ومع قول النجاشيّ: «إِنَّ هذا والذي جاءَ به موسى لَيَخْرُج من مشكاةٍ واحدة ، فإِنما

---

(١) من الآية (١) من سورة (الطلاق).

(٢) معنى كلامه هنا: أَن نجعل ﴿أَفَمَن﴾ للمؤمنين ، أو لهم وللنبي ﷺ على ألا يكون المرادُ (بالشاهد) النبيّ لأَنه داخل في (أَفَمَنْ).

(٣) لَعَلَّ الصواب (جبريل) بدلاً من (الإِنجيل) ، لأَنه هو الذي يقرأ ، ولكن جميع النسخ كانت هكذا بلفظ (الإِنجيل).

(٤) [كِتَابَ] في قراءَة النصب معطوف على مفعول ﴿وَيَتۡلُوهُ﴾ ، أَو منصوب بإِضمار فعل يفسره المذكور وتقديره: يَتْلُو.

(٥) من الآية (٣٠) من سورة الأَحقاف.



اختصر «الإنجيل» من جهة أن مذهبهم فيه مخالف لحال القرآن والتوراة.

ونصب ﴿إِمَامًا﴾ على الحال من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾.

و﴿الأَحْزَابِ﴾ هاهنا يراد به جميعُ الأُمم، وروى سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من أحد يسمع بي من هذه الأمة، ولا من اليهود والنصارى، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»[1]، فقلت[2]: أين مصداق هذا من كتاب الله؟ حتى وجدته في هذه الآية، وكنت إذا سمعت حديثاً عن النبي ﷺ طلبت مصداقه في كتاب الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والراجح عندي من الأقوال في هذه الآية أن يكون ﴿أَفَمَن﴾ للمؤمنين، أولهم وللنبي ﷺ معهم، إذ قد تقدم ذكر الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، فعقَّب ذكرهم بذكر غيرهم، و«البيِّنَة»: القرآن وما تضمن، و«الشاهد» محمد ﷺ أو جبريل عليه السلام إذا دخل النبي ﷺ في قوله: ﴿أَفَمَن﴾، أو الإنجيل، والضمير في ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ للبيِّنَة، وفي ﴿مِّنْهُ﴾ للربّ تبارك وتعالى، والضمير في ﴿قَبْلِهِ﴾ للبيِّنَة أيضاً، وغير هذا مما ذكرته آنفاً محتمل.

وقرأَ الجمهور: ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ بكسر الميم، وقرأَ السلمي، وأَبو رجاء، وأَبو الخطاب السَّدُوسي: [فِي مُرْيَةٍ] بضم الميم، وهما لغتان في الشَّكِّ، والضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ عائد على كون الكفرة موعدهم النار، وسائر الآية بيِّن.

وفي هذه الآية معادلة محذوفة يقتضيها ظاهر اللفظ تقديرها: أَفَمَنْ كان على بيِّنة من ربّه كمن كفر بالله وكذَّب أنبياءَه؟ ونَحْوُ هذا ـ في معنى الحذف ـ قولُه عزَّ وجلَّ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[3] لكان هذا القرآن ـ ومن ذلك قول الشاعر:

---

(١) الحديث في صحيح مسلم، من حديث شعبة عن أبي بشر. (قال ذلك ابن كثير في تفسيره).

(٢) هذا من كلام سعيد بن جبير. فقد قال ابن كثير في تفسيره عقب الحديث مباشرة: (وقال أيوب السختياني عن سعيد بن جبير قال: كنت لا أسمع بحديث.. إلخ).

(٣) من الآية (٣١) من سورة الرعد.



فَـأُقْسِـمُ لَـوْ شَـيْءٌ أَتَـانَـا رسـولُـهُ سِواكِ، ولكِنْ لم نَجِدْ لَكِ مَدْفَعَا[1]

التقدير: لردَدْناهُ ولم نُصغ إليه.

وقوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَمَنْ ﴾ استفهام بمعنى التقرير، وكأنه قال: لا أَحد أَظلم ممن افترى كذباً، والمراد بـ ﴿مَنْ﴾ الكفرة الذين يدعون مع الله إلٰهاً آخر، ويفترون في غير ما شيءٍ، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ عبارة عن الإشادة عليهم[2] والتشهير بخزيهم، وإلا فكل بشر يعرضون على الله يوم القيامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾. قالت فرقة: يريد الشهداءَ من الأنبياءِ والملائكة، فيجيءُ قوله: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ ﴾ إخباراً عنهم وشهادة عليهم. وقالت فرقة: ﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ بمعنى الشاهدين، ويريد جميعَ الخلائق، وفي ذلك إشارة عليهم، وروي في نحو هذا حديث: «إنَّه لا يخزى أَحدٌ يوم القيامة إلاَّ

---

(١) البيت من قصيدة لامرئ القيس مطلعُهَا:

جَـزِعْـتُ ولـمْ أَجْـزَعْ مِـنَ الْبَيْـنِ مَجْـزَعَـا وعـزَّيْـتُ قَلْبـاً بـالكـواعِـبِ مُـولَعَـا

والرواية (وجدُّكِ لَوْ شَيْءٌ) بدلاً من (فَأُقْسِمُ)، وهو من شواهد النحويين على أن الجواب فيه محذوف، وهو جواب القسم لا جواب (لو) عملاً بالقاعدة عنداجتماع قسم وشرط، وتقدير الجواب: (لدفعناه)، ذكر ذلك الفراءُ أخذاً من قوله: (مَدْفَعاً). والصواب أَن الجواب مذكور في البيت الذي بعده وهو:

إذاً لَـــرَدَدْنَـــاهُ ولَـــوْ طَـــالَ مُكْثُـــهُ لَـــدَيْنَـــا، ولكِنَّـــا بِحُبِّـــكِ وُلَّعَـــا

وابن عطية تبع الطبري في استشهاده بالبيت، والطبري تبع الفراءَ الذي قال في كتابه (معاني القرآن): «وربما تركت العرب جواب الشيءِ والمعروف معناه... قال الشاعر: فأقسم... إلخ البيت، وقال تعالىٰ وهو أصدق من قول الشاعر: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ... ﴾ فلم يؤتَ له بجواب». قال البغدادي في (خزانة الأدب): «والصواب أَن الجواب في البيت الذي بعده، وعلى هذا يكون قوله: «ولكِنْ لم نجِدْ لَكِ مَدْفَعاً» جملة اعتراضية، وعذرهم في تقدير الجواب أَن البيت الثاني ساقط في أكثر الروايات، وقد ذكره الزجاجي في أماليه الصغرى والكبرى ضمن ثمانية أبيات رواها المبرد.

(٢) يقال: أشاد بالشيءِ: رفع صوته به ـ وبذكره: أثنى عليه ـ وعليه: شَهَّرَ به. (المعجم الوسيط).



ويعلم ذلك جميع من شهد المحشر»[١] ، فيجيءُ قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ـ على هذا التأويل ـ استفهاماً عنهم وتثبتاً فيهم ، كما تقول إذا رأيت مجرماً قد عوقب: «هذا هو الذي فعل كذا وكذا»؟ وإن كنت قد علمت ذلك ، (ويحتمل الإخبار عنهم)[٢].

وقوله: ﴿أَلَا﴾ استفتاحُ كلام ، و«اللَّعْنَةُ»: الإبعاد ، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ نعت لـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. ويحتمل الرفع على تقدير: «هم الذين». و﴿يَصُدُّونَ﴾ يحتمل أن يقدر متعدياً على معنى: يَصُدّون الناس ويمنعونهم من سبيل الله ، ويحتمل أن يقدر غير متعد على معنى: يصُدّون هم ، أي: يُعْرضون. و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: شريعتُه ، و﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ معناه: يطلبون لها ، كما تقول: بغيتك خيراً أو شراً ، أي: طلبت لك ، و﴿عِوَجًا﴾ ـ على هذا ـ مفعول ، ويحتمل أن يكون المعنى: ويبغون السبيل على عِوَج ، أي: فهم لا يهتدون أبداً ، فـ ﴿عِوَجًا﴾ ـ على هذا ـ مصدر في موضع الحال. والعِوَج: الانحراف والميل المؤَدِّي إلى الفساد ، وكرر قوله: ﴿وَهُم﴾ على جهة التأكيد ، وهي جملة في موضع خبر الابتداءِ الأول ، وليس هذا موضع الفصل لأن الفصل إنما يكون بين معرفتين ، أو معرفة ونكرة تقارب المعرفة ، لأنها تفصل ما بين أن يكون ما بعدها صفة أو خبراً وتخلِّصه للخبر.

و﴿مُعْجِزِينَ﴾ معناه: مُفْلتين لا يُقدر عليهم ، وخصَّ ذكر الأرض لأن تصرف ابن آدم وتمتعه إنما هو فيها ، وهي قصاراه لا يستطيع النفوذ منها. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يحتمل معنيين ، أحدهما: أنه نفى أن يكون لهم ولي أو ناصر كائناً من كان. والثاني: أن يقصد وصف الأصنام والآلهة بأنهم لم يكونوا أولياءَ حقيقة ، وإن كانوا هم يعتقدون أنهم أولياءُ. ثم أخبر أنه يُضاعف لهم العذاب يوم القيامة ، أي يُشَدَّدُ حتى يكون ضعفيْ ما كان ، و﴿يُضَٰعَفُ﴾ فعل مستأنف وليس بصفة.

وقوله: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ يحتمل خمسة أوجه:

أحدها: أن يصف هؤلاءِ الكفار بهذه الصفة على معنى أن الله ختم عليهم بذلك ، فهم لا يسمعون سماعاً ينتفعون به ولا يبصرون كذلك.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) الجملة التي بين القوسين المعقوفين ساقطة في أكثر النسخ التي بين أيدينا.

الثاني: أَن يكون وصفهم بذلك من أَجل بغضتهم في النبي ﷺ ، فهم لا يستطيعون أَن يحملوا أَنفسهم على السمع منه والنظر إِليه ، وينظر إِلى هذا حشو الطفيل بن عمرو أُذنيه بالكُرْسُف[1] ، وإِباية قريش وقت الحديبية أَن يسمعوا ما نقل إِليهم من كلام رسول الله ﷺ حتى ردّهم عن ذلك مشيختهم.

والثالث: أَن يكون وصف بذلك الأَصنام والآلهة التي نفى عنها ـ على التأْويل المتقدم ـ أَن تكون أَولياءَ ، و﴿مَا﴾ في هذه الوجوه الثلاثة نافية.

والرابع: أَن يكون التقدير: يضاعف لهم العذاب بما كانوا ، بحذف الجار[2] ، وتكون ﴿مَا﴾ مصدرية ، وهذا قولٌ فيه تحامل ، قاله الفراءُ وقرنه بقوله: «أُجازيك ما صنعت بي».

والخامس: أَن تكون ﴿مَا﴾ ظرفية ، أَي أَن العذاب يضاعف لهم مدة استطاعتهم السمع والبصر ، وقد أَعلمت الشريعة أَنهم لا يموتون فيها أَبداً ، فالعذاب إِذاً مُتمادٍ أَبداً.

وقدم السمع على البصر في هذه الآية لأن حاسَّته أَشرف من حاسة البصر ، إِذ عليه تبنى في الأَطفال مَعْرِفَة دلالات الأَسماءِ ، وإِذ هو كاف في أَكثر المعقولات دون البصر ، إِلى غير ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بوجوب العذاب عليهم ، ولا خسران أعظم من خسران

---

(١) الكُرْسُف: القُطْن.

(٢) والعرب تقول: جزيته ما فعل ، وبما فعل ، فيحذفون الباءَ مرة ويثبتونها أُخرى ، وأنشد سيبويه قول عمرو بن معد يكرب:

أَمَـرْتُـكَ الخَيْـرَ فـافْعَـلْ مـا أُمِـرْتَ بِـهِ ... فَقَـدْتَـرَكْتُـكَ ذا مـالٍ وَذَا نَشَـبِ

أراد: «أمرتك بالخير» فحذف ووصل الفعل ونصب، والنشب: المال الثابت كالضياع ونحوها ، وقيل: جميع المال ، فيكون عطفه على الأول من قبيل المبالغة والتأكيد. (شواهد سيبويه).

النفس[1]. و﴿وَضَلَّ﴾ معناه: تَلِفَ ولم يجدوه حيث أمَّلوه. و﴿لَا جَرَمَ﴾ لفظة مركبة من «لا» ومن «جَرَمَ» بُنِيَتَا معاً، ومعنى «لا جَرَمَ»: حقٌّ. هذا مذهب سيبويه والخليل. وقال بعض النحويين: معناها: لا شكَّ ولا بُدّ ولا مَحَالة، وقد رُوي هذا عن الخليل. وقال الزجاج: ﴿لَا﴾ ردٌّ عليهم ولِمَا تقدم من كل ما قبلها، و﴿جَرَمَ﴾ معناه: كَسَبَ، أَي: كَسَب فعْلُهم ﴿أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾. فموضع ﴿أَنَّ﴾ ـ على مذهب سيبويه ـ رفعٌ، وموضعها ـ على مذهب الزجاج ـ نصب، وقال الكسائي: معناها: لا صدَّ ولا مَنْع.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فكأَن ﴿جَرَمَ﴾ ـ على هذا ـ من معنى القطع، تقول: جرَمْتُ أَي قطعت. هي على منزع الزجاج من الكَسْب، ومنه قول الشاعر:

جَـرِيمـةُ نـاهِـضٍ فـي رَأْسِ نِيـقٍ ... تـرَى لعِظـامِ مـا جَمَعَـتْ صَلِيبـا[2]

وجريمةُ القوم كاسِبُهم. وأَما قول الشاعر:

ولَقَـدْ طعنْـتُ أَبـا أُمَيْمَـةَ طَعْنَـةً ... جَرَمَتْ فَزارَةُ بَعْدَها أَنْ يَغْضَبُوا[3]

---

(١) قال أَبو حيان في (البحر): «وهو على حذف مضاف، أي: راحةَ أوْ سعادةَ أنفسهم، وإلا فأنْفُسُهُم باقية معذبة».

(٢) البيت لأبي خراش الهُذَليّ يصف عُقاباً ترزُق فرْخَها وتكسبُ له، فهي تقدم له ما يأكله من لحم طير أكلته، وبقيت عظامه يسيل منها الدهن، وجريمة بمعنى: كاسبة، قاله في اللسان. والنِّيق: الطويل من الجبال، ورأسُ النِّيق: أَعلى موضع فيه. هذا وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [المائدة: ٢].

(٣) البيت منسوب في (اللسان) و(الصحاح) لأبي أسماءَ بن الضَّريبة. وقيل: إن البيت لعطيَّة بن عفيف، والصواب فيه: «ولَقَدْ طعنتَ» بفتح التاءِ، لأنه يخاطب كُرْزاً العُقَيْلي ويَرْثيه، وقبل البيت:

يـا كُـرْزُ إنَّـكَ قَـدْ قُتِلْـتَ بِفـارسٍ ... بطَـلٍ إذا هـابَ الكُمـاةُ وجَبَّبُـوا

وكان كُرْز قد طعن أبا عُيَيْنَة، وهو حِصْن بن حُذَيْفَة بن بدْر الفَزاريُّ. قال ذلك ابن برّي، ونقله في اللسان عنه. وجَرَم في هذا البيت تحتمل المعنيين كما قال ابن عطية رحمه الله. قال الأخفش: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ معناها حقٌّ أن لهم النار، وأنشد: «جَرَمت فزارة»، يقول: حقَّ لها، وفزارةُ مرفوعةٌ، وقال الفراءُ: «وليس قول من قال: «جرمت: حققْتُ» بشيءٍ، وإنما لبَّس عليهم الشاعر بقوله: «جرمَتْ فزارةُ»، فرفعوا «فزارة» كأنه حقّ لها الغضب، قال: وفزارة منصوبة، أي: جرَمَتهم الطعنة أن يغضبوا، قال أبو عبيدة: أَحَقَّتْ عليهم الغضَب، أي: أَحقَّتِ الطَّعْنَةُ فزارة أن يغضبوا. (راجع التاج واللسان والصحاح).



فيحتمل الوجهين ، ويختلف معنى البيت. وفي «لاَ جرَمَ » ثلاث لغات: يقول بعض العرب: «لا ذَا جَرَمَ» ، وبعضهم «لا أَنْ ذَا جَرَمَ» ، وبعضهم: «لا عَنْ ذَا جَرَمَ» ، وبعضهم: «لاَ جَرَ» ، حذفو الميم لكثرة استعماله.

و﴿ وَأَخْبَتُوٓاْ ﴾ ، قيل: معناه: خشعوا ، قاله قتادة. وقيل: أَنابوا ، قاله ابن عباس رضي عنهما ، وقيل: اطمأَنوا ، قاله مجاهد ، وقيل: خافوا ، قاله ابن عباس أَيضاً. وهذه الأَقوال بعضها قريبٌ من بعض ، وأَصل اللفظ من «الخَبْت» وهو البراحُ القَفْر المستوي من الأَرض ، فكأَن المُخْبت في القفر قد انكشف واستسلم وبقي دون منعة ، فشبه المتذلل الخاشع بذلك ، وقيل: إِنما اشتق منه لاستوائه وطمأْنينته. وقوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ ، قيل: هي بمعنى اللام ، أَي: أَخبتوا لربهم ، وقيل: المعنى: جعلوا قصدهم بإِخباتهم إِلى ربهم[1].

والفريقان: الكافرون والمؤمنون ، شبه الكافر بالأَعمى وبالأَصم ، وشبه المؤمن بالبصير وبالسميع ، فهو ـ على هذا ـ تمثيل بمثالَيْن ، وقال بعض المتأَولين: التقدير: كالأَعمى الأَصم ، والبصير السميع ، ودخلت واو العطف ، كما تقول: جاءَني زيد العاقل والكريم ، وأَنت تريده بعينه ، فهو ـ على هذا ـ تمثيل بواحد[2]. و﴿ مَثَلًا ﴾ نصب على التمييز ، ويجوز أَن يكون حالاً[3].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

---

(١) قيل: إِن (أخبت) يتعدى بإِلى وباللام ، ويقال: أَخْبَتَ: دخل في الخَبْت. كأَنجدَ: دخل نَجْداً ، وَأَتْهَمَ: دخلَ تهامة ، ثم توسع فيه فقيل: خبت ذكره ، خمد.

(٢) إذا كان من تشبيه اثنين بإِثنين فقد قوبل الأَعمى بالبصير ، والأَصم بالسميع ، وإِذا كان تمثيلاً بواحد فمعناه أَنه تشبيه واحد بوصفيه بواحد بوصفيه فيكون من عطف الصفات ، كما قال الشاعر:

إِلـى المِلـكِ القِـرْنِ وابـنِ الهُمَـام ... وليـثِ الكَـريهَـةِ فـي المـزْدَحَـمْ

(٣) قال أَبو حيان: وفي كونه بُعْد ، والظاهر التمييز ، وأَنه منقول من الفاعل ، وأَصله: هل يستوي مثلاهما؟ ـ ولم يذكر القرطبي في إِعرابه غير التمييز.

هذه آية قصص فيه تمثيل لقريش وكفار العرب، وإعلام أن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرسل، وروي أن نوحاً عليه السلام أول رسول إلى الناس، وروي أن إدريس أول نبي من بني آدم إلا أنه لم يرسل، فرسالة نوح إنما كانت إلى قومه كسائر الأنبياء، وأما الرسالة العامة فلم تكن إلا لمحمد ﷺ.

وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة: ﴿إِنِّي﴾ بكسر الألف، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: [أَنِّي] بفتح الألف، فالكسر على إضمار القول، والمعنى: قال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ثم يجيءُ قوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ معمولاً لـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، أي: أرسلنا نوحاً بألَّاتعبدوا إلا الله، واعترض أثناءَ الكلام بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. والفتح على إعمال ﴿أَرْسَلْنَا﴾ في [أَنِّي]، أي: بأني لكم نذير. قال أبو علي: وفي هذه القراءَة خروج من الغيبة إلى المخاطبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر، وإنما هي حكاية مخاطبته لقومه، وليس هذا حقيقة الخروج من غيبة إلى خطاب، ولو كان الكلام «أن أنذرهم» أو نحوه لصحّ ذلك. و«النذير» للتحفظ من المكاره بأن يُعرفها ويُنبَّه عليها، و﴿مُّبِينٌ﴾ من: أبان يُبين.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ظاهر في أنهم كانوا يعبدون الأوثان ونحوها، وذلك بيِّن في غير هذه الآية، و﴿أَلِيمٌ﴾ معناه: مؤلم، ووصف به «اليوم» وحقه أن يوصف به «العذاب» تجوّزاً، إذ العذابُ في اليوم، فهو كقولهم: «نهارٌ صائم وليلٌ قائم».

و﴿ٱلْمَلَأُ﴾ الجمع والأكثر من القبيلة والمدينة ونحوه، ويُسَمى الأشراف ملأً إذْ هم عمدة الملأ والسَّادُون مسَدَّه في الآراءِ والأُمور، وكل جماعة كبيرة ملأٌ. ولمَّا قال لهم نوح: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، أي: والله لا يبعث رسولاً من البشر، فأحالوا الجائز على الله. و«الأراذل» جمع أَرْذَل، وقيل: جمع أَرْذُل، وأرْذَال جمع رَذْل[1]، وكان اللازم ـ على هذا ـ أن يقال: أراذيل، وإذا ثبتت الياءُ في جمع

(١) يقول أكثر أهل اللغة: أراذل: جمع أرْذُل: وأرْذُل: جمع رَذْلٍ، فهو مثل: كلْبٍ وأكْلُب وأكالب، وقد نقل ذلك القرطبي والبحر، وقال في (البحر): «والظاهر أنه جميع أرْذَل التي هي أفعل التفضيل، وجاءَ=



«صَيْرف» فأَحرى أَلا تُزال في موضع استحقاقها وهم سفلة الناس ومَنْ لا خَلاَقَ له ولا يبالي ما يقول ولا ما يقال له.

وقرأ الجمهور: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ بياءٍ دون همز، من: «بَدَا يَبْدُو»، ويحتمل أَن يكون من «بدأَ» مسهَّلاً، وقرأ أَبو عمرو، وعيسى الثقفي [بَادِئَ الرَّأْي] بالهمز مِن «بدأَ يبدأُ».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وبين القراءَتين اختلاف في المعنى يعطيه التدبّر[1] فتركتُ التطويل ببسطه. والعرب تقول: «أَما بادِئَ بدْءٍ فإِنِّي أَحمد الله»، و«أَمّا باديَ بدْيٍ»، بغير همز فيهما، وقال الراجز:

أَضْحَى لِخالي شَبَهي بادِي بَدِي وصارَ لِلْفَحْلِ لِسَاني وَيَدِي[2]

وقال الآخر:

وقَدْ عَلَتْني ذُرْأَةٌ بادِي بَدِي[3]

= جمعاً كما جاء: ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ و(أحاسِنُكم أخلاقاً). ويقال: إن الأراذل هي جمع الأرْذَل كالأساوِدِ جمع الأسْود من الحيّات.

(١) إذا كانت من (بَدَا يبدو) فالمعنى المراد هو الظهور، أي: فيما يظهر لنا ـ وإن كانت من (بدأ يبدأ) ـ سواءٌ بقيت الهمة أو سُهِّلت ـ فالمعنى يكون من بدأتُ، أي: من أوّل الرأي. قال ذلك الفراءُ والجوهري.

(٢) البيت في (اللسان) و(القاموس)، وهو من شواهد أبي عبيدة في تفسيره (مجاز القرآن)، ولم ينسبه أحد منهم، قال في (اللسان): «أراد به: ظاهري في الشبه لخالي، والمعن: خرجتُ عن شرخ الشباب إلى حدّ الكهولة التي معها الرأي والحجا، فصرت كالفحولة التي بها يقع الاختيار، ولها بالفضل تكثر الأوصاف». والفراءُ ينشد البيت شاهداً لعدم الهمز. وتأمل الهامش التالي فالشَّطر الثاني للبيت هنا مثبت فيه على رواية (اللسان).

(٣) هذا بيت من مشطور الرجز، وهو لأبي نُخَيْلَة السعدي، وأنشده الجوهري شاهداً على أن أصله الهمز وإنما تُرك لكثرة الاستعمال، قال: وربما جعلوه اسماً للداهية، كما قال أبو نُخَيْلَة:

وقَدْ عَلَتْني ذُرْأَةٌ بادِي بَدِي
ورَيْثَةٌ تَنْهَضُ بالتَّشَدُّدِ
وصَارَ لِلفَحْلِ لِسَاني وَيَدِي

قال: و(بادي بدى) اسمان جعلا اسماً واحداً مثل: (قالي قلا) و(معد يكرب)، ومن الرأي في (اللسان) أيضاً أنه قد يكون من: بدا يبدو بمعنى: ظهر. والذُّرْأة: الشيب في مقدم الرأس، ويقال: عَلَتْه ذُرْأةٌ أي=



وقرأ الجمهور بهمز ﴿ٱلرَّأۡيِ﴾ ، وقرأ أبو عمرو بترك الهمز ، و﴿بَادِيَ﴾ نصب على الظرف ، وصحّ أن يكون اسم الفاعل ظرفاً كما يصحّ في «قريب» ونحوه ، وفعيلٌ وفاعلٌ متعاقبان أبداً على معنى واحد في المصدر ، كقولك: جهد نفسي محبٌّ كذا وكذا.

وتعلق قوله: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ يحتمل ستةَ أوجه:

أحدها: أن يتعلق بـ ﴿نَرَىٰكَ﴾ ، أي: وما نراك بأول نظر وأقل فكرة ـ وذلك هو باديْ الرأي ـ أي: إلاَّ ومُتَّبعوك أراذلنا.

والثاني: أن يتعلق بقوله: ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ ، أي: وما نراك اتَّبعك بادي الرأي إلا الأراذل ، ثم يحتمل ـ على هذا ـ وقوله: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ معنيين: أحدهما: أن يريد: اتَّبعك في ظاهر أمرهم ، وعسى أنَّ بواطنهم ليست معك ، والثاني: أن اتَّبعوك بأول نظر وبالرأي البادي دون تعقب ، ولو تثبتوك لم يتبعوك ، وفي هذا الوجه ذمُّ الرأي الغير المروي[1].

والوجه الثالث من تعلق قوله: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ أن يتعلق بقوله: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ ، أي: الذين هم أراذلنا بأول نظر فيهم ، وببادي الرأي يُعلم ذلك منهم.

ويحتمل أن يكون قولهم: «بادي الرأي» وصفاً منهم لنوح ، أي: تدَّعي عظيماً وأنت مكشوف الرأي لا حصافة لك ، ونصبه على الحال وعلى الصفة.

ويحتمل أن يكون اعتراضاً في الكلام مخاطبة لمحمد ﷺ ، ويجيءُ جميع هذا ستة معان ، ويجوز التعلق في هذا الوجه بـ ﴿قَالَ﴾.

ومعنى ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾ ، أي: ما ثَمَّ شيءٌ تستحقون به الاتباع والطاعة. ثم قال: ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ فيحتمل أنهم خاطبوا نوحاً ومن آمن معه من

= شيبٌ ، وهي بضم الدال ، والرَّثْيَةُ: انحلالُ الركب والمفاصل.

(١) الأفصح في اللغة أن يقال: (غير المروي) لأن الألف واللام لا تدخل على (غير) إذ الهدف من إدخالها على النكرة تخصيصها بشيءٍ معيَّن ، وليس لإدخالها على (غير) فائدة لأنها لا تتعرف بها وتشتمل على ما لا يحصى. وهناك من اللغويين من يجيز إدخال الألف واللام عليها لأنها تشبه المعرفة ، فهي تضاف إلى المعرفة ويجوز أن يدخل عليها ما يعاقب الإضافة وهو الألف. (راجع «المصباح المنير ـ غير» ، والصبان ، وحواشي الكشاف وغيرها).



قومه، أي: أنتم كاذبون في تصديقكم هذا الكاذب، وقولكم: إنه نبيٌّ مرسل. ويحتمل أنهم خاطبوا نوحاً وحده فيكون من باب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾[1].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

هذه الآية كأنه قال: أرأيتم إن هداني اللهُ وأضلكم، أأُجبركم على الهدى وأنتم كارهون له معرضون عنه؟ واستفهامه في هذه الآية أولاً وثانياً على جهة التقرير، وعبارة نوح عليه السلام كانت بِلُغَتِهِ دالة على المعنى القائم بنفسه، وهذا هو المفهوم من هذه العبارة العربية، فبهذا استقام أن يقال كذا وكذا، إذ القولُ ما أفاد المعنى القائم بنفسه.

وقوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾، أي: على أمر بيّن جليّ، والهاءُ في ﴿بَيِّنَةٍ﴾ للمبالغة كعلاَّمة ونسَّابة. و«إيتاؤه الرَّحْمَةَ» هو هدايته للبيّنة، والمشار إليه بهذا كله النبوةُ والشرعُ. وقوله: ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ تأكيد، كما قال: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[2] ونحوه، وفائدته رفع الاشتراك ولو بالاستعارة.

وقرأ جمهور الناس: [فَعَمِيَتْ]، ولذلك وجهان من المعنى: أحدهما: خفِيَتْ، ولذلك يقال للسحاب: العماءُ لأنه يخفي ما فيه، كما يقال له: الغمام لأنه يغمه، ومنه قوله ﷺ: «كان الله قبل أن يخلق الأشياءَ في عماءٍ»[3]. والمعنى الثاني أن تكون

---

(١) من الآية (١) من سورة الطلاق، وهي من باب الآية في أن المخاطب هو النبي ﷺ والمراد هو ومن معه.

(٢) من الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٣) رواه الترمذي في تفسير سورة (هود)، وابن ماجه في المقدمة، والإمام أحمد في مسنده (٤ ـ ١١، ١٢) ولفظه كما في المسند: عن أبي رزين قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا عزَّ وجلَّ قبل أن يخلق خلقه؟ قال: (كان في عماءٍ، ما تحته هواءٌ، وما فوقه هواءٌ، ثم خلق عرشه على الماءِ).



الإرادة: «فعَمِيتُم أَنتم عنها» لكنه قَلَب، كما تقول العرب: «أَدخلتُ القلنسوةَ في رأسي»، ومنه قول الشاعر:

تَـرَى الثَّـوْرَ فيهـا يُـدْخِـلُ الظِّـلَّ رأْسَـهُ   وسـائـره بـادٍ إِلـى الشَّمْـس أَجْمَـعُ[1]

قال أَبو عليّ: وهذا مما يقلب إِذْ ليس فيه إِشكال، وفي القرآن: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾[2].

وقرأ حَفْصٌ، وحمزة، والكسائي: [فعُمِّيَتْ] بضم العين وتشديد الميم على بناءِ الفعل للمفعول، وهذا إِنما يكون من الإِخفاءِ، ويحتمل أَن القلب المذكور. وقرأ الأَعمش، وغيره: [فعمّاها عليكم]، قال أَبو حاتم: روى الأَعمش عن ابن وثاب: [وَعمِيَتْ] بالواو خفيفة[3].

وقوله: ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ يريد إِلزام جبر كالقتال، وأَما إِلزام الإِيجاب فهو حاصل. وقال النحاس: معناه: أَنُوجبها عليكم؟ وقوله في ذلك خطأٌ. وفي قراءَة أُبي بن كعب: «أَنُلْزِمُكُمُوها من شطر أَنفسنا»، ومعناه من تلقاءِ أَنفسنا ورُوي عن ابن عباس أَنه قرأَ ذلك «من شطر قلوبنا».

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ﴾ الآية. الضمير في ﴿ عَلَيْهِ ﴾ عائد على التبليغ، وقوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ يقتضي أَنهم طلبوا منه طرد الضعفاءِ الذين بادروا إِلى الإِيمان به نظير ما اقترحت قريش على رسول الله ﷺ بطرد أَتباعه بمكة الذين لم يكونوا من قريش. وقوله: ﴿ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾ تنبيه على العودة إِلى الله ولقاءِ جزائه، المعنى: فيوصِّلهم إِلى حقهم عندي إِن ظلمتهم بالطرد، ثم وصفهم بالجهل في مثل هذا الاقتراح ونحوه.

---

(١) البيت غير منسوب، وقد استشهد به في (البحر)، وعلَّق على رأي أبي علي بقوله: «وأما قول الشاعر فليس من باب القلب، بل من باب الاتساع في الظرف».

(٢) (إبراهيم): ٤٧، وأبو حيان لا يوافق أيضاً على أنها من باب القلب، ويقول: «فأَخْلَفَ يتعدى إلى مفعولين، ولك أن تضيف إلى أيهما شئت فليس من باب القلب»، وهو يرى أيضاً أن آيتنا هنا ليست من باب القلب، ويقول: ولو كان ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ من باب القلب لكان التعدي بـ (عن) دون (على)، ألا ترى أنك تقول: «عميتُ عن كذا» ولا تقول: «عميتُ على كذا». (البحر المحيط ٥ ـ ٢١٦).

(٣) يريد بالواو بدلاً من الفاءِ، والكلمة خفيفة الميم.



وقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ الآية. هو استفهام بمعنى تقرير وتوقيف، أي: لا ناصر يدفع عني عقاب الله إن ظلمتهم بالطرد عن الخير الذي قبلوه، ثم وقفهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وعرض عليهم النظر المؤدي إلى صحة هذا الاحتجاج.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢﴾.

قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ عطف على قوله: ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾، ومعنى هذه الآية: إنِّي لا أُمَوِّه عليكم، ولا أتعاطى غير ما أَهَّلني الله له، فلست أَقول: عندي خزائن الله، يريد: القدرة التي يوجد بها الشيءَ بعد حال عدمه. وقد يمكن أَن يكون من الموجودات كالرياح والماءِ، ونحوه كثير باختراع الله له[1]، فإِن سمّي ذلك ـ على جهة التجوز ـ مختزناً فيشبه، أَلا ترى المروي في أَمر ريح عادٍ أَنه فتح عليهم من الريح قدر حلقة الخاتم، ولو كان على قدر منخر الثور لأَهلك الأَرض، ورُوي أَن الريح عتت على الملائكة الموكلين بتقديرها فلذلك وصفها الله تعالىٰ بالعتو، وقال ابن عباس، وغيره: عَتَتْ على الخُزَّان، فهذا ونحوه يقتضي أَن ثم خزانين، ثم قال: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾، ثم انحط عن هاتين فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾، وظاهر هذه الآية فضل المَلَك على البشر وعلى النبي ﷺ، وهي مسأَلة اختلاف، وظاهر القرآن على ما قلنا. وإِن أَخذنا قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ على حدّ أَن لو قال: «ولا أَقول إِني كوكب أَو نحوه» زالت طريقة التفضيل، ولكن الظاهر هو ما ذكرنا.

و﴿تَزْدَري﴾ أَصله: «تزتري» ـ تفتعل ـ من: زرى يزري[2]، ومعنى ﴿تَزْدَري﴾: تحتقر، و«الخَيْر» هنا يظهر فيه أَنه خير الآخرة، اللَّهم إِلا أَن يكون ازدراؤُهم من جهة

---

(١) في إحدى النسخ: «كثير بإبداع الله تعالىٰ له».

(٢) القاعدة أن التاءَ تبدل بعد الزاي دالاً، لأن الزاي مجهورة والتاء مهموسة، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها، ويقال: أزريْتُ عليه إذا عبته، وزريْتُ عليه إذا حقَّرته، وأنشد الفراءُ:

يُبَاعِدُه الصَّديقُ وتَزْدريه ... حليلَتُهُ وينْهَرُهُ الصغير

والأصل أن يقال: «تزدريهم»، ولكن حذفت الهاءُ والميم لطول الاسم.

الفقر، فيكون الخير: المال، وقد قال بعض المفسرين: حيثما ذكر الله الخير في القرآن فهو المال، وفي هذا الكلام تحامل، والذي يشبه أن يقال: إنه حيثما ذكر الخير فإن المال يدخل فيه.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ تسليم لله تعالىٰ، أي: لست أحكم عليهم بشيء من هذا، وإنما يحكُم عليهم بذلك ويُخْرج حكمهُ إلى حيّز الوجود اللهُ تعالىٰ الذي يعلم ما في نفوسهم ويجازيهم بذلك، وقد قال بعض المتأولين: هي ردّ على قولهم: «اتَّبعك أراذلنا على ما يظهر منهم» حسب ما تقدم في بعض تأويلات الآية آنفاً. فالمعنى: لستُ أنا أحكم عليهم بألاَّ يكون لهم خير لِظنكم بهم أن بواطنهم ليست كظواهرهم، الله أعلم بما في نفوسهم. ثم قال: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ لو فعلتُ ذلك ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يضعون الشيءَ في غير موضعه.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾ الآية. معناه: قد طال منك هذا الجدال، وهو المراجعة في الحُجَّة والمخاصمة والمقابلة بالأقوال حتَّى تقع الغلبة، وهو مأْخوذ من الجَدْل، وهو شدة الفتل. ومنه: حبْلٌ مجدولٌ، أي: مُمَرٌ[١]، ومنه قيل للصقر: أجدل، لشدة بِنْيته وفتل أعضائه، والجدالُ: فِعالٌ مصدر فاعَلَ، وهو يقع من اثنين، ومصدر فاعَلَ يأتي على فِعَالٍ وفِيعَالٍ ومفاعلة، فتركت الياءُ من فِيعَال ورفضت. ومن الجدال ما هو محمود، وذلك إذا كان مع كافر حربي في منعته ويطمع بالجدال أن يهتدي، ومن ذلك هذه الآية، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[٢]، إلى غير ذلك من الأَمثلة. ومن الجدال ما هو مكروه، وهو ما يقع بين المسلمين بعضهم في بعض في طلب علل الشرائع، وتصور ما يخبر به الشرع من قدرة الله، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك، وكرهه العلماءُ، والله المستعان. وقرأ ابن عباس: ﴿قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جَدَلَنَا﴾ بغير ألف، وبفتح الجيم، ذكره أبو حاتم[٣].

والمراد بقولهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ العذاب والهلاك. والمفعول الثاني لـ ﴿تَعِدُنَآ﴾ مضمر تقديره: بما تعدناه. ولما كان الكلام يقتضي العذاب جاز أن يستعمل فيه الوعد.

---

(١) يقال: أَمَرَّ الحَبَل بمعنى فَتَله وأحكم فَتْلَه، فهو مُمَرّ.
(٢) من الآية (١٢٥) من سورة النحل.
(٣) كقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٤].

قول عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

المعنى: ليس ذلك بيدي ولا إليَّ توفيته، وإنما ذلك بيد الله، وهو الآتي به إن شاءَ، ولستم من المنعة بحال من يفلت أو يعتصم بمُنْج، وإنما أَنتم في قبضة القدرة وتحت ذِلَّة التملك، وليس نصحي بنافع، ولا إرادتي الخير لكم مغنية إذا كان الله تعالىٰ قد أَراد بكم الإغواءَ والإضلال والإهلاك. والشرط الثاني اعتراضٌ بين الكلام، وفيه بلاغة في اقتران الإرادتين، وأَن إرادة الشر غير مغنية، وتعلق هذا الشرط هو بـ ﴿نُصْحِىٓ﴾، وتعلق الآخر هو بـ (لاَ يَنْفَعُ) والنُّصْحُ هو سَدُّ ثَلْم الرأي للمنصوح وترقيعُه، وهو مأْخوذ من: نَصَحَ الثوبَ إذا خَاطَهُ. والمِنْصح: الإبرة، والخَيْط يقال له: منْصَحٌ ونِصَاحٌ[(١)].

وقالت فرقة: معنى قوله ﴿يُغْوِيَكُمْ﴾: يُضِلكم، من قولهم: غَوَى الرجل يَغْوَى، ومنه قول الشاعر:

فَمَـنْ يَلْـقَ خَيْـراً يحْمَـدِ النَّـاسُ أَمْـرَهُ ... وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ علَى الغَيِّ لائِماً[(٢)]

وإذا كان هذا معنى اللفظة ففي الآية حجة على المعتزلة القائلين: إن الضلال إنما هو من العبد. وقالت فرقة: معنى قوله: ﴿يُغْوِيَكُمْ﴾: يُهلككم، والغَوَى: المرض والهلاك، وفي لغة طيء: أَصبح فلان غاوياً، أَي مريضاً، والغَوَى: بَشَمُ الفصيل، قاله يعقوب في الإصلاح، وقيل: فَقْده اللبن حتى يموت جوعاً، قاله الفراءُ وحكاه

---

(١) يقال: نَصَح الخيَّاطُ الثوبَ إذا أنعم خياطته ولم يترك فيه فتقاً ولا خللاً، شبَّه ذلك بالنصح (أساس البلاغة ـ نصح).

(٢) البيت للمرقش الأصغر، واسمه ربيعة بن سفيان بن سعد، وهو من قصيدة غزلية في حبيبته فاطمة يقول في مطلعها:

ألا يـا اسْلَمـي، لا صَـرْمَ لـي اليَـوْمَ فَـاطِمـا ... ولا أبَـداً مـا دامَ وصْلُـكِ دائِمـاً

والغَوَى هنا هو الضلال والخيبة.

الطبري ، يقال: غَوِيَ يَغْوَى[١]. وحكى الزهراوي أنه الذي قطع عنه اللبن حتى كاد يهلك ولمَّا يهلِك بعد. فإذا كان هذا معنى اللفظة زال موضع النظر بين أهل السُّنَّة والمعتزلة ، وبقي الاحتجاج عليهم بما هو أَبْيَن من هذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ الآية[٢] ونحوها.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

واعتقد مكي أَن للمعتزلة تعلقاً وحجة بالغة بهذا التأويل ، فردَّ عليه وأَفْرط حتى أَنكر أَن يكون الغوى بمعنى الهلاك موجوداً في لسان العرب.

وقوله: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ تنبيه على المعرفة بالخالق. وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إخبارٌ في ضمنه وعيد وتخويف.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الآية. قال الطبري وغيره من المتأولين والمؤلفين في التفسير[٣] إن هذه الآية اعترضت في قصة نوح عليه السلام ، وهي في شأن محمد ﷺ مع كفار قريش: وذلك أَنهم قالوا: افترى القرآن وافترى هذه القصة على نوح ، فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا لو صحّ بسند وجب الوقوف عنده ، وإِلا فهو يحتمل أَن يكون في شأْن نوح عليه السلام ويبقى اتساق الآية مطرداً ، ويكون الضمير في قوله: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ عائد إِلى العذاب الذي توعدهم به ، أَو على جميع أَخباره ، وأُوقع الافتراءُ على العذاب من حيث يقع على الإِخبار به ، والمعنى: أَم يقول هؤلاءِ الكفرة: افترى نوح هذا التَّوعُّد بالعذاب وأَراد الإِرهاب علينا بذلك[٤]. ثم يطرد باقي الآية على هذا.

و﴿أَمْ﴾ هي التي بمعنى «بل» ، و«الإِجْرَامُ» مصدر أَجْرَمَ يُجْرِمُ إِذا جنَى ، يقال:

---

(١) قال في (اللسان): والغَوَى مصدر قولِكَ: غَوِيَ الفَصيلُ والسَّخْلة بالكسر يغوى. . . قال ابن السِّكيّت: هو ألا يَرْوَى من لَبَأ أُمه ، ولا يَرْوَى من اللبن حتى يموت». وقال: «قال ابن شُمَيْل: غَوَى الصبيُّ والفصيل إذا لم يجد من اللبن إلا عُلْقة».

(٢) من الآية (١٢٥) من سورة الأنعام.

(٣) في بعض النسخ: «والمؤلفين في السيّر».

(٤) أرهب تتعدى بنفسها ، ولهذا جاءت العبارة في إحدى النسخ: «وزاد الإرهابَ علينا بذلك».

جَرَمَ وأَجْرَمَ بمعنى، ومن ذلك قول الشاعر:

طَـــرِيـــدُ عَشِيـــرَةٍ ورَهيـــنُ ذنْـــبِ ... بِمَا جَرمَتْ يَدي وجَنَى لِسَانِي[(١)]

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قال أَبو البَرَهْسَم[(٢)]: [وَأَوحى] بفتح الهمزة على إسناد الفعل إلى الله عزَّ وجلَّ، [إِنهُ] بكسر الهمزة، وقيل لنوح هذا بعد أن طال عليه كفر القرن بعد القرن به، وكان يأتيه الرجل بابنه فيقول: يا بُنَيّ لا تُصَدق هذا الشيخ فهكذا عَهِدَه أَبي وجدي كذاباً مجنوناً، رواه عبيد بن عمير وغيره. وهذه الآية هي التي أَيْأَسَتْ نوحاً عليه السلام من قومه، فروي أَنه لما أُوحي إليه ذلك دعا فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[(٣)].

و﴿تَبْتَئِسْ﴾ من البؤس تَفْتعل، ومعناه: لا تحزن نفسك، ومنه قول الشاعر، وهو لبيد بن ربيعة:

فـــي مَـــأْتَـــمٍ كَنِعَـــاجِ صَـــا ... رَةَ يَبْتَئِسْـــنَ بِمَـــا لَقِينَـــا[(٤)]

صَارَة: موضع.

---

(١) جاء في (اللسان) ـ جَرَمَ ـ: «وأنشد أبو عُبَيدة للهَيْرُوَانِ السَّعْدِي أحد لصوص بني سعدٍ: طريدُ عشيرة... إلخ البيت، وفيه: «ورهين جُرْم» بدلاً من «ذَنْب»، وقال: وَجَرَمَ يَجْرِمُ: كَسَبَ، وهو يَجْرُمُ لأهله: يتكَسَّب».

(٢) «قال الصاغاني: هو عمران بن عثمان الزبيدي الشامي ذو القراءات الشواذ، هكذا في العباب، وقد أكثر عنه ابن جني في كتابه المحتسب». هكذا قال الزبيدي في تاج العروس، ثم قال: «وقرأت في حاشية الإكمال للمزّي في ترجمة شريح بن المؤذن ما نصه: رَوَى عن أبي البَرَهْسَم حُدَير بن معدان بن صالح الحضرمي المقري... فلعل هذا غير ما قاله الصاغاني». (تاج العروس ـ برهم).

(٣) من الآية (٢٦) من سورة نوح.

(٤) البيت من قصيدة قالها عندما حضرته الوفاة، وهي في الديوان، ورواه اللسان، والرواية فيهما: «في رَبْرَبٍ» وهو القطيع من البقر الوحشية. والنعاج: جمع نعجة وهي الأنثى من الضأن أو الظباءِ أو البقر الوحشي، والعرب تكني بها عن المرأة، وصارة: ماءٌ بين فَيْد وضريَّة، وخصّ نعاجه لحسنهن بما توافر لهن من مرعى وماءٍ، والابتئاس: الحزن والغم عند الخبر المحزن. يتحدث عن نساء جميلات كنعاج البقر الوحشي وقفن في مأتمه متشحات بالسواد كما يقول في البيت الذي بعده.



قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي أمر نوح عليه السلام تدافع في ظاهر الآيات والأحاديث ينبغي أن نلخص القول فيه، وذلك أن ظاهر أمره أنه عليه السلام دعا على الكافرين عامة من جميع الأمم، ولم يخص قومه دون غيرهم، وتظاهرت الروايات وكتب التفاسير بأن الغرق نال جميع أهل الأرض، وعمَّ الماءُ جميعها، قاله ابن عباس وغيره، ويوجب ذلك أمر نوح بحمل الأزواج من الحيوان، ولولا خوف فناءِ أجناسها من جميع الأرض ما كان ذلك، فلا يتفق لنا أن نقول: إنه لم يكن في الأرض غير قوم نوح في ذلك الوقت، لأنه يجب أن يكون نوح بعث إلى جميع الناس، وقد صح أن هذه الفضيلة خاصة لمحمد عليه الصلاة والسلام بقوله: «أُوتيت خمْساً لَمْ يُؤْتَهُنَّ أَحدٌ قبلي»[1]، فلا بدَّ أن نقدر كثيراً من الأمم كان في ذلك الوقت، وإذا كان ذلك فكيف استحقوا العقوبة في جمعهم ونوح عليه السلام لم يبعث إلى كلهم؟ وكنَّا نقدّر هنا أن الله تبارك وتعالىٰ بعث إليهم رسلاً قبل نوح عليه السلام فكفروا بهم واستمر كفرهم لولا أنَّا نجد الحديث ينطق بأن نوحاً هو أول الرسل إلى أهل الأرض، ولا يمكن أن نقول: «عُذبوا دون رسالة» ونحن نجد في القرآن: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2].

والتأويل المخلّص من هذا كله هو أن نقول: إن نوحاً عليه السلام هو أول رسول بعث إلى كفار من أهل الأرض ليصلح الخلق ويبالغ في التبليغ ويتحمل المشقة من الناس ـ بحسب ما ثبت في الحديث ـ ثم نقول: إنه بُعث إلى قومه خاصة بالتبليغ والدعاء والتنبيه، وبقي أُمم في الأرض كثير لم يكلف القول لهم، فتصح الخاصة لمحمد ﷺ، ثم نقول: إن الأُمم التي لم يُبعث ليخاطبها إذا كانت بحال كفر وعبادة أوثان، وكانت الأدلة على الله تعالىٰ منصوبة معرضة للنظر، وكانوا متمكنين من النظر

(١) الحديث رواه البخاري في التَّيَمُّم وفي الصلاة وفي الغُسل، ورواه الدارمي في السيَّر، ولفظه كما في البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أُعطيت خمساً لم يُعْطهُنَّ أحدٌ قبلي، نصرتُ بالرُّعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أُمتي أدركته الصلاة فَلْيُصل، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قَبْلي، وأُعْطيتُ الشَّفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة»، وزاد في الجامع الصغير أن النسائي رواه، ورمز له الإمام السيوطي بالصحة.

(٢) من الآية (١٥) من سورة الإسراء.



من جهة إدراكهم، وكان الشرع ـ ببعث نوح ـ موجوداً مستقراً، فقد وجب عليهم النظر، وصاروا بتركه بحال من يجب تعذيبه، فإن هذا رسول مبعوث وإن كان لم يبعث إليهم معينين، ألا ترى أن لفظ الآية إنما هو: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾، أي: حتى نوجده، لأن بعثة الأنبياءِ إلى قوم مخصوصين إنما هو في معنى القتال والشدة، وأما من جهة بذل النصيحة وقبول من آمن فالناسُ أجمع في ذلك سواءٌ، ونوح عليه السلام قد لبث ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو إلى الله، فغير ممكن أن لم تبلغ نبوءته للقريب والبعيد، ويجيءُ تعذيب الكل بالغرق بعد بعثة رسول وهو نوح ﷺ. ولا يعارضنا مع هذه التأويلات شيءٌ من الحديث ولا الآيات، والله الموفق للصواب.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾ عطف على قوله: ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾. والفُلْك: السفينة، وجمعها أيضاً فُلْك، وليس هو لفظاً للواحد والجمع، وإنما هو فُعْل وجمع على فُعْل، ومن حيث جاز أن يجمع فَعَل على فُعْل كأسد وأُسْد جاز أن يجمع فُعْل على فُعْل، فظاهر لفظ الجمع فيها كظاهر لفظ الواحد وليس به، تدل على ذلك درجة التثنية التي بينهما، لأنك تقول: فُلْك وفُلْكان وفُلْك، فالحركة في الجمع نظير ضمة الصاد إذا ناديت: «يا منصُو»، تريد: يا منصور، فرخمت على لغة من يقول: «يا حارُ» بالضم، فإن ضمة الصاد هي في اللفظ كضمة الأصل، وليست بها في الحكم.

وقوله: ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ يمكن ـ فيما يُتأول ـ أن يريد به: بمرأى مِنَّا وتحت إدراك، فتكون عبارة عن الإدراك والرعاية والحفظ، ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾[1]، فرجع معنى الأعين في هذه وفي غيرها إلى معنى (عَيْن) في قوله: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾[2]، وذلك كله عبارة عن الإدراك وإحاطته بالمدركات، وهو تبارك وتعالىٰ مُنزَّه عن الحواسّ والتشبيه والتكييف لاَ رَبَّ غيره. ويحتمل قوله: ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي: بملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على مواضع حفظك ومعونتك، فيكون الجمع ـ على هذا ـ للتكثير. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿ بِأَعْيُنَّا ﴾ مدغماً.

---

(١) من الآية (٢٣) من سورة المرسلات، ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾.

(٢) من الآية (٣٩) من سورة طه.



وقوله: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ معناه: وتعليمنا لك صورة العمل بالوحي، وروي في ذلك أَن نوحاً عليه السلام لما جهل كيفية صنع السفينة أَوحى الله إِليه أَن اصنعها على مثال جؤجؤ الطير، إِلى غير ذلك مما علمه نوح من عملها، فقد روي أَيضاً أَنها كانت مربعة الشكل طويلة في السماء ضيقة الأَعلى، وأَن الغرض منها إِنما كان الحفظ لا سرعة الجري، والحديث الذي تضمن أَنها كجؤجؤ الطائر أَصح ومعناه أَظهر، لأَنها لو كانت مربعة لم تكن فُلْكاً، بل كانت وعاءً فقط، وقد وصفها الله تعالىٰ بالجري في البحر، وفي الحديث: «كان رَازُ سفينة نوح عليه السلام جبريل عليه السلام»، والرّاز: القَيِّم يعمل السفن[1]، ومن فسّر قوله: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أَي: «بِأَمرنا لك»، فذلك ضعيف، لأَن قوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ مُغْنٍ عن ذلك.

و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ هم قومه الذين أَعرضوا عن الهداية حتى عمَّتهم النقمة. قال ابن جريج: وهذه الآية تقدم الله[2] فيها إِلى نوح أَلاَّ يشفع فيهم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾.

التقدير: فشرع يصنع، فحكيت حال الاستقبال إِذ في خلالها وقع مرورهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: صنع نوح عليه السلام الفلك بيفاع دمشق[3]، وأَخذ عودَها من لبنان، وعودُها من الشمشاد وهو البقص[4]، ورُوي أَن عودها من الساج، وأَن

(١) في (اللسان): «الرّازُ: رأس البنّائين، لأنه يروز الحجر واللبن، والجمع الرّازة، وقد يستعمل ذلك لرأس كل صناعة، من: راز يروز إذا امتحن عمله فحذقه». وأصل «الراز»: الرائز. (وراجع النهاية لابن الأثير).

(٢) يقال: تقدم إلى فلان بكذا: أمَرَه به أو طلب منه. (المعجم الوسيط).

(٣) اليَفَاع: المرتفعُ من كل شيء، يكون في المشرف من الأرض، والجبل، والرمل، وغيرها. (المعجم الوسيط).

(٤) هكذا بالنسخ التي بأيدينا، والموجود في المعاجم البَقْسُ (بالسين لا بالصاد). قال في المعجم الوسيط: =

نوحاً عليه السلام اغترسه حتى كبر في أربعين سنة ، ورُوي أن طول السفينة ألف ذراع ومائتان ، وعرضها ستمائة ذراع ، ذكره الحسن بن أبي الحسن. وقيل: طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً وطولها في السماءِ ثلاثون ذراعاً ، ذكره قتادة ، ورُوي غير هذا مما لم يثبت فاختصرت ذكره ، وذكر الطبري حديث إحياءِ عيسى بن مريم لِسام بن نوح وسؤاله إياه عن أمر السفينة ، فذكر أنها ثلاث طبقات: طبقة للناس ، وطبقة للبهائم ، وطبقة للطير ، إلى غير ذلك في حديث طويل(١).

و«المَلأُ» هنا: الجماعة ، و﴿ سَخِرُواْ ﴾ معناه: استجهلوه ، وهذا الاستجهال ـ إن كان الأمر كما ذكر أنهم لم يكونوا قبْلُ رأوا سفينة ولا كانت فوجه الاستجهال واضح ، وبذلك تظاهرت التفاسير ، وإن كانت السفائن حينئذ معروفة فاستجهلوه في أن صَنَعَها في قرية لا قرب لها من البحر . ورُوي أنهم كانوا يقولون له: صرتَ نجاراً بعد النبوة؟.

وقوله: ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ قال الطبري: يريد: في الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتمل الكلام ـ بل هو الأرجح ـ أن يريد: إنا نسخر منكم الآن ، أي نستجهلكم لعلمنا بما أنتم عليه من الغَرَر والكون بمدرج عذابه. ثم جاءَ قوله: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديداً. والسَّخْرُ: الاستجهال مع استهزاءٍ ، ومصدره: «سُخْرِيّ» بضم السين ، والمصدر من السُّخرة والتَّسَخُّر «سِخْرِيّ» بكسرها(٢).

والعذاب «المخزي» هو الغَرق ، و«المقيم» هو عذاب الآخرة. وحكى الزهراوي أنه يُقرأُ: [ويحُلُّ] ، ويُقرأُ: ﴿ وَيَحِلُّ ﴾ بكسرها بمعنى: ويجب. و﴿ مَن ﴾ في موضع نصب بـ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ ، وجائز أن يكون ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ بمثابة «تعرفون» في التعدي إلى مفعول واحد ، وجائز أن تكون التعدية إلى مفعولين واقتصر على الواحد(٣).

= «البقس: شجر يشبه الآس خشبه صلب يعمل منه بعض الأدوات» ، وقال في القاموس: «أو هو شجر الشَّمْشاذ (بالذال المعجمة) ، منابته بلاد الروم ، تتخذ منه المغالق والأبواب لمتانته وصلابته».

(١) الحديث طويل ، وقد أورده الطبري في تفسيره.

(٢) في (اللسان): «سخر منه وبه سَخْراً ، وسَخَراً ، ومَسْخَراً ، وسُخْراً بالضم ، وسُخْرَةً ، وسِخْرِيّاً ، وسُخْرِيّاً ، وسُخْرِيَّةً: هزئ به» وفيه: «والاسم السُّخْرِيَّةُ ، والسُّخْرِيُّ». تأمل هذا وكلام ابن عطية رحمه الله.

(٣) قال أبو حيان تعقيباً على ذلك: «ولا يجوز حذف الثاني اقتصاراً لأن أصله خبر مبتدأ ، ولا اختصاراً هنا=



وقوله تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا ﴾ الآية. الأمرُ ها هنا يحتمل أَن يكون واحد الأُمور ، ويحتمل أَن يكون مصدر أَمَرَ ، فمعناه: أَمْرُنا للماءِ بالفوران ، أَو للسّحاب بالإِرسال ، أَو للملائكة بالتصرف في ذلك ونحو هذا مما يقدر في النازلة. و﴿ وَفَارَ ﴾ معناه: انبعث بقوة ، واختلف الناس في ﴿ ٱلتَّنُّورُ ﴾ ـ فقالت فرقة ـ وهي الأَكثر ـ منهم ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما: هو تنور الخبز الذي يوقد فيه. وقالت فرقة: كانت هذه أَمارة جعلها الله لنوح ، أَي: إِذا فار التَّنُّور فاركب في السفينة ، ويشبه أَن يكون وجه الأَمارة أَن مستوقد النار إِذا فار بالماءِ فغَيْرُه أَشَدُّ فوراناً وأَحرى بذلك ، ورُوي أَنه كان تَنُّور آدم خَلَص إِلى نوح عليهما السلام فكان يوقد فيه. وقال النقاش: اسم المستوقد التَّنُّور بكل لغة ، وذكر نحو ذلك ابن قتيبة في الأَدب عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد.

وقيل: إِن موضع تَنُّور نوح عليه السلام كان بالهند ، وقيل: كان في موضع مسجد الكوفة ، وقيل: كان في ناحية الكوفة ، قاله الشعبي ، ومجاهد ، وقيل: كان في الجهة الغربية من قبلة المسجد بالكوفة ، وقال ابن عباس ، وعكرمة: التَّنُّور: وجه الأَرض ، ويقال له: تنُّور الأَرض. وقال قتادة: التَّنُّور: أَعالي الأَرض ، وقالت فرقة: التَّنُّور: عين بناحية الجزيرة. وقال الحسن بن أَبي الحسن: التَّنُّور: مجتمع ماءِ السفينة فار منه الماءُ وهي بعد في اليبس. وقالت فرقة: التَّنُّور هو الفجر ، المعنى: إِذا طلع الفجر فاركب في السفينة ، وهذا قولٌ روي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، إِلاَّ أَن التصريف يضعفه ، وكان يلزم أَن يكون التنوير[1] ، وقالت فرقة: الكلام مجاز ، وإِنما أَراد غلبة الماءِ وظهور العذاب ، كما قال النبي ﷺ لشدة الحرب: «حمي

= لأنه لا دليل على حذفه».

(١) الكلمة في جميع النسخ «التَّنُّور» ، والمعنى المراد لا يستقيم بها إذ لا فرق بينها وبين الكلمة الموجودة فعلاً ، وبالرجوع إلى أصل الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره عن أبي جُحيفة عن عليّ رضي الله عنه وجدنا نصّه. قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ قال: هو تنوير الصبح ، ومن هنا جاء اختيارنا لكلمة «التنوير» بدلاً من كلمة «التنور» لأنها هي المنسوبة للإمام علي كرّم الله وجهه.



الوطيس»[١] والوَطيسُ أيضاً مستوقد النار ، فلا فرق بين «حَمِيَ» و«فَار» إذ يستعملان في النار ، قال الله تعالىٰ: ﴿ سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴾[٢] فلا فرق بين الوطيس والتَّنُّور.

وقرأ حفص عن عاصم ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ بتنوين ﴿كُل﴾ وقرأ الباقون: [مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ] بإضافة [كُل] إلى [زَوْجَيْن] ، فمن قرأ بالتنوين حذف المضاف إليه ، التقدير: من كل حيوان أو نحوه ، وأعمل «الحَمْلَ» في ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾ ، وجاءَ قوله: ﴿ ٱثْنَيْنِ ﴾ تأكيداً ، كما قال: ﴿ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾[٣]. ومن قرأ بالإضافة فأعمل «الحَمْلَ» في قوله: ﴿ ٱثْنَيْنِ ﴾ ، وجاءَ قوله: ﴿ زَوْجَيْنِ ﴾ بمعنى العموم ، أي: من كل ماله ازدواج ، هذا معنى قوله: ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ﴾ ، قاله أبو علي وغيره. ولو قدرنا المعنى: احمل من كل زوجين حاصلين اثنين لوجب أن يحمل من كل نوع أربعة. والزوج يقال: ـ في مشهور كلام العرب ـ للواحد مما له ازدواج ، فيقال: هذا زوج هذا ، وهما زوجان ، وهذا هو المهيع في القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾[٤] ، ثم فسَّرها ، وكذلك هو في قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾[٥]. قال أبو الحسن الأخفش في كتابه «الحجة»: وقد يقال في كلام العرب للاثنين: زَوْجٌ ، ومن ذلك قول لبيد:

مِـنْ كُـلِّ مَحْفُـوفٍ يُظِـلُّ عِصِيَّـهُ ... زَوْجٌ عليـه ، كِلَّـةٌ وقِـرَامُهَـا[٦]

وهكذا يأخذ العدديون. والزوج أيضاً في كلام العرب: النوع ، كقوله تعالىٰ:

---

(١) لفظ الحديث كما رواه الإمام أحمد في مسنده عن كثير بن عباس قال: (كان عباس وأبو سفيان معه ـ يعني النبي ﷺ ـ ، قال: فخطبهم وقال: الآن حمي الوطيس ، وقال: ناديًا: يا أصحاب سورة البقرة). ومن رواية أخرى للحديث أطول من هذه يتضح أن ذلك كان في (حنين). والحديث رواه مسلم أيضاً في الجهاد.

(٢) من الآية (٧) من سورة الملك.

(٣) من الآية (٥١) من سورة النحل.

(٤) من الآية (١٤٣) من سورة الأنعام.

(٥) من الآية (٤٥) من سورة النَّجم.

(٦) البيت رواه في اللسان على أن معنى «الزّوج»: النَّمط أو الديبَاج. و«المحفوف»: الهودج الذي ستر بالثياب ، و«عصيّ»: مفعول به مقدم ، والفاعل كلمة «زوجٌ» والمراد بها النَّمط الذي يطرح على الهودج ، وسمّي بذلك لاشتماله على ما تحته اشتمال الرجل على المرأة ، قاله في اللسان ثم عقَّب عليه بقوله: «وهذا ليس بقوي» ، ثم فسّر الشاعر «النّمط» بأنه كِلَّةٌ وقرام ، والكِلَّة: الستر الرقيق المثقب الذي يتقى به من البعوض وغيره ، والقِرَامُ: السِّتر يكون فيه نقوش ، أو الكساءُ الغليظ من الصوف ذي الألوان يتخذ سِتْراً ويتخذ فِرَاشاً في الهودج.

﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[1]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾[2].

وروي في قصص هذه الآية أن نوحاً عليه السلام كان يأتيه الحيوان فيضع يمينه على الذكر. ويساره على الأُنثى، وروي أن أول ما دخل في السفينة الذَّرّ وآخر ما دخل الحمار، فتمسك الشيطان بذنبه، فزجره نوح عليه السلام فلم ينبعث، فقال له: «ادخل ولو كان معك الشيطان»، قال ابن عباس رضي الله عنهما: زلت هذه الكلمة على لسانه فدخل الشيطان حينئذ، وكان في كوثل السفينة ـ أي عند مؤخرها ـ وقيل: كان على ظهرها، ورُوي أن نوحاً عليه السلام آذاه نتن الزبل والعذرة، فأوحى الله إليه أن امسح على ذنب الفيل ففعل، فخرج من الفيل ـ وقيل: من أنفه ـ خنزير وخنزيرة، فكفيا نوحاً وأهله ذلك الأذى، وهذا يجيءُ منه أن نوع الخنازير لم يكن قبل ذلك، ورُوي أن الفأر آذى الناس في السفينة بقرض حبالها وغير ذلك، فأمر الله نوحاً أن يمسح على جبهة الأسد ففعل، فعطس فخرج منه هرٌّ وهرَّة، فكفياهم الفأر، وروي أيضاً أن الفأر خرج من أنف الخنزير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله قصص لا يصح إلا لو استند، والله أعلم كيف كان.

وقوله: ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ عطف على ما عمل فيه ﴿ احْمِلْ ﴾، والأهل هنا: القرابة، وبشرط من آمن منهم خُصصوا تشريفاً، ثم ذكر من آمن وليس من الأهل، واختلف في الذي ﴿ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ ـ فقيل: هو ابنه يام، وقال النقاش: اسمه كنعان، وقيل: هي امرأته «والعة»، هكذا اسمها بالعين غير منقوطة، وقيل: هو عموم فيمن لم يؤمن من أهل نوح وعشيرته. و﴿ الْقَوْلُ ﴾ ها هنا معناه: القول بأن يعذب، وقوله: ﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ عطف على قوله: ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾. ثم قال إخباراً عن حالهم: ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ واختلف في ذلك القليل ـ فقيل: كانوا ثمانين رجلاً وثمانين امرأة، وقيل: كان جميعهم ثلاثة وثمانين، وقيل: كانوا ثمانين في الكل، قاله السُّدي، وقيل: عشرة، وقيل: ثمانية، قاله قتادة، وقيل: سبعة، والله أعلم. وقيل: كان في السفينة جُرْهُم،

---

(١) الآية (٧) من سورة ق.

(٢) من الآية (٣٦) من سورة يس.



وقيل: لم ينج من الغرق أحد إلا عوج بن عنق، وكان في السفينة مع نوح عليه السلام ثلاثة من بنيه: سام، وحام، ويافث، وغرق يام، ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٤١ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٢﴾.

المعنى: وقال نوح ـ حين أُمر بالحمل في السفينة ـ لمن آمن معه: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾، فأنَّث الضمير إذ هي سفينة، لأن «الفُلْك» المذكور مذكَّر، وفي مصحف أُبي: «على اسْم الله»، وقوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ يصحُّ أَن يكون في موضع الحال من الضمير الذي في قوله: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾، كما تقول: «خرج زيد بثيابه وبسلاحه»، أَي: اركبوا متبرِّكين بالله تعالىٰ، ويكون قوله ﴿مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ ظرفين، أَي: وقْتَ إِجرائها وإِرسائها، كما تقول العرب: «الحمد لله سِرَارُك وإِهْلالُك[1]، وخفوق النجم، ومقدم الحاج»، فهذه ظرفية زمان، والعامل في هذا الظرف ما في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ من معنى الفعل. ويصح أَن يكون قوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ في موضع خبر، و﴿مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ ابتداءٌ مصدران كأَنه قال: «اركبوا فيها فإِن ببركة الله إِجراءَها وإِرساءَها»، وتكون هذه الجملة ـ على هذا ـ في موضع حال من الضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾، ولا يصح أَن يكون حالاً من الضمير في قوله: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾ لأَنه لا عائد في الجملة يعود عليه، وعلى هذا التأْويل قال الضحاك: إِن نوحاً كان إِذا أَراد جري السفينة قال: «بسم الله» فتجري، وإِذا أَراد وقوفها قال: «بسم الله» فتقف.

وقرأَ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ وابن عامر: [مُجْرَاهَا ومُرْسَاهَا] بضم الميمين على معنى: إِجرائها وإِرسائها، وهي قراءة مجاهد، وأَبي رجاءٍ، والحسن، والأَعرج، وشيبة، وجمهور الناس، ومنه قول لبيد:

---

(١) السِرَّار بالفتح والكسر: وسَرارُ الشهر: آخر ليلة فيه. (القاموس والمعجم الوسيط). وفي التاج عن الأزهري أن الكسر لغة ليست بجيدة. وأَهَلَّ الشهرُ: ظهر هلالُه، وأَهَلَّ فلانٌ: رفع صوته وصاح، ويقال: أَهَلَّ الصبيُّ، وأَهَلَّ الملبِّي. وغيرها.



وَعمرتُ حَرْساً قَبْلَ مُجْرَى داحِسٍ لَوْ كانَ لِلنَّفْسِ اللَّجُوجِ خُلُودُ(١)

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: [مَجْرِيهَا] بفتح الميم وكسر الراءِ، وكلهم(٢) ضم الميم من ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾، وقرأ الأعمش، وابن مسعود: [مَجْراها ومَرْساها] بفتح الميمين، وذلك من الجري والرسوّ، وهذه ظرفية مكان، ومن ذلك قول عنترة:

فَصَبَرْتُ نفساً عنْدَ ذَلِكَ حُرَّةً تَرْسُو إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطَلَّعُ(٣)

واختار الطبري قراءة ﴿مَجْرِيهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ بفتح الميم الأول وضمّ الثانية، ورجحها بقوله تعالىٰ: ﴿وَهِيَ تَجْرِي﴾ ولم يقرأ أحد «تُجْري»، وهي قراءَة ابن مسعود أيضاً، رواها عنه أبو وائل، ومسروق، وقرأ ابن وثاب، وأبو رجاءِ العطاردي، والنَّخعي، والجحدري، والكلبيّ، والضحاك بن مُزاحم، ومسلم بن جُندب، وأهل الشام: [مُجْرِيهَا ومُرْسِيهَا]، وهما ـ على هذه القراءَة ـ صفتان لله تعالىٰ عائدتان على ما ذكره في قوله ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾(٤).

---

(١) البيت من قصيدة للبيد يتحدث فيها عن طول عمره وسأمه من الحياة، ويتحدث عن مآثره، وقبله البيت المشهور:

ولَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وطُولِهَا وسُؤَالِ هذا النَّاسِ كَيْفَ لبيدُ

والبيت في الديوان: «وغَنِيتُ سَبْتاً»، ويروى: و«غَنيت حَرْساً»، ويروى: «بعد مُجْرى». «وعمَرْت وغَنِيتُ» معناهما: عِشْتُ. ومُجْرى: إجراءُ، وداحس والغبراءُ: فرسان جرّ الرهان عليهما إلى الحرب المشهورة بين عبْسٍ وذبيان في أواسط القرن السادس الميلادي، والسَّبْتُ والحرْس بمعنى: الدهر، وقدرهما قوم بعدد من السنين، ولكن المقصود الحقيقي محض حقبة طويلة من الزمن.

(٢) يريد الثلاثة: حمزة، والكسائي، وحفصاً في قراءته عن عاصم.

(٣) البيت في (اللسان)، ذكره بعد قوله: «ولو حَبَس رجلٌ نفسه على شيءٍ يريده قال: (صَبَرْتُ نفسي)، قال عنترة يذكر حرباً كان فيها: فَصَبَرْتُ عارفَةً لِذَلكَ حُرَّةً...» وبهذه الرواية جاء البَيت في شعر عنترة كما قال أبو عُبَيْد، ومعنى (صَبَرْتُ عَارفَةً): حَبَسْتُ نفساً عارفة أي: صابرة، تصبر للشدائد ولا تنكرها، وترسُو: تثبت وتستقر ولا تتطلع إلى الخلق جُبْناً وفزعاً كما تتطلع نفسُ الجبان. والشاهد في البيت أن (مَرْسَاهَا) تكون من الفعل: رَسَا يَرْسُو.

(٤) قال أبو حيان تعقيباً على كلام ابن عطية: «ولا يكونان صفتين إلا على تقدير أن يكونا معرفتين، وقد ذهب الخليل إلى أن ما كانت إضافته غير محضة قد يصح أن تجعل محضة فتعرَّف، إلا ما كان من الصفة المشبهة فلا تتمَحَّض إضافتها فلا تعرف»، ومعنى هذا أن كلام ابن عطية صحيح على مذهب الخليل.



وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تنبيه لهم على على قدر نعم الله عليهم ورحمته لهم وستره عليهم وغفرانه ذنوبهم بتوبتهم وإنابتهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ الآية. رُوي أَن السماءَ أَمطرت بأَجمعها حتى لم يكن في الهواءِ جانب لا مطر فيه، وتفجرت الأَرض كلها بالنبع، فهكذا كان التقاءُ الماءِ، ورُوي أَن الماءَ علاَ على الجبال وأَعالي الأَرض أَربعين ذراعاً، وقيل: خمسة عشر ذراعاً. وأَشار الزجاج وغيره إِلى أَن الماءَ انطبق، ماءُ الأَرض وماءُ السماءِ فصار الكل كالبحر.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، وأَين «كان الموج كالجبال» على هذا؟ وكيف استقامت حياة من في السفينة على هذا؟.

وقرأَت فرقة: [ٱبْنِهِ] على إِضافة «الابن» إِلى [نُوحُ]، وهذا قول من يقول: هو ابنه لصلبه، وقد قال قوم: إِنه ابن قريب له، ودعاه بالبنوة حناناً منه وتلطفاً، وقرأَ ابن عباس: «ٱبْنَهْ» بسكون الهاءِ، وهذا على لغةٍ لأَزْد السَّرَاة[1]. ومنه قول الشاعر:

. . . . مِطْــوَايَ مُشْتَــاقَــانِ لَــهْ أَرِقَــانِ[2]

وقرأَ السُّدّي: «ابْنَاه»، قال أَبو الفتح: ذلك على النداءِ، وذهبت فرقة إِلى أَن ذلك على جهة النُّدْبة مَحْكِيَّةً. وقرأَ عروة بن الزبير، وعليّ بن أَبي طالب رضي الله عنه:

---

(١) جاء في (الصّحاح): أَزْدٌ: أَبو حَيٍّ من اليمن، وهو أزد بن غوث... بن سبأ، وهو بالسين أفصح، يقال: أزد شَنوءَة، وأزد عُمَان، وأزدُ السَّراة، قال الشاعر النجاشي ـ قيس بن عمرو ـ:

وكنْــتُ كَــذِي رِجْلَيْــن رِجْــلٍ صَحيحَــةٍ ... ورِجْــلٍ بهــا ريْــبٌ مِــنَ الحَــدَثَــانِ
فَــأَمَّــا الَّتــي صَحَّــتْ فــأَزْدُ شَنُــوءَةٍ ... وأمَّــا الَّتــي شلَّــتْ فَــأَزْدُ عُمَــانِ

(٢) هذا عجز بيت، نقل صاحب اللسان عن ابن بري أنه لرجل من أزد السَّرَاة يصف برقاً، ثم قال: وذكر الأصبهاني أنه ليَعْلَى بن الأحول، والبيت بتمامه:

فَظَلْــتُ لَــدَى البَيْــتِ العَتيــقِ أُخِيلُــهُ ... ومِطْــوايَ مُشْتَــاقَــانِ لَــهْ أرقَــان

ويروى «البيت الحرام»، ويروى الشطر الأخير: «ومِطْوَايَ مِنْ صدْقٍ لَهُ أرِقَانِ»، ومعنى أُخِيلُهُ: أَنظر إلى مَخِيلَته، والهاءُ عائدة على البرق في بيت قبله وهو:

أَرِقْــتُ لِبَــرْقٍ دُونَــهُ شَــرَوان ... يمــانٍ، وأهْــوَى البَــرْقَ كــلَّ يَمَــانِ

ومِطْوَايَ: مُثَنَّى مِطْو، ومِطْوُ الرجل: صديقه وصاحبه ونظيره، وقيل: في السفر خاصة. (خزانة الأدب، والخصائص).

«ابنَها» ، وتأَوَّلوا ذلك على أَنه دعا ابن امرأَته الكافرة إِذْ قد تقدم ذكرها في قوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ ، وعلى هذه القراءَة يدخل تأْويل من قال: «كانت خائنة» فيه ، وسيأْتي ذكر هذا بعد ، وقرأَ علي بن أَبي طالب ، وعروة بن الزبير أَيضاً ، وأَبو جعفر ، وجعفر بن محمد: «ابْنَهَ» على تقدير: «ابنَهَا» فحذفت الأَلف تخفيفاً ، وهي لغة ، ومنها قول الشاعر:

إِمَّا تَقُودُ بِه شَاةً فَتَأْكُلُها ... أَوْ أَنْ تَبِيعَهَ في بعْضِ الأَرَاكِيبِ[1]

وأَنشد ابن الأَعرابي على هذا:

فَلَسْتُ بِمُدْرِكٍ ما فَاتَ مِنِّي ... بِلَهْفَ ولاَ بِلَيْتَ ولاَ لَوَانِّي[2]

يريد: بِلَهْفَا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وخطَّأَ النحاس أَبا حاتم في حذف هذه الأَلف ، وليس كما قال. وقرأَ وكيع بن الجراح: [وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ] بضم التنوين ، وقال أَبو حاتم: هي لغة سوءٍ لا تعرف.

وقوله: ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ ، أَي: في ناحية ، فيمكن أَن يريد: في معزل في الدين ، ويمكن أَن يريد: في معزل في بُعْده عن السفينة ، واللفظ يعمهما. وقال مكي في «المشكل»: (ومن قال «مَعْزِل» بكسر الزاي أَراد الموضع ، ومن قال: «مَعزَل» بفتحها أَراد المصدر). فلم يصرح بأَنها قراءَة ، ولكن يقتضي ذلك لفظُه.

---

(١) أراد «تَبِيعَهَا» فحذف الألف تشبيهاً لها بالواو والياء لما بينهما وبينها من النسبة وهذا شاذٌّ ـ قال ذلك في (اللسان) ، والأراكيب: جمع أُركوب بضم الهمزة ، وهو أكثر من الرَّكْب ، والرَّكْبُ في الأصل هو راكب الإبل خاصة ، ثم اتسع فأُطلق على كل من ركب دابّة ، قالوا وأنشد ابن جني:

أَغْلَقْتَ بِالذِّئْبِ حَبْلاً ثُمَّ قُلْتَ لَهُ ... الْحَقْ بِأَهْلِكَ واسْلَمْ أَيُّهَا الذِّيبُ

إِمَّا تقولُ بِهِ شَاةٌ فَتَأْكُلُهَا ... أَوْ أَنْ تَبِيعَهَ فِي بَعْضِ الأَرَاكِيبِ

هكذا باللام في «تقولُ» ورفع «شاة» على رواية اللسان.

قال القرطبي: «فأما قراءَة ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ﴾ فقراءَة شاذة ، وزعم أبو حاتم أنها تجوز على أنه يريد «ابنَهَا» فحذف الألف ، كما تقول: «ابنَهُ» فتحذف الواو ، وقال النحاس: وهذا الذي قاله أبو حاتم لا يجوز على مذهب سيبويه ، لأن الألف خفيفة فلا يجوز حذفها ، والواو ثقيلة يجوز حذفها». ا هـ.

(٢) قال في (اللسان): أنشده الأخفش ، وابن الأعرابي ، وغيرهما. واللَّهْف واللَّهَف: الأسى والحزن والغيظ على شيءٍ يفوتك بعدما تشرف عليه. وأراد الشاعر: لا أدرك ما فاتني بأن أقول: «والَهْفا» ، فحذف الألف.

وقرأ السبعة: [يا بُنَيِّ] بكسر الياءِ المشددة، وهي ثلاث ياءَات: أُولاها: ياءُ التصغير، وحقها السكون، والثانية: لام الفعل، وحقها أَن تكسر بحسب ياءِ الإِضافة، إِذ ما قبل ياءِ الإِضافة مكسور، والثالثة: ياءُ الإِضافة، فحذفت ياءُ الإِضافة إِما لسكونها وسكون الراءِ[١]، وإِما إِذ هي بمثابة التنوين في الأَعلام وهو يحذف في النداءِ، فكذلك ياءُ الإِضافة، والحذف فيها كثير في كلام العرب، تقول: يا غلامِ، ويا عبيدِ، وتبقى الكسرة دالة، ثم أُدغمت الياءُ الساكنة في الياءِ المكسورة. وقد رَوى أَبو بكر، وحفصٌ عن عاصم أَيضاً: ﴿يَـٰبُنَيَّ﴾ بفتح الياءِ المشددة، وذكر أَبو حاتم أَن المفضل رواها عن عاصم، ولذلك وجهان: أَحدهما: أَن يبدل من ياءِ الإِضافة أَلفا، وهي لغة مشهورة، تقول: يا غلامَا، ويا عينَا، فانفتحت الياءُ قبل الأَلف، ثم حذفت الأَلف استخفافاً[٢]، أَو لسكونها وسكون الراءِ من قوله: ﴿ٱرْكَب﴾. والثاني: أَن الياءَات لما اجتمعت استثقل اجتماع المماثِلَة[٣]، فخف ذلك الاستثقال بالفتح إِذ هو أَخف الحركات، هذا مذهب سيبويه، وعلى هذا حمل قوله ﷺ: «وحواريَّ الزُّبير»[٤]، وروي عن ابن كثير أَنه قرأَ في سورة لقمان: [يا بُنَي لا تُشْرِكْ بالله][٥] بحذف ياءِ الإِضافة ويُسكن الياءَ خفيفة، وقرأَ الثانية: [﴿يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَآ﴾][٦] كقراءَة الجماعة، وقرأَ الثالثة: ﴿يا بُنَيْ أَقِمِ﴾[٧] ساكنة كالأُولى.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ يحتمل أَن يكون نهياً محضاً مع علمه أَنه كافر، ويحتمل أَن يكون خفي عليه كفره فناداه أَلا يبقى -وهو مؤمن- مع الكفرة فيهلِك بهلاكهم. والأَول أَبيَن.

---

(١) يريد الراءَ في قوله تعالىٰ بعدها: ﴿ٱرْكَب﴾.
(٢) أي: طلباً للخفة، يقال: استَخَفَّه: طلب خفته.
(٣) يريد: اجتماع الحروف التي يماثل بعضها بعضا.
(٤) رواه البخاري في الجهاد، وفي فضائل الصحابة، وفي المغازي، ورواه مسلم في فضائل الصحابة، وابن ماجه في المقدمة. والإمام أحمد في مواطن كثيرة في مسنده، ولفظه كما في المسند عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل نبيّ حواريّ، وحواريَّ الزبير».
(٥) من الآية (١٣) من سورة لقمان.
(٦) من الآية (١٦) من سورة لقمان.
(٧) من الآية (١٧) من سورة لقمان.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ظن ابن نوح أن ذلك المطر والماء على العادة. وقوله: ﴿لَا عَاصِمَ﴾، قيل فيه: إنه على لفظة« فاعل». وقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ يريد: إلا الله الراحم، فـ ﴿مِنَّ﴾ كناية عن اسم الله تبارك وتعالىٰ، المعنى: لا عاصم اليوم إلا الذي رحمنا، فـ ﴿مِنَّ﴾ في موضع رفع. وقيل: قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ استثناءُ منقطع كأنه قال: لا عاصم اليوم موجود، لكن من رحم الله موجود[1]، وحَسَّن هذا من جهة المعنى أَنَّ نفي العاصم يقتضي نفي المعصوم فهو حاصل بالمعنى، وأَما من جهة اللفظ فـ ﴿مَن﴾ في موضع نصب على حد قول النابغة:

إِلاَّ الأَوَارِيَّ. . . . . [2]

ولا يجوز أن تكون في موضع رفع على حَدِّ قول الشاعر:

وبَلْـدةٍ لَيْـسَ بهـا أَنِيـس إِلاَّ الْيَعَـافيـرُ وإِلاَّ الْعِيـسُ[3]

إذْ هذان أَنيس ذلك الموضع القفر، والمعصوم هنا ليس بعاصم بوجه. وقيل: ﴿عَاصِمَ﴾ معناه: ذو اعتصام، فـ «عَاصِمَ» ـ على هذا ـ في معنى «معصوم»، ويجيءُ الاستثناءُ مستقيماً، و﴿مَن﴾ في موضع رفع، و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرف، وهو متعلق بقوله:

---

(١) أي: من رحمه اللهُ موجود.

(٢) هذا مطلع بيت سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨]. والبيت بتمامه:
إلا الأَوَارِيَّ لأيـــاً مَّـــا أُبَيِّنُهَـــا والنُّؤْي كـالْحَوْضِ بـالمظْلُومَـةِ الْجَلَدِ

(٣) البيت لِجِران العَوْد النُّمَيْري، وهو من شواهد النحوين (خزانة الأدب للبغدادي) على أن الاستثناء في البيت منقطع لأن اليَعَافير والعِيس ليسا من نوع المستثنى منه وهو «الأنيس». وللعرب في هذا مذهبان: فالحجازيون ينصبون المنقطع على الاستثناءِ، وبنو تميم يرفعونه على أنه بدلٌ مما قبله. والبلْدَة هنا: القطعة من الأرض، والأنيس: المؤنس من الناس وهو الذي يذهب ما بك من وحشة، واليعافير: جمع يَعْفور وهو ولد الظبية أو البقرة الوحشية، أو هو تيس الظباءِ، والعيس: إبل بيض يخالط بياضها شقرة، والجمع: أعْيُس وعيساءٌ.



﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ، أو بالخبر الذي تقديره: كائن اليوم ، ولا يصح تعلقه بـ ﴿عَاصِمَ﴾ لأنه كان يجيءُ منوناً: «لا عاصماً اليوم» ، يرجع إلى أصل النصب لئلا يرجع ثلاثة أشياءٍ واحداً ، وإنما القانون أن يكون الشيئان واحداً: «لا» وما عملت فيه ، ومثال النحويين في هذه المسألة: «لا أمراً يوم الجمعة لك» ، فإن أعملت في «يَوْمَ» لَكَ ـ قلتَ: لا أمْرَ[1].

و﴿بَيْنَهُمَا﴾ يريد: بين نوح وابنه ، فكان الابن ممن غرق.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ الآية. بناءُ الفعل للمفعول أبلغ في التعظيم والجبروت ، وكذلك بناءُ الأفعال ـ بعد ذلك ـ في سائر الآية. وروي أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال: «هذا كلام القادرين». والبَلْعُ هو تجرّع الشيءِ وازدرادُه ، فشبَّه قبض الأرض للماءِ وتسرُّبه فيها بذلك ، وأُمِرت بالتشبيه ، وأضاف الماءَ إليها إذْ هو عليها وحاصل فيها. والسماءُ في هذه الآية: إما السماءُ المُظِلَّة ، وإما السحاب. والإقلاع عن الشيءِ: تركه. والمعنى: أقلعي عن الإمطار. و﴿وَغِيضَ﴾ معناه: نقص ، وأكثر ما يجيءُ فيما هو بمعنى: جفوف[2] ، كقوله: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ ، وكقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾[3] ، وأكثر المفسرين على أن ذلك في الحيض ، وكذلك قول الأسود بن يَعْفُر:

. . . . مَا غِيضَ مِنْ بصَرِي ومِنْ أَجْلَادِي[4]

---

(١) أفضل ما قيل في الآراء التي ذكرها ابن عطية رحمه الله أن ﴿مَن﴾ في موضع رفع ، والمعنى لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم ، أي: إلا الله ، وهذا هو الذي اختاره الطبري ، ومال إليه القرطبي ، قال: لأنك لم تجعل «عاصماً» بمعنى «معصوم» فتخرجه من بابه ، ولا «إلا» بمعنى «لكن». والذين جعلوا «عاصماً» بمعنى «معصوم» قاسوها على قوله تعالىٰ: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ فهو والله أعلم بمعنى «مَدْفُوق» ، وعليه جاء قول الشاعر:

بَطِيءُ القِيَامِ رَخِيمُ الكَلا ... م أمْسَى فُؤَادي بِه فَاتِنَا

أي: «مفتوناً» ، وعليه أيضاً قول الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر:

دَعِ المكارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا ... واقْعُدْ فَإنَّكَ أنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي

أي: المطعوم المكْسُوّ.

(٢) مصدر جَفَّ ، يقال: جَفَّ الشيءُ جفوفاً وجفافا. (اللسان).

(٣) من الآية (٨) من سورة الرعد.

(٤) الشاعر من بني تميم ، ويطلق عليه أعشى بني نهشل ، وهو جاهلي ، مقدم ، فصيح ، فحل ، كان=



وذلك أَن الإنسان الهرم إنما تَنَقُّصه بجُفوفٍ وقَضَافَة(١).

وقوله: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ إشارة إلى جميع القصة: بعْثُ الماءِ، وإهْلاكُ الأُمم، وإنجاءُ أَهل السفينة. وروي أَن نوحاً عليه السلام ركب في السفينة من عين وردة بالشام أَول يوم من رجب، وقيل: في العاشر منه، وقيل: في الخامس عشر، وقيل: في السابع عشر، واستوت السفينة في ذي الحجة، وأَقامت على الجوديّ شهراً، وقيل له: اهبط يوم عاشوراءَ، فصامه وصامه من معه من أُناس ووحوش.

وذكر الطبري عن ابن إسحق ما يقتضي أنه أَقام على الماءِ نحو السنة، وذكر أَيضاً حديثاً عن النبي عليه الصلاة والسلام: «إن نوحاً ركب في السفينة أَول يوم من رجب، وصام الشهر أَجمع، وجرت بهم السفينة إلى يوم عاشوراءَ، ففيه أَرست على الجوديّ فصامه نوح ومن معه»(٢). ورُوي أَن نوحاً لما طال مقامه على الماء بعث الغراب ليأْتيه بخبر كمال الغرق، فوجد جيفة طافية، فبقي عليها فلم يرجع بخبر، فدعا عليه نوح فاسودّ لونه وخُوّف من الناس، فهو لذلك مستوحش، ثم بعث نوح الحمام فجاءَته بورق زيتونة في فمها ولم تجد تراباً تضع رجليها عليه، فبقي أَربعين يوماً ثم بعثها فوجدت الماءَ قد انحسر عن موضع الكعبة، وهي أَول بقعة انحسر الماءُ عنها، فمسّت الطين برجليها وجاءَته، فعلم أَن الماءَ قد أَخذ في النضوب، ودعا لها فطوّقت وأنست، فهي لذلك تأْلف الناس، ثم أَوحى الله إلى الجبال أَن السفينة ترسي على واحد منها فتطاولت كلها وبقي الجوديّ ـ وهو جبل بالموصل في ناحية الجزيرة ـ ولم يتطاول تواضعاً لله، فاستوت السفينة ـ بأَمر الله ـ عليه، وبقيت عليه أَعوادها، وفي الحديث أَنَّ النبي ﷺ قال: «لقد بقي منها شيءٌ أَدركه أَوائل هذه الأُمة»(٣)، وقال

= ينادم النعمان، والبيت بتمامه:

إمَّا تَرَيْني قَدْ بَليتُ وغاضَني ... ما نِيلَ مِنْ بَصَري ومِنْ أجْلادِي

هكذا بلفظ «نِيلَ» بدلاً من «غِيضَ». وغاضني: نقصني. وأجلادي: خُلقي وشخصي، يريد أن الدهر قد حطمه، فقد كفّ بصره، وأنهكت الأيام جسمه، فأصبح ضعيفاً لا يقوى على شيء.

(١) قَضُفَ قَضَافَة: دقَّ ونَحُف لا عن هُزال. (المعجم الوسيط).

(٢) الحديث بنصه وسنده موجود في تفسير الطبري، وكذلك كل الأخبار التي نقلها ابن عطية عن قصة السفينة والغراب والحمامة، وستجد في آخر كلامه عن هذه الأخبار ما يشير إلى شكه فيها، وإلى أنها يدخلها الاختلاف.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه.

الزجاج: الجوديّ هو بناحية آمِد[١] ، وقال قوم: هو عند باقِرْدَى[٢] ، وروي أَن السفينة لما استقلت من «عين وردة» جرت حتى جاءَت الكعبة فوجدتها قد نَشَزَت من الأَرض فلم ينلها غرق فطافت بها أُسبوعاً ، ثم مضت إِلى اليمن ، ورجعت إِلى الجوديّ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والقصص في هذه المعاني كثير صعب أَن يستوفى ، فأَشرت منه إِلى نُبَذ ، ويدخله الاختلاف كما ترى في أَمر الكعبة ، والله أَعلم كيف كان. و﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ معناه: تمكنت واستقرت. وقرأَ جمهور الناس: ﴿عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ بكسر الياءِ وشدها ، وقرأَ الأَعمش وابن أَبي عبلة: [على ٱلْجُودِي] بسكون الياءِ ، وهما لغتان. وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ يحتمل أَن يكون من قول الله تعالىٰ عطفاً على: ﴿وَقِيلَ﴾ الأول ، ويحتمل أَن يكون من قول نوح والمؤمنين. والأَول أَظهر.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

هذه جملة معطوفة على التي قبلها دون ترتيب ، وذلك أَن هذه القصة كانت في أَول ما ركب نوح في السفينة ، ويظهر من كلام الطبري أَن ذلك كان بعد غرق الابن ، وهو محتمل ، والأَول أَليق.

وهذه الآية احتجاج[٣] من نوح عليه السلام ، وذلك أَن الله أَمره بحمل أَهله ، وابنُه من أَهله ، فينبغي أَن يحمل ، فأَظهر الله له أَن المراد مَنْ آمن مِنَ الأَهل. ثم حسَّن المخاطبة بقوله: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ وبقوله: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ ، فإِن هذه الأَقوال

(١) آمِد: بلدٌ قديم حصين ركين مبني بالحجارة السود على نَشَز ودجلةُ محيطة بأكثره ، مستديرة به كالهلال ، يُسقى من عيون بقُربه ، قال في التاج: «نقل شيخنا عن بعض أنه ضبطه بضم الميم».

(٢) باقِرْدَى: بكسر القاف وفتح الدال: كورة في شرقي دجلة ، وبالقرب منها جبل الجوديّ.

(٣) يريد أن هذه الآية حجّة من نوح يقدمها في استعطافه لله ، ولا يريد الاحتجاج بمعنى المعارضة أو إقامة الحجة.



مُعينة في حُجّته، وهذه الآية تقتضي أن نوحاً عليه السلام ظن أن ابنه مؤمن، وذلك أشد الاحتمالين.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ﴾ الآية. المعنى: قال الله تعالىٰ: يا نوح، وقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾: ليس بولد لك، وزعمت أنه كان لِغَيَّة[١]، وأن امرأته الكافرة خانته فيه، هذا قول الحسن، وابن سيرين، وعُبَيد بن عُمَير، وقال بن أَبزي: إنما قضى رسول الله ﷺ بالولد للفراش من أجل ابن نوح[٢]، وحلف الحسن أنه ليس بابنه، وحلف عكرمة والضحاك أنه ابنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

عوّل الحسن على قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾، وعوّل الضحاك وعكرمة على قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾.

وقرأ الحسن ومنْ تأوَّل تأويله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ على هذا المعنى، وهي قراءَة السبعة سوى الكسائي، وقراءَة جمهور الناس، وقال من خالف الحسن بن أَبي الحسن: المعنى: ليس من أَهلك الذين عمَّهم الوعدُ، لأَنه ليس على دينك وإن كان ابنك بالولادة[٣]، فمن قرأَ من هذه الفرقة: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ جعله وصفاً له بالمصدر على جهة المبالغة فوصفه بذلك، كما قالت الخنساءُ تصفُ ناقةً ذهب عنها ولدها:

---

(١) ولَدُ الغَيَّة وولد الزنْية: من يأتي نتيجة الغواية والزنى، ويقال في نقيضهما: هو ولد رَشْدَة.

(٢) حديث: «الولد للفراش وللعاهر الحَجَرُ» رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، وهو في الموطأ، وفي مسند الإمام أحمد، وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان عتبة بن أبي وقاص عَهِد إلى أخيه سعد بن أبي وقاص أن ابنَ وليدَةِ زَمْعَة مِنِّي فاقبضه، قالت: فلما كان عام الفتح أخذه سعد بن أبي وقاص وقال: ابن أخي، قد عهد إلي فيه، فقام عَبدُ بن زمعَةَ فقال: أخي وابن وليدَة أبي، ولد على فراشه، فتساوقا إلى النبي ﷺ، فقال سعد: يا رسول الله، ابن أخي كان قد عهد إليّ فيه، فقال عَبْدُ بن زمعة: أخي وابن وليدَة أبي ولد على فراشه، فقال رسول الله ﷺ: هو لك يا عَبْدُ بن زَمْعَة، ثم قال النبي ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحَجَر، ثم قال لسَوْدَة بنت زَمْعَة زوج النبي ﷺ: احتجبي منه يا سودة ـ لما رآه من شَبَهِهِ بعُتْبَة، فما رآها حتى لقي الله». ومعنى «الحَجَر» أي: الرَّجم بالحَجَر، أو الخيبة.

(٣) في بعض الأصول: (وإن كان ابنك بالولاء). وفي بعضها: (ابنك بالولاد).



تَرْتَعُ ما رَتَعَتْ حتَّى إذا ادَّكَرَتْ ... فَإِنَّما هِيَ إِقْبالٌ وإِدْبارُ(١)

أي: ذات إقبال وإدبار.

وقرأ بعض هذه الفرقة: [إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرُ صَالِح]، وهي قراءَة الكسائي، وروت هذه القراءَة أُمُّ سَلَمة وعائشةُ عن رسول الله ﷺ. ذكره أَبو حاتم، وضعَّف الطبري هذه القراءَة، وطعن في الحديث بأَنه من طريق شهر بن حوشب. وهي قراءَة علي، وابن عباس، وعائشة، وأَنس بن مالك، ورجَّحها أَبو حاتم. وقرأ بعضهم: [إِنَّه عَمِلَ عَملاً غيْرَ صَالِحٍ]. وقالت فرقة: الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ على قراءَة جمهور السبعة عائد على سؤال نوح الذي يتضمنه الكلام، وقد فسَّره آخر الآية، ويُقَوِّي هذا التأْويل أَن في مصحف ابن مسعود: «إِنَّه عمَلٌ غيْرُ صالِح أَنْ تَسْأَلَني مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ»، وقالت فرقة: الضمير عائد على ركوب ولد نوح معهم الذي يتضمنه سؤال نوح، المعنى: إِن ركوب الكافر مع المؤمنين عملٌ غَيرُ صالح. وقال أَبو علي: ويحتمل أَن يكون التقدير: إِن كونك مع الكافرين وتركك الركوب معنا عملٌ غيْرُ صالح.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تأْويل لا يتَّجه من جهة المعنى.

وكل هذه الفرق قال: إِن القول بأَن الولَد كان لِغَيَّةٍ وَوَلَدَ فراشٍ خطأٌ محض، وقالوا: إِنه رُوي عن النبي ﷺ أَنه ما زنت امرأَة نبي قط.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الحديث ليس بالمعروف، وإِنما هو من كلام ابن عباس رضي الله عنهما، ويُعضِّده شرف النبوة، وقالوا في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾(٢): إِن الواحدة كانت

---

(١) البيت للخنساء من قصيدة ترثي بها أخاها صخراً، وفيه تصف ناقة ذهب عنها ولدها، وترتع: ترعى كيف شاءت في خصب وسعة، وادّكرت: تذكرت وليدها، يقول: إنها في حركة دائمة تذهب وترجع باستمرار من شدة القلق.

(٢) ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠].



تقول للناس: هو مجنون، والأُخرى كانت تنبه على الأضياف، وأَمَّا غير هذا فلا[(١)]. وهذه منازع ابن عباس وحُجَجُه، وهو قوله وقول الجمهور من الناس[(٢)].

وقرأ ابن أَبي مليكة: [فَلاَ تَسَلْني] بتخفيف النون وإِثبات الياءِ وسكون اللام دون همز، وقرأَت فرقة بتخفيف النون وإِسقاط الياءِ وبالهمز ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾، وقرأَ أَبو جعفر، وشيبة بكسر النون وشدها والهمز وإِثبات الياءِ ﴿فَلاَ تَسْأَلَنِّي﴾، وقرأَ ابن كثير، وابن عامر: [فَلاَ تَسْأَلَنَّ] بفتح النون المشددة، وهي قراءَة ابن عباس، وقرأَ أَبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: [لاَ تَسَلْنِ] خفيفة النون ساكنة اللام، وكان أَبو عمرو يثبت الياءَ في الوصل، وحذفها عاصم و حمزة في الوصل والوقف، ومعنى قوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، أَي: إِذا وعدتك فاعلم أَنه لا خُلْف في الوعد، فإِذا رأَيتَ ولدك لم يُحمل فكان الواجب عليك أَن تقف وتعلم أَن ذلك واجب بحق عند الله.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولكن نوحاً عليه السلام حملته شفقة النبوة وسجية البَشَر على التعرض لنفحات الرحمة والتذكير، وعلى هذا القدر وقع عتابه، ولذلك جاءَ بتلَطف وترفيع في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، وقد قال الله تبارك وتعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾[(٣)]، وذلك هنا بحسب الأَمر الذي عوتب فيه وعظمته، فإِنه لضيق صدره بتكاليف النبوة، وإِلاَّ فمتقرر أَنَّ محمداً ﷺ أَفضل البشر وأَولاهم بلين المخاطبة، ولكن هذا بحسب الأَمرين لا بحسب النبيَّيْن. وقال قوم: إِنما وقَّر نوح لِسنِّه، وقال قوم: إِنما حمل اللفظ على محمد ﷺ كما يحمل الإِنسانُ على المختص به الحبيب إِليه.

---

(١) في إحدى النسخ: «وأما خيانة غير هذا فلا».

(٢) قال الزمخشري: «فإن قُلْتَ: فهلا قيل: (إنه عَمَل فاسدٌ؟) قلتُ: لما نفاهُ من أهله نَفَى عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستنفي معها لفظ المنفي، وأذن بذلك أنه إنما أُنجي من أنجي من أهلِهِ بصلاحهم لا لأنهم أهلك وقرابتك، وأن هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنفعه أُبوتك». وهذا هو سرّ التعبير بكلمة الصلاح منفية عن ابن نوح عليه السلام.

(٣) ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله ضعيف.

ويحتمل قوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لا تطلب مني أمراً لا تعلم المصلحة فيه علم يقين. ونحا إلى هذا أبو علي الفارسي وقال: إن ﴿بِهِۦ﴾ يجوز أن يتعلق بلفظة ﴿عِلْمٌ﴾ كما قال الشاعر:

كَـــانَ جَـــزَائِـــي بِـــالْعصَـــا أَنْ أُجْلَـــدَا[1]

ويجوز أن يكون ﴿بِهِۦ﴾ بمنزلة «فيه» فتتعلق الباءُ بالمستقر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واختلاف هذين الوجهين إنما هو لفظي، والمعنى في الآية واحد. ورُوي أن هذا الابن إنما كان ربيبه، وهذا ضعيف. وحكى الطبريّ عن ابن زيد أن معنى قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ في أن تعتقد أني لا أفي لك بوعْدٍ وعدتك به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تأويل بشع، وليس في الألفاظ ما يقتضي أن نوحاً اعتقد هذا، وعياذاً بالله[2]. وغاية ما وقع لنوح عليه السلام أن رأى ترك ابنه معارضاً للوعد فذكر به، ودعا بحسب الشفقة ليكشف له الوجه الذي استوجب به ابنه الترك في الغرقى.

---

(١) البيت للعجاج، وهو آخر ثلاثة أبيات يقول فيها:

وَرَبَّيْتُـــــه حَتَّـــــى إذا تَمَعْـــــدَدا
وآضَ نَهْـــداً كـــالحِصَـــانِ أجْـــرَدَاً
كـــان جَـــزَائـــي بِـــالْعَصَـــا أنْ أُجْلَـــدَا

وَتَمَعْدَدَ الغلامُ: شبَّ وغلظ جسمه، وآضَ: صار، والنهد: الجسم الجهير، ومنه قولهم: «فرسٌ نَهْدٌ»، أي: جميل جسيم، والأجرد من الخيل: القصير الشعر ويكون سباقاً. راجع (اللسان ـ وشواهد الشافية، وديوان العجاج).

(٢) تعفف أبو حيّان في (البحر) عن ذكر هذا الرأي وقال: «وذكر الطبري عن ابن زيد تأويلاً في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ لا يناسب النبوة، تركناه. ويوقف عليه في تفسير ابن عطية» ا هـ. وابن عطية نقله ولكن وصفه بأنه بشع.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

هذه الآية فيها إنابة نوح وتسليمُه لأمر الله تعالىٰ واستغفاره، والسؤال الذي وقع النهي عليه والاستعاذة والاستغفار منه هو سؤال العزم الذي معه محاجة وطلبة ملحّة فيما قد حجب وجه الحكمة فيه، وأَما السؤال في الأُمور على جهة التعلم والاسترشاد فغير داخل في هذا، وظاهر قوله: ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ ﴾ يعم النحوين من السؤال، فلذلك نبّهت على أَن المراد أَحدهما دون الآخر. الخاسرون: هم المغبونون حظوظَهم من الخير.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ ﴾، كان هذا عند نزوله من السفينة مع أَصحابه للانتشار في الأَرض، و«السَّلَام» هنا: السلامة والأَمن ونحوه، و«البركات»: الخير والنمو في كل الجهات. وهذه العِدَةُ تعم جميع المؤمنين إِلى يوم القيامة، قاله محمد بن كعب القرظي[1]. وقوله: ﴿ مِّمَّن مَّعَكَۚ ﴾ أَي: من ذرية من معك ومِنْ نسلهم، فـ ﴿ مِنْ ﴾ ـ على هذا ـ هي لابتداءِ الغاية، أَي: مِنْ هؤلاءِ تكون هذه الأُمم، و﴿ مَنْ ﴾ موصولة، وصلتُها ﴿ مَّعَكَۚ ﴾ وما يتَقدَّر معها نحو قولك: مِمَّن استقرَّ معك، ونحوه. ثم قطع قوله: ﴿ وَأُمَمٞ ﴾ على وجه الابتداءِ إِذ كان أَمرهم مقطوعاً من الأَمر الأَول، وهؤلاءِ هم الكفار إِلى يوم القيامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ الآية. إِشارة إِلى القصة، أَي: هذه من الغيوب التي تقادم عهدها ولم يبق علمها إِلا عند الله تبارك وتعالىٰ، ولم يكن علمها أَو علم أَشباهها عندك ولا عند قومك، ونحن نوحيها إِليك لتكون لك هداية وأُسوة فيما

---

(١) هو محمد بن كعب بن سليم بن عمرو أبو حمزة، ويقال: أبو عبد الله، القُرَظِيّ، تابعي، ولد في حياة النبي ﷺ، وقيل: رآه. نزل الكوفة، ثم رجع إلى المدينة، روى عن عائشة وأبي هريرة وغيرهما ـ رضي الله عنهم ـ، ووردت عنه الرواية في حروف القرآن، قال عَوْنُ بن عبد الله: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القُرَظي، توفي سنة ١٠٨ هـ. (طبقات القراء).



لقيه غيرك من الأَنبياءِ، وتكون لقومك مثالاً وتحذيراً، لئلا يصيبهم إِذا كذبوك مثل ما أَصاب هؤلاءِ وغيرهم من الأُمم المعذبة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا المعنى ظهرت فصاحة قوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أَي: فاجتهد في التبليغ وجِدَّ في الرسالة واصبر على الشدائد، واعلم أَن العاقبة لك كما كانت لنوح في هذه القصة، وفي مصحف ابن مسعود: «منْ قَبْلِ هَذَا القُرْآنِ».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ عطف على قوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ في قصة نوح[1]، و«عاد» قبيلة، وكانت عرباً فيما يذكر، و«هودٌ» عليه السلام منهم، وجعله ﴿أَخَاهُمْ﴾ بحسب النسب والقرابة، فإِن فرضناه ليس منهم فالأُخوة بحسب المنشإِ واللسان والجيرة، وأَما قول من قال: «هي أُخوة بحسب النسب الآدمي» فضعيف.

وقرأَ جمهور الناس: ﴿يَا قَوْمِ﴾، وقرأَ ابن محيصن: [يَا قَوْمُ] برفع الميم، وهي لغة حكاها سيبويه، وقرأَ جمهور الناس: ﴿غَيْرُهُ﴾ بالرفع على النعت أَو البدل من موضع قوله: ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾، وقرأَ الكسائي وحده بكسر الراءِ حملاً على لفظ ﴿إِلَٰهٍ﴾، وذلك أَيضاً على النعت أَو البدل، ويجوز [غيرَه] نصباً على الاستثناءِ.

و﴿مُفْتَرُونَ﴾ معناه: كاذبون أَفحش كذب في جعلكم الأُلوهية لغير الله تعالىٰ. والضمير في قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على الدعاءِ إِلى الله تبارك وتعالىٰ، والمعنى:

(١) يجوز أن يكون من عطف الجُمل، وعليه يكون هناك فعل محذوف تقديره: (وأرسلنا) إلى عادٍ أخاهم، ويجوز أن يكون من عطف المفردات بأن نعطف المجرور على المجرور، والمنْصوب على المنصوب، كما يعطف المرفوع والمنصوب على المرفوع والمنصوب في قولك: «ضربَ زيدٌ عمراً وبكرٌ خالداً».



ما أَجري وجزائي إِلاَّ عند الله تعالىٰ ، ثم وصفه بقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ ، فجعلها صفة رادَّة عليهم في عبادتهم الأَصنام ، واعتقادهم أَنها تفعل ، فجعل الوصف بذلك في درج كلامه منبهاً على أَفعال الله تعالىٰ ، وأَنه هو الذي يستحق العبادة ، و[فَطَرَ] معناه: اخترع وأَنشأَ ، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ توقيف على مجال القول بأَن غير الفاطر إِلٰهٌ ، ويحتمل أَن يريد: أَفلا تعقلون إِذا لم أَطلب عرضاً من أَعراض الدنيا أَنِّي إِنما أُريد النفع لكم والدَّار الآخرة. والأَول أَظهر. والاستغفار: طلب المغفرة ، وقد يكون ذلك باللسان ، وقد يكون بإِنابة القلب وطلب الاسترشاد والحرص على وجود المحجة الواضحة[١] ، وهذه أَحوال يمكن أَن تقع من الكفار ، فكأَنه قال لهم: اطلبوا غفران الله بالإِنابة وطلب الدليل في نبوتي ، ثم توبوا بالإِيمان من كفركم ، فيجيءُ الترتيب ـ على هذا ـ مستقيماً ، وإِلا احتيج في ترتيب التوبة بعد الاستغفار إِلى تحيّل كثير ، فإِما أَن يكون ﴿تُوبُوٓاْ﴾ أَمراً بالدوام ، و«الاستغفار» طلب المغفرة بالإِيمان ، وإِلى هذا ذهب الطبري ، وقال أَبو المعالي في «الإِرشاد»: التوبة في اصطلاح المتكلمين هي الندم ، بعد أَن قال: إِنها في اللغة الرجوعُ ، ثم ركَّبَ على هذا أَن قال: إِن الكافر إِذا آمن ليس إِيمانه توبة ، وإِنما توبته ندمُه بعْدُ.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

والذي أَقول: «إِن التوبة عقد في ترك متوب منه يتقدمها علم بفساد المتوب منه وصلاح ما يرجع إِليه ويقترن بها ندمٌ على فارط المتوب منه لا ينفك منه ، وهو من شروطها» ، فأَقول: إِن إِيمان الكافر هو توبته من كفره لأَنه هو نفسه رجوعه.

و«تاب» في كلام العرب معناه: رجع إِلى الطاعة والأَمثل من الأُمور ، وتصرُّفُ اللفظة في القرآن بـ «إِلى» يقتضي أَنها الرجوع لا الندم ، وإِنما الندم لاحق لازم للتوبة كما قلنا ، وحقيقة التوبة ترك مثل ما تِيب منه عن عزْمة معتقدة على ما فسرناه ، والله المستعان.

و﴿مِّدۡرَارًا﴾ هو بناءُ تكسير ، وكان حقه أَن تلحقه هاءٌ ولكن حذفت على نية النسب ، وعلى أَن السماءَ المطرُ نفسه ، وهو من: درَّ يَدُرُّ ، ومِفْعال قد يكون من اسم

(١) المَحَجَّةُ: الطريق المستقيم ، وجمعه: محاجٌّ. وفي إحدى النسخ: «الحُجَّة الواضحة».



الفاعل الذي هو من ثُلاثيّ، ومن اسم الفاعل الذي هو رباعيّ، وقول من قال: «إنه أَلزمُ للرباعيّ» غير لازم[(١)].

ويُروى أَن «عَاداً» كان الله تعالىٰ قد حبس عنها المطر ثلاث سنين، وكانوا أَهل حرث وبساتين وثمارٍ، وكانت بلادهم شرق جزيرة العرب، فلهذا وعدهم بالمطر، ومن ذلك فرحهم حين رأَوا العارض وقولهم: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾[(٢)]، وحضهم على استنزال المطر بالإيمان والإنابة، وتلك عادة الله في عباده، ومنه قول نوح عليه السلام: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[(٣)] ومنه فعل عمر رضي الله عنه حين جعل جميع قوله في الاستسقاءِ ودعائِه استغفاراً فَسُقي، فَسُئِلَ عن ذلك فقال: «لقد استنزلت المطر بمجاديح السماء»[(٤)].

وقوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ ظاهره العموم في جميع ما يحسن الله تعالىٰ فيه إِلى العباد، وقالت فرقة: كان الله تعالىٰ قد حبس نسلهم، فمعنى قوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ أَي: الولد. ويحتمل أَن خصَّ القوة بالذكر إِذ كانوا أَقوى العوالم فوعدوا بالزيادة فيما بهروا فيه. ثم نهاهم عن التولِّي عن الحق والإِعراض عن أَمر الله، و﴿مُجْرِمِينَ﴾ حالٌ من الضير في ﴿تَتَوَلَّوْا۟﴾.

---

(١) قال القرطبي: (وأكثر ما يأتي مِفْعَال من أفعل، وقد جاء ها هنا من فَعَل، لأنه من درَّت السماءُ تدِرُّ وتَدُرُّ فهي مدرار. و﴿مِّدْرَارًا﴾ نصب على الحال، وفيه معنى التكثير، أي: يرسل السماءَ بالمطر متتابعاً يتلو بعضُه بعضاً.

(٢) من الآية (٢٤) من سورة الأحقاف.

(٣) الآيتان (١٠ ـ ١١) من سورة نوح.

(٤) أخرج ابن سعد في (الطبقات)، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة في (المصنف)، ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في (سُنَنه) عن الشعبي رضي الله عنه قال: خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتى يرجع (هكذا) فقيل له: ما رأيناك استسقيت، قال: لقد طلبتُ المطر بمجاديح السماءِ التي يُستنزل بها المطر، ثم قرأ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ و﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ (الدر المنثور). وقال في (النهاية): «والمَجاديح: واحدها مِجْدَح، والياءُ زائدةٌ للإِشباع، والمِجْدح: نجم من النجوم، قيل: هو الدَّبَران، وقيل: ثلاثة كواكب كالأثَافيّ تشبيهاً لها بالمِجْدَح الذي له ثلاث شعب وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر، فجعل الاستغفار مُشَبَّهاً بالأنواءِ مخاطبة لهم بما يعرفونه، لا قولا بالأنواءِ، وجاء بلفظ الجمع لأنه أراد الأنواء جميعها التي يزعمون أن من شأنها المطر». وفي (المعجم الوسيط): المِجْدَح: خشبة في رأسها خشبتان معترضتان يُسَاطُ بها الشراب، والجمع مجاديح.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ ﴾.

المعنى: ما جئتنا بآية تضطرنا إلى الإيمان بك، ونفوا أن تكون معجزاته آية بحسب ظنهم وعماهم عن الحق، كما جعلت قريش القرآن سحراً وشعراً ونحو هذا، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَا من نبي إلا وقد أُوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر..» الحديث(١)، وهذا يقتضي بأن هوداً وغيره من الرسل لهم معجزات وإن لم يُعَيّن لنا بعضها.

وقولُهم: ﴿عَن قَوۡلِكَ﴾، أي: لا يكون قولك سبب تركنا إذْ هو مجرد عن آية. وقولُهم: ﴿إِن نَّقُولُ﴾ الآية، معناه: ما نقول إلا أن بعض الآلهة لما سَبَبْتَها وضَلَّلْت عبدتها أصابك بجنون.

يقال: عَرَّ يَعُرُّ، واعْتَرى يعتَري إذا أَلَمَّ بالشيءِ(٢)، فحينئذ جاهرهم هود عليه السلام بالتبري من أَوثانهم، وحضَّهم على كيده هم وأَصنامُهم، ويُذكر أَن هذه كانت له معجزة، وذلك أَنه حرَّض جماعتهم عليه مع انفراده وقوّتهم وكفرهم فلم يقدروا على نيله بسوءٍ. و﴿تُنظِرُونِ﴾ معناه: تؤخروني، أَي: عاجلوني بما قدرتم عليه.

---

(١) رواه الشيخان: البخاري في (فضائل القرآن)، ومسلم في (الإيمان)، ولفظه كما في البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُ وحياً أوحاهُ الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

(٢) في الصحاح: «يقال: به عُرَّة وهو ما اعتراه من الجنون، والعُرَّة: أيضاً: البَعْر والسِّرْجين وسَلْح الطير، وفلانٌ عُرَّة: قَذِر، وهو يَعُرُّ قومه: أي يُدخل عليهم مكروهاً يلطخهم به». وفي اللسان: «وعراني الأمر يعروني عَرْواً واعتراني: غَشِيَني وأصابني»، قال الراعي:

قـالـت خُلَيْـدَةُ: مـا عَـراكَ؟ ولـمْ تَكُـنْ ... بعْـدَ الـرُّقَـادِ عـنِ الشُّـؤُونِ سَـؤُولا

وابن عطية يسوّي في المعنى بين المادتين، فمعناهما عنده: أَلَمَّ بهِ، وقد يكون النزول في (اعترى) لطلب المعروف، وكان الأحسن أن يقول: «عرَّ يعُرّ، واعترى يعتَري إذا أصابه بسوءٍ. راجع التاج أيضاً وغيره من المعاجم.



وقوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الآية. المعنى: إني توكلت على الله الذي هو ربِّي وربكم مع ضعفي وانفرادي وقوتكم وكثرتكم يمنعني منكم ويحجز بيني وبينكم، ثم وصف قدرة الله تبارك وتعالىٰ وعظم ملكه بقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾، وعبَّر عن ذلك بالناصية إذ هي في العرف حيث يقبض القادر المالك ممن يقدر عليه، كما يقاد الأسير والفرس ونحوه حتى صار الأخذ بالناصية عُرْفاً في القدرة على الحيوان، وكانت العرب تجزّ ناصية الأسير الممنون عليه لتكون تلك علامة أنه قُدِر عليه وقُبض على ناصيته. والدَّابة: جميع الحيوان، وخُص بالذكر إذ هو صنف المخاطبين والمتكلم. وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يريد أن أفعال الله عزَّ وجلَّ هي في غاية الإحكام، وقوله الصدق، ووعده الحق، فجاءَت الاستقامة في كل ما ينضاف إليه عزَّ وجلَّ، فعبّر عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على تقدير مضاف.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

قرأ الجمهور: ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ بفتح اللام والتاءِ على معنى «تتولَّوا»، وقرأ عيسى الثقفي، والأعرج: [تُوَلُّوا] بضم التاءِ واللام، و[إِنْ] شرط والجواب في الفاءِ وما بعدها من قوله: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾(١)، والمعنى: إنه ما عليَّ كبيرُ هَمٍّ منكم إن توليتم، فقد برئت ساحتي بالتبليغ، وأنتم أصحاب الذنب في الإعراض عن الإيمان، ويحتمل أن يكون ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ فعلاً ماضياً ويجيءُ في الكلام رجوع من غيبة إلى خطاب، أي: فقل: قد أبلغتكم.

---

(١) وصحَّ أن يكون جواباً لأن في إبلاغه إليهم رسالتَه تَضَمُّن ما يحل بهم من العذاب المستأصِل، فكأنه قيل: فإن تتولوا استُؤصلتم بالعذاب، ويدل على ذلك الجملة الخبرية وهي قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.



وقرأ الجمهور: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ بضم الفاءِ على معنى الخبر بذلك، وقرأ عاصم ـ فيما روى هُبيرة عن حفص ـ: [وَيَسْتَخْلِفْ] بالجزم عطفاً على موضع الفاءِ من قوله: ﴿فَقَدْ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ يحتمل من المعنى وجهين:

أَحدهما: ولا تضُرُّونَهُ بذهابكم وهلاككم شيئاً، أَي: لا ينتقص ملكه ولا يختل أَمره، وعلى هذا المعنى قرأ عبد الله بن مسعود: «ولا تنقصونه شيئاً».

والمعنى الآخر: ولا تضرونه، أَي: ولا تقدرون ـ إذا أَهلككم ـ على إِضراره بشيءٍ، ولا على الانتصار منه، ولا تقابلون فعله بكم بشيءٍ يضره(١).

ثم أَخبرهم أَن ربه حفيظ على كل شيء، عالم به. وفي ترديد هذه الصفات ونحوها تنبيه وتذكير.

والأَمر: واحد الأُمور، ويحتمل أَن يكون مصدر أَمر يأْمُر، أَي: أَمْرُنا للريح أَو لخزنتها ونحو ذلك، وقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ إما أَن يكون إِخباراً مجرداً عن رحمة من الله لحقتهم، وإِما أَن يكون قصداً إِلى الإِعلام أَن النجاة إِنما كملت بمجرد رحمة الله لا بأعمالهم، فتكون الآية ـ على هذا ـ في معنى قول رسول الله ﷺ: «لا يدخُل أَحَدٌ الجنة بعمله، قالوا: ولا أَنت يا رسول الله؟ قال: ولا أَنا إِلا أن يتغمدني الله بفضل منه وبرحمته»(٢). وقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يحتمل أَن يريد عذاب الآخرة، ويحتمل أَن يريد: وكانت النجاة المتقدمة من عذاب غليظ، يريد: الريح، فيكون المقصود ـ على هذا ـ تعديد النعمة. ومشهور عذابهم بالريح هو أَنها كانت تحملهم وتهدم مساكنهم وتنسفها، وتحمل الظعينة كما هي، ونحو هذا، وحكى الزجاج أَنها كانت تدخل في أَبدانهم وتخرج من أَدبارهم وتقطعهم عضواً عضواً.

وتعدَّى: ﴿جَحَدُوا﴾ بحرف جر لما نُزِّل منزلة «كفروا»، وانعكس ذلك في الآية بعد

(١) قال أبو حيان: «وهذا فعل منفي ومدلوله نكرة فينتفي جميع وجوه الضرر، ولا يتعين واحد منها».

(٢) الحديث رواه البخاري، ومسلم، وغيرهما: ونصه كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة في كتاب المرضى: «لن يُدْخِلَ أحداً عملُه الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسَدِّدوا وقاربوا، ولا يتَمَنَّيَنَّ أحدكم الموت، إمَّا مُحسناً فلعلَّه أن يزداد خيراً، وإمَّا مُسيئاً فلعلَّه أن يَسْتَعْتِبَ» ـ قال في (النهاية): أي يرجعُ عن الإساءة ويَطْلُب الرضا.



هذا[١] ، وقوله: ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ شُنعة عليهم ، وذلك أن في تكذيب رسول واحد تكذيب سائر الرسل وعصيانهم ، إذ النُّبوءَات كلها مجمعة على الإيمان بالله والإقرار بربوبيته ، ويحتمل أن يراد هودٌ وآدم ونوح عليهم السلام.

و«الْعَنِيدُ» فَعِيل من عَنَد إذا عَتَا ، ومنه قول الشاعر:

إنِّـــي كبيـــرٌ لاَ أُطيـــقُ العُنَّـــدَا[٢]

أي الصعاب من الإبل ، وكان التجبُّر والعناد من خُلُق عاد لقوتهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ الآية. حُكِمَ عليهم بهذا الحكم لكفرهم وإصرارهم حتى حلَّ العذاب بهم ، واللعنة: الإبعادُ والخِزْي ، وقد تيقَّن أن هؤلاءِ وافوا على الكفر ، فيلعن الكافر الموافي على كفره ، ولا يلعن معيّن حيّ ، لا مِنْ كافر ولا من فاسق ولا من بهيمة ، كل ذلك مكروهٌ بالأحاديث ، و﴿وَيَوْمَ﴾ ظرف معناه أن اللعنة عليهم في الدنيا وفي يوم القيامة ، ثم ذكرت العلة الموجبة لذلك وهي كفرهم بربهم ، وتعدَّى «كَفَرَ» بغير الحرف إذ هو بمعنى جَحدُوا ، كما تقول: شكرت لك وشكرتك. وكفر نعمته وكفر بنعمته ، و﴿بُعْدًا﴾ منصوب بفعل مقدر وهو مقام ذلك الفعل[٣].

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾.

---

(١) أي قوله سبحانه: ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ حيث تعدَّى (كفَرَ) بنفسه.

(٢) العانِدُ: البعير الذي يحور عن الطريق ويعدل عن القصد ، وناقة عَنودٌ: لا تخالط الإبل ، تُباعد عنهن فترعى ناحيةً أبداً ، والجمع: عانِدٌ وعُنُدٌ ، وجمعها كلها: عوانِدُ وعُنَّدٌ ، وعليه جاء قوله:

إذا رَحَلْـتُ فـاجْعَلُـونـي وَسَطـاً   إنِّـي كبيـرٌ لا أُطيـقُ العُنَّـدَا

وقد جمع الراجز بين الطاءِ والدال وهو إكفاءٌ. والشطران في التاج واللسان ، وكذلك في الجمهرة لابن دريد (٢١ ـ ٢٣٨) وفي الاقتضاب مع أشطار أخرى (٥ ـ ٤) ، والرجز كله غير منسوب في أي مرجع من هذه المراجع.

(٣) الضمير (هُوَ) يعود على المصدر (بُعْداً) ، يريد أن المصدر قائم مقام فعله.

التقدير: وأَرسلنا إلى ثمود، وقد تقدم القول في مثل هذا وفي معنى الأُخوة في قصة هود. وقرأَ الجمهور: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ بغير صرف، وقرأَ ابن وثاب، والأَعمش: [وَإِلَى ثَمودٍ] بالصرف حيث وقع، فالأُولى على إرادة القبيلة، والثانية على إرادة الحيّ، وفي هذه الأَلفاظ الدالة على الجموع ما يكثر فيه إرادة الحيّ كقُريش وثقيف وما لا يقال فيه: بنو فلان، وفيها ما يكثر فيه إرادة القبيلة كتميمَ وتغلبَ، أَلا ترى أَنهم يقولون: «تَغلب بنة وائل»، وقال الطِّرِمَّاح:

. . . . إذا نَهَلَتْ مِنْهُ تَمِيمٌ وعَلَّتِ[١]

وقول الآخر:

تَميمُ بن مُرٍّ وَأَشْياعُهَا

وفيها ما يكثر فيه الوجهان كثمود وسبأ، فالقراءَتان هنا فصيحتان مستعملتان. وقرأَت فرقة: ﴿غَيْرُهُۥ﴾ برفع الراءِ، وقرأَ الكسائي: [غَيْرِهِ] بكسر الراءِ، وقد تقدم آنفا[٢].

و﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أَي: اخترعكم وأَوجدكم، وذلك باختراع آدم عليه السلام، فكأَن إنشاءَ آدم إنشاءٌ لبَنيه، ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾ أَي: اتخذكم عُمّاراً، كما تقول: استكتب واستعمل، وذهب قوم إلى أنها من العُمْر، أَي عمَّرَكم[٣]، وقد تقدم مثل قوله:

---

(١) هذا عجز بيت قاله الطرماح من قصيدة يهجو بها الفرزدق، والبيت بتمامه:

فَخَرْتَ بيَوْمٍ لَمْ يكُنْ لَكَ فَخْرُهُ إذا نَهَلَتْ مِنْهُ تَميمٌ وعَلَّتِ

والنَّهَلَ: الشُّرْبُ الأولُ، يقال: نَهِلَ نَهَلا وَمَنْهلا، والعَلَلُ: الشُّرْبُ الثاني: يقال: شَرِبَ عَلَلا بَعْدَ نَهَل، والمعنى على الاستعارة، يريد أن (تميمَ) أخذت أول المجد وآخره في هذا اليوم الذي لم تنل أنت فيه شيئاً ومع ذلك تفخر به.

(٢) خلاصة ما تقدم أن الرفع يكون على النعت أو البدل من موضع ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾، وأن الجرَّ يكون حملا على لفظ (إلهٍ) وهو أيضاً على النعت أو البدل، على أنه يجوز النصب على الاستثناءِ كما قال ابن عطية، ولكن لم يذكر أحد أنه قرئ بالنصب.

(٣) أي: أطال أعماركم، وهذا هو رأي الضحاك. وقال مجاهد: هي من «العُمْرَى»، فيكون (اسْتَعْمَرَ) في معنى (أَعْمَر)، والمعنى: أعْمَرَكُم فيها دياركم ثم هو وارثها منكم، أي: جعلكم مُعَمّرين دياركم فيها لأن من ورَّثَ داره مَنْ بَعده فإنه أعْمره إيّاها، لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره. وللعلماءِ في معنى (العُمْرَى) آراءٌ كثيرة، أشهرها أنها تمليكٌ لمنافع الرّقبة حياةَ المُعْمَر مُدَّةَ عمره، فإن مات المعْمَرُ رجعت إلى الذي أعطاها.



﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾. ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ أي: إجابته وغفرانه قريب ممن آمن وأَنَابَ، و﴿مُجِيبٌ﴾ معناه: بشرط المشيئة.

والظاهر الذي حكاه جمهور المفسرين أَن قوله: ﴿مَرْجُوًّا﴾ معناه: مُسَوّداً، نؤمل فيك أَن تكون سيداً سادّاً مسَدّ الأَكابر. ثم قرَّروه ـ على جهة التوبيخ في زعمهم ـ بقولهم: ﴿أَتَنْهَانَا﴾، وحكى النقاش عن بعضهم أنه قال: معناه: حقيراً.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

فأَما أَن يكون لفظ ﴿مَرْجُوًّا﴾ بمعنى حقير فليس ذلك في كلام العرب، وإِنما يتجه ذلك على جهة التفسير للمعنى، وذلك أَن القصد بقولهم: ﴿مَرْجُوًّا﴾ يكون: لقد كنت فينا سهلاً مرامك قريباً ردُّ أَمرك، مِمَّن لا يظن أَن يستفحل من أَمره مثل هذا، فمعنى «مرجُوّ» أي: مرجُوّ اطِّراحه وغلبته ونحو هذا، فيكون ذلك على جهة الاحتقار، فلذلك فُسّر بحقير، ويشبه هذا المعنى قول أَبي سفيان بن حرب «لَقَدْ أَمِر أَمْرُ ابن أَبي كَبْشَة..» الحديث، ثم يجيءُ قولهم: ﴿أَتَنْهَانَا﴾ على جهة التوعُّد والاستشناع لهذه المقالة منه.

و﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾ يريدون به الأَوثان والأَصنام، ثم أَوجبوا أَنهم في شك من أَمْرِه وأَقاويله، وأَن ذلك الشك يرتابون به زائداً إِلى مرتبته من الشك.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

ولا فرق بين هذه الحال وبين حالة التصميم على الكفر. و﴿مُرِيبٍ﴾ معناه: مُلْبس مُتَّهم، ومنه قول الشاعر:

يــا قَــوْمِ مَــالــي وأَبَــا ذُؤَيْــبِ ... كُنْــتُ إذا أَتَيْتُــهُ مِــنْ غيْــبِ
يَشَــمُّ عِطْفــي وَيبُــزُّ ثَــوْبــي ... كَــأَنَّنــي أَربْتُــهُ بِــريْــبِ(١)

---

(١) البيتان لخالد بن زُهَيْر الهُذَليّ، عِطْف كلّ شيءٍ: جانبه، وهو من الإنسان من لدُن رأسه إلى وركه، وبَزَّ: انتزع بجفاءٍ وغلظة، و(أراب) بالألف قد يكون متعدياً فيكون بمعنى (رَابَ)، وعليه قول خالد هذا، وقد يكون غيرُ مُتَعَدٍّ ومعناه: أَتَى بريبَةٍ، كما تقول: أَلامَ إذا أَتَى بما يُلامُ عليه. ويروى: (أَتَوْتُه)، وهي لغة في (أَتَيْتُه)، وبها جاءَ الشعر في القرطبي والطبري. ورواه (اللسان) في (أتى): (أَتَوْتُه)، وفي (راب): (أَتَيْتُه).



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ۝٦٣ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ۝٦٤ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ۝٦٥﴾.

قوله: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ هو من رؤْية القلب، أَي: أَتدبَّرتم؟ والشرط الذي بعده وجوابُه يسُدّ[1] مَسَدّ مفعولَيْن لِـ ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾، والبيِّنَةُ: البرهان واليقين، والهاءُ في ﴿بَيِّنَةٖ﴾ للمبالغة، ويحتمل أَن تكون هاءَ تأْنيث، والرحمة في هذه الآية: النُّبُوَّة وما انضاف إِليها، وفي الكلام محذوف تقديره: أَيضرُّني شكُّكُم؟ أَو: أَيُمْكنني طاعتكم؟ ونحو هذا مما يليق بمعنى الآية[2].

وقوله: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ معناه: فما تُعطونني فيما أَقتضيه منكم من الإِيمان وآمُرُكم بِهِ من الإِنابة غير تخسير لأَنفسكم، وهو من الخسارة، وليس التخسير في هذه الآية إِلا لهُم وفي حيّزهم. وأَضاف الزِّيادة إِليه من حيث هو مقتضٍ لأَقوالهم مُوَكَّلٌ بإِيمانهم، كما تقول لمن توصيه: «أَنا أُريد بك خيراً وأَنت تُريد بي شرّاً»[3]، فكان الوجه البيّن: «وأَنت تُريد شرّاً» ولكن من حيث كنت مُريد خير ومُقْتَضٍ ذلك ـ حسُن أَن تضيف الزيادة إِلى نفسك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ الآية. اقتضب في هذه الآية ذكْر أَوّل أَمر الناقة، وذلك أَنه رُوي أَنَّ قومه طلبوا منه آية تضطرهم إِلى الإِيمان فأَخرج الله جلَّت قدرتُه لهم الناقة من الجبل، ورُوي أَنهم اقترحوا تعيين خروج الناقة من تلك الصخرة،

---

(١) هكذا، وكأنه يريد أن يقول: «يَسُدُّ مع جوابه».

(٢) قال في (البحر) تعقيباً على كلام ابن عطية: «وهذا التقدير الذي قدره استشعارٌ منه بالمفعول الثاني الذي يقتضيه ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ وأن الشرط وجوابه لا يقعان ولا يسُدّان مسَدّ مفعولي ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾، والذي نقدره نحن هو أنه حين خاطب الجاحدين قال: قَدّروا أنّي على بيِّنَةٍ مِنْ ربِّي، وانظروا إن تابعتكم وعصيْتُ ربِّي في أوامره فمن يمنعني من عذابه؟ ويدل عليه قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾».

(٣) اختلفت النسخ الأصلية في هذه العبارة، واختلف المفسرون في نقلها عن ابن عطية كالألوسي وأبي حيان، فهي مرة بالراءِ، ومرة بالزاي، مع التعدية إلى المفعول الثاني مرة بنفس الفعل، ومرة بحرف الجر، ولعلَّ الصواب ما أثبتناه.



فرُوي أن الجبل تمخَّض كالحامل وانصدع الحجر وخرجت منه ناقة بفصيلها، ورُوي أَنها خرجت عُشراءَ ووضعت بعد خروجها فوقفهم صالح وقال لهم: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾، ونصب ﴿ءَايَةً﴾ على الحال.

وقرأَت فرقة: ﴿تَأْكُلْ﴾ بالجزم على جواب الأمر، وقرأَت فرقة: [تأْكُلُ] على طريق القطع والاستئناف، أَو على أنه الحال من الضمير في ﴿فَذَرُوهَا﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ عامٌّ في العقْر وغيره، وقوله: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ هذا بوحي من الله إِليه أَن قومك إِذا عقروا الناقة جاءَهم عذاب قريب المدة من وقت المعصية، وهي الأَيام الثلاثة التي فهمها صالح عليه السلام من رُغَاءِ الفصيل على جبل القارة، وأَضاف العَقْر إِلى جميعهم لأَن العاقر كان منهم، وكان عن رضىً منهم وتمالُؤ، وعاقرها «قدار»، ورُوي في خبر ذلك أَن صالحاً أُوحي إِليه أَن قومك سيعقرون الناقة وينزل بهم العذاب عند ذلك، فأخبرهم بذلك فقالوا: عياذاً بالله أَن نفعل ذلك، فقال: إِن لم تفعلوا أَنتم ذلك أَوشك أَن يولد فيكم من يفعله، وقال لهم صفة عاقرها أَحمر أَزرق أَشقر، فجعلوا الشُّرط مع القَوَابِلِ وأَمروهم بتفقد الأَطفال، فمن كان على هذه الصفة قُتل، وكان في المدينة شيخان شريفان عزيزان، وكان لهذا ابن ولهذا بنت، فتصاهروا فُولد بين الزوجين «قدار» على الصفة المذكورة، فهمَّ الشُّرطة بقتله فمنع منه جدّاه حتى كبر فكان الذي عقرها بالسيف في عراقيبها، وقيل: بالسهم في ضرعها، وهرب فصيلها عند ذلك، فصعد على جبل يقال له: القارة، فَرَغا ثلاثاً، فقال صالح: هذا ميعاد ثلاثة أَيام للعذاب، وأَمرهم قبل رُغاءِ الفَصيل أَن يطلبوه عسى أَن يصلوا إِليه فيردّ عنهم العذاب به، فراموا الصعود إِليه في الجبل فارتفع الجبل إِلى السماءِ حتى ما تناله الطير، وحينئذ رغا الفصيل.

وقوله: ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ هي جمع «دارة» كما تقول: ساحةٌ وساحٌ وسوحٌ، ومنه قول أُمَيَّة بن أَبي الصَّلْتِ:

لَـــهُ داعٍ بِمَكَّـــةَ مُشْمَعِـــلّ ... وآخَـــرُ عِنْـــدَ دَارَتِـــهِ يُنَـــادِي[1]

---

(١) قال في (الصحاح)، ونقله عنه في (اللسان): «قال أُمية بن أبي الصَّلْت يمدح عبد الله بن جُدْعان: له داع... البيت». والدَّارَةُ: أَخصّ من الدارِ، والمُشْمَعِلُّ: الوصف من اشْمَعَلّ، واشْمَعَلّ الرجل: ارتفع وأشرف وخفّ وطرب، قاله في (المعجم الوسيط) واستشهد بهذا البيت.



ويمكن أَن يُسمى جميع مسكن الحيّ داراً، والثلاثة أَيام تعجيزٌ قاسَ الناس عليه الإعذارَ إلى المحكوم عليه ونحوه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك عندي مفترق، لأَنها في المحكوم عليه والغارم في الشُّفعة ونحوه توسعة، وهي هنا توقيف على الخزي والتعذيب. وروى قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: «لو صعدتم على القارة لرأَيتم عظام الفصيل».

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

الأَمر جائز أَن يراد به المصدر من أَمر، وجائز أَن يراد به واحد الأُمور. وقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ يحتمل أَن يقصد أَن التَّنْجية إنما كانت بمجرد الرحمة، ويحتمل أَن يكون وصف حالٍ فقط، أَخبر أَنه رحمهم في حال التَّنْجية. وقوله: ﴿مِّنَّا﴾ الظاهر أَنه متعلق بـ ﴿بِرَحْمَةٍ﴾، ويحتمل أَن يتعلق بقوله: ﴿نَجَّيْنَا﴾.

وقرأَت فرقة: [وَمِنْ خِزْيٍ يَوْمَئِذٍ] بتنوين [خِزْيٍ] وفتح الميم من [يَوْمَئِذٍ]، وذلك يجوز فيه أَن تكون فتحة الميم إعراباً، ويجوز أَن يكون ببناءِ الظرف لما أُضيف إلى غير متمكن، فأَنت مُخيّر في الوجهين، والروايتان في قول الشاعر:

عَلَى حين عاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا ... وَقُلْتُ: أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِع؟[1]

وقرأَ ابن كثير، وأَبو عمرو، وابن عامر: ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ بإضافة [خِزْي] وكسر الميم من ﴿يَوْمِئِذٍ﴾، وهذا توسع في إضافة المصدر إلى الظرف، كما قال: ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[2]، ونحو هذا. وقياسُ هذه القراءَة أَن يقال: «سير عليه يومئذ»

---

(١) سبق الاستشهاد بهذا البيت عند تفسير قوله تعالىٰ في الآية رقم (٥) من هذه السورة: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾.

(٢) من الآية (٣٣) من سورة سبأ.

برفع الميم ، وهذه قراءتهم في قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾[١] ، و﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾[٢].

وقرأ عاصم ، وحمزة كذلك إلا في قوله: [مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ] فإنهما نوّنا العين وفتحا الميم ، واختلفت عن نافع في كسر الميم وفتحها ، وهويضيف في الوجهين ، وقرأ الكسائي: [مِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ] بترك التنوين وفتح الميم من [يَوْمَئِذٍ] ، وهذا جمعٌ بين الإضافة وبناءِ الظرف ، وقرأ: [وَمِنْ فَزَعِ] كعاصم وحمزة ، وأما (إذٍ) فكان حقها [إذْ] ساكنة إلا أنها من حقِّها أن تليها الجملَ ، فلما حذفت لها ها هنا الجملة عُوضت بالتنوين[٣] ، والإشارة بقوله: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ إلى يوم التعذيب.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ الآية. رُوي أن صالحاً عليه السلام قال لهم حين رغا الفصيل: ستصفر وجوهكم في اليوم الأول ، وتحمر في الثاني ، وتسْوَدّ في الثالث ، فلما كان كذلك تكفنوا في الأنطاع[٤] واستعدوا للهلاك ، وأخذتهم صيحة فيها من كل صوت مهول ، صدّعت قلوبهم وأصابت كل من كان منهم في شرق الأرض وغربها ، إلا رجلاً كان في الحرم فمنعه الحرم من ذلك ، ثم هلك بعد ذلك ، ففي مصنف أَبي داود: قيل: يا رسول الله منْ ذلك الرجل؟ قال: أَبو رُغال.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر ، وخلافه في السِّير ، وذُكِّر الفعل المسند إلى الصيحة إذ هي بمعنى

---

(١) من الآية (١١) من سورة المعارج.

(٢) من الآية (٨٩) من سورة النمل.

(٣) قال ابن خالويه في كتابه: «الحجّة في القراءات السبع»: الحُجَّة لمن نوَّن ونَصَب أنه أراد بالنصب خلاف المضاف ، لأن التنوين دليل ، والإضافة دليل ، ولا يجتمع دليلان في اسم واحد ، والحُجّة لمن ترك التنوين وأضاف أنه أتى به على قياس ما يجب للأسماءِ ، والحجة لمن بناه مع ترك التنوين وجهان: أحدهما: أنه جعل (يومَ) مع (إذا) بمنزلة اسمين جُعلا اسماً واحداً ، فبناه على الفتح كما بُني خمسةَ عشرَ ، والثاني: أنه لما كانت (إذْ) اسماً للوقت الماضي ، و(اليوم) من أسماءِ الأوقات أَضَفْتَهما إضافة الأوقات إلى الجُمل ، كقولك: جئتك يوم قام زيد ، فيكون كقولك: جئتك إذ قام زيد ، فلما كانت (إذْ) بهذه المثابة بُني اليومُ معها على الفتح لأنه غير متمكن من الظروف ، وجُعل تنوين (إذْ) عوضاً من الفعل المحذوف بعدها ، لأن معناها: (يومَ إذْ قدم الحاج) ، وما شاكل ذلك.

(٤) الأنْطاع: جمع نِطْع ، وفي نونه الفتح والكسر ، وفي طائه السكون والكسر والفتح ، وأشهرها كسر النون وسكون الطاءِ ، وهو بساطٌ من الجلد كثيراً ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل ، ويجمع النِّطْع أيضاً على نُطوع وأَنْطُع. (المعجم الوسيط).



الصياح، وتأنيثها غير حقيقي، وقيل: جاز ذلك وهي مؤنثة لما فصل بين الفعل وبينها، كما قالوا: «حضر القاضي اليوم امرأةٌ»، والأول أصوب، والصيحة إنما تجيءُ مستعملة في ذكر العذاب لأنها فَعْلة تدل على مرّة واحدة شاذة، والصياح مصدر متطاول، وشذَّ في كلامهم قولهم: «لقيته لقاءَة واحدة»، والقياس: لَقْية.

و﴿جَٰثِمِينَ﴾ أي: باكين قد صعق بهم، وهو تشبيه بجثوم الطير، وبذلك يشبه جثوم الأثافيّ[١] وجثوم الرماد.

و﴿يَغْنَوْا﴾ مضارع من غَنِي في الكان إذا أَقام فيه في خفض عيش[٢]، وهي المغاني، وقرأ حمزة وحده: [أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ] وكذلك في «الفرقان، والعنكبوت، والنجم»[٣]، وصرفها الكسائي كلَّها وقولَه [أَلاَ بُعْداً لِثَمُود]، واختلف عن عاصم، فروى عنه حفص ترك الإِجراءِ[٤] كحمزة، ورَوَى عنه أَبو بكر إجراءَ الأَربعة وتَرْكَه في قوله: [أَلاَ بُعْداً لِثَمُود]، وقرأ الباقون: [أَلا إِنَّ ثَمُوداً] فصرِفَتْ، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ غير مصروف، والقراءَتان فصيحتان، وكذلك صرفوا في «الفرقان، والعنكبوت، والنجم»[٥].

---

(١) الأثافيّ: جمع أُثْفِيّة، وهي أحد أحجار ثلاثة توضع عليها القِدْرُ. وثالثة الأثافي: حرف الجبل يجعل إلى جنبه أُثفِيتَانِ.

(٢) خفض العيش: لينه وسهولته.

(٣) أما في (الفرقان) ففي الآية (٣٨)، وأما في (العنكبوت) ففي الآية (٣٨)، وأما في (النجم) ففي الآية (٥١).

(٤) الإجراءُ هو: الصَّرْف، قال في القاموس: (المجاري: أواخر الكلم)، قال الشارح وذلك لأن حركات الإعراب والبناءِ إنما تكون هنالك، فسميت بذلك لأن الصوت يبتدئُ بالجريان في حروف الوصل منها.

(٥) حُجَّة من صرف أمران: أحدهما: أنه جعل (ثمود) اسم حيّ أو رئيس فصرفه، والآخر: أنه جعله (مفعولاً) من الثَّمد وهو الماءُ القليل فصرفه. وحُجّة من لم يصرفه أنه جعله اسماً للقبيلة، فاجتمع فيه علّتان فرعيَّتان منعتاه من الصرف: إحداهما: التأنيث الذي هو فرع للتذكير، والأخرى: التعريف الذي هو فرع للتنكير.
والقراءُ مختلفون في (ثمود) وما شاكله من الأسماءِ الأعجمية، وأكثرهم يتبع سواد النحويِّين، فما كان فيه ألف صرفوه، وما كان بغير ألف منعوه من الصرف.



قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾.

الرُّسل: الملائكة، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقالت فرقة بدل إسرائيل: عزرائيل ملك الموت. ورُوي أن جبريل منهم كان مختصاً بإهلاك قرية لوط، وميكائيل كان مختصاً بتبشير إبراهيم بإسحق، وإسرافيل مختصاً بإنجاءِ لوط ومن معه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية تقضي باشتراكهم في البشارة بإسحق. وقالت فرقة ـ وهي الأكثر ـ: البُشْرى هي بإسحق، وقالت فرقة: البُشرى هي بإهلاك قوم لوط. وقوله: ﴿سَلَامًا﴾ نصب على المصدر، والعامل فيه فعل مضمر من لفظه كأنه قال: اسلم سلاماً، ويصح أَن يكون ﴿سَلَامًا﴾ حكاية لمعنى ما قالوه لا للفظهم، قاله مجاهد والسدي. فلذلك عمل فيه القول، كما تقول لرجل قال: «لا إِله إلاَّ الله»: «قلت حقّاً أَو إخلاصاً»، ولو حكيت لفظه لم يصح أَن تُعمل فيه القول، وقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ حكاية لِلَفْظه. و﴿سَلَامٌ﴾ مرتفع إما على الابتداءِ والخبر محذوف تقديره: عليكم. وإما على خبر ابتداءِ محذوف تقديره: أَمْرِي سلامٌ، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[1]، إما على تقدير: فأَمري صبر جميل، وإما على تقدير: فصبر جميل أَجمل[2].

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأَبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي: [قالوا سلاماً قالَ سِلْمُ] وكذلك اختلافهم في سورة الذاريات[3]، وذلك على وجهين: يحتمل أَن يريد به السلام بعينه، كما قالوا: حلٌّ وحلالٌ وحرمٌ وحرامٌ، ومن ذلك قول الشاعر:

مَـرَرْنَـا فَقُلْنَـا إِيـهِ سِلْـمٌ فَسَلَّمَـتْ ... كما اكْتَلَّ بالْبَرْقِ الْغَمَامُ اللَّوَائِحُ[4]

---

(١) من الآية (١٨) من سورة يوسف.

(٢) في بعض النسخ: فصبر جميلٌ أَمْثَلُ.

(٣) في قوله تعالى في الآية (٢٥): ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

(٤) البيت في (اللسان ـ كَلَلَ) غير منسوب، وكذلك في (التاج)، بل أنشده ابن الأعرابي شاهداً على أن=

اكْتَلَّ: اتَّخذ إِكْليلاً أَو نحو هذا، قال الطبري: ورُوي: «كَمَا انْكَلَّ»، ويحتمل أَن يريد بالسلم: ضد الحرب، تقول: نحن سِلْمٌ لكم. وكان سلام الملائكة دعاءً مرجُواً، فلذلك نصب، وحيا الخليلُ بأَحسن مما حُيِّي وهو الثابت المتقرر، ولذلك جاءَ مرفوعاً[١].

وقوله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾، يصح أَن تكون ﴿مَا﴾ نافية، وفي ﴿لَبِثَ﴾ ضمير إبراهيم، و﴿أَن جَآءَ﴾ في موضع نصب، أَي: بأَن جاءَ. ويصح أَن تكون ﴿ما﴾ نافية، و﴿أَن جَآءَ﴾ بتأويل المصدر في موضع رفع بـ ﴿لَبث﴾، أَي: ما لبث مجيئُه، وليس في ﴿لَبِثَ﴾ ـ على هذا ـ ضمير إبراهيم، ويصح أَن تكون ﴿ما﴾ بمعنى الذي، وفي ﴿لَبِثَ﴾ ضمير إبراهيم، و﴿أَن جَآءَ﴾ خبر ﴿مَا﴾، أَي: فلبث إبراهيم مجيئه بعجلٍ حنيذ[٢]، وفي أَدب الضيف أَن يُعَجِّل قِرَاه من هذه الآية.

والْحَنِيذُ بمعنى المحنوذ، ومعناه: بعجل مشويٍّ نضج يقطر ماؤُه، وهذا القطر يفصل الحنيذ من جملة المشويات، ولكن هيئة المحنوذ في اللُّغة الذي يُغَطَّى بحجارة أَو رمل محمي أَو حائل بينه وبين النار يُغطَّى به، والمُعَرَّضُ[٣] من الشواءِ: الذي

= معنى «انْكَلَّ السحاب واكْتَلَّ»: تَبَسَّم. و«اكْتَلَّ الغمام بالبرق»: لَمَعَ، وفي (اللسان ـ سلم) بيت آخر غير منسوب أيضاً أنشده الفراءُ عن بعض الأعراب، وفيه اختلاف عن هذا البيت، قال الجوهري: وسِلْم بالكسر: السلام. وقال:

وقَفْنَــا فقُلْنَــا إيــهِ سِلْــمٌ فَسَلَّمَــتْ ... فمـا كـان إلا وَمْـؤُهـاً بـالحَـوَاجِـبِ

ومما يؤيد أنه بيت آخر أن صاحب اللسان عقَّب روايته للبيت برأي لابن بِرّي قال فيه: والذي رواه القناني:

فَقُلْنَـا السَّـلامُ فَـاتَّقَـتْ مِـنْ أَسِيـرِهَـا ... ومـاكـان إلا ومْـؤُهَـا بـالحَـوَاجِـبِ

وعلى رواية القناني هذه لا يكون في البيت شاهد.

هذا ومن المعاني التي وردت في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ ما ذكره ابن عرفة: «أي قالوا قولاً يتسلمون فيه، ليس فيه تَعَدّ ولا مأثم»، وقيل: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي سداداً من القول وقصداً لا لَغْوَ فيه.

(١) يريد أن سلام الملائكة كان متجدّداً فناسبه النصب، وأن سلام إبراهيم الخليل كان ثابتاً فناسبه الرفع.

(٢) قال الزمخشري: التقدير: فما لبث مجيئه. وقال أبو حيّان: التقدير: فالذي لَبِثَهُ، والخبر: مجيئُه.

(٣) قال في الصّحاح: «المُعَرَّض من اللَّحم: يقال للذي لم يُبالغ في إنضاجه، قال الشاعر سُلَيك بن السُّلكة:

سَيَكْفِيكَ صَرْبُ القَوْمِ لَحْمٌ مُعَرَّضٌ ... ومَاءُ قُدُورٍ فِي القِصَاعِ مَشِيبُ

ويروى: (في الجفان) بدلاً من (في القصاع)، ويُرْوَى (صرب) بالصاد والضاد.

يصفف على الجمر، والمُهَضَّبُ[1]: الشواءُ الذي بينه وبين النار حائل يكون الشواءُ عليه لا مدفوناً به، والتحنيذ في تضمير الخيل هو أَن يُغَطَّى الفرس بِجُلٍّ على جُلٍّ[2] ليتصَبَّب عرَقُهُ.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ﴾ الآية، رُوي أَنهم كانوا ينكتون بقداح كانت في أَيديهم في اللحم ولا تصل أَيديهم إِليه، وفي هذه الآية من أَدب الطعام أَن لصاحب الضيف أَن ينظر من ضيفه هل يأكل أَم لا؟.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وذلك ينبغي أَن يكون بتلَفُّت ومُسارقة لا بتحديد النظر، فروي أَن أَعرابياً أَكل مع سليمان بن عبد الملك، فرأَى سليمان في لقمة الأَعرابي شعرة فقال له: أَزل الشعرة عن لقمتك، فقال له: أَتنظر إِليّ نظر من يرى الشعرة في لقمتي؟ والله لا أَكلت معك[3].

و﴿نَكِرَهُمْ﴾ ـ على ما ذكر كثير من الناس ـ معناه: أَنكرهم، واستشهد لذلك بالبيت الذي نَحلَه أَبو عمرو بن العلاءِ الأَعشى، وهو:

وَأَنْكَرتْني وما كَان الَّذي نَكِرتْ ... مِنَ الْحَوادِثِ إِلاَّ الشَّيْبَ والصَّلَعَا[4]

وقال بعض الناس: (نَكِرَ) هو مستعمل فيما يُرى بالبصر فينكر، (وَأَنْكَرَ) هي مستعملة فيما لا يقرر من المعاني، فكأَن الأَعشى قال: وأَنكرتني موَدَّتي وأَذمتي[5]

---

(١) لَحمٌ مُهَضَّبٌ: إذا شُوِيَ ولمْ يُبَالغ في نُضجه، قال امرؤ القيس:

نَمُشُّ بِأَعْرَافِ الجِيَادِ أَكُفَّنَا ... إذا نحن قُمْنَا عَنْ شِوَاءٍ مُهَضَّبِ

(٢) الجُلُّ: كساءٌ تُغَطَّى به الدابة وتصان، كالثوب للإنسان، والجمع: جِلالٌ وأَجْلالٌ.

(٣) ذكر أن هذه الحكاية كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليمان، وأن الأعرابي خرج من عنده وهو يقول:

وللْمَوْتُ خَيْرٌ من زِيَارَةِ بَاخِلٍ ... يُلاحِظُ أَطْرَافَ الأكيلِ علىٰ عَمْدِ

(٤) أورد صاحب اللسان هذا البيت في (نكر) شاهداً على أن العرب تقول: نكِرْتُ الشيءَ وأنكرتُه فأنا أُنْكِرُهُ إنكاراً، والبيت في ديوان الأعشى (طبعة القاهرة ص ١٠١) و(طبعة دار صادر بيروت ١٠٥). وقد قال بعض العلماءِ: البيت مصنوع، قيل في الديوان: وضعه حمّاد. (ص ١٠٠)، وفي (مجاز القرآن) لأبي عبيدة (١ ـ ٢٩٣) قال أبو عبيدة: قال يونس، قال أبو عمرو: أنا الذي زدت هذا البيت في شعر الأعشى.. إلى آخره، فأتوب إلى الله منه.

(٥) يريد: خُلْطتي وأُلْفتي ومَوَدَّتي.

ونحوه ، ثم جاء بـ (نكر) في الشيب والصلع الذي هو مرئيٌّ بالبصر ، ومن هذا قول أَبي ذُؤَيب:

فَنَكَّرْنَهُ فَنَفَرْنَ وامتَرَسَتْ بِهِ ... هوْجاءُ هادِيَةٌ وهادٍ جُرْشُعُ[(١)]

والذي خاف منه إبراهيم عليه السلام ما يدل عليه امتناعهم من الأكل ، فَعُرْفُ من جاءَ بِشَرّ أَلاَّ يأكل من طعام المنزول به ، و﴿وَأَوْجَسَ﴾ معناه: أَحسّ في نفسه خيفة منهم ، والوجيس: ما يعتري النفس عند الحذر وأوائل الفزع ، فأَمنوه بقولهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾ ، وعلم أَنهم الملائكة.

ثم خرجت الآية إلى ذكر المرأة وبشارتها ، فقالت فرقة: معناه: قائمة خلف ستر تسمع محاورة إبراهيم مع أَضيافه ، وقالت فرقة: معناه: قائمة في صلاة. وقال السدي: معناه: قائمة تخدم القوم ، وفي قراءَة ابن مسعود: [وهي قائمة وهو جالس].

قوله: ﴿فَضَحِكَتْ﴾ ، قال مجاهد: معناه: حاضت ، وأَنشد على ذلك اللغويون:

وَضِحْكُ الأَرَانِبِ فَوْقَ الصَّفَا ... كَمِثْلِ دَم الجَوْفِ يوْمَ اللِّقَا[(٢)]

وهذا قول ضعيف قليل التمكن ، وقد أَنكر بعض اللغويين أَن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت ، وقرره بعضهم ، ويقال: ضحك الحوض إذا امتلأَ وفاض ،

---

(١) البيت في ديوان الهُذَليين (طبعة دار الكتب المصرية (١ ـ ٨) وفيه: (سطعاءُ) بدلاً من (هوْجاءُ) ، قال شارح الديوان: يعني الحمير نكرنَ الصائد ، وامْتَرَسَتْ هوجاءُ: يعني الأتان امْتَرَسَت بالفَحْل أي تكاد تسير معه ، والهوجاءُ: التي ترفع رأسها لتتقدمه ، وهادٍ: هو الفحل ، وجُرْشع: مُنْتَفخ الجنْبَيْن ، يريد أنه أيضاً امْتَرَس بها.

(٢) البيت في اللسان غير منسوب ، وقد ذكره عن ابن سيدة شاهداً على أن ﴿ضحكت﴾ بمعنى حاضت ، ونقل عن أبي عمْرو قولَه: «سمعت أبا موسى الحامض يسأل أبا العباس عن قوله ﴿فَضَحِكَتْ﴾ أي حاضت ، وقال إنه جاء في التفسير ، فقال: ليس في كلام العرب ، والتفسير مُسَلَّم لأهل التفسير ، فقال له: فأنت أنشدْتَنا:

تَضْحَكُ الضَّبْعُ لِقَتْلى هُذَيْلٍ ... وتَرَى الذِّئْبَ بها يَسْتَهِلّ

فقال أبو العباس: تَضحك هنا: تَكْشِرُ ، وذلك أنّ الذئب ينازعها فتكْشر في وجهه وعيداً فيتركها مع لحم القتيل». وقال ابن الأعرابي في هذا البيت وهو لِتأبَّطَ شراً: إن الضبع إذا أكلت لحوم الناس أو شربت دماءهم طمثت وقد أضحكها الدَّمُ». وكان ابن دُرَيْد يردُّ هذا ويقول: من شاهد الضباع عند حيضها فيعلم أنها تحيض؟» ، ومما استشهد به اللغويون على أن ضحكت بمعنى حاضت البيت المشهور:

وإنِّي لآتي العِرْسَ عِنْدَ طُهورِهَا ... وأهْجُرهَا يوْماً إذَا تَكُ ضَاحِكَا



وردّ الزَّجاج قول مجاهد، وقال الجمهور: هو الضحك المعروف، واختُلِف، مِمَّ ضَحِكَتْ؟ فقالت فرقة: ضحكت من تأمينهم لإبراهيم بقولهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾، وقال قتادة: ضحكت هزؤاً من قوم لوط أَن يكونوا على غفلة وقد نفذ من أَمر الله تعالىٰ فيهم ما نفذ، وقال وهب بن مُنَبه: ضحكت من البشارة بإسحق، وقال: هذا مقدم بمعنى التأخير، وقال محمد بن قيس: ضحكت لظنها بهم أَنهم يريدون عمل قوم لوط.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا قول خطأٌ لا ينبغي أَن يلتفت إليه، وقد حكاه الطبري، وإنما ذكرته لمعنى التنبيه على فساده.

وقالت فرقة: ضحكت من فزع إبراهيم من ثلاثة وهي تعهده يغلب الأَربعين من الرجال، وقيل: المائة، وقال السدي: ضحكت من أَن تكون تخدم وإبراهيم يحتد ويسعى والأَضياف لا يأْكلون، وقيل: ضحكت سروراً بصدق ظنها، لأَنها كانت تقول لإبراهيم: إنه لا بد أَن ينزل العذاب بقوم لوط، ورُوي أَن الملائكة مسحت العجل فقام حيّاً فضحكت لذلك، وقرأَ محمد بن زياد الأَعرابي: [فَضَحَكَتْ] بفتح الحاءِ.

وامرأَة إبراهيم هي سارة بنت هارون بن ناحور، وهو إبراهيم بن آزر بن ناحور، فهي ابنة عمّه، وقيل: هي أَخت لوط.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وما أَظن ذلك إلا أُخوة القرابة لأَن إبراهيم هو عمّ لوط فيما رُوي.

وذكر الطبري أَن إبراهيم عليه السلام لما قدّم العجل قالوا له: إنا لا نأْكل طعاماً إلا بثمن، فقال لهم: ثمنه أَن تذكروا الله تعالىٰ عليه في أَول وتحمدوه في آخر، فقال جبريل لأَصحابه: بحقّ اتخذ الله هذا خليلاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا﴾، أَضاف فعل الملائكة إلى ضمير اسم الله تعالىٰ إذ كان ذلك بأَمره ووحيه، وبشر الملائكة سارة بإسحق وبأَن إسحق سيلد يعقوب، ويُسَمّى ولَدُ الولدِ الْوَلَدُ من الوراءِ، وهو قريب من معنى (وراء) في الظرف، إذْ هو ما يكون خلْف الشيءِ وبعدَه، ورأَى ابن عباس رجلاً معه شاب، فقال له: من هذا؟ فقال له: ولد ولدي، فقال: هو ولدك من الوراءِ فغضب الرجل فذكر له ابن عباس الآية.



وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي: [يعْقُوبُ] بالرفع على الابتداءِ والخبر المقدم، وهو ـ على هذا ـ داخل في البشرى، وقالت فرقة: رفعه على القطع بمعنى: ومن وراءِ إسحق يحدث يعقوب، وعلى هذا لا يدخل في البشارة، وقرأ ابن عامر، وحمزة: ﴿يَعْقُوبَ﴾ بالنصب، واختلف عن عاصم، فمنهم من جعله معطوفاً على [إسحق] إلا أنه لم ينصرف، واستسهل هذا القائل أن فرق بين حرف العطف والمعطوف بالمجرور، وسيبويه لا يجيز هذا إلا على إعادة حرف الجر، وهو كما تقول: «مَرَرت بزيدٍ اليوم وأَمسِ عمروٍ»، فالوجه عنده: «وأَمسِ بعمرو»، وإذا لم يُعَد ففيه كبير قبح، والوجه في نصبه أن ينتصب بفعل مضمر تدل عليه البشارة وتقديره: ومِن وراءِ إسحق وهبنا يعقوب، وهذا رجَّحه أبو عليّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورُوي أن سَارَة كانت في وقت هذه البشارة بنت تسع وتسعين سنة، وإبراهيم ابن مائة سنة.

وهذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسماعيل، وأنه أَسَنُّ من إسحق، وذلك أن سارَة كانت في وقت إخدام الملك الجائر هاجر أُم إسماعيل امرأة شابة جميلة حسبما في الحديث، فاتخذها إبراهيم عليه السلام أُمَّ ولد فغارت لها سارَة، فخرج بها وبابنها إسماعيل من الشام على البراق، وجاءَ من يومه مكة فتركها ـ حسبما في السير ـ وانصرف إلى الشام من يومه، ثم كانت البشارة بإسحق وسارَة عجوز مُتَجالَّة(١)، وأَما وجه دلالة الآية على أن إسحق ليس بالذبيح فهو أن سارة وإبراهيم بُشِّرا بإسحق وأنه يولد له يعقوب، ثم أُمر بالذبح حين بلغ ابنه معه السعي، فكيف يؤمر بذبح ولدٍ قد بُشِّر أَنه سيولد لابنه ذلك؟ وأَيضاً فلم يقع قط في أَثر أَن إسحق دخل الحجاز، وإجماعٌ أَنَّ أَمْرَ الذبح كان بمنى، ويؤيد هذا الغرض قول رسول الله ﷺ: «أَنا ابن الذبيحين»(٢)

---

(١) أي: أَسَنَّت وكبرَت، وفي حديث أُمِّ صُبَيَّة الجُهَنِيَّة: (كنا نكون في المسجد نسوةً قد تجالَلْنَ)، وفي حديث جابر: (تزوجتُ امرأة قد تجالَّت) أي: أَسَنَّت وكَبرَت.

(٢) لم نعثر على هذا الحديث في مصدر صحيح، وقد تكلم فيه كثير من العلماءِ، والذي رُوي عن الصُّنابحي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: «يا بن الذبيحين، فضحك رسول الله ﷺ»، وقال ابن كثير: هذا حديث غريب جداً، وقد رواه الأموي في مغازيه ـ (راجع تفسير ابن كثير ٦ ـ ٣١).



يريد أَباه عبد الله وأَباه إِسماعيل ، ويؤيده ما نزع إِليه مالك رحمه الله من الاحتجاج برتبة سورة الصافات فإِنه بعد كما أَمر الذبيح قال: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[(١)] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وفي هذا كله موضع معارضات لقائل القول الآخر: إِنَّ الذَّبيح هو إِسحق ، ولكن هذا الذي ذكرناه هو الأَرجح ، والله أَعلم.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ .

اختلف الناس في الأَلف التي في قوله تعالى: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ﴾ ، وأَظهر ما فيها أَنها بدل ياءِ الإِضافة ، أَصلها: «يا وَيْلَتي» ، كما تقول: يا غُلاماً ويا غَوثاً ، وقد تردف هذه الأَلف بهاءٍ في الكلام ، ولم يُقرأ بها ، وأَمال هذه الأَلف عاصم ، والأَعمش ، وأَبو عمرو.

ومعنى ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ﴾ في هذا الموضع: العبارة عما دهم النفس من العجب في ولادة عجوز ، وأَصل هذا الدعاءُ بالويل ونحوه في التَّفجع لشدَّةٍ أَو مكروه يهم النفس ، ثم استعمل بعْدُ في عجب يدهم النفس ، وقال قوم: إِنما قالت: «يا وَيْلَتَى» لما مرّ بفكرها من أَلم الولادة وشدتها ، ثم رجعت بفكرها إِلى التعجب ونطقت بقولها: ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ ﴾؟ الآية.

وقرأَت فرقة: ﴿ ءَأَلِدُ ﴾ بتحقيق الهمزتين ، وقرأَت فرقة بتخفيف الأُولى وتحقيق الثانية ، وفي النطق بهذه عُسْرٌ ، وقرأَت فرقة بتحقيق الأُولى وتخفيف الثانية ، والتخفيف هنا مدُّها ، وقرأَت فرقة: [ءَاأَلِدُ] بتحقيق الهمزتين ومدة بينهما.

والعجوز: المُسِنَّة ، وقد حكى بعض الناس أَن العرب تقول: العجوزة[(٢)].

(١) من الآية (١١٢) من سورة الصافات.

(٢) في اللسان: (والعَجوز والعَجوزة من النساء: الشيخة الهرمة ، الأخيرة قليلة ، والجمع: عُجُز وعُجْز وعجائز). وفي الصحاح: (والعَجُوز: المرأة الكبيرة ، قال ابن السِّكِّيت: ولا تَقُل عجوزة ، والعامة تقوله).



و«البعل»[1]: الزوج، و﴿شَيۡخًاۖ﴾ نصب على الحال، وهي حالٌ من مُشار إليه لا يستغنى عنها لأنها مقصودُ الإخبار، وهي لا تصح إلاَّ إذا لم يقصد المتكلم التعريف بذي الحال، مثل أَن يكون المخاطب يعرفه، وأَما إذا قصد التعريف به لزم أَن يكون التعريف في الخبر قبل الحال وتجيءُ الحال على بابها مستغنى عنها، ومثال هذا قولك: «هذا زيد قائماً» إذا أَردت التعريف بزيد، أَو كان معروفاً وأَردت التعريف بقيامه، وأَما إن قصد المتكلم أَن زيديته إنما هي ما دام قائماً فالكلام لا يجوز. وقرأَ الأَعمش: [وَهَذَا بَعْلِي شَيْخٌ]، قال أَبو حاتم: وكذلك في مصحف ابن مسعود، ورفْعه على وجوه: منها: أَنه خبر بعد خبر كما تقول: «هذا حلو حامض»، ومنها: أَن يكون خبر ابتداءٍ مضمر تقديره: هو شيخ، ورُوي أَن بعض الناس قرأَه: «وهَذَا بَعْلي هَذَا شَيْخٌ»، وهذه القراءَة شبيهة بهذا التأْويل، ومنها: أَنه بدل من ﴿بَعۡلِي﴾، ومنها أَن يكون قولها: ﴿بَعۡلِي﴾ بدلاً من ﴿وَهَٰذَا﴾ أَو عطف بيان عليه، ويكون ﴿شَيۡخٌ﴾ خبر ﴿وَهَٰذَا﴾، ويقال: شيخٌ وشيْخةٌ، وبعض العرب يقول في المذكر والمؤنث: شيخ، ورُوي أَن سَارَة كانت وقت هذه المقالة من تسع وتسعين سنة، وقيل: من تسعين، قاله ابن إسحق، وقيل: من ثمانين، وكذلك قيل في إبراهيم: إنه كان مائة وعشرين سنة، وقيل: مائة سنة، وغير ذلك مما يحتاج إلى سند.

والضمير في قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾ للملائكة، وقوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ يحتمل أَن يريد واحدَ الأُمور، أَي من الولادة في هذه السن، ويحتمل أَن يريد مصدر أَمر، أَي مما أَمر الله به في هذه النازلة. وقوله: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾، يحتمل اللفظ أَن يكون دعاءً وأَن يكون إخباراً، وكونه إخباراً أَشرف لأَن ذلك يقتضي حصول الرحمة والبركة لهم، وكونه دعاءً إنما يقتضي أنه أَمر يُتَرَجَّى ولم يتحصل بعد، ونصب ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ على الاختصاص، هذا مذهب سيبويه، ولذلك جعل هذا والنصب على المدح في بابين كأَنه ميّز النصب على المدح بأَن يكون المنتصب لفظاً يتضمن بنفسه

---

(١) البَعْل في الأصل: كل شجر أو زرع لا يُسقى، وفي النَّخل: ما يشرب بعروقه من غير سقي ولا ماءِ سماءٍ، فهو مستقل بنفسه، ولهذا سَمُّوا مالك الشيءِ بعْلَهُ، ومن هذا البَعْلُ بمعنى الزَّوج، وأقرب ما قيل فيه هو ما حكاه الأزهري: إنما سُمّي زوجُ المرأة بعلا لأنه سيدها ومالكها، قال صاحب اللسان: (والأنثى بعْلٌ وبعْلةٌ مثل زوج وزوجة، قال الراجز:

شَــرٌّ قَــريــنٍ لِلْكَبيــرِ بَعْلَتُــهْ ... تُــولِــغُ كلْبــاً سُــؤْرَهُ أوْ تَكْفِتُــهْ)



مدحاً، كما تقول: «هذا زيد عاقلَ قومه»، وجعل الاختصاص إذا لم يتضمن اللفظة ذلك، كقوله: «إنَّا معاشرَ الأنبياءِ»[(١)]:

إنَّـــا بنـــي نَهْشَـــلٍ. . . . .[(٢)]

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولا يكون الاختصاص إلا بمدح أو ذم لكن ليس في نفس اللفظة المنصوبة.

وهذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل بيته لأنها خوطبت بهذا، فيقوى القول في زوجات النبي ﷺ بأنهن من أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس، بخلاف ما تذهب إليه الشيعة وقد قاله أيضاً بعض أهل العلم، قالوا: «أهل بيته: الذين حُرموا الصدقة»، والأول أقوى، وهو ظاهر جليّ من سورة الأحزاب لأنه ناداهن بقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ ثم بقوله: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾[(٣)].

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ووقع في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أَهْل بيته: الذين حرموا

---

(١) أشهر ما ورد من الأحاديث مبدوءاً بلفظ (إنَّا) قوله ﷺ: «إنَّا معشر الأنبياءِ تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا»، رواه ابن سعد عن عطاءٍ مرسلاً، وقوله: «إنا معشر الأنبياءِ أُمرنا أن نعجل إفطارنا، ونؤخر سحورنا، ونضع أيماننا على شمائلنا في الصلاة»، رواه الطبراني في الكبير عن الطيالسي، وقوله: «إنا معشرالأنبياءِ يضاعف علينا البلاءُ»، رواه الطبراني في الكبير عن أُخت حذيفة، والأولان رمز لهما السيوطي بالصحة، والثالث رمز له بأنه حديث حسن، ولكن اللفظ فيها (مَعْشر)، أمَّا الحديث الذي ورد بلفظ (معاشر) فهو قوله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياءِ لا نورث ما تركناه صدقة»، ورواه الإمام أحمد في مسنده (٢ ـ ٤٦٣) بلفظ: «إنا معشر الأنبياءِ لا نُورث، ما تركتُ بعد مؤنة عاملي ونفقة نسائي صدقة»، ونلاحظ اختلاف الألفاظ بين (إنا) و(نحن)، وبين (معشر) و(معاشر).

(٢) يريد قول الشاعر:

إنَّــا بَنــي نَهْشَــلٍ لا نَــدَّعــي لأبٍ … عنــهُ ولا هُــوَ بــالأبْنَــاءِ يَشْــرِينَــا

وهو من أبيات رواها أبو تمام في أوائل ديوان الحماسة، ونسبوها لبشامة بن حزم النَّهْشَلي، وأول هذه الأبيات قوله:

إنَّــا مُحَيُّــوكِ يــا سَلْمَــى فَحَيِّيْنَــا … وإنْ سَقَيْــتِ كِــرَامَ النَّــاس فـاسْقِينَـا

ومن الناس من ينسب هذه الأبيات لرجل من بني قيس بن ثعلبة من غير أن يُعَيّنه، ويَرْوي صدر بيت الشاهد: (إنَّا بني مالك).

(٣) الآيتان (٣٢ـ ٣٣) من سورة الأحزاب.



الصدقة بعده» ، فأراد ابن عباس: أهل بيت النسب الذين قال رسول الله ﷺ فيهم: «إن الصدقة لا تحل لأهل بيتي ، إنما هي أوساخ الناس»[1].

والبيت ـ في هذه الآية ، وفي سورة الأحزاب ـ بيتُ السكنى ، ففي اللفظ اشتراك ينبغي أن يُتَحَسَّسَ إليه ، ففاطمة رضي الله عنها من أهل بيت محمد ﷺ بالوجهين ، وعلي رضي الله عنه بالواحد ، وزوجاته بالآخر ، وأما الشيعة فيدفعون الزوجات بغضاً في عائشة رضي الله عنها.

و﴿حَمِيدٌ﴾ أي: أفعاله تقتضي أن يُحْمد ، ﴿مَجِيدٌ﴾ أي: متصف بأوصاف العلوّ ، ومَجُد الشيءُ: إذا حسنت أوصافه.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿ٱلرَّوْعُ﴾: الفزع والخيفة التي تقدم ذكرها ، وكان ذهابه بإخبارهم إياه أنهم ملائكة ، و﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾ يحتمل أن يريد الولد ، ويحتمل أن يريد البشرى بأن المراد غيره ، والأول أبين. وقوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ فعل مستقبل جائز أن يسُدّ مسَدَّ الماضي الذي يصلح لجواب ﴿لَمَّا﴾ ، لا سيما والإشكال مرتفع بمُضيّ زمان الأمر ومعرفة السامعين بذلك ، ويحتمل أن يكون التقدير: «ظلَّ أو أخذ ونحوه يجادلنا» ، فحذف اختصاراً لدلالة ظاهر الكلام عليه ، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ حالاً من إبراهيم ، أو من الضمير في قوله: ﴿وَجَآءَتْهُ﴾ ، ويكون جواب ﴿لَمَّا﴾ في الآية الثانية: «قُلْنَا: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾» ، واختار هذا أبو عليّ[2]. والمجادلة: المقابلة في القول

---

(١) رواه مسلم في الزكاة والإمام أحمد (٤ ـ ١٦٦ ، ٦ ـ ٨) ، ولفظه كما رواه الإمام أحمد: عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحرث أنه هو والفضل أتيا رسول الله ﷺ ليزوجهما ويستعملهما على الصدقة فيصيبان من ذلك فقال رسول الله ﷺ: «إن هذه الصدقة إنما هي أوساخ الناس ، وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد. . .». وللحديث بقية تجدها في المصدر المذكور.

(٢) وقيل: جواب: ﴿لَمَّا﴾ محذوف كما حُذف في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ. . .﴾ ، والتقدير هنا: اجترأ على الخطاب إذ فطن للمجادلة ، أو قال كيت وكيت ، ودلَّ على ذلك الجملة المستأنفة وهي ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ ، وهذاهو رأي الزمخشري ، ونقله عنه أبو حيَّان الأندلسي.



والحُجج ، وكأَنها أَعم من المخاصمة ، فقد يجادل من لا يخاصم كإِبراهيم.

وفي هذه النازلة وُصِف إِبراهيم بالحلم ، قيل: إِنه لم يغضب قط لنفسه إِلا أَن يغضب لله ، والحلم: العقل إِذا انضاف إِليه أَناةٌ واحتمال. والأَوَّاه معناه: الخائف الذي يكثر التأَوّه من خوف الله تعالىٰ ، ويروى أَن إِبراهيم عليه السلام كان يسمع وجيب قلبه من الخشية ، قيل: كما تُسمع أَجنحة النسور ، وللمفسرين في «الأَوّاه» عبارات كلها ترجع إِلى ما ذكرته وتلزمه ، و«المُنيبُ»: الرَّجّاع إِلى الله تعالىٰ في كل أَمره. وصورة جدال إِبراهيم عليه السلام كانت أَن قال إِبراهيم: إِن كان فيهم مائة مؤمن أَتعذبونهم؟ قالوا: لا ، قال: أَفَتِسْعون؟ قالوا: لا ، قال: أَفثمانون؟ فلم يزل كذلك حتى بلغ خمسة ووقف عند ذلك ، وقد عد في بيت لوط امرأَته فوجدهم ستة بها فطمع في نجاتهم ولم يشعر أَنها من الكفرة ، وكان ذلك من إِبراهيم حرصاً على إِيمان تلك الأُمة ونجاتها ، وقد كثر اختلاف رواة المفسرين لهذه الأَعداد في قول إِبراهيم عليه السلام ، والمعنى كله نحو مما ذكرته ، وكذلك ذكروا أَن قوم لوط كانوا أَربعمائة أَلف في خمس قرى ، وقالت فرقة: المراد: يجادلنا في مؤمني قوم لوط ، وهذا ضعيف ، وأَمْرُهُ بالإِعراض عن المجادلة يقتضي أَنها إِنما كانت في الكفرة حرصاً عليهم ، والمعنى: قلنا: يا إِبراهيم أَعرض عن المجادلة في هؤلاءِ القوم والمراجعة فيهم ، فقد نفذ فيهم القضاءُ ، و﴿جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ ، والأَمر هنا: واحد الأُمور بقرينة وصفه بالمجيءِ ، فإِن جعلناه مصدر (أَمَرَ) قدرنا حذف مضاف ، أَي: جاءَ مقتضى أَمْر ربّك ونحو هذا ، وقوله: ﴿ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ﴾ ابتداءٌ وخبر ، جملة في موضع خبر ﴿إِنَّ﴾ ، وقيل: ﴿ءَاتِيهِمۡ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ فهو اسم فاعل معتمد ، و﴿عَذَابٌ﴾ فاعل بـ ﴿ءَاتِيهِمۡ﴾.

وهذه الآية مقتضية أَن الدعاءَ إِنما هو أَن يوفق الله الداعي إِلى طلب المقدور ، فأَما الدعاءُ في طلب غير المقدور فغير مُجْد ولا نافع.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾.



الرسل هنا هم الملائكة الذين كانوا أَضياف إبراهيم عليه السلام ، وذلك أَنهم لما خرجوا إِلى بلد لوط ـ وبيْنه وبيْن قرية إبراهيم ثمانية أَميال ـ وصلوه ، فقيل: وجدوا لوطاً في حرث له ، وقيل: وجدوا ابنته تستقي ماءً في نهر سدوم ـ وهي أَكبر حواضر قوم لوط ـ فسأَلوها الدلالة على من يضيفهم ، ورأَت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط ، وقالت لهم: مكانكم ، وذهبت إِلى أَبيها فأَخبرته ، فخرج إِليهم ، فقالوا له: نريد أَن تضيفنا الليلة ، فقال لهم: أَوما سمعتم بعمل هؤلاءِ القوم؟ فقالوا: وما عملهم؟ فقال: أَشهد بالله لَهُمْ شرُّ قوم في الأَرض ، وقد كان الله عزَّ وجلَّ قد قال للملائكة: لا تعذبوهم حتى يشهد عليهم لوط أَربع شهادات ، فلما قال لوط هذه قال جبريل لأَصحابه: هذه واحدة ، وتكرر القول بينهم حتى كرَّرَ لوط الشهادة أَربع مِرار ، ثم دخل لوط بهم المدينة ، وحينئذ «سيءَ» بهم ، أَي: أَصابه سوءٌ. و«سيءَ» فعل بُني للمفعول.

والذَّرْعُ: مصدر مأْخوذ من الذراع ، ولما كان الذراع موضع قوة الإِنسان قيل في الأَمر الذي لا طاقة له به: ضاق بهذا الأَمر ذِرَاعُ فلان ، وذَرْعُ فلان ، أَي: حيلته بذراعه ، وتوسعوا في هذا حتى قلبوه فقالوا: «فلان رحبُ الذِّراع» إِذا وصفوه بالقدرة ، ومنه قول الشاعر:

يـا سيِّـد مـا أَنْـتَ مِـنْ سَيِّـد ... مُـوَطَّـأَ الأَكْنَـافِ رحْـبَ الـذِّرَاعِ[1]

وقوله: ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أَشار به إِلى ما كان يتخوفه من تعدّي قومه على أَضيافه واحتياجه إِلى المدافعة مع ضعفه عنها ، و﴿ عَصِيبٌ ﴾ بناءُ اسم فاعل معناه: يعصب الناس بالشَّرّ كما يعْصب الخابط السَّلمة[2] إِذا أَراد خبطها ونفض ورقها ، ومنه قول

---

(١) الأَكْنَاف: جمع كَنَفٍ وهو الجانب والناحية ، وكَنَفَا الرجل: جانباه وناحيتاه عن يمينه وشماله ، وهما حِضْناهُ. والموطَّأُ: السَّهل اللَّين الدمث الأَخلاق الكريم ، يقال: فلانٌ وطيءُ الخُلُق ، وفيه وطاءَةُ الخُلق ووضَاءَةُ الخَلْق ، ويقال للمضياف: مُوَطأُ الأَكْنَاف إذا لَمْ يَنْبُ جانبه عن النُّزَّل. وقد وضح ابن عطية معنى (رحب الذراع).

(٢) السَّلَمة: شجرة من العَضَاة ذات شوك ، وورقها القرظ الذي يدبغ به الأديم ، ومن الصعب خَرْطُ ورقها لكثرة شوكها ، فتعصب أغصانها بأن تُجمع ويُشدّ بعضها إلى بعض بحبْلٍ شداً شديداً ، ثم يهصرها الخابط إليه ويخبطها بعصاه فيتناثر ورقها للماشية ولمن أراد جمعه ، قال الشاعر يشبه الجهد الذي يصيب الأبطال في المعارك بعَصْب الرجل القويّ السَّلَمَ الطوال: =



الحجاج في خطبته: «ولأَعْصِبَنَّكُم عصْب السَّلَمة»، فهو من العصابة، ثم كثر وصفهم اليوم بعصيب، ومنه قول الشاعر وهو عديّ بن زيد:

وكنتُ لِـزَازَ خَصْمِك لَمْ أُعَـرِّدْ ... وقَدْ سلَكُوكَ في يَوْمٍ عَصِيبِ[1]

ومنه قول الآخر:

فَإِنَّكَ إِلاَّ تُرْضِ بَكْرَ بْنَ وَائِلٍ ... يَكُنْ لَكَ يَوْمٌ بِالْعِرَاقِ عَصِيبُ[2]

فـ ﴿عَصِيبٌ﴾ بالجملة: في موضع شديد وصعب الوطأة، واشتقاقه كما ذكرنا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ الآية. رُوي أَن امرأَة لوط الكافرة لمّا رأَت الأَضياف ورأَت جمالهم وهيئتهم خرجت حتى أَتت مجلس قومها فقالت: إِن لوطاً أَضاف الليلة فتية ما رُئِي مثلهم جمالاً وكذا وكذا، فحينئذ جاءُوا يهرعون إِليه، ومعناه: يسرعون، والإِهراع هو أَن يسرع أَمْر بالإِنسان حتى يسير بين الخبب والجمز[3]، فهي مشية الأَسير الذي يُسرع به، والطامع المبادر إِلى أَمر يخاف فوته، ونحو هذا، يقال: هرع الرجل

= يَوْمٌ عَصِيبٌ يَعْصِبُ الأَبْطَالا ... عصْبَ الْقَوِيِّ السَّلَمَ الطِّوَالا

(١) عدِيُّ بن زيد شاعر جاهلي، اتصل بكسرى وسَفَر بينه وبين ملك الروم، وهو ربيب النعمة والحضارة لكنه بدوي اللفظ، وهو في بيته هذا يخاطب النعمان في قصيدة اعتذار، ويقول له فيه: لقد بقيت إلى جانبك أمنع عنك حتى في الأوقات العصيبة. ولِزَاز: أي كنتُ ملازماً لخصمك لا أدعه يخالف أو يعاند، وأصل اللِّزاز: ما يترس به الباب. ولم أُعَرِّد: لم أحجم ولم أتراجع، والتَّعريد: الفِرار أو سرعة الذهاب في الهزيمة. وسَلَكُوك: أدخلوك يقال: سلكتُ الشيءَ في الشيءِ فانْسَلَك، أي أدخلته فيه فدخل، والعصيب: الشديد، وهو من عَصَبَ على وزَن ضَرَبَ، قال الراغب: يصح أن يكوم بمعنى فاعل، وأن يكون بمعنى مفعول، أي: يومٌ مجموع الأطراف، كقولهم: يومٌ ككِفَّةِ حابِلٍ وحلْقة خاتم.

(٢) بكر بن وائل قبيلة كانت تسكن العراق أو قريباً منه، وهو مثل الشاهد السابق عليه في أن اليوم العصيب هو الشديد، والمعنى: إذا لم تفعل ما ترضاه قبيلة بكر بن وائل فستلقى منهم بالعراق يوماً شديد الشّرّ. هذا ومثل الشاهدين السابقين قول كعب بن جُعَيل:

ويُلْبَّـونَ بِـالْحَضِيضِ فِئَـامٌ ... عـارفـاتٌ منْـهُ بِيَـوْمِ عَصِيـبِ

(٣) الْخَبَبُ: ضربٌ من العَدْوِ، تقول: خبَّ الفرسُ يَخُب(بالضم) خبّاً وخَبَباً وخَبِيباً إذا راوَحَ بين يديه ورجليه، أي: قام على إحداهما مرة وعلى الأخرى مرة، ويقال: أخَبَّ الفرسَ صاحبُه، وجاءُوا مُخِبِّين. والجَمْزُ: سَيْرٌ سريعٌ قريبٌ من العَدْوِ، وقد يكون فيه وثْبٌ، أما الهَرَعُ والهُرَاع والإهْرَاعُ فهو شدَّة السَّوق وسرعة العَدْوِ. تأمل هذا وهو عن اللسان والصحاح والتاج وتأمل تفرقة ابن عطية بين الأنواع الثلاثة، وانظر الهامش التالي.



وأَهرعه طمع أَو عدو أَو خوف ونحوه. والقراءَة المشهورة: ﴿يُهْرَعُونَ﴾ بضم الياء، أَي: يُهرعهم الطمع. وقرأَت فرقة: [يَهْرعون]﴾ بفتح الياءِ، من هَرَع، ومن هذه اللفظة قول مهلهل:

فَجَاءُوا يُهْرَعُونَ وهُمْ أُسَارَى تَقُودُهُمُ عَلَى رَغْمِ الأُنُوفِ(١)

وقوله: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أَي: كانت عادتهم إِتيان الفاحشة في الرجال، فجاءُوا إِلى الأَضياف لذلك، فقام إِليهم لوط مدافعاً وقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾. فقالت: فرقة: أَشار إِلى بنات نفسه وندبهم في هذه المقالة إِلى النكاح، وذلك على أَن كانت سُنَّتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة، أَو على أَن في ضمن كلامه أَن يؤمنوا، وقالت فرقة: إِنما كان الكلام مدافعة لم يُرد إِمضاءَه، رُوي هذا القول عن أَبي عبيدة، وهو ضعيف، وهذا كما يقال لمن يَنْهَى عن مال الغير: «الخنزير أَحَلُّ لك من هذا»، وهذا التنطع ليس من كلام الأَنبياء صلى الله عليهم وسلم، وقالت فرقة: أَشار بقوله: ﴿بَنَاتِى﴾ إِلى النساءِ جملة إِذْ نبيُّ القوم أَبٌ لهم، ويُقَوي هذا أَن في قراءَة ابن مسعود: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾(٢) «وهو أَبٌ لهم»، وأَشار أَيضاً لوط ـ في هذا التأويل ـ إِلى النكاح(٣).

وقرأَت فرقة هي الجمهور: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ﴾ برفع الراء على خبر الابتداءِ. وقرأَ الحسن، وعيسى بن عمر، ومحمد بن مروان، وسعيد بن جبير: [أَطْهَرَ] بالنصب، قال سيبويه: «هو لَحْنٌ»، وقال أَبو عمرو بن العلاءِ: احتبى فيه ابن مروان في

---

(١) الذي في اللسان أن الإهراع هو سرعة السير مع رِعْدَة أو خوف أو حرص أو غضب أو حُمَّى، واستشهد بهذه الآية، ونقل عن الكسائي قوله: الإهراع: إسراعٌ في رعدة، وقال المهلهل: فجاءُوا.. البيت. ونقل عن الليث قوله: يُهرعون وهم أُسارى: يساقون ويُعجلون. والرَّغْمُ: الذُّلَّة، وأصل الرَّغم: التراب، ويقال في الكناية عن الذُّلَّة والإكراه: رَغِمَ أنْفُه، أي: ذلَّ، وفي حديث معقل بن يسار: «رَغِمَ أنْفِي لأمر الله». والعرب تقول: أُهْرِعوا وهُرِعوا فهم مُهْرَعون ومهروعون.

(٢) من الآية (٦) من سورة الأحزاب.

(٣) أقوى الأراءِ في قول لوط: ﴿بَنَاتِى﴾ أنه على المجاز، وذلك لأمور كثيرة، منها أنه لم يكن له إلا بنتان على الحقيقة وهذا بلفظ الجمع، ومنها أنه لا يمكن أن يزوج ابنتيه من جميع قومه، ومنها أنه في منزلة الأب للقوم جميعاً وله أن يعبر عن هذه الأبوة، والنبي الكريم لا يريد بعرض البنات إلا الزواج، فهو يوجه أبناءَ قومه إلى الأسلوب الصحيح في التعامل مع الغريزة الجنسية.

لحنه[١] ، ووجهه ـ عند من قرأ بالنصب على الحال ـ بأن تكون ﴿ بَنَاتِى ﴾ ابتداءً ، و﴿ هُنَّ ﴾ خبره ، والجملة خبر ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهو إعراب مرويّ عن المبرد ، وذكره أبو الفتح ، وهو خطأٌ في معنى الآية ، وإنما قوم اللفظ فقط ، والمعنى إنما هو في قوله: ﴿ أَطْهَرُ ﴾ ، وذلك قصد أن يُخبر به ، فهي حالٌ لا يُستغنى عنها ، كما تقدم في قوله: ﴿ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ . والوجه أن يقال: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى ﴾ ابتداءٌ وخبر ، و﴿ هُنَّ ﴾ فصْلٌ ، و[أَطْهَرَ] حالٌ ، وإن كان شرط الفصل أن يكون بين معرفتين ليفصل الكلام من النعت إلى الخبر فمن حيث كان الخبر هنا في [أَطْهَرَ] ساغ القول بالفصل ، ولما لم يستسغ ذلك أبو عمرو ولا سيبويه لحنًا ابن مروان ، وما كان ليذهب عليهما ما ذكر أبو الفتح.

والضَّيْف: مصدر يوصف به الواحد والجماعة والمذكر والمؤنث[٢] . ثم وبَّخهم بقوله: ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ ، أي: يَزَعُكم ويردعكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ الآية. رُوي أن قوم لوط كانوا قد خطبوا بنات لوط فردّهم ، وكانت سُنَّتهم أن من رُدَّ في خطبة امرأة لا تحل له أبداً ، فلذلك قالوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبعد ألاَّ تكون هذه الخاصية ، فوجْه الكلام: إنا ليس لنا إلى بناتك تعلُّق ، ولا هُمْ قصدنا[٣] ، ولا لنا عادة نطلبها في ذلك ، وقولهم: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ إشارة إلى الأضياف ، فلما رأى استمرارهم في غيِّهم وغلبتهم وضعفه عنهم قال ـ على جهة التَّفجُّع والاستكانة ـ: ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً ﴾ ، و﴿ أَنَّ ﴾ في موضع رفع بفعل مضمر

---

(١) معنى (احتبى): أنه جلس في اللحن بكامله ، وتفسير البحر للكلمة أنه (تربَّع في اللحن).

(٢) وعليه قول الشاعر:

لا تَعْـدمـي الـدَّهْـرَ شِفَـارَ الْجَـازِرِ ... للضَّيْـفِ ، والضَّيْـفُ أحَـقُّ زائـرِ

وكلمة (ضَيْف) في ذلك مثل (عَدْل) ، تقول: رجلٌ عَدْلٌ وقوم عَدْلٌ ، ومثل قولك: رجال صَوْمٌ وفِطْرٌ وزَوْرٌ.

(٣) هكذا في جميع الأصول.



تقديره: لو اتفق أَو وقع ونحو هذا، وهذا مطردٌ في (أَنَّ) التابعة لـ (لَوْ)، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، وحذف مثل هذا أَبلغ لأَنه يدع السامع ينتهي إِلى أَبعد تخيلاته، والمعنى: لفعلتُ كذا وكذا.

وقرأَ الجمهور: ﴿أَوْ ءَاوِيٓ﴾ بسكون الياءِ، وقرأَ شيبة وأَبو جعفر: [أَوْ آوِيَ] بالنصب، التقدير: أَوْ أَن آوِيَ، فتكون (أَنْ) مع (آوي) بتأْويل المصدر، كما قالت مَيْسُون بنت بحدل:

ولُبْـــسُ عَبَـــاءَةٍ وتَقَـــرَّ عَيْنِـــي . . . . [1]

ويكون ترتيب الكلام: لو أَن لي بكم قوةً أَوْ أُوِيّاً[2]. وآوى معناه: لجأَ وانضوى. ومراد لوط عليه السلام بـ (الرُّكن): العشيرة المنَعة بالكثرة، وبلغ به قبيح فعلهم إِلى هذا مع علمه بما عند الله تبارك وتعالىٰ، فيروى أَن الملائكة وجَدَت عليه[3] حين قال هذه الكلمات وقالوا: إِن ركنك لشديد، وقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله لوطاً، لقد كان يأْوي إِلى ركن شديد، فالعجب منه لم استكان؟»[4].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

هذا نقد لأَن يلفظ لوط هذه الأَلفاظ، وإِلاَّ فحالة النبي ﷺ وقت طُرِح عليه سَلَى

---

(١) مَيْسون بنت بَحْدل الكلبية (نحو ٨٠ للهجرة) بدوية تزوجها معاوية فولدت له يزيد، ثم سمعها تنشد أبياتاً منها هذا البيت الذي ذكر ابن عطية بدايته، والبيت بتمامه:

ولُبْـــسُ عَبَـــاءَةٍ وتَقَـــرَّ عَيْنِـــي ... أَحَـــبُّ إِلـــيَّ مِـــن لُبْـــسِ الشُّفـــوفِ

ومن أبياتها علم أنها تفضل حياة البادية، وأن بيتاً من الشعر تخفق فيه الرياح أحبّ إليها من القصر المنيف الذي تعيش فيه فاستجاب لرغبتها وطلّقها. والشّفوف: الثياب الرقيقة. وكلمة (تقَرّ) منصوبة بأن مضمرة، والمصدر المؤول منها معطوف على (لبسُ). والبيت من شواهد النحويين، وهو في سيبويه ١ ـ٤٢٦، وابن عقيل ٢ ـ ١٢٧، والخزانة ٣ ـ ٥٩٢ ـ ٦٢١، ومغني اللبيب تحت أرقام ٤٧١، ٥١٦، ٦٧٠، ٨٦٤، ٩٤٨.

(٢) مصدر أوَى، وهو بضم الهمزة أو بكسرها مع كسر الواو وشد الياءِ.

(٣) يقال: وجَد عليه بمعنى: حزِنَ من أجله، وهذاا لمعنى يتفق مع قول الرسول ﷺ الآتي بعد ذلك: «يرحم الله لوطاً».

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة، وخرّجه الترمذي وزاد فيه: «ما بعث الله بعده نبياً إلا في ثروة من قومه»، ورواه ابن جرير من طرق مختلفة، عن الحسن، وعن أبي هريرة مع اختلاف في الروايات حيث تذكر فيه الجملة الأخيرة مرة، ولا تذكر فيه مرات.



الجزور[(١)] ، ومع أَهل الطائف[(٢)] ، وفي غير موطن تقتضي مقالة لوط ، لكن محمداً ﷺ لم ينطق بشيءٍ من ذلك عزامة منه ونجدة ، وإنما خشي لوط أَن يمهل الله أُولئك العصاة حتى يعصوه في الأَضياف كما أَمهلهم فيما قبل ذلك من معاصيهم فيمن مضى ، فتمنى ركناً من البشر يعاجلهم به وهو يعلم أَن الله تعالىٰ من وراءِ عقابهم ، وروي أَن رسول الله ﷺ قال: «لم يبعث الله تعالىٰ بعد لوط نبياً إِلاَّ في ثروة من قومه»[(٣)] ، أَي: في منعَة وعزة.

قوله عزَّ وجل:

﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ ﴾.

الضمير في ﴿ قَالُواْ ﴾ ضمير الملائكة ، ويروى أَن لوطاً لما غلبوه وهموا بكسر الباب وهو يمسكه قالت له الرُّسل: تنحَّ عن الباب فتنحَّى وانفتح الباب ، فضربهم جبريل عليه السلام بجناحه فطمس أَعينهم وعمُوا ، وانصرفوا على أَعقابهم يقولون:

---

(١) في الحديث أن المشركين جاءُوا بسَلَى جزور فطرحوه على النبي ﷺ وهويصلي ، قال ابن الأثير في كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر): «والسَّلَى: الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أُمه ملفوفاً فيه ، وقيل: هو في الماشية: السَّلَى ، وفي الناس: المشيمة ، والأول أشبه لأن المشيمة تخرج بعد الولد ، ولا يكون الولد فيها حين يخرج». والجَزُور: ما يصلح لأن يذبح من الإبل ، و(ولفظه أُنثى) ، يقال للبعير: هذه جزور سمينة ، والجمع: جَزَائر وجُزُر.

(٢) يشير إلى قصة خروجه ﷺ إلى الطائف ودعوته أهلها إلى الإسلام ، وما حدث له هناك ، فقد أغروا به سفهاءهم وصبيانهم يرجمونه بالحجارة حتى أدموا عقبيه الشريفين ، وانتهى به المطاف إلى البستان استراح بجواره ، ولجأ إلى الله يستعين به ويقول: «اللَّهُم إليك أَشكو ضعف قُوَّتي ، وقلَّة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربِّي وأنتَ ربّ المستضعفين ، إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُني؟ أم إلى عدوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْري؟ إنْ لم يكُن بك عليَّ غضبٌ فلا أُبَالي ، أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقت به الظُّلمات ، وصَلَح عليه أَمر الدنيا من أن ينزل عليَّ غضبُك ، أَو يَحلَّ بي سَخَطك ، لَكَ العُتبى حتى ترضى ، ولا حَوْل ولا قوَّة إلا بِك». لكن هذه المحنة لم تزد الرسول ﷺ إلا يقيناً وثباتاً على دعوته ، ومُضِياً حتى تحقق له النصر ، وتأمل قوله ﷺ في هذا الد عاء: «إنْ لم يكن بك علي غضبٌ فلا أُبالي» فهو لا يبالي بأي مشقَّة أوتعب ، وكل ما يريده هو رضى الله عزَّ وجلَّ.

(٣) هو جزءٌ من الحديث السابق ، ونصه كما رواه ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «فما بعث الله بعده من نبيّ إلا في ثروة من قومه». وفسَّر محمد بن عمرو أحد رواة الحديث الثروة بقوله: (والثروة: الكثرة والمَنَعة).



النَّجاءَ النَّجَاءَ فعند لوط قوم سحرة ، وتوعدوا لوطاً ففزع حينئذ من وعيدهم ، فحينئذ قالوا له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ فَأَمِنَ ، ذكر هذا النقاش. وفي تفسير غيره ما يتقضي أن قولهم: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ كان قبل طمس العيون. ثم أمروه بالسُّرى وأعلموه أن العذاب نازلٌ بالقوم ، فقال لهم لوط: فعذِّبوهم الساعة ، قالوا له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ ، أي: بهذا أمر الله ، ثم آنسوهُ في قلقه بقولهم: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

وقرأ نافع وابن كثير: [فَاسْرِ] من سَرَى يَسْرِي إذا سار في أثناءِ الليل ، وقرأ الباقون: ﴿فَأَسْرِ﴾ من أَسْرَى إذا سار أَوّل الليل ، والقِطْع: القِطْعة من الليل ، ويحتمل أن لوطاً أَسْرَى بأَهله من أَول الليل حتى جاوز البلد المقتلع ، ووقعت نجاته بِسَحَر فتجتمع هذه الآية مع قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾[1] ، وبيت النابغة جمع بين الفعلين في قوله:

أَسْـرَتْ عَلَيْـهِ مِـن الْجَـوْزَاءِ سَـارِيَـةٌ تُزْجِي الشَّمَالُ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرَدِ[2]

فذهب قوم إلى أن (سَرَى) و(أَسْرَى) بمعنى واحد ، واحتجوا بهذا البيت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأقول: إن البيت يحتمل أنهما لِمَعْنَيَيْنِ ، وذلك أَظهر عندي ، لأنه قصد وصف هذه الديمة وأنها ابتدأت من أول الليل وقت طلوع الجوزاءِ في الشتاءِ.

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو: [إلاَّ امْرَأَتُكَ] بالرفع على البدل من ﴿أَحَدٌ﴾ ، وهذا هو الأوجه إذا استُثني من منفيّ ، كقولك: «ما جاءَني أَحدٌ إلاَّ زيدٌ» ، وهذا هو استثناءٌ من الملْتَفِتِينَ ، وقرأ الباقون: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ بالنصب ، ورأت ذلك فرقة من النحاة الوجهَ في الاستثناءِ من منفيّ ، إذ الكلام المنفي في هذا مستقل بنفسه كالموجب فإذاً هو مثله في الاستقلال ، فحكمه حكمه في نصب المستثنى ، وتأولت فرقة ممن قرأ: ﴿إِلَّا

---

(١) من الآية (٣٤) من سورة القمر.

(٢) البيت من قصيدة النابغة المشهورة التي يقول في مطلعها:

يـا دارَ مَيَّـةَ بـالْعَلْيَـاءِ فـالسَّنَـدِ أَقْـوَتْ وطـالَ عَلَيْهَـا سـالِـفُ الأَبَـدِ

ورواية الديوان: (سَرَتْ) ، والجوزاءُ: منزلة من منازل الشمس الربيعية ، وهي من الأنواءِ إذا نشأ السحاب من جهتها كان شديد المطر. والسَّارية تسير باللَّيل ، وتُزْجي: تسوق وتدفع ، والبَرَدُ: الماءُ المُتَجَمِّدُ في قطع صغيرة تنزل من السحاب ، ويُسَمَّى حبّ الغمام وحبّ المُزْن.



﴿ٱمْرَأَتَكَ﴾ بالنصب أَن الاستثناءَ وقع من الأَهل كأَنه قال: فأَسْر بأَهلك إِلا امرأَتَكَ» ، وعلى هذا التأْويل لا يكون إِلا النصب ، وقال أَبو عبيد القاسم بنِ سلام: «لو كان الكلام: ولا يلتفتُ ـ برفع الفعل ـ لصَحَّ الرفع في قوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتُكَ﴾ ، ولكنه نهيٌ ، فإِذا اسْتُثْنِيَت «المرأَة» من ﴿أَحَدٌ﴾ وجب أَن تكون «المرأَة» أُبيح لها الالتفات فيفسد معنى الآية.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا الاعتراض حسَنٌ يلزم الاستثناءَ من [أَحد] رفَعْتَ التاءَ أَونصبْتَ ، والانفصال عنه يترتب بكلام حُكِي عن المبرد ، وهو أَن النَّهْيَ إِنما قُصد به لوط وحده ، والالتفات منفي عنهم بالمعنى ، أَي: لا تدع أَحداً منهم يلتفت ، وهذا كما تقول لرجل: «لا يقم من هؤلاءِ أَحد إِلاَّ زيدٌ» ، وأُولئِكَ لم يسمعوك ، فالمعنى: لا تدع أَحداًمن هؤلاءِ يقوم ، والقيام بالمعنى منفي عن المشار إِليهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وجملة هذا أَن لفظ الآية هو لفظ قولنا: «لا يقُمْ أَحدٌ إِلا زيدٌ» ، ونحن نحتاج أَن يكون معناها معنى قولنا: «لا يَقُوم أَحدٌ إِلا زيدٌ» ، وذلك اللفظ لا يرجع إِلى هذا المعنى إِلا بتقدير ما حكيناه عن المبرّد ، فتدبره. ويظهر من مذهب أَبي عبيد أَن الاستثناءَ إِنما هو «الأَهل»[1] ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «فأَسْر بأَهلِكَ بِقِطْعٍ من الَّيل إِلاَّ امرأَتك» ، وسقط قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾[2].

---

(١) قيل: إذا جعلنا الاستثناءَ من الأهل كان فيه إشكالٌ من جهة المعنى ، إذ يلزم ألا يكون أُسْرِيَ بها ، ولما التفتت دلَّ ذلك على أنها قد سرت معهم قطعاً ، وأُجيب بأنها لم يُسْرَ بها ولكنها تبعتهم ثم التفتت فأصابها الهلاك.

(٢) قال بعض العلماءِ: الذي يظهر أن الاستثناءَ على كلتا القراءَتين منقطع لم يُقصد به إخراجها من المأمور بالإسراء بهم ، ولا من المنْهِيِّين عن الالتفات ، ولكن استُؤْنف الإخبار عنها ، فالمعنى: (لكن امرأتك يجري لها كذا وكذا) ، ويؤيِّد هذا المعنى أن مثل هذه الآية جاءَت في سورة (الحِجْر) وليس فيها استثناءٌ الْبَتَّة ، قال تعالىٰ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥] ـ فلم تقع العناية في ذلك إلا بذكر من أنجاهم الله تعالىٰ ، فجاءَ شرح حال امرأة لوط في سورة (هود) تَبَعاً لا مقصوداً مما تقدم ، وإذا اتَّضَح هذا المعنى عُلم أن القراءَتين ورَدَتا على ما تقتضيه العربية في الاستثناءِ المنقطع ، ففيه النصب والرفع ، فالنَّصب لُغَة أهل الحجاز وعليه الأكثر ، والرفع=



والظاهر في ﴿يَلْتَفِتْ﴾ أنها من التفات البصر ، وقالت فرقة: هي من: لَفَتَ الشَّيءَ يلفته إذا ثَنَاهُ ولَواه ، فمعناها: «وَلاَ يَتَثَبَّط» ، وهذا شاذ مع صحته ، وفي كتاب الزهراوي أن المعنى: «وَلا يَلْتفت أَحدٌ إِلى ما خلف بل يخرج مسرعاً مع لوط عليه السلام» ، وروي أَن امرأَة لوط لما سمعت الهدة ردّت بصرها وقالت: واقوماه ، فأَصابها حجرٌ فقتلها. وقرأَت فرقة: [الصُّبُحُ] بضم الباءِ.

قوله عزَّ وجلَّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

رُوي أَن جبريل عليه السلام أَدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط واقْتلعها ورفعها حتى سمع أَهل السماءِ الدنيا صُراخ الديكة ونُباح الكلاب ، ثم أَرسلها معكوسة وأَتبعهم الحجارة من السماءِ. ورُوي أَن جبريل عليه السلام أَخذهم بخوافي جناحه[1]. ويُرْوى

= لبني تميم وعليه اثنان من القُرَّاءِ. ا هـ. ولكن أبا حيان لم يقبل هذا الكلام ، وردَّ عليه بأنه لا تحقيق فيه ، فإنه إذا لم يُقصد إخراجُها من المأمور بالإسراءِ بهم ، ولا من المنْهِيِّين عن الالتفات وجُعل استثناءً منقطعاً كان من الاستثناءِ المنقطع الذي لم يتوجه عليه العامل بحالٍ ، وهذا النوع من الاستثناءِ المنقطع يجب فيه النصب بإجماع العرب ، وليس فيه النصب والرفع باعتبار اللغتين ، وإنما هذا في الاستثناءِ المنقطع الذي يمكن توجّه العامل عليه ، وفي كلا النوعين من الاستثناءِ المنقطع يكون ما بعد (إلا) من غير الجنس المستثنى منه ، وكونه هنا جاز فيه اللغتان دليل على أنه مما يمكن أن يتوجَّه عليه العامل ، وهو قد فرض أنه لم يُقْصد بالاستثناءِ إخراجها من المأمور بالإِسراءِ بهم ولا من المنْهِيِّين عن الالتفات ، فكان يجب فيه النصب إذ ذاك قولاً واحداً. ا هـ.

(١) الخَوَافي: ريشات أربع إذا ضمَّ الطائر جناحيه خَفِيَتْ ، وهي بَعْدَ المناكب ، والواحدة: خافية: قال في اللسان: «وفي الحديث: (إن مدينة قوم لوط حملها جبريل عليه السلام على خَوَافي جناحه) ، قال الأصمعي: هي الريش الصغار التي في جناح الطائر ، ضدُّ القوائم ، وفي حديث أبي سفيان: ومعي خَنْجر مثل خافية النَّسْر» ا هـ. وقول الأصمعي يذكرنا بقول رؤبة:

خُلِقْتُ مِنْ جناحِكَ الغُدَافي ... مِنَ القُدَامَى لا مِنَ الخَوَافي

وبقول الشاعر:

فَإِنَّ الخَوَافي قُوَّةٌ للقَوَادِمِ

وفي المثل:

مَا جُعل القَوَادم كَالْخَوَافي



أَن مدينة منها نُجِّيت كانت مختصة بلوطٍ عليه السلام يقال لها: زُغَر(١).

و﴿ أَمۡرُنَا ﴾ في هذه الآية يحتمل أَن يكون مصدراً من: أَمَرَ، ويكون في الكلام حذف مضاف تقديره: مُقْتضي أَمرنا. ويحتمل أَن يكون واحد الأُمور. والضمير في قوله ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ للمُدُن، وأُجْري ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا﴾ كذلك، والمراد على أَهلها، ورُوي أَن الحجارة استوفت منهم من كانوا خارج مدنهم حتى قتلتهم أَجمعين، ورُوي أَنه كان منهم في الحَرَم رجل فبقي حجره معلقاً في الهواءِ حتى خرج من الحرم فقتله الحَجَر، «و(أَمْطَرَ) أَبداً إِنما يستعمل في المكروه، و(مطر) يستعمل في المحبوب»، هذا قول أَبي عبيدة.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وليس كذلك، وقوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ ﴾(٢) يردُّ هذا القول، لأَنهم إِنما ظنُّوه معتاد الرحمة.

وقوله: ﴿ مِّن سِجِّيلٖ ﴾ اختلف فيه، فقال ابن زيد: ﴿ سِجِّيلٖ ﴾: اسم السماءِ الدنيا.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف، ويردُّه وصفه بـ ﴿ مَّنضُودٖ ﴾. وقالت فرقة: هو مأْخوذ من لفظ السِّجِلِّ(٣)، أَي: هي من أَمْر كتب عليهم.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد، وقالت فرقة: هو مأْخوذٌ من السَّجْلِ إِذا أُرسل الشيْءُ كما يُرسل

(١) في (التّاج): وزُغَر كزُفر أبو قبيلة.. وقيل: اسم ابنة لوط عليه السلام، ومنه زُغَرَةُ بالشام لأنها نزلت بها فسميت باسمها، فهي بمشارف الشام، قال الأزهري: وإيَّاها عنى أبو داود في قوله:

كَكِنَانَةِ الزُّغَرِيِّ غَشَّاهَا مِنَ الذَّهَبِ الدُّلَامِص

(٢) من الآية (٢٤) من سورة الأحقاف.

(٣) قال في الصحاح: (السِّجِلُّ: الصَّكُّ، وقد سَجَّل الحاكم تَسْجيلا). وفي اللسان: (وقيل: من سِجِّيل: كقولك من سِجِلٍ أيْ مما كُتب لهم). وفي المعجم الوسيط: (سَجَّل: كتب في السِّجِلّ، وسَجَّل القاضي: حَكَمَ وقضى وأثبت حكمه في السِّجِلّ). فالسِّجِلُّ هو الديوان الذي تُسَجَّل فيه الأحكام والأشياءُ وتُثْبت.

السَّجْلُ ، كما تقول: قالها مُسْجَلَةً[(١)].

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف. وقالت فرقة: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ معناه: من جهنم ، لأَنه يقال: «سِجِّيلٌ وسِجِّين» ، حُفظ فيها بدل النون لامٌ ، كما قالوا: أُصَيْلالٌ وأُصَيْلانٌ[(٢)]. وقالت فرقة: [سِجِّيلٌ] معناه: شديد ، وأَنشد الطبري في ذلك:

. . . . ضَرْباً تَوَاصَى بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّيلاً[(٣)]

والبيت في قصيدة نونية: سِجِّيناً. وقالت فرقة: [سِجِّيلٌ] لفظة غير عربية عُبِّر عنها بالعربية وأَصلها: «سَنْجٌ وَجِل»[(٤)] ، وقيل غير هذا في أَصلها ، ومعنى اللفظة: ماءٌ وطينٌ ، هذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وابن جُبير ، وعكرمة ، والسدي ، وغيرهم ، وذهبت هذه الفرقة إِلى أَن الحجارة التي رُمُوا بها كانت كالآجُرّ المطبوخ[(٥)] ، أَصلها من طين قد تَحَجَّر ، نصّ عليه الحسن ، وهذا قول يشبه ، وهو الصواب الذي عليه الجمهور. وقالت فرقة: معنى ﴿سِجِّيلٍ﴾: حجر مخلوطٌ بِطين ، أَي حَجَر وطِينٌ ، ويمكن أَن يُرَدّ هذا إِلى الذي قبله ، لأَن الآجُرّ وما جرى مجراه يمكن أَن يقال فيه: حَجَر وطين ، لأَنه قد أَخذ من كل واحد بحظِّه ، وهي من طين من

---

(١) أي: مُرْسَلَة ، هذا والسَّجْلُ هو الدَّلْوُ الضخمة المملوءَة ماءً ، مذكر ، وجمعه: سِجَالٌ وسُجولٌ ، وإذا كان فارغاً لا يقال له سَجْلٌ ، وإنما هو دَلْوٌ. (اللسان).

(٢) من ذلك قول النابغة:

وقَفْتُ فيها أُصَيْلاناً أُسائِلُها عَيَّتْ جواباً وما بالرَّبع مِنْ أحَدِ

وأُصيلان: تصغير أصيل بزيادة نون على غير قياس ، والتصغير للتحبيب ، وقد رُوي البيت باللام: أُصيْلالا.

(٣) هذا عجز بيت لابن مقبل ، قال ذلك في (اللسان: سجل) ، والبيت بتمامه على رواية اللسان:

وَرَجْلَةٍ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ عَنْ عُرُضٍ ضَرْباً تَوَاصَتْ بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّينا

قال: وسِجِّيل وسِجِّين بمعنى واحد. وَرَوَى عن أبي عُبَيْدَة قوله مستشهداً بهذا البيت: (من سجِّيل ، تأويلُه: كثيرةٌ شديدةٌ) ، ورُوي البيت في القرطبي: (يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً).

(٤) قال في القرطبي: (قالت طائفة منهم ابن عباس ، وسعيد بن جُبير ، وابن إسحٰق: إن سجيلا لفظة غير عربية عُرِّبت ، أصلها: «سَنْجٌ وجيل» ، ويقال: «سَنْكٌ وَكِيل» بالكاف موضع الجيم ، هما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسماً واحداً).

(٥) الآجُرّ: الطين المطبوخ ، يبنى به ، والواحدة: أُجُرَّة ، وآجُرَّةٌ ، وآجِرَّةٌ. قال أبو عمرو: فارسيٌّ مَعَرَّب ، (اللسان).



حيث هو أَصلها ، ومن حَجَر من حيث صلبت.

و﴿ مَّنضُودٍ ﴾ معناه: بعضه فوق بعض ، أَي تتَابَع ، وهي صفة لـ ﴿ سِجِّيلٍ ﴾ ، وقال الربيع بن أَنس: نضده: أَنه في السماءِ منضود مُعَدّ بعضه فوق بعض.

و﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ معناه: معلمة بعلامة ، فقال عكرمة وقتادة: إنه كان فيها بياض وحمرة ، ويُحكى أَنه كان في كل حجر اسم صاحبه ، وهذه اللفظة هي من سوَّم إذا أَعلم ، ومنه قول النبي ﷺ يوم بدر: «سَوِّمُوا فقد سَوَّمت الملائكة» ، ويحتمل أَن تكون ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ ها هنا بمعنى: مُرْسَلَة ، وسَوْمُهَا من الهبوط. وقوله: ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ إشارة إلى الحجارة. و﴿ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، قيل: يعني قريشاً ، وقيل: يريد عموم كل من اتصف بالظلم ، وهذا هو الأَصح لأَنه رُوي عن النبي ﷺ أَنه قال: «سيَكُونُ في أُمتي خَسْف ومَسْخ وقَذْف بالحِجَارة»[1]. وقد ورد أَيضاً حديث: «إِنَّ هذه الأُمة بِمَنْجَاةٍ من ذلك». وقيل: يعني بـ ﴿ هِيَ ﴾ المدن ، ويكون المعنى الإِعلام بأَن هذه البلاد قريبة من مكة ، والأَول أَبين ، ورُوي أَن هذه البلاد كانت بين المدينة والشام ، وحكى الطبري في تسمية هذه المدن: صنعة ، وصعوة ، وعثرة ، ودوما ، وسدوم[2] ، وسدوم هي القرية العظمى.

قوله عزّ وجلّ:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾.

التقدير: وإلى مدين أَرسلنا أَخاهم شُعيباً ، واختلف في لفظة ﴿ مَدْيَنَ ﴾ ـ فقيل: هي

---

(١) رواه الترمذي في الفتن ، وأبو داود في الملاحم ، وابن ماجه في الفتن ، والإمام أحمد في مسنده (٢ ـ ١٦٣) ، ولفظه في المسند عن عبد الله بن عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأيتم أُمَّتي تهاب الظالم أن تقول له: أنت ظالم ، فقد تودع منهم» ، وقال رسول الله ﷺ: «يكون في أُمَّتي خَسْفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ».

(٢) اختلفت الأصول في كتابة هذه الأسماء ، وقد آثرنا اختيار ما يتفق مع ما في الطبري حيث إن ابن عطية نقل الخبر عن الطبري. وآثار هذه القرى معروفة الآن بالأغوار في الأرْدُن.



بُقْعة، فالتقدير على هذا: «وإلى أَهل مدين»، كما قال: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[١]، وقيل: كان هذا القطر في ناحية الشام، وقيل: ﴿مَدْيَنَ﴾ اسم رجل كانت القبيلة من ولده فسُمِّيت باسمه، و«مَدْيَن» لا ينصرف في الوجهين، حكى النقاش أَن «مَدْيَن» هو ولد إِبراهيم الخليل لصلبه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد.

وقد قيل: إن ﴿شُعَيْبًا﴾ عربي، فكيف يجتمع هذا وليس للعرب اتصال بإِبراهيم إِلاَّمن جهة إِسماعيل فقط؟ ودعاءُ شعيب إِلى عبادة الله يقتضي أَنهم كانوا يعبدون الأَوثان، وذلك بَيّنٌ من قولهم فيما بعد، وكُفْرُهم هو الذي استوجبوا به العذاب لا معاصيهم، فإِن الله لم يعذب قطُّ أُمّة إِلاَّ بالكفر، فإِن انضافت إِلى ذلك معصية كانت تابعة، وأَعني بالعذاب عذاب الاستئصال العام. وكانت معصية هذه الأُمة الشنيعة أَنهم كانوا تواطؤوا أَن يأخذوا ممن يرد عليهم من غيرهم وافياً ويُعطوا ناقصاً في وزنهم وكيْلهم، فنهاهم شُعيب بوحي من الله تعالىٰ عن ذلك، ويظهر من كتاب الزجّاج أَنهم كانوا تراضوا بينهم بأن يبخس بعضُهم بعضاً.

وقوله: ﴿بِخَيْرٍ﴾ قال ابن عباس: معناه: في رخص من الأَسعار. و«عذاب اليوم المحيط» هو حلول الغلاءِ المُهْلِك، وينظر هذا التأويل إِلى قول النبي ﷺ: «ما نقص قومٌ المكيال والميزان إِلاَّ ارتفع عنهم الرزق»[٢]. وقيل: قوله: ﴿بِخَيْرٍ﴾ عامٌّ في جميع نعم الله تعالىٰ، «وعذاب اليوم» هو الهلاك الذي حلَّ بهم في آخر. وجميع ما قيل في لفظ «خَيْر» منحصر فيما قلناه. وَوُصِفَ اليوم بالإِحاطة وهي من صفة العذاب على جهة التجوّز، إِذ كان العذاب في اليوم، وقد يصح أَن يوصف اليوم بالإِحاطة على تقدير: محيط شرُّه، ونحو هذا.

وكرر عليهم الوصية في «الكيل والوزن» تأكيداً وبياناً وعظة، لأَن ﴿وَلَا تَنقُصُوا﴾ هو ﴿أَوْفُوا﴾ بعينه لكنهما منحيان إِلى معنى واحد.

---

(١) من الآية (٨٢) من سورة يوسف.
(٢) رواه في الموطأ، ولفظه فيه: «ولا نَقَص قومٌ المكيال والميزان إِلا قُطع عنهم الرزق».



قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وحدثني أَبي رحمه الله أنه سمع أَبا الفضل بن الجوهري على المنبر بمصر يعظ الناس في الكيل والوزن فقال: «اعتبروا في أَن الإِنسان إِذا رفع يده بالميزان فامتدت أَصابعه الثلاثة والتقى الإِبهام والسبابة على ناصية الميزان جاءَ من شكل أَصابعه المكتوبة، فكأَن الميزان يقول: الله الله».

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا وعظ مليح مُذكِّر.

و﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: العدلُ ونحوه، و«الْبَخس»: النقصان، و﴿تَعْثَوْا﴾ معناه: تَسْعَون في فساد، وكرر ﴿مُفْسِدِينَ﴾ على جهة التأْكيد، يقال: عَثَا يَعْثُو أَو عَثِى يَعْثَي، وعَثَّ ويَعُثُّ، وعاثَ يَعيثُ إِذا أَفسد ونحوه من المعنى. والعُثَّة: الدودة التي تفسد ثياب الصوف(١).

وقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: معناه: الذي يُبقي الله لكم من أَموالكم بعد توفيتكم الكيل والوزن خيرٌ لكم مما تستكثرون أَنتم به على غير وجهه.

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله:

وهذا تفسير يليق بلفظ الآية.

وقال مجاهد: معناه: طاعة الله: وقال ابن عباس أَيضاً: معناه: رزق الله. وهذا كله لا يُعطيه لفظ الآية، وإِنما المعنى عندي: «إِبقاءُ الله عليكم إِن أَطعتم». وقرأَ إِسماعيل بن جعفر عن أَهل المدينة بتخفيف الياءِ، وهي لغة.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط في أَن تكون البقية خيراً لهم، وأَما مع الكفر فلا خير لهم في شيءٍ من الأَعمال، وجواب هذا الشرط متقدم.

و«الحفيظ»: المراقب الذي يحفظ أَحوال من يراقب، والمعنى: إِنما أَنا مُبلِّغ، والحفيظ المحاسب هو الذي يجازيكم بالأَعمال.

---

(١) في (اللسان): العُثَّة: السُّوسة أو الأَرَضة التي تلحس الصوف، والجمع: عُثٌّ وعُثَثٌ.



فهرس الموضوعات



تفسير سورة الأنفال




المسيّهم

تفسير سورة التوبة



تفسير سورة يونس عليه السلام

تفسير سورة هود عليه السلام

المصارف الوقفية

انطلاقاً من النهضة الوقفية المعاصرة في العالم الإسلامي ورغبة في حسن توجيه العمل الخيري والوقفي سعت إدارة الأوقاف بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر إلى توسيع نطاق الوقف وتعدد مصارفه من خلال إنشاء "**المصارف الوقفية**" المتضمنة للمصارف الستة حيث صدر القرار الوزاري رقم (٢٩) سنة ١٩٩٤ بشأن إنشاء أقسام في الوحدات الإدرابة وتعيين اختصاصاتها والذي تضمن إنشاء "**قسم تنمية الوقف ومصارفه**" الذي كان في حينه يحتضن "**المصارف الوقفية**" التي أصبحت قسماً مستقلاً في فترة لاحقة وذلك تحقيقاً لاختصاصاته وأهدافه حيث اشتملت المصارف على مختلف نواحي الحياة الثقافية والتربوية والصحية والاجتماعية ...الخ، وذلك تشجيعاً لأهل الخير وإرشاداً لهم لوقف أموالهم على المشاريع الخيرية التنموية وتنظيماً لقنوات الصرف والإنفاق المساهمة في بناء المجتمع الإسلامي الحضاري.

اختصاصات قسم المصارف الوقفية:

* إعداد الدراسات اللازمة للمشاريع الوقفية الخيرية وتصميمها بشكل يلبي احتياجات المجتمع ويحقق شروط الواقفين وفق الضوابط الشرعية.
* دراسة المشاريع الخيرية المقدمة من الجهات الأخرى وصياغتها بما يتناسب مع أهداف المصارف الوقفية.
* عرض المشاريع الوقفية الخيرية على الراغبين في الوقف أو التبرع واستقبالهم واتخاذ الوسائل الكفيلة بالتواصل معهم.
* التعريف بالوقف والعمل على رفع مستوى الوعي الوقفي لدى أفراد المجمع ومؤسساته.
* تنفيذ ومتابعة المشاريع الوقفية الخيرية والسعي لتطويرها.

وأما المصارف الستة فهي:

١- المصرف الوقفي لخدمة القرآن والسنة.
٢- المصرف الوقفي لرعاية المساجد.
٣- المصرف الوقفي لرعاية الأسرة والطفولة.
٤- المصرف الوقفي للتنمية العلمية والثقافية.
٥- المصرف الوقفي للرعاية الصحية.
٦- المصرف الوقفي للبر والتقوى.

